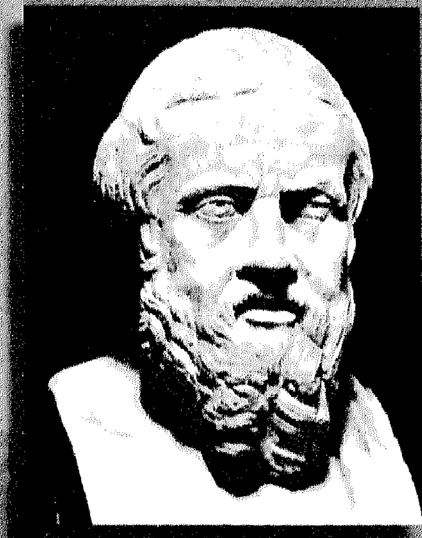
اصدارات المجمع الثقافي



تاريخ هيرودوت

ترجمة



عبد الإله الملاح

تاريخ هيرودوت

ترجمة

عبد الإله الملاح

مراجعة

د. أحمد السقاف

د . حمد بن صراي

٩٣٨
هـ ي ت ا
هيرودوت، ٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م .
تاريخ هيرودوت / ترجمة عبد الإله الملاح؛ مراجعة: احمد السقاف و حمد بن صراي.- أبوظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١.
٧٣٩ ص .
يشتمل على كشافات .
١- اليونان - تاريخ قديم.
٢- هيرودوت، ٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م.
أ- عبد الإله الملاح، مترجم.
ب- حمد بن صراي، مراجع.
ج- العنوان.

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: ٢٢٨٠- هاتف: ٦٢١٥٣٠٠
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

ترجم هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي



تاریخ هیرودوت

كلمة المجمع الثقافي

بكل فخر واعتزاز يقدم المجمع الثقافي إلى قراء العربية كتابا ليس كغيره من الكتب، وليس أحد المؤلفات الكلاسيكية الهامة فقط؛ بل هو كتاب يعد نقطة مضيئة في مسيرة الثقافة الإنسانية، وهذا الكتاب الجليل «تاريخ هيرودوت » - بما يحويه من استقصاء وغزارة عن أهم الشعوب التي عاصرها وسمع بها - ينبئنا أنه ثمرة جهود حثيثة من التأليف التاريخي قد انقرضت مقدماتها، ولم يبق منها إلا هذا السفر العظيم الذي يتشرف المجمع الثقافي بتقديمه إلى القراء، باكورةً منه في محاولة تقديم أهم المؤلفات التاريخية الكلاسيكية.

قام الأستاذ عبد الإله الملاح، مشكوراً ، بترجمة هذا الكتاب ترجمة رصينة، وإيمانا من المجمع الثقافي بضرورة عرض هذا الكتاب على أهل الاختصاص قبل طبعه تم عرضه على باحثين جليلين في تاريخ العرب القديم هما الدكتور أحمد السقاف والدكتور حمد بن صراي، اللذين كانت لمساتهما ظاهرة على الكتاب ، وكانت ملاحظتهما من الأهمية بمكان، وقد قدم الدكتور حمد بن صراي بمقدمة عن هيرودوت وكتابه، ، كما قمنا بإثبات حواشي الدكتور أحمد السقاف في آخر الكتاب.

نشكر الأساتذة الكرام على جهودهم في الترجمة والمراجعة، والشكر موصول لمن كانت له يد في إظهار هذا الكتاب النفيس للعيان.

والفضل لله أولاً وآخراً..

مقدمة الترجمة العربية

يجد القارئ بين يديه الترجمة الكاملة لكتاب هيرودوت "التواريخ" أو "الاستقصاء" وقد آثرنا تقديمه بالعنوان الذي عرف به في كتب المؤرخين "تاريخ هيرودوت" منقولا عن الترجمة الإنكليزية التي أنجزها جورج رولنسون بطبعتها المنقحة الصادرة عام ١٩٣٦، وبالرغم من صدور هذا الكتاب في ترجمات عديدة منذ ذلك التاريخ، فقد وقع الاختيار على هذه الترجمة لما تتمتع به من الدقة ووضوح العبارة واقتراب النص من ذوق القارئ المعاصر.

لكن ترجمة رولنسون لم تخل، من مصاعب. والسبب في ذلك أن المترجم اعتمد الترجمة اللاتينية ليأخذ عنها، فثبت مصطلحاتها كما وردت، دون أن يحيلها إلى أصلها الإغريقي، فجاءت تحمل أسماء آلهة الإغريق والمصريين بصيغة موحدة كما عرفت عند الرومان. وفي ذلك ما فيه من أسباب الالتباس والحيرة للقارئ. فقمنا بتثبيت الأسماء الإغريقية للآلهة بدلا من الأسماء الرومانية. أما بالنسبة إلى أسماء آلهة المصريين، فقد وضعناها بين قوسين إلى جانب ما يقابلها من أسماء آلهة الإغريق، وأثبتنا أسماء الفصول، وقد أراد هيرودوت أن يشير بها إلى ربات الفنون والعلوم، التسع في الأساطير الإغريقية.

ولابد لي من الاعتراف بالفضل الأعظم للمجمع الثقافي بدولة الإمارات العربية المتحدة بإتاحته لي فرصة نقل هذا الأثر الإنساني الضخم إلى العربية، وهو فضل يمتد إلى الكتاب العربي والمثقفين العرب، وقد افتقدوه، حتى التفت إليه القائمون على المجمع الثقافي وشاؤوا أن يسدوا هذا النقص الكبير الذي يعتور المكتبة العربية بترجمته وتوفيره للقراء العرب، بعد طول انتظار.

تاريخ هيرودوت

ولقد علمنا من هذا "التاريخ" ما يفيد بأن صاحبه كان واسع الأسفار وعرف الكثير من الأصقاع التي تحيط بالبحر الأبيض المتوسط، وحملته رحلاته على التوغل في أنحاء مصر، حتى بلغ شلال النيل الأول جنوباً، والبحر الأسود شمالاً، ليستقصي آثار السكيث، وجزر البيلوبونيز، وجنوب إيطاليا، كذلك تعرف إلى معابد الفينيقيين والمعالم البارزة في فلسطين، وزار موقعاً دارت فيه إحدى المعارك الكبرى في منطقة دلتا النيل، كما زار سهل تسالية. كذلك نستدل من "التاريخ" أنه زار بابل في الشرق وكيرينة برقة (ليبيا) في الغرب، وتفقد المعابد في طيبة، وشاهد ما حوته المعابد في دلفي من الكنوز والتحف المنذورة.

ونطّلع عنده، بعد، على وصف الأصقاع من أثينا وجزر الإغريق وآسيا الصغرى، وجنوب إيطاليا، مما هو شاهد على معرفة دقيقة بجغرافية تلك البلدان. ولاريب في أن الرجل كان على قدر عظيم من الحيوية والنشاط حتى أمكن له أن يقوم بهذه الأسفار، وأنه كان على جانب من الثراء كذلك فأمكن له أن ينفق على رحلاته مصاريف باهظة التكاليف، وإن اختلفت وسائل النقل، ليأتي لنا بهذا "التاريخ".

وكان هيرودوت يروي "التاريخ" كما يروي الراوي حكاياته لجمهور يجهل القراءة، ولا وسيلة لدية للمعرفة سوى سماع الروايات أو مشاهدتها تمثل أمامه في المناسبات أو الاحتفالات الدينية، أو يقرأها على جماعة صغيرة من المتعلمين المثقفين. وهناك في "التاريخ" ما قد يوحي بالنقص فيما بلغنا منه إذ إن ثمة إشارتين في هذا الكتاب إلى تاريخ بلاد الآشوريين وأخرى إلى اعتقال خائن من الإغريق، ولا نجد هيرودوت يتوسع في أي منهما. ولكن هناك من يفسر ذلك بالسهو والنسيان في خضم عمل كبير، ووسط مشقة الكتابة على لفائف بالغة الطول، وما في ذلك من صعوبة استعادة ما كان قد كتبه المؤرخ لمراجعته

واستئناف الرواية بعد استطراد طويل.

كانت فترة الثلاثين سنة، أي مابين سنة ٤٥٠ و ٤٢٠ ق.م الحقبة الخصبة من حياته، إذ انشغل فيها باستقصاء أخبار الأمم وأحوالها والحروب التي خاضتها وتدوين هذا التاريخ، وكان ذلك عهداً من النشاط الفكري العظيم الذي عرفه القرن الخامس قبل الميلاد في العديد من حقول المعرفة، كما كان العهد الذي تصاعد فيه الصراع بين إسبارطة وأثينا، وكانتا يومئذ القوتين العظميين في بلاد الإغريق، بعد تحالفهما لدحر الفرس وكسر هجومهم على الأرض الإغريقية.

إن هذا الجو من النشاط الفكري والصراعات الإنسانية، أو بتأثير منه، ما حمل هيرودوت، على نحو ما لاحظ أحد كبار شارحيه، على تدوين تاريخه، لاستقراء أحداث الماضي في زمن شاع فيه التوتر وازداد الصراع، متقصياً الأحداث التي جمعت بين القوى الكبرى وحملت العديد من دول الإغريق على الاتحاد، ولو إلى حين. إن العالم الذي استوعبه "التاريخ" واسع فسيح مترامي الأطراف، يشمل العالم المعروف آنذاك، وما وراءه. والأقوام فيه على أنواع وأشكال،بعضها غاب في أعماق التاريخ ولم يخلف من بعده إلا ما يستدل على وجوده ذات يوم كالسكيثيين. وقد رصد تلك الأقوام وعرض تاريخها وأعمالها وآثارها.

والقارئ العربي مدين لهيرودوت إذ اهتم بتوثيق تاريخ العرب وبيّن أن أصل الفينقيين من منطقة الخليج العربي وأنهم انتقلوا إلى الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والذي يصفه في تاريخه بأنه يشكل الحد البحري لبلاد العرب، كما وصف أعمالهم ومهاراتهم ومعابدهم، وبيّن بأوضح عبارة أنهم قد علموا الإغريق الأبجدية. بالإضافة إلى ذلك فإن هيرودوت يصف لنا بلاد العرب وجغرافيتها وحدودها بين الخليج العربي والبحر الأحمر الحالي الذي كان يسمى على أيامه خليج العرب، كما يتحدث عن ملك العرب، ويبدي إعجابه الشديد بالعرب والأخلاق العربية وينوه بأن التاريخ لم يعرف أمة تقدس العهود والمواثيق مثل العرب، وأن العرب هم الأمة الوحيدة التي لم ترضخ للفرس، بل عقدت معهم التحالفات على قدم المساواة، وقد وصل إعجابه بالعرب وبلادهم إلى درجة أنه

يصرح بأن بلاد العرب كانت تفوح بعطر سماوي.

ومما يستلفت الانتباه أن هيرودوت كان حريصاً علي أن يكون تاريخه مدونة تحفظ مآثر البشرية، وتنال فيه الأعمال العظيمة حظها من الذكر، للإغريق والبرابرة (وهو يقصد بهم الأجانب من غير الإغريق). وهذه الإنجازات والمآثر والأعمال لاتقتصر على وصف الحروب والمعارك و حسب، وإنما تمتد عند أبي التاريخ لتشمل النصب والمعالم والمعابد ومأأتى به الناس من المراتب كافة من أعمال جديرة بالتخليد، ولو كانت هذه الأعمال من صنع الطبيعة، مثل فيضان النيل ونشوء منطقة دلتا النيل بتراكم الطمي. وقد وجدناه لذلك يعنى برسم جغرافية مصر ووصف المصريين، مثلاً، ويفيض في وصف طقوسهم، ويحدد مواقع معابدهم الرئيسة، ويعقد المقارنات بينهم وبين الإغريق ملاحظاً تقدم المصريين عليهم في الحياة الاجتماعية والروحية وأن الإغريق قد أخذوا الديانة والآلهة عن المصريين، كما يقدم مثل هذا الوصف عن الفرس ويعقد مثل هذه المقارنات بين نظام الحكم عند هؤلاء ومثيله عند الإغريق، ويبين نقاط القوة والضعف عند الجانبين، ويتوسع في هذا الوصف إلى أبعد حد، وليس هذا بالأمر الذي يدعو للاستغراب لأن شاغله الأساسي هو الحرب التي دارت بينهما، ومايمكن أن يستدل منها واتساع مداها و مااستغرقته من زمن طويل واجتذبت إليها من مختلف الأقوام وخرجت به من أنظمة وأسلحة في القتال ، ليكوّن صورة عن موقع الإغريق في العالم المعروف يومئذ. وهكذا وجدنا المؤرخ يخرج عن التاريخ المألوف حتى عهده، وهو الذي يقدمه أصحاب الملاحم، فيتوسل بكل منهج في النظر إلى موضوعه من بحوث في المجتمع على اتساعه كما في العائلة الصغيرة والعادات والتقاليد السائدة بين أبناء الشعوب التي يعرض لها وأساليب العيش عندهم، وإن كان قد خص الإغريق بعنايته بأن جعلهم معياراً ومرجعاً في بحثه، وقد أفرد لهم المجال الأعظم من بحثه، أما إذا تناول بلاداً أخرى فإنما يكون ذلك باختصار، باستثناء مصر التي كرس لها

كتابا بكامله، ومرد ذلك أن الإغريق كانوا أبداً يسحرون بمصر وثرائها وأوابدها ونهرها العظيم وقدم حضارتها.

وقد توسع هيرودوت في استقصاء أخبار السكيثيين بعد المصريين، فأورد أخبار هذا الشعب الغريب ووصف أحواله وتنظيم مجتمعه وطبيعة أرضه، فجلا بذلك الكثير من الغموض الذي يحيط به، ولولاه لضاعت أخباره بعد أن اندثر. ولكن اهتمامه بهذا الشعب إنما كان مصدره اختلاف نهجه في الحياة عن نهج الإغريق، ولم يقصد الانشغال به إلا لإبراز المناحي الحضارية الإغريقية.

واهتمام هيرودوت بوصف العالم وموقع الإغريق يفسح المجال للجغرافيا والطبيعة وأحوالها في تاريخه، وقد وجدناه يفصل في قضايا مثل منابع النيل وأسباب طوفانه والأنهار في بلاد السكيث وواحات إفريقية، ويذكر القارات وأحجامها واتصالها بعضها ببعض، ثم يخلص من ذلك كله إلى استنتاجات وتعميمات عن مواطن البشر، ويقدم معلومات قيمة لم تكن معروفة من سابقيه من المؤرخين والرحالة.

وقد يستغرب القارئ المعاصر مايطالعه في هذا التاريخ من حكايات عجيبة تبلغ حدود الخرافة والأسطورة، فنقرأ في هذا التاريخ قصة الطفل الذي حكم عليه بالموت ولكنه ينجو ليغدو ملكاً، وهو قورش، وهذه قصة شائعة في أنحاء العالم، ونطالع مثلها عند الهنود في ملحمة المهابهاراتا التي تعود إلى عهد بعيد، كما نقرأ قصة اللص الظريف الذي يفشل كل المحاولات للإيقاع به، وينتهي أمره بالزواج من ابنة الملك. كذلك يلاحظ المرء عند هيرودوت اهتماماً بالغرائب والخوارق، على مختلف أنواعها وأشكالها الطبيعية منها والاصطناعية، مثل الأفاعي الطائرة، وهو الجراد القادم من المنطقة العربية، أو الأهرامات المصرية، ومعبد هيرا في ساموس، وهي من ابتكار البشر.

وقد يكون من بين الأعاجيب مايبدو من البشر من أشكال الذكاء أو القوة المعنوية أو الشجاعة الخارقة. ومهما يكن ذلك فإن هذا الاهتمام بالعجائب

والغرائب جعل من هيرودوت عرضة لسهام نقاده، فوصفه بعضهم بأنه مروج للروايات والحكايات العجيبة، كما هو "أبو التاريخ" سواء بسواء، ومع ذلك فالاحتفال بالخوارق كان شائعاً يومئذ، ولم يخل منه حتى نقاده.

ولكن هيرودوت يظل في المقام الأول مؤرخاً لحروب فارس والإغريق، فهي شاغله الأعظم كما يقول في التمهيد لتاريخه، وقد كرسه لاستقصاء الأسباب التي تدفع بشعبين للاقتتال، وأبرز مافي تلك الحروب انتصار مجموعة صغيرة من الدول المدينية الصغيرة المرة تلو الأخرى على جيوش فارس الجرارة وإمبراطوريتها وكانت يومئذ القوة العظمى السائدة. وكان اهتمامه هنا بالأسباب البعيدة غير المنظورة التي مكنت الإغريق من الصمود ثم الانتصار على تلك القوة الضخمة العاتية. غير أن "التاريخ" ليس رواية للحملات والمعارك الحربية، وإن تخللته روايات عن معارك مثل الماراثون وثرموبيلاي وسلاميس، وما يقدمه من وصف لمجريات القتال إنما ينحو لإبراز قوة الأبطال ومآثرهم أو لتقدير بعض التفاصيل المهمة أو الطريفة، أو شيئا من المصادفات الخارقة، التي كان يراها جديرة بالتخليد.

لقد رأى هيرودوت في حروب الفرس صراعاً بين إرادة الحرية وغلبتها على قوى الاستعباد، بين الاستبداد الذي تمثله إمبراطورية الفرس والمجتمعات الإغريقية التي تقوم على الحرية والقرارات الجماعية والمسئولية الشخصية. ونرى في الفرس كما يصورهم التاريخ قوماً يحركهم السوط بينما يقاتل الإغريق بدافع من حب الحرية والدفاع عن النفس. تلكم هي الصورة التي يقدمها هيرودوت وتعرض نظرته الاجتماعية والسياسية إلى الحرب وأسبابها.

وهذه الصورة التي يرسمها هيرودوت عن أحداث تدور بين القارات أبطالها أقوام وشعوب، وتتجلى أعمالهم حروباً وغزوات، وآثاراً خالدة، وكلها بما يهتم به المؤرخ ويشغل اهتمامه ونظراته الاجتماعية والسياسية، وتظهر دعواته أحياناً برشاقة ويسر، كما في إجابة الإغريقي عن سؤال أحشويرش عن سر حسن بلاء

الإسبارطيين (الإغريق) في القتال، بأن السر يكمن في خضوعهم للقانون، وهم في هذا سواسية، فما يقره الجميع يخضع له الفرد طواعية، والقانون عندهم يعلو على حكم الفرد، ولايعنيهم فيه أن يتفوق عليهم الخصم في العدد.

ولكن مايعني القارئ، على كل حال، هو المصادر التي استقى منها هيرودوت معلوماته، وكيف توفرت له ليدون تاريخه. ذلك أن الجديد الذي أتى به المؤرخ هنا هو معالجته لموضوعاته، بما يتجاوز حدود تأسيس المدن. وهو موضوع مألوف في معالجة التاريخ عند أسلافه من المؤرخين، والنأي عن منهج أصحاب الملاحم والشعراء. ومع ذلك فإن هيرودوت يشير إلى المؤرخ الإغريقي هيكاتيوس (قرابة ٥٠٠ ق.م) دون سواه، وهو أهم سلف له، في تناول موضوعاته التاريخية نثراً، وقد خلف كتابين مهمّين كان لهما الأثر البعيد على المؤرخين من بعده، باعتماده على استقصاء المعلومات ميدانياً، أولهما "الأنساب" أو "التواريخ" وحاول فيه ضبط الأنساب بمعزل عن التاريخ الأسطوري الذي كان الإغريق يأخذون به قبل عهده، أما كتابه الموسوم "دائرة الأرض" أو "المحيط" فيقع في جزئين ووصف فيه المستعمرات في منطقة البحر الأبيض المتوسط، والمناخ والشعوب وعاداتها وتقاليدها في كل منطقة، ولكن معظم ما كتبه هيكاتيوس مفقود الآن ولم يبق منه إلا الشذرات، غير أن أهمية هيكاتيوس إنما تكمن في كونه السباق بين المؤرخين في تدوين التاريخ وفق منهج واستقصاء أحوال شعوب البحر الأبيض المتوسط بالمعاينة والتحليل العقلاني، دون الأخذ بكل الأخبار على علاتها كحال الشعراء وأصحاب الملاحم. وقد أخذ هيرودوت عنه منهجه ولربما أفاد قليلاً من معارف سلفه. كذلك نجده، أي هيرودوت، قد أخذ عن أسخيلوس مشهداً من مسرحيته "الفرس" حيث يصف الرسول معركة سلاميس ويذكر في "تاريخه" حديث فرينغوس عن سقوط ملطية مع نهاية ثورة الأيونيين. ولكن من المرجح أيضاً عند المؤرخين الآن أنه أفاد من أعمال قريبه منياسيس، وربما يكون قد أفاد من أعمال سواه أيضا، وإن لم يذكر هذه المصادر.

إن الأساس الذي استند إليه هيرودوت في تاريخه هو الملاحظة والبحث والاستنتاج وتحليل الوقائع، وقد توسل في ذلك بعدة مناهج مختلفة كلما عرضت له مشكلة ذات طبيعة خاصة، فهو يعتمد على المعاينة في استخلاص النتائج المتصلة بطبقات الأرض أو تحديد طبيعة إحدى العمائر أو الصروح، أو الأعمال الفنية وملاحظة عادات الناس وتصرفاتهم. أما إذا كان الأمر يتصل بأحداث الماضي أو أقوام بعيدة ولايجدي في ذلك المعاينة، فإن المؤرخ يلتفت عندئذ لسماع الخبر من الذين لهم معرفة بموضوع السؤال. وقد يعمد هيرودوت إلى الاستفادة من عدة مناهج أو وسائل، فيربط مثلاً بين مابلغ مسامعه حول أمر ما وماشاهده بنفسه من هدايا الملوك للمعابد أو تمثال يمثل رجلا يمتطي الدلفين. وهيرودوت يقدّم في تاريخه جمعاً لروايات يأخذها عن محدثيه من أهل البلاد، ليعرض الرواية كما يرونها، وينسب إلى كلٍّ مقالته، فيشير إلى محدثه بـ "يقول الفرس" ويقول "المصريون" ويعارض" الأثينيون "وانفرد الإسبارطيون بالقول". وقد وجدناه يقول في أكثر من مجال إن دوره "يقتصر على نقل مايقال" ويذكر بأنه يورد الأخبار ولايوافق على صحة الكثير منها. وهو في مطلق الأحوال يروي نقلاً عن غيره مما قد سمع من روايات أهل البلاد، ومخبروه هم عادة من العارفين بأخبار السلف، وهذا لا يصدق على الإغريق الذين يعتمدون في تاريخهم على الروايات، وهي في معظمها شفهية يتناولها الرواة الذين يختصون بحفظ تواريخ القبائل والأسر أو أسلافها، فضلاً عن الروايات التي تختص بها المعابد الكبرى، بالإضافة إلى مافيها من الشواهد كالهدايا التي تحمل أسماء أصحابها من الإغريق وسواهم. وقد وجدنا هيرودوت يلجأ إلى حسم التناقض بين الروايات بأن يوردها كما هي، تاركاً للقارئ أو السامع حرية اختيار مايشاء أو استخلاص مايشاء استخلاصه.

ولعل أشد مايثير العجب في هذا التاريخ أسلوب صاحبه في بناء مدونته، على ما توفر له من كمٍّ هائل من المعلومات عن أحداث جليلة دارت بين أقوام

وشعوب وحشدٍ من القادة، ملوك عظام وأهل مال وأصحاب سيف، دهاة ودهاقنة دين وسياسة، وكانت حركتهم على امتداد القارات، وفي أراض مجهولة، فكيف يمكن لمؤرخ أن يقيم مثل هذا البنيان الضخم؟ لقد شاء هيرودوت أن يكون "الخيط الهادي" على حد تعبير أحد شراحه، في تفسير صعود فارس وتوسعها، مقتفياً في روايته آثار أصحاب الملاحم، بإضافات تضفي تنوعاً على الأحداث واعتماد الحركة في روايتها، دون أن يخل بالأساس الثابت لما يريد من روايته، ولايحول ذلك دون المؤرخ وقطع روايته ليعرض الكثير من التفاصيل التي تغني حديثه، والمحصلة في هذا بناء واضح متماسك، لايفسده استطراد أو استغراق في الوصف، وإنما عرض لأحداث ذات شأن وصلة بصعود دولة الفرس، وإذا تناول مصر فمنطلقه غزو قمبيز لها، وغزو داريوس لبلاد السكيث وليبيا (أفريقيا).

وهناك في نسيج هذا التاريخ موضوعات معينة تشغل هيرودوت وتتكرر فتضفي على عمله تماسكاً ومعنى على هذا الحشد من الأحداث والمواقف التاريخية. ومن ذلك موضوع الجزاء والقصاص، فالذين يقترفون الشرور والآثام لابد أن ينالهم العقاب، وهذه عظة لاتنقطع تتردد في "التاريخ" وتعكس نظرة هيرودوت إلى أفعال البشر والعلة التاريخية. فهو يبدأ برواية اختطاف النساء أولاً على يد رجال من آسيا ثم رد رجال من أوروبا بمثل ذلك، وإذ لم تتم تسوية الأمر بدأت عجلة الانتقام تدور. وهكذا كان الأمر بعد أن خطف باريس هيلين وأشعل بذلك حرب طروادة. والرغبة في القصاص مبدأ عام عند هيرودوت لايفلت منه أحد، ففي قصة الملك الليدي كندوليس والطامح إلى العرش جايجيس، تتنبأ العرّافة بالانتقام للذين وقع عليهم الظلم في الجيل الخامس من ذريته. كذلك يصور هيرودوت هجوم الفرس على أثينا على أنه اقتصاص منها لمشاركة أبنائها في إحراق عاصمة إحدى الأقاليم الفارسية، قبل عقد من الزمن. ويبين هيرودوت في تاريخه اعتقاده بأن الخراب عاقبة التكبر والتيه، كما يتجلى في

حكاية كروسوس (كرويسوس) ملك ليديا، بقوله إن الرب يضيق برخاء البشر، ثم في قول ارطبانوس لأحشويرش أن الصواعق تنزل بالعمائر الشاهقة والأشجار الباسقة. وشأن الرب أن يخسف بأهل التيه، فهو لايقبل أن يشاركه العظمة كائن ويعلل هيرودوت بؤس كرويسوس بغضب الآلهة حين حسب أنه أسعد البشر. ويتجلى هذا الاعتقاد أيضا بالدمار الذي نزل بطروادة، ويصفه بأنه جزاء من الإله لما ارتكبه أهلها من شرور.

ولايقتصر العقاب الذي ينزله الرب على الدمار والخراب عند هيرودوت، وإنما ربما يرى أن الرب يبتلي الإنسان بمد الملك واتساع الإمبراطوريات، ثم يكون الانهيار، بعد صعود، ووسائله في ذلك عوامل الطبيعة حيناً واقتتال البشر أحياناً، حين يسود الحسد وتطغى الضغائن. وهذه نظرة تتكرر في "التاريخ" وتبرز كعظة ودرس بين صفحاته.

وأحوال البشر عند هيرودوت لاتستقر على حال، فتقلُّب مصائرهم من طبيعة الأمور، وهو يذكر من البداية أنه مخبر عن مدن صغيرة ما لبثت أن اتسعت وأخرى كانت عظيمة ثم دالت دولتها بعد حين، ويخلص إلى أن الرخاء لايمكث في الرقعة ذاتها، وإنما شأنه الانتقال من مكان إلى آخر. ويتجلى التعبير عن هذا الاعتقاد فيما قاله صولون لملك ليديا كرويسوس الذي عرف بثروته الطائلة وقصر نظره سواء بسواء، حين سأله الملك أن يقر له بأنه أسعد من عرف من الرجال، فرد محذراً بأنه لابد من معرفة حياة الإنسان من مبدئها إلى نهايتها ليتمكن من حساب السعادة، ذلك أن الآلهة كثيراً ما تهب شيئا من السعادة ثم تنزل به الخراب. ثم يكون مآل كرويسوس بعد حين إلى الخراب ويكاد يقتل على يد ملك الفرس قورش.

ولا تنقطع تطالعنا في التاريخ شخصية المستشار الحكيم، وهو الذي يعرض الخيارات المهمة ويقدم النصح لأولئك الذين يفتقدون البصيرة الواسعة والمشورة فيما ينبغي عمله في الأزمات. وهذا المستشار يلقى الإهمال والإعراض حينما

يقدم المشـورة والرأي، ولكن إذا حلت الكارثة تبين صـواب رأيه، إنما بعد فوات الأوان.

والنذر تأتي على ألسنة العرافين والعرافات وتظهر في ما يراه النائم، وهي تتنزل من الآلهة دونما تعليل أو تفسيـر، وتتكرر كثيـراً في "التاريخ" والإله هنا صـادق فيمـا يصـدر عنه، إلا أنه يؤمئ ولا يشيـر، أو يعتمـد المجاز فيمـا يقـول. فعندما يفكر كرويسوس في الهجوم على فارس تتنبأ له العرافة في معبد دلفي بالقـضـاء على إمـبـراطورية ضـخمـة، وهو لايدرك بعناده مقـصـد النبـوءة، كذلك يسـمـع كـرويسـوس تحذيراً من عذاب أليم "يوم يجلس بغل على عرش مـيـديا"، ويعـجـز عن تفسيـر الإشـارة. ولكن هناك بالمقابل حالات أخرى توفر فيـهـا من يستوعب الإشـارة، وانتـهت معه الأمـور إلى أحسن عاقبة، مثل ثيميستوكليس الذي أدرك مقصد إشارة العرافة للأثينيين بأن يحتموا وراء جدار خشبي، فبنى أسطولاً حـربيـاً. فـالنبـوءات إنما تصـدر بلغـة الألغـاز، وعلى البـشـر أن يدركوا مقاصدها الحقيقية.

والآلهة تتوسل بالأحلام أيضا، فهي رسـائل تشير إلى ما ينبغي عمله، أو هي نبـوءات بما سـتـأتي به الأيام. والأحـلام تظهر بشكل رمزي، ويصـدق بعضـهـا، بينمـا ينأى بعضـهـا الآخر عن التفسيـر، كمـا قد تمضي لتعبـر عن مـقـصـدها مباشرة، بل وقد تكون تذكرة للحاكم بحكم القدر عليه، بل إن الآلهة ذاتها لاتملك أن تحـول مـجـرى الأقـدار، كمـا قـال أبوللو لكرويسـوس. ومع ذلك فـإن للآلهـة والأبطال دوراً عند هيرودوت لايستهان به في صنع الأحداث، وتحويل مجراها.

وليس لهذا أن يعني، كمـا يشيـر أحد شـارحي هيرودوت المعاصـرين، أن أبا التاريخ يغفل دور الإنسان وخياراته في الأحداث، ويعلل ذلك بأن الوقائع الكبرى في جلها إنما جرت دونما تدخل من الآلهة، بل ولدوافع بشـرية خالصـة. فـالجشـع كان الدافع وراء غزو قورش بلاد الماساجيتاي، وليس لأي سبب آخر. ولكن ذلك، على مـايذهب أحـد المؤرخين، لا يفسـر سـبب نشـوء الإمبـراطوريات ثم سقوطهـا،

ويرى أن تعليل هذه القضايا لايتحقق إلا بالنظر في الأمر وفق منظور أشمل من هذه الاعتبارات، وهيرودوت، إذن، على حق حين يولي المصادفات والقوى الخفية اهتمامه.

إن التاريخ الذي خلفه هيرودوت للأجيال مايزال يحتفظ بقيمته وحيويته إلى يومنا، ليبعث في النفوس الدهشة وفي العقول العجب والتساؤل بما قدمه من صورة لأحداث ذلك الزمان الذي عاش فيه.

عبد الإله الملاح

دمشق، الروضة، شتاء ١٩٩٩

المراجع

– مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة ١٩٧٧.

– الشاهنامة، الفردوسي، تحقيق عبد الوهاب عزام، القاهرة، طبعة ثانية، ١٩٩٣.

– المهابهاراتا: ملحمة الهند الكبرى، ترجمة وتقديم عبد الإله الملاح، دمشق ١٩٩١.

– إيران ومصر عبر التاريخ، د. حسين مجيب ،القاهرة ١٩٧٢.

– تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، القاهرة، طبعة خامسة ١٩٦٦.

– فكرة التاريخ، ج، كولنجوود، ترجمة محمد بكير خليل، القاهرة١٩٦٨.

– محاضرات في فلسفة التاريخ، هيجل، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة ١٩٨٦.

- The Ancient World, I.R.Clover, Harmondsworth, U.K.,1961.

- Greek Historical Thought, Arnold Toynbee, New York, 1952.

- The Persian Expedition, Xenophon, Harmondsworth, U.K.. 1961.

هيرودوت (هيرودوتُس) (Herodotus) (أبو التاريخ)

لَقب "أبو التـاريـخ" لم يعـرف لواحــد من قــبله ولابعــده، وهو أعظم وأول المؤرخين اليونانيين. كُتب عنه الكثير واختلف عليه عدد من العلماء واتفق عليه آخرون. اسمه مركب من لفظين، هما: "هيرا" معبودة اليونانيين المعروفة، و"دوت: أو "دوتا" بمعنى أعطى أو "أهدى" فـالاسم يعني: "هدية هيـرا" أو عطاء هيـرا" وأبوه يدعى ليكســيس (Lyxes) واسم أمــه ريو أو رهويو (Rhoeo) أو دريو (Dryo) وهـي من أصل كاري.

وقـد وُلد هـيـرودوت في هـاليكارناسـوس (Halicarnassus) إحـدى بلدات جنوب غرب آسيا الصـغرى (التي يقال إنها أسست على أيدي الطرواديين في زهاء عام 900 ق.م. وضمت البلدة سكاناً من أصول كـارية ويونانية)، بين سنتي 480, 490 ق.م.، ولقد حدد البعض ولادته في سنة 484 ق.م.، وعلى العموم فإن المعلومـات الدقيقة عن حيـاته المبكرة قليلة جداً. أسـرته مـعروفة، موسـرة، محبة للعلم والشعر والأسـاطير، تتعاطى السياسة وتنادي بالحرية والخلاص من ظلم الطغاة، لذا تعرض عدد من أفرادها للمحن والمشاكل. شـغف هيرودوت منذ صغره بالدراسات والتعليم وانكب على مطالعة الكتب المختلفة والأشعار والأدب والملاحم. وقد عاصر في بداية طفولته غزو الفرس بقيادة أحشويرش الأول بلاد اليونان. وغرس عمـه بانيـاسـيس فـيـه حب الشـعـر الملحمي، وجعله مـعـجـبـاً بهوميروس، وبانياسيس نفسه كاتب وأديب.

هاجر في البداية إلى سـامـوس، وهـي عـامـرة بالصناعة، مـزدهرة بالتـجـارة، غنية واسعة الثراء.كما كانت مركزاً ثقافياً مهماً. ويقال إنه هاجر إلى ساموس وهو في الخـامسة والثلاثين من عـمـره. ويرى البـعض إن سبب تركه بلدته هو خلافه مع طاغية هاليكارناسوس المدعو ليجداميس، وقيل إنه شارك في الثورة ضـده وأثـار الناس ضـد هذا الحكم. وإخـراجـه من بلده غـرس فـيـه كـره حكم

الطغاة المضاد للحرية والقانون. وقد أقام هيرودوت في ساموس مدة من الزمن حتى أتاحت له الظروف القيام بأسفاره ورحلاته الواسعة. وهذه الرحلات جاءت نتيجة لقناعتة الخاصة بضرورة البحث عن المعرفة والحصول على أكبر قدر من العلوم والمعارف وليس بالضرورة أنه قام برحلاته تلك هروباً من واقع أليم أو فراراً من ظلم أو ضيقاً بعيش.

ويبدو أن ميله إلى الحرية أثر ربما على كتاباته عن الحروب الفارسية اليونانية التي بيَّن فيها رغبة اليونانيين في التخلص من نير الاستعباد الفارسي وإصرارهم على مقاومة الفرس مهما كلف الأمر. ولذا أكد في قصصه ورواياته أن اليونانيين انتصروا لأنهم كانوا يتمتعون بالحرية والديموقراطية، بينما قد اندحر الفرس وانهزموا لأنهم بعيدون عن نظام الحكم الديمقراطي الحر. وكذلك سفراته ورحلاته تدل على شعوره الدائم وانطلاق الفكر وسعة الأفق.

ومن المعروف أنه في بداية رجولته سافر إلى أغلب بلدان العالم المعروف في زمانه، حيث زار جزر الأرخبيل اليوناني كرودوس وديلوس وباروس وتاسوس وكريت وغيرها. كما زار مصر وبلاد الرافدين وفلسطين وفينيقيا وعيلام والحواف الجنوبية لروسيا وأغلب الساحل الشمالي لأفريقيا. وقيل إن المسافة التي قطعها في رحلاته نحو ١٧٠٠ ميل، ودامت أسفاره ١٧ سنة. لذا سماه البعض ماركوبول العصور القديمة.

قضى عدداً من أواخر أيامه في أثينا حيث قرأ ودرّس أجزاء من تاريخه في تلك المدينة كما درست في المدن اليونانية الأخرى. وقد منحه أهالي أثينا مكافأة مالية كبيرة تقديراً لأعماله وكتاباته التاريخية والأدبية، ومع ذلك لم يحصل على الجنسية الأثينية، على الرغم من أنه كان حريصاً على الحصول عليها. وقيل إن سبب تركه لأثينا هو نضوب أمواله التي كان ينفق منها على حياته، وقيل لأنه لم يعد راضياً عن مركزه السياسي في المدينة العريقة. وإبان إقامة هيرودوت في أثينا يقال إنه اتصل بواحد من الشعراء المسرحيين الكبار الذين أسهموا في

تطوير التراجيديا اليونانية وهو سوفوكليس (496 - 406ق.م.) بل يقال أيضا إن هذا المسرحي المشهور قد وضع قصيدة عن صديقه هيرودوت. ولقد استقر المؤرخ الكبير أخيرا في ثوري (Thurii) في جنوب إيطاليا قرابة عام 444ق.م. حيث أكمل كتابه، وتوفي في نحو سنة 426 أو 425ق.م. كما يظن عدد من المؤرخين، ولكن لايوجد دليل قوي يدعم هذا الرأي. ولشدة حب هيرودوت لبلدة ثوري وتعلقه بها وطول إقامته فيها نسبه البعض إليها فأسموه هيرودوت التوري. ويرى البعض أنه توفي ببيللا بمقدونيا وقيل في أثينا.

أما ديانته فيلاحظ في كتاباته أنه متأثر بالعقائد الدينية مثل التدخل الرباني في الأحداث وإثبات المعجزات إلى الأرباب دون أن يذكرهم بالاسم. ويعتقد أن البريء والمجرم يلقيان جزاءهما في هذه الدنيا. وأكد كثيراً على الإله أبوللو المشهور، فالكتب الستة الأولى مليئة باسم هذا الإله، ويؤمن كلياً بالخرافات.

سمى هيرودوت كتابه Iotopins Attoaeievs أي "تمحيص أو إثبات الأخبار" فكلمة Iotopins اليونانية Historia, اللاتينية تعني "الفحص" أو "البحث" وبهذه الكلمة جمع هيرودوت معلومات جغرافية وتاريخية ودينية وقصصية في كتابه. فهو بالتالي كتاب عالمي يتناول قصة جميع الأمم التي وصفها كتابه. وهذه الكتب التسعة هي:

- الجزء الأول ويحمل اسم "كليو" ربة التاريخ.
- الجزء الثاني ويحمل اسم "يوتربي" ربة الموسيقا أو العزف على الناي.
- الجزء الثالث ويحمل اسم "ثاليا" ربة التراجيديا أو المأساة.
- الجزء الرابع ويحمل اسم "ميلوميني"، ربة الكوميديا أو الملهاة.
- الجزء الخامس ويحمل اسم "تربسيخوري"، ربة الرقص الغنائي.
- الجزء السادس ويحمل اسم "أراتو" ربة الشعر الغنائي أو الأناشيد.
- الجزء السابع ويحمل اسم "بوليهيمنيا، ربة فن التمثيل.
- الجزء الثامن ويحمل اسم "أورانيا"، ربة الفلك.

– الجزء التاسع ويحمل اسم "كاالليوبي"، ربة شعر الملاحم.

ولم يكن هيرودوت أول مؤرخ يوناني فقط ولكنه أيضاً كان أول أوربي يستخدم أسلوب النثر في الكتابة الأدبية والفنية ويُعدُّ تاريخه من المؤلفات المهمة جداً، ولايعرف إن كان ألف بجانبه كتباً أخرى، ولكنه إلى جانب كونه مؤرخاً فقد كان هيرودوت أحد عظماء القصاصين والرواة في العالم. واتبع أسلوباً رشيقاً، تلقائياً، سهل القراءة؛ مما جعل البعض يفضلونه على عدد من المعاصرين له. وهو أول مؤلف يوناني قام بعمل تاريخي متكامل ومنتظم، وهو أول كاتب أثبت أنَّ مهمة المؤرخ هي أن يعبر عن بناء الماضي بحياة الإنسان كلها. والتاريخ في نظر هيرودوت دراسة اجتماعية، تختلف عن دراسة الأساطير أو حكومات تستند إلى سلطات الآلهة، وهدفه هو وصف أعمال الرجال، وهي أعمال لن تنساها البشرية. وهو يخضع دراسة الأحداث التاريخية للتقدير الإنساني بوصفها أحداثاً إنسانية لها مايبررها أو يبرر القيام بها في تفكير الإنسان. اعتمد هيرودوت على مشاهداته الشخصية وما أخبر به من روايات وقصص نقلها إليه البحارة والتجار والقصاصون وغيرهم. كما اعتمد على ماكتبه رحالة وجغرافي آسيا الصغرى، هيكاتايوس. بل نقل معلوماته عن كل أحد بدءاً من الجنود وانتهاء بالكهنة. واستقى هيرودوت معلوماته أيضا من المؤلفات السابقة والآثار والوثائق. وخطة كتابه إجمالية وبسيطة، وقد كتب تاريخه في تسعة أجزاء وقد قسمه إلى هذه الأجزاء عدد من النحويين السكندريين، فكل جزء ينسب إلى عرائس العلوم والفنون من بنات زيوس التسع، أما هيرودوت نفسه فقد كان يشير إلى أجزاء كتابه يسميها بعبارات عامة كالأحاديث الليبية أو الروايات الأشورية. وعلى العموم فالكتاب يدور حول محور رئيس وهو تاريخ الحروب والوقائع بين اليونانيين والفرس. وقومه في نظره أبطال نبلاء استطاعوا بفضل شجاعتهم وتأييد آلهتهم أن ينتصروا على أعدائهم وينقذوا وطنهم من الاستعباد والإذلال. وقومه هم أهل الحضارة والرقي والتقدم وغيرهم أقل منهم بل هم في

نظره برابرة غير متحضرين أو متمدنين. وبطولة قومه وشجاعتهم هي التي يسرت لهم النصر كما أن الآلهة والنبوءات غالباً ما تبشر بانتصار اليونانيين. أما الفرس الأعداء التقليديون لليونانيين فهم برابرة متخلفون لا يملكون من الحضارة إلا النزر اليسير، تسيرهم أهواؤهم وتحكمهم نزواتهم التي في النهاية أودت بهم في مهاوي الهزائم.بل إن أعظم ملوك الفرس عنده تغلب عليهم شهواتهم فهم بالتالي خاضعون لها لايستطيعون الفكاك منها. وفي سبيلها يرتكبون الفظائع والجرائم. وقادة الفرس تبع لملوكهم فهم سفاكو دماء قليلو الخبرة والدراية كثيرو النزق والحماقة. ومن الطبيعي أنّ هذه الصفات التي ألصقها المؤرخ العظيم بالفرس لا تتفق في صورتها العامة مع طبائع الفرس وملوكهم وقادتهم، ولكن هيرودوت ينظر بمنظار قومه على الرغم من أنه أورد بعضاً من الصفات الحميدة. ومع هذه الأهمية لكتاب هيرودوت إلا أنه يعتمد على كثير من الروايات التي أخذها عن الأجانب ويروي عدداً من الخرافات والأوهام والنبوءات ويضم عددا من الأخطاء والمبالغات. كما أنه كان جاهلاً بلغات الشعوب التي كتب عنها تاريخها. وهو عندما يتحدث عن الحروب فهو يكتب من وجهة نظر مؤرخ ليس لديه خبرة في فن الحروب وإدارة المعارك أو بمعنى آخر هو ليس رجل حرب. ويتبنى في كتابه وجهة نظر يونانية بحتة في أن اليونانيين هم أفضل الشعوب وأرقاها، كما أنه تأثر بالعداء التاريخي بين الفرس واليونانيين.

ومما يعيب المؤرخ الكبير أيضا هو اعتماده على المخبرين والتقاليد وتقبله للخوارق وإيمانه بأن الأرباب تتدخل دائماً في صناعة وتوجيه الأحداث. وكان يؤمن بالوحي والأحلام مع كثرة في التكرار وعدم الثبات وإيراده أحياناً بعض المعلومات الجغرافية الخاطئة.

بدأ بتسجيل أحداث الصدام بين بلاد اليونان والشرق وانتهى بوصف شامل للحرب الكبيرة والبارزة بين اليونانيين وجيوش الفرس بقيادة داريوس الكبير واحشويرش الأول وخاصة أن ذكرى تلك الحروب ماتزال حية في نفوس

اليونانيين. ضمن هذا الإطار سجل هيرودوت نشوء الإمبراطورية الفارسية وتتبع مراحل تطورها وتوسعاتها منذ عهد الملك قورش الكبير وسجل أيضا خطوطاً مهمة في تواريخ مصر وروسيا وليبيا (أفريقيا) وسيرينايكا، وبالتالي كان أول من وضع بلاد اليونان ضمن التاريخ العالمي. وقد اعتمد في كتابه لتاريخ بلاد اليونان على النقوش والكتابات اليونانية المتوفرة في بلاد اليونان، إضافة إلى أخذه روايات وحكايات عن الحروب الفارسية اليونانية عن أناس شاركوا فيها. وأورد معلومات مهمة عن تاريخ الشعب اليوناني وهجراته والمستعمرات التي أسسها وأعماله التجارية ومنجزاته في ميادين الفنون والدين والتشريع. وعالج في كتابه أنماطاً متباينة من البشروعدداً وفيراً من الديانات ونظماً مختلفة للحكم. واهتم المؤرخ العظيم بالمياه الصالحة للملاحة لذا أورد معلومات قيمة عن وسائل المواصلات خاصة في نهري النيل والفرات. كما أشار إلى الأوزان والمقاييس والبضائع. وذكر معلومات جغرافية ودينية واقتصادية مهمة. وبذا فإن تاريخه يعد أعظم ما خلفه المؤرخون اليونانيون على مر تاريخهم.

اهتم الناس منذ القدم بتاريخ هيرودوت وظهرت له طبعات كثيرة منذ عام 1450م. باللغتين اليونانية واللاتينية. كما ظهرت للكتاب طبعات باللغات الأوربية الأخرى.

هذه الترجمة اعتمدت على عدد من المصادر هي:

إسحاق عبيد، معرفة الماضي من هيرودوت إلى توينبي، القاهرة،١٩٨١، ص ٩ - ١٠.

أرنولد توينبي، الفكر التاريخي عند الأغريق، ترجمة: معي المطيعي، القاهرة، ١٩٩٩، ص. ٤٣ - ٤٥.

حسان حلاق، مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، بيروت ١٩٩١، ص. ٢٩٥ - ٣٠٠.

ر.ج. كولنجوود، فكرة التاريخ، ترجمة: محمد بكير خليل، مراجعة: محمد عبد الواحد خلاف، القاهرة، ١٩٦٨، ص. ٥٦ – ٥٩، ٧٢ – ٧٦.

سامي سعيد الأحمد، "هيرودوتس وكتاباته" المؤرخ العربي، ع. ٢٧، س. ١٢، (١٩٨٦)،ص. ١٨٠ – ١٨٨.

سيد احمد علي الناصري، الإغريق وتاريخهم وحضارتهم من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر، القاهرة، ١٩٨٤، ص. ٣٠١ –٣١٥.

شحاتة محمد إسماعيل، حول منهجية البحث في التاريخ اليوناني، القاهرة، ١٩٨٥، ص. ١٣٣ – ١٤٦.

لطفي عبد الوهاب أحمد، اليونان: مقدمه في التاريخ الحضاري، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص. ٦٠ – ٦١، ١٩٦، ٢٤٦ – ٢٤٩.

هاري إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، ١٩٨٤، ص. ٤٩ – ٥١.

هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمه عن اليونانية محمد صقر خفاجة، تقديم: أحمد بدوي، القاهرة،١٩٨٧، ص. ٩ – ٣٤.

نور الدين حاطوم ونبيه عاقل وأحمد طربين وصلاح مدني، المدخل إلى التاريخ، دمشق، ١٩٨١/ ١٩٨٢، ص. ١٠١ – ١٠٦.

ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، القاهرة، ١٩٧٣، ج.٧، ص. ٣٢٧ – ٣٣١.

Petrie, A., Greek History: Antiquities and Literature, ترجمة يوئيل يوسف عزيز، ١٩٧٧، ص. ١١٢ – ١١٣.

DeSelincourt, A., "Herodotus", In Col. Ency., Vol. 12, PP. 85 - 87.

Bradley, P., Ancient Greece: Using Evidence, 1989, Caulfield,PP. 109 - 112.

Brock, R., "Herodotus" in Speake, G. (ed.), The Penguin Dictionary Of Ancient History, London, 1995, PP. 310 - 311.

Brock, R., "Historiography, Greek", The Penguin Dictionary, P. 318.

Murray, O., "Greek Historians", In Boardman, J. et. al. (ed.), The Oxford History Of The Classical World: Greece and The Hellenistic World, Oxford, 1988, PP. 182 - 185.
Speake, G., "Halicarnassus", in The Penguin Dictionary, P. 298.
Hart, J., "Herodotus and Greek History, London, 1993, PP. 203 - 229.

الدكتور حمد محمد بن صراي
قسم التاريخ والآثار – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الإمارات العربية المتحدة – العين

المصادر المعتمدة في الترجمة الانكليزية

صدرت الترجمة اللاتينية لتاريخ هيرودوت منذ عهد بعيد، يعود إلى عام ١٤٥٠، ثم قام هيوزباك بتنقيح تلك الترجمة وصدرت سنة ١٥٣٧، وهي تظهر في العديد من الطبعات جنباً إلى جنب والنص الإغريقي.

وقد ترجمت أجزاء من التواريخ إلى الإنكليزية سنة ١٥٨٤، على يد شخص آثر أن يرمز إلى نفسه بحرفين: ب.ر. أما الترجمة الكاملة فقد نهض بها ليتلبوري سنة ١٧٠٩، ثم صدرت رواية أخرى بترجمة القس وليم بلو «القيم على المطبوعات في المتحف البريطاني»، سنة ١٧٩١. وقد وصفه قاموس الأعلام The Dictionary of National Biographyبالرجل «المناسب» لهذه المهمة، بيد أن اندرو لانج لم يأخذ بهذا التقويم، فوصفه بـ «السطحية».

وجاء بعدئذ أيزاك تايلر فعمل في ذلك النص تنقيحاً وتصويباً، وقدم ترجمته الكاملة سنة ١٨٢٩، ثم صدرت ترجمة أخرى على يد هنري كاري، في سلسلة الأمهات عن دار بون The Bohn Library Classics الشهيرة.

ونقدم ههنا، بين دفتي هذا الكتاب، نسخة منقحة عن ترجمة جورج رولنسون التي صدرت لأول مرة سنة ١٨٥٨ ولقد صدرت عدة ترجمات لهذا التاريخ منذ ذلك الحين، ولكن ما من واحدة منها تستطيع أن تضارع نص رولنسون. وقد استبعد من هذه الطبعة الحواشي التي تثقل النص دون أن تنيره، حرصاً على أن يبقى القارئ متابعاً للرواية، لا يعترضه فيها إلا عبارة أو اثنتان أحياناً، وهي في كل الأحوال إضافات من المحرر، لتوضيح النص وضعها بين حاصرتين.

الكتاب الأول

كليو(1)

هذه أبحاث هيرودوت الهاليكارناسي كتبها ليبقى ذكر أفعال الرجال حياً ومآثر الإغريق والبرابرة(2) وأعمالهم المجيدة خالداً، وهدف منها توثيق أسباب النزاع بينهم.

يزعم الفرس وهم أخبر الناس بالتاريخ أن الفينيقيين كانوا المبادرين في المنازعة. فهؤلاء القوم الذي مهدهم في القديم شواطئ البحر الأرثيري [المحيط الهندي والخليج العربي] ثم هاجروا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ليستقروا في البلاد التي يسكنونها الآن، شرعوا حالما استقرت أحوالهم، على ما يقولون، في خوض الرحلات البحرية الطويلة للمتاجرة بما كانت سفنهم تحمله من بضائع وسلع من مصر وبلاد آشور. وقد اعتادوا أن يلقوا مراسيهم في كثير من المدن الواقعة على الساحل، ومنها آرجوس، وكانت لها الصدارة بين الدول المتحدة اليوم تحت اسم بلاد الهيلاس(3)، وحينما حطوا رحالهم فيها أخذوا في عرض بضائعهم وشرعوا يتاجرون وأهالي البلد مدة تبلغ خمسة أيام أو ستة، وبعد أن نفقت معظم بضائعهم، نزلت إلى الشاطئ صحبة من النسوة، ومن بينهن آيو، ابنة الملك ايناكوس، وهذا قول يتفقون فيه والإغريق. وتذهب الراوية إلى أن النسوة كن واقفات عند مؤخرة السفينة، وهن يقصدن الشراء من التجار، حين صاح الفينيقيون صيحة رجل واحد واندفعوا نحوهن وهم يقصدون أمراً. فأمكن لأكثرهن الإفلات من المهاجمين بينما وقعت الأخريات، ومنهن آيو في قبضاتهم، فحملوهن معهم وأبحروا بهن إلى مصر. وهكذا انتهت آيو، حسب رواية الفرس، إلى مصر، وهي تختلف اختلافاً شديداً عن رواية الفينيقيين. وكانت هذه بداية سلسلة من الفظائع التي تلت.

ثم كان أن نزل، بعد حين، عدد من الإغريق لا تعرف أسماؤهم، إنما يرجح أنهم من أبناء كريت، في صور، على الساحل الفينيقي، واختطفوا ابنة ملك الفينيقيين أوروبا. وكانت تلك واقعة من قبيل الثأر، لولا أن الإغريق، على ما يقولون، أقدموا بعدها على إثم آخر. فقد جهز بعضهم سفينة حربية، وشدوا الشراع إلى آيا، إحدى مدن مملكة كلوتشين، الواقعة على نهر فاسيز؛ ولما باعوا بضاعتهم، حملوا معهم ميديا ابنة ملك البلاد. فلما بلغ الأمر الملك بعث برسول إلى بلاد الإغريق يطلب منه إصلاح ما بدر من أبناء جلدتهم من خطأ وإعادة الفتاة إلى قومها. فأجابه الإغريق أنهم لم ينالوا تعويضاً عما نزل بهم يوم اختطفت آيو فلا ينبغي أن يقدموا مثله، في هذه الواقعة.

ويروي هؤلاء الثقات أن باريس (الأسكندر[٤]) بن بريام شاء، بعد فترة من الزمن، أن يتخذ لنفسه زوجاً من الإغريق، وعزم على اختطافها، وقد حمله على هذا قناعته بأن ذلك نوع من القصاص على ما جنته أيديهم. وهكذا دبر اختطاف هيلين؛ فقرر الإغريق يومئذ مناشدته أن يعيد إليهم أميرتهم والتعويض عما لحق بهم من الأذى بسبب تلك الواقعة، قبل اللجوء إلى ما هو أشد وأقسى. فرد عليهم الملك بالتذكير بالاعتداء على ميديا، وسألهم بأي وجه يطالبون الآن بالقصاص، بعد أن كانوا قد رفضوا كل مطلب بالقصاص ورد الأميرة إلى بلدها وأهلها.

ولقد ظل الأذى الذي نال كل طرف، حتى ذلك الحين، من أعمال العنف المألوف؛ وما تلا ذلك فاللوم عند الفرس يقع على الإغريق، لتسرعهم في توجيه قواتهم للتوغل في آسيا، حتى قبل أن ينزل بأوروبا أي ضير. أما اختطاف النساء فقد قالوا في شأنه إنه أمر لا يقدم عليه إلا مجرم فظ؛ وإن إثارة نزاع حول اختطاف امرأة فضرب من ضروب الحماقة. فالعقلاء من الناس لا يشغلون أنفسهم بمثل تلك النساء، إذ من الواضح أنه ما كان لأحد أن يحملهن على ما لا يرضين به. فعندما اختطف الإغريق نساء الآسيويين لم يأبه هؤلاء بالواقعة، أما الإغريق فإنهم من أجل

امرأة إسبارطية واحدة حشدوا جيشاً عرمرماً، واجتاحوا آسيا، ودمروا مملكة بريام. ومنذ ذلك الحين والآسيويون يكنون العداء للإغريق. أما آسيا فيعتبرها الفرس أرضاً لهم وما حفلت به من قبائل البرابرة من أهلهم وحلفائهم وينظرون إلى أوروبا والإغريق على أنهم غرباء يختلفون عنهم.

تلكم هي رواية الفرس عن تلك الأحداث. وهم في ذلك يعزون سبب الهجوم على طروادة لعداء قديم يكنونه للإغريق، أما الفينيقيون فيختلفون في روايتهم للوقائع المتصلة بآيو عن تلك التي يأتي بها الفرس. فهم ينكرون حكاية اختطافها إلى مصر؛ ويروون عنها أنها أقامت علاقة مع قبطان السفينة في أثناء رسوها في آرجوس، فلما اكتشفت أنها حملت منه اختارت بمحض إرادتها أن ترافق الفينيقيين عند إبحارهم إلى مصر، خشية افتضاح أمرها ومواجهة غضب والديها. ولسوف أمسك عن مناقشة حقيقة ما حدث، وتعيين من كان حسب علمي الأول بين من أساء إلى الإغريق، ولأمضي من ثم في بسط تاريخي، راوياً في هذا العرض قصص المدن الصغيرة والكبيرة سواء بسواء. ذلك أن ما كانت مدناً زاهرة ذات يوم غدت صغيرة ذاوية الآن، كما أن المدن الصغيرة قديماً باتت حواضر زاهرة في أيامي. ولما كنت أعلم علم اليقين أن سعادة البشر لا تدوم فإنني سأولي الكبير والصغير اهتمامي، حريصاً على ألا أقصر في ذكر هذا أو ذاك.

كان كرويسوس الليدي، ابن الياتتيس، ملكاً على كل الشعوب التي تسكن غرب نهر خالص (قيزيل)، الذي يصب في البحر الأسود، ويشكل الحد بين كل من كبادوكية (بلاد السريان) وبافلاجونيا(٥). وهو أول أجنبي على ما بلغنا اتصل مباشرة بالإغريق، إن غزواً وإن حلفاً، وفرض الجزية على الأيونيين والأيوليين والدوريين الآسيويين، وتعاهد والاكيديمونيين. وقد علمنا أن الإغريق كانوا قبل عهد كرويسوس أحراراً؛ إذ لم تكن هجمة السيمريين(٦) على أيونيا حرباً، وإنما مجرد غارة للنهب وحسب.

وكانت ليديا في ملك سلالة الهيركليداي ثم دخلت في ملك آل كرويسوس الميرمناداي على النحو الذي سأفصل فيه القول: كان ملك سارديس كاندوليس (وهو ميرسيلوس عند الإغريق) سليل الكايوس بن هيركليدس، ووالده ميرسوس وآخر آل هيركليدس في ساردیس، وأولهم آجرون بن نينوس بن بيلوس بن الكايوس. أما قبل أجرون فكانت المملكة في بيت ليدوس بن آطيس، وباسمه عرفت ليديا، وكان الليديون قبل ذلك يعرفون بالمايونيين، ثم سلم أمراؤها مقاليد الأمور إلى أبناء هيركليدس من إحدى جواري أياردانوس؛ وقد ثبت ملكهم فيما بعد بنبوءة العرافة وظلت ليديا في ملك هؤلاء اثنين وعشرين جيلاً وامتد عهدهم خمساً وخمسمئة سنة، وتعاقب عليها الأبناء كل منهم يورثها لولده، حتى عهد كاندوليس بن ميرسوس. وكان يهيم بزوجه، ويرى فيها أجمل النساء على وجه الأرض. وقد اختص بمودته أحد حراسه ويدعى جايجيس بن داسكيلوس، وقرّبه منه، ولم يكن يقصر الحديث معه على أهم الشؤون بل لقد بلغ إيثاره له أن كان يحدثه في امرأته فيصغي إليه هذا وهو يتغزل بمفاتنها وجمالها. وفي أحد الأيام أخذ الملك (الذي كان ينتظره أسوأ مصير) يحدث جايجيس مباسطاً: أرى أنك لا تصدقني حين أحدثك في مبلغ جمالها. فالحق أن القول لا يفي بالحقيقة، وليس السمع كالنظر، فإن شئت أن تتحقق مما أقول فتدبر أن تراها عارية ». وإذ سمع جايجيس ما قاله الملك ندت عنه شهقة الهلع وقال: « أي قول هذا، يا مولاي: أتراك تطلب مني أن أنظر إلى الملكة، وهي متجردة من ثيابها ؟ لا، يا مولاي، إن المرأة حين تتجرد تطرح عنها حياءها أيضاً - وأنتم أدرى بما قيل في النساء. وإذن فلنعتبر بخبرة الأولين. فلقد قام الحد بين الخطأ والصواب منذ قديم الأزمان - والحق عندي يا مولاي أن ليس للمرء أن يشغل نفسه بما لا يعنيه. ولا ريب أن زوجكم هي أجمل النساء. ولكن ناشدتكم الآلهة ألا تخرقوا الأعراف ». وهكذا جهد الرجل وأعرض عن دعوة الملك، إذ خشي سوء العاقبة إن هو قبل بها .

ولقد أدرك الملك ما يعتمل في نفس جايجيس من اضطراب إثر هذا الحديث

فقال له مهدئاً من روعه: « لا تخش شيئاً، فلن يأتيك الشر إن مني وإن من زوجتي. ولست أنا بالذي ينصب لك شركاً، وأما هي فلك مني وعداً بألا تمسك بضير. بل وسأتدبر ألا تعلم بأن نظرك قد وقع عليها. وهاك خطتي: تختبئ وراء باب مخدعنا المفتوح . ولسوف تلحق بي زوجي إلى الفراش. وهناك بالقرب من الباب كرسي تضع عليه ملابسها حين تخلعها عنها، قطعة قطعة . ولسوف يكون بوسعك أن تراها بكامل عريها دونما مشقة. وإذا استدارت بعدئذ لتمضي إلى الفراش كان بوسعك أن تمضي من وراء ظهرها وتخرج من الباب دون أن تلحظ وجودك ـ ولكن احذر أن تضبطك متلصصاً عليها ».

ولقد أسقط في يد جايجيس، وخشي العاقبة، إن هو عارض رغبة الملك، فوافق وسايره! فلما كان الليل اصطحبه كاندوليس إلى مخدعه. وما هو إلا حين حتى لحقت الملكة بزوجها، فخلعت عنها ملابسها ووضعتها على الكرسي المعهود، وحين استدارت لتمضي إلى الفراش استغل جايجيس الفرصة فانسل من الغرفة. ولكن الملكة لحظته وهو يتسلل هارباً.

وأدركت الملكة للتو فعلة زوجها، وشاءت أن تكتم الأمر فلم تصرخ، ولم تبد ما ينم عن أنها لحظت هذا المتطفل، وآثرت أن تنتقم لتلك الحادثة. ولقد عرف عن الليديين شأن كل البرابرة مقتهم لمشاهدتهم عراة متجردين من ملابسهم، ولو كان المتعري رجلاً. وظلت المرأة متكتمة على ما جرى، وأطبقت شفتيها على هذا الأمر، وقد اعتزمت أمراً لا بد مقضياً. وفي الصباح بعثت في طلب جايجيس، بعد أن دبرت ما سيكون مع من توليه ثقتها من خدمها. وكان ذلك طلباً لا يستلفت الانتباه، إذ من المألوف أن تستدعي من تريد منه خدمة! وهكذا كان أن حضر جايجيس بناء على استدعائها، دون أن يراوده الشك بعلمها بما كان من أمره في ليلة البارحة. فلما مثل الرجل أمامها بادرته بالقول: «أمامك طريقان لا ثالث لهما، ولك أن تختار أحدهما: فإما أن تقتل كاندوليس وتحوز على العرش، وأنا إلى جانبك زوج لك، وإما أن تقتل حالاً، لئلا يجرك ولاؤك الأعمى للملك لرؤية ما لا

حق لك فيه. فالموت حق على أحدكما، فإما أن يموت زوجي صاحب هذه الفعلة الزنيمة، وإما أن تموت أنت الذي انتهكت الأعراف حين نظرت إليَّ وأنا في عريي».

وقف جايجيس برهة، وقد عقدت لسانه الدهشة. ثم أدركته البديهة في النهاية، وأخذ يرجو الملكة ألا تحمله على خيار يكرهه. ولكن رجاءه ذهب أدراج الرياح، وسرعان ما أدرك ألا محيص له عن الاختيار بين قتل سيده أو أن يقتل هو بدلاً منه. فكان خياره أن يعيش. وعندئذ قال جايجيس للملكة: «أما وقد قسرتني على خيار لا أرضاه، فأخبريني كيف سنتدبر أمره؟».

وكان جوابها! «لسوف نطبق عليه، وهو مستغرق في نومه، وفي المكان الذي فضحني فيه وأنا عارية».

وانتقل الاثنان بعدئذ إلى تنفيذ ما اعتزما عليه، فأعدا للأمر عدته، والملكة تضيق على جايجيس المسالك لئلا يفلت من معضلته: فإما أن يقتل كاندوليس أو يموت هو. ولما حل الليل تبعها إلى المخدع، وهناك وضعت خنجراً في يده، وخبأته خلف ذلك الباب الذي اختبأ وراءه ليلة تلصص عليها. وانتظر حتى وجد كاندوليس قد استغرق في نومه، تسلل من وراء الباب، ثم طعنه طعنة نجلاء، فقضى عليه.

وهكذا استولى جايجيس الذي ذكره أرخلوخس الباروسي[٧] في نوادره بين معاصريه. ولقد أقرت الآلهة توليه العرش، فيما بعد، في معبد دلفي. وكان الضيق قد شاع بين الليديين لمقتل كاندوليس، وتهيؤوا للقتال، لولا أنهم بلغوا اتفاقاً مع أنصار جايجيس بأن يستمر في الحكم، إن جاءت نبوءة تثبته على العرش، وإلا فعليه أن يعيد الملك إلى آل هيركليداي.

ولما طرح السؤال جاءت النبوءة بتثبيت جايجيس، وبذلك رسخ قدمه في الملك. ولكن كاهنة المعبد أضافت القول مع ذلك إن الانتقام من جايجيس سيحل في الجيل الخامس: وكانت هذه نبوءة لم يولها الليديون ولا ملوكهم أي انتباه، حتى تحققت.

وإليكم النهج الذي اختطه الميرمناداي للتخلص من آل الهيركليداي والانفراد

بالسلطة. فقد بعث جايجيس بعدما نصب ملكاً بالهدايا إلى معبد دلفي[٨]، حالما قويت شوكته؛ والحق أن معظم الفضة الموجودة في المعبد هي من هداياه؛ وكان قد قدم فوق هذا عدداً كبيراً من الدنانْ المسبوكة من الذهب، ذات الأشكال المختلفة، وأبرزها ستة أوان ذهبية تبلغ زنتها ٢٥٠٠ رطل، وهي في خزانة كورنثة ـ ولو شئنا الدقة لما قلنا الخزانة العامة، لأنها فعلاً في خزانة سسيبسلوس بن أيتيون.

ومبلغ علمنا أن جايجيس هو أول أجنبي، بعد ملك فريجيا ميداس بن جورديياس، يقدم الهدايا لمعبد دلفي. وكان ميداس قد قدم كرسي العرش الذي كان يجلس عليه وهو يصدر مراسيمه. وهذا العرش موجود الآن مع تقدمة جايجيس من الأواني الذهبية في المعبد، وهي جديرة بالمشاهدة. وقد أطلق سدنة المعبد على تقدمة جايجيس هذه من الذهب والفضة اسم الكنز الجايجيسي، نسبة إلى صاحبها.

ولما استقر الأمر لجايجيس وجه حملة على ملطية وسمرنا «إزمير»، واستولى على قلعة كولوفون. وكان ذلك العمل الهام الوحيد الذي قام به خلال عهده الذي امتد ثمان وثلاثين عاماً، ولن أزيد، لأنتقل للحديث في أمر ابنه أرديس الذي خلفه بعد موته.

استولى أرديس على برايبني، وشن حملة على ملطية. وفي عهده طردت قبائل السكيثيين البدوية السميريين فانتقلوا إلى آسيا، وكان استيلاؤهم على ساردیس، عدا قلعتها. وقد دام عهد أرديس تسعاً وأربعين سنة، وخلفه ابنه سادياتيس وكان حكمه اثنتي عشرة سنة، عقبه بعدها الياتتيس. الذي شن الحرب على الميديين وملكهم سياشاريس حفيد ديوسيس، وطرد السميريين من آسيا واستولى على سمرنا، تلك المدينة التي أسسها قوم جاؤوا من كولوفون، وشن الحرب على كلازوميناي ـ وكانت حرباً خاسرة على غير ما أمل، وانتهت وبالاً عليه. واستطراداً في الحديث عن الأحداث المهمة في عهده فإن الياتتيس تابع حرباً ورثها عن أبيه،

وهي حربه على الميليسيين. وكان قد جرى على أن يغزو منطقتهم كل عام في موسم الحصاد، فيسير جنده على موسيقى القرب والقيثارات والمزامير وأناشيد المنشدين. وكان ينأى عن حرق البيوت أو تدميرها أو خلع الأبواب، فيقتصر على حرق الأشجار والمحاصيل، ثم يعمد إلى الانسحاب من الأراضي. والسبب في اعتماده هذا النهج وقوع المدينة على البحر حيث لا يجدي معها الحصار. و السبب في امتناع الليديين عن تدمير البيوت فهو أن عدم اضطرار الميليسيين للبحث عن أماكن جديدة يأوون إليها، يدفعهم للبقاء في أماكنهم فيتابعون حراثة الأرض وبذر البذار فيكون لليديين نصيب من حصادهم كلما غزوا أرضهم. وقد ظل الليديون على هذه الحال إحدى عشرة سنة واجه فيها الميليسيون هزيمتين منكرتين، أولاهما في جهات ليمينيوم من بلادهم، وثانيهما في سهل نهر مياندر.

وكان سادياتيس بن اردیس، من بدأ غزو ميليسيا وأثار الحرب، طوال ست من أصل السنين الإحدى عشرة التي استغرقتها، وورثه بعد ذلك الياتتيس فخاضها بكل حمية طوال السنوات الخمس الباقية. وصمد الميليسيون في تلك الحرب دون معونة من الأيونيين، إلا ما انضم إليهم من رجال جزيرة خيوس، رداً لدين قديم كما يملي الشرف، حينما آزروهم في حرب الإيرثريين. وفي السنة الثانية عشرة من الحرب، تسببت النيران في وقوع حادثة ، فقد اتسع نطاق الحرائق بفعل رياح شديدة هبت وامتدت حتى أتت ألسنة اللهب على معبد أثينا في إيسوس، ولم يبق منه سوى الرماد. وكانت تلك واقعة لم يأبه بها الناس كثيراً يومذاك، إلا أن الياتتيس أصيب بمرض بعد عودة الجيش إلى ساردیس، ثم اشتدت عليه الأزمة، وظل على هذه الحال ردحاً طويلاً دون أن يرجو شفاء. ثم كان أن بعث من يسأل العرافات في دلفي، إن برأي منه أو بناء على نصيحة ناصح، عما ينبغي عليه عمله لِيبلّ من مرضه. فلما طرح موفدوه السؤال، أعرضت عرافة الإله أبوللو عن الجواب ، واشترطت أن يقوم الليديون بتجديد بناء معبد أثينا الذي أحرقوه في أيسوس. وقد بلغني هذا من القائمين على معبد دلفي، أما الميليسيون فيزيدون القول بأن بيرياندر بن سيبيلوس، وكان صديقاً

حميماً لثراسيبولوس، ملك ملطية يومذاك، قد بلغه ما قالته العرافة في دلفي لموفدي الياتتيس، فأرسل من ينقل علمه إلى صاحبه ليحتاط للأمر. أما الياتتيس فإنه حالما بلغته رسالة دلفي بعث برسول إلى ملطية يعرب عن أمله في هدنة ليتفرغ لبناء المعبد. وهكذا مضى هذا الرسول حاملاً رسالة ملكه يبلغها إلى ثراسيبولوس الذي كان قد استعد للأمر وتفتق ذهنه عن خطة ماكرة، مستفيداً من المعلومات التي بلغته، وقدرّ ما يمكن لياطيس أن ينحو في تفكيره. فأوعز بجمع مخزون المدينة من الحبوب، سواء في عنابره الخاصة أم ما تجمع لدى المواطنين في مستودعاتهم، ووضعها في الساحة العامة، وأن يقوم كل مواطن في المدينة بشرب الخمور والعربدة، عند رؤية إشارة معينة من طرفه. وكان يهدف من ذلك أن ينقل رسول ساردیس إلى الياتتيس صورة ما رآه من مقادير الحبوب التي تكومت في الشارع ومبلغ ارتياح الناس إلى الحد الذي يحملهم إلى الاحتفال والابتهاج. وهاكم ما جرى: لما شاهد الرسول احتفالات الناس في المدينة، وسلم رسالة سيده إلى ثيراسيبولوس. وانتهت مهمته، غادر ملطية عائداً إلى ساردیس، وكان أن تمت معاهدة السلام بعد هذا على ما بلغني، إذ لم يكن الأمر كما توقع الياطس، فظن أن المدينة لا بد ستنتهي إلى الجوع بفعل الحصار الذي فرضه عليها ، ولكن رسوله جاء ليفسد عليه توقعاته، فلا جوعاً رأى ولا تخوفاً لمس بل ما شاهده كان العكس من ذلك. وهذه، إذن، قصة الياتتيس وحربه على ثيراسيبولوس والمليسيين.

وأما بيرياندر بن سيبسيلوس الذي أخبر ثيراسيبولوس بقول العرافة في معبد دلفي، فهو طاغية كورنثة. ويروي الكورنثيون حادثة عظيمة وقعت في عهده، ويشهد بصدقها أهل ليسبوس؛ وهي تتصل بآريون الميثيمني، وكان أعظم موسيقيي عصره، وهو الذي وضع، بقدر ما نعلم، الأنشودة وأعطاها اسمها، ودرب منشدي الكورس، في كورنثة. وتنسب الرواية إلى آريون أنه امتطى الدلفين في رحلته إلى تايناروم. وعلمنا من أمره أنه أمضى معظم حياته في صحبة بيرياندر، حتى تشوق

لزيارة إيطاليا وصقليا، فسافر إلى تلك الأصقاع، وأصاب هناك ثروة كبيرة، ثم عزم على العودة إلى كورنثة. فسافر من تايناروم على ظهر سفينة كورنثية، لثقته بهم. ولكن البحارة تآمروا عليه وأرادوا أن يلقوا به في البحر ليتخلصوا منه ويستولوا على أمواله. ولقد حدس الرجل نواياهم فرجاهم أن يبقوا على حياته، مقابل ذلك المال وإنما عبثاً، إذ رد عليه البحارة بأن أمامه خيارين لا ثالث لهما، فإما أن ينتحر فيدفن على الشاطئ، وإما أن يقفز إلى البحر. ولما وجد آريون البحارة قد حزموا أمرهم ولا مناص له من الموت، رجاهم أن يسمحوا له بأن يغني لهم وصلة على ظهر السفينة، وهو في كامل حلته، ثم يموت بعدها. فسُرُّ البحارة لهذا الطلب، إذ يتيح لهم سماع أعظم مغن في العالم فجاؤوه، وقد تركوا مهامهم. فارتدى آريون أجمل حلة يرتديها في الحفلات المهمة وحمل قيثارته، ووقف يعزف ويصدح أمام مستمعيه أعذب الألحان وقفز بعدئذ إلى البحر، وهو في كامل حلته. ولقد استمرت السفينة في رحلتها، بينما التقط دلفين آريون من عباب البحر وحمله إلى تايناروم، ومن هناك، سافر إلى كورنثة، مرتدياً زي المغنين، وروى على القوم قصة رحلته. ولكن بيرياندر لم يأخذ تلك الرواية على محمل الجد، وأخذ يرصد آريون وتحركاته، كما لم يغفل عن أمر البحارة. فلما عادت بهم السفينة استدعاهم إليه وسألهم خبر آريون. فكان أن أجابوه بأن «نعم، قد تركناه سليماً معافى في تايناروم، بإيطاليا» وما كاد البحارة ينتهون من كلامهم حتى ظهر أمامهم آريون بكامل حلته، كما كان حين ألقى بنفسه في البحر؛ وكانت مفاجأة ذهبت بلبهم. وهكذا ظهر كذبهم، وما عاد الإنكار يجدي في أمرهم. تلكم هي الرواية كما يرويها الكورنثيون والليسبيون. وبعد، فمن يزور تايناروم اليوم يجد في معبد المدينة نذراً من آريون، وهو عبارة عن تمثال صغير لرجل على ظهر دلفين.

مات الياتيس بعد انتهاء الحرب على ملطية، وقد دام حكمه خمساً وسبعين سنة. وكان الثاني في أسرته الذي يبعث بالهدايا إلى دلفي، إذ قدم للمعبد دناً كبيراً من الفضة وطبقاً من الحديد المعشق، وهو أروع الهدايا هناك، زلفى للآلهة

لتمن عليه بالصحة. وجدير بالذكر أن هذه التحفة كانت من صنع جلاوكس الخيوي (نسبة إلى جزيرة خيوس) الذي ابتكر فن لحام المعادن. خلف الياتتيس ابنه كرويسوس وكان في الخامسة والثلاثين. وكانت أفسوس أول مدينة إغريقية يهاجمها. وقد عمد أهل المدينة إلى ربط أسوارها بحبل يمتد إلى معبد ارتميس الذي يبعد عنها أقل من ميل التماساً لحمايتها. ولما انتهى من افسوس انتقل لمهاجمة المدن الأيونية والأيولية متذرعاً بمختلف الذرائع، الجادة منها والسخيفة سواء بسواء، كيفما اتفق له أن وجد. وكان أن فرض الإتاوات على الإغريق كافة في آسيا، ومن ثم التفت إلى بناء أسطول حربي ليتمكن من مهاجمة الجزر. ولكن ذلك الجهد كان يصطدم بالعقبات، فكلما بدأ ببناء سفينة صادفه ما يعرقل مشروعه. ومن ذلك أن أحدهم، ويدعى بياز من أهل برايييني - وبعضهم يقول إنه بيناكوس، وهو ميتلاني - حضر إلى ساردیس، وأخبر كرويسوس عند سؤاله عن أحوال بلاد الإغريق، بأن أهل الجزر يحشدون عشرة آلاف حصان لمهاجمته في عقر داره. ولقد أخذ كرويسوس بهذه المعلومات كما أوردها صاحبها، وما كان منه إلا أن صاح عند سماعها: «ماذا؟ أهل الجزر يعتزمون الهجوم على الليديين على ظهور الخيل؛ ياليتهم يفعلون». فقال الرجل: «أحسبكم، يا مولاي، تتشوقون للقضاء عليهم وهم على البر: والحق أنكم معذورون إن فعلتم ذلك. ولكن هؤلاء على دراية بنواياكم في بناء أسطول لمهاجمتهم - وماذا تراكم تتوقعون منهم سوى الرغبة في فرصة للإيقاع بكم في البحر؟ فلسوف تكون هذه فرصتهم للانتقام لإخوتهم على البر، الذين جعلت منهم عبيداً». ولقد أثار هذا العرض خيال كرويسوس، وبدا له عرضاً عملياً إلى حد أنه أقلع عن فكرة بناء الأسطول، وعمل على عقد معاهدة صداقة مع أهل الجزر الأيونية.

والايونيون عنصر أصيل في منطقتهم لكن الدوريين قوم رحل، وكان موطنهم في أيام ديوكاليون في فثيوطيس، وقد عرفت في أيام دوروس بن هيلينة باسم هستيايوطيس، وهي مجاورة لاوسا وأولمبوس؛ ثم طردوا من بلادهم على يد الكادميين، واستقر بهم الأمر في بندوس، حيث عرفوا بالمقدونيين، ومنها هاجروا

إلى درويوبيس، فجزر البيلوبونيز، وفيها عرفوا بالدوريين. ولست أملك أن أجزم بحقيقة لسان البلاسجة. ولكن إذا كان لنا أن نستخلص أمراً عن لسانهم اليوم، فإنهم يتكلمون مثل هؤلاء الذين يعيشون في كريستون في أعالي جبال التيرانيه، وكانوا يقيمون قبلاً في المنطقة التي تعرف باسم ثيساليوليتس، ويجاورون من يعرفون الآن باسم الدوريين، ولسان أولئك الذين أنشؤوا مدينتي بالاسيا وسيلاسى على جبل هيليسبونت، وكانوا مواطنين في أثينا والمدن البلاسيجية الأخرى، والتي تبدلت أسماؤها منذ ذلك الحين. ولو كان لنا، كما سبق القول، أن نبلغ استنتاجاً مما تقدم، لوجب علينا القول إنهم ينطقون بلسان غريب ليس مألوفاً فيما عرف من ألسنة جيرانهم. وإذا صح هذا القول، وكانوا كلهم ينطقون بلسان واحد، فلا ريب أن الأثينيين، وهم بلاسجة كلهم، كانوا ينطقون بلسان واحد، ثم تخلوا عنه فيما هم يندمجون في المجتمع الهيليني؛ ذلك أنه أمر لا ريب فيه أن أهل كريستون كانوا ينطقون بلسان لا يشابه جيرانهم، كما يصدق هذا على البلاسجة، وكلاهما ينطقان باللسان ذاته؛ وذلك ما يبين أنهما ظلا على اللسان الذي حملاه يوم دخلا تلك البلاد التي استقروا بها.

وأما الهيلينيون فما استبدلوا لساناً بآخر، فظلوا على لسانهم الذي كان لهم منذ قديم الزمن. وهذا أمر جلي لدي أنا على الأقل، وهؤلاء القوم فرع من البلاسجة انفصل عن الأصل، وكانوا في أول عهدهم قلائل وليست لهم قوة يُعتدُّ بها؛ ثم أخذوا في الازدياد وشرعوا في الانتشار شيئاً فشيئاً، حتى أصبحوا جمعاً من عدة شعوب من البرابرة الأجانب الذين دخلوا في صفوفهم. وأما البلاسجة فيغلب عندي أن عددهم لم يزد كثيراً.

ولقد وجد كرويسوس، عند البحث في أحوال هذين الشعبين، أن الأثينيين كانوا يعانون أشد الاضطهاد والقمع على يد بيزيستراتوس، ولد أبيقراط. وقد قيل أن أبيقراط هذا مضى يوم كان مواطناً عادياً إلى جبل أوليمب ليشهد المباريات الرياضية، فصادف أمراً عجيباً. كان الرجل يقدم القرابين، فوقف

عندئذ بجانب القدور المليئة بالماء ولحوم الأضاحي، فإذا بها تغلي وتفور دونما نار تحتها. وقد نصحه تشيلون اللاكديموني، وكان يقف بجانبه مصادفة، وشهد الواقعة، ألا تدخل بيته امرأة، إن لم يكن متزوجاً، فتحمل له ولداً؛ أما إذا كان متزوجاً فالأجدر به عندئذ أن يعيد زوجته إلى أهلها؛ وزاد أن ينكر ولده، إن كان له ولد. ولكن أبيقراط أهمل النصيحة، وما هو إلا حين حتى ولد له بيزستراتوس. ولقد زين الفكر لبيزيستراتوس هذا، وهو يشهد اندلاع الحرب الأهلية في أتيكا بين أهل الساحل وعلى رأسهم ميجاكليس ولد ألكمنيد، من جهة، وأهل الداخل بزعامة ليكورجس الأرسطوليدي، أن يطغى على أثينا، فغدا بذلك رئيساً لحزب ثالث. فاجتمع له حشد من الأنصار، وأعلن نفسه، منذ تلك اللحظة، حامياً لأهالي الجبال، ثم تفتق ذهنه عن حيلة ليدعم مكانته بين قومه؛ فعمد إلى جرح نفسه وأثخن دوابه كذلك بالجراح، ودخل البلدة زاعماً أن أعداءه أعدوا له وهو في طريقه كميناً لاغتياله، ولكنه أفلت منهم بحياته بعد معركة. وكان أن حمل الناس على وضع جماعة لحراسته، بعد أن ذكرهم بالفوز العظيم الذي تحقق لهم حين قاد الهجوم على الميجاريين، واستولى على نيسبيا، فضلاً عما كان له من أعمال خارقة في تلك الأحداث. وقد خدع الأثينيون بروايته فكلفوا جماعة من مواطنيهم، مسلحين بالهراوات والعصي بدلاً من الرماح، ليرافقوه أينما ذهب أو حل. فلما امتلك هذه القوة أعلن الثورة واستولى على القلعة، فدانت له المدينة، واستمر سلطانه عليها، دون أن يبدل شيئاً في أحوالها أو أهل النفوذ فيها أو القوانين السائدة فيها. وقام على إدارة الشؤون حسب الأصول والعرف، فعرف بالحكمة والعدل.

ولكن ما إن مضى حين حتى اتفق أنصار ميجاكليس وليكورجس على طي خلافاتهم وتوحيد صفوفهم لطرده من كرسي السلطة. وهكذا فقد بيزيستراتوس سطوته، قبل أن يرسخ سلطانه. فلما أدبر عاد الفريقان اللذان تآمرا على طرده إلى سابق عهدهما، واحتدم الخلاف بينهما من جديد، وفي النهاية بعث

ميجاكليس برسول بعد ما أنهكه النزاع، عارضاً على بيزيستراتوس إعادته إلى العرش، شرط أن يتزوج بابنته. وقد قبل بيزيستراتوس العرض وشرط الزواج، ثم مضى الرجلان لتدبير أمر استعادة بيزيستراتوس السلطة في أثينا. وكان ما تفتق عنه فكرهما من أسخف ما بلغني من أخبار الماضي، ويزيد من سخف الحيلة ما يعرف عن الإغريق منذ القدم من تفوقهم على سواهم من الأقوام في الحكمة وبرئهم من السخف والسذاجة، والأدهى أن أولئك لم يكونوا إغريقيين وحسب، وإنما أثينيون أيضاً، وهم الذين يبزون كل الإغريق ذكاء وحصافة. فاتفق الجميع على أن تقوم امرأة من أهالي بانيا تعرف بفايا، وكانت طويلة القامة عريضة المنكبين، ذات شكل حسن، بالدعوة له، بأن ألبسوها درعاً وخوذة، وقاموا بتدريبها على السير على نحو خاص يلائم دورها الذي شاؤوه لها، ثم أركبوها عربة تجرها الجياد، وأخذت تدور في أرجاء المدينة، وهي تعلو بصوتها: «يا أبناء أثينا! عليكم بيزيستراتوس، استدعوه بعقول عامرة بالود. فأثينا [إلهة النصر] التي تجله أشد الإجلال قد عادت به وأدخلته قلعتها». وسرت صيحتها بين الناس، وانتشر القول للتو في كل أرجاء المنطقة أن أثينا جاءت مصطحبة الرجل الأثير عندها. وصدق أهل المدينة أن تلك هي ربة حقيقية لا ريب فيها، وانحنوا أمامها، وعملوا بما أمرت وأعادوا بيزستراتوس إلى العرش.

حين استعاد بيزستراتوس سطوته، تزوج بابنة ميجاكليس، حسب الاتفاق. ولكن لما كان الرجل صاحب أسرة وأولاده من اليافعين، ووجد أن اللعنة تلاحق الألكمنيد، صح عزمه على ألا يعقب من هذا الزواج. ولقد حرصت زوجه في البداية أن تبقي الأمر سراً، حتى باحت به بعد حين لأمها بعد سؤالها عن الخلف، أو لعلها أفشته دونما سؤال. ومهما كان الأمر فقد كشفت الحقيقة لأمها، فأبلغتها بدورها لزوجها. فغضب الرجل لهذه الإهانة التي لحقت به من رجل يدين له بالفضل في ما هو فيه من النعمة، وحمله الغضب على تسوية خلافه مع العصبة المناوئة. ولما بلغ بيزستراتوس ما يخطط له أدرك فداحة

الخطب، فانسل من البلد، ملتجئاً إلى ارتيريا[٩]. وما إن حط الرحال هناك حتى عقد مجلساً وأبناؤه ليقرروا خطة للعمل. وكان الرأي في ذلك المجلس لهيبياس، واستقر القول على العمل على استعادة السلطان في أثينا. وكان أول ما قام به الجمع أن أخذوا في الاقتراض من الدول التي ظلت تدين له بالولاء. وتوفر له يومذاك أموالاً طائلة تضافر على جمعها عدد من البلدان، وخاصة من أهالي طيبة الذين قدموا المال بسخاء دونه كل البلدان الأخرى. وخلاصة القول أن الأمور سارت على نحو ما شاء المؤتمرون، وما هو إلا حين حتى باتت الأحوال مهيأة لعودتهم. ورسخت قوتهم حين جاءت جماعة من الجنود المرتزقة من آرجو، ومن الجزر البيلوبونيزية، وانضم إليهم ليجداميس الناكسوني، وكان شديداً في مناصرته لبيزيستراتوس لا يبخل في سبيل قضيته لا بالمال ولا بالرجال.

ولما كانت السنة الحادية عشرة من حياة المنفى، شد بيزيستراتوس الرحال من ارتيريا عائداً وأسرته إلى البلد، متجهين بادىء الأمر إلى ساحل اتيكا، بالقرب من ماراثون[١٠]، حيث أقاموا معسكرهم، وهناك انضم إليهم أنصارهم وأعداد من أهالي المقاطعات من الذين يؤثرون حكم الطاغية على الحرية. أما أهالي أثينا فلم يكونوا يلتفتون إلى ما كان يدبره لهم بيزستراتوس، حتى بعد أن أخذ في جمع المال لتمويل حملته، ولم يأخذوا بتحركاته على محمل الجد، وإن بلغهم نزوله في ماراثون. ولكن لما جاءهم نبأ مغادرته أرض ماراثون وسيره نحو المدينة تنبهوا للأمر وأخذوا يستعدون للمقاومة، وعبأوا لذلك كل ما توفر للبلد من أسباب القوة، وساروا من ثم لرد المنفيين على أعقابهم. وبينما كان خصومه يجدون في السير إليه، وصل جيشه قريباً من معسكرهم عند معبد أثينا البلانية، فعسكر قبالتهم. وهناك جاءه الكاهن امفيليتوس الأكارناني[١١]، مدفوعاً برؤى إلهية، وقال له مخاطباً: «أما وقد سارت الأمور بما شاءت الأقدار، وغاصت الشبكة في الأعماق، فلسوف تتسرب في ضوء الليل الساطع الأسماك عبر عيونها وتعلق».

ولقد اضطرب بيزيستراتوس إذ أدرك معنى النبوءة، ولكنه قبل بها، وتقدم بجيشه للاشتباك بالعدو. وكان الأثينيون قد انتهوا لتوهم من الغداء، وخلدوا للراحة، فأخذ بعضهم في لعب النرد، بينما كان بعضهم في قيلولة، وفي تلك الأثناء داهمهم بيزيستراتوس وأخذ في مطاردتهم. ثم خطرت بباله فكرة مبتكرة لتشتيت شملهم ومنع فلولهم من الاجتماع بأن دفع بأبنائه إلى المقدمة لقطع الطريق على الهاربين وكسبهم بوعدهم بالأمان، إن هم اختاروا العودة إلى بيوتهم، والامتناع عن المشاركة في الحرب ضده. فقبل الأثينيون النصيحة، وغدا بيزيستراتوس سيد أثينا للمرة الثالثة.

ولما استقر لبيزيستراتوس الحكم شرع في تثبيت سلطانه، مستعيناً بقوة كبيرة من الجنود المرتزقة، وتكديس الأموال في الخزانة، مما تحقق بالضرائب التي فرضها على أهل البلد، من جهة، وما أتاه من البلدان الواقعة على نهر الستريمون. كذلك فرض على العديد من الأثينيين الذين لم يشهروا السلاح في وجهه أن يأتوه برهائن من أهلهم، لئلا يخطر ببالهم العصيان أو التمرد عليه؛ وقد أرسل بهؤلاء إلى ناكسوس التي كان قد أخضعها بحد السيف. ثم قام بتطهير ديلوس، حسب ما قالت النبوءة، بأن نقل كل القتلى الذين تم دفنهم بالقرب من معبد كان قد أقامه، ودفن رفاتهم في موقع آخر. ذلكم هو حكم الطغيان الذي أرساه بيزيستراتوس في أثينا، فكان أبناؤها إما قتلى في ساحة الحرب أو لا جئين هربوا، ومنهم الألكمنيد، طلباً للأمان.

ذلكم هو حال الأثينيين يوم كان كرويسوس يستقصي أوضاعهم. وقد بلغ علمه حين سأل عن اللاكيديمونيين النصر على التيجينيين أتاهم بعد كرب عظيم؛ ومصدر تلك الشدة أن اللاكيديمونيين الذين كانت لهم السيادة في كل حروبهم الأخرى، في عهد ملكي اسبارطة، ظلوا يعانون الانحدار على يد التيجيين. كذلك عرفوا بالماضي بأنهم أكثر الإغريق تمرداً، ولا يرجى منهم حسن الحكم، إن في داخل بلادهم أم في سلوكهم تجاه الأجانب الذين كانوا يتعمدون النأي عنهم. أما الظروف التي أدت إلى حسن الحكومة فترجع إلى أن ليكورجوس، وكان من

ممتازي اسبارطة، زار معبد دلفي ذات مرة طلباً لنبوءة العرافة؛ وما كادت قدماه تطأ رواق المعبد حتى سمع الكاهنة تصرخ بأعلى صوتها: أهلاً بليكورجوس العظيم الذي جاء يزور مقري البديع الأثير عند زيوس وجميع الآلهة في أروقة أولمبوس، وإني لعاجزة لا أدري إن كان عليّ أن أعرفك ملكاً، أم إنساناً، ولكني أرجح بأنك، أي ليكورجوس، من الآلهة».

وقد ذكر البعض أن الكاهنة أعطت ليكورجوس، بعد تلك النبوءة، كل ما يلزم الاسبارطيين من الشرائع والقوانين. أما اللاكيديمونيون فيؤكدون، أن ليكورجوس قد أتى بتلك القوانين، يوم كان وصياً على ابن أخيه لابوتاس، ملك اسبارطة، من جزيرة كريت؛ وآيتهم في ذلك أن ليكورجوس عمد بعيد توليته الوصاية إلى سن قوانين ووضع أعراف جديدة بدلاً من القديمة، ثم حرص على أن يتبعها الرعايا جميعهم سواء بسواء تحت عينه المدققة. ولما فرغ من ذلك الأمر عمد إلى تنظيم قدرات الدولة لخوض الحرب وكل ما يتصل بها، فأنشأ نظام الفيالق ونظمها في فرق ميدانية وأفواج وكتائب، ثم أقام مجلسين أحدهما للشيوخ والآخر للعامة وهكذا كان تحول اللاكيديمونيين إلى شعب منضبط حسن التنظيم.

ولقد بلغ ليكورجوس مكانة عظيمة عند قومه حتى إنهم شيدوا له عند وفاته معبداً وما انقطعوا يتعبدون له منذ ذلك الحين. ولما كانت أرضهم شديدة الخصوبة، وأعدادهم غفيرة، فلم يمض إلا حين حتى أصبحوا قوة يعتد بها، وغدوا يعيشون في رفاه ورخاء. وكانت نتيجة ذلك أنهم سرعان ما زايلتهم حالتهم السابقة من القناعة بما هم فيه؛ فبعثوا برسول لسؤال الكهنة في المعبد إن كان يجدر بهم أن يغزوا أركاديا، و يهيمنوا على الأركاديين، وهم، في نظرهم، الأدنى. فأجابت الكاهنة:

أتريدون الاستيلاء على أركاديا؟ إنها لرغبة ملؤها الجرأة. ولست أرضى عنها

إن أهالي اركاديا لكثرة وهم قساة، طعامهم خشب البلوط
ولن يستكينوا أمام من يهاجمهم. ولا أقول هذا توجساً.
وسأعطيكم تيجيا ولترقصوا رقصة النصر فيها،
ولتصخبوا ، ولتنالوا ما طاب لكم من أرضها الطيبة.

فلما سمع اللاكيديمونيون ما قالته الكاهنة، أعرضوا عن أركاديا وضربوا عنها صفحاً، وتوجهوا بدلاً عنها إلى تيجيا، حاملين معهم الأصفاد ليقيدوا بها أيدي من سيقع في أسرهم من أهلها. والحق أنهم كانوا على ثقة عظيمة بصدق النبوءة حتى إنهم لم يتكلفوا في صنع الأغلال فاقتصروا على المعادن الرخيصة. ولكن الدائرة دارت عليهم فسقط منهم عدد كبير في أيدي أعدائهم. وقد غدا هؤلاء الأسرى عبيداً يعملون في صفوف في حرث أرض التيجيين، مكبلين بالأغلال التي حملوها ليقيدوا بها من جاؤوا لقهرهم فأصبحوا أسيادهم. وما زالت هذه الأصفاد إلى اليوم في تيجيا، معلقة على جدران معبد أثينا.

ولقد ظل اللاكيديمونيون(١٢) طوال ذلك الصراع مع التيجيين لا يلقون إلا الاندحار تلو الاندحار؛ إلا أن أحوالهم عادت فتغيرت في زمن كرويسوس، في عهد الملكين اناكسندريدس وارسطو، على نحو ما أنا ههنا مفصل له. فلما كان هؤلاء يمنون بالهزيمة في كل مواجهة مع أعدائهم أرسلوا من يسأل العرافين هناك ما ينبغي عليهم عمله وأي إله عليهم اللجوء إليه لينصرهم على التيجيين. وكان قول الكاهنة إن عليهم قبل الانتصار على التيجيين نقل رفات أوريستيس بن آجمنون إلى أسبارطة. فلما بحثوا عن بقايا اوريستيس وعجزوا عن تحديد مكان قبره، بعثوا بوفد آخر ليسأل الكاهنة مكانه. فجاء جوابها على النحو التالي:

ابحثوا ونقبوا في السهل حيث يقف التيجيون والأركاديون؛
هناك حيث تعصف الرياح من الطرفين، وينزل الشر بالشر.
هناك تضم الأرض الزاخرة ابن اتريديس؛

احملوه إلى المدينة، ثم تكون تيجيا لكم.

ظل اللاكيديمونيون يبحثون وينقبون عن بقايا اوريستيس حتى أعياهم البحث والتنقيب، ولم يزدهم ذلك معرفة بمكانه ؛ ثم قيض لهم أخيراً من يعثر على المكان، وكان رجلاً من الاسبارطيين المعروفين بالأجاثوريكيين، وهم الفرسان المسرحون، ويدعى ليخاس. وقد جرى القوم على تسريح أقدم خمسة من الفرسان كل عام، وكان يتحتم على هؤلاء الخدمة حيثما تقتضي منهم الدولة العمل، والإخلاص في خدمتها. وكان ليخاس هذا واحداً من هذه الجماعة عندما قدر له بشيء من الحظ والحكمة أن يقع على المكان الذي دفن فيه اوريستيس. فقد صدف أن سافر إلى تيجيا ذات مرة، وكانت العلاقات بين البلدين يومذاك طيبة، ثم اقتضى منه الأمر أن يدخل محل أحد الحدادين. وهناك وقف ينظر حوله متعجباً مما يرى، فلمحه الحداد فترك ما كان يشغله واقترب من ليخاس هذا، وقال له مخاطباً: «إذا أعجبك عملي في تطويع الحديد، أيها الأسبارطي الغريب، فلا ريب أنك ستدهش بما عندي، وهو عجيب. فقد أردت إصلاح هذا المحل، فبدأت بتسوية الأرض، وشرعت في الحفر فيها، وعندئذ وقعت على شيء يحمل المرء على العجب فماذا تحسبه؟ لقد وقعت على تابوت يبلغ أحد عشر قدماً طولاً [قرابة ثلاثة أمتار ونيف] . وما كنت أعتقد بما يقال عن عمالقة الزمان الغابر، فزينت لي نفسي أن أفتح هذا التابوت، فوجدت فيه جثة بذات الطول: فقد قمت بقياسه، ثم ردمت الحفرة، وعادت الأرض كما كانت من قبل».

كانت تلك رواية الرجل عما شاهد بأم عينه. أما الآخر فأخذ يقلب الرواية على كل وجه، فوقع في يقينه أن ذاك هو بلا ريب جسد اوريستيس الذي تحدثت عنه النبوءة. ورسخت قناعته بصدق الرواية حين رأى الحداد ينفخ في كيرين، أي مصدر الريحين، ويطرق بالمطرقة ويعتمد على السندان في الضرب والطرق. ولاح لخياله أن في هذا يكمن سر النبوءة، حين ينزل الشر بالشر. ذلك أن الحديد يسوى حين يطرق بالمطرقة على السندان، فيكون نزول الشر على الشر،

وقدر الرجل أن اكتشاف الحديد إنما كان شراً على الإنسان. وأسرع الرجل ينهب الطريق، وقد تملكت عقله تلك الأفكار، عائداً إلى أسبارطة، ليعرض الأمر على مواطنيه. وسرعان ما أحيل الرجل للمحاكمة، وفق خطة مبيتة. فهرب ليخاس لاجئاً إلى تيجيا، ومضى إلى صاحبه الحداد فور وصوله إليها، وشكا إليه أمره وما عاناه من أهل بلده وطلب إليه تأجيره غرفة ليبيت فيها. ولكن الحداد أعرض عن ذلك، وظل على إعراضه حيناً من الزمن، حتى تمكن ليخاس في النهاية من إقناعه، فقبل بتأجير ذلك الموقع، فجعله سكنه. ولما خلا المكان له شرع فوراً في فتح القبر وانتشل عظام صاحبه، ثم نفذ بها إلى أسبارطة، وكان أن انقلبت المصائر بعد تلك الواقعة وأصبح النصر حليف الأسبارطيين في كل معركة بينهم والتيجيين، ومن ثم باتوا السادة في معظم الأرض البيلوبونيزية.

ولقد أمكن لكرويسوس مع الزمن أن يخضع لسلطانه كل الأقوام الذين يسكنون غرب نهر ڤيزيل، عدا الكيليكيين والليسيين. وأما الأقوام الباقية ، مثل الليديين والفيريجيين والميلسيين والماريلنديين والخالبيين والبافلاجونيين والتراقيين (التاينيون منهم والبيثيان) والكاريين والأيونيين والدوريين والأيوليين والبامفيليين[١٣]، فقد جعلها خاضعة له.

ولما دخلت هذه الأقوام جميعها في إمبراطورية الليديين، وغدت ساردِيس في ذروة الرفاه والعز، وجدنا كبار المعلمين الإغريق في ذلك العصر يزورون العاصمة الواحد تلو الآخر. وكان من أبرز أولئك الزائرين صولون الأثيني[١٤] الذي سن الشرائع للأثينيين، بناء على طلب مواطنيه. وكان في سياحة، تستغرق عشر سنوات، نائياً بنفسه عن الناس، تفادياً لاحتمال تعديل تلك الشرائع التي استنها بنفسه. وكان ذلك السبب الحقيقي لهذا الغياب عن موطنه، وإن زعم أنه إنما ينشد السفر للاطلاع على أحوال العالم. ذلك أنه ما كان بوسع الأثينيين أن يغيروا تلك الشرائع والسنن، بعدما أقسموا على وضعها موضع الاختبار عشر سنوات، قبل أن يعملوا على تعديلها. فلهذا السبب، إذن، ولمتعة السياحة بلا

ريب، غادر صولون موطنه، ومضى إلى سارديس لمقابلة كرويسوس، بعد زيارة بلاط أمازيس في مصر.

ولقد أكرم كرويسوس وفادته وأحله ضيفاً مكرماً على قصره، وبعد ثلاثة أيام أو أربعة من وصوله وجه بعض خدمه لمرافقته في جولة اطلع فيها على الخزائن الملكية وعاين الثراء والروعة اللذين يشيعان في كل الأرجاء. ولما تعرف صولون إلى أحوال الملك، قدر ما أتاحت له الفرصة ذلك، قال له كرويسوس: «لقد بلغني عنك، يا صديقي الأثيني، وعرفت الكثير عن حكمتك، ومبلغ ترحالك وأنت تضرب في الأرض بحثاً عن المعرفة. ولست أملك مقاومة الرغبة في سؤالك عمن وجدته أسعد الناس قاطبة؟». وكان هذا السؤال ينطوي على اعتبار كرويسوس ذاته أسعد البشر. ولكن صولون لم يشأ المداهنة، وأجاب بقول صريح حسبما أملاه عليه رأيه في الحقيقة؛ فقال: «إنه رجل في أثينا يدعى طيلوس». فذهل كرويسوس لما سمع، وعاد يسأل صولون بنزق: «وما هو السبب الذي يحملك على اعتباره أسعد الناس؟». وأجاب صولون: «هناك أسباب وجيهة لهذا الاعتبار. وأولها أن بلده ترفل في عيش رغيد، وكان له أبناء كأحسن ما يكون الأبناء، وامتد به العمر ليرى كل ولد ينجب أولاداً، وقد عاشوا جميعاً، ولم يفقد منهم أحداً، وثانيهما أنه كان من أهل اليسار حسب معاييرنا، ثم قضى على أكرم وجه. فلقد خاض معركة نشبت ومدينة اليوسيس المجاورة، وأبلى بلاء حسناً فقاتل الأعداء كأحسن ما يكون القتال، وسقط سقوط الشجاع؛ فكرمه الأثينيون بأن أقاموا له جنازة رسمية حيث سقط».

ولا ريب أن صولون أراد من استرساله في وصف أسباب سعادة طيلوس أن يعرض للملك درساً في الأخلاق؛ ولكن كرويسوس عاد يسأله عمن يعتبره ثاني أسعد الناس، وهو يظن أنه سيوليه هذه المرتبة.

قال صولون: «هما فتيان من أرجوس، يدعى أحدهما كلوبيس والآخر بيتون. وكانا على قدر من اليسار يسمح لهما بحياة كريمة؛ ولهما قوة بدنية برهن عليها

فوزهما في المباريات الرياضية، والأهم من ذلك ما تنبئ به الحادثة التالية. فلقد كان أهل أرجوس يحتفلون ذات يوم بعيد الإلهة هيرا، وكان على أم الشابين أن تذهب إلى المعبد، في هذا الاحتفال، في عربتها التي يجرها ثور؛ ولكن صادف أن تأخرت الثيران في العودة من الحقل. فما كان من ولديها، وقد تأخر الوقت، إلا أن وضعا نفسيهما موضع الثور وجرا العربة، وفيها أمهما، مسافة ستة أميال حتى بلغوا المعبد. ولما انتهى الجمع إلى مقصدهم، والناس شهود على هذه الواقعة، سقطا ميتين وقد أثار موتهما إعجاب الناس، إذ كان شاهداً أرسلته السماء على تفضيل الموت على الحياة. وأخذ الناس يقبلون على تلك الأم مباركين مهنئين على ما أبداه ولداها من قوة وجلد، والنساء لا ينقطعن عن تهنئتها، إذ كان لها مثل هذين الولدين، حتى عمر فؤادها بالحبور لما أصاب ولديها من تقدير الناس لذلك البر، فابتهلت إلى هيرا، وهي في معبدها، أن تمنح كلوبيس وبيتون أعظم ما يمكن أن تمنح بشراً من البركة. ولما انتهت الصلاة انتقل الناس إلى طقوس التضحية والصوم؛ وحين انتهى القوم من تلك المراسم اضطجع الفتيان واستغرقا في النوم بين جدران المعبد ـ وكانت تلك هي الخاتمة، إذ لم يقدر لهما أن يستيقظا من ذلك النوم العميق بعد ذلك قط. ولقد احتفل أهل آرجوس بهذين الشابين أعظم احتفال وأعلوا من شأنهما أشد إعلاء، ثم أمروا بصنع تمثالين لهما وبعثوا بهما إلى معبد دلفي لينصبا هناك».

وضاق كرويسوس عندئذ بصولون إذ جعل جائزة السعادة الثانية من نصيب شابين من آرجوس، فقال محتداً: «لا بأس بما ذكرت، يا صاحبي الاثيني؟ ولكن ما قولك في ما أنا فيه من السعادة؟ أفتراني غير جدير بالمقارنة مع البسطاء من الناس الذين ذكرتهم؟».

ورد صولون بهذه العبارات: «أي كرويسوس، قد علمت أن الرب يضيق إذ يجد البشر في هناء، وتراه يتكلف ازعاجنا؛ وها أنت ذا تسألني عن مصائر الإنسان فاصغ، إذن، لما أقول: إن الإنسان ليرى ويخبر كلما طالت به الأيام

أموراً كان يود لو عاين ما هو أفضل منها. خذ حياة الإنسان ولتكن سبعين عاماً: فهذه تتألف من ٢٥٢٠٠ يوم، سوى ما كان من الشهور الكبيسة. ثم أضف شهراً على كل سنتين، تسوية للفصول حتى ينتظم تسلسلها، فيتحقق لديك خمسة وثلاثون شهراً أخرى، وقوامها ١٠٥٠ يوماً آخر. ويكون لك في هذه السنوات السبعين من حياتك ٢٦٢٥٠ يوماً، ليس منها يومان متماثلان في ما يمر بك خلالهما. فالإنسان، إذن، كما ترى ياكرويسوس، نتاج المصادفات. وقد تبدو على ثراء فاحش، و تخضع لحكمك شعوب وأمم؛ ولكني لن أجيب عن السؤال الذي طرحته، حتى يتأكد لدي أنك انتهيت إلى الموت سعيداً. فالثراء الطائل لن يجعل صاحبه أسعد من رجل رقيق الحال؛ إلا إذا حالفه الحظ وظل على ثرائه إلى أن يتوفاه الأجل. فكم من ثري ساءت عاقبته، وكم من رجل رقيق الحال، إنما كان الحظ حليفه ففاق سواه. فالثري يتفوق في أمرين لا ثالث لهما؛ أما الفقير فيتفوق في أمور عديدة، إذا كان الحظ حليفه؛ ولئن كان بمقدور الغني أن يشبع شهواته ويتحمل مصائب الدهر، والفقير لا يملك شيئاً مما يملكه الآخر، فإن هذا الفقير، إذا كان محظوظاً، سوف يتمتع بنعمة الصحة والعافية والسلامة والخلو من المتاعب والمشاكل ويرزق بالأطفال ويحظى بالشكل الحسن. فإن صادفت رجلاً، قد حالفه الحظ فمات على نحو ما عاش، فهو عين ما أنت باحث عنه؛ فهذا وحده الجدير بأن يوصف بالرجل السعيد. ولكن حذار من أن تقول في رجل أنه «سعيد» حتى يموت. ذلك أن المرء لا يكون سعيداً إلى أن يقضي، وقبل ذلك هو محظوظ وحسب. وغني عن القول أن ليس هناك من إنسان يتمتع بهذه المزايا كلها، كما ليس هناك من بلد ينتج كل ما يحتاج إليه؛ فمهما بلغ بلد من الغنى لا بد وأن يقصر في أمر ما. وما يقال في البلاد يصدق على البشر أيضاً؛ ذلك أننا لم نعلم بأمر إنسان بلغ الكمال بذاته، ولو نظرنا في حاله لوجدنا قصوراً في جانب ما. ولكن إذا ما توفر له القدر الأكبر مما ذكرت، وظل عليها إلى نهاية حياته، ومات في سكينة، كان عندي، ياكرويسوس، جديراً بأن

يقال فيه إنه كان سعيداً. فانظر في العواقب في كل ما يعرض لك. فكم من مرة أبدى الإله لا مرىء شيئاً من السعادة، ثم قلب عاليه سافله».

إن تلك الآراء لم تكن لتروق لكرويسوس؛ فترك صولون يمضي غير مأسوف على ذهابه، واثقاً كل الثقة من أن محدثه أحمق إذ ماذا يمكن أن يكون أشد غباء من أن يكرر عليه الدعوة للنظر في «عاقبة» كل أمر ويسهو عن روعة الحاضر؟

بعيد مغادرة صولون نزلت بكرويسوس مصيبة طار لها صوابه، ويقال إنها كانت نقمة من الإله، لاعتقاده تيهاً أنه أسعد الناس. وكان مبدأ الأمر حلماً عرض له في نومه، وبدا فيه أن مصيبة حلت بولد له ـ وقد صدق هذا الحلم ـ وكان للرجل ولدان، أحدهما يعاني الصمم والبكم، والآخر، ويدعى آتيس، وكان فتى غاية في الكمال. وقد رأى كرويسوس في حلمه ابنه آتيس هذا ميتاً بضربة من سلاح من الحديد. فصحا من حلمه مذعوراً، وأسرع بتزويج ابنه، وحرص على منعه من مشاركة الجنود تحت قيادته التدريب في ساحة القتال، ثم نزع كل الأسلحة من رماح وسواها من غرف الرجال، وأمر بنقلها إلى حجرات النساء، خشية أن تسقط قطعة منها من الجدران، حيث تعلق، على رأس آتيس فتصيبه بشر.

وفيما كانت ترتيبات زواج الفتى جارية على قدم وساق، صادف أن جاء إلى ساردیس رجل غريب بائس عرف عنه أنه قتل رجلاً. وكان هذا من فريجيا، وله صلة بالعائلة المالكة فيها. ولقد قدم الرجل نفسه إلى القصر والتمس من ويسوس أن يجيره ويبرئه من إثم سفك الدم حسب قوانين البلد (وهو تقليد جار في ليديا كما في بلاد الإغريق)، فأجاره كرويسوس. فلما انتهت مراسم الاستقبال، أراد كرويسوس أن يعرف اسم الرجل والبلد الذي قدم منه، فسأله: ما اسمك، أيها الغريب، ومن أي طرف من فريجيا جئت لاجئاً إلينا؟ ومن هو ذاك الرجل أو المرأة التي قتلت؟». وأجاب الغريب بقوله: «أنا ابن جوردياس، يا

مولاي، وميداس جدي، واسمي ادراستوس. ولقد قتلت أخي في حادث عارض، دونما قصد، فطردني والدي من البيت، وجردني من ممتلكاتي».

فقال كرويسوس: «إن صداقة تجمع بين أهلي وأهلك. فمرحباً بك، فأنت بين أهلك. فإن شئت أن تبقى في أرضنا فلك كل ما ترغب وتحتاج. وطب نفساً ولا تتكدر بما وقع، فقد كان ما كان وليس يجدي أن تثقل فؤادك بأمر مضى وانقضى».

وللتو نزل ضيفاً في قصر كرويسوس. وصادف أن ظهر في ذلك الوقت خنزير بري شديد الفتك في نواحي جبل أولمبوس بمايسيا. وقد اعتاد هذا المخلوق الشرس أن ينزل من مكمنه في الجبل ويعيث فساداً وخراباً في حقول المزارعين في تلك الأطراف، ولم يجد في مكافحته كل ما بذله أبناء المنطقة من جهود وما نصبوه له من أفخاخ وشراك؛ بل إن ما نزل بهؤلاء المزارعين البائسين من خراب بسبب هذا الخنزير الضاري ليفوق ما كانوا يسببون له من إزعاج. وما كان لهم في النهاية، بعدما أعيتهم الحيلة، إلا اللجوء إلى كرويسوس، فأرسلوا إليه الرسل يستجدونه. وكان أن خاطبه ذلك الوفد على النحو التالي: «قد ظهر لدينا، يا مولانا، خنزير بري شرس فتاك، وما انقطع منذ ذلك الحين عن الفتك بمحاصيلنا، وما أنزله بنا من الخراب لمخيف. وإننا ساعون إلى الإمساك به، لولا أننا لم نقدر على ذلك. فنرجوكم، يا مولانا، أن توجهوا نجلكم وفريقاً من الشبان معه، وبعض الكلاب، لنتخلص من هذا الوحش الكاسر».

فرد عليهم، قائلاً: «ليس بوسعي أن أبعث به في هذه المهمة. فقد تزوج الفتى لتوه؛ وهذا ما يشغله الآن. ولكني لا ريب مرسل لكم بخيرة الرجال مزودين بكل عدة الصيد، ولسوف أحملهم أمري بأن يبذلوا كل جهد للتخلص من هذا الحيوان».

ولقد اطمأنت نفوس المايسيين لهذا الجواب؛ ولكن صادف أن دخل آتيس الغرفة، والقوم فيها يتداولون وكرويسوس في الأمر، فسمع ما كان يدور بينهم.

فلما علم أن أباه رد طلبهم بمشاركته في حملة الصيد، قال له: «إن الشرف يقضي، يا أبت، أن أبرز بين الصيادين والمقاتلين؛ وهأنتذا، وإن كنت لا تملك أن تتهمني بالجبن وضعف الحمية، تنكر عليَّ المشاركة في هاتين المهمتين المكرمتين. فما ظنك في الناس يقولون في شأني وأنا أسير بين القصر والمجلس! وكيف ينظرون إليَّ! وماذا ترى فيَّ زوجي الفتية؟ أفلن تستخف بي، بل أخشى أن يذهب بها الظن إلى أنها ابتليت بزوج هو دون الأزواج؟ فيا أبي إما أن تدعني أشارك في هذه الحملة أو تقدم لي سبباً مقنعاً بأن هذه الحملة تنطوي على ما يضيرني».

قال كرويسوس: «يا بني، إنه لحق أنك لست بالجبان وليس بك ما يشين. وما حملني على ما فعلت لا ينتمي إلى هذه الأسباب. فالحق هو أن حلماً راودني بأنك ستعيش حياة قصيرة ـ ولسوف تموت بطعنة من رمح. وهذا الحلم هو ما جعلني استعجل زواجك، وهو ما يحملني على رفض انضمامك إلى هذه الحملة. وإني لعازم على حمايتك ما طال بي العمر، ومعارضة الموت لئلا ينال بغيته. فأنت ابني الوحيد، والآخر، أخوك، لا يعتد بشأنه لما تعرفه من حاله».

رد آتيس قائلاً: «ما من أحد يملك أن يلقي عليك لوماً لحرصك عليَّ بعد حلم كهذا، ولكن فاتك أمر يجدر بي أن أعرضه لك. فلقد حلمت بأني ميت بسلاح من حديد. وإذن، فهل للخنزير أيد؟ وهل يستطيع خنزير أن يحمل هذا السلاح الذي يثير فيك الخشية؟ فلو أنك حلمت بأني سأقتل بناب خنزير أو شيء من هذا القبيل لكان لك ما يبرر حذرك. ولكن الحلم لم يصور لك مقتلي على هذا النحو، بل كان بسن رمح. وإذن فليس ثمة ما يبرر هذا الحذر البالغ؛ فدعني أمضِ في هذه الحملة؛ فليست هي إلا لصيد حيوان، لا لقتال الرجال».

قال كرويسوس: «قد غلبني منطقك، يا بني. فتفسيرك للحلم أفضل من تفسيري؛ فلست أملك أن أبقى على قراري، فلك أن تشارك في الحملة».

ثم أرسل في طلب ادراستوس الفريجي، ولما مثل أمامه قال له: «قد جئتنا،

يا بني، تعاني أمراً ولجأت إلينا لنعينك في محنتك، فأعناك. وأبرأتك بيدي من دم مسفوك، وأقمناك بيننا في بيتنا وما قصرنا في إكرامك عندنا. وإنا نتوقع منك الآن رد الجميل، وحسبك أن ترافق ولدنا في رحلة لصيد خنزير بري، فتحرص عليه من عدوان الأشقياء وقطاع الطريق واللصوص في الطريق. وليس هذا بالأمر العسير، فالواجب يقضي، على كل حال، بأن تمضي إلى حيث تستطيع أن تبرز وتجلي، وشرف أسرتك يفرض عليك ذلك، وأنت الشهم المقدام».

وأجاب ادراستوس بقوله: «ما كنت، يا مولاي، لآنس في نفسي ميلاً، في الأحوال العادية، للمشاركة في هذه المغامرة. فليس للإنسان أن يخالط من هم أسعد حظاً منه. والحق أنني كاره لهذه الرحلة، ولدي أسباب كثيرة تحول دون ذهابي فيها. لكن لرغبتكم المقام الأسمى. والواجب يفرض عليّ أن ألبي لكم رغبتكم مقابل جميل صنيعكم معي وحدبكم عليّ، و إنني رهن إشارتكم في ما تأمرون، ولن تجدوني مقصراً في حماية ولدكم وثقوا بأنه سيعود إليكم سليماً معافى».

قال ادراستوس هذا وانطلقت القافلة برجالها ومعها الكلاب وما يحتاج إليه أمر تلك المهمة، ومضوا في طريقهم إلى أولمبوس، وهم يرصدون الخنزير البري. وظلوا في بحثهم عن هذا الحيوان الفتاك حتى وجدوه فأطبقوا عليه، وأخذوا يمطرونه برماحهم وفي لحظة ما خرج ذلك الغريب ادراستوس، وهو ذاك الرجل الذي أبرأه كرويسوس من إثم سفك الدم، وسدد إلى الخنزير ضربة من رمحه أخطأته، وأصابت ابن الملك. وتحقق ذلك الحلم الذي عرض لكرويسوس وأقض مضجعه.

ولقد هرع رسول إلى ساردیس لينقل لكرويسوس رواية الصدام مع الخنزير البري وموت ابنه. ونزل النبأ نزول الصاعقة، وزاد من هول الحادثة أن الرمية كانت على يد الرجل عينه الذي أبرأه الملك من إثم سفك الدم. فلما بلغه النبأ الفاجع أخذ يضرع من شدة الحزن وينادي زيوس بإله التطهر ليشهد نكبته على

يد ضيفه؛ ثم عاد يناديه بحامي الحمى، لأنه بسبب من عمى بصيرته استضاف قاتل ابنه في بيته؛ ثم عاد يناديه بإله الضيافة والصداقة، لأن الرجل الذي أرسله حارساً لابنه بات عدوه اللدود.

ولم يطل الوقت حتى جاء الليديون حاملين رفات الفتى، والقاتل في إثرهم. ووقف هذا أمام الجثمان، ماداً ذراعيه إشارة إلى استسلامه وخضوعه، راجياً الملك أن يضرب عنقه في التو واللحظة أمام جثمان ابنه الراقد. وبلغنا أنه قال: «كان إثمي القديم عظيماً. أما في هذا فقد روعت الرجل الذي أبرأني من ذلك الإثم، فيا ليتني أموت الآن لأخلص من وزره. ولقد وقعت هذه العبارات في نفس كرويسوس فتأثر لحال صاحبه، على ما كان عليه من الحزن.

وقال: «أما وقد طلبت الموت، أيها الصديق، فإني لا أستطيع أن أطلب منك أكثر مما حملت نفسك ولقد تحققت العدالة. فلست أنت المسؤول عن هذه المصيبة، إذ إنك لم تقصد أن تسدد الرمح إلى ولدي، وإن خرج من كفك، فهذه المصيبة شأن إله من الآلهة ـ وقد أرسل إلي قبل حين نذيراً بما سوف يحدث ».

قام كرويسوس بدفن رفات ابنه، وسط المراسم التي تجري في مثل هذه المناسبات؛ ولما انتهت الجنازة وعادت الأمور إلى مجراها، أخذ ادراستوس، ابن جوردياس وحفيد ميداس، الذي قتل أخاه ونكب مضيفه ومخلصه من الإثم، يتفكر في أحواله، فلما وجد نفسه أشد من عرف من البشر بؤساً وتعاسة، طعن نفسه بسلاح جارح، فسقط ميتاً فوق القبر.

ولقد ظل كرويسوس كليم الفؤاد، مقيماً على حزنه، لموت ابنه، عامين كاملين، حتى وردت الأنباء من فارس لتنهي الحداد الذي كان يعيشه، ومفادها أن قورش بن قمبيز استطاع تدمير إمبراطورية أستياجيس، وأصبحت قوة فارس في تعاظم مطرد، ولما بلغت هذه الأنباء كرويسوس أخذ يقلب الأمور على كل الوجوه، ولاح له أن يتصدى لفارس ويحد من توسعها، قبل أن يستفحل أمرها ويتعذر كسر شوكتها، ولما استقر رأيه على هذا الأمر، أراد أن يسأل الآلهة إن

كانت على علم بما يجري، فأرسل الوفود إلى دلفي ومعابد اباي في فوكيس ودودونا، وعرافات مفياراوس وتروفونيوس وبرانشيداي في ميلسيا. وكانت هذه معابد للإغريق، ولكن كرويسوس لم يشأ أن يقتصر عليها وحدها، فبعث يسأل كهنة معبد آمون في ليبيا أيضاً، ليتأكد من عمق معرفة العرافات وكان يقصد أن يسأل، إن تأكد له معرفتها، إن كن يشرن إليه بتجريد حملة على فارس وكسر شوكتها.

وكان كرويسوس قد وجه وفود الليديين الذين أوكل إليهم أمر هذا الاختبار إلى سؤال العرافات، في اليوم المئة الذي يلي مغادرتهم ساردیس، عما يشتغل به ملك ليديا كرويسوس بن الياتتيس في تلك اللحظة المعنية؛ ووجه موفديه إلى تدوين إجابة كل عرافة والعودة بالإجابات إليه. ولكن أحداً من أولئك لم يعمل على تدوين إجابات العرافات، سوى وفد دلفي؛ فقد دخل الليديون المعبد فور وصولهم، وسألوا الكاهنة فيه، فردت عليهم شعراً:

عندي علم حبيبات الرمل وقياس البحر

وأعلم حديث الأبكم وأسمع من ليس بذي صوت

وأشم رائحة السلحفاة في درعها مطبوخة مع لحم الضأن في قدر برونزي

القدر من البرونز وكذلك الغطاء من البرونز.

فلما قالت الكاهنة قولها، وكان تدوينه، قفل الليديون عائدين إلى ساردیس، كما أمروا. ولقد فتح كرويسوس لفافات الورق التي حملت الإجابات من المعابد الأخرى، فما كان لواحدة منها مثل أثر قول كاهنة دلفي، فقدرها، واعتبرها الأصدق بين كل العرافات في العالم، إذ وجدها تبين بجلاء العبارة ما كان يشغله لحظة السؤال.

والحق أن ذلك ما كان، فما إن بعث برسله،حتى أراد أن ينشغل بأمر لا يخطر ببال أحد، وكان قد أمر بإحضار سلحفاة وخروف في موعد محدد، فقطعهما بيديه ثم أخذ يسلق لحم الاثنين معاً في قدر هو وغطاؤه من معدن البرونز.

وحسبنا الآن ما كان من إجابة عرافة دلفي. أما ما يخص قول عرافة مفياراوس فليس لدينا ما يشير إلى الإجابة التي تلقاها الليديون، بعد ما أدوا الشعائر المعتادة في المعبد؛ وليس لي سوى القول إن كرويسوس كان على اعتقاد بمعرفة النبوءة بما كان يفعل في اللحظة المعينة.

أخذ كرويسوس، بعدئذ، يتزلف لمعبد أبوللو في دلفي بأن قدم له قرباناً مشهوداً، فقدم ثلاثة آلاف ذبيحة من كل صنف من الماشية؛ ثم أذاب في النار أكداساً من نفائس كنوزه من خيوط الذهب أو الفضة التي كانت توشي الوسائد في قصره والأقداح المسبوكة من الذهب، والمآزر المطرزة بالمعادن الثمينة وسواها من الملابس المطرزة والمنسوجة بأجمل القماش؛ أملاً بأن يكسب عناية الإله بمشروعه؛ ثم أصدر مرسوماً فرض على كل ليدي بأن يقدم قرباناً، يتناسب وحاله. وعمد بعد هذا الاحتفال إلى تذويب مقدار هائل من الذهب وصبه في مئة وسبع عشرة سبيكة. تبلغ الواحدة ثماني عشرة بوصة طولاً وتسع بوصات عرضاً وثلاث بوصات ارتفاعاً؛ وكان من تلك السبائك أربع من الذهب الخالص تزن الواحدة منها مئة واثنين وأربعين رطلاً؛ وأما باقي السبائك فكانت تخالطها معادن أخرى بزنة مئة وأربعة عشر رطلاً تقريباً. كما أنه أمر بصنع تمثال لأسد من الذهب الخالص يزن خمسمئة وسبعين رطلاً. وقد سقط هذا التمثال عن قاعدته من الذهب عند نصبه في المعبد، وهو الآن في خزانة كورنثة، وخسر من وزنه عند صهره قرابة مئتي رطل، ويزن اليوم ثلاثمئة وسبعين رطلاً.

وليس ما تقدم كل ما بعث به كرويسوس إلى دلفي؛ فإضافة إلى ذلك أهدى المعبد دنين ضخمين لمزج الخمور، أحدهما من الذهب ينتصب عند الجانب الأيمن من المدخل، والآخر من الفضة على الجانب الأيسر منه، وقد نقل أثناء الحريق، ويوجد الدن الذهبي الذي يزن زهاء ربع طن الآن في خزانة الكلازوميتنيين، والفضي الذي يتسع خمسة آلاف جالون في طرف المعبد الخارجي. وقد عرفت سعته بسبب استخدام سدنة معبد دلفي هذا الدن في مزج

النبيذ في الاحتفال المسمى بالتجلي. وهو قطعة رائعة وآية من آيات الصنعة، وسدنة المعبد، عندي، على حق، حين ينسبونه إلى ثيودوروس الساموسي. كذلك أهدى كرويسوس المعبد أربعة دنان من الفضة موجودة الآن في خزانة كورنثة، وإناءين لرش الماء الطهور؛ أولهما من الذهب، وثانيهما من الفضة، ويظهر على الأول اسم اللاكيديمونيين، ويزعم هؤلاء أنهم أصحاب الهدية. ولكن هذا زعم غير صحيح، فكرويسوس هو الذي قدمها إلى جانب الهدايا الأخرى. وظهور اسم اللاكيديمونيين على الإناء كان في حقيقة الأمر بفعل أحد سدنة دلفي (وسوف أمسك عن ذكر اسمه) وأراد به كسب رضى هؤلاء القوم. وإني لأقر بأن تمثال الفتى الذي يجري الماء من كفه كان هدية منهم، لكن الدنين ليسا من هداياهم. وهناك بعد العديد من الهدايا الأخرى، لكنها ليست على درجة كبيرة من الأهمية، ومنها الأحواض الفضية؛ ولن يفوتني أن أذكر في هذا المقام تمثال المرأة المصنوع من الذهب، وهو بطول أربعة أقدام ونصف، ويقول سدنة المعبد إنه صورة المرأة التي كانت تخبز لكرويسوس خبزه. وكان آخر الهدايا الأطواق التي تتزين بها زوجه والنطاقات التي كانت تتزنر بها، فتلكم، إذن، هدايا كرويسوس إلى معبد دلفي؛ وأما مذبح مفياراوس الذي كان يعلم بشجاعته وما صادف من المصائب فقد أهدى إليه درعاً من الذهب الخالص، ورمحاً من الذهب الخالص أيضاً، وكان الدرع والرمح ما يزالان في عهدي في معبد أبوللو الأسميني، بطيبة.

وكان كرويسوس قد وجه الليديين الذين حملوا الهدايا إلى المعبدين أن يسألوا العرافات إن كن ينصحنه بشن حملة على الفرس، وإذا كان يجدر به أن يدعم جيشه بحلف مع مملكة أخرى. فلما وصلوا إلى مقاصدهم وقدموا الهدايا بالطقوس اللائقة طرحوا السؤال على هذا النحو: «إن كرويسوس ملك ليديا وغيرها من الأمم يقدم هذه الهدايا، لإيمانه بأن هاتين النبوءتين هما أصدق النبوءات في العالم، ولأن ما تتمتعون به من صدق الرؤى جدير بالتكريم، وهو

يسألكن إن كان ينبغي له أن يوجه حملة إلى فارس، وإن كانت الحكمة تقضي أن يعقد تحالفاً مع قوة أخرى». وجاء الرد على هذين السؤالين بإجابة واحدة؛ ذلك أن الإجابتين حملتا النبوءة بأن إمبراطورية عظيمة سوف تنتهي بالدمار، إن هاجم كرويسوس الفرس، ونصحتاه بأن يبحث بين دول الإغريق عن أقواها ويبلغ تفاهماً معها.

سر كرويسوس أيما سرور حين علم بما ورد في النبوأتين، وغدا واثقاً كل الثقة من قدرته على تحطيم سلطان قورش. وبلغ به الارتياح والرضى ما حمله على أن يرسل مزيداً من الهدايا إلى دلفي تعبيراً عن امتنانه، بأن سأل عن عدد أهل دلفي، ثم أرسل مسكوكتين من الذهب لكل واحد منهم. وكان أن رد هؤلاء بالدعاء بالخلود لكرويسوس ولشعب ليديا بمنح من يشاء حقوق المواطن، وإعفائهم من رسوم المقاعد المتقدمة في الحفلات الرسمية والأفضلية في نيل النبوءات.

ولما قدم كرويسوس هداياه، عاد فاستشار الكاهنة مرة ثالثة، فقد طابت نفسه لسماع الحقيقة مرة أخرى، بعدما سمعها مرة من قبل. فسأل في هذه المناسبة إن كان عهده سيطول. وكان جواب الكاهنة.

حين يحل يوم يتربع فيه بغل على العرش الميدي

ليس لك أيها الليدي الغر إلا أن تستعين بهرمس

ولتفر، ولا تجزع ولا تظنن بنفسك الجبن.

ولقد جاء هذا الرد ليزيد في نفسه إحساساً بالحبور، أكثر مما بلغه حتى تلك اللحظة؛ فما كان ليخطر له ببال أن يجلس بغل على عرش الميديين، فحمل هذه النبوءة على أنها تعني استمراره ونسله على العرش إلى الأبد. ثم أتت استفساراته بما يؤكد له أن اللاكيديمونيين هم الأبرز بين الشعوب الدورية، والأثينيين أصحاب الصدارة بين الأيونيين. وينتمي اللاكيديمونيون للبلاسجة أصلاً، أما الأثينيون فهم من الهيلينيين، وهذا الشعبان هما من أقوى الأقوام

الإغريقية.

وإذ بلغت كرويسوس تلك الأخبار أسرع فأوفد رسله إلى إسبارطة، محملين بالهدايا، ليسألوا الإسبارطيين التحالف معه. وكانت توجيهاته لوفده صريحة فيما يجب عليهم قوله في مخاطبتهم. فلما بلغوا أسبارطة ومثلوا أمام الإسبارطيين بادروهم بقول مقتضب:

«إن كرويسوس، ملك الليديين وشعوب أخرى سواهم، كلفنا بأن نبلغكم هذه الرسالة: أيها اللاكيديمونيون، إن الإله قد أمرني بأن أتخذ الإغريقي صديقاً؛ لذلك فإني امتثالاً لمشيئته، أمد لكم يد الصداقة، وأنتم أهل الصدارة بين الإغريق، وأعاهدكم معاهدة الحليف الصادق المخلص».

كان خبر النبوءة قد بلغ اللاكيديمونيين « قبل أن يحمله رسل كرويسوس، وابتهجوا بالنبوءة وهللوا لها، فلم يتأخروا بمقابلة العرض بالقبول، وأسرعوا بالتعاهد على المناصرة والصداقة، وكان ذلك أمراً يسيراً، لأنهم كانوا يدينون له ببعض الدين، يوم ذهب بعضهم إلى الساردييين يبغون شراء بعض الذهب منهم ليصوغوا منه تمثالاً للإله أبوللو - وما زال هذا التمثال موجوداً في ثورناكس من أعمال لكونيا، فسمع كرويسوس بخبر هذا الوفد ومهمته وقدم لهم الذهب هدية وكان ثمة سبب آخر يحمل اللاكيديمونيين على الترحيب بهذا التحالف دونما تردد هو تفضيل كرويسوس صداقتهم على كل الإغريق الآخرين. وهكذا كان أن هيؤوا أنفسهم وتجهزوا ليلبوا له الإشارة عند الحاجة، بل وشاؤوا التعبير عن صداقتهم بأن قدموا له دناً ضخماً من البرونز وزينوا أطرافه برسوم الحيوانات، فكان من الكبر ما يجعله يتسع لمئة جرة خمر، رداً على هديته الأولى، ولكن ذلك الدن لم يبلغ سارديس. ويروى في ضياعه روايتان مختلفتان، ورواية اللاكيديمونيين مفادها أن أهالي جزيرة ساموس حين بلغهم خبر هذه الهدية وجهوا سفنهم لاعتراض السفينة التي كانت تحملها، صادروها بالقرب من جزيرتهم قبل أن تصل إلى ساردیس. أما الساموس فيقولون إن بعثة

اللاكيديمونيين الذين كانوا يرافقون الدن حين تأخر وصولهم وبلغهم نبأ سقوط ساردیس في أيدي الفرس، وأسر كرويسوس، باعوا الدن في جزيرتهم لأشخاص من العامة، قدموها بدورهم للمعبد تقرباً من الإله زيوس: ولعل من باعوا الدن ادعوا عند عودتهم إلى إسبارطة أن أهالي ساموس سرقوا الهديةوكان كرويسوس إذ أساء تفسير النبوءة يومذاك، أراد المسير بجيشه إلى كبادوكية، متوقعاً دحر قورش والقضاء على إمبراطورية الفرس. ولكنه فيما كان يعد العدة ويعبئ قواته لخوض المعركة جاءه ساندانيس الليدي المعروف بحكمته، ثم غدا بعدئذ ذائع الصيت بين بني قومه، يعرض عليه المشورة والنصح، فخاطبه قائلاً:

«أراك أيها الملك تتهيأ لشن الحرب على قوم سراويلهم من الجلد، بل كل ما يرتدون من الجلد؛ وهم لا يأكلون ما يطيب لهم وإنما ما ينتزعونه من الأرض اليباب ولا يشربون النبيذ، وإنما شرابهم الماء، وليس لديهم تين أو أي شيء من أطايب الفاكهة.فماذا تراك تنال منهم لو غزوتهم وانتصرت عليهم، وقد رأيت هذا من أمرهم، وعلمت من حالهم ما علمت؟ أما إذا كانت الغلبة لهم فكم من ثمين ستخسر؛ ولو ذاقوا ما لديك من أطايب الحياة فستجدهم يحكمون قبضتهم علينا، ولن نملك فكاكاً منها بعد ذلك. ولو سألتني الرأي لقلت لك إني لممتن للآلهة لأنها لم تحرض الفرس على غزو ليديا». أما كرويسوس فلم يبال بما سمع، وإن كان ينضح بالحقيقة؛ فالحق أن الفرس لم يعرفوا شيئاً من أسباب الرفاه ولا تذوقوا أطايب الحياة، قبل انتصارهم على ليديا.

كان الإغريق يسمون الكبادوكيين بالسوريين، وقد عرفنا من أمرهم أنهم كانوا يخضعون للميديين قبل اتساع إمبراطورية الفرس؛ وهم اليوم ضمن إمبراطورية قورش، لأن الحد بين إمبراطوريتي الميديين والليديين كان نهر خالص الذي ينبع من جبال أرمينية، ويمر أولاً بقليقلية(كيليكية)، ثم يجري حيناً بين نهر الماتييني عن يمينه والفريجيين عن يساره، ماضياً بعد ذلك شمالاً ليفصل

بين الكبادوكيين والبفلانجيين، فيشكل بذلك حدود آسيا السفلى كلها من البحر مقابل قبرص حتى بحر أوشينة (البحر الأسود)وهناك يقع على وجه التحديد عنق شبه الجزيرة، ويستطيع المرء أن يقطع هذه المسافة، إذا جد في المسير، في خمسة أيام.ولقد حمل كرويسوس على الهجوم على الكبادوكيين أمران، أولهما الرغبة في ضم أراضيهم إلى مملكته، وثانيهما، وهو الأهم، رغبته في الانتقام من قورش جزاء ما أثم بحق ملك الميديين استياجيس؛ وهكذا وجه قواته، واثقاً من صحة النبوءة بقدرته على بلوغ النصر. وكان قورش بن قمبيز قد قضى على عرش استياجيس بن سياشاريس وهو زوج أخت كرويسوس. أما قصة ذلك الزواج فإني ههنا أرويها لكم. فقد لجأت جماعة من السكيثيين إلى ميديا، بعد ما شهدت بلادهم الاضطرابات، والتمسوا فيها الأمن. وكان ذلك في أيام سياشاريس بن فراورتيس بن ديوسيز. فوجد فيهم الملك سياشاريس أهل تقوى وحسن معشر فأحسن رعايتهم، وأنزلهم منزلة كريمة في نفسه، وعهد إليهم ببعض الفتية يعلمونهم لغتهم ويدربونهم أصول الرماية.ولقد مضى زمن وهؤلاء السكيثيون منصرفون لشؤونهم ويكسبون قوتهم بالصيد، وكانوا يعودون دائماً حاملين الطرائد والطيور؛ حتى كان أن عادوا ذات يوم، وهم لا يحملون صيداً.فلما وجدهم الملك سياشاريس على ذلك الحال تجهم وجهه وأرغى وأزبد، وكان معروفاً بسرعة الغضب، فأساء معاملتهم وأغلظ في القول لهم. ورأى هؤلاء أن الملك أجحف بحقهم وأزرى بهم، فقر لديهم أن يذبحوا أحد أولئك الفتية الذين كانوا في عهدتهم كما لو كان طريدة ويقدموا لحمه وليمة لسياشاريس، ويلجأوا بعدئذ إلى بلاط ملك ساردیس الياتتيس بن سادياتيس. ومضوا فنفذوا الأمر، فأكل سياشاريس وضيوفه ما هيأه لهم السكيثيون من الطعام، ثم هربوا كما خططوا إلى حمى الياتتيس، في زي الصالحين . ولما بلغ سياشاريس لجوءهم إلى الياتتيس بعث يطلب منه تسليمهم، ورفض هذا المطلب، فنشبت الحرب بين الليديين والميديين، واستعرت، وظلت تدور بين الطرفين على مدى الأعوام، وتتقلب مصائرها، فهي مرة في هذا الطرف ومرة في ذاك. وكان

مما دار بينهم من المعارك اشتباك وقع في إحدى الليالي. ظلت الحرب تدور سجالاً بين الطرفين بلا غالب أو مغلوب، حتى كانت السنة السادسة؛ وفيها احتدم العراك ذات يوم، واستغرق المتحاربون في حربهم، وإذ بالسماء تكفهر فجأة ويغرق الجمع في ظلام دامس وكان طاليس الملطي قد تنبأ بهذه الواقعة [الكسوف] وحذر الأيونيين من هذا الحدث في الوقت الذي حدده، وصدق قوله. فلما شاهد الميديون والليديون هذا الانقلاب توقفوا عن القتال وسعوا إلى إحلال السلم وإنهاء تلك الحرب. وقد توسط في هذا الصلح سينيسيس ملك قليقلية ونبيونئيد ملك بابل، وكان الطرفان فيه شديدي الحماس لتبادل العهود والمواثيق، وقد نصحا الياتتيس بأن يوثق هذا الصلح بالمصاهرة فتكون ابنته اريينس زوجاً لاستياجيس بن سياشاريس لاعتقادهما بأنه لا يركن إلى عهود بين الرجال إن لم تجد لها ضمانة. وهكذا جرى تبادل العهود على ما ألف الإغريق، سوى أنهما زادا بأن أحدث كلٌّ منهما جرحاً في ذراعه، فأخذ هذا يلعق الدم من جرح رفيقه.

وحدث بعدئذ أن هاجم قورش، استياجيس هذا، وهو جده لأمه واعتقله، لأسباب سأعرض لها في غير هذا الموضع من تاريخي. وبات هذا الاعتقال السبب في نشوب نزاع بين قورش وكرويسوس، وحمل كرويسوس على سؤال العرافة إن كان جديراً به أن يهاجم الفرس؛ فلما جاءه الرد موارباً فسره على أنه وحي بأن يدخل بجيشه أرض الفرس. فسار بجيشه حتى بلغ نهر قيزيل فقطعه، على ما أرى، بوساطة جسور ما تزال قائمة حتى الوقت الحاضر؛ وهناك من يقول إن العبور، وهو قول شائع بين الإغريق، كان بمساعدة من طاليس الملطي وتذهب الرواية إلى أنه لما أعجز كرويسوس نقل قواته عبر النهر، ولم تكن قد قامت عليه الجسور، بعد، يومذاك، جاءه طاليس وكان في جيشه، وقام بشق جدول تفرع فيه النهر، حتى تدفق على جانبي الجيش، بعد أن كان يجري على جانبه الأيسر وحسب وكانت خطته في تنفيذ المشروع تقوم على أن يشق قناة على مسافة من معسكره بشكل شبه دائرة، بحيث يمر محيطها بمؤخرة المعسكر؛ وهكذا كان أن انحرف النهر عن مجراه الطبيعي وجرى في

القناة الجديدة حيث تفترق عن الجدول، لتتدفق عند المكان الذي يقوم عليه معسكره، ثم تعود المياه فتصب من جديد في قاع النهر القديم. وكان أن انقسم النهر إلى فرعين، كلاهما سهل اجتيازه. وقد قال البعض إن مجرى النهر القديم قد جف بعد ما أخذت مياهه تصب في القناة الجديدة. أما أنا فأذهب غير هذا المذهب، إذ يصعب عليّ أن أتبين كيف يمكن للجيش في هذه الحالة أن يعبر النهر في عودته.

وعوداً إلى روايتنا أقول إن كرويسوس دخل على رأس قواته، بعد ما عبرت نهر قيزيل، وتقدمت في ناحية بتريا من كبادوكية. وهذه المنطقة من أعمال مدينة سينوبه على بحر أوشينه [الأسود]، وهي أقوى موقع في كل البلاد وهنا أقام كرويسوس معسكره وشرع يعمل نهباً في حقول السوريين. ومضى بعدئذ إلى حصار عاصمة البترينيين، فلما سقطت استعبد أهلها وطغى على القرى في الجوار، وهكذا أنزل كرويسوس الخراب بالسوريين دونما ذنب. كان قورش قد حشد، في تلك الأثناء، جيشاً لمهاجمة كرويسوس، وزاد فيه بتجنيد الجنود من كل موقع مر به. وقبل مسيره كان قد أوفد الرسل إلى الأيونيين يدعوهم للثورة على ملك ليديا، لكنهم أعرضوا عن دعوته. فمضى قورش وتقدم بقواته نحو العدو، ولم يتوقف عن المسير حتى بلغ مكاناً قريباً منه فعسكر في مقابله عند بتريا وهي أمنع المواقع في تلك المنطقة، وتقع على خط مستقيم وسينوبه على البحر الأسود وهناك جرى اختبار القوة بين المتنازعين، وكان القتال ضارياً سالت فيه الدماء غزيرة، وسقط من القتلى العدد الكبير؛ وما زالت رحى الحرب دائرة حتى حل الليل، وليس هناك منتصر. وهكذا كان كل جيش قد أبدى بسالته في تلك المعركة.

أما كرويسوس فإنه عزا فشله في تحقيق النصر لقلة جنده، وكانوا دون جند العدو عدداً؛ ولما كان اليوم التالي ولم يعاود قورش الهجوم، سار كرويسوس عائداً إلى ساردیس لحشد الحلفاء إلى جانبه والاستعداد لاستئناف القتال في

الربيع. وكان قد قصد أن يتصل بالمصريين لنصرته وفق معاهدة التحالف التي عقدها وأمازيس قبل حلفه واللاكيديمونيين، كذلك شاء أن يتصل بالبابليين وملكهم نبونئيد الذين كانت له معاهدة وإياهم أيضاً، بل وكان قد عزم على الاتصال بالأسبارطيين وحدد لهم موعداً لوصول نجدتهم. وكانت خطته تقوم على السير بحملة على الفرس حالما ينقضي الشتاء ويحل الربيع، ويكون قد اكتمل له الحشد. وما إن عاد كرويسوس إلى موقعه، حتى وجه الوفود إلى حلفائه يطلب إليهم الانضمام إلى حشوده عند ساردیس في غضون خمسة شهور من سفر رسله. ثم مضى فسرح جيشه، وقوامه من الجنود المرتزقة، وقد عادوا معه إلى عاصمته، بعد ما خاضوا المعارك ضد الفرس، فتركهم يعودون إلى بيوتهم، دون أن يراود خياله أنه يمكن لقورش أن يغامر بالمسير إلى ساردیس، بعد معركة استحال عليه النصر فيها، وإن امتنع عن كرويسوس أيضاً.

وبينما كان كرويسوس على هذا الحال من الفكر، وجد ضواحي ساردیس قد فشت فيها الأفاعي، فهربت الجياد من المراعي وتدافعت إلى الضواحي لتقتات فيها. فلما رأى الملك هذا المشهد قر لديه أن تلك من الأعاجيب حقاً، وبعث على الفور يسأل العرافين في تلميسوس في أمر هذا الحدث العجب. فمضى موفدوه إلى العرافين، وبلغهم منهم تفسير الواقعة، إذ قالوا لهم بأن على كرويسوس أن يحذر دخول غزاة غرباء عن المنطقة، لأن هؤلاء سوف يستعبدون أهل البلد متى دخلوها، وكان تأويلهم للأفاعي أنها تمثل أبناء الأرض والحصان المحارب الغازي. لكن القدر لم يشأ أن يعودوا بالنبأ لمولاهم ذلك أنهم لما عادوا كان كرويسوس قد غدا سجيناً ولكنهم كانوا يجهلون مجرى الأمور في ساردیس.

أما قورش فإنه نظر في الأمر قليلاً، حين رأى كرويسوس ينسحب فجأة من مواقعه بعد معركة بتيريا، وسرعان ما وجد أنه من الحكمة الإسراع إلى ساردیس، قبل أن يتمكن الليديون من حشد قواتهم من جديد. فلما قر لديه هذا

الأمر سارع إلى تنفيذ خطته، ومضى مستعجلاً في سبيله، حتى كان أول المعلنين للملك ليديا عن حضوره.

فأسقط في يد ذلك الملك الذي فاجأه تطور الأمور على هذا النحو غير المتوقع؛ ومع ذلك فقد مضى ودخل بالليديين ساحة الحرب. وكان هؤلاء معروفين بالبسالة والبأس والاندفاع إلى القتال، دونهم كل الأقوام في آسيا. وعرفوا بقتالهم على ظهور الخيل، وحملهم الرماح الطويلة، ومهارتهم في قيادة جيادهم.

والتقى الجيشان في السهل قبل سارديس، وكان ذلك الموقع منطقة شاسعة جرداء، يرويها نهر فيزيل وبضعة جداول أخرى تصب في مجرى نهر واحد يعرف بنهر هيرموس الذي يجري صعوداً إلى جبل أم دنديمنيان المقدس ليصب في النهاية في البحر عند بلدة فوكايا. ولما رأى قورش الليديين ينظمون صفوفهم، لخوض المعركة في ذلك السهل، راعه مشهد الخيول وأخذ يمعن الفكر فيما ينبغي عليه عمله ليتغلب على الخصم. ووجد الحل فيما اقترحه هارباجوس الميدي؛ فعمد إلى حشد ما لديه من الجمال التي كانت تحمل المؤن والعتاد، وأراحها، ثم جعل على ظهورها جماعة من محاربيه، كالفرسان، ودفع بهم إلى المقدمة في مواجهة الفرسان الليديين؛ ووضع المشاة من ورائهم وخلفهم الفرسان على ظهور الخيل. فلما انتظمت قواته على هذا النحو وجه جنده لأن يعملوا السيف في رقاب الليديين دونما رحمة أو شفقة، سوى كرويسوس، إذ أمرهم بالإبقاء على حياته، وإن قاوم حصارهم. أما السبب في أن قورش جعل الجمال مقابل جياد الليديين فهو نفور الحصان من منظر الجمل ورائحته، فيتمكن باستغلال هذا النزوع أن يبعد الخيالة عن المعركة، وتكون له الغلبة. وأما الليديون فقد أبدوا بسالة في المواجهة، إذ ما إن أدركوا حقيقة الأمر، حتى ترجل الفرسان ودار القتال مع الفرس على الأرض. ولقد طالت المعركة، وسالت الدماء، ثم انفض الاشتباك في النهاية حين استدار الليديون على أعقابهم، هاربين من المعركة، إلى حمى جدران مدينتهم المحصنة، فتبعهم جنود الفرس،

وأخذوا في محاصرتهم، وهم متحصنون في سارديس.

وهكذا بدأ الحصار. وفيما كان الأعداء قد أخذوا في حصار الليديين، بعث كرويسوس برسل جدد إلى حلفائه، ظناً منه أنه قادر على الصمود زمناً طويلاً، يطلب مؤآزرتهم. كان رسله الأوَل يحملون نداءه للاجتماع عند سارديس خلال الشهر الخامس؛ وأما هؤلاء الجدد فكان عليهم أن يبلغوا الحلفاء بأن صاحبهم بات محاصراً فعلاً الآن، وهو يرجوهم الإسراع إلى نجدته. ولم يغفل كرويسوس اللاكيديمونيين من بين من بعث إليهم من الحلفاء بطلب النجدة. ولكن صادف أن كان الإسبارطيون أنفسهم منهمكين، في ذلك الحين، في منازعة أهل آرجوليس على موقع ثيريا، وكان يقع في حدود مدينتهم، ثم استولى عليه الإسبارطيون. والحق أن أملاك آرجوس كانت تمتد ذات يوم فتشمل كل المنطقة الغربية حتى رأس ماليا، وكل الأرض على اليابسة وثيريا والجزر الأخرى أيضاً. وحشد الأرجوسيون كل ما لديهم لمقاومة محاولة الإسبارطيين الاستيلاء على ثيريا، ولكن الطرفين سرعان ما اتفقا، قبل نشوب القتال، على شروط المعركة، فكان أن اتفقا على أن يلتقي ثلاثمئة من الإسبارطيين ومثلهم من الأرجوس ليحسموا أمر تلك المنطقة، ثم بدأت المعركة والفريقان متساويان، واحتدم القتال بينهما واشتد، حتى إذا انتهى النهار لم يبق منهما إلا اثنان من الأرجوس وهما الكانور وكروميوس، وإسبارطي واحد، اسمه اوثرياداس. ولقد رأى الأرجوسيان أن النصر من نصيبهما، فأسرعا يزفان النبأ لقومهما. أما اوثرياداس فبقي في الساحة وأخذ يجرد قتلى الأرجوسيين من دروعهم وأسلحتهم وحمل ما جمعه إلى معسكر الإسبارطيين. ثم عاد الجيشان في اليوم التالي ليتحققا من الأمر. وكان أن نشب بينهما الخلاف وتنازعا، كل يدعي النصر لنفسه، فهذا يراه حقاً له لأنه صاحب العدد الأكبر من الناجين؛ وذاك ينسبه إلى نفسه، لأن رفيق السلاح بقي في الساحة وأمكن له أن يجرد القتلى من عدتهم وعتادهم، بينما فر رفيقاهما من أرض المعركة قبل حسمها؛ ثم تطور الأمر فانتقل الجمعان من

تبادل الكلمات إلى التنازع بالقبضات فالقتال الذي تكبدا فيه الكثير من الضحايا، حتى حسم الأمر بانتصار الإسبارطيين. ولقد عمد الأرجوسيون يومذاك، وكانوا قد جروا على عادة إطلاق الشعر بين الرجال، إلى قص خصلاتهم، وانزلوا اللعنة بكل من يطلق شعره، وحرموا على نسائهم التزين بالذهب، حتى اليوم الذي يستعيدون فيه ثيريا، وجعلوا من ذلك قانوناً. أما اللاكيديمونيون فإنهم استنوا قانوناً مخالفاً، فأطلقوا شعر الرجال بينما كانوا قد اعتادوا تشذيبه. وقيل إن أوثرياداس الوحيد الذي نجا من بين الإسبارطيين الثلاثمائة قد استولى عليه الشعور بالعار بعد ما سقط كل رفاقه المحاربين، فانتحر في ثيريا.

وبالرغم من انشغال الإسبارطيين بتلك الأمور التي عرضنا لها في هذا الحديث، فإن ذلك لم يصرفهم عن تلبية الدعوة للمؤازرة ونجدة ملك ساردیس المحاصر في بلده، حين بلغهم نداؤه، فأخذوا يتهيأون للمسير، ويعدون السفن لنقل قواتهم وامداد حليفهم بما يحتاجه. وفيما هم فيه من الإعداد للحملة وردتهم رسالة أخرى تبلغهم، أن المدينة قد سقطت وكرويسوس وقع أسيراً، فأوقفوا تحركاتهم.

وهاكم حديث ساردیس وسقوطها: في اليوم الرابع عشر من الحصار. وجه قورش بعض فرسانه إلى الطواف بالجنود في معسكره والنداء بجائزة لكل من يسبق إلى صعود سور المدينة. ثم عمد بعدئذ إلى شن هجوم على القوات الصامدة لاختراق حصونهم فكان أن أحبط هجومه، وتراجعت قواته، لولا أن مارديا اسمه هيرويادیس رأى أن يهاجم القلعة من موقع لا حراس فيه، لارتفاعه على صخرة تنتهي إلى قاع سحيق، مما جعله منيعاً لا يؤخذ، فأهملت حراسته، بينما حرص الملوك على الاهتمام بالمواقع الأخرى الأضعف في القلعة، فتحقق بذلك لساردیس المنعة على الاقتحام. وكانت هذه النقطة من المدينة التي تقابل جبل تمولوس هي التي وقع عليها خيار هيرويادیس، حين شاهد أحد جند

الليديين ينزل عن الصخرة ليسترد خوذة سقطت من الأعلى. فكان أن تسلق هيروياديس الصخرة وفي إثره عدد غفير من الجند، فتم لقورش الاستيلاء على ساردیس التي عمل فيها رجاله سلباً ونهباً.

أما كرويسوس ذاته فإليكم ما كان من أمره حين سقطت المدينة: كان للرجل ولدٌ، وقد سبق أن حدثتكم عنه قبل حين، وكان فتى أغر لا عيب فيه، سوى أنه أصم أبكم. ولقد بذل أبوه في أيام سطوته كل ما يمكن للملك أن يبذل. وطرق كل باب ليمكن ابنه من أن يحيا حياة آمنة طيبة. فلما أراد أن يتيقن من مستقبله بعث إلى معبد دلفي يسأل النبوءة. فجاءه جواب العرافة:

أيها الليدي الذي يسود أمماً عديدة، يا كرويسوس الأحمق،
لا تطلب سماع الصوت المفقود في قصرك،
أي صوت ولدك: فالأفضل لو أنه يبقى أبكم
لأن أولى كلماته سينطقها يوم الأحزان.

ولما سقطت المدينة في أيدي الفرس، وقع أحدهم على كرويسوس وهم بقتله، وهو لا يدري حقيقته. ولقد شاهد كرويسوس الرجل يهم به لكنه لم يحاول أن يتفاداه تحت تأثير فداحة الخطب، غير آبه إن عاش أم مات بالسيف. ولما شاهد ابنه الأبكم الفارسي يرفع سيفه مندفعاً نحو أبيه، صاح من شدة هلعه: «لا تقتله يا رجل، فهذا كرويسوس». وكانت تلك الكلمات كل ما نطق به الفتى حتى تلك اللحظة، واستمر بملكة الكلام منذ ذلك الحين حتى بقية حياته.

وهكذا سقطت ساردیس، وكرويسوس معها، في يد الفرس، بعد أن جلس على عرشها أربعة عشر عاماً، وحوصر أربعة عشر يوماً؛ وحقق كرويسوس بذلك النبوءة بأنه سيكون على يديه القضاء على إمبراطورية كبرى فكانت إمبراطوريته التي ذوت. ثم حمل الفرس كرويسوس ليقف سجيناً أمام قورش، فأمر بإشعال نار كبيرة ووضع كرويسوس موثقاً بالأغلال في وسطها ومعه أربعة عشر من فتيان ليديا. ولست أدري إن كان قورش قد قصد من ذلك أن يقدم أولى ثمار نصره لأحد الآلهة، أم كان تحقيقاً لقسم، أو لعله قد بلغه أن كرويسوس من أهل

الصلاح وله نصيب من قوى الآلهة فأراد أن يتحقق إن كانت ستتجلى لحظتئذ فتنتشله من هذه المحنة وهذا الكرب، وتنقذه من النار. ومهما يكن الأمر فقد انشغل قورش في ما اعتزم عمله، ووقف كرويسوس وسط ذلك التل من الحطب، ولاح له، وهو في لجة المصيبة، أن ثمة حكمة ربانية فيما قاله صولون ذات يوم من أنه «ما من إنسان يعرف السعادة في الحياة». فشهق الرجل حين تذكر تلك الكلمات وكسر الصمت الذي ظل يلتزم به طوال الوقت ونطق متأوهاً باسم صولون ثلاث مرات. فسمع قورش ما قاله كرويسوس، وطلب عندئذ من المترجمين أن يسألوه من تضرع إليه. فاقتربوا منه وسألوه أن يذكر ذلك الاسم وشأن صاحبه، ولكن الرجل أمسك عن الكلام، وظل على صمته طويلاً، وهم لا ينقطعون عن سؤاله، حتى قال بعد لأي: «هو رجل وددت لو أن كل ملك أصغى إلى حديثه». وحار المترجمون في فهم ما قصد فألحوا في سؤاله عله يأتي بما يوضح كلامه، فلما اشتد الحاحهم وعسفوا في الكلام، أخبرهم بقصة صولون الأثيني الذي جاءه قبل عهد طويل ورأى ما هو فيه من رغد وترف فسمع منه استخفافاً ونبوءة ما يزال يذكرها كلما ألمت به مصيبة، وها هي ذي تتحقق مصداقاً لما قال، وإن لم يكن صاحبها قد عنى بها الملك ذاته، وإنما تصدق على البشرية كلها، وبالأخص أولئك الذين يحسبون أنهم من أهل السعادة. وفيما كان الرجل يسترسل في الحديث جاء من يشعل النار في الحطب لتتصاعد ألسنة اللهب، في أكوام الحطب. ولما بلغ قورش من المترجمين ما قاله كرويسوس اعتراه التردد، وحدثته النفس بأنه هو أيضاً بشر، شأنه شأن هذا الرجل الذي يقف وسط النار، وهو رجل حبته الآلهة بالنعمة مثله، وأنه على وشك الاحتراق حياً؛ وإذ داهمه الخوف مما يمكن للمستقبل أن يكون قد خبأ له، بدا له ألا طمأنينة للإنسان في هذه الحياة. فأمر قورش الجمع بأن يطفئوا النار الملتهبة بأسرع ما يستطيعون، وينزلوا كرويسوس والليديين الآخرين معه؛ وكاد القوم يفلحون في ما أمروا به، لولا أن كان قد استفحل أمر النار وتصاعد لهيبها،

فعجزوا عن إخمادها.

وإذ وجد كرويسوس، على ما يقول الليديون، القوم يجدُّون في إطفاء النار، وأدرك أن ذلك إنما يكون بأمر قورش، ودليل على التراجع عن قراره، ثم رأى ألا جدوى من كل تلك المحاولات نادى أبوللو بأعلى صوته وتضرع إليه مناشداً متوسلاً أن ينجده اليوم، وقد بذل الأضاحي والقرابين في الماضي، فليظهر قدرته الآن ويخلصه من هذه المحنة وظل كرويسوس على تضرعه والدموع تنهمر من عينيه؛ وإذ بالسماء تكفهر، وكانت صافية ولا أثر للريح، طوال اليوم، وتتجمع السحب في عرضها، والعتمة تعم المكان، والعواصف تدور فوق الرؤوس، ثم يهطل المطر سيولاً فتخمد النار. ولما رأى قورش هذا المشهد، رسخ لديه أن كرويسوس من الصالحين ومقرباً من السماء. فسأله، بعد أن أنزل عن الحطب، أن يكشف له من أقنعه بأن يغزو بلده، فيصبح عدواً بعد صداقة؟

فكان جواب كرويسوس: «قد كان ما أتيت به، أيها الملك، أمراً في صالحك، ونكبة لي. وإذا كان ثمة لوم في هذا، فقد حق على إله الإغريق الذي زين لي شن الحرب. وليس هناك من يبلغ به الحمق ليؤثر الحرب على السلم، حيث يدفن الآباء أبناءهم، بدلاً من أن يكون الأبناء من يدفنون الآباء. ولكن هذه مشيئة الآلهة، وقد نفذ أمرها».

وهكذا كان حديث كرويسوس. ولقد أمر قورش عندئذ أن تنزع الأصفاد عن الرجل، ثم أجلسه بالقرب منه، وأكرمه وأعلى من منزلته، وشرع ينظر إليه، شأنه في ذلك شأن حاشيته، بشيء من العجب. فجلس كرويسوس[١٥] حيث أجلسه قورش واستغرقه التفكير، وهو صامت لا ينبس ببنت شفة. ثم حانت منه التفاتة، فشاهد من موقعه الجنود الفرس يعملون في المدينة سلباً ونهباً، فالتفت إلى قورش، وقال: «هل لي أن أحدثك، أيها الملك، بما يجول في خاطري، أم الأفضل أن أمسك عن الكلام؟» فقال له قورش: «تكلم، ولا تخش بأساً». فقال كرويسوس متسائلاً: «بم ترى هؤلاء، يا قورش، منشغلين؟» فأجاب قورش» إنهم ينهبون بلدك، ويأخذون ثرواتك». فرد الآخر: «ليست هذه مدينتي، ولا تلك

ثرواتي. فلست أملك شيئاً بعد اليوم. فما ينهب هؤلاء وما يسلبون إلا ما تملك أنت».

فذهل قورش لما سمع من كرويسوس، وأمر الحاشية بالانصراف، وحينما اختلى الرجلان، سأل الملك صاحبه النصحية فيما عليه أن يفعل في أمر هذا النهب. فجاء رد كرويسوس كمايلي: «أما وأن الآلهة قد جعلتني عبداً لك، أي قورش، فالواجب يفرض عليَّ أن أقدم لك النصيحة فيما هو صالح. إن رعاياك الفرس قوم من الفقراء وبهم تيه. فإن تركت لهم الحبل على غاربه، واستمروا على حالهم من السلب والنهب لانتهى المال وكل الثروات وإني لمحدثك في ما لك أن تتوقع أن ينالك عندئذ منهم، فالذي سينال النصيب الأكبر لا بد أن يثور عليك. فإن وقع حديثي موقعاً حسناً لديك فعليك بحراسك، أيها الملك، فاجعل بعضهم عند أبواب المدينة، وليأخذوا نصيباً مما يحمل الجند حين يغادرون، فضريبة العشر حق لزيوس. فإذا توسلت بهذه الحجة لم يحملوا لك ضغينة، كما هو شأنهم لو انتزعت منهم هذا المال قسراً؛ ولسوف تجدهم يبذلون لك ما تطلب طواعية، لأن ما تفرضه في هذه الحال عدل».

ولقد سر قورش لهذه المشورة أيما سرور، ونزلت عنده أحسن منزلة فأثنى على كرويسوس أفضل الثناء، وأمر حرسه بتنفيذ مقترحاته ثم التفت إلى كرويسوس، وقال له: «أي كرويسوس لقد وجدت في حديثك وأفعالك ما ينبىء عن امرئ فاضل، فهيا سلني ما تشاء وأنا مجيب طلبك». فقال كرويسوس: «لو سمحت لي بأن أرسل هذه الأصفاد إلى إله الإغريق الذي كنت أجله فوق كل الآلهة، وأسأله إن كان قد قصد تضليل من يرعون أموره في هذه، فسوف يكون ذلك غاية المنى ومنتهى الكرم منك». وهنا سأله قورش ما يأخذ على إله الإغريق. فروى له كرويسوس ما ناله من هذا الإله وإجابات العرافة وعرض القرابين التي قدمها له، وأطال هنا في الحديث، وأخبره عن النبوءة وحفزها له على شن الحرب على فارس. ومضى يروي له كل ما جرى وانتهى إليه الأمر، وفي نهاية

الحديث عاد وكرر رجاءه بأن يسمح له الملك بتقريع الإله لهذا المسلك. فأجاب قورش ضاحكاً: «لك هذا وكل ما تطلب مجاب في كل وقت». ولما حظي كرويسوس بموافقة قورش على طلبه اختار جماعة من الليديين وأرسلهم إلى دلفي ليرموا بالأصفاد عند عتبة المعبد، ولينقلوا للإله هناك هذه العبارات: «ألست خجلاً لتشجيعك إياه، حين قلت له أنه سيكون مدمر إمبراطورية قورش، فيشن على فارس حرباً هذه أولى ثمارها؟»

وكان أن مضى الليديون إلى دلفي، ونقلوا مقالته، فردت العرافة، على ذلك، بالقول: «محال أن يهرب من حكم القدر كائن، ولو كان من الآلهة، وما ناله كرويسوس إنما كان جزاء ما اقترفت يدا جده الخامس، حين تواطأ وامرأة في مؤامرة وهو جندي في حرس الملك كاندوليس، فأثم وقتل مولاه واستولى على العرش. ولقد كانت مشيئة أبوللو ألا تسقط في عهد كرويسوس، فيكون سقوطها في أيام ابنه، لكنه لم يفلح في حمل الأقدار على أن تجري كما أرد. وكان أن رضي أبوللو بمشيئة الأقدار. وليعلم كرويسوس أنه أرجأ سقوط سارديس ثلاث سنوات كاملة. ثم إن أبوللو هو من أنقذه من النار. كذلك ليس لكرويسوس أي حق في شكواه مما بلغه من نبوءة الآلهة. ذلك أنه كان الأجدر به أن يسأل الإله حين قال له إنه مدمر إمبراطورية عظيمة، إذا ما هاجم الفرس، إن كان مدمراً مملكة أولئك القوم أم مملكته هو؛ أما إذا شق عليه أن يفهم المقال أو لم يكلف نفسه عناء البحث عن تفسيره فالعلة كامنة فيه، وحق عليه أن ينال ما نال. وهو إلى هذا وذاك لم يدرك المقصود بالبغل ـ والمعني هو قورش، لأنه ولد لأبوين ينتميان إلى قومين مختلفين، فوالدته أميرة ميدية، وابنة الملك استياجيس، وأما والده ففارسي من عوام الفرس، ثم قدر له أن يتزوج بأميرة هي مولاته، وهو دونها مرتبة ومقاماً بكثير.

ولما سمع الليديون رد الكاهنة على مقالة كرويسوس، قفلوا أدراجهم عائدين إلى سارديس، ونقلوا ما بلغهم إلى كرويسوس، الذي أقر بأنه أخطأ في فهم النبوءة، ولم

يكن ذلك خطأ من الآلهة. وهكذا كانت هزيمة أيونيا الأولى، نهاية إمبراطورية كرويسوس.

كان كرويسوس قد بذل الكثير تزلفاً للآلهة غير ما ذكر، وبلغت هداياه بقاعاً مختلفة من بلاد الإغريق، مثل طيبة الواقعة في منطقة بويوتيه حيث يوجد المرجل ذو القوائم الثلاث قدّمه لأبوللو الاسميني؛ وإفسوس حيث توجد البقرات الذهبيات وأغلب الأعمدة التي هي عبارة عن هدايا منه؛ وفي معبد برونايا بدلفي درع ضخم من الذهب من هداياه. وما زالت هذه القرابين في مواضعها حتى يومنا هذا، وغير الكثير الذي ذكرت، ومنها ما قدمه تقرباً لمعبد برانشيداي في ميليسيا، ويضارع، كما أخبرت، ما هو موجود في معبد دلفي. إن الهدايا المقدمة إلى دلفي وتلك المقدمة لأمفيرايوس ، كانت من ماله الخاص وهي مما ورثه عن والده؛ وأما هداياه الأخرى فكانت من غنائمه من عدو كان قد شق عليه عصا الطاعة وأراد اغتصاب ملكه لينصِّب رجلا يدعى بانتاليون على عرش ليديا. وبانتاليون هذا هو ولد للملك الياتتيس، وهو أخ غير شقيق لكرويسوس من أم أيونية، بينما أم كرويسوس كارية الأصل. فلما نصبه والده ملكاً اعتقل الرجل الذي تآمر عليه وقام بتعذيبه جزاء لتآمره. وقد سبق أن ذكرت أن كرويسوس جعل ثروته في خدمة الآلهة. وحسبي ما قلت في ذلك.

إن ليديا، لتختلف عن معظم البلدان، إذ ليس فيها الكثير مما يجعل المؤرخ يسترسل في وصفها، سوى فلزات الذهب التي تستخرج من نهر تمولوس. ولكن لا بد من التنويه بأن فيها هيكلاً واحداً لا يبزه في الضخامة إلا صروح مصر وبابل، ذلكم هو قبر الياتتيس، والد كرويسوس، وقاعدته من الحجارة الضخمة، أما البقية فهي تل واسعة من التراب. وقد تضافر على بنائه التجار والحرفيون والغواني في سارديس، فشيدوا خمسة أعمدة من الحجر ما زالت باقية حتى اليوم، وعليها الكتابات المنقوشة التي تبين مقدار ما أسهمت به كل فئة من العاملين في بناء هذا الصرح. ويتبين عند القياس أن نصيب الغواني كان الأكبر. وقد نهجت بنات العامة كلهن في ليديا، على طرق هذا الدرب ليجمعن من الناس أجرهن من هذا العمل،

وتظل الفتاة على هذا النهج حتى يتوفر لها المبلغ اللازم لزواجها. ويبلغ محيط الضريح [قرابة الميل] أما عرضة فقرابة الثلاثين متراً، ويقع قريباً من بحيرة واسعة يقول الليديون إن الماء لا ينقطع عنها ويسمونها بحيرة جيكايا.

إن عادات الليديين تكاد تشابه عادات الإغريق ، إلا في تنشئة هؤلاء لبناتهم. والليديون كما بلغنا أول أمة تسك النقود بالذهب والفضة، وتأخذ بالتجارة بالمفرق. وهم يزعمون أنهم مبتكرو الرياضة التي يشتركون فيها مع الإغريق، وكان ابتكارها، على ما يقولون حين استوطنوا تارهينيا، وعن هذا يروون أنه حل بالبلاد في أيام أتيس بن مانيس، قحط شديد، لم يجد معه صبر أو جلد، فأخذوا يجيلون الفكر لتدبر مصابهم، وتفتقت أذهانهم عن حيل وأساليب وألعاب، منها النرد والكرة وسوى ذلك من المبتكرات إلا الطاولة، فلا يدعون أنها من ابتكارهم. وكانت خطتهم في التغلب على القحط الانشغال بالرياضة يوماً بطوله، حتى ينسى الرياضي كل إحساس بالجوع، ثم يأكل في اليوم التالي، دون أن يلعب. ولقد مضوا ثمانية عشر عاماً وهم في شدة وضيق والأمر مستفحل فيهم وفيمن حولهم. فقرر الملك أن يجعل الشعب قسمين ويجري القرعة بينهما فيمن يمكث في الأرض ومن يهاجر؛ ثم كان على المهاجرين أن يرتضوا بولده تايرهينوس مقدماً عليهم. ولما تم الخيار سار المهاجرون إلى سميرنا [إزمير]حيث عمروا السفن وتزودوا بالمؤن والحاجيات، وانطلقوا بعدئذ يبحثون عن موطن جديد يستقرون فيه. ولقد حملهم هذا البحث إلى مواقع قصيه تنقلوا بينها ولم يستقروا، حتى بلغوا أومبريا [شمال إيطاليا]، حيث كان مستقرهم، وحيث انشأوا المدن وبنوا المساكن. وقد تخلى هؤلاء القوم عن اسمهم القديم أي الليديين الذي كانوا يعرفون به واتخذوا اسم ولد ملكهم المتقدم عليهم نسباً، فباتوا يسمون بالتيرانيين.

لقد اقتصرت في العرض، حتى الآن، على الحديث عن تقلب مصائر الليديين ليغدوا تحت نير الفرس. وأجدني في هذا المقام ملزماً باستقصاء أمر قورش الذي قضى على إمبراطورية الليديين، وعرض أسباب صعود الفرس ليصبحوا

سادة آسيا. ولسوف اعتمد في هذا على رواية الثقات من الفرس الذين لم يكن قصدهم من رواياتهم تمجيد فتوحات قورش، وإنما بسط الحقيقة المجردة لمن شاء البحث عنها. والحق أن قصته تروى على ثلاثة وجوه، سوى روايتي.

اعلموا أن دولة الآشوريين في آسيا الصغرى استمرت خمسمئة وعشرين عاماً، حتى شق الميديون عليهم عصا الطاعة، فحملوا السلاح في وجههم، وقاتلوهم ونزعوا عن أعناقهم نير العبودية، وباتوا أحراراً. وكانت تلك مأثرة اقتدت بهم فيها أمم أخرى قيّض لها أن تستعيد استقلالها.

وهكذا استفحل أمر الثورة فكان أن نعمت الأمم في كل أرجاء تلك الأرض بنعمة الاستقلال في تصريف شؤونها، لولا أنها عادت لترزح تحت وطأة الملوك على نحو ما سوف أفصل في القول. ولقد بلغنا أن ميدياً يدعى ديوسيس، ولد فراورتيس، وقد عرف بالحكمة، زين له الفكر أن يفرض سلطانه على من حوله. فمضى ديوسيس يدبر خطته بإحكام. ووجد هذا الرجل الميديين يعيشون في ذلك الزمن في قرى متباعدة بلا سلطة مركزية يخضعون لها، فكان حرياً أن تتفشى الفوضى ويطغى العسف، في هذه الأحوال؛ وكان في تلك الأيام قد برز في قريته، فأخذ يجهد في إرساء العدل بين أهله وعشيرته، وكان يذهب في الرأي إلى أن العدل والظلم نقيضان في صراع أبدي ولا سبيل للتوفيق بينهما. فلما رسخت قناعته أخذ في الدعوة إلى هذا المذهب، وأخذ الناس يقصدونه في شؤونهم، وإذ وجدوا أحكامه أحكام عدل ونزاهة، سعوا إليه ليكون الحَكَمَ في خلافاتهم مع بعضهم بعضاً. ولما كان قد عزم على أن يكون له السلطان على القوم ظهر للناس قاضياً صادقا نُزيهاً، فاتجهت إليه أنظار مواطنيه وشاع اسمه وطار صيته إلى أهل القرى في الجوار. وكان هؤلاء قد عانوا المظالم الشديدة على مر الزمن، وحينما بلغهم أمر ديوسيس وعدله ونزاهة قرارته، هرعوا إليه من كل حدب وصوب ليفصل في دعاواهم ومشاحناتهم حتى محضوه كل ثقتهم، لا ينازعه فيها منازع.

وأخذ الناس يومئذ يتوافدون على ديوسيس هذا ليفض خلافاتهم، وهم مطمئنون إليه بعد ما رأوا منه رجاحة العقل ونزاهة الحكم، حتى كثرت مشاغله بقضاياهم، مما حمله على الإحساس عندئذ بأهميته. فأعلن للملأ أنه لن ينظر بعد اليوم في قضية من القضايا، وانقطع عن الجلوس في المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه وهو يحكم بين المتخاصمين. وكانت حجته في هذا الاعتزال أنه «ليس مما يتفق ومصلحته أن يشغل يومه في تصريف شؤون الناس ويهمل شؤونه الخاصة». فعادت السرقات وتفشت الفوضى من جديد، بل عمت وزادت أكثر مما كانت عليه من قبل؛ وتنادى الميديون حين استفحلت الشرور للتداول فيما ينبغي عليهم القيام به. وكان المتنادون وأصحاب الرأي، على ما يذهب بي الفكر، من أصحاب ديوسيس. وصاح هؤلاء في الندوة بالشكوى من أن «الحياة في هذا البلد لن تطاق، إذا استمرت الأمور على ما هي عليه الآن؛ والأحرى أن ننصب علينا ملكاً يرعى شؤوننا ويسوس البلاد كما ينبغي أن تكون السياسة، فنلتفت نحن إلى شؤوننا، ولا نحمل على هجر أرضنا بسبب هذه الفوضى». ولقد اقتنع القوم يومئذ بسلامة تلك الحجج، واستقر عندهم القرار بتنصيب ملك عليهم يتولى تدبير الشؤون في بلادهم.

وكان من طبيعة الأمور، بعدئذ، تقرير من يختار القوم ليكون هذا الملك. ولما بلغ الأمر هذا الحد طرح اسم ديوسيس فلهجت الألسن بالثناء عليه، فاتفق الجمع فوراً على أن يكون صاحبهم الملك المنشود. فلما عرضوا عليه المنصب طلب أن يشيد له قصراً يناسب مقامه وحرساً لشخصه. فوافق الميديون على ما أراد وشيدوا له قصراً كبيراً حصيناً، على أرض محددة، كذلك تركوا له أمر اختيار حرسه على نحو ما شاء ومن أبناء الشعب عامة. وهكذا ما إن جلس الملك على عرشه حتى طلب إليهم أن يشيدوا مدينة واسعة يجتمعون فيها، ويهجروا بلداتهم الصغيرة حيث يعيشون، لتكون العاصمة الجديدة التي يشخصون إليها بأبصارهم ويقيمون على رعايتها. وانصاع الميديون لأوامره، مرة أخرى، فبنوا المدينة التي تعرف اليوم باسم أكبتانا، ذات الأسوار الحصينة المنيعة، والتي تطاول السماء

في دوائر لولبية، بعضها فوق بعض.

أما المخطط فيقوم على أن يعلو كل سور عن السور الذي قبله. وكانت الأرض التي قامت عليها المدينة، وهي تل مرتفع، يناسب هذا المخطط إلى حد ما، إلا أن الأصل في منعة المدينة هو فن العمارة التي اعتمدت. وقد بلغ عدد الدوائر سبعاً، يقع القصر الملكي والمستودعات في آخرها. ودائرة السور الخارجي تكاد تطابق دائرة سور أثينا. والحجارة عند هذا الجدار بيضاء يليها صف من الحجر الأسود فالقرمزي فالأزرق والخامس برتقالي؛ وهذه الصفوف مطلية جميعها بالدهان. وأما الصفان الأخيران من حجارة الجدار فمطليان بالفضي والذهبي.

وقد شيد ديوسيس هذه التحصينات كلها حماية لنفسه وقصره. وأما عامة الشعب فكان عليهم أن يقيموا مساكنهم خارج دائرة الأسوار. ولما اكتمل بناء المدينة مضى ديوسيس لإعداد المراسم الملكية. وكان من تقاليده ألا يسمح لأحد بالاقتراب من الملك، فيكون الاتصال به عبر مراسلين، وقد حرم على رعاياه أن يشاهدوا شخص الملك، وحظر عليهم أيضاً أن يضحكوا أو يبصقوا في حضرة جلالته. وقد وضع ديوسيس هذه المراسم؛ وهو أول من ابتدعها، حماية لشخصه، خشية أن رفاقه، وهم لا يقلون عنه أصلاً ومحتداً، ويضارعونه بأساً ورجولة، إذا ما اعتادوا مشاهدته قد يبرمون به ويتواطؤون عليه؛ أما إذا غاب عن العين فلعله يكون له وقع في نفوسهم ويحسبونه مجبولاً من جبلة غير جبلتهم.

ثم أن ديوسيس انقطع لعمله، بعد ما أرسى تلك التقاليد، واستقر على العرش، وأخذ يتابع نهجه في الاهتمام بقضايا الناس وخلافاتهم على ما عرف عنه من دقة وصرامة. وقد جرت العادة على أن يرفع صاحب الدعوى قضيته بكتاب إلى الملك، فينظر فيها، ويذيع بعدئذ على المتخاصمين قراره. وكان قد بث العيون والأرصاد في كل أرجاء مملكته، فإذا بلغه نبأ اعتداء أو تجاوز بعث في طلب الآثم ثم أوقع به العقاب جزاء وفاقاً لما ارتكب من الذنب. وحد ديوسيس

صفوف الميديين، وانفرد بعدئذ بحكمهم، وهم يجتمعون في عشائر بوساي وياريتاسيين وستروكاتي وأريزاتي وبودي وماجي.

استمر عهد ديوسيس ثلاثاً وخمسين سنة، ثم خلفه ابنه فراورتيس. ولم يكن فراورتيس هذا ليرضى بمملكة من الميديين وحدهم، فأخذ بمهاجمة الفرس، ثم دخل بلادهم على رأس جيش عرمرم، ومازال يجد في قتالهم حتى استولى على كل أرضهم وأخضعهم للميديين. وهكذا كان مبدأ توسع مملكة فراورتيس. وبات فراورتيس ملكاً على شعبين كلاهما قوي ذو بأس، فمضى بعد هذا النصر الذي تحقق له ليستولي على آسيا، وكان له النصر في كل حملة، فأخذت البلدان تتهاوى واحدة بعد الأخرى أمام سطوته. ثم كان أن شن الحرب في النهاية على الآشوريين، وهم أعني أصحاب نينوى، وكانوا من قبل سادة آسيا. أما اليوم فقد داهمتهم الحرب وهم أضعف حالاً إثر ثورة حلفائهم عليهم وانفضاضهم عنهم، إلا أنهم ظلوا داخل بلادهم أقوياء وعلى رغد من العيش، كما كان حالهم أبداً. ولقد تصدوا له حين شن عليهم الحرب فدحروه وقضوا عليه وعلى الكثير من جيشه، بعد أن ظل يحكم الميديين اثنتين وعشرين سنة.

ثم خلفه على العرش، بعد موته، ابنه سياشاريس. وقد قيل فيه إنه كان يفوق أسلافه اندفاعاً إلى الحرب، وهو الذي جهز جيشاً لغزو آسيا، فجعله في كتائب ووزعها بين كتائب حملة الرماح ورماة السهام والخيالة، وكان الجيش قبله خليطاً. وكان هو الذي قاتل الليديين يوم انقلب فيه النهار فجأة إلى ليل، ثم أخضع آسيا وراء نهر خالص. ولقد حشد هذا كل الأمم التي تخضع له وسار بهم إلى نينوى، وهو عازم على الانتقام لأبيه، يراوده الأمل بأن يظفر بتلك المدينة. وكان أن اشتبك الجيشان في معركة انتهت بهزيمة الآشوريين، وفيما كان خاشاتريتا قد شرع في حصار المدينة، اندفع سيل جارف من السكيثيين، بقيادة ملكهم مادييس بن بروتوثيز واجتاحوا آسيا ودخلوا أرض الميديين، وهم يلاحقون السميريين الذين طردوهم من أوروبا.

إن المسافر، إذا كان خفيف المتاع، ليستطيع أن يقطع المسافة من بالوس مايوتيس حتى نهر فاسيس وكلوتش (القلزم)، في ثلاثين يوماً. ولا تستغرق الرحلة من القلزم حتى تبلغ أرض الميديين زمناً طويلاً، فلا يوجد شعب يفصلك عن مقصدك سوى الساسبيريين ولكن هذا لم يكن الطريق الذي سلكه السكيثيون في مسيرتهم، إذ لم يتبعوا في طريقهم الخط المستقيم، ثم إنهم اختاروا لهذا المسير الطريق الأعلى، وهو أطول كثيراً، جاعلين جبال القفقاس عن يمينهم. وقد اعترض الميديون السكيثيين، بعد غزوهم أرضهم، فحاربوهم، ولكنهم اندحروا وخسروا إمبراطوريتهم. فغدا السكيثيون لتوهم سادة آسيا.

ولما تم لهم هذا زحفوا إلى مصر للاستيلاء عليها. فلما بلغوا فلسطين وجدوا أمامهم ملك مصر بسميتاك، ومعه الهدايا وهو يلهج بالدعاء لهم، راجياً التوقف عن زحفهم. فعادوا أدراجهم حتى توقفوا في عسقلان، دون أن يلحقوا ضرراً بالبلاد في أثناء مسيرتهم، لولا أن قلة منهم تأخرت عن الركب وأخذت تعمل نهباً في معبد أفروديت.

وقد تقصيت الأمر وتبين لي أنه أقدم المعابد الخاصة بهذه الإلهة، وما المعبد المكرس لها في قبرص، كما يسلم أهلها بذلك إلا تقليد لهذا المعبد في عسقلان؛ والمعبد الذي في شتيرا أقامه الفينيقيون، وهم أهل هذه المنطقة من سورية. ولقد حل على هؤلاء السكيثيين الذين نهبوا المعبد لعنة الآلهة بأن أصيبوا بمرض النساء، وما زالت هذه اللعنة تلاحق ذريتهم. وهم يعترفون بأن هذا هو أصل العلة، والذين يزورون بلادهم يلاحظون حقيقتها، ويطلق على المصابين بها اسم الأيوريس.

استمر سلطان السكيث على آسيا ثماني وعشرين سنة، طغوا فيها وتجبروا فأشاعوا الخراب في كل مكان. فكانوا يفرضون الإتاوات على أمم عديدة، فوق ما يبلغهم من المغانم المعروفة، كلما طاب لهم، فضلاً عن عسفهم بالبلاد وتغريم من تطاله أيديهم. وبعد أن طالت سيرتهم وهم على هذه الحال، دعا سياشاريس والميديون الجمع الأكبر منهم إلى وليمة حافلة، وأترعوهم نبيذاً، فلما ذهبت

الخمرة بعقولهم، أنزلوا بهم مذبحة كبيرة. فاستعاد الميديون ملكهم القديم. واستولى هؤلاء بعد ذلك على نينوى، وسأبسط لكم حديث ذلك، في موضعه، ثم حازوا على كل بلاد آشور، عدا منطقة بابل. ثم كانت وفاة سياشاريس ، وقد دام حكمه في الميديين، إذا عددنا سنوات حكم السكيث، أربعين سنة.

ثم خلفه على العرش ابنه استياجيس. وكانت له ابنة تدعى ماندانا، بدت له ذات ليلة في حلم جميل، فقد رآها فيما يرى النائم تصدر ماء غمر عاصمة بلاده حتى عم كل آسيا. فعرض هذا الحلم على أحد الكهنة وطلب منه تفسيره. فلما عرض له التفسير ارتاع الملك أشد الارتياع حتى إنه امتنع عن تزويج ابنته، حين بلغت مبلغ النساء، من أي من الميديين مهما علا مقامه، خشية أن يتحقق الحلم؛ لكنه قبل بزوج لها من أحد النبلاء الفرس، وكان رجلاً حليماً، يخاطبه كما يخاطب أي ميدي من متوسطي الحال.

وهكذا كان أن تزوج قمبيز الفارسي بماندانا، وحملها إلى بيته، ثم رأى استياجيس حلماً آخر في السنة الأولى من ذلك الزواج فقد رأى في منامه ابنته تخرج من رحمها كرمة تغطي آسيا كلها. فعرض هذا الحلم أيضاً على الكاهن، ثم بعث في طلب ابنته ماندانا من فارس، وكانت حاملاً، وعلى وشك أن تضع وليدها. فلما وصلت إلى قصره نصب عليها حارساً، وهو عازم على قتل الطفل عند ولادته، لأن مفسري الأحلام قد تنبؤوا بأن الذي ستلده ابنته سيكون الطاغية على آسيا كلها. وشاء استياجيس أن يلزم الحذر فأرسل في طلب رجل من أهله وأشد الميديين إخلاصاً له، ويدعى هارباجوس، ومؤتمناً عنده، وقال له: «أي هارباجوس، اصغ إلي، وحذار أن تهمل شيئاً مما أنا مسر إليك، ولا تخن العهد فيما سأعهد إليك، وإلا جلبت لنفسك الدمار في قادم الأيام. فخذ ولد ابنتي ماندانا إلى بيتك واقتله هناك، ثم ادفنه حيثما شئت». فأجاب الرجل: «إذن فأعلم أيها الملك أن هارباجوس كان أبداً الرجل المخلص لمولاه في كل أمر، ولتكن على ثقة، يا مولاي، بأنه لن يخذلك في أي وقت من المستقبل. فإذا كان هذا أمرك فإنك سوف تجدني حريصاً على تنفيذه بكل دقة وكتمان».

ولما قال هارباجوس قوله دفع إليه بالطفل وهو مكسو بإزار الموت، وقفل عندئذ عائداً إلى بيته نائحاً باكياً. ووجد زوجه هناك فأسر لها بما قاله استياجيس، فقالت له: «إذن، فعلام قرَّ عزمك». فأجاب الرجل: «إنه غير ما طلب استياجيس. وقد يثور غضبه وتشتعل ثورته، ولكني لست بالرجل الذي ينصاع لإرادته، أو يعينه في جريمة. وما يحول دون إقدامي على هذه الجريمة كثير. فالطفل أولاً من أهلي ودمائي، ثم إن استياجيس قد شاخ وعجز ولم يعقب ولداً.

فإذا مات خلفته ابنته على العرش - هذه الابنة التي يطلب مني الآن أن أقتل ولدها - فماذا ينتظرني سوى أسوأ العواقب؟ حقاً إن شئت السلامة كان موت الطفل واجباً؛ ولكن موته يجب أن يكون على يد أحد أهل استياجيس، لا على يدي أو يد واحد من أهلي».

ثم أرسل رسولاً في طلب ميثراداتيس، وهو أحد الرعاة في خدمة استياجيس، ويتخذ الجبال لرعي ماشيته، وهي أفضل مكان لتنفيذ ما اعتزم عليه، حيث تجول الوحوش الضارية وتحلق في سمائها الطيور الكواسر. وكان ميثراداتيس هذا متزوجاً بإحدى جواري الملك، وتعرف في الميدية بسباكو وسينو بالإغريقية، وتعني «الكلبة» بالميدية. أما الجبال التي ترعى ماشيته عند سفوحها فتقع إلى شمال اكبتانا، باتجاه بحر أوشينه. وهذا مكان مرتفع شديد الوعورة يجاور بلاد الساسبيريان[١٦]، وتغطيه الغابات، فيما بقية المنطقة سهول منبسطة.

ولما دخل الرجل، وقد جاء مسرعاً تلبية لطلب هارباجوس، ابتدره هذا بقوله: «إن استياجيس يأمر بأن تحمل هذا الطفل إلى أسوأ بقعة في التلال، حيث الموت مؤكد هناك وسريع. وقد أمرني بأن أخبرك بأنك ستلقى أشنع ميتة، إن لم تقتل الصبي، أو تركت له مجالاً للنجاة. وعهد إلي بمهمة التأكد من أنك تركت الطفل في البرية».

ولما سمع الراعي تلك المقالة حمل الطفل بين ذراعيه وقفل عائداً من حيث أتى. وشاءت الآلهة أن تكون زوجه حاملاً وكان الزوجان من قبل في ضيق، فالزوج فزع من اقتراب موعد مخاض امرأته، والزوجة في ضيق، لأن زوجها لم

يسبق أن استدعاه هارباجوس من قبل. وهكذا بادرت زوجها عند عودته بالسؤال عما حمل هارباجوس على استدعائه، على هذه السرعة، ثم وجدته يعود فجأة. فأجابها بقوله: «لقد رأيت وسمعت، يا زوجي، عجباً، وما كنت لأصدق أن ذلك مما يقع لأسيادنا. لقد وجدت الجمع كلهم في بيت هارباجوس يبكون وينتحبون، وراعني المشهد، ولكني أقدمت مع ذلك ودخلت القصر وما إن وطأت العتبة حتى وجدت طفلاً على الأرض، وهو يصرخ ويبكي، مغموراً بالذهب وملفوفاً بالقماش المنسوج بأجمل الألوان. ولما وقعت عينا هارباجوس علي، أمرني أن أحمل الطفل. ولعلك تتساءلين عما كان علي أن أفعل بهذا الطفل. إن الرجل أوعز إلي بأن أحمل هذا الرضيع إلى الجبال لتفترسه الضواري. وتوعدني بما لا يطاق إن قصرت في هذا. وهكذا كان أن حملت الطفل، وأنا أحسبه ولد إحدى الجواري، والحق أني عجبت لذلك الذهب والثياب الجميلة مما كان يغطي بدن الوليد، كما عجبت لذلك البكاء والنحيب في أهل هارباجوس. ولكن عجبي لم يطل، إذ سرعان ما انجلت الحقيقة أمامي. وبعدئذ أرسلوا أحد الخدم ليمضي بي إلى خارج المدينة ويحملني الطفل الوديعة؛ وهذا هو الذي أخبرني بأن الطفل ابن بنت الملك ماندانا، وأن أباه قمبيز بن قورش؛ وكشف لي عن أن الملك هو من أمر بقتله، وهاك الطفل».

ولقد كشف الراعي عندئذ عن الطفل لتتعرف إليه زوجه التي تأثرت أشد التأثر، وهي ترى مبلغ جماله وعذوبته، فأجهشت بالبكاء، وأخذت ترجو زوجها، وهي تشده من ركبتيه، أن يرحمه ويبقي عليه؛ فكان رده أن ذلك من المحال، وإلا كان موته على يد هارباجوس مؤكداً، لأنه لا ريب مرسل من يتابع أمره ويروي له حقيقة ما فعل، والموت الشنيع هو عندئذ جزاء العصيان. فلما وجدت أن توسلها قد ذهب أدراج الرياح، عادت تقول، وهي ترجو زوجها: «لقد طرقت كل باب معك فما أفلحت، وإذا كان لا بد من تقديم طفل للوحوش في الجبال، فلك أن تفعل على الأقل ما سوف أعرض: احمل الطفل الميت الذي وضعته قبل عودتك بقليل، وضعه حيث عزمت أن تضع هذا الطفل في التلال، ولنقم على رعاية ابن بنت

استياجيس، وبذلك لا تكون قد أثمت بحق مولاك، ولا تكون خسارتنا في ابننا بالفادحة ولسوف يشيع طفلنا المتوفى كما يشيع أبناء الملوك، ونكون بالمقابل قد أبقينا على هذا الطفل الحي، فلا يحرم من الحياة».

ولقد وقع هذا القول موقعاً حسناً في نفس الراعي، ورأى في هذه المشورة. أفضل الحلول في الظروف الراهنة. فأعطى الرجل امرأته الطفل الذي كان يعتزم قتله، ووضع ولده الميت في مهد الآخر، ثم بدل لباس كل منهما بملابس الآخر، ومضى بالطفل الميت إلى بقعة من الجبال موحشة. فلما مضت ثلاثة أيام على إيداع الطفل في الجبال، وكان قد أقام هناك من يرصده لينبئ بخبره، انطلق الراعي إلى المدينة متجهاً إلى دار هارباجوس. ولما قابل الرجل صاحبه، قال له إنه يستطيع أن يعرض له جثة الطفل. فأرسل هارباجوس جماعة من خاصة حرسه ليتأكدوا من أن الجثة قد عرضت في البرية حقاً؛ فلما ثبت لهم الأمر، أوعزوا بدفنها. وهكذا أودع الطفل القبر، بينما غدا الطفل الآخر الذي عرف في ما بعد باسم قورش في عناية زوج الراعي باسم آخر.

ولما بلغ الصبي العاشرة من العمر اعترضه حدث ذو شأن وكشف عن حقيقة أمره وها أنا أروي لكم ما جرى. كان الفتى يلعب ذات يوم مع أقرانه بين الأبقار والثيران في دروب القرية. وفيما كان الفتية يلعبون، تهيأ لهم أن يجعلوا من كانوا يسمونه بابن الراعي ملكاً عليهم. وكان أن اتخذ ذلك الصبي مظاهر الملك وشرع يصدر الأوامر لأتباعه، فكان منهم البناؤون الذين انشغلوا في بناء البيوت، وعين منهم الحرس للخفارة، وجعل واحداً عيناً للملك وعين آخر عاملاً للبريد ينقل رسائله ومراسيمه. وكان بين هؤلاء ولد أحد البارزين بين الميديين يدعى ارتمباريس، فعارض هذا قورش فيما أخذ يصدر من الأوامر. وكان أن أمر قورش الأولاد باعتقاله، فلما امتثل هؤلاء لأوامره تناوله بالضرب بالسوط واشتد في ضربه. فلما أخلي سبيله مضى ولد ارتمباريس ثائراً للمهانة التي لحقت به، وهو ابن واحد من كبار الناس، وشكا أمره لأبيه وما لحق به على يد قورش. ولكنه لم يذكر اسم «قورش» بطبيعة الحال، فهذا اسم لم يكن قد عرف

به بعد، وإنما أشار إليه بابن راعي الملك. ولقد ثار ارتمباريس لتلك الواقعة وغلت مراجل غضبه، فسار إلى الملك استياجيس يشكو إليه مهانته وكشف عن كتف الفتى وقال: «هذا يا مولاي ما فعله عبدك، ولد الراعي، وما انزله بنا من الإهانة».

فلما رأى استياجيس ذلك المشهد وسمع تلك العبارات، عزم على الانتقام لكرامة ارتمباريس المثلومة، وانزال العقاب بالراعي وابنه. فأمر باحضارهما لينظر في أمرهما. ولقد جاء الرجل وابنه ومثلا أمام الملك، فبادر استياجيس بالقول، وهو يحدق في قورش: «إذن فأنت ابن الرجل الوضيع الذي تجرأ على ابن نبيل من المقدمين في قصري؟»

فأجاب الصبي: «قد عاملته بما يستحق: اختارني فتيان القرية لأكون الملك في لعبة نلعبها، وكانوا يمتثلون لأمري، إلا هذا الصبي؛ فإنه عصى، وكان هو من بين من اختاروني لهذا الدور، وأخذ أوامري على محمل الخفة، حتى استحق في النهاية الجزاء. فإذا حق علي العقاب لهذا فإني أقبله».

كان استياجيس يصغي لكلام الصبي والشكوك تراوده في حقيقته. فلقد وجد فيه شبهاً به، ورأى في إجاباته نبلاً؛ ثم إنه وجده في عمر يعادل في سنواته العهد الذي مضى على تضحيته بحفيده. وظل استياجيس يقلب هذه الأمور على كل وجه، ويستغرق في التفكير، مستغرباً، صاغياً، صامتاً، حتى تمالك نفسه بمشقة بعد زمن طويل؛ وأراد عندئذ أن يصرف ارتمباريس من المجلس، ليختلي بالراعي، فقال له: «لك عهدي، يا ارتمباريس، بألا يكون لك أو لولدك ما تشكوان منه بعد أن نبلغ قراراً في هذا الشأن». فانسحب ارتمباريس من حضرة الملك، بينما اصطحب خدمه، بإشارة منه، قورش إلى حجرة قصية. ولما اختلى استياجيس بالراعي، سأله كيف تحقق له أن يكون له هذا الفتى، ومن هو صاحبه؛ فأجابه بأن الفتى إنما هو ابنه، وهو والده، وأمه التي حملته مازالت تعيش وإياه في بيتهما. فقال الملك إنه جنى على نفسه، إذ لم يحسن تأديب الولد ثم أشار إلى حراسه باعتقاله وسجنه. ولما أخذ الحراس في دفعه إلى آلة

التعذيب، وأحس بالشر الذي ينتظره، شرع يروي الواقعة كما كانت منذ البداية، وانتهى بالتضرع وطلب الرحمة والعفو من الملك.

فلما سمع استياجيس رواية الراعي وتحقق من الأمر، لم ينله الضيق من فعلة الرجل بقدر ما ثار غضبه لمسلك هارباجوس. فبعث بالحرس في إثره، فلما مثل أمامه، سأله: «بأي وسيلة قتلت ولد ابنتي الذي وضعته بين يديك؟». فآثر هارباجوس ألا يلجأ إلى الكذب، وقد رأى الراعي عند دخوله على الملك، فخشي أن يفتضح كذبه فيضاعف من نقمة الملك، فكان أن أجابه، كمايلي: «لما دفعت إلي بالولد عقدت العزم على تنفيذ رغبات مولاي، جاهداً ألا يصيب يديَّ شيء بدم هو في الحقيقة من ابنتكم ومن دم مولاي، وما كان يراودني في هذا خاطر بأن أعصي لكم أمراً أو أخون ثقتكم. وكان أن تفتق ذهني عن هذه الوسيلة: لقد استدعيت هذا الراعي، ودفعت إليه بالطفل، وقلت له إنه أمر الملك أن يعدم. وما كنت كاذباً فيما قلت، فكذلك كان أمركم. وقد أوعزت إليه، فوق هذا، حين دفعت إليه بالطفل، أن يتركه في الجبال التي تسكنها الوحوش، وأن يظل هناك للرصد حتى يتأكد من وفاته، وهددته بالموت إن فشل في مهمته. ولما أنجز كل ما أوكلت إليه، وقضى الطفل، بعثت ببعض المخلصين من الخصيان فتفقدوا الجثة وتأكدوا من موت صاحبها، عمدت عندئذ إلى الأمر بالدفن، وهذه، يا مولاي، الحقيقة المجردة، وتلك هي الطريقة التي قضى بها الطفل».

وهكذا روى هارباجوس القصة ببساطة ومباشرة؛ وأخذ استياجيس عندئذ يكرر له حديث الراعي، دون أن يكشف له عما يعتمل في نفسه من الغضب، وأنهى الكلام بقوله: «وإذن، فالفتى مازال حياً، وفي هذا خير. فلطالما حزنت لمآله وضاقت نفسي، وقد حسبته ميتاً، ولكم تألم قلبي لتعريض ابنتي للآلام. والحق أن الأقدار اسعفتنا في هذا الانقلاب فهيا امض إلى أهلك وابعث لنا بابنك ليكون في صحبة القادم الجديد، فأنا عازم الليلة على تقديم القرابين، لسلامة الطفل، فقد وجب علينا شكر الآلهة لصنيعها، ولسوف تكون ضيفاً عليَّ في المأدبة».

ولقد سمع هارباجوس قول الملك، فلهج بالشكر والعرفان، ومضى كما أمر إلى بيته مبتهجاً، إذ وجد عصيانه لأمر مولاه قد انقلب خيراً، وبدلاً من النفي أصبح ضيفاً على الملك؛ في مأدبة كريمة لمناسبة سعيدة. وهكذا ما إن بلغ الدار، حتى نادى ابنه الصبي ذا الثلاثة عشر عاماً، وهو وحيد والديه، وأمره بأن يمضي إلى قصر الملك، ويمتثل لكل ما يأمر به استياجيس. ثم قصد زوجه وفؤاده عامر بالسرور والحبور فأخبرها بما كان من أمر ذلك اليوم. أما استياجيس فإنه لما تلقى الفتى، ولد هارباجوس، أمر بذبحه وتقطيع أوصاله، فجعل من بعضها شواء ومن البعض الآخر لحماً مطهياً، لتكون طعاماً يقدم للضيوف على المأدبة. وفي الساعة المعينة حضر هارباجوس ومعه الضيوف الآخرون، فجلسوا جميعاً إلى المائدة. وكان للضيوف نصيب من اللحم، أما هارباجوس فلم يكن أمامه سوى لحم ولده، عدا الأطراف والرأس، فقد وضعت في سلة مغطاة. فلما بدا هارباجوس شبعاً بعد ما تناول نصيبه من الطعام، ناداه استياجيس يسأله إن كان قد استطاب الطعام. فأجاب أنه استمتع به كل الاستمتاع، وعندئذ جاءه الخدم، على نحو ما أمر استياجيس، حاملين معهم السلة وفيها رأس ولده ويداه وقدماه، ورجوه أن يفتحها ويأخذ منها ما طاب له. ولقد رفع هارباجوس الغطاء، فوقعت عيناه على بقايا ولده. لكن المشهد لم يروعه، أو يذهب بجنانه، فظل على ثباته لا يبدي تأثراً بما رأى. فسأله استياجيس عندئذ إن كان يدري لحم أي حيوان تناول، فأجاب الرجل بأنه يعرف صاحبه حق المعرفة، وقد أصاب الملك بما فعل. ولما انتهى الرجل من الكلام، حمل الأواني بما بقي فيها من الطعام ومضى. على ما أحسب، ليدفن بقايا ولده.

ذلكم كان شأن استياجيس في عقاب هارباجوس: وبعدئذ أخذ يتدبر ما ينبغي عمله بحفيده قورش، فأرسل في طلب الكهنة الذين فسروا له ذات يوم ذلك الحلم على النحو الذي أثار فيه الذعر، وطلب إليهم من جديد أن ينظروا في تفسيره. فكان أن جاء جوابهم موافقاً لرأيهم القديم، وهو أن الفتى مقدر له أن

يغـدو ملكاً بلا ريب، حين يشب ويشـتـد عـوده، إن لـم يكن قـد أفلت مـن الموت صـغيراً. فأجابهم اسـتياجيس أن «الفتى لم يمت، وهو حي يرزق؛ وقد اخـتاره صـبيان القـرية ملكاً عليهم، فـجلى في دوره، فكان كالملوك حقاً في كل مـا سلك، من تعيين مـهام الحـرس والحراس والمراسلين، فحكم فيهم جميعاً، فأخبروني ما قولكم الآن فيما فعل»؟

فردوا عليـه: «إذا كان الفتى حياً، وفـاز بملك دونما تدبير منك، فلك أن تثق بأن لا ضـير مـنه فـاطمئن. فلقد تـحقق له الملك مـرة، ولن يكون له ثانيـة. فلطالما صـادف أن تـحققت نبـوءاتنا فـي حوادث تبدو غير ذات بال، أما الأحلام فـغالباً ما تتحقق في أمور غاية في التفاهة».

فقال استياجيس رداً على مقـالة الكهنة: «وإني أرى مثلمـا ترون. فلقد تـحقق الحلم الذي راودني حين سـمي الولد ملكاً ومنذ تلك اللحظة لم يـعد هذا بـالخطر عليَّ. ولكني أرغب، مع ذلك، أن تنظروا فـي الأمـر ملياً، ثم تقدمـوا لـي النصـيحـة في الطريق الآمنة لي ولأسرتي».

فرد الكهنـة: «وإنه لأمـر عظيم لنا نـحن أيضـاً، يا مـولاي، أن يسـتمـر عـهدكم وسلطـانكم. فـهـذا الفـتى فـارسـي وغـريب عنا، ولو انتقل السلطان إليـه، لصـغـر شـأننا، ونحن مـيديون وأبناء جنس غير جنسـه، ولانتـهينا عـبيداً عنده، أمـا أنت فمن أهلنا وعـشيـرتنا؛ وبوجودك على العرش نـأمن لأنفسنا نصـيبنا من السلطان ومراتب الشرف التي تكرمنا بها. وحسبك هذا سبباً لانشغالنا بأمرك وأمر ملكك على أشد مـا يكون الانشغال. فإن وجدنا خطراً يتهددك في هـذا الأمر لما ترددنا في الإشارة إليـه دونما مواربة؛ ولكن الحلم انتـهى الآن إلى هذه الخـاتمة التـافـهة، وإنا لمطمـئنون، والرأي عندنا ألا تـشـغل النفس بما لا نـراه جديراً بالقلق. ولكننا لك من النـاصـحين، مع ذلك، أن ترسل الفتـى إلى أهله فـي فـارس، فـلا تقـع عيناك عليه».

ولقد سر استياجيس بنصيحـة الكهنة أيما سـرور فاستدعـى قورش إليه، وقال له: «قد أخطـأت في حـقك، يا بني، لحلم راودني ولـم يتـحقق؛ وقـد شـاءت الأقـدار

ألا يصنيبك مكروه. فهيا امض إلى فارس الآن ـ ولك حرس يصحبونك ويؤمنون لك السلامة في رحلتك ـ وليكن التوفيق معك. ولسوف تجد هنالك أباً وأماً من غير مقام الراعي ميثراداتيس وزوجه».

وهكذا كان أن انصرف قورش من حضرة الملك، وصير إلى قصر قمبيز ليتلقاه أبواه هناك، بحبور وسرور، بعد ما انقطع بهما الرجاء باستعادته من براثن الموت، وعلما منه سبيل هربه من الموت.

وكان جواب قورش أنه لم يكن يعلم بما جرى له إلا وهو في طريقه إليهما؛ وكان قبل ذلك جاهلاً بحقيقة أمره، ويحسب خطأ أنه ابن الراعي. ثم كان أن علم بقصته في طريق العودة من الحراس الذين رافقوه في الرحلة، ومضى يروي لأبويه رعاية زوج الراعي سينو له في صغره وحنوها عليه، وما انقطع يثني عليها ولا ينفك يردد اسمها طوال الحديث. ولقد أوحى اسم المرأة، سينو، الكلبة لوالديه بأسطورة لتشيع بين الفرس وتبين لهم العناية الإلهية التي حفظت لهما ابنهما من السوء. وهكذا أشاعا أن كلبة وقعت عليه وحيداً في الجبال، فتولت ارضاعه وقامت على رعايته حتى كبر واشتد عوده.

وحين بلغ قورش مبلغ الشباب وشاع اسمه بين أبطال فارس، وبات محبوباً من الناس، اتصل به هارباجوس، المتلهف للانتقام، وأخذ يتقرب منه بالرسائل والهدايا. ذلك أنه لم يكن يرى نفسه في وضع يسمح له بإنزال العقاب بالملك، دون مساعدة من طرف آخر؛ فلما رأى قورش يشب عن الطوق سعى لكسب مناصرته، قائلاً إنه نال من المصائب مثلما نال هو. وكان قد مهد الطريق لخطته بأن زين لكبار الميديين بتأييده بالإطاحة باستياجيس عن عرشه، لعسفه وبأسه، وتنصيب قورش مكانه. وقد أعد لذلك خطته بأن سعى إلى إحاطة قورش علماً بما اعتزم عمله؛ ولكن كان دون ذلك مصاعب جمة، لبعد المسافة عن فارس والحراسة التي أقامها استياجيس على الطريق، فتفتق عقله عن حيلة لإبلاغ قورش بخطته بأن أتى بأرنب بري فشق بطنه، بينما أبقى على وبره، ودس فيه ورقة عرض فيها ما أراد أن يبلغه مقالته. ثم عمد إلى خياطة بطن الأرنب وحمله

لخادم موثوق مع شبكة ليبدو في هيئة صياد، ووجهه إلى فارس، على أن يقدم ذلك الأرنب لقورش، وعليه أن يقطع الخيط عن بطنه بيديه ولا أحد سواه، وفي حضور الخادم ولا أحد غيرهما في المكان. وهذا ما كان. فلما تسلَّم قورش الأرنب وأخرج الرسالة قرأ فيها التالي: «يا بن قمبيز، قد حبتك الآلهة برعايتها، ولولاها لما بلغت ما أنت فيه من النعمة، وبات عليك أن تسدد لاستياجيس دينه، وإلا كان قاتلك. ولو تحقق له ما أراد لكنت ميتاً؛ وإذن فأنت مدين بنجاتك للآلهة ولي . ولا ريب بأنك قد عرفت ما دبره لك استياجيس، وكيف كان جزائي بعدما دفعت بك إلى الراعي بدلاً من قتلك. فافعل ما أنا مشير عليك به وستكون لك مملكة استياجيس كلها. هيئ الفرس للثورة، وامض لملاقاة الميديين. ولا يضيرنك إن كنت أنا أو أحد المقدمين منهم على رأس الجيش الذي سيرسله الملك لملاقاتك: فالفوز لك في كل الأحوال، لأن أشرف الميديين سيكونون أول من يهجرونه للانضمام إليك في جهدك للإطاحة به، ونحن جميعاً جاهزون للعمل. فافعل ما أنصحك به وبادر بالعمل سريعاً ولقد أثارت تلك الرسالة في عقل قورش شتى ضروب الأفكار، فجعل يقلب الأمور على وجوهها، باحثاً عن أنجع الوسائل لحمل الفرس على الانتفاضة على حكم الليديين فأوحى له الفكر بالخطة التي سأعرضها هنا لإنفاذ أمره، فكان أن كتب على لفافة من الورق صيغة أمر من استياجيس بتعيينه قائداً على جيش الفرس، ثم دعا إليه جمعاً من رؤساء الفرس وفض على مرأى منهم تلك اللفافة وقرأ عليهم ما دون فيها، وأضاف: «والآن هاكم هذا الأمر: إن على كل شخص الحضور غداً حاملاً معه منجلاً».
وأمة الفرس جمع من القبائل، فكان الذي اجتمع منها عند قورش ورضي بالثورة قبائل الباسارجاداي والمارفيان والماسبيان، ويعتبر الباسارجاداي هم النبلاء . بل إن الأخمينيين الذين منهم كل ملوك الفرس ، فرع من الباسارجاداي ، وأما بقية القبائل الفارسية فهي البافثيالايان والديروسيايان والجيرمانيان وجميعهم مقيم على أرضه، بينما القبائل الأخرى، وهي الدان

والماردیا والدروبیكان والساجراتیان من البدو الرحل.

امتثلت القبائل للأمر، فاجتمع الرجال بمناجلهم في المكان المعين، وسمعوا من قورش أمره التالي. وهو أن يقوموا بتنقية قطعة من الأرض مساحتها ثلاثة آلاف وستمائة أو أربعة آلاف ياردة مما فيها من الأشواك. ولما نفذ هذا الأمر أصدر قورش، للتو أمره بأن يتواجد الرجال في الغد كذلك، وشدد عليهم بأن يأتوا بعد استحمام. وكان قورش قد عمد في غضون ذلك إلى ذبح كل ما عند أبيه من الماعز والأغنام والثيران ليولم لجيش الفرس مأدبة عمرت فوق هذا كله بأطايب الخمور وأشهى الخبز. وفي اليوم التالي اجتمع الضيوف عنده فأشار إليهم بالجلوس على العشب والاستمتاع بما توفر أمامهم من الملذات. ولما تناولوا ما شاؤوا من الطعام والشراب، التفت قورش فسأل الجمع أي الأمرين أدعى لارتياحهم - عمل البارحة ومشقته أم متعة اليوم، فكان جوابهم أن أين بؤس البارحة من هذا الذي ينعمون فيه اليوم. وكان قورش ينتظر سماع مثل هذا القول، فاغتنم الفرصة وشرع يعرض عليهم أمره. فألقى عليهم خطبته، وقال فيها: «يا أبناء فارس أعيروني سمعكم واصغوا لنصيحتي وستنالون حريتكم. فأنا الرجل الذي اختارته الأقدار لتحريركم، ويقيني أنكم أنداد للميديين في الحرب كما في كل أمر آخر. الحق ما أقول. فهيا ولا تترددوا وانزعوا عن رقابكم نير استياجيس حالاً».

ولقد كان لحديث قورش أبلغ الوقع عند مستمعيه، فلطالما كره الفرس استعباد الميديين لهم. وهاهم الآن يجدون قائداً يسير بهم إلى طريق الحرية، فما كان منهم إلا أن هللوا لهذا الأمل الذي لاح لهم، وهو المبشر به. وسرعان ما تواردت الأنباء وبلغت استياجيس، فبعث يستدعي قورش ليمثل أمامه؛ وكان أن حمل موفده بعبارات تحمل الوعيد بأنه قادم بأسرع ما يطيب لاستياجيس. فما كان منه إلا أن عبأ الميديين وحشد له الحشود، ولكن الفطنة خانته يومذاك فجعل هارباجوس على رأس قواته - ويبدو أنه نسي ما ارتكبه في حقه قبل حين. وكان

من أثر ذلك العمل أن قلة من جنوده، لم تشترك في المؤامرة، هي التي صمدت في ساحة المعركة، حين اشتبك الجيشان ودار القتال، وأما البقية فكانوا بين فار إلى معسكر الفرس ومتكلف يصطنع القتال اصطناعاً ليهرب بعدئذ من المعركة. ولما علم استياجيس بنبأ انهيار جيش الميديين على هذا النحو المخجل لم يثنه ذلك عن عزمه، فأقسم ألا يتيح لقورش فرصة النصر السهل،و قام بتسليح ما بقي في المدينة من الميديين، كبيرهم وصغيرهم، بعدما عمد إلى إعدام الكهنة الذين أشاروا عليه بإطلاق قورش، بالخازوق. ولقد انتهى بسقوط جنوده في ساحة القتال، بينما حوصر هو واستسلم.

ولما تم أسر استياجيس جاءه هارباجوس مقرعاً منددأ، ينزل به أشد الإهانات، وهو يذكره بالعشاء الذي قدمه له، وكان من لحم ابنه، وسأله عن حاله بعد ما غدا عبداً، وقد كان ملكاً قبل برهة فحدجه استياجيس بنظره، ورد على سؤاله بسؤال إن كان هارباجوس شريكاً لقورش فيما فعل؟ فأجابه بأن له قطعاً ضلعاً فيما وقع، فهو الذي كتب لقورش يحضه على الثورة.

فقال له استياجيس، عندئذ: «إذن، فأنت لست الأشد لؤماً بين البشر وحسب، بل أكثر الرجال غباء. فإذا كان هذا من تدبيرك حقاً، لكان الأجدر أن تكون أنت الملك، ولكنك أعطيت السلطان لرجل آخر؛ واللؤم فيك جلي لأنك بسبب ذلك العشاء حملت الميديين إلى العبودية. وإذا كان لا بد لك من أن تسلم العرش لآخر غيرك، لكان الأجدر بك أن تقدم هذه الجائزة الجليلة لميدي، بدلاً من فارسي؛ لكن الحال القائمة الآن هي أن الميديين الأبرياء من كل جنحة غدوا عبيداً بعد ما كانوا أسياداً، وأصبح الفرس سادة عليهم، بعد ما كانوا عبيداً عندهم.

استمر استياجيس في الملك خمسة وثلاثين عاماً[١٧]؛ ثم انتهى على النحو الذي ذكرت. ولقد صار الميديون تحت هيمنة فارس، بعد ما كانوا سادة آسيا وراء نهر القيزيل، طوال مائة وثمان وعشرين سنة، عدا الفترة التي كانت الهيمنة

فيها للسكيث؛ وكان ذلك بسبب عسف استياجيس. ولكنهم ضاقوا بعد حين بهذا الخضوع فثاروا على حكم الفرس في عهد داريوس، ثم قمعت ثورتهم واندحروا وخمد ذكرهم. أما العهد الذي أنا محدثكم عنه الآن فكانت فيه ثورة الفرس بقيادة قورش على الميديين، وغدوا سادة آسيا منذ ذلك الحين. ولقد قابل قورش استياجيس أحسن استقبال واستضافه في قصره حتى وفاته.

تلكم إذن قصة مولد قورش ونشأته وتوليه العرش. وكنت رويت لكم قصة نجاحه في احباط عدوان كرويسوس، وظفره في الهيمنة على آسيا كلها. وهاكم بعض عادات الفرس كما عرفتها وخبرتها. إن الفرس لا يعرفون الأصنام ولا يبنون المعابد ولا يقيمون المذابح، ومن ينصب الأصنام وينشيء المعابد والمذابح هو عندهم من الحمقى؛ فدين الفرس لا يقوم على التشخيص، كما هو دين الإغريق. فالإله زيوس في دينهم هو السموات والعوالم كلها، ولذلك تجدهم يقدمون القرابين له على قمم الجبال. وهم يعبدون الشمس والقمر والأرض والنار والماء والرياح، وهي آلهتهم الوحيدة، وفي فترة لاحقة بلغتهم ديانة افرديويت الأورانية، التي انتقلت إليهم عن طريق الآشوريين والعرب؛ وهي عند الآشوريين ميليتا واللات عند العرب وميترا عند الفرس.

وأما طقوسهم ففيها تقديم القرابين للآلهة التي ذكرتها، لكنهم لا يقيمون المذابح لإيقاد النار، ولا يريقون الخمر، ولا يعزفون الناي أو يتزينون بالورود ولا يأخذون بالولائم في طقوس ديانتهم، فهذه كلها يستغنون عنها في مناسباتهم؛ ولكن ثمة احتفالاً واحداً يتزين فيه الرجل بغرز أوراق الآس، عادة، في غطاء الرأس، ثم يأخذ القربان إلى مكان طاهر حيث يتلو الابتهالات لإله معين. وليس له أن يبتهل لأمر خاص به فحسب، بل عليه أن يدعو للملك ويرجو الخير لجميع الفرس أيضاً. وتجري القاعدة على أن يقوم هذا الرجل بتقطيع لحم الأضحية وطهيه، ثم يمد هذا اللحم على فرش من أطرى العشب، ويفضل أن يكون ذلك من البرسيم. فإذا تم ذلك أخذ الكاهن (ووجود أحد هؤلاء الكهنة في تلك

المراسم واجب) في تلاوة قصة مولد الآلهة. ثم يقوم صاحب القربان بعد فترة قصيرة بحمل اللحم بعيداً عن المكان ويتصرف به كما يشاء.

والفرس يجلون أعياد ميلادهم، فعيد ميلاد الفارسي مناسبة دونها المناسبات الأخرى، فيقيم الولائم والمآدب على أروع ما يكون. وإذا كان صاحب المناسبة ثرياً قدم في عيد ميلاده ثوراً أو حصاناً أو جملاً أو حماراً، مشوياً؛ أما الفقير منهم فالأضحية، تكون مناسبة لحاله، أي حيواناً أصغر حجماً. وأنواع الطعام عندهم قليلة؛ ولكن الحلوى أصنافها كثيرة. وتقدم أنواع الطعام عندهم متتالية. ولذلك جرى القول عندهم «أن الإغريقي لا يبلغ الشبع في أكله، لأنه إذا تناول طبق اللحم لم يجد ما يتناوله بعده، فألوان الطعام عندهم محدوده، وإلا لوجدتهم يتابعون الأكل». والفرس شغوفون بالنبيذ. ويشربونه بكميات كبيرة وقد جرت العادة بينهم على ألا يتقيأ المرء أو يتغوط في حضور رجل آخر. ومن عاداتهم أن يبحثوا القضايا المهمة، وهم مخمورون، ثم يعودون إلى التقرير في شأنها في اليوم التالي، حين يعرضها عليهم صاحب الدار حيث كان اجتماعهم بالأمس، وهم في حالة صحو. فإذا ظلوا على رأي ليلة البارحة أقروه، وإلا أعرضوا عنه، ونكثوا إلى رأي جديد. وتجدهم على العكس من ذلك حين يرون رأياً وهم في حالة صحو فإنهم يعيدون النظر فيه لإقراره، بعد سكر وخمر.

وللمرء أن يتبين مرتبة المرء بين الفرس بيسر، من نهجهم في السلام؛ وعهدنا بهم أنهم لا يتكلمون عند اللقاء، وإنما يقبلون على بعضهم بالقبلات؛ فالأنداد يقبلون الفم، وتقبيل الوجنتين دلالة على سمو المقام. وأما من كان شأنه صغيراً فيركع أمام من يعلوه مقاماً، دلالة على الإجلال والإكبار. وهم يكرمون أقرب الجيران إليهم، بعد أهلهم، ويليهم الأبعد فالأبعد، فيقل التقدير بقدر بعد المسافة. والفرس شديدو الاعتزاز بأمتهم، ويضعون أنفسهم فوق أمم الأرض، ولكنهم يتركون مع ذلك بعض الفضائل للأمم الاخرى، وهي تزداد وتقل حسب قربها من فارس أو بعدها عنها، واسوأ الأقوام عندهم أبعدهم عنهم، وكان الميديون قد

اعـتـمـدوا، في عـز دولتـهـم، هذا المبـدأ في الإدارة والحكم؛ فكانوا يتـولون أمـر جيرانهم المباشرين، ويدعون كل أمة أن تحكم جارتها، وفق مبدأ القرب.

وليس هناك كالفرس شعب ينزع إلى الأخذ بمناهج من هـو غريب عنه؛ فـهم يرتدون أزياء الميديين، مثلاً، لاعتقادهم بأن تلك الأزياء أكثر أناقة من أزيائهم؛ كذلك يرتدي جنودهم الدروع المصرية. ويصـدق هذا القـول في أخـذهم بالمتع الغريبة عنهم متى تعرفوا إليها ـ وأبرز مثـال على ذلك اللواط الذي أخذوه عن الإغريق. وللرجل من بينهم عدة زوجات، وعدد أكبر، بعد من المحظيات. وعنوان الرجولة عندهم بعد البسالة في القتال ما لديه من الأبناء. وجرى العرف عندهم على أن يكون لمن له العـدد الأكبـر من الأولاد نصـيب من عطايا الملك كل عـام؛ فالمبدأ عندهم أن في الكثرة قوة. ويستـغرق تعليم الفتى مرحلة ما بين الخامسة من عمـره والعشـرين، والتعليم يقتـصـر على ثلاثة أمور: ركوب الخيل، والرمي بالقـوس، والصدق في الكلام. والطفل يعـيش بين النسـاء ولا تقع عين أبيه عليـه قط قبل الخامسة، لئلا ينزعج الوالد إن مات الابن، وهو بعد في مراحل تربيته الأولى. وهذا في ظني نهج سليم. كذلك يعجبني منهم نهجهم في تحريم الإعدام لمن لم تكن له سابقة في الإجرام، ولو كان بأمر الملك، كما يحظر قانونهم على الحر أن يتعسف في عقاب رقيق لديه إلى حد التسبب في عاهة له. والنهج في هذا الموازنة بين الذنوب والفوائد، فإذا رجحت الخطايا وتكررت كان للغضب أن يأخذ مجراه. وليس هناك في عرفهم من يقتل أباه أو أمه. ويرون أن الآثم الذي يقدم على هذه الجريمة في بعض الحالات التي تشير إلى قتل الوالدين على يد أولادهم، لا بد أن يكون ذلك الولد إما عاقاً أو ابن زنى، فلا يعقل عندهم أن يُقتَل والد حقيقي على يد ابنه . وما هو محظور فعله عندهم محظور أيضاً الحديث فيه قولاً. والكذب في مذهبهم أكبر الكبائر، ويأتي الدين. بعده في التحريم بسبب أن الدَين يورث الكذب؛ ومن عادتهم كذلك أنهم يعزلون مرضى الجرب والجـذام ويمنعـون دخـولهم المدينة ويحظرون عليـهم الإقـامـة بين الآخـرين؛

فالأمراض في اعتقادهم عقاب ينزل بالمرء إن ارتكب كبيرة في حق الشمس؛ ومن يصاب بهذين المرضين من الغرباء يطرد من بلدهم: ومن الفرس من يطرد الحمائم البيض، إذا ارتكبت مثل هذه المعصية. والفرس يجلون الأنهار أشد الإجلال، فلا تجدهم يلوثون نهراً بالتبول أو البصاق فيه، بل ولا يغسلون أيديهم بمياهه أو يسمحون لأحد بذلك. وهناك أمر آخر بعد يستلفت الانتباه، وإن كانوا هم لا يلحظونه، وهو أن كل أسمائهم، وهي تعبر عن صفات عظيمة أو مزايا بدنية، تنتهي بحرف يسميه الدوريون «سان» ويطلق عليه الأيونيون«سيجما». ولسوف يلاحظ المدقق أن هذا الحرف تنتهي به الأسماء كلها بلا استثناء.

وما سبق ذكره من الأمور التي توفرت لي بالبحث والمعاينة الشخصية. ومازال هناك تقليد آخر درج عليه الفرس، ولم آت على ذكره؛ قصدت بذلك نهجهم في دفن الموتى، وهو أمر لا يتحدثون فيه ويحيطونه بالأسرار؛ فالرجل الفارسي لا يدفن إلا بعد أن ينهش جثته طير أو كلب. وأنا أعلم علم اليقين أن هذا هو نهج الكهنة في دفن موتاهم، ولا يخفونه عن أحد. والأموات يُكْسَون بالشمع ثم يدفنون في الأرض. والكهنة طبقة ذات تقاليد خاصة، ولا يشبهون الكهنة المصريين، أو أي شخص آخر. فالكهنة المصريون يعتبرون من أركان الدين الامتناع عن قتل الكائن الحي، إلا إذا كان قرباناً؛ أما الكهنة الفرس فيقتلون أي كائن حي أو حيوان بأيديهم، ما عدا الكلاب والبشر، ووسيلتهم في ذلك أيديهم؛ وهم في هذا يجعلون القتل باليدين من الأقانيم، ولا يستثنون من ذلك حتى النمل والأفاعي والزواحف والطيور: وهذا طقس قديم، ولا بأس إن ظلوا يتبعونه كعادتهم أبداً.

أما وقد فصلت في حديث الميديين والفرس فإني سوف أتابع ما كنت فيه من روايتي. لقد أرسل الأيونيون والأيليون وفودهم، فور وصول نبأ غلبة الفرس على الليديين، إلى قورش، وهو في سارديس، وقدموا له الطاعة، وفق معاهدتهم القديمة مع سيدهم كرويسوس فرد على طلبهم برواية قصة عازف الناي الذي رأى بعض الأسماك في البحر فشرع يعزف لها، علها تستجيب فتاتي إليه. فلما

وجدها تعرض عنه جاء بشبكة ورمى بها في البحر، فكان أن علقت بها أسماك كثيرة. ولما سحب الشبكة رأى الأسماك تقفز فيها فقال: «قد فات أوان رقصك بعد ما عزفت لك البارحة فأعرضت». وكان يقصد تذكير الأيونيين برفضهم يوم دعاهم للثورة على كرويسوس فأعرضوا عنه، بينما هم مستعدون الآن لتقديم الولاء له، حين استقرت له الأوضاع. ولذلك كان غضب قورش، ورده عليهم كما ذكرت.

فلما بلغت أنباء تلك الحوادث المدن، شرع الأيونيون في إقامة الدفاعات تحسباً لما قد يستجد من الأمور، وشرعوا في التداول فيما بينهم في البانيونيوم، وقد حضر تلك الجلسات كل الأقوام، عدا الملطيين، إذ توفر لهم أن يتحالفوا مع قورش وأن ينالوا منه المعاملة ذاتها التي كانوا يلقونها من كرويسوس. وأما الآخرون فكان الاتفاق بينهم على طلب المساعدة من إسبارطة.

وكان من حسن طالع الإيونيين في آسيا، وهم أصحاب البانيونيوم، أنهم أقاموا مستوطناتهم في منطقة تتمتع بأطيب مناخ. وليس لأيونيا منطقة شبيهة في العالم، لا في جنوبها ولا في شمالها ولا في شرقها ولا في غربها فغيرها من الأقاليم إما تعاني من البرد القارس، أو من الحر الشديد والجفاف . ولا يتكلم الأيونيون لغة واحدة بل أربع لهجات مختلفة موزعة على أماكن متعددة.وأول مدن الأيونيين في الجنوب مدينة ملطية ، تليها ميوس، ثم بريينه، وتقع جميعها في كاريا و يتكلم أهلها بلهجة واحدة. أما مدنهم في ليديا فهي أفسوس وكولوفون وليبدوس وتيوس وكلاوزمناي وفوكايا[١٩]، ولأهلها لهجة خاصة تختلف تماماً عن لهجة تلك المدن التي سبق ذكرها. وهناك ثلاث مستوطنات أيونية أخرى، اثنتان منهما تقعان في جزيرتي ساموس وخيوس، وواحدة هي ارتيرية التي تقع على البر ويتحدث أهالي ارتيرية لهجة واحدة، أمّا ساموس فيتحدث أهلها لهجة خاصة بهم لا تشاركهم فيها منطقة أخرى.

ولأن الملطيين ، قد عقدوا معاهدة مع قورش فإنهم، في أمان منه، ولا

يستشعرون منه خطراً؛ كذلك كان شأن سكان الجزر لا يجدون ما يتهددهم، لأن الفينيقيين لم يكونوا قد خضعوا، بعد، لفارس، ولا كانت فارس بالقوة البحرية لتثير فيهم الخوف.

كان السبب في عزلة الملطيين عن بقية الأيونيين ما كانت تشكو منه الأقوام الهيللينية في ذلك الحين من ضعف عام، وكان الأيونيون الأشد ضعفاً بين الإغريق، ولم يكن هناك مستوطنة يعتد بها، سوى أثينا. وقد عرفت تلك الأمة جمعاء، عدا المدن الاثنتي عشرة التي أوردت ذكرها، تمقت عبارة «الأيونية»، عند مجرد لفظها. ويذهب بي الاعتقاد أن معظم الإغريق مازالوا على نفورهم من هذه الكلمة. أما المدن الاثنتا عشرة فتخالف المدن الأخرى في اعتزازها، حتى إنها أنشأت معبداً لها وأسمته البانيونيوم ولا يؤمه إلا مواطنوها، ودخوله محظور على المدن الأيونية الأخرى ولم يطلب الحق في دخوله سوى أهل سميرنا. وتقع على مثل هذا في البنتابوليس (مجموعة المدن الثماني عند الدوريين وكانت تدعى سابقاً الهيكسوبوليس السادوس)، حيث حرص الدوريون على منع جيرانهم من الإفادة من معبدهم المعروف بالترويبيوم، بل وذهبوا إلى حظر دخول المعبد على أي مدينة في تجمعهم إذا انتهك أحد أبنائها الأعراف المتبعة في العبادة فيه. فقد جرت العادة على منح المتفوقين في الألعاب المكرسة لأبوللو التيريوباني دنانا ذات قوائم ثلاثة مصنوعة من البرونز، ولم يكن يسمح للفائزين بالاحتفاظ بها، وإنما كان عليهم أن يقدموا تلك الجوائز تضحية للإله. وكان أن خرق أحد أهالي هاليكارناس، واسمه اجاكسيكلس، ذلك العرف، إذ حمل جائزته ومضى بها، ليعلقها على أحد الجدران. فعمدت المدن الخمس ليندوس وايليسوس وكاميروس وكوس وسنيدوس إلى حرمان أهل هاليكارناس، وهي المدينة السادسة، من دخول المعبد. وأحسب أن السبب في اختيار الأيونيين اثنتي عشرة مستوطنة لهم في آسيا هو أنهم كانوا موزعين في اثنتي عشرة دولة يوم كانوا يقيمون في الجزر البيلوبونيزية، شأنهم شأن الآخيين، الذين طردوهم وحلوا مكانهم، اليوم. وأولى مدن الآخيين بعد سايكون هي بالليني، وهي

الأقرب، تليها ايجيرا ثم آيجاي على ضفة كراثيس، وهو نهر لا يجف ماؤه؛ ويلي ذلك بورا وهيليس (التي لجأ إليها الأيونيون بعد هزيمتهم على يد الآخيين)؛ فآجايوم ثم ديبيز وباتريس وأولينوس التي تقع على نهر بايروس العريض؛ ثم هناك دايمه وترايتاييس. وهذه المدن الثلاث وحدها التي تقوم على اليابسة. فهذه إذن الأقاليم الاثني عشر التي تتألف منها آخيا اليوم، وكانت تشكل أيونيا: ذلكم هو السبب الذي حمل الأيونيين، كما سبق لي القول، على إقامة اثنتي عشرة مستوطنة في آسيا. ولهو من السخف الإدعاء بأن الايونيين أكثر عدداً وأنقى دماً من سواهم عموماً؛ ذلك أن ثمة قسماً كبيراً من هؤلاء من الأبانتيين الذين جاؤوا من أيبويا، وما هم من الأيونيين بأي حال، فضلاً عن خليط الميناي الذين قدموا من أورخمينوس والكادميين والداريوب والفوس القادمين من مختلف مدن منطقة الفوسيس والمودوش والبلاسج الأركاديين والدوريين من الايبداوروس والكثيرين سواهم. بل إن أولئك الذين قدموا من مبنى المجلس في أثينا ويظنون أنهم يحملون أصفى الدماء الأيونية لم يصطحبوا النساء معهم حين حلوا في البلاد، وإنما اتخذوا زوجات من بنات الكاريين الذين قتلوهم. وبما أن تلك النساء قد قسرن على الزواج من قاتلي آبائهن وأزواجهن وأبنائهن لذلك تعاهدن على ألا يجلسن إلى الطعام مع أزواجهن، وألا يخاطبن الزوج باسمه ونقلنها إلى بناتهن وحفيداتهن. وكان ذلك في ملطية.

وأما فيما يتصل بالحكم فقد وجدنا بعضهم يتخذون ملوكاً عليهم من الليسيين، المتحدرين من جلاوكس، ولد ايبولوخس، بينما اختار آخرون كودروس، بن ميلانطوس؛ وهناك آخرون، بعد، كان حكامهم من كلتا الأسرتين. ولكن لما كان أولئك الأيونيون أشد احتفالاً من سواهم بالأسر العريقة، فلربما كان ذلك يجعلهم أرفع محتداً.

والحق أن هذا الاسم يطلق على كل من جاء من أثينا ويرعى عيد الاباتوريا (الأخوة) أي كل الأيونيين، عدا أهل أفسوس وكلوفون، فهم مستبعدون لجريرتهم

في قضايا قتل.

والبانيونيوم بقعة مقدسة على الطرف الشمالي من جبل ميكالي، اختارها الأيونيون بالإجماع وخصوا بها إله البحر بوسيدون، بعدما كانت تقام طقوس عبادته في هيليسه. وجبل ميكالي لسان ممتد من اليابسة في البحر؛ غرباً باتجاه ساموس، اعتاد الأيونيون الائتلاف إليه، والاجتماع هناك من مختلف المدن، وقد عرف احتفالهم بالبانيونيا. وجدير بالذكر أن أسماء الاحتفالات تنتهي عند الأيونيين والإغريق، مثل أسماء العَلَم عند الفرس، بذات الحرف.

تلك هي مدن الأيونيين الاثنتي عشرة كما سبق لي القول؛ أما المدن الأيولية فهي سايمة وتعرف باسم بفريكونيس أيضاً، ولاريسا، ونيون تيخوس، وتيمنوس، وسيللا، ونوتيوم، وايجروسا، وبيتانه، وآيجايي، ومرينا، وجرينيا. تلكم هي مدن الأيوليين الإحدى عشرة القائمة. وكانت، في الحق، أصلاً اثنتي عشرة ، وهي مثل عدد مدن الأيونيين، عدا واحدة، هي سميرنا التي اغتصبها الأيونيون. وأرض أيوليا تفضل أيونيا، إلا أن مناخها ليس بالأفضل.

كان الأيوليون قد خسروا سميرنا خدعة، فقد استقبل أهل هذه المدينة بعض اللاجئين من كلوفون بعد اندحارهم على يد عصبة مناوئة، وطردهم من مدينتهم؛ ومكث هؤلاء اللاجئون يتحينون الفرص للاستيلاء على المدينة، حتى كان عيد ديونيسوس فخرج الناس إلى البرية، خارج الأسوار، فقام هؤلاء بإغلاق الأبواب وتمكنوا من المدينة. ولقد أسرع الأيوليون من المدن الأخرى لنجدتهم. وتم الاتفاق يومئذ على أن يسلم الأيونيون كل ما يمكن حمله، وتبقى لهم المدينة. ثم كان أن تفرق أهل سميرنا بين المدن الأيولية الإحدى عشرة، ونالوا فيها ما للسكان من حقوق مدنية. فهذه هي إذن، المستوطنات الأيولية على البر، عدا تلك المستوطنات القائمة عند جبل ايدا التي لا تنتمي إلى الاتحاد. ومن المستوطنات في الجزر خمس في ليسبوس والسادسة هي اريسبا، استولى عليها أبناء عمومتهم، الميثيمانيون، واستعبدوا سكانها، وتينيروس الثانية وما يعرف باسم الجزائر المئة

هي الثالثة. وكان الأيوليون في ليسبوس وتينيدوس في حال من الطمأنينة، ولم يكن لديهم، كالأيونيين، ما يخشونه. وكان الاتفاق عاماً بين الأيوليين على أن يتبعوا طريق الأيونيين في كل أمر.

لما بلغت وفود الأيوليين والأيونيين إسبارطة وكان السفراء في عجلة من أمرهم، وقع اختيارهم على بيترموس ناطقاً باسمهم، وكان من فوكاسيس وقد ارتدى يومذاك رداءً قرمزي اللون، ليسترعي انتباه أكبر عدد من الحضور، وتقدم ليلقي خطاباً مطولاً يطلب فيه النجدة من الإسبارطيين. وكان ذلك خطاباً بلا طائل؛ إذ أعرض الإسبارطيون عن مد يد العون إلى الأيونيين؛ وما كان على الوفد بعدئذ سوى مغادرة البلد.

ومع ذلك فما كان من الإسبارطيين، وإن أعرضوا عن الاستجابة لطلب الأيونيين، إلا أن أرسلوا سفينة من خمسين مجدافاً إلى الساحل الأسيوي، على ما يذهب بي الفكر، لرصد تحركات قورش واستطلاع الأحوال في أيونيا. ثم كان أن ألقت السفينة مراسيها في فوكايا، وأوفد أبرز شخص على متنها إلى ساردیس لينقل إلى قورش تحذير اللاكيديمونيين من التعرض لأي مدينة إغريقية، وإلا كان عليه أن يواجه العواقب. وتذهب الرواية إلى أن قورش لما سمع ما قاله النذير، سأله عمن يكون هؤلاء، وما هو عددهم حتى حملتهم الجرأة ليوجهوا إليه مثل هذا الأمر؟ فلما أجابه النذير الاسبارطي، رد قورش: «ما كنت لأفزع من قوم يجتمعون في مكان خاص وسط مدينتهم، ليبذلوا العهود وهم يخادعون بعضهم بعضاً. ومثل هؤلاء القوم، إن التفت إليهم، كان لديهم من المتاعب ما يشغلهم عن أيونيا ومتاعب أهلها». وقد قصد قورش بقوله أن يعرض بالإغريق على العموم، لأنهم درجوا على البيع والشراء في الأسواق، وهم بذلك على النقيض من الفرس الذين ليست لديهم سوق عامة، بل ولا أي سوق في كل البلاد. وقد غادر قورش ساردیس بعد ذلك، وعين تبالوس، وهو فارسي، حاكماً عليها، وكلّف أحد الليديين ويدعى باكتياس بمهمة جرد كنوز كرويسوس وثروات غيره من الليديين

وغادر إلى أكبتانا، وكرويسوس في صحبته. فلم يكن يقيم للأيونيين أي أهمية ليجعلهم هدفاً له، إذ إنه كان منصرفاً بفكره إلى الاستيلاء على بابل واخضاع البكتريين والساكيين والمصريين، ويدبر لشن الحملات عليهم، وهو على رأس الجيش. أما الأيونيون فكان عنده أن أي قائد من قواده قادر على تدبر أمرهم.

ولقد عمد باكتياس، حالما غادر قورش الموقع، إلى تحريض الليديين على الثورة على حاكمهم الفارسي، وتمكن بفضل ما لديه من الذهب الذي جمعه من الساردييين من تجنيد الجنود والزحف إلى الساحل واقناع أهل تلك المناطق بتأييده. ومن ثم مضى إلى ساردييس وأحكم الحصار على تبالوس الذي حصن نفسه في القلعة. فلما بلغت تلك الأنباء قورش، وهو في طريقه إلى أكبتانا التفت إلى كرويسوس، وقال له: «لست أرى إلا أن هؤلاء الليديين مصدر للمتاعب لي، ولسوف يجرون الوبال على أنفسهم أيضاً. وفي اعتقادي أن أفضل ما يمكن عمله بشأنهم هو أن أجعلهم أرقاء وأبيعهم في سوق النخاسة. ويبدو من هذه الأحوال أني سلكت مسلك من قتل الأب وترك أولاده؛ وإني لأعجب لحالهم، ها أنت ذا سجين لدي، وقد كنت أكثر من أب لليديين، وتركت لهم ساردييس هدية، فوجدتهم يثورون عليّ، ولم ألمس منهم أي قدر من الولاء لي».

فلما سمع كرويسوس قورش يعرض عليه خواطره، خشي على ساردييس من الدمار؛ وكان أن قال لمخاطبه: «إن حجتك لسديدة، أيها الملك؛ ومع ذلك فإني أرجوكم ألا تستسلموا للغضب إن داهمكم، أو تعمدوا لتدمير مدينة عريقة لا جنحة لها في هذا الوضع أكثر مما كان لها في الماضي. فالتجاوز الذي كان هو بجريرتي، وأنا المسؤول عنها، وها إني أدفع الثمن؛وما يجري الآن عمل اقترفه باكتياس، وهو الذي عهدتم إليه بساردييس. وإذن فدونكم باكتياس، فالعقاب حق عليه. أما الليديون فالأجدر بكم أن تصفحوا عنهم ـ ولكن لكم، إن شئتم أن تضمنوا ولاءهم، ومنعاً لأي خطر منهم في المستقبل، فالرأي عندي أن تحظروا عليهم حمل السلاح، وليرتدوا من الآن فصاعداً، الإزارات تحت عباءاتهم،

ولينتعلوا النعال العالية، ومروهم بأن يعلموا أبناءهم العزف على القيثارة وإدارة الحوانيت. فإذا ما انتهجتم هذا النهج، يا مولاي، وجدتم أن هؤلاء الرجال سرعان ما غدوا نساء، وما عدتم تخشون من أمرهم شيئاً».

وكان مبعث نصيحة كرويسوس هذه أن ذلك من وجهة نظر الليديين أفضل من بيعهم في سوق النخاسة. و كان يدرك أن قورش لن يصغي لنصيحة ما لم تكن جديرة بالاهتمام، وإلا لظل على رأيه، فضلاً عن خشيته من أن يعود الليديون للثورة على الفرس في يوم قادم، إذا أفلتوا هذه المرة من العقاب، فتسوء عاقبتهم. ولقد سر قورش بهذه النصيحة ووعد صاحبها بتنفيذها؛ وإذ صرح بعدئذ بأن نفسه عادت إلى سابق عهدها من الرضى، بعث في طلب مازاريس الميدي وطلب إليه أن يعلن لليديين مرسومه وفق النقاط التي تضمنتها مشورة كرويسوس، ويتولى بعدئذ بيع كل من كان له ضلع في هجوم الليديين على ساردیس. وأوعز بالإبقاء على حياة باكتياس مهما كانت الظروف، على أن يحضر للمثول أمامه. فلما انتهى قورش من الأوامر تابع مسيره نحو أرض فارس.

ولما علم باكتياس أن جيشاً غدا يطارده وبات على مشارف موقعه، انتابه الهلع فهرب إلى سايمه[٢٠]، بينما كان مازاريس الميدي يتابع الزحف على ساردیس مع فوج من جنود قورش. وحين وجد باكتياس ومناصريه قد غادروا، كان أول ما فعله أن فرض على الليديين ما رسمه لهم قورش ـ وكان ذلك بداية تحول في حياة الليديين كلهم، وبعث بعد ذلك بكتاب إلى سايمه يطالب أهلها بتسليم باكتياس، فقر رأي الناس هناك على استشارة الكهنة في معبد برانشيداي فيما تشير به الآلهة عندهم، إن كان أن يقاوموا أو يستسلموا، ويقع معبد برانشيداي في منطقة ملطية بالقرب من مرفأ بانورموس، وهو معبد قديم كثيراً ما يلجأ إليه الأيونيون والأيوليون. وقد طلب إلى وفد سايمه سؤال الآلهة عن النهج الذي ينبغي على المدينة أن تنتهجه في معالجة مسألة باكتياس بما

يرضيها؛ فقال العراف إن عليهم تسليمه للفرس فعاد الوفد إلى المدينة، حيث تهيأ المواطنون لما سيأتي به تسليم الرجل. ولكن فيما كان الناس على وشك تسليم الرجل للفرس، اعترضهم رجل ذو مكانة يدعى هيراكليديس وقال إن الشكوك تساوره بشأن النبوءة وإن الوفد نقلها على غير وجهها الصحيح. فأرسل أهل سايمه إلى المعبد وفداً آخر، ضم بين من ضم هيراكليديس هذا، لتكرار السؤال على الكاهن وما ينبغي عمله بشأن باكتياس. ولما بلغ الوفد المعبد، طرح الناطق باسم الوفد اريسطوديكوس السؤال : «أيا أبوللو، يا إلهنا، قد لجأ إلينا باكتياس الليدي، طلباً للأمان، والنجاة من موت محقق على يد الفرس، وهؤلاء يطالبوننا، الآن بتسليمه إليهم. ونحن لا قبل لنا بخيانة لاجئ، وإن كنا نخاف سطوة الفرس، حتى تأتينا الإشارة إلى ما يجب علينا العمل في هذا الشأن». وجاء الجواب في هذه المناسبة الثانية كما كان في المرة الأولى، أي يجب تسليم باكتياس إلى الفرس.

ولكن اريسطوديكوس الذي كان يتوقع هذه الإجابة، لم يقنع بما نطقت به النبوءة. فخرج من المعبد وأخذ يطوف حوله، فالتقط بعض أفراخ عصافير الدوري وسواها من أعشاشها، وسمع عندئذ صوتاً يلعنه من داخل المعبد، على ما تقول الرواية: أيها البائس اللعين، كيف تجرؤ على الإتيان بمثل هذه الفعلة؟ أفتقتل من لجأ إلى معبدي لينال الأمان». فرد اريسطوديكوس الذي ظل متمالكاً نفسه: » يا رب، أي أبوللو، أفتراك تغيث من يلجأ إليك، وتطالب أهل سايمة مع ذلك أن يخذلوا اللاجئين إليهم؟» فأجاب أبوللو: «بلى، وإني لألعنك لما اقترفت من الإثم الآن، فلا تعد لطلب العرافة ثانية في شأن تسليم اللاجئين».

ولقد أوقع هذا الجواب أهل سايمة في حيرة وأشكل عليهم الأمر. فلا هم كانوا ليرضوا لأنفسهم أن ينتهوا إلى الندم بسبب تسليم من لجأ إلى حماهم، ولا كانوا يريدون أن يأتي الفرس لحصارهم لتقديمهم الحماية للاجيء - فشاؤوا أن يرحلوه إلى ميتلانة، وكان الميتلانيون على وشك تسليمه للفرس، تلبية لطلب

مازاريس، لقاء مبلغ من المال (ولست أعلم مقداره، لأنه لم يخرج من خزانته، ولا الميتلانيون تسلّموه بطبيعة الحال)، لولا أن الساموس سمعوا بالمفاوضات التي كانت تجري بين الطرفين، فأرسلوا قارباً إلى سايمة فحمل باكتياس إلى خيوس.

وفي خيوس جر أهلها باكتياس من معبد الآلهة أثينا الحارسة جراً وسلموه إلى الفرس. وكان ثمن تسليمه منحهم مقاطعة اتارنيوس، وهي قطعة أرض تقع على اليابسة، مقابل ليسبوس. وهكذا كان أمر وقوع باكتياس في قبضة الفرس واحتجازه ليصار إلى ترحيله للمثول بين يدي قورش.

ولقد ظل أهالي خيوس زمناً طويلاً يمتنعون عن استخدام شعير اتارنيوس في القرابين، ولا يستخدمون القمح الذي تنتجه تلك المنطقة في صنع الحلوى؛ والحق أن أهل تلك الناحية أخذوا يحظرون منذ ذلك الحين استخدام كل مادة تنتجها في المناسبات الدينية.

ثم اتجه مازاريس بعد تسليم باكتياس لشن حملة على كل من كانت له مشاركة في حصار تابلوس. وكان أن باع سكان بييرنة في أسواق النخاسة، واجتاح بعدئذ ناحية ماجنيسيا وسهل مياندر وعمل فيهما نهباً وسلباً. وقد أصيب في غضون ذلك بالمرض ثم توفي. وتولى القيادة من بعده هارباجوس، وهو ميدي آخر، وقد عرفتم من أمره أنه كان ضيف الملك استياجيس الميدي في ذلك العشاء المشؤوم، وساعد في تنصيب قورش على العرش. وكان أول ما قام به بعد توليه قيادة الجيش أن زحف إلى أيونيا وشرع في الاستيلاء على مدنها، ووسيلته في ذلك محاصرة المدافعين داخل الأسوار، ثم بناء تلال من التراب ليعتليها الجنود وبذلك يتمكنون من المدينة.

كان الفوكيون[٢١] أول الإغريق الذين ركبوا البحر، وافتتحوا الطريق إلى منطقة الادرياتيك وتيرانيا وايبريا وترتيسوس. وما كانوا يبحرون في رحلاتهم في السفن التجارية الواسعة العميقة، وإنما كانوا يتوسلون بالسفن ذات

الخمسين مجذافاً. ولقد عملوا على استرضاء ارجانطونيوس ملك تارتيسوس، يوم حلوا في مملكته؛ وكان قد أمضى ثمانين عاماً في ملك البلاد، ومات عن مئة وعشرين. والحق أن هؤلاء القوم وقعوا في نفسه أحسن موقع، حتى إنه استمالهم ليتركوا بلادهم ويحلوا عنده، في أي بقعة يختارونها؛ ولكن الفوكيين أعرضوا، وما كان من الملك، وقد علم أن جيرانهم الميديين يزيدون من قوتهم في ذلك الموقع من العالم، إلا أن قدم لهم المال ليشيدوا سوراً حول مدينتهم. ولا ريب أن منحة الملك كانت كبيرة، ويدل على ذلك ضخامة السور الذي شيدوه حول المدينة بفضل تلك المنحة، وكان من المداميك الضخمة.

ثم كان أن جلب هارباجوس جنوده إلى فوكاي التي كانت أسوارها على النحو الذي ذكرت من القوة والمنعة، وبدأ هذا القائد حصار المدينة، معلناً أنه يرضى من أهلها تهديم برج واحد وجزءاً من تحصيناتهم ليفك عنهم حصاره. فما كان منهم، عندئذ، وهم على كراهيتهم أن يصبحوا أرقاء، إلا أن طلبوا منه إمهالهم يوماً ليتدارسوا هذا العرض شرط أن يسحب قواته مسافة مناسبة من مواقعها. فقبل هارباجوس هذا الطلب، ولو أنه زاد بقوله أنه يدرك حقيقة نواياهم كل الإدراك. ولما انسحبت القوات، عمد الفوكيون إلى إنزال سفنهم إلى البحر، ودفعوا إليها بنسائهم وأطفالهم وكل ما يمكن حمله، ومن ذلك أصنامهم وما في معابدهم من وسائل العبادة ـ والحق أنهم نقلوا كل ما كان لديهم، سوى الرسوم والتماثيل المصنوعة من البرونز أو المرمر ـ ومن ثم أقلعوا إلى خيوس. وهكذا كان دخول الفرس إلى المدينة واستيلاؤهم عليها خاوية على عروشها.

ولقد عرض الفوكيون شراء بعض الجزر المعروفة بجزر أونوساي، لكن سكان خيوس رفضوا البيع، خشية أن تتحول التجارة إلى هذه المرابع الجديدة فتبور بضاعتهم؛ وما كان من الفوكيين إلا أن استعدوا للإبحار إلى كورسيكا، حيث كانوا قد أقاموا هناك مدينة بناء على نبوءة، قبل عشرين سنة، ودعوها بآلاليا. وكان الملك ارجانطونيوس في غضون ذلك قد قضى. ولكن الفوكيين تدبروا

العودة قبل هذه الرحلة، إلى فوكاي، وعملوا ذبحاً وقتلاً في الحامية الفارسية التي خلفها هارباجوس قبل رحيله، ثم طلبوا من الجميع اللحاق بهم، واستمطروا اللعنات على كل من يتأخر عن مواكبتهم، وقد عمدوا بعدئذ إلى رمي كتلة من الحديد إلى قاع البحر وأقسموا ألا يعودوا إلى فوكاي حتى تطفو إلى السطح ثانية. ولكن أكثر من نصف هؤلاء عانوا شوقاً إلى رؤية بلدهم ومنازلهم القديمة ثانية، حتى قبل أن تبحر سفنهم إلى كورسيكا، فحنثوا بإيمانهم وقفلوا راجعين إلى فوكاي. أما الآخرون فظلوا على عهدهم وتابعوا الرحلة من أونوساي حتى بلغوا كورسيكا بسلام وأمان. وظل هؤلاء يقيمون في ألاليا مع المستوطنين القدامى ويعمرون المعابد في المدينة وطوال خمس سنوات بعد حلولهم فيها؛ ولقد أثار الوافدون الجدد ضيق جيرانهم بما كانوا يرتكبون من أعمال النهب والسلب، حتى اتفق التيرانيون والقرطاجيون على مهاجمتهم بستين سفينة من كل جانب. فعبأ الفوكيون سفنهم وحشدوا الرجال وانطلقوا بعدئذ لملاقاتهم فيما كان يسمى ببحر سردينيا.

ولقد كان للفوكيين الفوز في المجابهة يومذاك؛ ولكنه كان نصراً فارغاً، إذ غلبت تكاليفه الأرباح، فخسر فيه الفوكيون أربعين من سفنهم، بينما أصيبت السفن العشرون الأخرى إصابات محققة جعلتها لا تنفع لمعركة أخرى. ومن ثم قفل من نجا من المعركة وعاد إلى ألاليا؛ وهناك حملت النساء والأطفال وما يمكن حمله من المتاع والممتلكات، وغادرت بهم السفن من كورسيكا إلى ريجيوم. أما القرطاجيون والتيرانيون فاقترعوا على من يحوز على الأسرى الذين بقوا في السفن الغارقة. وحصل أهل أجيلا من التيرانيين على النصيب الأكبر من أولئك الأسرى؛ فحملوا أسراهم إلى البر وقتلوهم رجماً؛ ومن نتيجة هذا العمل الآثم أن كان يصاب بالتشوه أو الشلل أو النوبة الصاعقة كل حي، شاة كانت أم ثوراً أم إنساناً، يمر بالموقع الذي يرقد فيه الفوكيون. ولقد ذهب الأجيليون إلى معبد دلفي، ينشدون التكفير عن قتل الفوكيين، فقالت لهم الكاهنة أن يبدؤوا

بإقامة احتفال عظيم ومباريات رياضية ومسابقات الفروسية تكريماً لمن سقطوا في المعارك، وما زال هذا التقليد جارياً إلى اليوم.

ذلكم ما كان من أمر هذه العشيرة من الفوكيين؛ وأما أولئك الذين مضوا إلى رجيوم فقد جعلوها قاعدة انطلق منها رجال غرضهم تأسيس مدينة جديدة في أوينوتريا، وهي معروفة اليوم باسم فيليا. وقد تأسست هذه المدينة بوحي من رجل من بوسيدونيا، وهو الذي رأى أن ما قصدته العرافة حين لفظت اسم سيرونس لم يكن الجزيرة، وإنما أرادت له اسم البطل الذي رسموا عبادته منذ ذلك اليوم.

حسبنا ما ذكرنا من أمر مدينة فوكاي الأيونية. أما قصة تيوس فلا تختلف عن قصة تلك المدينة كبير اختلاف، ذلك أن سكان تيوس استخدموا السفن أيضاً في هربهم حين استولى هارباجوس على مدينتهم باعتلاء جنوده تلة التراب وعبورهم سور المدينة، ولكن مقصدهم اختلف بتحولهم إلى تراقية. وقد أسسوا هناك مدينة أبديرا، حيث سبق أن حاول طميسيوس الكلامازوني الاستقرار في تلك المنطقة ثم طرده التراقيون. وهو اليوم بطل مكرم عند تيوسيي أبديرا.

كان الفوكيون والتيوسيون وحدهم، دون عشائر الأيونيين الأخرى، الذين آثروا النفي على أن يخضعوا لحياة العبودية؛ أما الآخرون فقد ظلوا في مناطقهم حيث كانوا. ولقد قاتلوا جميعهم هارباجوس، ولكنهم اندحروا، وإن أبدى منهم من أبدى بسالة وإقداماً دفاعاً عن أوطانهم، عدا الملطيين إذ لم يتأثروا بالحرب الجارية لأنهم كانوا قد توصلوا إلى اتفاق مع قورش.

وهكذا أخضعت أيونيا، وباتت تابعاً من جديد؛ وخلاصة القول أن الذعر أصاب سكان الجزر حين وجدوا المدن على البر تهزم على يد هارباجوس، فكان أن استسلموا لقورش.

ولقد دأب الأيونيون على عادة الاجتماع في البانيونيوم، بالرغم من الهزيمة

التي منوا بها، وبلغني أنه في إحدى تلك الاجتماعات وقف رجل يدعى بياس، من بريين، وعرض رأياً مبتكراً لو أخذ به القوم يومئذ، فلربما غدوا الآن من أثرى الأقوام بين الإغريق. وكان عنده أن يتحد الأيونيون وينتقلوا من ثم إلى سردينيا للاستقرار كعشيرة واحدة؛ ولو عاشوا في تلك الجزيرة، وهي أوسع الجزر في العالم لما خشوا القهر والاستعباد، ولكان لهم السلطان على جيرانهم وتمتعوا بالرفاه. لو أن خيارهم كان البقاء في أيونيا فإن حظهم في رأيه قليل في أن يستعيدوا حريتهم ثانية. كان هذا الرأي قد طرحه بياس بعيد الهزيمة التي نزلت بالأيونيين؛ على أن ثمة رأياً آخر، لا يقل عن الأول في بعد النظر، وقد سبق أن عرضه طاليس الملطي، والذي ينتمي بأصوله البعيدة إلى الفينيقيين، ويقضي بأن يقيم الأيونيون مركزاً للحكم في تيوس، التي تقع في وسط المنطقة؛ وأن تتمتع المدن الأخرى بحق التصرف في إدارة شؤونها، بينما تظل خاضعة للحكومة المركزية، شأنها شأن القرى النائية المحيطة بالمدينة الأم. ذلكم هما الرأيان اللذان جرى تداولهما.

بعد أن أخضع أيونيا قام هارباجوس بمهاجمة الكاريين والكاونيين والليسيين، بجيش ضم في صفوفه عناصر من الأيونيين والأيوليين. والكاريون - سكان البر اليوم - كانوا من أهل الجزر أصلاً. وعرفوا في الزمن الغابر باللجيين ويتبعون الملك مينوس؛ ولم يكونوا يدفعون له جزية، حسب علمي، وإنما كانوا يخدمون بحارة في سفنه، كلما اقتضى الأمر منهم ذلك، وبذلك تبوأ الليجيون في أيام مينوس الصدارة بين الأمم، لاتصالهم بانتصاراته واتساع ملكه ونفوذه. ويدين لهم الإغريق بثلاثة ابتكارات: وضع الريشة على الخوذة [لتمييز صاحبها وانتمائه]، وتدعيم الدروع، والتروس ذات المقابض. وكان الجنود لا يمسكون بتروسهم من قبل وإنما يحملونها مدلاة من العنق وتحت الإبط. ولقد مضى زمن طويل من بعد عهد مينوس وهؤلاء الليجيون مقيمون على أرضهم، حتى أتى الدوريون والأيونيون فطردوهم منها فانتقلوا واستقروا في البر: تلكم هي على

الأقل رواية الكريتيين ـ وإن كان الكاريون ينكرونها، ويزعمون أنهم أهل بر منذ قديم الأزمان، ولم يحملوا طوال العهد سوى هذا الاسم الذي به يعرفون. وللتدليل على صحة دعواهم بأنهم من أهل البر يشيرون إلى معبد قديم أقاموه لعبادة زيوس الكاري في ميلاسا، ويشتركون فيه مع الليديين باعتبارهم إخوة في الدم ـ ويذهبون إلى القول أن ليدوس ومايسوس كانا أخوين لكار جد الكاريين. وإذاً فاستخدام المعبد حكر على هذه الشعوب الثلاثة، وليس لأي قوم سواهم أن يشاركوهم فيه، ولو كانوا ينطقون بذات اللهجة التي يتحدث بها الكاريون.

وأما الكونيون فأحسب أنهم من أهل البلاد الأصليين، وإن كانوا يزعمون أنهم جاؤوا من كريت أصلاً. ولهجتهم شبيهة بلهجة الكاريين ـ أو أن لهجة الكاريين شبيهة بلهجتهم، ذلك أمر لا أملك أن أجزم فيه؛ ولكن من المحقق أن للكونيين نهجاً في الحياة يختلف كل الاختلاف عن الآخرين، بل عن الأقوام الأخرى أيضاً؛ فتجدهم يرون المتعة كل المتعة في إقامة حفلات الشراب العارمة التي يشترك فيها الرجال والنساء والصغار وأصدقاؤهم من ذات الأعمار. وفي إحدى المناسبات قرروا التخلي عن عقائد غريبة كانوا يأخذون بها، ليعودوا إلى عبادة آلهة أسلافهم فحسب، فحملوا أسلحتهم ومضوا بعيداً حتى حدود كاليندا، وهم يلوحون برماحهم في الهواء ضرباً وطعناً لطرد الآلهة الغريبة عنهم.

الليسيون قوم قدموا أصلاً من كريت، التي كانت تسكنها في العصور القديمة شعوب من غير الإغريق. ومبدأ قصتهم أن صراعاً على الملك نشب بين ولدي يوروبا، ساربيدون ومينوس، وكان النصر فيه لمينوس؛ وقام مينوس هذا عندئذ فطرد ساربيدون وعصبته. وكان أن سلم هؤلاء المنفيون الشراع للرياح فحملتهم إلى آسيا، حيث ألقوا مراسيهم في أرض ميلاس، وهو الاسم القديم للبلاد التي يسكنها الليسيون الآن، وكان يسكنها في السابق أقوام تدعى

بالسولايمي في تلك الأيام. وكان الليسيون يعرفون في عهد ساربيدون بالترميلاي وهو الذي حمله معهم من كريت، ومازالوا يعرفون به، بعد، بين جيرانهم؛ ولكنهم غدوا يعرفون فيما بعد باسم الليسيين، إذ اكتسبوا هذا الاسم من ليكوس، ولد بانديون، الذي طرده أخوه آجيوس من أثينا، فالتجأ إلى ساربيدون طالباً الحماية بين الترميلاي. وهؤلاء يشبهون أهل كريت في بعض جوانب السلوك، بينما يشبهون الكاريين في جوانب أخرى، ولكنهم ينفردون عن سواهم في انتسابهم إلى الأم، لا الأب. فإن سألت الليسي عن اسمه انتسب إلى اسم أمه، ثم جدته لأمه، فأم تلك الجدة وهكذا. وإن حملت امراة حرة من عبد كان الولد عندهم ولداً شرعياً، بينما لا يتمتع الأولاد الذين تلدهم زوجة غريبة عنهم أو عشيقة، لرجل حر، بالغاً ما بلغ مقامه، بأي حق من حقوق المواطن.

ولقد أخضع هارباجوس الكاريين ، وما أمكن لأحد منهم، ولا لأي من الإغريق في ذلك البلد، أن يجلي في المعركة: وكان من بين هؤلاء الإغريق الكنديان، وهم مستوطنون جاؤوا من بلاد اللاكيديمونيين الذين يحتلون رقعة من الأرض على الساحل تعرف بتريوبيوم، ومجاورة لشبه جزيرة بايباسيان، وهي عبارة عن عنق ضيق تحيط به الماء من كل أطرافه، يحده من الشمال خليج سيراميك والبحر عند سايمي ورودوس جنوباً. ويبلغ عنق شبه الجزيرة نحو نصف ميل عرضاً، وقد أخذ الكنديان يحفرون فيه، بينما هارباجوس منشغل بالقتال في أيونيا، وهدفهم من ذلك أن يفصلوا بلدهم عن اليابسة ويجعلوا منها جزيرة. ويقع البرزخ الذي كانوا يعملون على قطعه عند نقطة نهاية الأرض الكنديانية على جانب اليابسة، وبذلك تكون كل الأرض داخل شبه الجزيرة. ولقد تطلب هذا الجهد عدداً كبيراً من الرجال، ولوحظ في ذلك إصابتهم في مناطق مختلفة من أجسادهم، وخاصة العينين، بشظايا الحجارة أكثر مما كانوا يتوقعون. والحق أنه كان في الأمر ما يدعو إلى الاستغراب مما حدا بهم إلى

سؤال الكاهنة في دلفي عن أسباب هذه المعوقات. وجاء جواب العرافة، حسب روايتهم، شعراً:

لا تعزلوا البرزخ؛ ولا تحفروا

ولو شاء زيوس أن تكون جزيرة، لفعل.

فلما بلغ الكنديان هذا الجواب أمسكوا عن الحفر، واستسلموا دون مقاومة، حالما ظهر هارباجوس واقترب جيشه من موقعهم.

وفي البر، أي شرق هاليكارناسوس، كان هناك قوم البيداسيان. وقد ألف هؤلاء أن يتلقوا شارات التحذير من كل خطر يداهمهم أو جيرانهم من كاهنة في معبد أثينا، ذات لحية طويلة؛ وذلك أمر وقع في ثلاث مناسبات. وكان هؤلاء البيداسيان الوحيدين الذين تصدوا لهارباجوس، بين الإغريق، وأنزلوا به ضرراً كبيراً، بصمودهم وراء نقاط دفاع أقاموها عند جبل ليدا لهذا الغرض. ولكن بمرور الوقت أجْبر البيداسيان على الخضوع لهارباجوس.

وبعد هذه الانتصارات التي حققها هارباجوس قاد قواته باتجاه سهل زانثوس حيث قابله الليسيون القاطنون في السهل، ودارت معارك بين الفريقين، وكان جيشه يفوقهم عدداً؛ ومع ذلك فقد أبدوا من الشجاعة الشيء الكثير؛ ولكنهم بعد قتال طويل انتهوا بالهزيمة، فاضطرهم هارباجوس للانسحاب والتحصن خلف أسوار مدينتهم. وهناك جمعوا النساء والأطفال والرقيق وما ملكوا وحشروهم في القلعة ثم اشعلوا فيها النيران حتى أصبحت أثراً بعد عين. ومضوا بعدئذ فأقسموا أغلظ الأيمان بأن يقاتلوا إلى أن يكون لهم النصر أو يقضوا، وخرجوا للقاء العدو فكانت مقتلة عظيمة نزلت بهم، فأفنوا عن بكرة أبيهم، ولم يبق منهم أحد. ومعظم الليسيين الذين يزعمون اليوم أنهم ينتمون إلى كسانتوس إنما هم غرباء وافدون إلا من كان من الأسر الثمانين الذين صادف أن كانوا بعيدين عن الموقعة، فنجوا. وقد اقتفى الكونيون في جل أمورهم سيرة الليسيين، فسقطت مدينتهم في قبضة هارباجوس كما سقطت كسانتوس من قبل.

وبينما كان هارباجوس يجتاح الأجزاء الجنوبية (السفلية) من آسيا، كان

قورش يعمل على إخضاع الأقاليم العليا (الشمالية)، والأمم كلها تتهاوى أمامه خاضعة مستسلمة. ولسوف أمسك عن الخوض في انتصاراته العارضة، مقتصراً في الحديث على حملاته التي واجه فيها عنتاً وكانت ذات شأن.

وقد توجه قورش نحو بلاد آشور وشن الحرب على أهلها بعد أن تم له إخضاع بقية المناطق في القارة؛ وبلاد آشور تضم عدداً من المدن العظيمة، وخاصة بابل التي تعتبر الأقوى والأشهر، والتي باتت مقر الحكم بعد سقوط نينوى. وتقع بابل هذه في سهل فسيح، وهي ذاتها مدينة واسعة مربعة الأضلاع طولها أربعة عشر ميلاً، ومحيطها وأطرافها ستة وخمسون ميلاً؛ وفوق ما تتصف به من ترامي الرقعة تفوق في بهائها كل مدينة أخرى في العالم. ويحيط بها من كل جانب خندق عريض عميق مليء بالماء. يتوسطه سور ضخم يبلغ عرضه خمسين ذراعاً ملكياً وارتفاعه مئتي ذراع [الذراع الملكي أطول ثلاث بوصات من العادي] ولن أقصر هنا في التفصيل في طريقة حفر هذا الخندق وأسلوب بناء السور. ونهج الآشوريين في ذلك أنهم كانوا يجعلون من التراب المنقول من مواقع الحفر آجراً، والأعمال جارية في هذا وذاك في آن واحد، إذ ما إن يتوفر العدد الكافي من قوالب القرميد غير المشوي حتى ينقل إلى الفرن لشيه؛ ثم يبدأ العمال بإكساء الآجر على جانبي الخندق بالقار المغلي بدلاً من الملاط ثم يمضون إلى بناء السور المنشود.

ولقد عمدوا إلى رصف المساحة بهذه المادة بين كل مجموعة من ثلاثين قطعة من الآجر لتوفر لها التماسك القوي. وعلى جانبي هذا السور تقوم أبنية متقابلة من غرفة واحدة بينها مساحة تكفي لمرور عربة تجرها أربعة جياد. ويتخلل السور مئة باب تتوزع محيطه كله، وهي جميعها من البرونز وكذلك الأعمدة و النوافذ.

وكان البابليون يجلبون القار المستخدم في بناء سور بابل من أحد روافد نهر الفرات يدعى إز وهو يبعد عن بابل قرابة ثمانية أيام وتقع عليه بلدة تحمل نفس الاسم.. أما الفرات فهو نهر واسع عميق سريع الجريان، منبعه في أرمينيا ومصبه في الخليج العربي، يخترق مدينة بابل في مسيره فيشطرها إلى

شطرين، والسور يضرب أساساته في الماء على الجانبين؛ وهناك سور عازل ينتصب على زاوية قائمة من السور الأول مصنوع من الآجر المشوي ويمتد على ضفتي النهر. وهناك بعد عدد كبير من الأبنية تقوم على ثلاثة أو أربعة طوابق. وتتسم شوارع المدينة ودروبها بالاستقامة وتؤدي جميعها إلى النهر، وينتهي كل درب إلى بوابة من البرونز في السور، ويمكن بوساطتها بلوغ الماء.

وهذا السور العظيم الذي وصفته هو أعظم تحصينات المدينة؛ على أن ثمة دفاعات أخرى فيها، ليست دون السور قوة، إنما أضيق فهناك وسط كل نصف من المدينة قلعة منيعة، أولاهما قصر الملك الذي يحيط به سور عظيم منيع، وثانيهما معبد بعل الذي له عند البابليين ما لزيوس من المقام عند الإغريق.

والمعبد بناء مربع وأبوابه من البرونز، و ما يزال قائماً في أيامي؛ و له برج قوي في وسطه، ويعلوه برج ثان فثالث حتى يبلغ عدد تلك الأبراج الثمانية، ويمكن ارتقاء تلك الأبراج جميعها بدرج حلزوني يتحلق على جانبه من الخارج ، ولا يكاد المرء يبلغ منتصف الطريق على هذا السلم حتى يجد سلسلة من المقاعد و ملجأ يرتاح إليه الصاعدون . وفي أعلى البرج ينتصب معبد كبير فيه أريكة أنيقة واسعة غنية بتطريزاتها وبجانبها طاولة ذهبية. وأما الهيكل فلا يحتوي على أي صورة أو تمثال، ولا يقيم في هذا المعبد، كما أخبرني الكلدانيون وهم كهنة الإله، سوى امرأة واحدة من الآشوريات، كذلك يقول الكلدانيون، وإن كنت لا أصدق قولهم، إن الإله يدخل المعبد بشخصه وهيئته ويستريح على السرير. وللمصريين في طيبة مثل هذه الرواية، إذ يروون أن ثمة امرأة تدأب على قضاء كل ليلة في معبد إلههم ويحرم عليها، فيما يقولون، شأنها شأن المرأة في معبد بابل، مضاجعة الرجال، وهناك بعد حالة أخرى في مدينة بستار، الليسية، يحرم على الكاهنة التي تلقي النبوءات (وهي ليست مطلوبة كل يوم) الخروج، فتغلق عليها أبواب المعبد ليلاً.

ويضم معبد بابل[٢٢] هيكلاً ثانياً في طابق سفلي يحتوي على تمثال الإله بل في وضع الجلوس، وهو من الذهب ويقوم على عرش من الذهب، وبجانبه طاولة

ذهبية. وقد أخبرني الكلدان أنهم استهلكوا اثنين وعشرين طناً من الذهب في صنع هذا الهيكل. وهناك مذبح من الذهب أيضاً، وآخر ضخم وإن لم يكن من الذهب، مكرس لقرابين الماشية الكبيرة. (أما المذبح الذهبي فمكرس للقرابين من النعاج وحدها). ويبذل الكلدان ما يقارب الثمانية والعشرين طناً ونصف الطن من البخور، على المذبح الأكبر، في الاحتفالات التي تقام كل عام تكريما للإله «بعل». وكان هناك في أيام قورش تمثال ذهبي لرجل يبلغ قرابة خمسة عشر قدماً طولاً - وقد بلغني خبر هذا التمثال من الكلدان أنفسهم، إلا أن عيني لم تقع عليه. وكان داريوس بن هيستابس قد راوده خاطر بأن يضم التمثال إلى كنوزه، إلا أن شجاعته لم تسعفه في تنفيذ هذا الخاطر؛ ولكنه انتهى إلى خزانة أحشويرش، بعد قتل الكاهن الذي حاول ممانعته في هذا الإثم. وهناك،بعد، العديد من العطايا التي يقدّمها أناس عاديون في مناسبات خاصة، فوق ما تقدم ذكره من المزخرفات.

لقد تعاقب العديد من الملوك في بابل الذين ساعدوا في تدعيم المدينة وتزيينها بالمعابد، ولسوف أروي قصصهم في البحث الذي عقدته عن بلاد آشور. وكان من بين من تولى عرش بابل امرأتان، أولاهما سميراميس، ثم كانت الثانية بعد خمسة أجيال. وسميراميس [٢٣]هي التي أنشأت بعض الحواجز الضخمة في السهول خارج المدينة لتتحكم بالنهر الذي دأب على إغراق الريف، حين كان يفيض. أما الثانية فهي نيتوكريس، وكانت أكثر ذكاء وحصافة من سميراميس ولم تقتصر مآثرها على المنشآت التي سآتي على ذكرها وحسب، وإنما زادت وقد لاحظت اتساع سلطان الميديين، وباتت تخشاهم مثل خشيتها من المدن الأخرى، ومنها نينوى، فاتخذت للأمر كل عدة ممكنة لتضمن لبلادها الأمن والسلامة؛ ومن ذلك أنها عدلت في مجرى نهر الفرات الذي يمر ببابل، إذ كان يجري مستقيماً، فأمرت بحفرالقنوات، فأحدثت فيه تعرجات والتواءات، حتى بات يمر بإحدى القرى الآشورية، وهي أرديركا، ثلاث مرات؛ والقادم إلى بابل، من جهة ساحل البحر الأبيض المتوسط يجد نفسه يدخل هذه القرية ثلاث مرات. ثم أقامت الحواجز العالية المنيعة على ضفتي النهر، وحفرت حوضاً لبحيرة يبلغ

محيطها سبعة وأربعين ميلاً. وقد تحدد عمق الحوض بالنقطة التي بلغ فيها العمال نبع الماء في الأرض، واستخدم التراب الذي تجمع من الحفر في بناء التحصينات. ولما انتهى عمل الحوض أمرت الملكة بجلب الحجر إلى الموقع وجعلت منه سوراً حول المكان. وكان الغرض من أعمال الحفر وتحويل مجرى النهر إحداث انحناءات وتعرجات تكفل التخفيف من سرعة التيار، ومنع الملاحة نحو المدينة؛ ذلك أن القارب الذي يسير في النهر بات يواجه بعد هذه الأعمال أشد الصعوبة في رحلته، ويضطر للدوران حول البحيرة فيصبح الإبحار مسألة شاقة. وقد هدفت الملكة فيما هدفت إليه التضييق على الميديين وعرقلة اتصالهم بأهل بابل، فتحد من مخالطتهم بأهل البلد، نظراً لأن تلك الأعمال كانت تجري في مواقع قريبة من المسالك المؤدية إلى آشور، وعلى خط متصل ببلاد الميديين. وكانت الملكة قد تولت أمراً آخر دون المنشآت الدفاعية أهمية، وأعني بذلك أن المدينة، وهي تقع في قسمين، كما سلف لي القول،كان ينتقل فيها القاصد في عهود الملوك السابقين، من جزء إلى آخر، بركوب النهر، وذلك أمر، بلا ريب، شاق. ولكن نيتوكريس كانت ملكة بعيدة النظر، فشاءت يوم كانت تقوم بحفر حوض البحيرة أن تذلل تلك العقبة المضنية وتخلد ذكرى ملكها في التاريخ بأثر آخر. فأمرت بقطع كتل ضخمة من الحجارة، فلما كان الانتهاء منها وتمت أعمال الحفر، أمرت الملكة بتحويل النهر ليصب في الحوض؛ ثم عمدت بعدئذ إلى تشييد حاجز على كل جانب من النهر وعلى امتداد طرف مجرى الماء من الأبواب عند نهاية السور؛ فيما كان الحوض يمتلئ بالمياه وقاع النهر الأصلي يجف؛ وأقامت عندئذ جسراً عند أقرب نقطة من وسط المدينة، من تلك الأحجار التي هيأتها، مستخدمة في شدها إلى بعضها بعضاً الحديد والرصاص. وتيسيراً لانتقال المشاة وضعت عوارض مربعة من الخشب بين الرصيفين لعبور أهل المدينة، وحكمت بأن تستخدم هذه الوسيلة في النهار وحسب، فكان الخشب يزاح ليلاً، منعاً من انتقال الناس بين المنطقتين، خشية تيسير السرقة، تحت

جناح الظلام. ولما امتلأ الحوض بالماء وانتهى الجسر، عاد النهر إلى مجراه الأصلي، فكان للملكة ما أرادت، وتحقق لأهل البلد ما أرادوا من الجسر دفعة واحدة.

ولقد كان لهذه الملكة نزوع إلى الدعابة والمقالب. فقد أمرت بأن تدفن فوق أحد الأبواب البارزة في المدينة، وأن ينقش على قبرها النص التالي: إذا أعوز المال ملكاً في بابل فليفتح قبري ويغرف منه ما يشاء. وليكن ذلك عند الشدة وحسب. ومن يفتح القبر في غير هذه الحال لن يجد شيئاً». وظل القبر على حاله حتى كان عهد داريوس الذي أمضَّه أن يحال دونه أحد أبواب المدينة. فقد نأى عن استخدام الباب الذي يعلوه القبر، وكان من السخف في اعتقاده أن يمسك عن أخذ الذهب، بينما هو متاح ينتظر من يحمله ويمضي به. وهكذا فتح داريوس الضريح، ولكنه لم يجد في داخله ولا قطعة واحدة من النقد - و إنما هيكل الملكة ونقشاً يقول: « إنما أقدمت على أحط الأعمال لدناءة نفسك وجشع في طبعك، وإلا لما فتحت قبر الميت.» وحسبنا ما بلغنا عن نيتوكريس.

كان قورش قد قصد بحملته قهر ابن نيتوكريس ملك آشور، وكان يدعى نبونئيذ، نسبة إلى أبيه. وقد جرى ملك الفرس على أن يصطحب معه، متى خرج للحرب الأكل الذي اعتاده وقطعانه من الماشية والماء من نهر خوسبس (اشيشتار)، وهو نهر يجري في سوسه. فليس هناك من ملوك الفرس من يرضى بشرب ماء سوى ما يجري في هذا النهر، والمألوف أن يُغلى من هذا الماء مقادير كبيرة فيحمل ما يكفي الملك في رحلته في أوان من الفضة، في عربات تجرها أربعة من البغال، حيثما توجه ذلك الملك.

ولقد بلغ قورش في مسيرته نهر جنديس الذي ينبع من جبل الميتيان، ثم يجري في أرض الدردن ويصب في النهاية في نهر دجلة ويجري في مدينة أوبس وينتهي مصبه في الخليج العربي. وكان قورش يتهيأ لعبور النهر، والذي لا يتم عبوره إلا على القوارب، وحينما خاض فيه أحد جياده البيضاء المقدسة، وكان هذا

حصاناً جموحاً، محاولاً العبور، حمله التيار المتدفق بعيداً ثم غرق في الأعماق .
فثارت ثائرة قورش إذ تجرأ نهر على إزعاج أحد أحصنته، فأقسم على أن يضعفه حتى تقوى على خوضه المرأة الضعيفة دون أن تبتل ركبتاها بمائه. فأمر بوقف الزحف على بابل، وقسم جيشه قسمين، وجعل كل قسم منه على جانب من النهر، ورسم عنده مئة وثمانين قناة لتسير في اتجاهات مختلفة، وأمر رجاله عندئذ بتنفيذ الحفر. ولقد أمكنه انجاز هذا المخطط بفضل العدد الغفير من الرجال الذين توفروا له، إنما كان ذلك مقابل ضياع فصل الصيف بكامله في ذلك المشروع.فلما تم له ترويض النهر بحفر الأقنية الثلاثمائة والستين، تابع زحفه في الربيع التالي إلى بابل. وكان البابليون قد تهيؤوا للأمر ونزلوا إلى الساحة بانتظار وصول جيشه. فلما اقترب من المدينة اعترضوه، ولكنه تمكن من دحرهم، فاضطروا للانسحاب وراء تحصيناتهم. وكانوا قد علموا بمطامح قورش ورصدوا اعتداءاته المتلاحقة على الأمم، فحسبوا للأمر حساباته، وعملوا على توفير مؤن تكفي بابل سنوات عديدة؛ ولذلك قابل البابليون حصاره بالاستخفاف. ولكن قورش تابع حصاره، ولم يثن من عزيمته صمود البابليين، حتى لاح له أن النصر بعيد، وأخذ الانتظار يثير فيه اليأس من نجاح قريب. ثم كان أن أشار عليه أحدهم، أو لعله هو الذي خرج بهذه الخطة بأن وضع جزءاً من جيشه عند نقطة مصب الفرات في المدينة، ووضع فرقة أخرى عند الطرف المقابل، أي عند مخرجه من المدينة، وأمر تلك القوات باقتحام المنطقة، حالما يظهر أن مياه النهر غدت ضحلة. ثم انسحب من مواقعه ومعه الجند غير المقاتلين إلى البقعة التي كانت نيتوكريس قد حفرتها، فعمد إلى تحويل النهر قبل مصبه في البحيرة (وقد غدت الآن سبخة) فشحت عنها المياه، بعد قطع السبيل عنها؛ وفي غضون ذلك نزل جيش فارس الذي خلفه قائده عند أبواب بابل لهذه المهمة، وخاض في مياه النهر التي لا تكاد تبلغ منتصف ساق الرجل، ومن ثم دخل المدينة. ولو علم البابليون بما كان قورش يهيئه لهم، أو استطلعوا الأمر في حينه، لكان من شأنهم أن يدعوا الفرس يدخلون البحيرة، ويوصدوا الأبواب المؤدية إلى مواقع الماء، وينشروا قواتهم على

طرفي النهر، فتقع قوات فارس المغيرة في مصيدة وينتهي أمرهم. ولكن المفاجأة كانت من نصيب البابليين، فأخذوا من مكمنهم. ويقول البابليون أنفسهم أن اتساع رقعة المدينة جعل الناس في جهل مطبق عن سقوط ضواحيها في يد الفرس؛ وكان أهل بابل في عيد وغناء ورقص ومتعة حين أطبق عليهم الفرس وأخذوهم على حين غرة، فعلموا عندئذ حقيقة الأمر، إنما بعد فوات الأوان. وإذن، فهذه قصة سقوط بابل الأول.

ولسوف أعرض الآن لبعض ما كانت تتمتع به بابل من أسباب الثروة والغنى، لكن ما أنا بصدده أولاً هو أبرزها. كانت البلاد الخاضعة للفرس موزعة في مناطق، تجتمع كلها في توفير الضريبة المعتادة والمفروضة عليها، وتزيد بأن تمد ملك الملوك وجيشه بالمؤن والغلال، ونصيب بابل منها إمداداتها طوال أربعة أشهر من أصل الأشهر الإثني عشر من السنة، بينما تتولى آسيا كلها أمر الشهور الثمانية التالية. وفي هذا ما يبين أن آشور كانت تضم وحدها ثلث مصادر الثروة الطبيعية في آسيا. فلا عجب إن كان مطمع الفرس في ولاية آشور (أو الناحية، كما يسميها الفرس) عظيماً، ويتطلع إلى توليها الحكام أكثر من أي منطقة أخرى؛ وذلك جلي فيما تقاضاه تريتانتايخميس بن ارطابازوس، من عوائدها حين ولاه إياها الملك، فبلغ أرطبيلاً من الفضة كل يوم، (والأرطبيل وزن فارسي يبلغ خمسة مكاييل)، وتزيد الميديمنوس الاتيكي مقدار ثلاثة تشوينيك، أومائتين وخمسة وثلاثين جراماً. وكان للحاكم من الأملاك التي يختص بها، سوى ما هو في إمرته من خيول الحرب ثمانمائة جواد وستة عشر ألف فرس، ولكل حصان عشرون فرساً، وعدد كبير من الكلاب الهندية، فكانت تقوم على إطعامها أربع قرى واسعة في السهل، وقد أعفيت من كل التكاليف لقاء توفير الطعام لها. وهذا ما يوفر لكم صورة عن مبلغ غنى حاكم بابل.

والأمطار في بلاد آشور قليلة ولا توفر من الرطوبة إلا ما يسمح بانفلاق الحبة وللجذر أن ينبت، أما نمو الحبوب فيكون بالتروية الاصطناعية، أي شق الأخاديد والترع باليد، لا كما هو الحال في مصر، بغمر الأرض بالمياه. ولكن

البلاد، كما في مصر، حافلة بالسدود، ولابد للمرء من أن يركب القارب ليقطع أكبرها، ويتجه جنوب شرق الفرات حتى يتصل بنهر آخر هو دجلة الذي تقع عليه مدينة نينوى. وآشور التي تعتمد على زراعة القمح هي أغنى بلاد العالم. والناس هناك ينأون عن غرس أشجار التين ولا يعنون بالعنب أو الزيتون أو أي نوع آخر من أشجار الفواكه، ولكن الأراضي المزروعة بالحبوب شديدة الخصب، وتأتي بمائتي مثل في الأحوال العادية، وقد تبلغ الثلاثمائة في المواسم الممتازة. وتبلغ ورقة سنبلة القمح أو الشعير في الأقل ثلاث بوصات. وأما الجاورس والسمسم فلن أقول أي مبلغ يبلغان من النمو، وأنا أعلم علم اليقين مقدار ما تبلغ السنبلة منهما من الضخامة؛ ولكنني أعلم أيضاً أن من لم يزر بابل لا يصدق ما قلت في خصب أرضها. وأهل بابل لا يستخدمون من الزيوت سوى زيت السمسم؛ وأشجار النخيل شائعة، وأكثرها مثمر، ومن ثمرها يأتون بغذائهم ويصنعون الخمر والعسل. ونهجهم في زراعة النخيل هو عين النهج في زراعة التين، وخاصة في تلقيح الشجرة «الأنثى»، وهي التي تحمل ، بما يسميه الإغريق الشجرة «الذكر» وربطهما إلى بعضهما لتدخل دودة العفص وتعمل على إنضاج الثمرة وتحول دون سقوطها. وإنها لحقيقة أن الأشجار «الذكر» تحمل في ثمرتها، دودة العفص، شأنها في ذلك شأن شجرة التين البري.

ولسوف أبسط تالياً أشد ما أدهشني في هذا البلد، بعد بابل ذاتها، عنيت القوارب التي تمخر الفرات إلى المدينة. فهذه القوارب مستديرة الشكل ومادتها من الجلد، وتصنع في أرمينيا، شمال بلاد آشور، حيث يصنعون إطار القارب من خشب صفصاف السلال، [ومن أغصانه تصنع السلال]، ثم يشدون الجلود المجففة المانعة لتسرب الماء منها، لتكون بطن القارب؛ وليس لهذه القوارب مقدمة أو مؤخرة، وإنما هي مستديرة الشكل كالترس. ويقوم الملاحون عندئذ بملء القارب بالقش ثم يحملون مايشاؤون نقله على ظهره، وهي في جلها براميل من النبيذ، ويطلقون القارب ليسير مع التيار. ويتولى قيادة القارب نوتيان، وكلاهما

يحمل مجذافاً، أحدهما يقف في المقدمة ليحرك المجداف نحوه، بينما يقف الثاني في المؤخرة ويدفع مجذافه إلى الأمام. وهذه القوارب تختلف أحجامها عن بعضها بعضاً، فمنها الضخم الطويل الواسع، وأضخمها يتسع لحمل نحو من مئة وثلاثين طناً. ويحمل كل قارب، فضلاً عن ذلك، حماراً، وبعض القوارب الكبيرة يحمل عدة حمير. والقاعدة الجارية هي أنه متى بلغ القارب بابل وبيعت حمولته، عمد النوتية إلى تفكيكه فيباع الهيكل والقش، بينما تحمّل الجلود على ظهر الحمار ليعودوا براً إلى أرمينية. ذلك أنه يستحيل على النوتي أن يعود بالقارب، إذ إن الأمر يقتضي منه قطع المسافة بعكس التيار صعوداً؛ وقد وجدنا القوم يعتمدون على الجلود في صناعة القوارب بدلاً من الخشب، بسبب قوة التيار الذي لا يقوون على مقاومته. وإذا وصل النوتيون إلى أرمينية ومعهم حميرهم؛ عادوا إلى صناعة قوارب أخرى على هذا الشكل الموصوف.

يتألف الزي الذي يرتديه البابليون من إزار من الكتان، طويل يبلغ القدمين، وفوقه إزار آخر من الصوف، وعليه عباءة بيضاء؛ ولهم في الأحذية طرازهم الخاص، ويشبه الخف الذي يراه المرء في بويوتيه. وقد درج القوم هناك على ترك الشعر، وارتداء العمامة؛ ووجدنا الرجل منهم يحمل خاتماً وعصا خاصة به، وقد حُفرت على قمتها صورة تفاحة أو وردة، أو إقحوانة أو نسر أو ما شابه؛ فقد جرى الناس على عادة تزيين عصيهم بمثل هذه الزخرفات. حسبي ما ذكرت من أمر أزيائهم وزينتهم، فلأمضي إلى وصف بعض عاداتهم وتقاليدهم. ومما ألف هؤلاء القوم، في رأيي، هو عادة يشتركون فيها، على ما بلغ علمي، مع القبيلة الإلليرية إينيتي. فقد جرت العادة على جمع الفتيات، في كل قرية، وقد بلغن سن الزواج، في مكان معين، بينما الرجال متحلقون حولهن، فينادي المنادي في المزاد الفتيات، كل باسمها، فتنهض الفتاة منهن عند ذكر اسمها، ويبدأ عادة بالفتاة الأجمل فالأقل جمالا وهكذا، حالما يتم بيع الأجمل بالثمن المناسب. وهكذا يكون الزواج. وفي هذا يتنافس الأثرياء على الجميلات بدفع

أعلى الأسعار. أما من كانوا متواضعي الحال ولا ينشدون الجمال في الزوجة فإنهم هم في الواقع من يتقاضى المال ليقبل بالفتاة الدميمة، وقد تكون عرجاء أو لربما كانت كسيحة، فينادي باسمها ويسأل المنادي من يطلب المبلغ الأقل لتكون هذه أو تلك زوجاً له ـ فتكون عندئذ من نصيب أكثرهم قناعة. وتحتسب هذه البائنة من ثمن الحسان، وبذلك توفر الحسناء بائنة القبيحة. ومن أعرافهم أنه لا يحق للأب أن يزوج ابنته لرجل يؤثره هو، كذلك لا يحق لرجل اختار فتاة أن يصطحبها إلى داره، إلا بعد أن يجد ضامناً له. وإذا اختلف الرجل وزوجه كان حكم القانون أن ترد له ماله الذي اشتراها به. وهذا مزاد، بعد، مفتوح، يأتي إليه كل من شاء من القرى الأخرى ليتخذ لنفسه زوجة.

على أن القوم قد أقلعوا عن هذه العادة، وأصبحوا اليوم على تقليد جديد. فقد غدا للفتيات من بنات الطبقات الفقيرة أن يحترفن البغاء، فتتيسر أحوالهن قليلاً، بعد تفشي الفقر ومصاعب الحياة بعد انتصار الفرس.

ويأتي بعد نهجهم القديم في الزواج أسلوبهم في التطبب. ذلك أن هؤلاء القوم لا يعرفون الأطباء، فإذا مرض أحدهم حمله أهله إلى الشارع، فيتلقى النصيحة في العلاج من كل من كانت له خبرة بأصل شكواه أو ملاحظة. والعرف عندهم أن ليس لامرئ أن يمر بمريض ولا يقف على حاله، وإنما عليه أن يتوقف ويسأله شكواه. وهم يدفنون أمواتهم بالعسل، وطقوسهم في دفن الموتى هي عين طقوس الجنائز عند المصريين. والبابلي حين يتهيأ لمضاجعة زوجه، يجلس مقرفصاً وتحته البخور للتطهر، وهي أمامه تجري ذات الطقس، ويقومان في الصباح للاغتسال، وحتى يكون ذلك لا يقربان شيئاً من أدوات المطبخ، وهم في ذلك يشبهون العرب.

ثمة عادة مقيتة كل المقت يأخذ بها هؤلاء القوم، وتقضي بأن تنقطع كل امرأة من نساء البلد إلى معبد ميليتا مرة في حياتها، لتهب نفسها هناك إلى رجل غريب. وقد جرت العادة بين الثريات منهن، واللواتي يترفعن عن الاختلاط بعامة الناس،على الذهاب إلى المعبد في عربات مغطاة يلحق بهن الخدم والحشم

ويأخذن بالانتظار هناك؛ والمألوف أن تجلس النساء في المعبد معصوبات الرأس بعصابة مجدولة والجمع منهن كبير عادة، فتجدهن بين الجلوس والقيام، وقدوم وذهاب، وبينهن كثيرات غاديات في كل اتجاه ينتظرن مرور الرجال لينتخبوا منهن النساء اللواتي يطيب لهم معاشرتهن. ومتى دخلت المرأة المعبد حُظر عليها العودة إلى بيتها حتى يأتي رجل ويرمي بقطعة نقد في حجرها فتخرج فيقضي منها وطره. وعلى الرجل حين يرمي بقطعة النقد أن يقول « باسم الآلهة ميليتا» وهو الاسم الذي يطلقه الآشوريون على افروديت. وليس المهم في الأمر قيمة هذا النقد، بل القدسية كل القدسية في رمي القطعة، والقانون يحظر رفضها. ذلك أنه ليس للمرأة حق الخيار، بل عليها المضي مع أول رجل يرمي لها بقطعة من النقد. فإذا ضاجعها الرجل كان واجبها تجاه الإله قد تحقق، ولها عندئذ أن تعود إلى بيتها، ويغدو من المحال بعدئذ إغراؤها بأي قدر من المال مهما عظُم. وحظ المرأة ذات الطول الفارع، والوجه المليح كبير في أن تعود إلى بيتها سريعاً، وأقل منه كثيراً نصيب القبيحات، فهؤلاء يمكثن في المعبد عهداً طويلاً قبل أن تلبي شرط القانون، حتى أن منهن من أمضت ثلاثة أعوام أو أربعة قبل أن ترجع إلى البيت ثانية. ومثل هذا العرف شائع في بعض أنحاء قبرص.

وهناك بعدُ عادةٌ شائعة أخرى، غير ما ذكرت، تجري عليها ثلاث من قبائلهم؛ فهؤلاء القوم لا يتناولون طعاماً سوى السمك، فيصطادونه ثم يعمدون إلى تجفيفه تحت أشعة الشمس، فيطحنونه بعدئذ في طاحونة من الحجر، ومن ثم يجري غربلتها بمنخل من القماش. والناس يذهبون في تذوق هذا اللون من الطعام مذهبين، فبعضهم يؤثره بشكل الكعك، وبعضهم يتناوله كرغيف الخبز.

وكان قورش قد راودته بعد انتصاره على البابليين رغبة في إخضاع الماساجيتاي وبسط سلطانه عليهم. وخلاصة القول في الماساجيتاي هؤلاء هو أنهم قوم شديدو البأس ينزعون للقتال والحرب، وتقع أرضهم شرقاً عند مطلع الشمس، وراء نهر أراكسس، وهم مجاورون للإسيدونيان، ويذهب البعض إلى

أنهم من السكيث. وقد قيل في هذا النهر أنه يفوق نهر الدانوب اتساعاً، بينما لا يراه آخرون على هذا النحو من الضخامة. ويقال بعد إن النهر يضم عدداً من الجزر ، ومنها ما يبلغ حجم ليسبوس، وسكانها يعيشون في الصيف على ما ينبت فيها من أعشاب مختلفة يقتلعونها ويقتاتون بها. أما في فصل الشتاء فهم يعتمدون على الثمار يقتطفونها من الأشجار، ومن اكتشافاتهم شجرة تحمل ثمراً لا يشبه آخر. وقد درجوا على أن يجتمعوا عند واحدة من هذه الأشجار ويتحلقوا حولها، ثم يشعلون ناراً يرمون فيه بثمرها، فتأتي بدخان له رائحة البخور؛ وإذا بلغ هذا خياشيمهم انتابتهم حالة من الثمل كالذي يخبره الإغريق عند شرب النبيذ، ثم يزدادون سكراً كلما رموا بمزيد من ثمر هذه الشجرة، وحين يتملكهم هذا السكر يهبون ويشرعون في الرقص ويطلقون حناجرهم في الغناء. وهذا ما بلغنا من نبئهم.

ونهر أراكسس ينبع شأنه شأن نهر جنديس الذي حفر فيه قورش ثلاثمائة وستين قناة، من بلاد الماتينيان. ولهذا النهر أربعون رافداً، وجميعها يصب، عدا واحداً، في السبخات والمستنقعات. حيث يعيش الناس ويقتاتون السمك النيئ، ويكتسون بجلد الفقمة؛ أما الرافد الآخر فيصب في بحر قزوين . وبحر قزوين منعزل، قائم بذاته، ولا يتصل ببحر آخر في العالم، وهو في هذا لا يشبه البحر المتوسط الذي يطوف فيه الإغريق، ولا الأطلسي وراء أعمدة هرقل، أو المحيط الهندي الذي يتألف في حقيقته من عدة بحار اجتمعت في بحر واحد. فبحر قزوين بحر منعزل عن سواه، ويستغرق رحلة خمسة عشر يوماً، عند اجتيازه طولاً، أما عرضه فيستغرق السفر فيه ثمانية أيام عند أعرض مسافة. ويصادف المرء في الغرب منه جبال القوقاز، وهي أطول الجبال وأعلاها على الإطلاق، وتسكنها قبائل عديدة مختلفة الأصول، يعيش معظمها على ما ينمو في البرية. وقيل إن تلك القبائل تصنع من مزيج مسحوق بعض الأشجار والماء صباغاً يزينون به أزياءهم، وهو صباغ ثابت لا يزول بعد غسل القماش، وكأنما هو من نسيجه وحُيك معه؛ كذلك يقال إن رجال تلك الأقوام يضاجعون نساءهم في

العراء، كما تفعل الحيوانات.

وكما قلت إن جبال القوقاز تحد بحر قزوين من الغرب ؛ بينما إلى الشرق منه تمتد سهول منبسطة مترامية الأطراف لا يحدها النظر. وفي هذه البلاد يقيم شعب الماساجيتاي الذي كان قورش عازماً على مهاجمته. يحفزه على شن هذه الحرب أمور، منها اثنان هما الأبرز في بواعث الطموح: اعتقاده بأصله الذي لا ينتمي إلى البشر، ثم ما تحقق له من النجاح في حملاته السابقة؛ ذلك أنه، والحق يقال، ما من أمة أمكن لها أن تفلت من الهزيمة متى سار إليها.

وكان على رأس الماساجيتاي، في ذلك الحين، الملكة تومايريس، وقد وليت بعد وفاة زوجها. فبعث إليها قورش خاطباً ودها راغباً في الزواج بها؛ ولكن توماريس أعرضت وردت طلبه، إدراكاً منها أنه إنما كان يسعى في طلبه إلى حيازة مملكتها وضمها إلى ممتلكاته. فلما خاب أمل قورش وفاته أن ينال بغيته بالمكر والحيلة، أراد أن يبلغ مطمحه بقوة السلاح. وهكذا فإنه ما إن بلغ نهر أراكسس حتى أخذ في بناء الجسور لتعبر عليها قواته، وإعداد القوارب ليبدأ حملته. وفيما العمل جار على قدم وساق ، أرسلت إليه توماريس كتاباً يحمل هذه السطور: ‹ إلى ملك الميديين: [قد بلغنا ما أنت عازم عليه] وإنا لمن الناصحين أن تقلع عن هذا الأمر. فأنت إن بدأت أمراً قد يفوتك أي منتهىً ينتهي إليه. ودونك أهلك، واحتمل منا أن نحكم شعبنا. ولكنك لست طبعاً بالذي يأخذ بالمشورة؛ فقد علمنا من أمرك أنك لا تستريح للعيش في سلام. فإذا كان هذا شأنك، فأصغِ إلى هذا القول: إن كنت عازماً على أن تمتحن قوتك أمام الماساجيتاي فحسبك، إذن، أن تقلع عن هذا العمل الشاق في بناء الجسور، ولينسحب جيشك مسافة ثلاثة أيام من الجسر، واسع إلى لقائي بعدئذ [في تلك الأرض]. أو لك، إن شئت، أن تسحب قواتك مثل هذه المسافة، وسأسعى عندئذ إلى لقائك في تلك الساحة».

فلما بلغت رسالة الملكة قورش دعا هذا كبار أعوانه، عرض عليهم الأمر وسألهم الرأي فيما ينبغي عمله. وذهب كل منهم إلى تأييد فكرة ترك توماريس

تتقدم وجيشها إلى طرفهم من النهر. وكان تأييد هذا الخيار بالإجماع لم يخالفه سوى معارض واحد، هو كرويسوس الليدي الذي حضر هذا الاجتماع والقادة الفرس. فقال مخاطباً قورش في شرح أسباب معارضته: «يا مولاي، إنها مشيئة الله أن أقوم على خدمتكم، ولسوف تجدونني أبذل ما استطعت في طاعتكم لأجنبكم كل مكروه وخطر يتهدد بيتكم؛ وقد علمتني المحن الكثير. وإذا كنتم تعتقدون وجندكم بأنكم من الخالدين فليس يجدي، إذن، أن أعرض لكم رأياً؛ أما إن كنتم تدركون أنكم وجنودكم الذين بإمرتكم من البشر فانون، فإن أول قولي هو إن حياة الإنسان مثل العجلة الدائرة لا تدع قوماً يهنؤون أبداً في عيشهم. وما أذهب إليه فيما أنتم تتداولون هو النقيض لما يذهب إليه الآخرون. وعندي ألا تدعوا العدو ينتقل إلى هذا الجانب من النهر. فإن دحرتم لم تخسروا المعركة وحسب وإنما ذهبت معها إمبراطوريتكم كلها؛ ذلك أن الماساجيتاي، إن انتصروا، لن يتوقفوا ليقفلوا عائدين أدراجهم إلى بلدهم، ووفاضهم خاوٍ، وإنما سيتابعون طريقهم ولا ريب ليدخلوا مملكتكم. أما إذا كان القتال موافقاً لكم فلن يكون النصر حاسماً كما لو كنتم تقاتلون على أرضهم. ثم تابعتم مطاردة العدو المهزوم. وما أذهب إليه إنما يعتمد على تقدير ما أعتقد جازماً أنك فاعل، إن حالفك النصر، وهو أن تتابع زحفك على مملكة توماييريس. وإنه فوق هذا لمن العار أن يخلي قورش بن قمبيز الساحة أمام امرأة. وإذن فدونكم ما أشير به: اعبروا النهر وامضوا حتى آخر موقع ينسحب إليه العدو، ولتحاولوا بعدئذ سحقه بخطة محكمة. فلقد بلغني أن هؤلاء قوم لم يخبروا متع الحياة. ولتكن هذه الحقيقة خادمكم، فأقيموا وليمة كبيرة في معسكركم، واذبحوا عدداً من الخراف وزينوا المائدة بأصناف اللذيذ من الطعام، وأكثروا من دنان النبيذ. وإذا تم ذلك تراجعوا إلى النهر، ودعوا خلفكم فوجاً صغيراً من الرجال. وإن لم يخالفني الصواب فإنكم واجدون أعداءنا يقبلون على تلك الأطايب، وعندئذ تكون اللحظة المنتظرة لنبلي فيها البلاء الحسن.

ولما سمع قورش هذين الرأيين على تباعدهما وجد نفسه يميل إلى الرأي الذي طلع به كرويسوس؛ فبعث بكتاب إلى تومايريس يطلب منها الانسحاب، فقد عزم على عبور النهر فاستجابت لطلبه، إذ إنها هي التي عرضت عليه فيما عرضت هذا الانسحاب. وهنا وضع قورش كرويسوس في عهدة ابنه قمبيز الذي جعله خليفته، وأوصاه بأن يكرم مقامه من بعده، إن فشلت الحملة، ثم أرسل بالرجلين إلى فارس، بينما ذهب ليعبر وجيشه النهر.

في الليلة السابقة للعبور رأى قورش فيما يرى النائم، وهو في أرض الماساجيتاي، الابن البكر لهيستاسبس وقد نبت على كتفه جناحان، أحدهما يخيم ظله على آسيا والآخر على أووربا. وكان هذا الابن ويدعى داريوس في العشرين من العمر يومذاك ، و قد ظل في فارس لا يشارك في الحملة لصغر سنه. فلما صحا قورش أخذ يقلب ما بدا له في حلمه على كل الوجوه، ورأى فيه أمراً خطيراً يستدعي الانتباه؛ فبعث في طلب هيستاسبس، فلما جاءه، انتحى به جانباً، وقال له: «لقد تبدى لي أن ولدك يدبر لي مكيدة ويطمح إلى عرشي. ولسوف أكشف لك المصدر الذي استقيت منه معلوماتي، وهو قاطع لا مجال للارتياب به. فلقد رأيت في الحلم ليلة البارحة، وتذكر أن الآلهة ترعاني، وأبداً تنذرني بأي خطر يتهددني، أنه خرج لابنك جناحان أحدهما يخيم على آسيا والآخر يظلل أوروبا. وليس ثمة مهرب من الاستنتاج بأن هذا الحلم نذير بما يدبره لي ابنك. فعليك بالعودة إلى فارس فوراً والاحتياط من ولدك والتحفظ عليه لتقدمه لي عند الطلب، بعد عودتي منتصراً في هذه الحرب.»

ولئن كان قورش موقناً من خيانة داريوس فالحق هو أنه كان للحلم تفسير آخر غير ما اعتقده؛ وإشارة من الآلهة تحذره من موت وشيك في تلك البقعة، واعتلاء داريوس العرش من بعده.

أما هيستاسبس فإنه لما سمع بالحلم رد قائلاً: «حاشا أن يكون هناك فارسي ويراوده الخاطر بالتآمر عليكم، يا مولاي. فإن كان هناك من يتآمر فالموت جزاء

وفاق له! لقد وجدتم الفرس، يا مولاي، يرسفون في أغلال العبودية فجعلتموهم أحراراً، وكانوا اتباعاً فرفعتموهم حكاماً. فإذا أفادكم الحلم بأن ولدي قائم على خيانة فإني أقدمه لكم هدية لتصنعوا به ما شئتم.» فلما انتهى من قوله مضى واجتاز نهر أراكسس عائداً إلى فارس، ليرصد ابنه داريوس كما أمره قورش.

وكان قورش قد توغل الآن في الماساجيتاي حسبما أشار عليه كرويسوس؛ ثم أقام سرية صغيرة هناك وقفل بعدئذ عائداً مع جيشه. فلما أخذ قورش مواقعه في عمق أراضيهم وجد هؤلاء فرصتهم؛ فأطبقوا على القوات الباقية بحاميه تعادل ثلث مجموع جيشهم وأنزلوا بهم مذبحة ولم يبقوا على أحد منهم، بالرغم من استبسال الحامية الفارسية، ثم التفتوا إلى الوليمة العامرة ونعموا، وظلوا على هذه الحال حتى نال منهم الخدر والنعاس فاستسلموا لنوم عميق. وكانت هذه الفرصة التي تحينها الفرس فأطبقوا عليهم وقتلوا منهم من قتلوا وأخذوا ما بقي منهم أسرى، وكان من بينهم ابن الملكة وقائد جيشها سبارجابسيس.

ولما بلغ الملكة توماييريس نبأ الهزيمة التي لحقت بجيشها و أسر ابنها بعثت برسالة إلى قورش قالت فيها: «إنك وإن تكن متعطشاً للدماء لن تجد ما يجعلك فخوراً بما أتيت به اليوم، وليس فيه ما ينم عن شجاعة المقاتلين. لقد كان سلاحك من عصير العنب الذي تعب منه فتفقد الرشد عندما ينهال الخمر في أحشائك، ومع تصاعد أبخرته تخرج البذاءات– ذلك هو السم الذي احتلتَ به لتوقع ابني في براثنك. فأصغ إليَّ الآن، وأنا لك من الناصحين: أعِد إليَّ ابني واخرج أنت وجيشك من بلدي، ولكم جميعاً الأمان، وحسبك نصراً ما كان لك من ثلث الماساجيتاي. فإن أعرضت عن نصيحتي فلك مني أن تجد من الدماء ما لا تقوى على شربه، وإن عرفنا عنك من تعطش للدماء.»

ولكن قورش لم يأبه لهذا التهديد. أما ابن الملكة فإنه حين عاد إلى رشده وأدرك حقيقة حاله أخذ يرجو قورش أن يفك عنه أغلاله. ولقد أجابه إلى طلبه

ونزع الأغلال كما كان يرجو، فأسرع عندئذ وانتحر. وأما الملكة فقد سارعت إلى قتال قورش بعدما أهمل إنذارها، وزجت في قتاله بكل ما لديها من الجنود وأدوات القتال. وكانت تلك معركة لم يعرف مثلها ضراوة وشراسة بين الأمم.

وقد بلغني من تلك الواقعة أن كلا الجيشين تقدما حتى أصبح كل على مرمى سهام الآخر، واستمرا في التراشق حتى نفدت منهما السهام، ثم التحم المقاتلون بالرماح والخناجر، وظلوا على قتالهم على هذا النحو فترة طويلة، وكل ثابت لا يتزحزح عن موقعه قيد أنملة. ولكن الماساجيتاي تمكنوا، في النهاية، من جيش الفرس وأنزلوا به مذبحة كان فيها فناءه. وكان قورش ذاته من القتلى. وكان حكمه تسعا وعشرين سنة.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أمرت تومايريس بالبحث بين القتلى عن جثة قورش؛ فلما أتوا بها دفعت برأسه في قربة ملأتها بالدم، وصاحت بملء صوتها، وهي تقوم بهذا الفعل المنكر: « لئن انتصرت عليك وسلمت فإنك ألحقت بي الدمار خسة وغدراً حين انتزعت مني ولدي. فانظر الآن حين أنفذ وعيدي: فهيا و اجرع من الدم ما يروي ظمأك.» والروايات عن مقتل قورش كثيرة، وما أوردت إلا ما وجدته مما يقبله العقل.

إن الماساجيتاي يشبهون السكيث في ملبسهم ونواحي الحياة. ويركب بعضهم الخيول، فهم فرسان ومشاة، وفيهم رماة السهام وحملة الرماح، كما أنهم يألفون استخدام « الساجير »، أو الفأس. وهم لا يستخدمون سوى معدنين: الذهب والبرونز؛فتراهم يصنعون من البرونز رؤوس الرماح والنبال والفؤوس التي يستخدمونها في القتال، أما الذهب فلتزيين لباس الرأس والزنانير والنطاقات، كما أنهم يلبسون خيولهم الدروع من البرونز ويزينون اللجام والشكيمة. ولكن الفضة والحديد غير معروفين لديهم، إذ لم يعثر على هذين المعدنين في بلادهم، وإن كانت بلادهم تزخر بالذهب والبرونز. وقد جرت القاعدة عندهم أن يتخذ الرجل منهم لنفسه زوجة، ولكن كل الزوجات مشاع بينهم.

ويعتقد الإغريق أنهم أخذوا هذا عن اللاكيديمونيين – وهذا اعتقاد خاطئ. فهذه عادة أصيلة عند الماساجيتاي. وإذا شاء رجل مضاجعة امرأة فما عليه إلا أن يعلق كنانته خارج عربته، ويمضي في أمره. ولهم طريقة واحدة في اختيار الموت؛ فعندما يشيخ الرجل ويغدو عجوزاً يجتمع أهله ويقدمونه في طقس بين الذبائح، ثم يعمدون إلى سلق اللحم ويتناولونه، ويرون في ذلك أفضل ميتة. أما الذين يموتون في وباء فلا يؤكل لحمهم، وإنما يدفنون، وهم يعتبرون من البلايا ألا يعيش المرء حتى يُضحى به. ثم إن هؤلاء قوم لا يعرفون الزراعة، ولا يأكلون سوى لحم الحيوان والسمك! وهذا يوفره نهر الأراكسس الغني بالسمك. والماساجيتاي قوم يقبلون على شرب اللبن. ولهم إله واحد هو الشمس يعبدونه ويضحون له بالجياد، وهم في هذا يقدمون أضحيتهم، وهو أسرع المخلوقات، إلى أسرع الآلهة.

الكتاب الثاني[1]

يوتيربـــــي

خلف قورش على العرش ابنه قمبيز من زوجه كسناداني بنت فارناسبيس؛ والتي أحزن موتها قورش أشد الحزن حتى إنه أمر بالحداد العام عليها. ولما كان قمبيز قد ورث ملك أبيه على الأيونيين والأيوليين، فإنه جندهم بين رعاياه الكثيرين وجعلهم في عداد الجيش الذي أعده للحملة على مصر.

كان المصريون قد درجوا، قبل عهد بسميتاك على اعتبار أنفسهم أعرق أقوام الأرض[2]؛ ولكن حين تولى بسميتاك العرش، وأراد أن يحسم أمر هذه العراقة، أصبحوا يعتبرون الفريجيين القوم الأعرق، وهم من بعدهم يلونهم في المرتبة. ذلك أن بسميتاك لما وجد أن الاستقصاء والبحث وحدهما قاصران عن الكشف عن الجنس الأعرق، خرج بطريقة مبتكرة تأتي بالقول الفصل في هذا الأمر . فكان أن التقط طفلين صغيرين من أسرة من عامة الناس وسلمهما إلى أحد الرعاة ليتولى رعايتهما، بين قطيعه، وأمره بوضعهما في كوخ منعزل بعيداً عن الناس، وألا ينطق بكلمة واحدة أمامهما . وأوعز إليه أن يأتي بمعيزة بين الحين والآخر ليطمئن إلى أنهما ينالان نصيبهما من الحليب، والاطمئنان إلى راحتهما في كل أمر آخر . وقد أراد بسميتاك من ذلك أن يعرف أول كلمة ينطق بهما هذان الطفلان، حين يبلغان من العمر ما لا يكفي معه لغو الأطفال. وكان أن أفلحت خطته، فبعد أن مضى عليهما عامان على هذه الحال، صادف أن جاءهما هذا الراعي ذات يوم على عادته في الزيارة للاطلاع على أحوالهما، فقاما يستقبلانه وأيديهما ممدودة، وهما يصيحان بكلمة بيكوس. ولم يأبه الراعي بما سمع من نطق الطفلين، بادئ الأمر، ولم يذكر الأمر لأحد؛ ولكنه لما وجدهما يكرران الكلمة كلما زارهما، عرض الأمر لمولاه . فأمر بسميتاك

باحضار الولدين ليسمع منهما كلمة بيكوس، فلما كان ذلك أمر بالبحث لمعرفة اللغة التي تنتمي إليها تلك العبارة. وبعد بحث واستقصاء عرف أن الكلمة تعني الخبز بلغة الفريجيين، وبناء على هذه الواقعة تنازل المصريون عن دعواهم وسلموا بقدم الفريجيين. تلكم حقيقة ما حدث وعلمت من الكهنة في معبد هيفستوس (بتاح) بممفيس، وإن كان للإغريق روايات أخرى يستبعدها المنطق، مثل تلك التي تروى عن نساء قطع بسميتاك ألسنتهن وأوكل إليهن أمر تربية الطفلين. ولقد اقتصرت في هذا التاريخ على رواية الكهنة دون سواهم . وهناك، بعد، أمور أخرى حدثني بها الكهنة في ممفيس. وقد قيل لي إن أوسع المصريين معرفة يقيمون في هيليوبوليس (مقر عبادة إله الشمس رع).

ولسوف أمسك عن تكرار ما قيل لي عن ديانة المصريين، مقتصراً على عرض أسماء آلهتهم، إذ لست أحسب أن هناك أمة أدرى بهذه الأمور من سواها؛ ولن أورد حول هذا الموضوع، سوى ما اقتضى تاريخي روايته . أما فيما يتصل بقضايا البشر فالإجماع قائم على أن المصريين اكتشفوا في دراستهم علم الفلك السنة الشمسية وكانوا أول من قسمها إلى اثني عشر جزءاً - وأسلوبهم في الحساب هو في ظني أفضل مما بلغه الإغريق؛ ذلك أن الإغريق يكبسون شهراً بكامله كل سنتين حتى يستقيم لهم توزيع الفصول على النحو الملائم، بينما تتألف السنة عند المصريين من اثني عشر شهراً، كل شهر منها ثلاثون يوماً، ثم يكبسون خمسة أيام إضافية كل عام، فتكتمل بذلك حلقة الفصول. وأخبروني كذلك أن المصريين كانوا أول من سمى الآلهة الاثني عشر بأسمائهم، وعنهم أخذها الإغريق، ثم إنهم كانوا أول من ابتكر المذبح ونصب الأصنام وشيد المعابد للآلهة ونحت التماثيل من الحجارة. وقد اثبتوا لي صحة معظم هذه الروايات، وأخبروني أن أول من ملك مصر هو مينا، وكانت البلد كلها، عدا المنطقة حول طيبة(الأقصر)، في أيامه سبخة، فلا يظهر شيء من الأرض أسفل بحيرة موريس (كرويسوس) - وتبعد عن البحر مسافة سبعة أيام

يقطعها المرء في النهر. ولا يساورني شك كبير في صحة روايتهم، لأنه واضح لكل حصيف ذي نظر، وإن لم يكن على دراية بالأمر، أن مصر التي يبحر إليها الإغريق في أيامنا إنما هي هدية النهر، إذا جاز القول، ولم يتولها أهلها إلا من عهد قريب. وهذا القول يصدق على المنطقة أعلى البحيرة، والتي يقطع المرء المسافة إليها في ثلاثة أيام. ومع أن الكهنة لم يحدثوني في أمرها، ولكن الحق أن تلك الأرض تنتمي إلى ذات النمط.

وهنا أقدم وصفاً عاماً لطبيعة مصر. فإذا قدمت إليها بحراً ستجد وأنت ما تزال على بعد يوم منها، أن الطين الذي حملته الجداول يمتد في البحر مسافة إحدى عشرة قامة (القامة ستة أقدام). أما الساحل فيبلغ طوله، حسب الحدود التي بها مصر، أي من خليج البلنتينه حتى سربونيس عند أسفل جبل كاسيوس ستين شوينة وهي مقياس مصري يعادل ستين ستيد (مقياس إغريقي يعادل ٢٠٠ياردة). وقد جرى أصحاب الملكيات الصغيرة على قياس المساحات في مصر بالقامة وذوو الملكيات الأكبر نوعاً ما يقيسونها بالفرلنج (مقياس مصري يعادل ٢٢٠ ياردة)، أما من كانت مساحة أرضهم أوسع فيقيسونها بالفرسخ (يعادل ٣٠ ستاداً). فطول ساحل مصر إذاً ثلاثة آلاف وستمائة ستاداً.

والبلاد من الساحل حتى هيليوبوليس مترامية الأطراف، والأرض فيها منبسطة وخالية من الينابيع وحافلة بالمستنقعات. ويعادل طول الطريق الممتد من الساحل حتى هيليوبوليس طول الدرب الممتد من مقام الآلهة الاثني عشر حتى معبد زيوس الأوليمبي في بيزا . ومن يتجشم عناء الحساب لن يجد اختلافاً يزيد عن خمسة عشر فرلنجاً بين الدربين، ذلك أن الدرب من أثينا إلى بيزا يقل عن الألف وخمسمئة فرلنج خمسة عشر فرلنجاً على وجه الدقة، بينما تبلغ المسافة بين البحر وهيليوبوليس ألف وخمسمئة فرلنج تماماً.

وحين يتجاوز المرء هيليوبوليس ويتوغل في البلاد باتجاه الجنوب تضيق

المسافة ، إذ تحدها التلال العربية التي تتجه من الشمال إلى الجنوب والتلال الليبية من الطرف الآخر. وتستمر التلال العربية دون انقطاع وتمتد بعيداً حتى البحر الأحمر وتحتوي هذه الجبال على مقالع الحجارة التي أنشئت بها أهرامات ممفيس :وهنا تغير تلك التلال اتجاهها الأول وينحرف الطريق نحو البحر. وقد بلغني من أهل العلم أن المسافة بين الشرق والغرب تبلغ في أقصاها رحلة شهرين، وتنتج في أطرافها الشرقية البعيدة اللبان والبخور تلكم هي المعالم البارزة في تلك البقعة . أما على طرف ليبيا حيث الأهرامات تنتصب، فالأرض هناك صخرية تكسوها الرمال؛ واتجاهها هو نفس اتجاه القسم الأول من التلال العربية. وليس هناك، في أعلى هيليوبوليس، إذن، متسع من العرض لبلد مثل مصر، وتظل المساحة ضيقة طوال أربعة أيام من ركوب النهر؛ وأما الوادي الواقع بين سلسلتي التلال فهو أرض منبسطة، و يبدو لي أن المسافة في أضيق نقطة بين التلال العربية والليبية لا تزيد عن مئتي فرلنج. ثم تعود المسافة فتتسع بعد هذه النقطة.

ويقطع المرء المسافة من هيليوبوليس [٣] إلى طيبة (الأقصر) في تسعة أيام من السفر في النهر، وهي مسافة تبلغ إحدى وثمانين شوينة أو ٤٨٦٠ فرلنجاً . وإذا جمعنا هذه المسافات المختلفة للبلد وجدنا أن طول الساحل ٣٦٠٠ فرلنج والمسافة ما بين الشاطيء وطيبة ٦١٢٠ فرلنجاً، كما تبلغ المسافة ما بين طيبة والفنتينا ١٨٠٠ فرلنج.

إن القسم الأعظم من الأرض الموصوفة آنفاً ليلوح لي، مصداقاً لقول الكهنة، أرضاً استصلحها أهلها. ذلك أن المنطقة قبل ممفيس والواقعة بين سلسلتي التلال كانت في مبدئها خليجاً وتشبه، إذا جاز لي أن أقارن المتواضع من الأمور بعظائمها، المناطق حول إيليوم وتيوترانيا وأفيسوس وسهل مايادر. وهذه المناطق كلها شكلتها الأنهار، وليس منها ما يقارن بأي من ثغور النيل الخمسة. ولهو في وسعي أن أذكر أنهاراً أخرى أيضاً، هي دون النيل حجماً

بكثير، وأحدثت أعظم التغييرات، وليس أقلها نهر أخيلوس الذي يصب في البحر مقابل الجزر المعروفة بجزر إخيناديس، بعدأن يمر باكارنانيا، وهو الذي أدى إلى ربط نصف تلك الجزر بالقارة[٤].

وفي بلاد العرب، غير بعيد عن مصر، خليج ضيق طويل هو(البجر الأحمر) يمتد في البر من البحر المعروف باسم الأرتيري (بحر العرب)، وإن المرء ليستطيع عبور القسم الأضيق منه في نصف يوم، ويستغرق أربعين يوماً إذا ركب السفينة من أقصاه ليبلغ نهايته. ويتناوب هذا البحر المد والجزر كل يوم. وأحسب أن مصر كانت في قديم العهد خليجاً على هذا الشكل ـ خليجاً يمتد من البحر من شمال مصرإلى إثيوبيا، وآخر يدخلها من بحر الجنوب (المحيط الهندي) ويمتد نحو سورية، ويمضي هذان الخليجان جنباً إلى جنب حتى يكادا أن يلتقيا، ولا يفصل بينهما إلا قطعة ضيقة من اليابسة. ولنفترض الآن أن النيل تحول مجراه ليصب في هذا الخليج، أي البحر الأحمر، فما الذي يحول دون أن يغدو ترسبه في هذا المجرى، ولنقل خلال عشرين ألف سنة؟ وفي رأيي أن عشرة آلاف سنة تكفي لأن يتحول هذا إلى طمي الأبليز الذي يعرف به النيل. وإذا كان الأمر كذلك فلا ريب أن خليجاً أكبر من هذا بكثير كان موجوداً ونال منه الجفاف خلال تلك الفترة الطويلة التي سبقت مولدي، فغدا أرضاً يابسة من الطمي الذي حمله نهر النيل، وهو نهر عظيم وله أن يأتي بتغيرات كبرى. ولذلك فإنني لا أصدق رواية من حدثوني عن مصر على نحو ما ذكرت وحسب، بل وأجد ما توصلت إليه من الاستنتاجات تؤيد ما قاله هؤلاء القوم . فلقد شاهدت بنفسي امتداد مصر عند دلتا النيل في البحر بعد الشاطئ على الجانبين؛ ووقعت على أصداف على التلال ولاحظت ترشح الملح من الأرض إلى الحد الذي يؤثر حتى في الأهرامات ولا أن التل الوحيد الذي يحمل رملاً كان ذلك التل قبالة ممفيس، وأن تربة مصر لا تشبه تربة أي من البلاد المجاورة، مثل بلاد العرب أو ليبيا أو حتى سورية التي تشكل الحد البحري لبلاد العرب ، إنما

هي تربة سوداء هشة، من المحتمل أن النهر حملها عن الحبشة. وقد أخبرني الكهنة أن المنطقة أسفل ممفيس كانت في عهد امنحوتب تغمر كلها بالمياه، حين يرتفع منسوب النهر اثني عشر قدماً . وكان قد مضى على وفاة امنحوتب يوم أخبرني الكهنة بهذا تسعمئة عام، إلا قليلاً . أما اليوم فإن النهر ما عاد يفيض، إلا إذا ارتفع منسوبه إلى ثلاثة وعشرين ونصف القدم، أو أربعة وعشرين قدماً. ويبدو لي، أن المصريين الذين يعيشون أسفل بحيرة مويريس (بركة كرويسوس) في الدلتا ونواحيها سيواجهون المصير ذاته الذي انتهى إليه الإغريق، إذا ما انقطع النيل عن الفيضان؛ وقد قالوا حينما بلغهم أن بلاد الإغريق تروى بمياه الأمطار، لا كما تسقى أرض مصر، بما تفيض به الأنهار، أن اليوم آت لا ريب حين يعاني الإغريق سوء العاقبة وينزل بهم الجوع، أو بعبارة أخرى، إذا شاءت الآلهة ألا ترسل المطر، ويكون القحط والموت جوعاً، طالما أنه ليس لهم سوى ما تنزله السماء من الأمطار، وهي منة الإله. والحق ما قاله المصريون - إلا أنني أود أن أبين واقع الحال. وجملة القول عندي، وهو ما سبق لي أن قلته، إذا استمرت الأرض أسفل ممفيس في الارتفاع بذات المعدل الذي كان عليه في السابق (وهذا الجزء من الأرض في ارتفاع دائم)، فمن الواضح أن النهر لن يعود قادراً على غمر الحقول - والمطر هنا معدوم . أفلن يواجه الناس الجوع حين يتوقف فيضان النهر؟ إن واقع الحال الآن هو أن هؤلاء القوم يقومون بزارعة أراضيهم بجهد قليل لا يماثله بلد آخر في العالم، بما في ذلك الفلاحون المصريون في البقاع الأخرى من مصر؛ فأولئك لا يحتاجون في زراعتهم للمحراث أو المجرفة، أو أي أداة من أدوات الزراعة؛ إذ حسبهم أن ينتظروا فيضان النهر حتى تغمر المياه حقولهم، ثم تنحسر المياه، فيقوم كل فلاح عندئذ بنثر البذار، ويطلق الخنازير فتجري في الحقل وتقلب التربة، ثم يخلد إلى السكون حتى تأتي الأرض بموسمهم. وجدير بالإشارة أن هذه الخنازير تستخدم في درس الحبوب، التي تنقل بعدئذ إلى العنابر.

ويزعم الأيونيون أن مصر هي أرض دلتا النيل ، أي البقعة الممتدة من الساحل عند برج المراقبة المعروف باسم برسيوس إلى سبخة بيلوسياك (المنزلة)، وهي مسافة تبلغ أربعين شوينة، وحتى مدينة كيركاسورس في الداخل. والنيل ينقسم إلى فرعين، ثم يمضي حتى يصب في البحر عند بيلسيوم وكانوبس. أما باقي مصر فهو إما ينتمي إلى ليبيا وإما هو من أرض بلاد العرب. وإذا سلمنا بهذا القول فلا مناص من الاستنتاج عندئذ أن المصريين كانوا ذات يوم بلا بلد؛ فأنا على اقتناع، والمصريون أنفسهم يسلمون بأن الدلتا هي أرض نشأت عن الطمي، ولم تظهر كأرض يابسة من الماء، إذا جاز القول، إلا في وقت متأخر . وإذا كانوا قوماً بلا موطن، فعلام، إذن يشغلون أنفسهم إلى هذا الحد بالنظرية التي تقول أنهم أعرق قوم على الأرض؟ ولا ريب أنه لم يكن ثمة داع على الإطلاق لتجربة ذينك الطفلين لمعرفة أي كلمة ينطقان بها أول ما ينطقان . فالواقع إني لا أصدق الزعم بأنهم ظهروا في ذات الوقت الذي تشكلت فيه الدلتا كما يسميها الأيونيون؛ بل عندي أن المصريين وجدوا على الأرض منذ أن ظهر البشر على الأرض، ثم انتقل الكثيرون منهم بعد ما اتسعت أرض الدلتا بمرور الزمن وانتشروا في الأرض الجديدة، بينما ظل كثيرون منهم يمكثون حيث كانوا أصلاً. وكان اسم مصر يطلق في العصور الغابرة على طيبة، ويبلغ محيطها ٦١٢٠ فرلنجاً . وإذا صدق تقديري أصبح الأيونيون على خطأ فيما قالوا في أمر مصر؛ أما إذا كان الصواب في جانبهم فإني لعلى استعداد للبرهان على أنهم هم وباقي الإغريق لا يعرفون الحساب . وآية ذلك أن العالم ينقسم عندهم إلى ثلاث مناطق، هي آسيا وأوروبا وليبيا، بينما كان الأجدر بهم أن يضيفوا إلى تقسيماتهم، كما هو واضح، قسماً رابعاً هو الدلتا المصرية، باعتبار أنهم لا يضيفونها إلى آسيا ولا إلى ليبيا. والنيل هو في نظرهم، الحد الفاصل بين آسيا وليبيا؛ أما في الحق فإن النيل يتفرع في قمة الدلتا، ثم يمضي متدفقاً حولها، مما يجعل تلك الأرض قطعة منفصلة عن

الأرض التي تقع بين الفرعين.

وحسبنا ما عرضت من رأي الأيونيين؛ وإليكم الآن رأيي الخاص، وهو أن مصر عندي هي المنطقة التي يسكنها المصريون، وهي مثل قلقيلية[٥] التي يسكنها القلقيليون، أو آشوريا التي يسكنها الآشوريون. والحد الفاصل الحقيقي بين ليبيا وآسيا هو حدود مصر. وعلينا أن نفترض وفق المنطق الإغريقي المألوف أن مصر، من الفنتينا وكاتاركتس حتى كيركاسورس[٦]، تنقسم إلى قسمين، أحدهما ينتمي إلى ليبيا والآخر آسيوي؛ وآية ذلك أن النيل، إذ يتدفق من كاتاركتس حتى يصب في البحر ماراً بوسط البلاد، وحتى كيركاسورس في مجرى واحد ، ثم يتفرع قبل المدينة إلى ثلاثة فروع، يتجه أحدها شرقاً ويعرف باسم مصب بلوسيوم، بينما يجري الآخر غرباً ويعرف بمصب كانويك[٧]. ويبقى الفرع الثالث بعد، حيث يجري من الجنوب إلى رأس الدلتا، ويصب فيه ويشطره إلى شطرين، وهو يمضي في طريقه إلى البحر . و هذا الفرع الذي يشكل ما يعرف باسم مصب سبيناتيك[٨]، لا يقل عن الفرعين الآخرين غزارة أو شهرة . وهناك ثغران آخران، إضافة إلى ما تقدم، هما سايتيك وميتديسيان. وليس مصب بوليتين (رشيد) ومصب بوكوليك (دمياط) بالفرعين الطبيعيين وإنما هما قناتان اصطناعيتان.

إن الرأي الذي بسطته في أمر مساحة مصر يجد سنده في نبوءة صدرت من معبد آمون، وكنت قد علمت بها بعد أن انتهيت إلى ذلك الرأي . وقد علمنا أن سكان ماريا وابيس الذين يقيمون على الحدود الليبية قد ضاقوا ببعض أعراف الدين، وخاصة تحريم أكل لحم العجل فبعثوا إلى معبد آمون من يقول أنهم لا يرون أنفسهم ملزمين باتباع أعراف المصريين، فهم ليبيون ولا يمتون لهم بصلة، ويقيمون خارج الدلتا، ويرغبون بالتالي أن يعيشوا كما يشاؤون. لكن الكاهن رد طلبهم، وأعلن أن مصر هي الأرض التي يرويها النيل، والمصريون هم جميع الناس الذين يعيشون ما وراء الألفنتينا[٩] وينهلون من مائه.

وجدير بالتنويه أن النيل حين يفيض لا يقتصر غمره على منطقة الدلتا، وإنما يمتد الغمر إلى المنطقتين الليبية والعربية، على جانبيه، وعلى مسافة يومين، تزيد أو تنقص قليلاً حسب الموقع.

ولقد سعيت لمعرفة أسباب سلوك النيل هذا المسلك، إلا أنني لم أتمكن من الحصول على هذه المعلومات، سواء من الكهنة أو من أي شخص آخر. وما كنت حريصاً على معرفته في هذا الشأن هو سبب ارتفاع منسوب النهر الذي يبدأ عند الانقلاب الصيفي ويستمر مائة يوم على هذه الحال، ثم ينخفض ثانية في نهاية تلك الفترة، ويظل على حاله حتى يكون الانقلاب الصيفي في العام التالي. ولم أجد في مصر من يوفر لي تفسيراً لهذا الأمر، بالرغم من محاولاتي المستمرة لمعرفة هذه السمة الخاصة التي ينفرد بها النيل دون كل الأنهار الأخرى. وكان الأمر الآخر الذي رغبت في معرفة أسبابه، هو انفراد النيل بغياب النسيم فوق سطحه.

ولقد حاول بعض الإغريق، وهم يستعرضون مبلغ ذكائهم، أن يقدموا تفسيرات لفيضان النيل، فذهبوا في ذلك ثلاثة مذاهب مختلفة ـ اثنان من تلك التفسيرات لا يستحقان منا كثير مناقشة، وإنما حسبنا أن نعرض لهما في هذا المجال. ويذهب أحد هذين التفسيرين أن السبب في ارتفاع منسوب المياه توقف التيار نحو البحر بتأثير رياح الصيف الشمالية، وقد فات أصحاب هذا الرأي أن هذه الرياح قد غابت فعلاً في عدة مواسم ولكن منسوب المياه مع ذلك، لم ينقطع عن الارتفاع في أوانه؛ ثم إنه إذا كانت هذه الرياح هي السبب في ارتفاع منسوب النيل، فلا بد أن تؤثر في الأنهار الأخرى التي تمر بها كما تؤثر في النيل، بل وينبغي أن يكون لها تأثير أعظم على هذه الأنهار، وهي دون النيل ضخامة، وتياراتها أضعف وهناك أنهار عديدة على هذا الشكل، في سورية وليبيا، ولكن ما من نهر منها شبيه بالنيل، في هذا المسلك . والتفسير الثاني دون الأول قرباً إلى المنطق، إنه أقرب إلى الأسطورة، إذا جاز القول، إذ يذهب

إلى أن صفات النيل الخارقة هذه مردها إلى أنه ينبع من المحيط، ذلك الحوض الكبير الذي يطوق العالم.

وأما النظرية الثالثة فهي أقرب إلى العقل، وأبعد النظريات عن الحقيقة في الوقت ذاته، فتذهب إلى القول بأن مياه النيل مصدرها ذوبان الثلج. ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك والنيل ينبع من ليبيا ثم يمر عبر الحبشة حتى يصل إلى مصر، أي أنه يصدر من أرض ذات مناخ حار ثم يمضي في طريقه إلى بيئة أبرد؟ إنه لجلي أن هذا الرأي غير جدير بالاعتبار، شأنه شأن الرأيين الآخرين. وهذه الحجج يمكن لأي شخص أن ينقضها ويدحض قول من يقول إن الثلج سبب في فيضان نهر النيل. وأول وأقوى حجة في دحضها هي الرياح الحارة التي تهب من تلك المناطق ذات المناخات الحارة، وثانياً أن المطر والصقيع غير موجودين في تلك الأقاليم - ثم إن القاعدة جرت على أن يعقب المطر الثلج، بعد خمسة أيام من سقوطه وإذن، فلا بد أن تتساقط الأمطار بالضرورة، إذا كانت تلك البقاع من العالم تعرف المطر، وثالث الحجج أن سكان تلك الأقاليم سود البشرة بسبب المناخ الحار الذي يعيشون فيه . ثم إن تلك الأنحاء عامرة بالصقور والطيور تمكث فيها ولا تفارقها على مدار السنة، كما أن طيور اللقلق تهاجر إليها من بلاد السكيث في فصل الشتاء، هرباً من برودة الطقس. وإذن، فلو كان في تلك الأصقاع حيث يفيض مجرى النيل ثلج، ولو قليلاً، لما كانت تلك الأمور؛ وأما من يقول إن النيل ينبع من المحيط فقوله مبني على خرافة، أصلها مأخوذ من مصدر مجهول ولا يمكن معارضتها بالحجة. ولست أعرف أنا شخصياً نهراً يدعى المحيط، وأحسب أن هوميروس أو شاعراً أسبق عهداً جاء به وأقحمه في إحدى قصائده، بينما ليس له من سند في الواقع، وإذا كان لي أن أدلي برأي بعد نقد تلك النظريات، في أمر غامض، مثل السبب في فيضان النيل في الصيف، لقلت بوجيز العبارة أن مرد ذلك انحراف الشمس عن مجراها بفعل العواصف التي تهب على الأطراف العليا من ليبيا. والمنطق يملي

أن تكون البلد الأقرب إلى الشمس أو تقع تحتها مباشرة، أشد البلدان قحطاً، والينابيع التي تغذي الأنهار في تلك الجوار الأقرب إلى الجفاف.

ولشرح هذه المسألة بإسهاب نقول إن الشمس تمر بالأجزاء العليا من ليبيا . حيث الجو هناك رائق دائماً، والأرض أبداً مكشوفة للشمس، ولا تهب عليها أي رياح باردة تخفف من القيظ؛ والنتيجة أن الشمس وهي في السماء الوسطى حين تمر بتلك المنطقة تحدث أثرها المعتاد في كل بقعة صيفاً أي إنها تجتذب المياه إليها، ثم ترمي بها بعيداً في أعماق تلك المنطقة، حيث تصبح عرضة لتأثير الرياح التي تنتشر وتتفرق بشكل بخار - وإذن فمن الطبيعي أن تكون الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية التي تهب على المنطقة أشدها مطراً . ويبدو لي، بعد، أن الرطوبة التي تجتذبها الشمس كل عام، لا تهطل كلها مطراً، وإنما يبقى قدر منها حول الشمس. فإذا انتهى فصل الشتاء العاتي واستأنفت الشمس مجراها العادي في السماء الوسطى، تابعت من ثم جاذبيتها ذاتها على الأنهاركافة. وهكذا تفيض الأنهار كلها، في فصل الشتاء - إلا نهر النيل - بسبب هطول مياه الأمطار فيها، حيث تجري الأمطار في أنهار في كل البلاد. أما في الصيف فإن الأنهار تغدو ضحلة المياه، بسبب ازدياد حرارة الشمس وانقطاع المطر، فيقل منسوب المياه فيها. وأما النيل فمسلكه غير هذا، ولسبب واضح، إذ إن مياهه تتبخر تحت وطأة الشمس من جهة، ويفتقر لمياه الأمطار لتغذيته، ولذلك فهو النهر الوحيد الذي يقل منسوب المياه فيه شتاء عما هو عليه صيفاً - وهو يخضع في هذا الفصل لذات قوة الجذب التي تتعرض لها الأنهار الأخرى، إلا أنه النهر الوحيد الذي يتحسس هذه القوة في الشتاء. فهذه هي، إذن، الأسباب التي تحملني على اعتبار الشمس السبب في هذه الظاهرة، وهي سبب جفاف الطقس في مصر، حيث الشمس تلهب كل ما تقع عليه - ولذلك وجدنا الأجزاء العليا من ليبيا في صيف دائم . فلنفترض لحظة أن وقع انقلاب في الاتجاهات، الشمال والجنوب - ولنفترض جدلاً أن ريح الشمال غدت في محل ريح الجنوب في مجرى

السماء، لكان على الشمس، وقد حادت عن مجراها الطبيعي بفعل ريح الشتاء الشمالية العاتية لتمر فوق شمال أوروبا بدلاً من جنوب ليبيا، كما هو الحال الآن، ولكان لها على نهر الدانوب ذات الأثر الذي لها على نهر النيل الآن . ولقد أشرت إلى واقعة غياب النسيم عن النيل؛ والسبب في هذا الحقيقة، عندي، أن المألوف هو أن الرياح تصدر عن منطقة باردة، وليس هذا حال المنطقة التي يجري فيها هذا النهر.

إن هذه الأمور ما انقطعت تتكرر منذ بدء الزمن، ولا سبيل لتغييرها، ولذلك سأنتقل لتناول موضوع آخر. والحق أني لم أجد أحداً ممن تحدثت إليهم، مصرياً كان أم ليبياً أم إغريقياً، ويملك أي قدر من المعرفة بمنابع النيل، سوى ذلك الكاتب، حافظ سجلات كنوز معبد أثينا في مدينة سايس[10] المصرية، ولكن بدا لي حتى هذا الشخص، على ادعائه بسعة المعرفة، رجلاً لا يطمئن إلى دعاواه . فقد أخبرني أن بين ساييني[11]، بالقرب من طيبة والألفنتينا، جبلين شكلهما مخروطي يعرف أحدهما بجبل كروفي والآخر موفي، وبينهما توجد منابع النيل تتفجر من أعماق سحيقة ، ويتجه نصف الماء شمالاً نحو مصر، والنصف الآخر يمضي جنوباً إلى أثيوبيا وقد قال إن ما يثبت أن ينابيع النيل لا قرار لها ما فعله ملك مصر بسميتاك حين حاول قياس عمق قرارها بحبل طوله عدة آلاف قامة (القامة ٦ أقدام) فلم يبلغه. ويرجح لدي أنه، إذا كان لهذه الرواية أي قدر من الحقيقة، فهي دليل على وجود دوامات وتيارات قوية في الينابيع، سببها ارتطام المياه بالجبال، مما حال دون بلوغ نهاية الحبل قاع الينبوع.

وكان هذا غاية ما بلغني من أمر ينابيع النيل من الرواة. وإني إنما تحدثت عن المنطقة حتى الألفنتينا بلسان شاهد العيان، أما جنوب تلك الناحية فقد تحدثت عنه كما بلغني برواية الرواة. وجل ما بلغ علمي أن الأرض تعلو بعد الألفنتينا ولا بد من ربط جانبي القارب هناك بحبل، فيكون كاللجام للثور، لئلا

يفلت ويطيح به التيار. وهكذا تمضي الرحلة طوال أربعة أيام، يتسع النهر بعدها ويغدو كنهر المايندر، وطول المنطقة اثنتا عشرة شوينة . وهنا تبلغ سهلاً فسيحاً منبسطاً، يتفرع فيه النيل إلى فرعين، عند جزيرة تدعى تشومبسو. والمنطقة جنوب الألفنتينا مسكونة بالأثيوبيين الذين يملكون أيضاً نصف، جزيرة تشومبسو والنصف الآخر للمصريين. وما وراء الجزيرة ثمة بحيرة كبيرة يسكن على ضفافها البدو الأثيوبيون؛ وإذا تجاوزت البحيرة عدت ثانية إلى مجرى النيل الذي يصب عندئذ في البحيرة. وهنا تحط أحمالك وتمضي أربعين يوماً سيراً على ضفاف النهر، لتعذر ركوبه بسبب الصخور التي يظهر بعضها فوق الماء، وبعضها الآخر يبقى تحت الماء فإذا تجاوزت ذلك القسم من النهر خلال أربعين يوماً انتهى بك المسير، لتركب القارب ثانية وتمضي اثني عشر يوماً آخر لتصل إلى بلدة عظيمة تدعى ميروى التي يقال إنها عاصمة الأثيوبيين وهؤلاء يعبدون إلهين، دون سواهما، هما زيوس (آمون) وديونيسوس(أوزيريس). ولهذين الإلهين عند الأثيوبيين أعظم مقام . وقد أقام القوم هناك معبداً لزيوس(آمون)، وهو الذي يوجه الأثيوبيين إلى الحرب، فإذا قال العراف بها، حمل القوم السلاح ومضوا حيثما أمر.

وإذا غادرت هذه البلدة، وركبت النهر من جديد مدة تعادل الزمن الذي أمضيته للوصول من الفنتينا إلى هذه العاصمة، صادفت «الفارون» ويعرفون بالأزماخ، ومعنى هذه الكلمة في لساننا الواقفون على يسار الملك. وهؤلاء جنود مصريون، يبلغ عددهم مئتين وأربعين ألفاً، وقد انتقلوا إلى صف الأثيوبيين في عهد الملك بسميتاك . وقصة فرارهم هي كمايلي: أقام المصريون يومذاك ثلاث حاميات، إحداها في مدينة الفنتينا في مواجهة الأثيوبيين، والأخرى في بيلوسوم ودافناي، لمواجهة السوريين والعرب، والثالثة في ميريا[١٤]، أمام الليبيين. ومازالت هذه المواقع قائمة في أيامنا، ويقوم عليها الفرس، ولهؤلاء قوات مقيمة في دفناي والفنتينا. ولقد صادف أن إحدى هذه الحاميات ظلت تخفر الموقع،

دونما استبدال طوال ثلاث سنوات، فكان ذلك سبباً في ثورة الجند والرحيل إلى أثيوبيا. فلما بلغ خبرهم بسميتاك، جهز حملة لمطاردتهم. وكان أن جرت له مقابلة معهم، وحاول حملهم على العودة ثم استرضاهم، ورجاهم ألا يتخلوا عن آلهة بلدهم ويهجروا أزواجهم وأولادهم. فرد عليه أحدهم، وأشار بيده إشارة غير لائقة، قائلاً: «كلا، إننا لن نعود، والنساء لا ينضبن فهن كثيرات، ولا ريب أننا واجدون أزواجاً وأطفالاً لنا حيثما حللنا. ولما بلغ هؤلاء الجند أرض أثيوبيا وضعوا أنفسهم في خدمة الملك، فأقطعهم أرضاً كانت لبعض الأثيوبيين الذين فقدوا الحظوة لديه، وأمرهم بطرد سكانها لتكون لهم. وكان من شأن هذه المستوطنة أن جعلت أخلاق المصريين وعاداتهم تشيع بين الأثيوبيين وتهذب من طباعهم وأساليبهم في الحياة.

وهكذا عرفنا مجرى النيل في مصر، وعلى مدى رحلة من أربعة أشهر، إن في ركوب النهر أو المسير براً، بعد حدود مصر، وهو الزمن الذي تستغرقه الرحلة من ألفنتينا حتى بلاد الفارين[١٥]. والنهر يتجه هناك من الغرب إلى الشرق. أما بعد ذلك فليس ثمة من يملك معلومات مؤكدة عن أحوال البلاد، إذ إنها تخلو من السكان، فلا يستقر فيها إنسان لشدة القيظ فيها. ولقد أخبرني بعض أهالي كيرينه[١٦] أنه صادف أن كانوا في زيارة معبد آمون، وفيما هم في الحديث مع الملك الآموني اتياركوس تطرق الكلام إلى النيل، وجهل الناس بمنابعه فذكر اتياركوس أن بعض النسمونيين[١٧] جاؤوا إلى قصره فلما سألهم أن يصفوا له المناطق غير المأهولة من ليبيا، أخبروه أنهم قوم من الليبيين يسكنون سرت، وهي أرض ليست بالواسعة تقع في شرق البلاد. وأفادوا بأنهم نشؤوا بين بعض الفتيان، من أبناء كبار القوم، الذين عرفوا بالرعونة، فلما بلغوا مبلغ الرجال سلكوا كل طرق المغالاة في المغامرة، ومن ذلك أن اختاروا من بينهم خمسة لرحلة لاستكشاف مجاهل صحراء ليبيا، والتوغل إذا أمكنهم في مناطق لم يخوضوا فيها من قبل. يمتد ساحل ليبيا على البحر الأبيض المتوسط

من مصر حتى رأس صولوييس، وهو أقصى نقطة، وتسكنه مختلف القبائل الليبية، إلا بعض أجزائه التي يسكنها الفينيقيون والإغريق.

أما المنطقة جنوب الساحل، فتحفل بالوحوش الضارية، وإذا تجاوزها المرء كانت المنطقة الصحراوية، وهي شحيحة المياه، وأرضها صحراء رملية برمتها. ولذلك فقد خرج هؤلاء الفتية إلى مهمتهم وهم يحملون الكثير من الماء والمؤن ليخوضوا بادئ الأمر في أرض غير مأهولة، ثم ليعبروا أرض الوحوش، وبعدها ولجوا الصحراء. وكان مبدأ دخولهم من الشرق باتجاه الغرب. وبعد رحلة عدة أيام أمضوها في المسير عبر الرمال صادفتهم في النهاية أرض ذات شجر، فلما بلغوا تلك الأرض وجدوا أشجارها مثمرة فأخذوا في قطفها. وفيما كانوا منهمكين في القطف أطبقت عليهم جماعة قاماتهم شديدة القصر فأسرهم هؤلاء واقتادوهم إلى حيث شاؤوا. وكان ما سمعه هؤلاء النسمونيون من نطقهم كلاماً غير مفهوم، كذلك لم يفهم أولئك الأقزام لغة النسمونيين. ولقد أقتاد أولئك الرجال الفتية النسمونيين ومضوا بهم عبر أرض من المستنقعات حتى بلغوا في النهاية بلدة، فرأوا فيها الناس جميعاً قصاراً شأنهم شأن مختطفيهم، وبشرتهم سوداء. وشاهدوا هناك نهراً عظيماً يمر بجانب البلدة ويجري من الغرب إلى الشرق وتسبح فيه التماسيح.

وحسبنا ما بلغنا من رواية اتياركوس الأموني، ولن أزيد سوى ما نقله الليبيون عنه من أن جماعة الفتية عادت إلى البلاد بسلام، وقوله إن أهل تلك البلدة قوم من السحرة. أما النهر الذي يمر ببلدتهم فكان في رأيه نهر النيل؛ وهذا رأي له سند من المنطق. ذلك أن نهر النيل يخرج فعلاً من ليبيا ويشطرها في الوسط إلى شطرين، وأرى، بالاستنتاج، ومعرفة المجهول من المعلوم، أنه يبعد عن مصبه بذات القدر الذي يبعد فيه نهر الاستير (الدانوب) عن مصبه إذ ينبع في بلاد الكليتين، قريباً من مدينة البيرنه، ويمر في وسط أوروبا فيشطرها شطرين. وهؤلاء االكلتيون يسكنون البلاد وراء أعمدة هرقل مجاورين

الكينيسيين[١٨] في أقصى غرب أوروبا. وهكذا يجري الاستير في كل أرض أوروبا قبل أن يصب في نهاية المطاف في بحر أوشينه (البحر الأسود) عند استريا، وهي إحدى مستوطنات الملطينيين.

إن هذا النهر يمر بمناطق مأهولة وبالتالي كان مجراه معروفاً؛ وأما منابع النيل فلم يأت من يخبرنا بأمرها، لسببين هو أن ليبيا التي يخترقها النهر منطقة صحراوية غير مأهولة. ولقد عرضت وصف هذا النهر بقدر ما توفر لي من العلم بعد السؤال والاستفسار وعلمنا أن النيل يدخل مصر من منابع تقع بعيداً عنها ثم إن موقع مصر يقابل أو يقع جنوب جبال قليقليا، حيث يمكن للمسافر إذا كان خفيف المتاع، أن يبلغ سينوبية على البحر الأسود في خمسة أيام، حين يسلك الطريق الواصلة إليها مباشرة. فأخلص من ذلك إلى القول إن النيل الذي يخترق ليبيا كلها يعادل طول نهر الأستير. وهذه خاتمة الكلام في أمر النيل.

وأما مصر فسوف أطيل الحديث في أمرها، وهي البلد الذي لا مثيل له فيما يحتويه من الأعاجيب الكثيرة والآثار التي تنأى عن الوصف. وليس المناخ ولا الأنهار كل ما تنفرد به مصر عن سواها من بلدان العالم، بل إن أهلها يختلفون في الكثير من أخلاقهم وعاداتهم عما هو شائع بين البشر. فالنساء يشتغلن عندهم في التجارة والبيع والشراء، بينما يركن الرجال إلى البيت ويشتغلون بالحياكة؛ ونهج المصريين في الحياكة غير نهج العالم، إذ جرت العادة عموماً على أن يكون نسج اللحمة والسداة نحو الأعلى، رأينا المصريين يعكسون الآية فيكون النسج نحو الأسفل؛ كذلك جرت نساؤهم على حمل الأثقال على أكتافهن، بينما يحملها الرجال على رؤوسهم[١٩]. وعهدنا بالمصريين أنهم يتناولون طعامهم في الطرقات، بينما يلجؤون إلى البيوت لإراحة أنفسهم وراء الأبواب، ويقولون في ذلك أن المنفر من الضرورات جدير بأن يتم سراً، وعلناً مالا يشين. والمرأة عندهم لا تتولى الكهانة، سواء اتصل الأمر بإله أو إلهة، أما الرجال فيقومون بخدمة الاثنين؛ والأبناء لديهم لا يعيلون ذويهم، إلا إذا شاؤوا ذلك طوعاً، أما

البنات فالإعالة واجبة عليهن. سواء رغبن بذلك أم لم يرغبن.

ولقد ألف الكهنة أن يطلقوا شعرهم، أما في مصر فيحلقون رؤوسهم؛ وألفنا أن يقص الأهل شعرهم عند وفاة القريب، لكن المصريين الذين يدأبون على حلاقة الرأس في المناسبات يطلقون لحاهم وشعر الرأس حين يموت لهم قريب. كذلك جرت العادة على أن يعيش الناس بعيداً عن الحيوان، إلا المصريين الذين يعيشون وحيواناتهم دائماً إلى جانبهم؛ والناس من الأقوام الأخرى يجعلون طعامهم من القمح والشعير، لكن ذلك من العيب في مصر حيث إنهم يؤثرون خبز الحنطة، ويسمونه « زي ». وهم يعجنون الدقيق بأقدامهم، ولكنهم يستخدمون اليدين في خلط الطين بل وفي حمل التراب وقذر الحيوان. والمصريون ينفردون عن سواهم في العالم ـ بالختان ـ ولعل هناك من يشاركهم هذه العادة، وهؤلاء أخذوا هذا التقليد عنهم. ولباس رجالهم من قطعتين، أما النساء فلباسهن قطعة واحدة. وهم يكتبون أو يدونون الحساب من جهة اليمين إلى اليسار، بدلاً من العكس على عادة الإغريق، ثم تجدهم يشددون القول على أن أسلوبهم هذا أفضل أسلوب، ويدعون أن نهجنا في الكتابة والتدوين نهج الأشول وبه تكلف يضيق به المرء. ولديهم نوعان من الكتابة مقدسة وعامة[٢٠].

والمصريون متدينون إلى حد الإفراط، دونهم كل شعب آخر، ولهم في ذلك طقوس فتراهم يشربون من كؤوس من النحاس يدأبون على تنظيفها كل يوم. ثم إنهم يرتدون الملابس المنسوجة من الكتان التي يحرصون على أن تكون أبداً نظيفة. ومن عاداتهم الختان حرصاً على النظافة، ولها عندهم المقام الأول. والكهنة حريصون على تنظيف أجسامهم من الشعر كل يومين لئلا يعلق بهاالقمل أو ما شابه ذلك، وهم يؤدون الطقوس الإلهية. وأرديتهم مصنوعة كلها من الكتان، أما أحذيتهم فمن أوارق البردي، ذلك أنه من المحظور عليهم استخدام غير الكتان في اللباس والبردي للانتحال. وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين نهاراً ومرتين ليلاً؛ وذلك فضلاً عن تكلفهم آلاف المراسم. ولكن لئن كانت

المراسم والطقوس تستغرق حياتهم فلديهم مزايا ليست بالقليلة. ذلك أنهم ما كانوا بحاجة لمس ممتلكاتهم ولا يضطرون لدفع ثمن ما يحتاجون إليه، فكل شيء لهم بالمجان، ومن ذلك أن خبزهم المصنوع من الذرة المقدسة يأتيهم كل صباح ومعه الكثير من لحم البقر والماعز، لينال كل واحد منهم حصة وفيرة من هذا وذاك، فضلاً عن مقدار من النبيذ المصنوع من عصير العنب. ولكن من المحظور عليهم تناول السمك؛ أما البقول فهي ممقوتة عند المصريين فلا يزرعونها أو يأكلونها، نيئة أو مطهية، حتى إن الكهنة لا يطيقون أن يقع نظرهم عليها. ولكل إله هناك حشد من الكهنة، وعلى رأسهم كبيرهم؛ وإذا مات أحدهم خلفه ابنه في مكانه. ويعتبر المصريون الثيران من ممتلكات الإله أبافوس (ابيس - الإله الثور)، ولذلك نجدهم يقومون على فحصها بكثير من العناية؛ وهناك كاهن يختص بالبحث في شعر الثور، فإذا وجد شعرة سوداء واحدة، استبعد لنجاسته. والكاهن شديد الدقة في فحص الثور بين يديه، فتجده يقلبه على كل وجه وجانب، واقفاً ومستلقياً، ومن الرأس حتى القوائم والذنب، ثم اللسان بحثاً عن علامات موصوفة، للتأكد من سلامته. ولسوف أعرض تلك العلامات التي يبحث عنها الكاهن، في موقعها. والكاهن حين يتفحص ذنب الحيوان إنما يبغي التأكد من نمو شعر الذنب على النحو السليم. فإذا وجده الكاهن خالياً من العلل أجازه بلف شريط من ورق البردي حول القرنين وعقده بالشمع ومهره بخاتمه، شهادة على سلامته. ثم يقتاد الثور إلى مرتعه؛ وجدير بالذكر أنه يحرم التضحية بحيوان لا يحمل علامة الكاهن، فهذه جريمة يعاقب عليها الفاعل بالموت.

وهاكم نهج المصريين في التضحية - تقاد الأضحية وهي تحمل علامة الكاهن إلى المذبح، وتشعل عندئذ النار ويصب النبيذ على المذبح أمام القربان وترتفع الابتهالات تضرعاً للإله. ثم يذبح الحيوان، ويقطع رأسه، ويسلخ الجلد عنه. ثم تنصب عليه الأدعية واللعنات، ويحمل إذا صادف اليوم افتتاح السوق، وكان في

المدينة تجار من الإغريق، ليباع هناك حيث له رواج عندهم، أما إذا لم يكن هناك أحد من الإغريق ليشتريه، رموا بالرأس في النهر. وتجري الأدعية بأن ينزل الشر الذي يتهدد مصر، أو أصحاب القربان، على رأس الثور المذبوح. ولما كانت تلك الشعائر والأدعية واللعنات والنبيذ المسفوح سائدة في كل أنحاء مصر ومتبعة عند تقديم كافة أنواع الضحايا فأن المصريين لا يأكلون مطلقاً رأس أي حيوان.

وأما طرق التخلص من الأحشاء وحرق الجثث فتختلف باختلاف الأضحية. وسأقتصر في هذا المقام على عرض النهج الشائع في التعامل مع القرابين المقدمة للإلهة التي يبجلونها أشد التبجيل أيزيس ويخصونها بأعظم احتفالاتهم. وقد جرت عادتهم على أن يطلقوا ألسنتهم، بعد سلخ جلد الثور، بالأدعية، فإذا انتهى الدعاء انتزعوا الكرش والأمعاء، تاركين الأحشاء الأخرى والدهن؛ ويعمدون بعدئذ إلى تقطيع أعضائه من القوائم وما بين الأضلاع والظهر والكتفين والرقبة، ثم يحشون الثور بالخبز والعسل والزبيب والتين والبخور والمر وغير ذلك من التوابل ثم يسكبون كميات من الزيت فوق لحم الأضحية ويشوونها، وجرت العادة على أن يصوموا قبل التضحية وأن يضربوا صدورهم بقبضاتهم أثناء شوي اللحم. وإذا انتهى هذا الطقس التفتوا إلى تناول وجبة من الأجزاء التي بقيت.

إن الشائع بين المصريين استخدام الثور النظيف والعجل في الأضاحي، أما الأنثى فيتجنبونها في تقديم القرابين، فهي مقدسة عند الإلهة أيزيس. وتصور هذه الإلهة في شكل امرأة ذات قرنين، كالبقرة، وتشبه في هذا صورة أيوا عند الإغريق؛ والمصريون عموماً يقدسون البقرة، ودونها عندهم كل الحيوانات الأخرى. ولذلك فإنك لا تجد مصرياً أو مصرية يقبل إغريقيا، أو يستخدم سكيناً لإغريقي، أو سفوده أو حلته، ولا تراه يأكل لحم ثور، ولو كان طاهراً، إذا استخدمت في ذبحه سكين اغريقي. وإذا مات أحد الثيران كانت لهم طرق في

دفنه، فالأنثى ترمى في النهر بينما يدفن الذكر في ضواحي المدن، ويحرصون أن يبرز من الأرض أحد قرنيه أو كلاهما، لتعيين موقعه. وعندما ينال التفسخ من بدن الحيوان يأتي قارب في الوقت المحدد من جزيرة بروسوبيتيس ـ وتقع في منطقة الدلتا، ويبلغ محيطها تسعة شوينات ـ ويطوف بالمدن لنقل عظام الثيران. وبروسوبيتيس منطقة تضم عدة مدن، أما المدينة التي تأتي منها السفينة فهي أثار بيتشيس[٢١]، وفيها معبد مكرس للآلهة أفروديت (سيخمت) ولها عند القوم إجلال كبير. وقد جرت العادة على أن يمضي الناس في أعداد غفيرة من هذه المدينة إلى المدن الأخرى للتنقيب عن العظام لدفنها في مقبرة واحدة. وهذا إجراء في الدفن يطبق بمقتضى القانون على كل الماشية الأخرى، حين تموت موتاً طبيعياً.

والمصريون الذين يتبعون معبد زيوس (آمون) في طيبة، أو يعيشون في ناحيتها لا يضحون بالغنم، وإنما يقدمون الماعز وحدها قرابين للآلهة، وآية ذلك أن المصريين لا يجتمعون إلاعلى عبادة أيزيس وأوزيريس، ويدعون أن أوزيريس هو ديونيسوس إله الخمر عند الإغريق. أما أهل معبد منديس، أو من يعيشون في ضواحيهم فلا يضحون بالماعز، وإنما يجعلون قرابينهم من الغنم. وقد جرى أهل طيبة وأضرابهم على منوالهم، ويعزون امتناعهم عن التضحية بالغنم إلى قصة هرقل (خنصو بن آمون ـ رع وموت) الذي استبد به التوق لرؤية زيوس (آمون) الذي لم يشأ لهرقل أن تتحقق رغبته. أما هرقل فظل على إلحاحه والإله على إعراضه، حتى طلع بحيلة ـ فأتى بكبش وسلخ جلده وقطع رأسه ووضعه أمامه بينما غطى جسمه بجلد الكبش. وهكذا كان أن ظهر الإله بهذه الحلة لهرقل. ذلكم هو سر تصوير آمون ـ رع عند المصريين وله وجه الكبش، وعنهم أخذ اتباع آمون من الأثيوبيين والمصريين هذا المذهب ـ وهم ينطقون بلغة هي مزيج من لغة هذين العنصرين؛ وهذا أيضاً، في اعتقادي، السبب الذي يجعل الأثيوبيين يتخذون اسم الأمونيين، نظراً لأن المصريين يسمون زيوس آمون. مما

يفسر امتناع أهل طيبة عن التضحية بالكباش، واعتقادهم بقداستها. ولقد جرى القوم، على كل حال، على أن يقيموا كل عام احتفالاً لزيوس (آمون) يذبحون فيه كبشاً، ويسلخون جلده ويرمونه عند تمثال ذلك الإله، ذكرى لما حدث ذات يوم، ثم يقودون تمثال هرقل باتجاه تمثال زيوس. ثم يأخذون في ضرب صدورهم أسى وحداداً على الكبش، وفي النهاية يدفنونه في قبر مقدس. ولقد قيل لي إن هرقل هذا أحد الآلهة الاثني عشر. أما هرقل الآخر المألوف عند الإغريق فلم يبلغني شيء من خبره في أي بقعة من مصر. أما أن الإغريق - أعني أولئك الذين خلعوا هذا الاسم على ابن آمفتريون - قد أخذوا هذا الاسم عن المصريين، وليس العكس، فقول يمكن البرهان عليه في أن والدي هرقل، آمفتريون وألكمينا، أصلهما مصري. والمصريون ينكرون معرفتهم ببوسيدون (إله البحر) وديوسكوري (إله البحارة) ولا يعدونهم بين آلهتهم، ولو أنهم أخذوا الآلهة عن الإغريق فمن المؤكد أن هذين الإلهين كانا من أوائل الآلهة التي تسترعي انتباههم، نظراً لإن المصريين كانوا يمارسون الملاحة يومذاك، كما كان بعض الإغريق يمتهن الملاحة في ذلك الحين، ولذلك فمن الممكن أنهم كانوا سيعرفون أسماء هذين الإلهين قبل معرفتهم لاسم هرقل. ولكن هرقل المصري من آلهتهم القديمة. ويقولون إن تلك الآلهة، وهي اثنا عشر إلهاً، نشأت عن ثمانية من الآلهة، ويرجع عهدها إلى سبعة عشر ألف سنة قبل الملك أمازيس، ومن تلك الآلهة هرقل. ولقد حملني الحرص على معرفة تلك الأمور على وجه الدقة ما جعلني أضرب عصا الترحال إلى مدينة صور في بلاد الفينيقيين، إذ بلغني أن فيها معبداً لهرقل (ملقارت) يجله أهل تلك البلاد ويعظمون أمره أشد التعظيم. فلما بلغت تلك البقاع زرت ذلك المعبد فوجدته غنياً بالنذور، ومن ذلك عمودان أحدهما من الذهب الخالص والآخر من الزمرد، يتلألآن ببريق يخطف الأبصار للناظر إليهما في الليل. ولقد سألت الكهنة في حديثي معهم عن تاريخ هذا المعبد فكان أن علمت من إجابتهم بأنهم هم أيضاً يخالفون الإغريق في تحديد تاريخ

بناء المعبد. فيقولون إنه بني والمدينة في آن واحد، وكان بناء المدينة قبل ألفين وثلاثمئة سنة. وصادفت بعدئذ معبداً آخر للإله ذاته، ويتوجه إليه المتعبدون باسم هرقل الثاسياني. وعليه فقد تهيأت للسفر ورحلت إلى ثاسيوس ووجدت فيها معبداً لهرقل بناه الفينيقيون الذين استوطنوا هذه الجزيرة وهم يجوبون البحر بحثاً عن أوروبا. ولكن حتى هذا المعبد يعود على حداثته إلى عهد أقدم ويسبق مولد هرقل بن امفترايون في اليونان بخمسة أجيال. وتبين هذه التحريات جلياً وجود إله قديم عرفه الناس باسم هرقل؛ وفي اعتقادي أن الإغريق كانوا حكماء في إنشائهم معبدين، أحدهما مكرس لهرقل الخالد الإله والمنسوب إلى جبل أولمب، والثاني لتكريم البطل الإنسان.

ولقد أفاض الإغريق في رواية الروايات دون تمحيص ومنها خرافة رويت لي عن هرقل، فقالوا إن هرقل زار مصر ذات مرة، فاصطحبه قوم هناك، وقد زينوا رأسه بإكليل، وساروا به في موكب مهيب وهم يقصدون أن يجعلوا منه قرباناً لزيوس (آمون) فرضخ لهم مسايراً مسافة من الدرب، إلا أنه حين وجدهم قد ساروا به إلى المذبح وبدأوا في مراسم التضحية، استنفر قواه ونزل بهم قتلاً حتى لم يُبقِ منهم أحداً. والحق أن هذه الرواية إنما هي برهان على جهل الإغريق بطبائع وعادات المصريين. ذلك أن القوم هناك يحظرون تقديم الأضاحي من الحيوانات، باستثناء الأغنام والماعز والثيران والعجول، التي تجتاز امتحان النظافة. فكيف يصدق أنهم يضحون بالبشر؟ ثم كيف يمكن لهرقل، وهو الذي يقولون إنه إنسان من البشر ليس إلا، أن يقضي على آلاف الناس؟ وأقول هذا دون أن أقصد التقليل من شأن إله أو بطل.

ولقد سبقت الإشارة أن بعض المصريين المينديسيين[٢٢] من يأبى التضحية بالماعز، ذكراً كان أم أنثى. أما السبب في هذا فهو التالي - واعلموا، إذن، أن هؤلاء المصريين من أهل مينديسه، يعتبرون «بان» (رام الميندیسي) إله الرعاة والمراعي، من بين آلهتهم الثمانية السابقين للآلهة الاثني عشر. ويصوره

الرسامون والنحاتون في مصر على صورته عند الإغريق، أي بوجه وقوائم التيس. ومع ذلك فإن أصحاب هذا الإله لا يعتقدون بأن هذه صورته، بل يرون أنه لا يختلف عن غيره من الأرباب، وإنما يصورونه على هذه الصورة لسبب أؤثر الصمت عنه. وأهل ميند يسه يجلون الماعز وبالأخص الذكور منها، كما يجلون راعيها ويخصونه بأعلى مراتب الشرف بين الرعاة الذين يتفاوتون في درجات التشريف، وإذا مات أحدهم حزن الناس لفقدانه وأقاموا له مأتماً عظيماً في كل أنحاء المنطقة. والمصريون، بعد، يطلقون ميند يسي على الماعز والإله «بان» معاً.

ويعتبر المصريون الخنزير حيواناً نجساً، حتى إن المرء إذا مسه هذا الحيوان، ولو مساً خفيفاً، أو عرضاً، هرع إلى النهر ليغطس فيه بكل ما يرتدي من اللباس. ولذلك وجدنا المصريين يحرمون دخول صاحب الخنازير معابدهم، ولو كان الرجل مصرياً قحاً، وهو وحده المحروم دون كل المصريين من هذا الشرف؛ كذلك لا ترضى أسرة بمصاهرته، فلا يزوجونه من بناتهم، ولا يتزوجون من بناته ولذلك فإن أصحاب الخنازير يتزاوجون فيما بينهم والمصريون لا يقدمون الخنزير لأي من آلهتهم سوى ديونيسوس (أوزيريس) وربة القمر (إيزيس)، ويقيمون لهما الأعياد ويحتفلون بهما في ذات الموعد كل عام، بتضحية الخنازير لهما، حين يكتمل القمر، ثم يأخذون في أكل لحمها بعد تقديم القرابين. ويذهب المصريون في تبرير نفورهم من الخنزير في المواسم الأخرى وتوسلهم بها في هذا الاحتفال لسبب أعرفه جيداً ولكني أمسك عن عرضه حرصاً على اللياقة. وسأعرض ههنا أسلوبهم في التضحية بالخنزير، تزلفاً للقمر - يجمع الذنب والطحال وغشاء المعدة، بعد الذبح، ويلف ذلك كله بالشحم المنتزع من جسم الخنزير ويحرق حتى يتلاشى. أما اللحم فيؤكل في يوم الذبح، أي يوم اكتمال القمر، بينما يعرضون عنه في الأيام الأخرى ولا يقربونه. وقد جرى الفقراء الذين لا يقدرون على مثل هذه الأضاحي المكلفة على تقديم كعك بصورة

خنزير، بدلاً من الخنزير الحي.

و جرت العادة على أن يقدم كل مصري لأوزيريس في عيده، خنزيراً معداً لهذه المناسبة، فيقوم بذبحه عند باب داره، ويقدمه بعد ذلك إلى مربي الخنازير الذي اشتراه منه ليحمله بعيداً عن الدار. ثم تجري الاحتفالات بهذه المناسبة وهي مطابقة في طقوسها لما يجري في بلاد الإغريق في عيد ديونيسوس، سوى أن المصريين يأخذون بالرقص والغناء في مناسباتهم. وهم لا يتوسلون بعرض القضيب، عضو الذكر، في أعيادهم، وإنما يلجؤون إلى أحد ابتكاراتهم، وهو عبارة عن تماثيل بطول ذراع ويحركونها بوساطة خيوط، وتحملها النساء إلى القرى، يتقدمهن عازف ناي وهن يتبعنه، شاديات الترانيم في مدح أوزيريس. وقد علمنا أنهم يضفون دلالات دينية على أجزاء تلك التماثيل.

ولست أحسب أن ميلامبوس[٢٢] بن أميثيون كان يجهل ذلك الاحتفال، بل إنه كان، على ما أتصور، عارفاً به. فلقد كان هو الذي عرف الإغريق باسم ديونيسوس، وطقوس عبادته، والاحتفال بالقضيب. ولكن الرجل لم يكن محيطاً بكل العقيدة ليستطيع عرضها بكل تفاصيلها، ثم أخذها عنه بعض أهل الحكمة وعملوا فيها تطويراً وتنقيحاً حتى غدت أقرب إلى الكمال. ومع ذلك فالمؤكد هو أن ميلامبوس هو من أدخل عبادة القضيب وعنه أخذ الإغريق طقوسها التي يؤدونها اليوم. والرأي عندي أن ميلامبوس، وكان من الحكماء، وعرف فن التنجيم، اقتبس ديانة أوزيريس من المصريين، ثم أدخلها إلى بلاد الإغريق معدلة، ومعها بعض الممارسات الأخرى؛ فلست أرى المنطق يقبل القول إنه من المصادفة أن تتشابه الطقوس بعبادة ديونيسوس وتلك التي يأخذ بها المصريون إلى هذا الحد، ولو كان في الأمر مصادفة لرأينا طابع الإغريق غالباً عليها، ولكانت عندهم أقدم عهداً. لا ولست أحسب أن المصريين أخذوا هذه الديانة عن الإغريق أو سواهم. والأرجح عندي أن ميلامبوس أخذ هذه العبادة عن قدموس الصوري ومن أتوا معه من بلاد الفينقيين إلى بواطيا. إن أسماء الآلهة كلها جاءت إلى بلاد الإغريق من مصر. وقد وجدت بعد البحث والاستقصاء أن هذه

الأسماء مستمدة من أصل أجنبي، وعندي أن القدر الأعظم منها ورد من مصر. وحجتي في ذلك أن الآلهة التي يتوجه إليها الإغريق عدا بوسيدون وديوسكوري اللذين ورد ذكرهما من قبل وهيرا ، وهيستا وتيمس والجراسيسيات والنييريدات (حوريات البحر الأبيض المتوسط) كانوا معروفين في مصر منذ أقدم العصور. أما الآلهة التي يجهلها المصريون، فأخذها الإغريق، على ما أحسب، عن البلاسجة، عدا بوسيدون الذي عرفوا به عن طريق الليبيين، وله عندهم أعظم مقام، كما أنهم الشعب الوحيد الذي يعبد إلهاً بهذا الاسم. ويختلف المصريون، بعد، عن الإغريق في أنهم لا يسرفون في تعظيم الأبطال، ولا يولونهم مكانة الآلهة السامية.

وهناك العديد من العادات الأخرى التي أخذها الإغريق عن المصريين، غير ما سلف فيها القول، وسأفصل في الحديث عنها لاحقاً. ولكن الجدير بالتنويه هنا أن عادة الإغريق في تصوير هرمس منتصب القضيب لم يكن مصدره المصريون بل البلاسجة؛ وقد كانت مدينة أثينا أول من أخذ عنهم عبادة هرمس، وعن الأثينيين أخذ الإغريق هذا المذهب؛ وكان مبدأ الأمر والأثينيون على وشك الإنضمام إلى الجامعة الهيلينية والبلاسجة قد حلوا بينهم في بلادهم، و باتوا يعدون من الإغريق منذ ذلك اليوم. ومن يعرف أسرار الكابيرية(٢٤) يدرك معنى كلامي. وقد تلقى السموتراقيين تلك الأسرار عن البلاسجة، وكانوا يسكنون سموتراقية(٢٥) قبل انتقالهم إلى آتيكا، ومن ثم نقلوا إليهم طقوسهم، وعنهم أخذها الأثينيون الذين كانوا أول من صنع تماثيل هرمس على هذا الشكل، وأخذوا طقوس عبادته عن البلاسجة، وهؤلاء أصحاب هذا الدين الذي نجد شرحه في الأسرار السموتراقية.

وكان البلاسجة(٢٦) قديماً، كما عرفت أثناء إقامتي في دودونا(٢٧)، يقدمون القرابين كيفما اتفق ويتضرعون إلى الآلهة دون تسميتها، إذ لم يكونوا يعرفون أسماءها، ولا يميزون إلهاً من آخر. وكان المألوف أن يسموها آلهة بمعنى «

القدرة »، لأنها هـي التي رتبت أحوال العالم على هـذا النحو من الروعة. ثم بعد عهد طويل وردت أسماء الآلهة من مصر، وعرفها البلاسجة، ولكنهم ظلوا مع ذلك يجهلون أمر ديونيسوس ولم يعلموا به إلا في عهد متأخر. ولما وردت الأسماء بعث البلاسجة يسألون كهنة معبد دودونا في أمرها. وكان هذا أقدم معبد، والوحيد، في بلاد الإغريق كلها. ولما سئلت الكاهنة إن كان يجدر بهم اعتماد الأسماء الأجنبية المستوردة؟ أجابت محبذة استخدام تلك الأسماء. فلما أجازت الكاهنة تلك الأسماء، أصبح البلاسجة يتوسلون بأسماء الآلهة في المراسم والأضاحي، وعنهم أخذها الإغريق.

أما أصل الآلهة وقدمها، أعني إن كانت قد وجدت منذ أن كان الزمن، والأشكال التي هي عليها، فقضايا لم تكن لتخطر للإغريق ببال، حتى البارحة، إذا جاز التعبير. والحق أن هوميروس وهسيود كانا أول من بحث في أصل الآلهة وسلالاتها، ووصفها للإغريق، وحددا مراتبها وأخبرا عن أعمالها؛ وقد عاش هذان قبل نحو من أربعمئة سنة، على ما أحسب، من مولدي(٢٨). أما الشعراء الذين يعتقد البعض أنهم أقدم فهم قطعاً، في تقديري، كتاب أحدث عهداً. وقد اعتمدت في بحث هذه الأمور على ما أنبأتني به الكاهنات في دودونا عن ثقة، وكنَّ مرجعي فيما سلف القول؛ وأما ما قلت في أمر هوميروس وهسيود فهو رأيي الخاص.

إن الرواية التالية حول منشأ معبدي دودونا في بلاد الإغريق وآمون في ليبيا رواية شائعة في مصر، وقد نقلتها عن كهنة في معبد آمون في طيبة. والروايةعندهم أن الفينيقيين اختطفوا امرأتين من أهل القداسة وباعوهما فكان نصيب إحداهما أن تحط في ليبيا، أما الأخرى فانتهى أمرها إلى بلاد الإغريق. وكانتا أول من بنى معبداً في هذين البلدين. ولما سألت محدثي كيف أمكن لهم معرفة مصيرهما أجابوني بأن القوم بعثوا من يستقصي أخبارهما يومذاك، وعلموا بنبأهما بعد مشقة وعناء.

ذلكم ما بلغني من الكهنة في طيبة؛ أما العرافات في معبد دودونا فلهن

روايتهن وخلاصتها أن حمامتين سوداوين طارتا من طيبة المصرية، فحطت واحدة في ليبيا، بينما اتجهت الثانية إلى دودونا واستوطنتها، وكان مقامها فوق شجرة بلوط، وشرعت تنطق بلسان البشر، وأشارت لمستمعيها بأن يبنوا لزيوس معبداً في تلك البقعة. وقد فسر من سمعها أن ما جاء على لسان الحمامة أمر من السماء فصدعوا له. وكان من شأن الحمامة الأخرى أن تبني كذلك معبداً لآمون في ليبيا. وأما هذا المعبد الذي أحدثكم عنه فهو خاص بعبادة زيوس. وقد حدثتني في هذا الأمر ثلاث كاهنات من الدودونا، وكانت أكبرهن سناً برومينيا، تليها تميريته أما نيكاندرا فأصغرهن سناً. وكانت روايتهن مطابقة لما رواه لي البعض ممن يقيمون حول المعبد.

وقولي فيما عرض هو أنه إذا كان الفينيقيون قد اختطفوا حقاً القديستين وباعوهما في سوق الرقيق في ليبيا وبلاد الإغريق، فإن التي بيعت للإغريق إنما بيعت للثيسبروتيين ثم كان أن أقامت هذه المرأة، معبداً لزيوس (آمون)، تحت شجرة بلوط. إذ من الطبيعي أن تتذكر في غربتها الإله الذي كانت تخدمه في موطنها قبل اختطافها. فلما امتلكت لغة الإغريق، أقامت هذا المعبد تذكرة لحياتها في بلدها، يدفعها إلى ذلك حنين إلى أهلها ومربعها، ولا ريب بأنها حدثت القوم يومئذ في أمر شقيقتها التي بيعت في ليبيا.

وأحسب أن أهالي دودونا كانوا يقصدون حين أطلقوا حكاية الحمامتين الرطانة الغريبة على آذانهم، في لغة المرأة، كأنها الهديل، ثم أصبحت تنطق بلغة البشر، حين انقطعت عن الكلام بلغتها الغريبة، وأصبحت تتحدث بلسان أهل البلاد، فبات كلامها مفهوماً لديهم. وإلا فكيف يمكن لحمامة أن تتحدث بلغة البشر؟ وأما وصف لون الحمامة بالأسود، فهو إشارة إلى أصل المرأة المصري. ولا ريب عندي أن المعبدين في طيبة ودودونا يجمع بينهما شبه شديد. ولقد أخذ الإغريق عن المصريين شكلاً من العرافة، وأسلوبهم فيه أن تتفحص الكاهنة جثث القرابين التي تقدم لتقول نبوءتها.

وكان المصريون أول من ابتدع الطقوس الجماعية والاحتفالات وتقديم القرابين والابتهالات للآلهة، وعنهم أخذ الإغريق هذه الأساليب. ويبدو لي أن سبق مصر في هذه الطقوس وقدم عهدها بها، وحداثة الإغريق فيها دليل كاف على ذلك.

والمصريون لا يقتصرون على إقامة احتفال ديني واحد كبير وإنما العهد بهم أن يقيمواعدة طقوس على مدار العام، ويقام أضخمها، وهو احتفال يتنادى إليه أكبر جمع من الناس، في مدينة بوباستيس وسط الدلتا، وهو احتفال مكرس للإلهة ارتميس (بوباستيس). يلي هذا الاحتفال في الأهمية ذاك الذي يقام في بوزيريس، وسط الدلتا، وهوعيد أيزيس التي يسميها الإغريق ديميتر (أوسيريس). وهناك احتفال عظيم، بعد، يقام في مدينة سايس، تكريماً للإلهة أثينا (نيت)، وآخر لإله الشمس رع في هيليوبولس و في بوتو للإلهة ليتو و لآريس في بابرميس.

وهأنذا أعرض للمراسم التي تجري في هذه المناسبة في بوباستيس: يحضر الرجال والنساء معاً في حشود بالقوارب، وبعض النساء يضربن بالصناجات وبعض الرجال ينفخون في الناي، طوال الرحلة؛ ويمضي بقية الرجال والنساء في الغناء والتصفيق بأيديهم. وحين يمرون قبالة مدينة أو بلدة يقتربون منها، ويأخذون في مناداة نسائها، وشتمهن بأقذع العبارات، بين غناء النساء اللواتي نزلن مع الرجال ورقص بعضهم، فيما يكشف البعض عن عوارته أمام الناظرين. ثم يمضي الجمع في متابعة الرحلة في النهر حتى يصلوا بوباستيس، حيث يحتفل بالعيد بتقديم القرابين والأضاحي. وهناك يستغرق أصحاب الاحتفال في شرب النبيذ أكثر من أي عيد آخر. ويذهب أهل المنطقة إلى أن عدد المحتفلين من البالغين من الرجال والنساء، دون تعداد الصغار، يبلغ في هذه المناسبة سبعمئة ألف شخص.

لقد سبق الحديث عن الطقوس التي تقام احتفالاً بالإلهة أيزيس، في

بوزيريس. والعهد في هذا العيد أن يأخذ الرجال والنساء سواء بسواء في ضرب أنفسهم مع اقتراب الخاتمة، تكريماً لإله تمنع تعاليم الدين الإعلان عن اسمه. والكاريون المقيمون في مصر يمضون شوطاً أبعد في هذا الاحتفال، فيعمدون إلى شطب وجوههم بالسكاكين ليعلم الناس أنهم ليسوا من المصريين وإنما أغراب يشاركون في الاحتفالات.

وقد جرت سايس على أن يجتمع الناس ليلة واحدة لتقديم القرابين، يعمدون عندئذ إلى نشر الأنوار في الهواء الطلق حول بيوتهم؛ ويستخدمون في ذلك مصابيح هي في الواقع صوان يملؤونها بمزيج من الزيت والملح وفوقها يطفو الفتيل. وتظل هذه المصابيح أو المشاعل متقدة طوال الليل، ولذلك فهم يسمون هذا الاحتفال عيد المصابيح. ولا يضير المرء أن يكون غائباً عن هذه الطقوس ليحتفل بليلة القرابين، فتجد الغائبين ينافسون الحضور في احتفالاتهم بإشعال المصابيح على أوسع نطاق؛ وهكذا يتجاوز الاحتفال منطقة سايس حتى يعم مصر كلها. و لهذا الطقس وما يرافقه من إضاءة وإنارة مقام عظيم في ديانة القوم هناك.

واعلموا بعد أن الاحتشاد في هيليوبوليس وبوتو[٢٩] إنما يكون لتقديم القرابين فحسب؛ أما في بابرميس فالطقوس هنا هي ذاتها التي تجري في سواها من المدن، ويضيفون إليها طقساً خاصاً بهذه المدينة فإذا انحدرت الشمس إلى المغيب لم تجد إلا قلة من الكهنة على حالهم من الانشغال بتمثال الإله الذي يعبدون، بينما ترى أغلبهم قد حملوا العصي والهراوات واتخذوا مواقعهم عند بوابة المعبد. وترى مقابلهم ألفاً من الرجال المسلحين بالعصي والهراوات كذلك، مستغرقين في الدعاء والابتهال، أما تمثال الإله فيتم الاحتفاظ به في المصلى المصنوع من الخشب والمغطى بصفائح الذهب وينقلونه من المعبد إلى بناء آخر مقدس في اليوم السابق للاحتفال، ثم يعمد الكهنة القلائل الذين تركوا للعناية به إلى وضع التمثال والمصلى معاً على عربة ذات دواليب أربعة،

ويأخذون بجرها؛ أما الكهنة الآخرون الواقفون عند بوابة المعبد فيعترضون العربة ويمنعون دخولها. وإذا بلغ الأمر هذه النقطة تقدم العباد ليناصروا الإله في المعركة وليدحروا المناوئين، وهم متهيئون بلا ريب للمقاومة. ثم يلي ذلك عراك عنيف تتشابك فيه العصي على الطرفين، ويؤدي إلى موت العدد الغفير من الأنصار والمناوئين، في قناعتي، بسبب ما ينالهم من الجراح، وإن كان المصريون ينكرون ذلك. ويروي أهل البلاد قصة هذا الاحتفال، فيقولون إن أم الإله آريس كانت تعيش ذات مرة في المعبد. ولقد نشأ هذا الإله بعيداً عن أمه، فلما بلغ مبلغ الرجال أراد أن يزورها، فمضى إليها يريد رؤيتها، إلا أن حاشيتها كانت تجهل أمره، فلم تسمح له بمقابلتها وأبعدته عنها. وكان أن رحل إلى مدينة أخرى وهناك جمع حشداً من الرجال وعاد بهم إلى حيث كانت أمه، وتصدى لحاشيتها واشتبك مع أفرادها وأنزل بهم هزيمة نكراء، وأفلح عندئذ في الوصول إلى أمه. وهذا هو كما يقول المصريون أصل معركة العصي في القتال في سبيل آريس.

إن المصريين هم أول من حرم مضاجعة النساء في المعابد، أو إدخالهن العتبات المقدسة دون اغتسال. والحق أنه ما من شعب سوى المصريين والإغريق، يأخذ بهذا النهج، فكل الأمم تعتبر البشر والحيوان في هذه الأمور سواء بسواء. وتقول تلك الأمم إن المرء يصادف الكثير من الحيوانات، ومختلف أنواع الطيور، تتزاوج في المعابد؛ وما كان ذلك ليحدث لو أن الآلهة لا ترضى عنه. وتلك حجج تسوقها الأقوام في الدفاع عن عاداتها، ولكني لا أملك مع ذلك أن أوافق على صحة ما ذهب إليه أصحاب هذا المذهب. والمصريون قوم يحرصون على التقيد بهذه الأمور، كما هو حالهم في كل ما يتعلق بدور العبادة.

ومصر، بعد، لا تحتوي على الكثير من حيوانات البراري، وإن تكن مجاورة لليبيا. والحيوانات مقدسة عند المصريين، مدجنة كانت أم متوحشة. ولو سئلت تفسيراً لتعدد الآلهة عندهم لكان عليّ الخوض في قضايا الدين، وهو أمر تضيق

به نفسي؛ ولئن تناولت بعض تلك القضايا بالعرض فلأن ضرورة التاريخ الذي أنا بصدد تدوينه اقتضت مني أن أمسها مساً رفيقاً. وهأنذا أعرض لعاداتهم في التعامل مع الحيوان. لقد جرى المصريون على تعيين حراس لكل نوع من الحيوانات، ومنهم الرجال كما منهم النساء، ومهمتهم العناية بالحيوانات التي يعهد بها إليهم؛ وهي مهمة شريفة يتولاها الابن عن أبيه. وقد جرت القاعدة على أن يقوم الأهالي في مختلف المدن بوفاء النذور لأي من الآلهة عبر التضحية بحيواناته، على نحو ما سوف أعرض: يقوم المصريون عند تقديم النذور بحلاقة شعر رأس الطفل، أو نصف شعره، أو ربما الثلث، ثم يعمدون إلى دفع ما يعادل وزنه بالفضة، ثم يقدمون هذا المبلغ للحارس، فيقوم بتقديم لحم بعض الأسماك طعاماً للحيوانات. والقوم يعاقبون قاتل الحيوان المقدس عمداً بالموت، أما إذا كان قتله صدفة، فتقع عليه الغرامة كما يشاء الحارس. أما قتل أبي منجل أو الصقر فعقوبته الإعدام حتماً سواء كان ذلك عرضاً أو عمداً.

وفي مصر ما لا حصر له من الحيوانات الداجنة، ولربما كان العدد أعظم لولا ما يصيب القطط. ذلك أن إناث القطط تمتنع عن الذكور بعد الوضع، فيلجأ هؤلاء إلى حيلة يستدرجون بها الإناث فيعمدون إلى اختطاف الصغار وقتلهم بعيداً عن الأمهات، إنما لا يأكلونهم بعد القتل، ولا يكون أمام الإناث للتعويض عن الصغار المفقودة، وهي شديدة الشغف بها، إلا أن تعود إلى الذكور. ومن عجائب المصائب التي تنزل بالقطط في مصر الحرائق؛ فقد ألف المصريون ألا يهتموا حينما يشب الحريق في بيوتهم ولا يتدخلون لإخماده، بينما ينحصر همهم في حماية القطط وإنقاذها من الموت، أو يراقبونها وهي تقفز فوقهم طلباً للنجاة، أو تندفع نحو النار فتموت في لهيبها. وذلك وقت عصيب عند المصريين ينزل بهم كالنازلة، فيغتمون له أشد الغم. وقد جرت العادة عندهم على حلق أهل الدار حواجبهم، حين تموت لهم قطة أو قط موتاً عادياً. أما إذا مات لديهم كلب فيحلقون الرأس وكل الجسم.

والمألوف عند المصريين أن يحملوا القطط الميتة إلى بوباستيس لتحنط، ثم تدفن في مقبرة مباركة مخصصة لها. وأما الكلاب فتدفن حيث تموت، إنما في مقبرة خاصة كذلك. وهذا يصدق على النمس؛ أما إذا مات صقر أو فأر الحقول فالجاري عندئذ أن ينقل الحيوان إلى مدينة بوتو، وأما أبو منجل فمأواه في هيرموبوليس(٣٠). ولكن الدببة النادرة الوجود في مصر، والذئاب، وهي لا تزيد حجماً عن الثعالب، تدفن كلها حيثما نفقت.

أما التماسيح فإليكم وصفها: إن من سمات التماسيح أن تنقطع عن الأكل طوال شهور فصل الشتاء الأربعة، وهي ذات أربع قوائم، وتعيش في المياه وعلى اليابسة سواء بسواء. والأنثى تضع بيضها وتقوم بالحضانة على شواطئ الأنهار، وتمضي معظم النهار على اليابسة، ثم تهجع إلى النهر ليلاً، حيث المياه في هذا الوقت أكثر دفئاً من الهواء وندى الليل. وهذا هو الحيوان الوحيد بين الحيوانات كلها الذي ينمو من أصغر حجم حتى يبلغ حد الضخامة، فبيض التمساح لا يزيد حجمه عن بيض الأوزة إلا قليلاً، وصغير التمساح يكون صغيراً جداً، إلا أن حجمه يزداد حين يكبر، حتى ليبلغ في كثير من الأحيان سبعة عشر ذراعاً (تسعة أمتار)، أو أكثر، وله عينان شبيهتان بعيني الخنزير، وأسنان كبيرة أشبه بالأنياب، وحجمها يناسب ضخامة جسمه. ولكنه يختلف عن الحيوانات الأخرى لافتقاده اللسان، وهو لا يستطيع تحريك فكه السفلي دون العلوي، فينفرد في هذا عن الحيوانات الأخرى في العالم التي تحرك فكها السفلي ولا تحرك العلوي. وللتمساح مخالب قوية وجلد كالحراشف، وهو سميك عند الظهر لا يخترق، والتمساح أعمى في الماء، إلا أنه حاد النظر على اليابسة، ويمضي جل وقته في الأنهار، وفمه أبداً مليء بالعلق. ولذلك تجده مقصداً للطيور، وهو يرتاح إليها، وفي حين أنها تتفادى الوحوش الأخرى، لكنها تقبل على التمساح، حين يغادر الماء وينتجع إلى اليابسة فاغراً شدقيه، ليستريح إلى الهواء العليل الذي يهب من الغرب، فتحط عليه تلك الطيور، وفي مقدمتها الطائر

الطنان، وتدخل فمه وتلتهم ما علق فيه من الدود والعلق، فيستريح التمساح ويسر بهذه الطيور حين تخلصه من تلك المنغصات.

وللتمساح مكانة عالية تبلغ حد التقديس عند بعض المصريين، بينما ينظر إليه البعض الآخر نظرتهم إلى العدو. فأهل طيبة وأولئك الذين يعيشون حول بحيرة موريس يجلون التمساح أيما إجلال ويولونه مرتبة خاصة. والقوم هناك يحتفظون بتمساح في كل من هاتين الناحيتين، ويحرصون على ترويضه وتدجينه، فلا تراه يمضي بعيداً عن حظيرته. وتجدهم بعد يحرصون على تزيين أذنيه بأقراط من الزجاج أو الذهب، وقائمتيه الأماميتين بالخلاخيل، ويخصونه بمقدار من الخبز ووجبة من اللحم؛ وإذا كان هذا نصيبه من العناية والرعاية في حياته، فإن القوم لا يقصرون في تكريمه في الممات، فتراهم يقومون بتحنيطه ويوارونه التراب بعد موته في مقبرة خاصة. أما أهل الفنتينا فلا يرون في هذا الحيوان قداسة، فتجدهم يقتنصونه ويأكلون لحمه. واسم التمساح ليس من ابتكارات أهل مصر، وإنما طلع به الأيونيون. وأما المصريون فيسمونه التشمبساي. وقد خرج الأيونيون بهذا الاسم، لشبه صاحبه بالسحالي التي تعيش في أسوار مدنهم. ويسمونها تماسيح، ومفردها تمساح.

ولصيد التمساح طرق وأساليب عديدة ومختلفة. ولسوف أقتصر في هذا المجال على وصف ما يبدو لي أنه الأجدر بالإشارة. والأسلوب المألوف عندهم أن يرموا بطعم من لحم الخنزير معلقاً بخطاف في وسط النهر، بينما يقف الصياد على ضفة النهر حاملاً خنزيراً حياً، ويعمد إلى مضايقته ليحمله على الصراخ. وحين يبلغ الصراخ سمع التمساح يسرع إلى مصدر الصوت، فيصادف الطعم ويبتلعه. فيقوم الرجال المنتظرون على الضفة بجره إلى الشاطئ، ثم يضعون على عينيه ضمادة من الطين، وبذلك تتم السيطرة عليه، وإلا عانى منه الصيادون الشيء الكثير.

ويقدس أهالي ناحية بابرميس فرس النهر، وهم ينفردون بإجلاله دون باقي

النواحي. وها أنذا أقدم وصفاً لهذا الحيوان المقدس: ضخم الجسم أفطس الأنف، وله أربع قوائم مشقوقة الأظلاف كالثور، ورقبة وذيل كالحصان، وأنياب بارزة ضخمة، وصوت كصهيل الحصان. وهو يضارع بجسمه أضخم الثيران، جلده متين، وإذا جفف صنعوا منه رماحاً.

ويقع المرء كذلك على ثعلب الماء في النيل، وله عند المصريين قداسة. أما الأسماك فلا يقدسون منها إلا نوعين: الشبوط والثعبان . كما أنهم يقدسون من الطيور المراوغ أو الإوز الثعلبي.

والمصريون يقدسون طائراً آخر يدعى الفينيق[٣١]. (عنقاء مغرب) ولكني لم أره، إنما شاهدت رسوماً تصوره. وهذا والحق من العجائب حتى في مصر الحافلة بالأعاجيب، ولا يأتي إلى مصر إلا مرة كل خمسمائة سنة، حسب رواية أهل هيليوبوليس، ليموت فيها الفينيق العجوز. وهاكم وصفه، إذا صدقت الرسوم: طائر له ريش بعضه أحمر اللون وبعضه ذهبي، وله شكل الصقر وحجمه. ويروي المصريون عن سلوكه رواية تبدو لي صعبة التصديق، وخلاصتها أن هذا الطائر يقطع بلاد العرب ومعه طائر الفينيق الأب مدهوناً كله بصمغ المر الطيب ليحط به في معبد الشمس ليدفنه هنالك. ويكون ذلك بأن يصنع الطائر كرة من هذا الصمغ بحجم يستطيع حمله، ثم يجوف الكرة من الداخل ويضع أباه فيها، ويختمها بعدئذ بشيء من هذا الصمغ. ويكون الوزن في النهاية مماثلاً لوزن الكرة قبل تفريغها، فيحملها ويطير بها إلى معبد الشمس. وتلكم هي، على الأقل، رواية المصريين عن هذا الطائر وأخباره.

وهناك، بعد، في ضواحي طيبة بعض الأفاعي التي يقدسها المصريون، وهي غير مؤذية. وتتسم بصغر حجمها وبقرنين بارزين في رأسها. وقد جرى المصريون على أن يدفنوا هذه الحيات عند موتها في معبد زيوس (آمون)، وهو الإله الذي يرعاها.

كنت قد زرت ذات مرة بقعة معينة في بلاد العرب، وتقع مقابل مدينة بوتو

مباشرة، لاستقصاء أمر الأفاعي الطائرة (الجراد). فرأيت عند وصولي مقادير من بقايا تلك الأفاعي ما يستحيل تعداده أو تقديره، وكانت هذه مكدسة في أكوام بعضها فوق بعض، وهي مختلفة في أحجامها، فوجدت منها الضخم والصغير الضئيل وما بين هذا وذاك. ووجدت موقع تلك الأكوام في شق ضيق، بين جبلين شاهقين، ينفتح على سهل مصر الفسيح. وتذهب رواية الرواة إلى أن هذه الأفاعي تهاجر طائرة من بلاد العرب إلى مصر في فصل الربيع، إلا أن الطائر المعروف بأبي منجل يعترضها ويقتلها، وهي تقطع رحلتها. ويؤكد العرب، مؤيدين من المصريين، أن أهل مصر إنما يحيطون طائر أبي منجل بهذا الإجلال العظيم لهذه المأثرة. وأبو منجل هذا طائر أسود اللون، له ساقان كساقي الكركي ومنقار مقوس شديد الانحدار. والنوع الشائع منه، والحق أنه يقع في صنفين بارزين، رأسه وعنقه أجردان من الريش، ولكن لون ريش الجسم ذاته أبيض على العموم، وإن يكن لون الرأس أسود، وكذلك أطراف الجناحين ونهاية الذيل، وأما منقاره والساقان فمثل الطيور الأخرى. ولكن جناحي الأفعى الطائرة لا يحملان ريشاً، وإنما هما شديدا الشبه بجناحي الخفاش. وبهذا القول أختتم مقالتي عن الحيوانات المقدسة.

وإذا تحدثنا في أمر المصريين الذين يعيشون في المناطق الزراعية قلنا إنهم يشتغلون في حفظ سجلات الماضي، أكثر من أي شعب آخر في العالم، وهم أشد من عرفت من الناس انكباباً على دراسة التاريخ. وها أنذا أفصل لكم عاداتهم وأساليب الحياة عندهم: إن هؤلاء القوم يكرسون ثلاثة أيام من كل شهر لتنظيف أجسامهم بتجرع المقيئات وتنقية الأمعاء، حرصاً على صحتهم وسلامتهم من الأمراض، اعتقاداً منهم بأن ما يصيب الإنسان من الأمراض منشؤه ما يتناوله المرء من الأطعمة. وهؤلاء القوم، إذا استثنينا هذه الاجراءات الوقائية، هم في ظني أسلم الناس صحة، في العالم، بعد الليبيين، مما مرده، في اعتقادي، أن بلادهم لا تتعرض لتقلبات الطقس المفاجئة فالأمراض تكاد

تصيب دائماً أولئك الذين يتعرضون خصوصاً لتقلبات المناخ. وهؤلاء القوم قوام طعامهم الخبز المصنوع من الحنطة، ويعرف في لسانهم بالـ «كيليسيتيس»، ويصنعونه في أرغفة، وشرابهم نبيذ مستخرج من الذرة، ذلك أن الكرمة مجهولة في بلادهم. ومن طعامهم السمك، وهو على أنواع، وبعضه مملح ومنه ما ليس بمالح، ويتناولونه نيئاً، شأنه شأن طائر الفري والبط والطيور الصغيرة التي يتناولون لحمها نيئاً، ولا يضيفون إليها سوى الملح. أما الطيور الأخرى والأسماك، عدا المقدسة منها، فيتناولونها مشوية أو مسلوقة.

ومن تقاليدهم أن يطاف في اجتماعات أهل الثراء، وبعد انتهاء المأدبة، بتابوت من الخشب في داخله شكل جثة إنسان مطلية بالألوان على نحو يجعلها أقرب ما تكون إلى الشكل الطبيعي، بطول ذراع أو اثنين، يحمله الخادم ويدور بين الضيوف وهو يقول: انظر، وتمعن، وأشرب ما طاب لك واسعد بحياتك؛ فلسوف يكون هذا حالك يوم تموت.

إن المصريين قوم حريصون أشد الحرص على التمسك بتقاليدهم، ولا يأخذون بالأساليب الأجنبية. وكثير من تلك الأساليب جديرة بالملاحظة، ومنها أنشودتهم اللينوس (مراثي لينوس)، وهي تنشد بأسماء مختلفة، ولا تقتصر على مصر وحدها، وإنما هي شائعة في بلاد الفينيقيين وقبرص وسواهما من البلدان، ويبدو لي أنها هي ذاتها التي ينشدها الإغريق أيضاً، وهم من أطلق عليها اسم اللينوس. ولقد وجدت في مصر الكثير مما أثار لدي الدهشة، ومن ذلك هذه الأنشودة. فعمَّن أخذها المصريون؟ فالواضح أن هذه الأنشودة مألوفة عندهم منذ قديم الزمن. ذلك أنهم يعرفون لينوس بلسانهم المصري باسم مانيروس، وقد أخبرني المصريون أن مانيروس هذا كان وحيد أول ملوكهم ومات وهو في ريعان الشباب فشاء القوم أن يخلدوا ذكراه بتلك المرثاة، فكانت هذه أول أغنية يصوغونها وهي فريدة من نوعها.

وثمة أمر آخر يشاطر فيه المصريون قوماً معيناً من الإغريق، هم اللاكيديون،

وهو توقير الكبار، فإذا التقى الشباب والشيوخ في الطريق، أفسح شبابهم الطريق لكبارهم؛ وإذا دخل شيخ مجلساً هب الشباب وقوفاً احتراماً له. ولكنهم يختلفون عن الإغريق جميعاً في أمر آخر. فليس من تقاليد المصريين أن يخاطبوا بعضهم بأسمائهم، إذا ما التقوا في الطريق، وإنما يتبادلون التحية بإحناء الرأس وخفض اليد حتى الركبة، إشارة إلى التبجيل.

ويرتدي المصريون زياً يدعى الكالاسريس، وهو من الكتان، ويزين عند الساقين. ويحظر الدين إدخال الصوف إلى المعابد أو دفنه مع موتاهم، وطقوسهم في هذا الأمر أشبه بطقوس الأورفيه والديونيسية، إلا أنها في حقيقة الأمر مصرية وفيثاغورثية الأصل؛ إذ يحظر في الديانات السرانية الأسرار استخدام الصوف كفناً للميت، ولديانتهم في هذا روايات.

ولقد اكتشف المصريون فيما اكتشفوا اليوم والشهر الذي يختص به كل إله، كما اكتشفوا مسيرة حياة الإنسان وشخصيته من دراسة يوم ولادته ـ وهي اكتشافات نهل منها الشعراء الإغريق الكثير. والمصريون أكثر شعوب العالم إسهاماً في تشخيص الأمراض. ومن شأنهم أنهم كلما لاحت لهم ظاهرة شرعوا في ملاحظتها ومتابعة نتائجها وتدوينها، فإذا تكررت الظاهرة أدركوا ما ستكون عليه عاقبتها.

أما التنبؤ بالغيب فهو عندهم من أمر آلهة معينة، وقدرة لا يملكها البشر، ولذلك تجدهم قد أقاموا المعابد لهرقل (خونصو) وابوللو (حوروس) وأثينا (نيت) وارتميس (بوباستيس) ومارس (آريس) وزيوس (آمون)؛ في طول البلاد وعرضها. وهناك بعد معبد ليتو في بوتو، وله المقام الأسمى بين كل المعابد. وجدير بالذكر أن أساليب نطق النبوءات مختلفة، فهي في هذا المعبد على وجه، ثم هي على وجه آخر في معبد آخر.

والطب اختصاصات منفصلة غير متصلة، فلكل طبيب مرض يختص به دون سواه؛ ولذلك وجدت البلد تحفل بالأطباء، وكل يعنى بعلاج عضو من الأعضاء

ولا يتجاوزه إلى اختصاص آخر، فهذا يعالج العين، وذاك الرأس، وسواهما الأسنان، وغيرهم يعنى بالأمعاء، كما أن منهم من يعنى بأمراض غيرمحدودة.

وها أنذا أبسط عادة المصريين في التعبير عن حزنهم حين يموت قريب، وطرقهم في إقامة الجنازات، فإذا مات رب أسرة من الأسر البارزة لطخت النساء رؤوسهن، ووجوههن أحياناً بالطين؛ ويخرجن وقد حزمن أرديتهن حول خصورهن وكشفن عن صدورهن وهن يندبن والميت مسجى في الدار، وتنضم إليهن في هذا الموكب قريبات المتوفى، نائحات نادبات. وهذا شأن الرجال أيضاً إذ يمرغون وجوههم بالطين ويندبون الميت بضرب الصدور كالنساء، إنما بمعزل عنهن. وإذا انتهت هذه الطقوس حمل جثمان الميت إلى حيث يكون تحنيطه.

ولفن التحنيط من يختص به، وهو حرفتهم. والمعتاد حين يأتي أحدهم إلى أهل الصنعة بجثمان ميت ليحنط، يعرض الرجل أمامه نماذج ينتخب منها الساعي ما يراه مناسباً له، وهي نماذج من الخشب تمثل أجساماً محنطة مطلية بالصباغ لتبدو كالطبيعية، وأكمل تلك النماذج مأخوذ عن نموذج أخذ به من أمسك عن ذكر اسمه لسبب ديني[٢٢]، والثاني دونه وأقل تكلفة، وأما الثالث فهو الأرخص. وهذه أمور يبسطها كلها أهل التحنيط، ثم يسألون الساعي أياً من تلك النماذج يبغي. فيشير أصحاب الميت بما يرغبون، ويكون عندئذ الاتفاق، ويغادر هؤلاء المكان تاركين المحنطين لينجزوا عملهم. أما الأسلوب الأكمل في التحنيط فهو ما سوف أعرض ههنا: تفرغ الجمجمة من الدماغ بوساطة قطعة من الحديد ملتوية تقحم في الأنف حتى تبلغ موقع الدماغ، فإذا تعذر سحبه كله، عمد أهل الصنعة إلى تنظيفه من الرواسب بالعقاقير، ثم يحدثون شقاً في الجانب بحجر اثيوبي حاد قاطع، فيفرغون البطن من الأحشاء ويقومون بتنظيفها بنبيذ مصنوع من التمر، وكثيراً ما يزيدون بإضافة المواد العطرة. وبعد هذا يكون إملاء الفجوة بأنقى أنواع صمغ المر المطحون والسناء، وأنواع التوابل، عدا البخور، ثم يخيطون الشق في طرف البدن، ويغمرون الجثة بمادة

النطرون (مركبات فحمات الصوديوم) مدة سبعين يوماً لا تزيد، يغسلون الجثة بعدها وتلف كلها من قمة الرأس إلى أخمص القدم بالكتان الراقي المدهون بالصمغ الذي يستخدمه المصريون بدلاً من الغراء، وتسلم عندئذ إلى الأهل الذين يسجونها في صندوق من الخشب على شكل جسم بشري صنع خصيصاً لهذه المناسبة. ويقوم الأهل بوضعه في المدافن بعد إقفال الصندوق إقفالاً محكماً، مستنداً إلى الجدار. وتلكم أشد أشكال التحنيط كلفة.

أما من شاء أن يتفادى عبء الكلفة فالأسلوب الثاني خياره: يحقن شرج الميت بزيت شجر الأرز، دون شق أو تفريغ الأحشاء، ثم تختم الفوهة لئلا يتسرب السائل منها، ويغمر جسد الميت بمادة النطرون لعدة أيام معينة، تفتح بعدها فوهة الشرج ليخرج منها الزيت والأحشاء وقد ذابت وتحللت. وفي غضون ذلك تكون مادة النطرون قد فعلت فعلها بتحليل اللحم، حتى لا يبقى من جسم الميت سوى الجلد والعظام. فيعاد هيكل الميت إلى أهله على هذه الحال.

أما زوجات أصحاب المقامات فلا ينلن التحنيط فوراً عند الوفاة، ولا أي من الجميلات أو ذوات الحظوة. وقد جرت العادة على أن تبقى جثة المتوفاة ثلاثة أيام أو أربعة، قبل حملها إلى المحنط، لئلا تسول لأحدهم نفسه تدنيس المرأة، وهي ميتة. ويروى أن مثل هذا الفعل الشائن وقع ذات مرة، وعرف الأمر حين أفشى زملاء الفاعل سره.

إن القانون يفرض على الناس الأقرب إلى المكان التعاون، حين يموت غريب عندهم، إن افتراساً بفعل تمساح وإن غرقاً في النهر، لتحنيط جثته ودفنها، محاطة بكل آيات التكريم. والجثة لا تمس، ولو من أقرب أصدقاء الميت أو أقاربه، عدا كهنة النيل الذين يتولون أعمال الدفن بأيديهم - إذ إن للجثمان كرامة كبيرة عندهم - وهم الذين ينزلون بالميت إلى القبر.

والمصريون ينأون بأنفسهم عن الأخذ بعادات الإغريق، بل قل أي أمة أخرى من أمم الأرض. وهذا نزوع شائع بينهم ومسلم به، ومع ذلك فإنك تجد في

خِمِّيْز[٣٣] قرب نيابوليس في إقليم طيبة بناء مربعاً شيد لبرسيوس، ولد داناوس، وهو محاط بأشجار النخيل، وله بوابة هائلة من الحجر، ينتصب فوقها تمثالان ضخمان. ويضم حرم المعبد صورة لبرسيوس. ويروي أهالي خِمِّيْز أن برسيوس كثيراً ما يظهر لهم، حيناً داخل المعبد وحيناً في البرية، ولطالما وجدوا أحد الخفين اللذين ينتعلهما في جولاته ـ ويقولون إن حجمه يبلغ نحواً من المتر. وحين يظهر الخف يعم الخير في مصر. والشعائر التي تقام في معبد برسيوس إغريقية، ويرافق الاحتفال بعيده الألعاب الرياضية التي تدور فيها المباريات على اختلاف الرياضات، وينال الفائزون جوائزهم ماشية وعباءات وجلوداً. ولقد سألت أهل خِمِّيْز السبب في ظهور برسيوس في بلدهم دون سواها من أقاليم مصر، ثم احتفالهم، دون المصريين جميعاً، بالمباريات الرياضية؛ فأجابني القوم إن برسيوس ينتمي إلى بلدهم أصلاً. ذلك أن داناوس ولينسيوس كانا من أهل خِمِّيْز قبل إبحارهما إلى بلاد الإغريق، ومنهما ولد برسيوس، ثم إنهم ينسبون عودته إلى مصر لأمر يتصل بالدين، وهو قول يسلم به الإغريق، فبعد أن استعاد رأس جرجون[٣٤] من ليبيا، أراد زيارة موطن والديه، وهناك أعلن أن أهل خِمِّيْز هم أهله ـ إذ سمع أمه تذكر له هذا البلد، قبل أن يغادر بلاد الإغريق ـ فلما حل فيه طلب إلى الأهالي إقامة المباريات الرياضية تكريماً وكان هذا السبب في حرصهم على هذا التقليد.

إن هذه التقاليد التي ورد وصفها خاصة بالمصريين الذين يقيمون في المناطق أعلى السبخات. وهؤلاء يشتركون والمصريين الآخرين في العادات والتقاليد التي سبق لي وصفها، ومثل تلك التي تتصل بالزواج؛ فالمصري يتخذ، شأنه شأن الإغريقي، زوجاً واحدة؛ ولكن لسكان السبخات عادات خاصة بهم بسبب من سخاء الطبيعة. ومن ذلك أنهم يجمعون أقحوان الماء ويسمونها اللوتس، وهي شديدة الشيوع في تلك الأصقاع ويكثر نموها حول النهر حينما يفيض، ثم يأخذون لب الزهرة ويجففون المحصول تحت الشمس، ويعمدون بعدئذ

إلى طحنه حتى يصبح مسحوقاً، فيقومون بعجنه وخبزه في أرغفة كالخبز؛ ولهذه النبتة بعد، جذر طيب المذاق، حلو. وهناك نوع آخر من الأقحوان ينمو في النهر في مصر، مثل اللوتس، وهو يشبه الورد، وتنمو ثمرته على عود منفصل عن الزهرة، ولها شكل عش الدبابير. وتحتوي هذه الزهرة على عدد من البذور، بحجم بذرة الزيتون، وتؤكل خضراء أو مجففة. وأما البردي فينمو في المستنقعات كل عام، فيقوم القوم هناك بانتزاعه من الأرض، ويقطعونه إلى قسمين، فيحتفظون بقسمه العلوي لاستخدامه في بعض الشؤون، أما السفلي ويبلغ قرابة الذراع طولاً، فيبيعونه أو يجعلون منه طعاماً. وللاستمتاع بمذاق هذا النبات يجب أن يطبخ بوضعه في إناء محكم، ويترك على نار شديدة حتى يتوهج الإناء؛ على أن بعض هؤلاء القوم لا غذاء لهم سوى السمك المجفف. ولكن السمك الذي يجتمع في أسراب قليل في الأنهار؛ إذ إنها تألف البحيرات، ومنها تنطلق في موسم التكاثر، في أسراب، إلى البحر. ويكون الذكور هنا في مقدم السرب، وفي أثناء ذلك يسيل السائل المنوي فتبتلعه الإناث وهي تتبع الذكور؛ وبذلك يتم إخصاب البيوض. ويعود السرب بعد قضاء فترة في البحر إلى مرتعه القديم، ولكن الإناث هي التي تتقدم هذه المرة والذكور في الأثر، تلتهم البيوض المخصبة التي تنثرها الإناث في الطريق، وما يفلت منها ينمو ويصبح سمكاً. ويلاحظ أن الجانب الأيسر من رؤوس الأسماك يصاب بالكدمات في أثناء رحلتها إلى البحر، ثم الجانب الأيمن في أثناء رحلة العودة. والسبب في ذلك أن الأسماك تلتزم جانب الضفة اليسرى من النيل، في أثناء رحلة الذهاب، ثم اليمنى، في الإياب من البحر، لئلا تنحرف عن الطريق بفعل التيارات القوية التي تواجهها، فتصطدم بالضفتين، وعلى الجانبين، فيكون ذلك سبباً فيما يصيب الرأس من كدمات. حين يرتفع ماء النيل ويغمر الحفر في الأرض والمستنقعات القريبة من النهر، تجد تلك المناطق قد تحولت إلى برك تمتلئ بصغار السمك. وأحسب أن ذلك يحدث حين يترك السمك بيوضه في الطمي عند ضفتي النيل

ويغادر في موسم الانحسار، فإذا كان الغمر في موسمه كالمعتاد فقَّست البيوض التي خلفتها الأسماك في العام السابق ونمت سريعاً وحسبنا ما قلنا في أمر السمك.

وسكان السبخات(٣٥) يستخدمون نوعاً من الزيت النباتي (زيت الخروع) يدهنون به أجسامهم، ويعرف عندهم باسم الـ «كيكي». وللحصول عليه يزرعون نبات الخروع - وهذا النبات ينمو في بلاد الإغريق، حراً وبوفرة على ضفاف البحيرات ولأزهاره رائحة مقززة - ويجمعون الأزهار ويدقونها لاستخراج الزيت منها بالعصر، أو ربما لجؤوا إلى غلي النبات بعد تجفيفه على النار، ويؤخذ منه السائل بعدئذ، وهو زيت يصلح للمصابيح، ولكن العلة فيه هي رائحته المنفرة عند الاحتراق.

ومصر بلد حافل بالبعوض، وللمصريين في الاحتيال عليه وسائل مبتكرة؛ ومن ذلك أن أهل الجنوب ينامون ليلاً فوق أماكن مرتفعة، لأن من شأن تيارات الهواء أن تبعد البعوض عن التحليق عالياً، فيتقي الناس لسعاتها. ولكن لما كانت أراضي السبخات لا تحتمل بناء مثل تلك الأبراج، فقد درج أهل تلك الأصقاع على استخدام الشباك التي يستخدمونها نهاراً في الصيد، لتكون وسيلتهم في ردع البعوض فتجدهم ينصبونها للنوم في حماها ليلاً. وليس يجدي أن يلتف المرء بغطاء من القماش، لأن البعوض قادر على لسع المرء تحتها، ولكنه لا يستطيع مجرد محاولة اختراق الشبكة.

تصنع القوارب المستخدمة في نقل البضائع والسلع عبر النيل من خشب السنط، وهو يشبه في الشكل اللوتس السيريني، ويفرز صمغاً. وطريقتهم في صنع هذه القوارب أن يقطعوا من هذه الشجرة ألواحاً بطول ذراعين، ويشدونها إلى بعضها بعضاً بأعواد أو أعمدة طويلة، حتى يكتمل باطن القارب، ثم يبنون جانبي القارب بوضع ألواح جديدة تتقاطع مع تلك الطولية من جانب إلى الجانب الآخر. ولا يستخدم المصريون في صنع قواربهم أوراق الشجر، وإنما

يسدون الفجوات فيها بأوراق البردي، والقارب مزود بمجذاف واحد يبرز منه إلى سطح الماء. والصاري هنا عبارة عن قطعة من خشب السنط، وأما الأشرعة فمن البردي. ولكن هذه القوارب لا تسير إلا إذا كانت الريح مواتية، وإلا كان على البحارة دفعها عن الضفاف دفعاً؛ ويستخدمون لدفع القوارب في مجرى النهر مع التيار عوامة من خشب شجرة الإثل وحصيرة من ورق البردي تشد إلى أعلاها وحجر مجوف في وسطه يزن نحو مئة رطل، وتربط العوامة والحجر إلى السفينة بالحبال، وتهز إلى الأمام والخلف. بحيث تنزلق إلى مجرى النهر بسرعة بقوة التيار فيجر الباري (كما تسمى القوارب) في لغتهم مع اندفاعه بينما يقوم الحجر في انجراره إلى الأسفل بضبط حركته ويفتح الطريق أمامه. والنيل حافل بمثل هذه القوارب التي تبلغ حمولة البعض منها عدة أطنان.

إن الأرض لتتحول إلى بحر، حين يفيض ماء النيل ويغمر البرية، فلا يظهر فوق الماء إلا المدن، التي تبدو في ذلك الوقت كالجزر في بحر إيجه. ولا تضطر القوارب في هذا الفصل إلى الالتزام بخط سير معين بل حسبها أن تمضي في طريقها عبر ما هو أرض برية عادة. فإذا نصبت الشراع ومضيت في رحلة من ناوكراتيس[٣٦] إلى ممفيس وجدتك تمر بالأهرامات، بينما عهدك أن تمر في غير هذا الموسم بكيركسوروس[٣٧] ورأس الدلتا. أما في موسم الغمر فمن اليسير عليك أن تبدأ رحلتك من بلدة كنوبس على البحر وتمضي في طريقك لتمر عبر البر، لتتجاوز أنثيلا وارخاندوبوليس. وأنثيلا حاضرة زاهرة أقيمت بعد أن وقعت مصر تحت نير الحكم الفارسي لتكون مقراً لزوج حاكم مصر، وأصبح هذا تقليداً، منذ ذلك الوقت، واستمر حتى اليوم. أما المدينة الأخرى ارخندوبوليس[٣٨] فتنسب إلى أرخاندر الغطياني ولد أخيوس، وصهر داناوس. ولا ريب أن هناك شخصاً آخر يدعى ارخاندر. وعلى أي حال فإن هذا الاسم ليس مصرياً. وما رويت عن مصر إنما كان مما لاحظت بنفسي وشهدت وما خلصت إليه من الآراء بعد الاستقصاء. وما سوف يلي هو سرد لما بلغني من روايات المصريين،

وأضيف إليها بعض ما صادفني في رحلاتي في أقاليم البلاد. لقد أخبرني الكهنة أن مينا كان أول من ملك في مصر، وهو الذي أنشأ السدود لحماية ممفيس من فيضان النيل. وكان النهر قبل عهده يغمر حين يفيض كل كثبان الرمل التي تحد مصر من جهة ليبيا. واستطاع هذا الملك أن يجفف القناة الأصلية، ويحولها إلى قناة جديدة شقها بين سلسلتي التلال، وذلك بأن رفع ساتراً عالياً عند منحنى النهر، على بعد مئة فرلنج جنوب ممفيس. وما زال هذا المرفق الذي أقامه على النيل وجعل منه قناة جديدة موضع حرص من الفرس، يقيمون على حراسته، ويعملون على تدعيمه سنة بعد أخرى؛ فلو قدر للنهر أن يفيض في هذه الناحية ويغمر التل هناك لأغرق ممفيس. وهكذا ما إن أنجز أول ملوك مصر، مينا، تجفيف الأرض، بعد أن كان النيل يجري فيها، حتى التفت لبناء مدينة ممفيس التي تقع في الخاصرة الضيقة من مصر؛ ثم مضى بعدئذ إلى إنشاء بحيرة في شمال هذه الحاضرة وجنوبها، وربطها بالنهر، وهو حدها شرقاً. وقد أخبرني الكهنة أن الملك مينا هو الذي أنشأ، فوق ما تقدم من الأعمال، معبد هيفستوس (بتاح) وهو بناء ضخم جدير بالتنويه، يقوم وسط المدينة.

ولقد قرأ عليَّ هؤلاء الكهنة نصاً من أوراق البردي ويحتوي على أسماء ثلاثمئة وثلاثين ملكاً تعاقبوا على عرش مصر، منهم ثمانية عشر أثيوبياً، وملكة مصرية واحدة، والبقية مصريون جمعيهم. وكان اسم تلك الملكة مطابقاً لاسم الملكة البابلية، نيتوكريس[٣٩]. وأخبروني بأنها ورثت العرش بعد مقتل أخيها على يد رعاياه، وهم الذين نصبوها على العرش. ولما تولت عرشها أخذت تدبر الخطط للانتقام لمقتله، فتفتق ذهنها عن خطة ماكرة انتهت بقتل أعداد غفيرة من المصريين. إذ انتهزت مناسبة انشاء مبنى كبير تحت الأرض فدعت إلى مأدبة احتفالاً بالحدث، وكان ضيوفها من تأكد لديها ضلوعهم في مقتل أخيها، ولما جلس هؤلاء إلى المائدة وانشغلوا بالطعام أعطت للخدم إشارة، ففتحوا بوابة

تدفقت منها مياه النهر فغمرت المكان فأخذ الضيوف بالمفاجأة وماتوا غرقاً. وهذا كل ما حدثوني به من أمرها، سوى أنها انتحرت بعد هذا بأن ألقت بنفسها في حجرة مليئة بالرماد، خوفاً من انتقام أهل ضحاياها بعد اكتشافهم مكيدتها.

أما الملوك الآخرون فلم يكن لهم شأن يذكر، ولم يخلفوا وراءهم معلماً ذا شأن، عدا مويريس (امنحوتب الثالث)، وهو آخرهم فقد خلف هذا الملك عدة شواهد على عهده، منها بوابة معبد هيفستوس (بتاح) الشمالية وحفر البحيرة بأمر منه، وسوف أقدم وصفاً لها فيما بعد، والأهرامات بجانب البحيرة، وسأعرض لها عند وصف البحيرة. وهذه هي مآثره، فلنتجاوز أولئك الملوك، لأحدثكم عن الملك الذي تولى العرش من بعدهم، وهو سيسوستوريس[٤٠].

وقد أخبرني الكهنة أن هذا الملك بدأ عهده بتوجيه أسطول من خليج العرب (البحر الأحمر) فأخضع القبائل على شواطئ المحيط الهندي وصولاً إلى الخليج العربي، حتى بلغ في النهاية بحراً لم تبحر فيه سفينة من قبل، لضحالة مياهه، ثم قفل عائداً إلى مصر، فجمع حشداً عظيماً من الجنود، كما أخبرني الكهنة، واجتاح بهم الأمم حيثما سار. وكان كلما واجه بلداً، وتصدى لزحفه أهله وصمدوا واستبسلوا في الدفاع عن حريتهم، أقام فيه نصباً تحمل اسمه وتشير إلى بلده وتروي أعماله في إخضاع أهل البلد المقهور بقوة سلاحه. أما إذا استسلم البلد دون مقاومة، فإنه يضيف على العبارات السابقة صورة امرأة ليشير إلى أنه إنما واجه شعباً من النساء، مخنثاً ومستكيناً لا قبل له على الحرب. وهكذا اجتاح كل آسيا ثم دخل أوروبا ونصب نفسه ملكاً على بلاد السكيث وتراقيا[٤١]، ولست أحسب أن جيشه مضى إلى أبعد من تلك البلاد، يحملني على هذا الاعتقاد أن تلك النصب التي أقامها لتشهد على انتصاراته مازالت قائمة في أماكنها، بينما لا نقع على مثلها في البقاع الأبعد. ولما أراد العودة من تراقيا إلى مصر، سار بجيشه فبلغ ضفاف نهر الفاسيس (أراكسس)،[٤٢]

وعنده وقع ما لا أملك يقيناً لأقطع في أمره، فقد يكون أن الملك أراد أن يبقي بعضاً من قواته ليستعمروا المنطقة، وإما أن بعضهم شاء الفرار فاستوطن ضفاف ذلك الجدول. إن ما لا ريب فيه أن القلقيز ينحدرون من المصريين. وقد استلفت أمرهم نظري وبلغت هذه القناعة، حتى قبل أن تذكرلي هذه الواقعة. ولما ورد إلى ذهني هذا الخاطر شرعت في استقصاء هذا الأمر في قلقيزيا ومصر، فوجدت القلقيز، يتذكرون المصريين أكثر مما يتذكرهم هؤلاء ولكن ما بلغني من المصريين هو اعتقادهم بأن القلقيز منحدرون من عناصر جيش سيسوستوريس. أما ما توصلت إليه من الاستنتاج فيقوم أولاً على سمرة بشرة القلقيز وشعرهم الشبيه بالصوف، وهذان أمران لا يعول عليهما كثيراً لأن ثمة أمماً عديدة تحمل هذه السمات أيضاً؛ ولكن الأهم من ذلك، وخاصة في حالة القلقيز، هو أن الختان الذي يأخذون به معروف عند المصريين والاثيوبيين منذ أقدم العصور. وهذا أمر يقر به الفينيقيون والسوريون سكان فلسطين فيقولون بأنهم إنما أخذوا هذا التقليد عن المصريين؛ وبالمقابل يخبرنا السوريون الذين يعيشون بين النهرين، الثرمادون وبارثينوس، كما يفيدنا جيرانهم المكرويون أنهم أخذوه عن القلقيز. وخلاصة القول أن ثمة أربع أمم تأخذ، دون سواها، بعادة الختان، والجلي لدينا أنها تقتدي بالمصريين في هذا. أما الاثيوبيون فلا أملك أن أجزم إن كان هؤلاء قد أخذوا بهذا التقليد عن المصريين، أم أن المصريين يقتدون بهم في اتباعه - ولكن مما لاريب فيه هو أنه يعود إلى تاريخ بالغ القدم في أثيوبيا، أما الآخرون فالجلي عندي أنهم اقتبسوا معرفتهم به من مصر، وحجتي في الأمر أن الفينقيين، حين يختلطون بالإغريق، ينقطعون عن الاقتداء بالمصريين في هذا الأمر، ويدعون أطفالهم بلا ختان.

وأضيف هنا دليلاً آخر على اشتراك المصريين والقلقيز في الأصول، هو أن أسلوبهما في حياكة الكتان واحد ولا يشاركهما فيه شعب آخر، وهو مجهول في بقية العالم؛ ثم إنهما ينهجان في الحياة واللغة نهجين متشابهين كل الشبه.

ويسمي الإغريق كتان قليقيزيا السارديني بينما يسمون كتان مصر المصري.

إن النصب التي أقامها سيسوستوريس في البلاد التي قهرها قد زال معظمها؛ ولكني رأيت بأم العين تلك النصب ما تزال قائمة في ذلك الجزء من سورية المسمى فلسطين، وعليها النصوص التي سبق الإشارة إليها والعلامة المذكورة واضحة جلية للعيان. وهناك في أيونيا نصبان محفوران على الصخر، وهما إشارة إلى هذا الملك، أحدهما على الطريق من أفسوس إلى فوكايا، والآخر بين ساردیس وسميرنا. ويصور كل نصب رجلاً بطول أربعة أذرع وشبر، يحمل رمحاً بيده اليمنى وقوساً باليسرى، ويرتدي زياً نصفه مصري ونصفه الآخر أثيوبي، وقد كتب على كتفيه بالأحرف المصرية المقدسة هذه العبارة: «بكتفي هذين غلبت هذه الأرض». ولا يشير النصب إلى اسم هذا الغازي ولا يفصح عن بلده، وإن كان سيسوستوريس يبين هذه الأمور في النصب الأخرى. ولذلك وجدنا البعض قد جنح بهم الخيال حين شاهدوا هذه الأشكال فاعتقدوا بأنها تصور «ممنون»[٤٣]؛ ولكن هذا خطأ وشطط.

وأضاف هؤلاء الكهنة أن سيسوستوريس هذا عاد ومعه عدد غفير من أبناء الأقوام التي غزاها، واستقبله يومئذ شقيقه الذي كان نائباً له في أثناء غيابه، في دافني[٤٤] بالقرب من بيلوسيوم، وأقام مأدبة تكريماً له فحضرها وأبناؤه. وعمد الأخ إلى إحاطة موقع الوليمة بأكوام من الحطب، ولما اطمأن إلى اتخاذ الضيوف مواقعهم على المائدة، أشعل النار في الحطب، فانتبه سيسوستوريس إلى الأمر وشاور زوجه، وكانت حاضرة بجانبه، فيما ينبغي عمله فأشارت عليه بأن يرمي باثنين من أولاده الستة فوق الحطب المشتعل فيجعل منهم جسراً آمناً لهروب أهلهم. وكان ما أشارت به الزوجة، فمات ولداه حرقاً، بينما نجا هو وبقية الأبناء وعاد إلى ملكه، وأنزل نقمته بأخيه، ثم مضى إلى تسخير ذلك الحشد من الناس الذين جلبهم معه من الأقطار التي أخضعها، في جر كتل ضخمة من الحجارة من أجل معبد هيفستوس (بتاح) وحفر القنوات التي تخترق

مصر كلها. وكان من شأن أعمال السخرة هذه أن تغير وجه البلد كله؛ ذلك أن أرض مصر كانت قبل هذا العهد صالحة للحصان والعربة معاً فغدت لا تصلح لهما بأي حال بسبب اتساع القنوات وكثرتها. وكان غرض الملك من إنشاء هذه الشبكة تزويد سكان المدن في وسط البلاد والبعيدة عن النهر بماء النيل، فلا تقتصر الفائدة على أهل المدن الواقعة على النهر وحدهم؛ إذ كان سكان المنطقة الوسطى يضطرون لشرب مياه الآبار الآسنة، بعد أن تنحسر مياه الغمر.

كذلك سن سيسوستوريس تشريعاً يقضي بتوزيع أرض مصر بين السكان بالتساوي، وينال هو الريع الأكبر عن باقي الأرض بتلزيمها لمقاطعين، يدفعون له ضريبة الالتزام سنوياً. وإذا صادف أن خسر أحدهم شيئاً من محصوله بسبب الفيضان، يرجع إلى الملك فيبسط له أمره، فيوعز عندئذ إلى لجنة معينة بمعاينة الأرض وتقدير الخسارة بعد القياس، فلا يطالب بعدئذ إلا بريع يعادل ما تحقق له من الأرض فعلاً. وأحسب أن مصر عرفت الهندسة لحاجتها للقياسات وعنها أخذ الإغريق هذا العلم.

إن ملك سيسوستوريس لم يقتصر على مصر وحدها، بل امتد إلى أثيوبيا أيضاً. وكان الملك المصري الوحيد الذي حكم هذا البلد. وقد خلف التماثيل التي تنتصب أمام معبد هيفستوس، ومنها اثنان يمثلانه وزوجه، وطول الواحد منهما ثلاثون ذراعاً، بينما تمثل التماثيل الأربعة الأخرى أبناءه، وهي بطول عشرين ذراعاً. وقد ظل سدنة المعبد يجلون هذه التماثيل، حتى إن كبير الكهنة لم يسمح لداريوس الفارسي أن يرفع نصباً لنفسه يتقدم تلك التماثيل، وحجته في ذلك أن داريوس ليس بالند لسيسوستوريس المصري؛ فقد استطاع أن يخضع كل الأمم التي خرج لقتالها داريوس، وزاد عليه بأنه قهر السكيث الذين عجز داريوس عن التغلب عليهم. وإذاً فليس من الإنصاف أن يتقدم تمثاله على نصب ملك له من المآثر ما يعجز هو عن بلوغ مثلها. وقد قيل إن داريوس غض الطرف عن جرأة محدثه.

وأخبرني الكهنة أن ولده فرعون[٤٥] خلفه على العرش، بعد موته. ولم يقدر له أن يخرج في حملة عسكرية، بسبب إصابته في حادثة بالعمى. وتفصيلها أن النهر ارتفع منسوبه ذات عام، فبلغ ثمانية عشر ذراعاً، وهو ارتفاع عظيم غير مألوف، فامتد وغمر كل الأرض حوله وزاد، وصادف أن هبت عندئذ رياح شديدة. فتدفق الماء في موجات هائلة. فهب الملك وكان رجلاً غضوباً، فالتقط رمحه ودفع به نحو الموج الصاخب. فأصيبت للتو عيناه بالمرض، وأمضى عشر سنوات يعاني من العمى. وفي السنة الحادية عشرة جاءته النبوءة من مدينة بوتو، بأن عقوبته انقضت، وله أن يتعافى ويسترد بصره، إذا غسل عينيه ببول امرأة مخلصة لم تؤثر على زوجها رجلاً آخر. فكان أن ابتدأ بزوجه، فلم يشف وظل على حاله، كفيفاً. فأخذ في تجربة بول نساء أخريات ولكن دون طائل، إلى أن وفق في النهاية، وشفي من العمى. فجمع كل النساء اللواتي اختبر بولهن وحملهن إلى المدينة التي تعرف اليوم باسم ارثيرابولس (الأرض الحمراء) وأحرقهن جميعاً، إلا المرأة التي حملت إليه الشفاء فتزوجها. ولما اكتمل شفاؤه بعث بالنذور إلى كل معبد في البلاد، وكان من أبرز ما قدم مسلتان لمعبد الشمس، وهما من آيات الصنعة والروعة، تبلغ المسلة الواحدة مئة ذراع طولاً وثمانية أذرع عرضاً.

وخلف فرعون على العرش رجل من ممفيس، يعرف عند الإغريق ببروتيوس[٤٦]. وما زال في ممفيس منطقة تعرف باسمه إلى يومنا هذا، وهي ناحية حسنة وغنية تقع إلى جنوب معبد هيفستوس وتعرف المناطق المحيطة بها بمعسكر الصوريين، نسبة إلى الفينيقيين الذين قدموا من صور واتخذوا هذا الموقع مقاماً لهم. ويقوم في هذا الموقع معبد افروديت الغريبة. وأحسب أن هذا المعبد قد بني تكريماً لهيلين إبنة تينداريوس، ويحملني على هذا الاعتقاد، فضلاً عما بلغني من أنها قضت فترة من الزمن في بلاط بروتيوس، أنه لم يعرف عن أفردويت وصفها بالغريبة في أي من معابدها. وقد سألت الكهنة عن قصة

هيلين، فأفادوني أنه بينما كان باريس في طريقه إلى بلده من إسبارطة ومعه عروسه المختطفة، صادف في بحر إيجه جواً عاصفاً دفع بسفينته إلى مصر حتى حطت به على الساحل فنزل عند سبخات الملح عند ثغر النيل المعروف اليوم باسم الكانوبي. فلجأ لدى نزوله إلى معبد لهرقل (خونصو)، وما زال قائماً إلى اليوم، ويتصل به تقليد قديم يقول بإجارة العبد الهارب إذا ظهرت على بدنه العلامات الربانية، وهي إشارة إلى أنه في خدمة الإله، فلا يملك كائن من كان أن يمسه بأذى. فعلم بذلك بعض خدمه فهجروه ولجؤوا إلى المعبد. ولإيقاعه في المتاعب، أشاعوا خبره باختطافه هيلين، وغدره بمينلاوس. وكان من بين من وصل إليه سر باريس، غير كهنة المعبد، حاكم ذلك الثغر، ويدعى ثونيس. وما كان من ثونيس هذا إلا أن بعث بالخبر إلى بورتيوس في ممفيس. وجاء في تقريره مايلي: «قد وفد إلينا طروادي غريب قادماً من بلاد الإغريق، حيث أقدم على فعلة نكراء، إذ أغوى زوج مضيفه ثم اختطفها ومعها الكثير من الكنوز الثمينة؛ وقد اضطرته أحوال الطقس السيئة للنزول على شاطئنا، ونرجو منكم التوجيه إن كان ينبغي أن ندعه يغادر ومعه المسروقات، أو نصادرها منه؟» فجاء جواب بروتيوس: «اعتقلوا من أثم بحق صديقه وأرسلوه إلينا، كائناً من يكون، لنسمع منه روايته». وكان أن صدع ثونيس هذا للأمر، فاعتقل باريس وصادر سفنه، وحمله وهيلين والمسروقات والخدم الذين كانوا قد لجؤوا إلى المعبد إلى ممفيس. فلما مثلوا أمام بروتيوس سأل باريس اسمه وما يتصل بأسرته، وحقيقة رحلته؛ ولما تابع أسئلته حول مرافقة هيلين إياه في هذه الرحلة، أخذ باريس يراوغ في الجواب، بدلاً من أن يصدق محدثه القول، حتى انبرى له خدمه مكذبين أقواله، ورووا القصة وتفاصيل جريمته. وفي النهاية جاء حكم بروتيوس على نحو ما سوف أذكر: «إني ولو لم يسبق أن حكمت بالموت على غريب اضطرته أحوال الطبيعة للالتجاء إلى ساحلنا، حق عليَّ أن أنزل بك عقاباً، جزاء وفاقاً على ما ارتكبت من الإثم في حق مضيفك الإغريقي. فإنه

لجريمة ما بعدها جريمة أن تقابل من استضافك وبذل لك من كرمه بعمل هو الشناعة بعينها. فالحق أنك إنسان غير ذي خلق، سافل ومنحط. فقد أغويت زوج صاحبك، ثم حملتها فوق هذا على الهرب مستغلاً الهوى الذي أوقدته في فؤادها. وفوق هذا لم تتورع عن سرقة بيت صديقك. ولئن كنت لا أملك أن أنزل بغريب عقوبة الموت فلست أستطيع أن أسمح لك بالإفلات بما كسبت إثماً وعدواناً وحكمي في هذا أن تبقى هذه المرأة والكنز أمانة لدينا حتى إذا شاء الإغريقي صاحبهما المطالبة بهما أدينا الأمانة. أما أنت وصحبك فلكم ثلاثة أيام لترحلوا عن أرضنا ـ وتلقوا المرساة بعدئذ أينما شئتم. أما إذا انقضت الأيام الثلاثة ولم تغادروا كنتم عندي من الأعداء».

تلكم هي رواية الكهنة عن نزول هيلين في بلاط بروتيوس. وأحسب أن هوميروس كان ملماً بهذه القصة؛ وشاهدي على ذلك أنه وإن استبعدها من ملحمته لأنها لا تتفق وأغراضها الشعرية خلف لنا مع ذلك إشارات تومئ بمعرفته بوقائعها، ولم يناقضها في أي موقع من الملحمة، ففي وصفه لجولات باريس في الإلياذة يخبرنا، بأنه ذهب بهيلين في إحداهما إلى صيدا، في بلاد الفينيقيين. فيصادفنا، في هذا الجزء من الملحمة، مقطع يعرض للوقائع العظيمة التي أتى بها ديوميدس: منسوجات زاهية حاكتها النساء في صيدا وجاء بها البطل باريس الرائع كالآلهة، من تلك المدينة يوم خاض رحلته إلى بلده، حاملاً معه هيلين ذات المحتد العريق. ثم نصادف في الأوديسة مقطعاً يومئ إلى هذه الواقعة ذاتها:

شربت ابنة زيوس عقار الفضيلة من يد بولدامنة المصرية، امرأة ثون؛ ففي مصر أعشاب عديدة لها مفعول الخمر والدواء والسم القاتل.

ثم ينسب هوميروس إلى مينلاوس قوله لتيلماخوس: لقد قسرتني الآلهة على البقاء في مصر، وإن كنت أتوق للعودة، بسبب من تقاعسي عن تقديم القرابين لها. وهوميروس واضح في الإشارة في هذه المقاطع إلى معرفته بضياع باريس

في الطريق ونزوله في مصر. فنعلم من المقطع الأول أن سورية مجاورة لمصر، والفنيقيين أهل صيدا مقامهم في سورية. والأمر الآخر المستفاد من هذه المقاطع، وخاصة ما يتصل منها بصيدا، هو أن هوميروس ليس صاحب الملحمة القبرصية[٤٧] التي ورد فيها أن باريس وهيلين بلغا طروادة، بعد ثلاثة أيام من رحيلهما عن إسبارطة، وقد وافقتهما الريح والبحر، بينما تنبئنا الإلياذة بأن أحوال الطقس العاتية حملتهما بعيداً عن ذلك المرفأ - ولكن حسبنا هذا من أمر هوميروس والملحمة القبرصية.

لقد سألت الكهنة إن كانت رواية الإغريق عن أحداث طروادة باطلة أم لا، فأفادوني ببعض المعلومات التي نسبوها إلى مينلاوس ذاته. فعلمت أن الإغريق، بعد اختطاف هيلين، وجهوا قوة كبيرة دعماً لموقف مينلاوس، فلما نزلت على أرض طروادية، مضى وفد ضم في من ضم مينلاوس إلى طروادة، فاستقبل داخل أسوار المدينة، وهناك طالبوا بعودة هيلين والكنز الذي سرقه باريس، فضلاً عن التعويض لما نالهم بسبب تلك الواقعة. فأجابهم الطرواديون إجابة ما انقطعوا يرددونها منذ ذلك اليوم، بل ويقسمون أحياناً على صحتها، وهي تنكر وجود هيلين وكنزها عندهم، وتفيد بوجودهما في مصر، أما المطالبة بالتعويض فليست من الإنصاف في شيء، طالما أن ما يطالبون به في عهدة الملك بروتيوس، صاحب مصر. لكن الإغريق لم يقنعوا بهذا الرد، ووجدوا فيه احتيالاً، فما كان منهم إلا أن أنزلوا جندهم وأحكموا حصار المدينة حتى سقطت في أيديهم، ولكنهم لم يعثروا على هيلين فيها، والطرواديون مثابرون على روايتهم، فلم يكن أمام الإسبارطيين في النهاية سوى تصديقهم، فبعثوا مينلاوس في سفارة إلى بروتيوس في مصر. فأبحر إليها وقطع النيل حتى ممفيس. وهناك روى للملك حقيقة ما حدث، فأكرمه وأعاد له كنوزه وهيلين التي ظلت بريئة من الإثم. ولكن مينلاوس، بالرغم مما ناله من حسن الضيافة، لم يكن ليقابل الود بمثله؛ إذ لما عاندته الرياح واضطر للبقاء فترة أطول مما يحتمل، أخذ طفلين من

أبناء المصريين وقدمهما قرباناً للآلهة. فلما اكتشف أمر فعلته انقلبت صداقة المصريين له إلى كراهية وعداء، فأخذوا في مطاردته، ولكنه تمكن من الهرب بسفنه إلى ليبيا، وفقد المصريون أثره. وقد أفادني محدثي بأنهم إنما علموا ببعض هذه القصص بالرواية، أما ما وقع في بلادهم فكان حديثهم عنه حديث العارف الموقن.

تلكم، إذن، رواية الكهنة المصريين لقصة هيلين، وأراني أجنح لقبولها للسبب التالي: فلو كانت المرأة في المدينة لسلمت للإغريق، سواء وافق باريس أم عارض؛ فلست أعتقد أن بريام أو أي من أهله الآخرين به مس من الجنون يدفعه للمجازفة بحياته أو حياة أبنائه وسلامة مدينته، لينعم باريس بالحياة مع هيلين. وبعد، فلو كانت هذه نزعتهم حين بدأت المشكلة، فمما لا ريب فيه أن الطرواديين كانوا سيعيدون المرأة إلى أهلها لاحقاً بعد ما تفاقمت الأحوال، وأخذوا يخسرون المعارك إذا صدقنا ما جاء في الملحمة من أن بريام كان يخسر ولدين أو ثلاثة في كل جولة، ومن المؤكد، في ظل ظروف كهذه، بأنه حتى لو كانت هيلين زوجاً لبريام ذاته، فسيسلمها للإغريق قطعاً لدابر الشر الذي أتت به الحرب. وبعد، فإن باريس لم يكن بذي شأن لتتكبد البلد في سبيله ما تكبدت، فهو ليس وريثاً للعرش، إذ إن ذلك من نصيب شقيقه الأكبر هيكتور الذي كان يقوم بالولاية في عهد والده العجوز، كما يتمتع بمزايا لا يجاريه فيها باريس، وما كان ليحتمل سوء مسلك أخيه، خاصة وأنه السبب في هذا الضيق الذي حل به وبالطرواديين جميعاً. وإذن فالحقيقة هي أن هيلين لم تكن بينهم، وقد صدقوا في ما قالوه للإغريق، ولست أتردد في القول بأن رفض الإغريق تصديق روايتهم كان بإيحاء من الآلهة ليكون دمارهم عبرة للبشرية وأن اقتراف الكبائر يأتي بالعواقب الوخيمة. ذلكم هو إذاً، تفسيري لتلك الأحداث.

خلف بروتيوس رعمسيس الذي عرف بالبوابتين اللتين شيدهما عند أقصى غرب معبد رع والتمثالين المتقابلين اللذين عرفا بارتفاعهما إذ بلغ طول كل

منهما ثمانية وثلاثين قدماً، ويسمي المصريون التمثال المتوجه نحو الشمال الصيف والآخر المتوجه نحو الجنوب الشتاء. والناس هناك يبجلون التمثال الأول وينحنون أمامه، أما الثاني فمسلكهم نحوه نقيض سلوكهم تجاه الأول.

كان رعمسيس يملك كمية ضخمة من الفضة لم يتوفر مثلها لأي ملك من بعده، ناهيكم عن تفوقه في الثراء. وقد حرص هذا الملك على حماية كنوزه فشيد لها بناء قوياً من الحجر ليحفظها فيه فلا تمتد إليها أيدي اللصوص، وجعل أحد جدران هذا المبنى ملاصقاً لقصره، وعهد ببنائه إلى مهندس معين. فخطط هذا لسرقة الكنز بأن جعل في المبنى نقطة ضعيفة في أحد جدرانه، بحيث يمكن لرجلين، أو حتى لرجل واحد انتزاع حجارته بيسر فيتفكك الجدار قطعة قطعة. ولما اكتمل البناء الجديد انتقلت إليه خزانة الملك، ثم انقضى زمن، وأصبح هذا المهندس على فراش الموت، فنادى ولديه، وكشف لهما عن سره ودهائه، وأخبرهما بأمر الحجارة المتحركة في مبنى الخزانة، ليفيدا منها ويكفل لهما العيش في بحبوحة ورفاه. ومضى من ثم فأوضح لهما مخطط البناء ومكان الحجارة المتحركة، مشترطاً عليهما،الحرص وكتمان السر، فيعيشان بذلك في نعيم مدى الحياة. وكان أن مات الأب بعد حين، ولم يبدد الولدان وقتاً في الانتظار، فشرعا فوراً في العمل لاستخراج الفضة من خزانة الملك، فجاءا تحت شعار الليل وتفحصا الجدار والمكان الذي حدده لهما الأب، فانتزعا الحجارة دونما مشقة، وحملا من الفضة قدراً ـ ثم غادرا المكان. ولقد دهش الملك حين تفقد الخزانة، إذ لاحظ نقصاً في بعض الأواني وعهده بها ممتلئة بقطع النقود حتى أطرافها، وحار في الأمر، وقد وجد الأقفال والأختام على حالها دون أن تمس، فلما تكرر الأمر مرة بعد مرة، ووجد أن الفضة تتناقص من الجرار، كلما تفقد الخزانة أمر بنصب الفخاخ ليعلق بها الجاني حالما يهم بوضع يده في إحدى الجرار. ولقد جاء اللصان، في إحدى الليالي لسرقة الفضة، ودخل أحدهما غرفة الخزانة كالعادة، ولما اقترب من إحدى الجرار أطبق عليه الفخ.

فأدرك للتو ألا خلاص له من هذه المحنة فنادى أخاه وأخبره بما وقع، ورجاه أن يقطع رأسه، لئلا يتعرف الحراس عليه ويدركوا بالتالي حقيقة شريكه فتبين لأخيه صحة الرأي، فقطع رأسه ومضى به إلى بيته. وفي اليوم التالي جاء الملك ليتفقد الخزانة، فدهش إذ رأى في الفخ جثة اللص مقطوعة الرأس، وليس ثمة ما يشير إلى تخريب، أو دخول أو خروج من أحد! وكان يزداد حيرة كلما قلب الأمر على وجوهه، ولم يجد عندئذ سوى أن يأمر بتعليق الجثة في الخارج، واعتقال أي شخص يمر بها فتدمع عيناه، أو تظهر عليه علامات الحزن أو الأسى. فلما كان ذلك ضاقت أم اللص وحزنت لما حاق بولدها وما يتعرض له في مماته، فأخذت تتوسل إلى ولدها الآخر الحي بأن يفكر بحيلة يستعيد بها الجثة، بل وهددته بفضح أمره أمام الملك، إن لم يستجب لطلبها. فتذرع لها بمختلف الحجج والأعذار لتصرف النظر عن أمر الميت، ولكن عبثاً، فكلما كان يخرج بعذر يزداد إلحاحها عليه ليستعيد الجثة، حتى تفتق عقله في النهاية عن حيلة للخروج من هذا المأزق. فجاء بقرب ملأها بالنبيذ وحملها على ظهور الحمير وخرج بها إلى حيث كانت جثة أخيه معلقة بحراسة الجند. فلما بلغ المكان، ثقب عنق قربتين أو ثلاث فتدفق منها النبيذ، وأخذ هو يضرب رأسه بكفيه شاكياً، مبدياً الحيرة وكأنه لا يدري أي حمار عليه أن يعالج بين الحمير التي أفلتت وسط تلك الفوضى التي عمت الساحة، وتدافع الجند وقد هجروا مواقعهم لانتهاز المناسبة وشرب النبيذ، قبل أن يضيع، شاكرين الآلهة على هذه النعمة التي بلغتهم مجاناً. فتظاهر الفتى بالغضب وأخذ في شتمهم، فأخذ الجند يهدئون من ثورته، حتى تبدلت نبرته وبدا وكأنه استعاد هدوءه، فأخذوا يبعدون الحمير عن الطريق ويعيدون القرب إلى ظهورها. وفي غضون ذلك، وفيما كان الفتى يتجاذب الحديث والجند، أخذ أحدهم يمازحه وأطلق نكتة ساخرة، أضحكت هذا الفتي، فقدم لهم قربة نبيذ هدية بمناسبة اللقاء، فاندفعوا يشربون منها، ثم دعوا صاحبهم لمشاركتهم. وكان هذا غاية ما يسعى إليه، فكانت

الكؤوس تدور والفتى لا يبخل بالمزيد، فبدأت الرؤوس تدور بفعل الخمر ولم يعد بوسع أحد من الجند الوقوف، فجلسوا جميعاً ليتناولوا المزيد حتى فقدوا الرشد. وكان الليل قد انصرم إلا قليلاً حين وجد اللص الحرس يغطون في النوم، فقام وأنزل الجثة المعلقة، وإمعاناً في الإهانة قام بحلاقة الطرف الأيسر من ذقن كل خفير. ثم حمل جثة أخيه وعاد إلى البيت بعد ما أنجز مطلب أمه.

ولقد غضب الملك غضباً شديداً حين بلغه خبر الجثة المسروقة، فعزم على القبض على الرجل الذي بلغ هذا القدر من الحيلة، مهما كلفه الأمر. وما بلغني من هذا الخبر يصعب عليَّ تصديقه، ومع ذلك فإني أعرض ههنا رواية الكهنة عن الحيلة التي أمكن بها اعتقال الجاني. فقالوا إن الملك رعمسيس بعث بابنته إلى أحد المواخير ووجهها لأن تستقبل كل طارق، ولكن ليس له أن يستمتع بمحاسنها، إلا إذا روى لها رواية طريفة عن شطارته، فإذا استملحتها جادت عليه بكرمها، وإلا فدونه الباب. وكان عليها، إن روى لها أحدهم قصة اللص، أن تمسك به وتضيق عليه لئلا يفر منها. ولقد صدعت الصبية بما أمر والدها، وظلت تستجوب كل من سعى للتنعم بمحاسنها لتعلم منه أخطر وأشنع ما أتى به في حياته؛ ولقد بلغ أمرها اللص وعلم السبب وراء السؤال، فاشتدت به الرغبة في امتحان دهائه بدهاء الملك. فعمد إلى بتر يد شخص مات لتوه، ثم وضعها تحت عباءته، ومضى لزيارة ابنة الملك في ماخورها.

فلما طرحت عليه السؤال، قال لها إن أفظع ما أتى به كان قطعه رأس أخيه بعد ما علق في خزانة الملك، وأما شطارته فكانت في حمل الحرس على السكر ليتمكن من إنزال جثة الأخ عن الجدار حيث علقت. وما إن سمعت الصبية القصة حتى أمسكت به، فعمد عندئذ إلى دفع تلك اليد التي فصلها عن الجثة إليها، فلم تتبينها في ظلام الغرفة فقبضت عليها بيديها وتمسكت بها، وهي تحسبها يده، فتركها في قبضتها، وأفلت هو منها، وولى هارباً من الباب.

ولقد ذهل الملك لجرأة هذا الفتى وسعة حيلته؛ وأراد لقاءه، فأرسل الرسل

إلى كل مدينة وقرية في مصر ليعلنوا أن الملك يمنح الفتى العفو وجائزة مجزية، إن سلم نفسه. فوثق اللص بوعد الملك وذهب لمقابلته، وهناك، زوّجه رعمسيس ابنته لأنه وجده أذكى البشر جميعاً، إذ عرف المصريون بأنهم يبزون الآخرين في المعرفة، وها هو ذا رجل يبز المصريين جميعاً في الذكاء.

وهاكم رواية أخرى عن رعمسيس، وتذهب إلى أنه هبط ذات مرة إلى العالم السفلي، وتبارى وديميتر (أيزيس) في النرد، فكان يفوز حيناً ويخسر حيناً، ولما عاد إلى الأرض كان يحمل معه رداء من خيوط الذهب حاكته تلك الآلهة وقدمته له هدية. وقد أخبرني القوم أن المصريين جعلوا من نزول رعمسيس إلى العالم السفلي وعودته إلى الأرض مناسبة يحتفلون بها، وما انقطعوا عن ذلك إلى هذا اليوم - وإن كنت لا أملك الجزم بصحة الواقعة التي يذكرونها. وعهدنا بالكهنة أنهم ينسجون رداء يستغرقون في حياكته يوماً واحداً لا يزيد، ثم يضعونه بين يدي أحدهم ويمضون به معصوب العينين على الدرب المؤدي إلى معبد ديميتر، ويرافقه في هذا المسير ذئبان، حتى يبلغ المعبد، وهو على بعد أربعة عشر فرلنجاً من المدينة، ثم يعود مواكباً بالذئبين إلى حيث التقيا به. وللمرء أن يصدق هذه الروايات المصرية، إذا كان على قدر من السذاجة؛ أما أنا فإن حرصي على الالتزام بالخط العام الذي أخذت به عند وضع هذا الكتاب يحملني على توثيق تقاليد الأمم على اختلافها كما بلغتني من الشهود والرواة.

يذهب المصريون إلى القول بأن ديميتر (أيزيس) وديونيسوس (أوزيريس) هما أقوى آلهة العالم السفلي، وهما أول من خرج بالعقيدة القائلة بخلود الروح وذهب إلى أن الروح لا تفنى وإنما تحل عندما يموت الجسد في مخلوق آخر لحظة ولادته. وفي هذه العقيدة تدور الروح دورتها وتحل في مختلف المخلوقات من حيوانات وطيور وأسماك، حتى تحل في النهاية في جسد إنسان. وقد أخذ بهذه النظرية بعض الكتاب الإغريق المتقدمين والمتأخرين ونسبوا هذه العقيدة لأنفسهم. وهؤلاء معروفون لدي، ولكني أمسك عن ذكر أسمائهم.

ولقد ظلت مصر تنعم بالحكم الرشيد ورخاء العيش طوال عهد رعمسيس؛ ثم تردت الأحوال في عهد خلفه خوفو وروايتي هنا نقل عن محدثي الكهنة وحلت بهم المصائب والنكبات من كل نوع وشكل فكان من أعماله أنه أغلق المعابد، وحظر على رعاياه ممارسة عباداتهم، ثم فرض عليهم أعمال السخرة، كالعبيد الأرقاء، فيما يفيده شخصياً. فأكره البعض على العمل في جر الحجارة الضخمة من المقالع في جبال العرب إلى النيل ليقوم بنقلها عمال آخرون إلى التل الليبي[٤٨] . وكان هذا العمل يجري في نوبات ينهض بها مئة ألف رجل يبدلون كل ثلاثة أشهر. وقد استمرت أعمال العبودية والعسف هذه عشرة أعوام هي المدة التي استغرقها تجهيز الأرضية والأساسات التي حملت كتل الحجارة ـ وهذا عمل، هو في رأيي لا يقل ضخامة عن بناء الهرم ذاته ـ إذ يبلغ طول هذا البناء خمسة فرلنجات (أربعمئة وسبعة وخمسون متراً) وعرضه ستون قدماً (ثمانية عشر متراً)، وارتفاعه في أقصى نقطة ثمانية وأربعون قدماً (أربعة عشر متراً ونصف المتر)، وهو على الجملة مبني من الحجارة الملساء المزينة برسوم الحيوانات المحفورة. ولقد استغرق بناء هذا الصرح عشر سنوات، كما سلف القول، بما في ذلك بناء غرف الموتى تحت الأرض وهي قائمة على تل، وقد شقت قناة من النيل لتحيط بالموقع لتبدو للناظر كالجزيرة. أما الهرم ذاته فقد استغرق بناؤه عشرين عاماً، وهو بناء قاعدته مربعة الشكل يبلغ ارتفاعه ثمانمئة قدم وجوانبه المتساوية تتألف من حجارة ملساء، حسنة البناء، ولا يقل طول أي حجارة فيها عن ثلاثين قدماً. وكانت طريقتهم في البناء برفع الحجارة على رافعات تسمى بلغتهم كروساي، درجة فدرجة، فكان البناؤون إذا انتهوا من بناء القاعدة انتقلوا إلى الطوق الأول فيرفعون الحجارة عن الأرض بوساطة ألواح قصيرة من الخشب، ثم ينتقلون إلى الطوق الثاني، فيرتفع البناء على هذا النحو طبقة طبقة، ولكل طبقة أو طابق روافع خاصة، وقد يستخدمون الروافع ذاتها في تشييد الطوابق الأخرى، فينقلونها بعد إنزال الحمولة، من طبقة إلى أخرى،

تيسيراً للعمل. وقد استخدمت الطريقتان اللتان عرضت لهما هـهنا، وبعد الانتهاء من تشـيـيـد الهـرم بدأت أعـمـال الإكسـاء من الأعلى إلى الأسـفل، ثم تنتـهي بالأقسـام الدنيا الأقرب إلى الأرض وتثبت في النهاية لوحة دوِّن عليها بالحروف المصرية الهيروغليفية المبالغ التي أنفقت في إطعام العمال من مختلف المأكولات، مـثل الفـجل والبـصل والكراث، وأذكـر جيـداً مـا قـرأه عليَّ المترجم ما فـي تلك اللوحة من التكاليف، وبلغت ألفاً وستمئة طالن من الفضة. فإذا كان هذا الرقم صـحيحاً فكم من المبالـغ أنفقت في شراء الخبز واللباس للعمـال خلال سنوات العمل، ناهيكم عن الوقت الذي استـغرقه فـي الذهاب إلى المقالع والعودة منها، وحمل كتل الحجارة والصعود بها طبقة بعد طبقة، ثم الحجرات تحت الأرض.

ولكن خـوفو لم يكن بالرجل الذي يثنيـه عن غرضـه رادع. إذ لما أعوزه المال أرسل ابنته إلى مـاخور وأمرها بـألا تعود إلا ومعها المبلغ المطلوب ـ ولست أدري مـقداره، لأن مـحدثي لم يكشـف لي عن هذا الأمـر وقد نفذت الصبية أمـر أبيها، وزادت عليـه ليـخلد ذكـرها بعـد موتهـا، وكـانت وسيلتهـا إلى ذلك أن تطلب من زبائنها كتـلاً من الحجارة، وبها شـيد الهرم الأوسط من الأهـرامات الثلاثة (على ما تذهب الرواية)، والذي ينتصب بجانب الهرم الكبير ومـساحته مائة وخمـسون قدمـاً مربعـاً ولقد دام عـهد خوفو، حسب رواية المصريين خمـسين عامـاً، ثـم خلفه بعد موته أخوه خفرع[٤٩]، ولـم تكن سيرة الخلف بأفضل من سيرة السلف؛ فكان لا يقل عنه طغيانـاً وعسـفاً، وشـيد لنفسـه شـأنه شـأن أخـيه هرمـاً، إنما أصـغر حجماً من تلك الأهرامـات التي بناها خوفو (وقد قـمت بقياس أبعادها بنفسي). وليس لهذا الهرم حجرات تحت الأرض، ولا شقت له قناة من النيل، كما هو حال هرم خوفو. فتمديد القناة، كما سبق القول، يجعل منطقة الأهرام تبدو كالجزيرة، ويقـال إن هذا الهـرم يضـم جثمـانه. وجدير بالذكر أن هرم خـفرع يقـع قريبـاً من هرم خـوفو الكبـير، ثم إنه دونه ارتفـاعاً بنـحو أربعين قـدماً، ولكنه عدا ذلك يماثله حجماً، وقد شيدت مرتبته السفلى من الحجر الأثيوبي الملون.[٥٠] وهذان الهرمان

قائمان على تل واحد يبلغ ارتفاعه مائة قدم؛ ولقد استمر عهد خفرع خمسة وستين عاماً وهكذا استغرق بناء الأهرامات في حساب المصريين مئة وست سنوات، لم تفتح خلالها المعابد أبوابها للمتعبدين، وانحطت أحوال البلد وبلغت حد البؤس. والمصريون اليوم يظهرون لدى سماع اسم خوفو وخفرع أشد النفور ويمقتون ذكرهما؛ ولقد بلغت بهم الكراهية لذكراهما أن أطلقوا على الأهرامات اسم فيليتيس، وهو راع كان يرعى قطيعه في تلك الأيام في جوار الأهرامات.

ثم خلف خفرع منقرع[٥١] بن خوفو؛ وقد أخذ هذا بسياسة مخالفة لنهج أبيه، فأعاد فتح المعابد وحرر رعاياه من العبودية التي كانوا يرسفون فيها وسمح لهم بمتابعة عباداتهم واستئناف أعمالهم والقيام بالمهن. وقد نال منقرع أعظم سمعة ولم يبلغ مثله ملك من ملوك مصر من قبل لعدله وإنصافه في أحكامه، فكان له أعظم موقع في قلوب المصريين؛ وعرف عنه أنه كان يعوض من ماله الخاص من لم يكن يرضى بأحكامه في المنازعات بين الناس، فلا يدع لأحد مجالاً للشكوى أو التذمر.

وهكذا ساد منقرع بأريحيته وحكمه وعدله حتى نزلت به أول المصائب، عنيت موت ابنته الوحيدة. وقد شاء لشدة حزنه لمصابه الأليم أن يكون لها قبر لا مثيل له بين القبور، فأمر بصنع تمثال بقرة من الخشب مجوف من الباطن وإكسائه بالذهب ليحمل جثمانها. ولم تدفن البقرة بل ما زالت حتى أيامي موضوعة في حجرة مزينة، في القصر الملكي، بسايس، تحرق فيها دائماً مختلف أنواع البخور، وتضاء في الليل بنور المصباح. وقد أخبرني كهنة سايس، ونحن بالقرب من إحدى حجرات القصر، عن تماثيل تصور مَحْظِيَّات منقرع، وتحققت من ذلك وشاهدت في هذه الحجرة نحواً من عشرين تمثالاً ضخماً لنساء عاريات، ولكني لا أملك أن أجزم بحقيقة أمرهن، فحسبي أن أنقل ما بلغني، والعهدة على الراوي.

ويروي الرواة حكاية أخرى عن البقرة، وهي تختلف كل الاختلاف عن تلك التي وردت؛ فيذهب أصحاب هذه الرواية إلى أن منقرع كان يهيم بابنته حتى أنه اغتصبها، فلم تملك سبيلاً للخلاص من عذابها سوى أن تنتحر، فدفنت في جوف البقرة، وقطعت أمها أيدي خادمات القصر اللواتي سهلن للملك السبيل لبلوغ ابنته، وإن تلك التماثيل ترمز للخادمات بعد بتر أيديهن، ولذلك نجدها بلا أيد. ولكن هذه الرواية عندي محض هراء، وخاصة ما يتصل منها بحكاية التماثيل المبتورة الأيدي؛ فقد شاهدت تلك التماثيل بعيني، ورأيت تقادم الزمن عليها؛ وفي رأيي أن تلك الأيدي لم تبتر، وإنما تهاوت بفعل قدم العهد. وما تزال ملقاة هناك على الأرض، عند أقدام التماثيل، ظاهرة للعيان.

ولقد جللت البقرة بستارة قرمزية اللون، فلا يظهر ما سوى الرأس والعنق، بينما الجسم مطلي كله بطبقة سميكة من الذهب؛ ويتوسط جبينها قرص يرمز إلى الشمس. والبقرة هنا قاعدة غير منتصبة وحجمها ضخم كالبقرة كما نألفها في الطبيعة. وقد جرى المصريون على اصطحاب هذه البقرة في العيد السنوي، ومن عاداتهم أن يلطموا وجوههم حزناً على الإله الذي أمسك عن ذكر اسمه هنا (أوزيريس) فيأخذون البقرة من حجرتها إلى الخارج تحت أشعة الشمس؛ إذ يقال إن الفتاة أوصت أباها أن يخرج بها إلى الشمس مرة كل سنة.

وبعد موت الابنة حلت بمنقرع مصيبة أخرى، إذ بلغته نبوءة من المعبد في بوتو أن حياته ستمتد ست سنوات، وفي السابعة يموت. فرد برسالة مشحونة بالغضب، مقرعاً الإله لعسفه بحق رجل تقي مثله حتى يسلب منه حياته في سن مبكرة، بينما ترك أباه وعمه ليعيشا إلى سن متأخرة، وهما اللذان أغلقا المعابد، بينما كان هو من أعاد فتحها. فجاء الرد من المعبد على رسالته بأن حياته إنما اختصرت لأنه قصر عن عمل ما كان عليه، إذ حكمت الأقدار بأن تعاني مصر المصائب طوال مئة وخمسين عاماً، وهذا أمر أدركه سلفاه جيداً بينما عجز هو عن إدراكه. ولما تأكد له أن خاتمته آتية في الموعد المحتوم، أمر بإشعال عدد لا

حصر له من المصابيح والمشاعل، وانصرف للمتع يمضي الليل في الشراب واللهو، تحت أضوائها، متنقلاً من مكان إلى آخر، بين البحيرات والغابات، وكلما سمع ببقعة جميلة سافر إليها ليتمتع بها، وكان قصده من تلك المصابيح أن تنير له الليل فتحيله إلى نهار، فتمتد السنوات الستة المتاحة وتتضاعف فتصبح اثني عشر، فتكذب بذلك النبوءة. ولقد خلف هو أيضاً هرماً هو الهرم الثالث، وكان مربع الأضلاع، نصفه الأسفل من الحجر الأثيوبي، لكنه أصغر حجماً من ذلك الهرم الذي بناه والده، إذ لا يزيد طول ضلع القاعدة عن مئتين وثمانين قدماً.

ولقد نسب بعض الناس في بلاد الإغريق إلى بائعة الهوى رودوبيس بناء هذا الهرم، ولكن هؤلاء مخطئون فيما ذهبوا إليه، بل ولست أظن أن لهم معرفة بحقيقة رودوبيس هذه؛ ولو علموا حقيقتها لما كان ليخطر لهم ببال أن ينسبوا إليها مثل هذا الصرح العظيم بكل ما يترتب على بنائه من تكاليف تتجاوز التصور.ثم إنهم بنسب هذا المعلم إلى رودوبيس إنما يكشفون عن مبلغ جهلهم بالحقائق؛ ذلك أن هذه المرأة كانت في عصر أمازيس، لا في عهد منقرع ـ وعصر أمازيس متأخر جداً عن عصر الملوك بناة الأهرامات. ثم إنها كانت تراقية المولد، في خدمة أيادمون بن هيفايستوبوليس، في جزيرة ساموس ورفيقة أيسوب[٥٢] صاحب الحكايات في العبودية. والدليل الماثل على أن أيسوب كان عبداً لأيادمون هو دعوة أهل دلفي مراراً لصاحب الحق بالمطالبة بدية أيسوب، بناء على نبوءة العرافة جزاء لمقتله، فكان الرجل الوحيد الذي تقدم بهذه المطالب حفيد أيادمون (وهو يحمل الاسم ذاته).

وكان قد جاء بها إلى مصر اكسناثوس الساموسي لتمارس مهنتها، ودفع خراكوس الميتلاني، ابن سكامندرونيموس، وشقيق الشاعرة سافو، مبلغاً كبيراً من المال ليعتقها من عبوديتها. ولقد نالت رودوبيس حريتها على هذا النحو الذي ذكرت، ولكنها آثرت البقاء في مصر، وأصابت ثروة بفضل ما كانت تتمتع به من الحسن، وهي ثروة طائلة لمن كانت في مثل حالها، ولكنها ليست من الضخامة

بما يكفي لبناء هرم. أما القول إنها كانت من أهل الثراء الفاحش فادعاء لا طائل من ورائه، فبوسع من شاء أن يرى ما يبلغ عشر ما كانت تملك من المال في معبد دلفي إذ وهبت عشر مالها ليخلد ذكرها في بلاد الإغريق، وهذه الهبة عبارة عن سفود وقدور للطبخ. ومازالت موجودة خلف المذبح الذي أقامه الخيان، مقابل المصلى مباشرة. وكانت رودوبيس قد أصابت شهرة بين غواني نوكراتيس، وقد عرفن بالجمال، فغدا يتغنى بها كل إغريقي سمع باسمها، ولكن نجمها أفل بعد حين بظهور ارتشيديس التي وإن لم تَلُكِ الألسنة سيرتها بقدر رودوبيس التي تغنى بها الشعراء فشاع اسمها في طول بلاد الإغريق وعرضها. ولما عاد خراكسوس إلى ميتيلينه بعد أن اشترى لرودوبيس حريتها طلعت سافو تندد به في إحدى قصائدها. والآن حسبنا ما روينا من خبر رودوبيس.

ولقد أخبرني الكهنة أن اسيخس خلف منقرع، وهو الذي أضاف إلى معبد بتاح المدخل من جهة الشرق، وهو أضخم أبوابه الأربعة وأجملها، ولا يختلف عن الأبواب الثلاثة سوى أنه أحفل بالزخارف وتزويقات العمارة. وفي عهده شحت الأموال وتردت الأحوال فأصدر الملك مرسوماً يسمح برهن جثمان والد المدين، ثم زاد فيما بعد بأن سمح للدائن بحجز مقبرة أسرة المدين كلها لقاء الدين، فإذا مات المقترض دون أن يسدد دينه حرم من الدفن إن في مقبرة أسرته أو أي مقبرة أخرى، وحظر عليه أن يدفن جثمان أي من أقاربه في مقبرته.

ولما شاء اسيخس أن يتميز من أسلافه على العرش، كان خياره أن يشيد هرماً من القرميد تخليداً لذكرى عهده، فلما تم النصب وضع لوحة من الحجر وعليها العبارات التالية: «لا تقلل من شأني بمقارنتي بالأهرامات المشيدة بالحجر. فلقد نصبوا عموداً في بحيرة فلما تجمع حوله الطين جعلوا منه القرميد. وهكذا شيدوني. فأنا أفوق هذه الأهرامات مثلما يفوق رع جميع الآلهة».

ذلكم هو أمر هذا الملك كله. وحسبنا منه ما قلنا في شأنه، لننتقل إلى خلفه انيسيس[٥٣]، وكان رجلاً كفيفاً، جاء من بلدة تحمل ذات الاسم، وإليها ينتسب. وفي عهده حملت أثيوبيا، وملكها شاباكوس[٥٤]، على مصر حملة كبيرة، فهرب الملك الكفيف والتجأ إلى المستنقعات، تاركاً البلاد في قبضة الأثيوبيين الذين امتد حكمهم فيها خمسين سنة. وقد استن الملك شاباكوس سنة سار عليها بأن ضرب صفحاً عن عقوبة الموت للقاتل في مصر، فكان يعاقب من يأتي بجريمة وكل حسب خطورة جريمته بأن يعمل في رفع مستوى الأرض حول المدينة، وبذلك علت أرض المدن أكثر ما كانت عليه قبل دخول الأثيوبيين إذ يذكر أن مستوى الأرض كان قد رفع حينما شقت الأقنية في عهد سيسوستوريس. فكانت هذه المرة الثانية وأصبحت الأرض عالية على نحو ملحوظ. وأحسب أنه ما من مدينة في مصر بلغت من الارتفاع ما بلغته بوباستيس، حيث يقوم معبد بوباستيس (ارتميس عند الإغريق)، وهو جدير بالوصف. فلئن تكن بعض المعابد في بلاد مصر أضخم وأرحب وأوسع مساحة،ومنها ما كان أفخم، إلا أن معبد بوباستيس أدعى لمتعة النظر. فالبناء يقوم على بقعة من الأرض أشبه بالجزيرة، تحيط بها قناتان متفرعتان عن النيل من جانبيها حتى المدخل، حيث تنقطع القناة وتتوقف، ويبلغ عرض القناة مئة قدم، وتظللها الأشجار الوارفة على الجانبين. أما الباب فيبلغ ارتفاعه ستين قدماً، وهو مزين بالأشكال الجميلة التي يبلغ طولها زهاء تسعة أقدام. وهذا المعبد قائم وسط المدينة وأرضه أخفض مما حولها من المباني فيكون المشهد خلاباً للناظر أينما اتجه. ويحيط بالمعبد سور منخفض مزين بالنقوش، وفي داخله حرج من الأشجار السامقه تحيط بالمصلى، وهو عمارة كبيرة تضم تمثال آلهة المعبد، وتقوم على أرض تبلغ مساحتها فرلنجاً مربعاً. أما المدخل فيقود إليه طريق رصفت أرضه بالحجارة، ويبلغ طوله ألفي قدم وعرضه أربعمئة قدم، ويتجه شرقاً عبر السوق ويربط بين معبد بوباستيس. ومعبد هرمس (توت) تحف به الأشجار السامقة على الجانبين،

والتي تبدو وكأنها تطاول السماء.

ولقد قدر أن يترك شاباكوس الأثيوبي في النهاية مصر، أو يفر منها بالأحرى، بسبب حلم راوده، إذ رأى رجلاً يقف عند سريره ويشير إليه بأن يجمع كهنة مصر بين يديه، ثم يقطع جسم كل واحد من وسطه، وقيل عنه أن هذا الحلم كان إشارة من الآلهة لتدفعه إلى إثم يكون سبباً في كارثة تلحق به إما على يد الآلهة أو البشر. فكان أن آثر ألا يسير كما أراد له هذا الوحي أن يسير، بل العكس، فقد اختار مغادرة مصر بعد ما رأى الزمن المحدد لملكه هناك أشرف على نهايته حسبما رسمت النبوءة، وأشارت بأن المقدر له أن يحكم مصر خمسين عاماً، وكادت تنصرم الآن؛ فاجتمعت النبوءة والحلم المزعج على حمله على مغادرة مصر بمحض إرادته.

وبعد انسحاب الأثيوبيين عاد أنيسيس من منطقة المستنقعات، حيث أمضى خمسين عاماً في جزيرة من تلك المنطقة، أقامها من التراب والرماد، واستأنف من ثم حكم مصر. وكان يوجه المصريين خلال تلك السنوات، وكانوا يتولون تهريب الغذاء إليه في ملجئه خفية عن شاباكوس، ويأتون إليه فوق هذا بمقادير معينة من الرماد. وكان أمر تايوس أول من اكتشف الجزيرة، في تالي الأيام، بعد ما ظل موقعها مجهولاً طوال سبعمئة عام، وعجز الملوك اللاحقون عن تحديده. وتعرف اليوم باسم جزيرة إلبو، وهي مربعة الأضلاع، ويبلغ طولها من كل اتجاه عشر فرلنجات.

ثم خلف أنيسيس سيتوس، كبير كهنة هفيستوس (بتاح). ويقال إنه أهمل طبقة المحاربين المصريين وأزرى بهم، لأنه لم يكن يرى ضرورة لهم في حكمه. وبلغ عسفه بهم أنه حرمهم من الامتيازات الخاصة التي دأب الملوك القدامى على منحها لهم، ومن ذلك إقطاع كل فرد منهم مساحة تبلغ اثني عشر فداناً. وكان من نتيجة ذلك أن سيتوس لم يجد أحداً من تلك الطبقة مستعداً للتصدي للجيش العرمرم الذي جاء به سنحريب ملك العرب والآشوريين لحرب مصر. وكان

الموقف قد بلغ حداً عظيماً من التردي أمام هذا الزحف وضعف جيش المصريين، ووسط الحيرة لجأ الكاهن الملك إلى المعبد، ووقف أمام الصنم وشكا له مُرَّ الشكوى من الخطر المحدق بالبلاد. واستمر في الشكوى والندب ردحاً من الوقت، فجلس هناك وغلبه النعاس، وإذا به يرى الإله يتجلى له ويحثه على ألا يفقد جأشه أمام المحنة، ويحفزه على الخروج لمواجهة الغزاة، مبشراً أنه لن يصاب بضير إن فعل، لأن الإله سيأتيه بالنجدات ليشد في أزره.

فلما صحا الكاهن ـ الملك من المنام دبت فيه الهمة، فجمع ما استطاع من الرجال الذين خفوا لدعوته، ولم يكن بينهم فرد واحد من طبقة المحاربين، وإنما كانوا جمعاً خليطاً من أصحاب الحوانيت وأهل الصنائع وصغار الكسبة في الأسواق، ومضى بهؤلاء لملاقاة الغزاة عند بلوسيوم، وهناك اتخذ المدافعون مواقعهم. وبينما كان سيتوس يستعد لمواجهة العدو، هبت في الليل آلاف مؤلفة من جرذان الحقل وعصفت بالآشوريين فأتت على أقواسهم وأوتارها والجلد الذي يحمي مقابض دروعهم. ولما كان النهار، ولم يجد الآشوريون معدات يقاتلون بها، هجروا مواقعهم وتراجعوا متكبدين أفدح الخسائر. وما زال في معبد هيفستوس تمثال من الحجر لسيتوس، حاملاً بيده فأراً، وعليه هذه العبارة: «انظر إلي وتعلم توقير الآلهة».

كنت اعتمدت في هذا التاريخ حتى الآن على روايات المصريين وكهنتهم. وقد ذكرت لي تلك المصادر أن ما بين أول ملوك مصر وآخرهم سيتوس الذي أشرت إليه ثلاثمئة وواحد وأربعون جيلاً، ولكل جيل ملك وكاهن. وإذا اعتبرنا أن كل ثلاثة أجيال تعد مئة عام فلدينا في الثلاثمئة جيل عشرة آلاف سنة، وألف وثلاثمئة وأربعون سنة للأجيال الإحدى والأربعين الباقية؛ فيكون المجموع أحد عشر ألفاً وثلاثمئة وأربعين سنة، ويزيدون بأن ما من أحد من الآلهة قد تجلى خلال هذه الفترة من الزمن في شكل بشري، إن في عهد المتقدمين من الملوك أم المتأخرين. على أنهم أخبروني أن الشمس بدلت مطلعها ومغربها أربع مرات خلال هذه الفترة، فطلعت مرتين حيث كانت تغيب ثم غربت حيث كانت تشرق

عـادة. وأكدوا لي أن ذلك التحول لم يخلف أي أثر على مصر، فظلت الحقول تأتي بمحاصيلها المعتادة، والنهر على حاله، ولم تزد الأمراض أو الوفيات.

ولما زار المؤرخ هيكاتايوس [٥٥]طيبة، وسرد للكهنة تاريخ أسرته، وأعاد نسبها إلى أحد الآلهة في الجيل السادس عشر، سلكوا معه ما كان مسلكهم يوم اجتمعت بهم - وإن لم أنهج معهم نهج هيكاتايوس في سرد مشجرات النسب. فقد اصطحبوني إلى القاعة الكبيرة في المعبد وعرضوا أمامي التماثيل المحفورة من الخشب، وعددوها لي، فكان عددها ما ذكرت، إذ إنه من عاداتهم أن يجعلوا لكل كاهن تمثالاً، قبل رحيله، ويخلفه، كما أكدوا لي، وإذن فهي سلسلة نسب متصلة الحلقات بعضها ببعض، حيث يرث الابن أباه في منصبه. وقد رفض أولئك الكهنة تصديق هيكاتايوس حين بلغ بنسبه الجيل السادس عشر وأنكروا أن يكون لأي إنسان انتساب للآلهة. وردوا على زعمه بتقصي نسب كبار الكهنة إلى من سبقوهم، فكانوا يشيرون إلى كل تمثال على أنه يمثل «بيروميس» (وهي كلمة قد تعني السيد الكريم)، وهو ابن بيروميس آخر، ولم يحاولوا أن ينسبوا هؤلاء إلى إله أو بطل. وإذن فهذه تماثيل لمخلوقات، وهي أبعد ما تكون عن الآلهة لقد كان هؤلاء من البشر الفانين.

ومع ذلك فقد كان حكام مصر، قبل زمان أولئك، آلهة تعيش على الأرض بين البشر، فمرة هي منهم ومرة تسمو عليهم. وكان آخر تلك الآلهة الملوك حوروس بن أوزيريس، الذي يعادل أبوللو عند الإغريق، وهو الذي قهر الوحش تيفون[٥٦] (سيث) ويطلق الإغريق على أوزيريس اسم ديونيسوس.

إن الإغريق يعتبرون هرقل وديونيسوس وبان[٥٧] أحدث الآلهة عهداً؛ أما في مصر فبان عندهم قديم، وأحد الآلهة الثمانية السابقة لكل الآلهة الأخرى؛ وهرقل (خونصو) واحد من الاثني عشر إلهاً الذين ظهروا في الدور الثاني، وديونيسوس (أوزيريس) أحد آلهة الدور الثالث. ولقد ذكرت الزمن الذي يفصل بين ظهور هرقل وعهد أمازيس، والمصريون يذهبون، بعد، إلى أن بان أقدم عهداً، بل ويمضون إلى القول إن ديونيسوس، وهو الأحدث بين الثلاثة، ظهر قبل

خمسة عشر ألف سنة من عهد أمازيس. وهم يوردون هذه التواريخ بيقين لا ينال منه الشك؛ ذلك أنهم كانو يحرصون دائماً على تدوين الأحداث في زمانها. أما الفترة التي تفصل بين مولد ديونيسوس بن سيميلي بنت قدموس ويومنا الراهن فهي ألف وستمائة سنة وحسب، وتسعمئة سنة تقريباً لهرقل بن الكامينا، وبين بان بن بينلوبه - ويعتقد الإغريق أن بينلويه ولدته من هرمس - مدة لا تزيد عن ثمانمئة سنة، وهي مدة دون ما يفصل بين زماننا وحرب طروادة أي ما يقرب من ثمانمائة سنة.

وللمرء أن يأخذ بأي من القولين؛ وقد بسطت رأيي في موضعه. فإذا كانت الآلهة مثل هرقل بن امفتريون وديونيسوس بن سميلي وبان بن بينلوبه، قد عرفوا في بلاد الإغريق وشاخوا، فقد يمكن القول إن الأخرين بين الثلاثة كانا رجلين من البشر حملا أسماء آلهة كانت موجودة قبل عهد طويل؛ لكن الإغريق يذهبون إلى أن ديونيسوس خيط إلى فخذ زيوس لحظة مولده، ثم حمل إلى نيسا في أثيوبيا(٥٨)، وتقع بعد مصر؛ أما ما يتصل بمآل بان بعد ولادته فأمر يلف به الصمت. فإنه جلي لدي أن هذه الآلهة قد عرفت في عهد متأخر في بلاد الإغريق وظهرت بعد الآلهة الأخرى، والإغريق يسوقون نسبهم إلى الزمن الذي عرفوا فيه.

لقد كان المصريون حتى الآن المصدر فيما رويت، أما فيما سيأتي فإني سأعرض ما يقبل به سواهم أيضاً أنه تاريخ للبلد، إضافة إلى بعض ملاحظاتي الخاصة. واعلموا أنه مر بمصر بعد سيتوس عهد لم يعرف خلاله المصريون حكم الملوك. ولكن لما اشتدت الحاجة إلى ملك عمدوا إلى تقسيم مصر بين اثني عشر إقليماً، ثم جعلوا على رأس كل إقليم ملكاً. ولقد ساد الوئام والتفاهم بين هؤلاء الملوك بعدما توطدت بينهم العلاقات بفضل المصاهرة فيما بينهم وتفاهمهم على ألا يحاول أحدهم إزاحة أي من الملوك الآخرين عن عرشه أو توسيع سلطانه على حساب الممالك الأخرى، وأخذوا المواثيق والعهود على بعضهم

بعضاً بالالتزام بهذا الاتفاق، خشية أن تتحقق النبوءة بأن من يصب الشراب من قدح برونزي في معبد هيفستوس (بتاح) سيكون سيد مصر. وكان هؤلاء الملوك يعقدون اجتماعاتهم في كل المعابد بلا تمييز.

ولتدعيم عرى الصداقة بينهم عزم هؤلاء الملوك على تخليد ذكرى عهودهم بعمارة يشتركون فيها جميعاً. فأقاموا تلك العمارة المتاهة(٥٩) وتقع في أعلى بحيرة امنحوتب(٦٠)، بالقرب من مكان يدعى مدينة التماسيح. ولقد شاهدت هذا الصرح ومبلغ روعته التي تعجز العبارات عن وصفها؛ ولا ريب أن أصحابه قد تكلفوا في بنائه من المال والجهد ما يفوق كلفة بناء الأسوار والمرافق العامة في بلاد الإغريق كلها - وإن لم يكن هناك من يملك أن ينكر روعة المعابد في أفسوس وساموس. وليس هناك من ينكر روعة العمارة في بناء الأهرامات، فهي صروح تدعو للعجب، وكل منها له من الكلفة ما يعادل العديد من الأعمال الضخمة في بلاد الإغريق، إلا أن المتاهة تفوق تلك العمائر على الإطلاق. إن هذا الصرح يضم اثني عشر قصراً، تنتصب كل ستة منها في صف، أحدهما باتجاه الشمال والآخر باتجاه الجنوب، وأبوابها متماثلة ومتقابلة، ويضمها جميعاً سور خارجي واحد متصل. ويتألف المبنى من الداخل من طابقين يشتملان على ثلاثة آلاف حجرة، نصفها تحت الأرض ونصفها الآخر فوقه. ولقد كان لي أن أجول في حجرات الطابق الثاني الأعلى، وبالتالي فإن ما سيأتي يعتمد على مشاهداتي، أما الطابق السفلي فامتنع عليّ زيارته، ولذلك فإن ما سيأتي من الوصف يعتمد على رواية الرواة؛ ذلك أنه لم يتيسر لي دخول ذلك الطابق، لممانعة المصريين في ولوج مكان يضم قبور الملوك الذين شيدوا المتاهة والتماسيح المقدسة. أما الطابق الأول فقد كان مفتوحاً للزيارة، وما رأيته هناك ينأى عن الوصف حتى ليكاد لا يصدق المرء أن ما يشاهده الناس من صنع الإنسان؛ وقد عجبت لتلك الممرات المعقدة التي تصل الحجرة بالأخرى والقصر بالقصر والحجرات بالأروقة، والأروقة بمزيد من الحجرات وتؤدي إلى أروقة

أخرى وهكذا، دواليك، وكان ذلك كله عندي مثار استغراب لا ينقطع. ووجدت كل سقف وجدار وقصر ورواق شأنه شأن الأسوار مبنياً من الحجر. والجدران مزينة هناك بالنقوش، وكل قصر مبني على أجمل نحو بالمرمر الأبيض ومحاط بصف من الأعمدة. وهناك، بعد، بالقرب من الزاوية التي تنتهي بها المتاهة هرم يبلغ ارتفاعه مئتين وأربعين قدماً موشى بنقوش تمثل أشخاصاً وحيوانات، وممر تحت الأرض يؤدي إلى داخل البناء. وليس يقل عن المتاهة روعة ما يعرف عندهم باسم بحيرة امنحوتب التي تمتد إلى طرفها، بل ولعلها أدعى للعجب، إذ يبلغ محيطها ثلاثة آلاف وستمئة ستاد أو ستين شوينه وهذا يعادل طول ساحل مصر كله؛ وللبحيرة شكل متطاول في جزئيه الشمالي والجنوبي، وتبلغ من العمق خمسين قامة. وبعد، فالجلي هو أن هذا الحوض الضخم من صنع الإنسان، وشاهدنا على ذلك الهرمان اللذان يقومان وسط البحيرة تقريباً، وعلى ارتفاع ثلاثمئة قدم (وقاعدتاهما تغوصان تحت سطح الماء بذات البعد) وعلى كل منهما نقش شكل رجل جالس على كرسي العرش. والبحيرة لا تتغذى من ينابيع طبيعية قريبة (المنطقة بالغة الجفاف)، وإنما تستمد مياهها من نهر النيل الذي يبلغها عبر قناة، على مدى ستة أشهر من السنة، ثم تفرغ خلال مثل هذه المدة. وفي فترة التفريغ تدفع البحيرة للخزانة قيمة السمك الذي يصطاده الصيادون، ويبلغ طالن من الفضة، أما في الشهور الستة الأولى فلا تتقاضى سوى ميناي واحد، أي ثلث المبلغ من الفضة. لقد أخبرني أهل المنطقة أن ثمة قناة ناحية الغرب وتتوغل في الداخل على امتداد التلال، أعلى مدينة ممفيس، وتصب تحت الأرض في السيرتيس الليبية ولما كنت حريصاً على معرفة مآل تراب الأرض التي حفرت لتكون موقع البحيرة، إذ لم ألحظ له أثراً في ذلك المكان. فأتاني أهل المنطقة بجواب مقنع، إذ إنني أذكر قصة مماثلة حدثت في نينوى، عاصمة الآشوريين وتفصيلها أنه كان لدى الملك سردنبال[٦١] كنز عظيم وقد أخفاه في قبو مسلح، فعلم بعض اللصوص بأمره وتآمروا لسرقته بأن

حفروا من البيت حيث كانوا يقيمون سرداباً يصل إلى القبو. وقد اعتمدوا في تخطيطهم لهذه السرقة على حدسهم، فقدروا الاتجاه والمسافة إلى المكان تقديراً، وكانوا كلما أزاحوا شيئاً من التراب في أثناء حفرهم ذلك السرداب ألقوا به في الليل في نهر دجلة الذي يمر بالمدينة، حتى أنجزوا المهمة. وقيل لي إن العمال عملوا بهذا الأسلوب في التخلص من التراب في أثناء حفر البحيرة - سوى أنه ما كان عليهم انتظار حلول الظلام، فكانوا يحفرون ثم يرمون التراب مباشرة في مجرى النيل، وهم موقنون بأن النهر سيحمله ويطرحه في جريانه.

ولقد مضى عهد والملوك الاثنا عشر على ميثاقهم بألا يعتدي أحدهم على حق الآخرين ويتجاوز أرضه، حتى كان موعد لقائهم المألوف لتقديم القرابين في معبد هيفستوس (بتاح)، حين ذهب كبير الكهنة، في اليوم الأخير وهو اليوم المعين لصب الشراب المقدس على المذبح، ليأتي بالكؤوس الذهبية المحفوظة خصيصاً لهذه المناسبة، فعاد بها منقوصة، سهواً. فلما وزع الكؤوس لم يجد واحدة ليقدمها لبسميتاك الذي كان موقعه في آخر الصف، وكان يضع على رأسه كعادة الملوك خوذة من البرونز، فلما وجد نفسه بلا كأس، قدم خوذته بعفوية ليتناول بها حصته من النبيذ وهو لا يقصد سوءاً، ولكن الملوك الآخرين تذكروا عندئذ النبوءة القديمة التي تقول إن من يتناول الشراب المقدس من كأس برونزية لا بد أن يكون مآله الملك على مصر. فمضوا إلى التحقيق معه، ولما أيقنوا أنه لم يقصد بذلك العمل سوءاً، فلم يصدروا عليه حكمهم بالإعدام بل قاموا بتجريده من الكثير من سلطاته، ونفوه إلى منطقة المستنقعات، وحظروا عليه مغادرة منفاه أو الاتصال بأي شكل ببقية الأقاليم.

وكان هذا النفي الثاني الذي يخبره بسميتاك؛ فلقد سبق أن عاش حياة المنفى يوم هرب من مطاردة شاباكوس الأثيوبي بعد ما قتل أباه، نيكوس؛ وقد التجأ يومئذ إلى سورية؛ ولما انسحب شاباكوس من مصر، بعد ما رأى ذلك الحلم، استدعاه المصريون في إقليم سايس ليكون ملكاً عليهم. وها هو ذا حظه

العاثر الآن يدفع به من جديد إلى حياة المنفى في المستنقعات بقرار من أحد عشر ملكاً ـ وذلك كله بسبب شربه من الخوذة ولقد استبد الغضب به للعسف الذي نزل به فعوّل على الانتقام. وبعث يطلب النصح من العرافين في معبد ليتو في مدينة بوتو (وكان مشهوداً لهم في كل مصر بالشدة) فجاءه الجواب أن الانتقام سيأتي من جهة البحر، حيث يظهر رجال من البرونز. ولكن بسميتاك لم يصدق تلك النبوءة، واستبعد أن ينجده أناس من البرونز؛ ثم لم يمض إلا بعض الوقت حتى صادف أن نزل على ساحل مصر جماعة من البحارة من أيونيا وكاريا[٦٢] كانوا قد أبحروا لغرض السلب بعد ما اضطرتهم أحوال الطقس السيئة للنزول هناك وكان هؤلاء يرتدون دروعاً من البرونز، فشاهدهم أحد المصريين وذهل لمرآهم فهرع ليخبر بسميتاك في منفاه في المستنقعات بنزول رجال من البرونز إلى الشاطئ وما يقومون به من أعمال نهب وسلب في المنطقة. ولكنه رأى فيهم تحقيقاً للنبوءة فاتصل بهؤلاء المغيرين وصادقهم، وأقنعهم بالوعود أن يكونوا في خدمته، فكانوا مع أنصاره عوناً له في الحرب على أعدائه الأحد عشر، وأمكن له أن يطيح بهم. فلما تحقق له الانفراد بالحكم التفت إلى معبد هيفستوس في ممفيس فبنى بوابته، وشيد في مواجهته قصراً للإله آبيس، إبافوس عند الإغريق. وهو يشتمل فيما يشتمل عليه ساحة رصفت عليها التماثيل المزينة بالأشكال النافرة، بدلاً من الأعمدة.

ولقد منح بسميتاك الأيونيين والكاريين الذين ساعدوه في استعادة العرش قطعتين من الأرض على جانبي النيل، وكانتا متقابلتين، وعرفتا باسم المعسكرات، وكان وفياً لكل وعوده لهم. بل ومضى إلى حد أنه عهد إليهم ببعض الفتيان المصريين ليعلموهم الإغريقية، وبذلك بدأ عهد طبقة المترجمين المصريين. تقع هذه الأرض التي حل بها الأيونيون والكاريون واستقروا على مدى سنين من الزمن قريباً من بوباتيس باتجاه البحر، عند بلسيوم. ولقد قام أمازيس بنقلهم فيما بعد وجعل مقامهم في ممفيس ليكونوا بجانبه لحمايته من قومه. وكانوا بإقامتهم هناك أول الغرباء الذين اتصلت بهم العلاقات بمصر، وغدت لنا منذ

ذلك الحين معرفة دقيقة بتاريخ مصر، بدءاً من عهد بسميتاك. وعهدي أن مرابعهم ومنازلهم الأولى ما تزال شواهد هناك في يومنا هذا. فتلكم، إذن، هي قصة فوز بسميتاك بعرش مصر.

لقد ذكرت المعبد المصري غير مرة، ولكنه لما كان على قدر عظيم من الأهمية فإنني أبسط في وصفه بما هو جدير به. إن هذا المعبد قد بني للإله ليتو، وسط مدينة بوتو، كما سلف القول، عند رأس البرلس، على الطرف الأيمن من النيل حين يكون القدوم من جهة البحر. وتضم هذه المدينة معبدين آخرين أيضاً، أحدهما لأبوللو (أوزيريس) والآخر لأرتميس (بوباستيس). ومعبد الإله ليتو بناء عظيم له بوابة تنتصب على ارتفاع ستين قدماً، ولكن ما يثير العجب في هذا المعبد هو مصلى صغير داخل الحرم بني من كتلة واحدة من الحجر، شكله مكعب، يبلغ طول كل جانب منه ستين قدماً، وارتفاعه ستون قدماً أخرى؛ وسقفه كتلة واحدة من الحجر تتجاوز الجدران مسافة ستة أقدام. وهذا أشد ما أثار في العجب هناك بين ما شاهدت؛ ثم تأتي بعد ذلك الجزيرة المسماة بجزيرة شميز (مانوبوليس)، وتقع هذه الجزيرة داخل بحيرة مترامية الأطراف، قريباً من المعبد، ويقول المصريون فيها إنها تطفو على سطح البحيرة، ولكني لم أر لها حركة وقد استغربت قولهم حتى تساءلت حين سمعت بها إن كان هناك حقاً جزيرة تطفو. ويقوم على هذه الجزيرة معبد ضخم لأبوللو (حوروس)، ويضم ثلاثة مذابح منفصلة عن بعضها بعضاً، وفيه الكثير من أشجار النخيل، ومنها المثمر. ومنها ما لا يحمل ثمراً. وللمصريين أسطورة يروونها عن هذه الجزيرة، فيقولون إن ليتو، إحدى الآلهة الثمانية الأصلية كانت تقيم، في قديم الأزمان، في بوتو، حيث معبدها الآن. وهناك استقبلت حوروس بن أويزيريس، دلالة على ثقة أيزيس بها، فأنقذته من الوحش تيفون[٦٣] (سيث) بعد بحث طويل عنه في أرجاء العالم، بأن أخفته في تلك الجزيرة بعد أن جعلتها تعوم ليكون بعيداً عن متناوله. ويذهب المصريون إلى أن حوروس وبوباستيس ولدا من زواج أيزيس

وأوزيريس وقد أنقذتهما ليتو وهي التي قامت على تربيتهما. وأبوللو عند المصريين هو حوروس، وديميتر هي أيزيس، وارتميس هي بوباستيس. واستناداً إلى هذه الرواية جعل اسخيلوس أوفريون أرتميس ابنة ديميتر (أيزيس عند المصريين)، وهي فكرة لا نقع عليها عند الشعراء السابقين وفي هذه الحوادث يكمن سر الجزيرة، التي تسمى اليوم الجزيرة العائمة.

دام عهد بسميتاك أربعة وخمسين عاماً، منها تسعة وعشرون قضاها في حصار أزوتوس[٦٤]، وهي مدينة عامرة في سورية، حتى حاز عليها في النهاية. وقد كان صمود أزوتوس الأطول فيما بلغنا من التاريخ.

وكان بسميتاك قد أعقب ولداً هو نخاو، الذي خلفه على العرش. ونخاو هذا هو الذي بدأ شق القناة إلى خليج العرب (البحر الأحمر) ثم أكمل العمل داريوس الفارسي. يبلغ طول هذه القناة مسافة تستغرق من المسافر رحلة أربعة أيام يقضيها في القارب، ولها من العرض ما يتسع لسفينتين من ذوات ثلاثة الصفوف من المجاذيف، والمياه ترد من النيل الذي تفترق عنه على مسافة قصيرة من بوباستيس وتتجاوز مدينة باتومس العربية، لتصل إلى البحر الأحمر. إن القسم الأول من مجرى القناة يحاذي الجانب العربي من سهل مصر، وهو إلى الشمال قليلاً من سلسلة التلال الواقعة قريباً من ممفيس، حيث مقالع الحجارة؛ ويمر مجرى القناة بأطراف تلك التلال من الغرب إلى الشرق حتى يدخل ممراً ضيقاً وينحدر بعده جنوبياً، حتى يصب في البحر الأحمر وتبلغ أقصر مسافة بين البحر الأبيض المتوسط، أو بحر الشمال، وبحر الجنوب، أو المحيط الهندي، أو بعبارة أخرى من جبل كاسيوس بين مصر وسورية إلى البحر الأحمر، قرابة ألف ستاد.

وهذا الطريق هو الطريق المباشر، ولكنه ليس بالطريق المستقيم، والسفر فيه يستغرق وقتاً أطول. ولقد كلف بناء القناة في عهد الملك نخاو حياة مائة وعشرين ألف مصري، ولم ينجز، إذ صدرت النبوءة التي تحذر الملك بأن هذه الأعمال

ستنتهي إلى فائدة البرابرة ـ وهو اللقب الذي يطلقه المصريون على كل من لا ينطق بلسانهم. فالتفت إلى شن الحروب، فعمر أسطولاً من السفن الضخمة، فبنى بعضها في أحواض على ساحل المتوسط، وبعضها على ساحل البحر الأحمر، حيث ما زال يمكن للمرء أن يشاهد تلك الأحواض في أيامنا، ليستفيد من هذه الأساطيل كلما دعت الحاجة إليها؛ كذلك هاجم السوريين في البر واستولى على مجدلوس[٦٥] وكاديتس (غزة)، وهي حاضرة عامرة في سورية، وقد أرسل نخاو هذا ما كان يرتدي من ملابس على سبيل النذر إلى معبد أبوللو في برانشداي، بميليسيا. ثم مات بعد عهد استمر ستة عشر عاماً، فخلفه ابنه بساميس.

وبعد أن تولى بساميس[٦٦] العرش جاءه وفد من الإيليين، وأخذوا يتفاخرون أمامه بروعة تنظيم الألعاب الأولمبية، قائلين إنه لا يمكن حتى للمصريين أنفسهم، وهم أقدر الناس، أن يبزوهم في هذا التنظيم. ولما سمع الملك مقالة الأيليين، وتبين له سبب زيارة الوفد، دعا جمعاً من أهل العلم من رعاياه، وعرض عليهم ما بلغه من زائريه. فأخذ الحكماء عنده في طرح الأسئلة على الوفد، فعرض أعضاؤه نهجهم في تنظيم الألعاب بالتمام. ولما انتهوا من التفصيل في العرض، بسطوا قصدهم من الزيارة فقالوا إنهم إنما أرادوا معرفة رأي المصريين إن كانت هناك طريقة أكثر إنصافاً في تنظيم الألعاب يقترحونها عليهم. فسألهم المصريون بعد مداولة إن كان الأيليون يتيحون لأهل مدينتهم المشاركة في الألعاب، فلما أجابهم أعضاء الوفد بأن المباريات مفتوحة أمام كل أبناء الولايات الإغريقية، بما فيها إيليس ذاتها، قال المصريون إن في هذا المبدأ في تنظيم المباريات على هذا النحو إجحافاً، إذ يستحيل ألا ينحاز المنظمون إلى أبناء بلدهم، دون الغرباء، فإذا كانوا ينشدون العدل في التحكيم، وكان هذا غرضهم حقاً من زيارة مصر، فالأجدر بهم أن يدعوا المباريات مفتوحة للضيوف وحدهم، فلا يسمحوا لأي مواطن من إيليس المشاركة فيها.

وكان من أعمال بساميس خلال السنوات الست من عهده القصير أنه حمل

على أثيوبيا، ثم مات بعد تلك الحملة، فخلفه ابنه أبريز. ولقد أصاب أبريز هذا ثراء لم يبلغه أحد من الملوك قبله سوى جده بسميتاك، وخلال عهده الذي دام خمسة وعشرين عاماً خاض بجيشه حرباً ضد صيدا، ومعركة بحرية مع أهل صور. ولكنه لم ينج مع ذلك من تصاريف الأيام في النهاية، مما سوف أعرض له مفصلاً في معرض حديثي عن زيارتي لليبيا. إنما حسبي الآن عرض تلك الوقائع باقتضاب: منيت حملته على كيرينة(٦٨) بالفشل الذريع، وكان هو المسؤول عن هزيمة قواته،واعتقد المصريون يومئذ أنه تعمد الزج بهم في معركة مدمرة لهم، وقد شاء القضاء عليهم ليخلو له الأمر فيحكم قبضته على ما بقي حياً من رعاياه. فلما عاد من بقي على قيد الحياة من جنود الحملة، وقد ثارت نقمتهم عليه، هبوا عليه في انتفاضة اشترك فيها أصدقاء من قضوا في الحرب. وكان أن وجه الملك أبريز عندئذ أمازيس لمقابلة الثائرين ومحاولة إقناعهم بالخضوع فبذل هذا ما في وسعه لإقناعهم بالتخلي عن الثورة والعودة إلى أعمالهم، ولكن أحد أولئك الناقمين، وكان يقف خلفه في أثناء الحديث، حمل خوذة ووضعها فوق رأسه معلناً أنه ينصب بذلك أمازيس ملكاً على المصريين. فلم يجد في هذا التصرف ما يدعو للانزعاج، فما إن عرض عليه الثوار العرش، حتى تهيأ للمسير بهم ضد أبريز الذي استدعى إليه بطاربيميس، وكان من المقدمين في قصره، عند سماعه بأخبار الزحف، وأمره بإحضار أمازيس حياً. وكان رد أمازيس على بطاربيميس حين حمل إليه استدعاء أبريز، أن نهض عن سرج الحصان وكان راكباً جواده وأطلق ريحاً مدوية، وقال له أن يحمل ما سمع منه إلى سيده. ولقد ألح بطاربيميس واشتد في الإلحاح على أن ينصاع المتمرد لأمر مليكه ويمضي معه، فرد عليه بقوله إن هذا ما هو عازم عليه فعلاً، ولن يدع للملك مجالاً للشكوى - أما أنه قادم إليه فأمر لا ريب فيه، ولسوف يكون معه حشد من الرجال. فلما سمع ما قاله أمازيس وشاهد استعداداته لم يعد يساوره شك فيما اعتزم عليه؛ فأسرع إلى القصر ليخبر الملك بتطور الأحداث.

فلما علم الملك بعودته دون أمازيس اشتد هياجه، وأمر بجدع أنفه وقطع أذنيه. وحين رأى المصريون، وكانوا حتى تلك اللحظة على ولائهم للملك، ما حل بابن جلدتهم والمعاملة المخزية التي قوبل بها رغم رفعة مكانته، تحولوا إلى الثائرين، جنوداً تحت لواء أمازيس. ولما بلغ أبريز خبر انضمام المصريين إلى معسكر الأعداء عمد عندئذ إلى حشد قوات المرتزقة لديه وكانوا ثلاثين ألفاً من الكاريين والأيونيين الذين كانوا معه في سايس وسار بهم للقتال؛ بينما كان المصريون يتقدمون بقيادة أمازيس للقائهم.

يتألف مجتمع المصريين من سبع طبقات، حسب حرفهم: الكهنة والمحاربون ورعاة البقر ومربو الخنازير والتجار والتراجمة والملاحون. ويعرف المحاربون باسم الكلاسيريين والهرموطيبيين، وهؤلاء يأتون من المناطق التالية (تنتظم مصر كلها في مناطق محددة): الهرموطيبيون من بوسيرس. وسايس وخِمِّيْز وبابرميس وجزيرة بروسوبيتيس ونصف ناثو[٦٩]. ويبلغ عددهم مئة وستين ألف محارب في أقصى الأحوال. وهؤلاء لا يتعاطون العمل بأي حرفة، ولكنهم يتلقون جميعاً التربية العسكرية. أما الكلاسيريون فمصدرهم طيبة وبوباستيس وأفطيس ونانيس ومنديس وسبنيطيوس وأثريبيس وفاثاربيس، وطمويس، وأونوفيس، وأنيسيز، وميكفوريس (جزيرة مقابل بوباستيس)[٧٠] وقد يبلغ عدد هؤلاء قرابة المئتين والخمسين ألف جندي، ويحظر عليهم أيضاً امتهان أي حرفة أو مهنة أخرى، وتأهيلهم محصور بالتربية العسكرية، ويتوارثون المهنة أباً عن جد، ولست أستطيع القول جازماً إن كان الإغريق قد أخذوا فكرة حرفة الجندية عن مصر أم لا: ولكن هذا النزوع شائع بين الأمم، وقد لاحظت أن التراقيين والسكيث والفرس والليديين ـ بل وكل الغرباء يحطون من شأن أصحاب الحرف وأبنائهم ويعتبرونهم دون أولئك الذين لا يؤدون الأعمال اليدوية في المرتبة الاجتماعية، إذ يعتبرون هؤلاء الذين أعدوا للحرب، بين النبلاء. ولقد أخذ الإغريق وخاصة الإسبارطيون بهذا النهج؛ ولكن هذا النفورمن الحرفة والعمل اليدوي

ضعيف في كورنث.(٧١)

لقد تمتعت طبقة المحاربين المصرية بامتيازات معينة لا تشاركها فيها من الطبقات الأخرى، سوى طبقة الكهنة، فكان كل فرد منها يقطع أرضاً تبلغ مساحتها اثني عشر آوراي (ما يعادل ١٠ فدادين) لا يدفع عنها ضريبة. وكانت هناك امتيازات أخرى لا تمنح للطبقة كلها وإنما يتمتع بها الفرد منهم حيناً لمرة واحدة ثم تنتقل إلى سواه، ومنها أن يخدم ألف من الجنود الكلاسيري ومثلهم من الهرموطيبيين كل سنة في حرس الملك، ويتلقى الجندي منهم مخصصات إطعام يومية، هي خمسة أرطال من الخبز ورطلين من لحم البقر وأربع كؤوس من النبيذ.

ولقد أبدى الجنود المرتزقة كل استبسال في المعركة التي دارت بين الملك أبريز والمتمردين بقيادة أمازيس، لكن الغلبة كانت للكثرة، فدحر الملك وجنوده. وقد قيل إن أبريز كان على قناعة راسخة بأن سلطته موطدة، وليست هناك من قوة تقدر على إزاحته عن العرش، ولو كانت قوة إلهية؛ ولكن تلك كانت أسوأ معاركه ووقع فيها أسيراً، ومن ثم نقل إلى قصره الملكي في سايس ـ سوى أنه لم يعد ملكاً له بعد أن استولى عليه أمازيس المنتصر ـ وظل في هذا القصر مكرماً من قاهره حيناً، حتى أخذ المصريون في النهاية على أمازيس عدم الإنصاف في رعايته رجلاً كان ألد أعدائه وأعدائهم، وطلبوا تسليمه إليهم. ولما كان ذلك خنقوه ثم دفنوا جثته في مقبرة أسرته في معبد أثينا (نيت)، بالقرب من المذبح، على الطرف الأيسر من المدخل. وكان من تقاليد أهل سايس دفن جميع الملوك الذين ينتمون إلى منطقتهم في ذلك المعبد ـ ولذلك تجد ضريح أمازيس أيضاً هناك، وإن كان موقعه أبعد من موقع أضرحة أبريز وأسرته من المذبح ـ وهو بناء من الحجر عظيم مسقوف ومزين بالأعمدة التي شيدت بشكل أشجار النخيل، وقد حفلت بالنقوش المترفة. وهناك في داخل البناء حجرة مزدوجة الأبواب تؤدي إلى المدفن. ويضم هذا المدفن ضريح من لا أود ذكر

اسمه في هذا المقام (أوزيريس)، ويقع خلف المصلى، محتلاً الجدار كاملاً. ويضم البناء عدداً من المسلات الضخمة، وبالقرب منه بحيرة بنيت أطرافها بالحجر، مستديرة الشكل، وتعادل شكلاً وحجماً بحيرة «الدولاب» في جزيرة ديلوس. وعلى ضفاف هذه البحيرة يؤدي المصريون، في عتمة الليل، طقوس ما يسمونه بـ «أسرار آلام» من أمسك عن ذكر اسمه (أوزيريس)، وتفاصيلها معلومة لدي - ولكني لن أخوض فيها، كذلك سأمسك عن الخوض في الطقوس السرانية في عبادة ديميتر (أيزيس) التي يطلق عليها الإغريق اسم ثيسموفوريا، وإن يكن لنا أن نستعرض منها ما لا يمس قداسة العبادة. ولعلي أذكر مثلاً أن هذه الطقوس انتقلت من مصر على يد بنات داناوس، وعنهن أخذتها نساء البلاسجة، ثم ضاعت بعد اجتياح الدوريين الجزر البيلوبونيزية، ولم يعد هناك من يقوم على ممارستها سوى الأركاديين الذين لم يمسهم الغزاة.

بعد الإطاحة بإبريز على النحو الذي فصلت ارتقى أمازيس العرش، وهو من أبناء مدينة سيوف من أعمال سايس[٧٢]. ولقد استقبله المصريون في بداية الأمر بالازدراء بسبب تواضع منبته، ثم تمكن منهم بدهائه، دون أن يلجأ إلى القسوة أو العنف. إذ كان لديه كنوز لا حصر لها، ومنها طسوت من الذهب ليغطس وضيوفه أقدامهم فيها، فعمد إلى تذويبها وجعل منها تمثالاً لأحد الآلهة ثم نصبه فيما رأى أنه المكان الأنسب لعرضه وسط المدينة. وقد بلغ أماسيز أن المصريين لا ينقطعون عن زيارة هذا التمثال ويبدون أعظم الإجلال له، فدعا عندئذ إلى اجتماع حاشد كشف فيه للجمع أن التمثال الذي يجلونه ويبجلونه إنما كان في الأساس طستاً يغسلون فيه أقدامهم ويتبولون ويتقيؤون فيه. ومضى الملك في خطابه فقال لجمهور المستمعين إن حاله كحال هذا التمثال، إذ إنه كان رجلاً عادياً ثم أصبح ملكاً، وهذا كان طستاً تغسل فيه الأقدام ثم غدا نصباً موقراً؛ وكذلك جدير بهم أن يبدوا له الإجلال بما هو حق للملك. وهكذا كان أن حمل أمازيس المصريين على التسليم به سيداً عليهم. وكان أمازيس دقيقاً في تنظيمه

لأيام العمل، واختط لذلك مبدأ لا يحيد عنه، فينصرف، منذ مطلع الفجر حتى وقت حركة الأسواق، للنظر فيما يعرض عليه من الأمور، ثم يمضي بقية اليوم في الترويح عن نفسه بالتسلية ومقارعة الخلان في الشرب وتبادل النكات. ولقد كان هذا السلوك مدعاة لألم الأصدقاء المحبين، فنصحوه بالصلاح، وجاءه من ينصحه: «يا مولاي، إن مضيت في هذا الهزار أضعت هيبة الملك، واستخف بك الناس وإنا لك من الناصحين أن تلتزم الوقار والجلوس على العرش المهيب لتصرف شؤون الملك؛ فعندئذ يطمئن المصريون إلى أن أمورهم يقوم عليها رجل عظيم، فتكتسب عندهم أحسن الصيت. أما مسلكك اليوم فغير ما نتمناه لمليكنا».

ورد أمازيس بقوله: «إذن فاعلموا أن الرماة إنما يشدون أقواسهم حين يستعدون للرمي، فإذا لم يكن لديهم ما يسددون إليه تركوا الوتر. فإن أبقيتم على الوتر مشدوداً انقطع، فافتقدتموه عند العوز. ومثل الإنسان مثل القوس، فمن كان جاداً أبداً، ولم ينل نصيباً من الراحة والمتعة انتهى إلى الجنون أو سكوت القلب. ولذلك وجدتموني قد وزعت الوقت بين واجب ومتعة. فلهذه ساعة ولذاك ساعة».

وقد قيل عن أمازيس إنه كان منصرفاً قبل توليه العرش إلى حياة المتعة والفكاهة والشراب ولم يعرف عنه الاهتمام بالجاد من الأمور؛ ويروى أنه كان إذا وجد كيس النقود فارغاً، وعجز عن متابعة الشراب واللهو مع الأصحاب، مضى وسرق ما أمكنه وعاد إلى أهل السمر. وقد اعتاد ضحاياه أن يحملوه إلى الكاهن حملاً، إن أنكر التهم، فيدينه حيناً ويبرئه حيناً آخر ولذلك كان في حكمه شديد الاستخفاف بالآلهة التي برأته فأهمل معابدها، وأعرض عن تزيينها، وأهمل تقديم القرابين إليها، وبدعوى أن نبوءاتها كاذبة ولا جدوى منها؛ أما تلك التي أشارت إليه بالإدانة فكان شديد الإجلال لها، ويقر بألوهتها.

ولقد بدأ عهده بفتح بوابة معبد أثينا (نيت) في سايس، وكانت بوابة عظيمة

بالغة الروعة لم يأت أحد من قبله بمثل حجم هذه العمارة أو ارتفاعها أو حسن حجارتها. ثم أهدى المعبد بعدئذ بعض التماثيل الضخمة ومنها ما يصور أبا الهول وزود مواقعها بكتل ضخمة من الحجارة لإصلاحها من المقالع عند ممفيس، وأضخمها من منطقة الفنتينا، وهي على مسافة عشرين يوماً من السفر بالنهر من سايس. ولكن أشد ما أثار عجبي هو الحجرة المحفورة من كتلة واحدة من الحجر، وقد جلبها من الفنتينا أيضاً، واستغرق نقلها إلى سايس ثلاثة أعوام، وعمل فيها ألفان من خيرة الرجال. ويبلغ طول الحجرة واحداً وعشرين قامة وعرضها أربع عشرة قامة وارتفاعها ثماني قامات؛ أما طول الحجرة من الداخل فيبلغ ثماني عشرة قامة وخمسة أسداس، وعرضها اثنتا عشرة قامة وارتفاعها خمس قامات. وهذه الحجرة تقع عند مدخل المعبد، وبقيت هناك بأمر من أمازيس الذي تذهب الرواية إلى أن التشاؤم انتابه حين أبدى المسؤول عن الحجرة الضيق لما استغرقه العمل فيها ونقلها من الوقت والجهد، فأبى الاستمرار في نقلها إلى الداخل. وتذهب رواية أخرى إلى أنها إنما ظلت في مكانها، بسبب من وقوعها فوق أحد العمال، في أثناء إنزالها فمات تحتها.

ولقد أهدى أمازيس المعابد ذات الشأن كلها العديد من الأعمال الفنية التي تتسم بالضخامة؛ ولعلي أذكر من بينها التمثال الهائل الذي أهداه إلى معبد هيفستوس وهو قائم عند مدخله في ممفيس، ويبلغ من الطول خمسة وسبعين قدماً، وينتصب عند قاعدته تمثالان من الحجر الأثيوبي يحيطان به من الجانبين، وكل منهما يبلغ من الطول عشرين قدماً. وهناك تمثال، بمثل هذا الحجم في سايس. وأمازيس هو صاحب المعبد الفسيح والمثير للعجب في سايس.

وقد قيل إن عهده(٧٣) كان عهد رخاء لم تعرف مصر مثله من قبل؛ فكان النهر يصب ثرواته ويغني الأرض، والأرض تهب الغنى لأهل مصر. ويقال إن في مصر عشرين ألف بلدة عامرة بالسكان. كذلك أرسى أمازيس عرفاً عظيماً أخذ به المشرع صولون وحمله إلى أثينا(٧٤)، ومازال يعمل به هناك إلى اليوم،

ويقضي بأن يبين كل مواطن، في موعد معين من كل عام، أمام حاكم البلد، أو المحافظ، مصدر دخله ومعيشته؛ والموت عقاب من يقصر في تقديم هذا البيان.

وكان أمازيس يؤثر الإغريق، وقد منحهم عدداً من الامتيازات، ومنها أنه جعل نوكراتيس مقراً لمن شاء الاستقرار وممارسة التجارة؛ كذلك قدم الأرض لمن شاء من التجار الإغريق البقاء في مصر، ليقيم عليها المذابح والمعابد. ومن هذه المعابد الهيلينيوم، وهو أضخمها والناس يكثرون التردد عليه. وقد تضافرت الجهود لبنائه، بمشاركة الأيونيين والخيويين والتيويين والفوكيين والكلازومين ودوريان رودوس والكنيود والهاليكارناس والفازالى وايوليي مايتلين، وهم أصحابه والذين يتولون تعيين القائمين عليه. أما المدن الأخرى التي تدعي لنفسها نصيباً في الهيلينيوم فادعاؤها لا سند له من الواقع؛ ولكن للإجنتان، على كل حال، معبد أقاموه لزيوس، وللساموس أيضاً معبد لهيرا؛ وهناك، بعد، معبد للمليسيين شيدوه لأبوللو.

ولقد كانت نوكراتيس في قديم العهد مركز التجارة الوحيد في مصر، وكان على من يأتي بسفينة إلى أي مصب آخر على النيل، أن يصرح تحت القسم بأنه إنما جاء إلى هذا الثغر بداع من الضرورة، ثم يتابع الإبحار إلى مصب كنوبس؛ أما إذا حالت الرياح دون المضي في هذا الإتجاه فكان عليه أن يتحول ببضاعته إلى نوكراتيس فيدور حول الدلتا ليصل إلى مقصده، وفي هذا ما يدلل على الأهمية الخاصة التي يتمتع بها هذا المرفأ. واعلموا أنه لما نهض الأمفيكتيون لتجديد عمارة معبد دلفي، بعد حريقه، وشرعوا في جمع التبرعات لهذا الغرض، وقد ذهبت التقديرات إلى أن تكاليف المشروع ستبلغ ثلاثمئة طالن، وقد قدم أهل دلفي ثلث المبلغ هبة، ومضوا يعملون في جمع التبرعات من بلد إلى بلد، فلم تقصر مصر في التبرع لهذا الغرض، فكانت هبة أمازيس ألف مثقال من حجر الشب، كما قدم الإغريق سكان مصر عشرين ميناي ولما تم تبادل عهود الصداقة والتحالف مع كيرينة أعلن أمازيس عن عزمه على اتخاذ زوج من ذلك البلد، دليلاً منه على حسن نيته، أو لعله كان يريد زوجاً إغريقية

وحسب. وكان أن وقع اختياره على لاديس بنة باطوس، أو اريسيسلاوس، أو كريتوبولوس (والروايات في هذا مختلفة) من أعيان البلد.

ولكن هذا الزواج ظل معلقاً حيناً من الوقت، إذ كان يتعذر على أمازيس معاشرة زوجه، بينما كان حاله غير هذا مع زوجاته الأخريات. ولقد تكرر هذا الأمر عدة مرات، حتى قال لها في النهاية إن ذلك لا بد بفعل أعمال السحر التي تعمدتها، ويجب أن تلقى جزاءها العادل، وهو الموت على أشنع صورة. ولكن لاديس أنكرت التهمة، إنما دون طائل، فقد ظل الملك على حاله من الغضب والنقمة؛ فنذرت المرأة أن تقيم لأفروديت تمثالاً في معبد كيرينة، إن تمت المواقعة مع زوجها في تلك الليلة الأخيرة، وانقذتها من الموت. فكان أن تحقق دعاؤها في تلك الليلة، وواقعها أمازيس على الوجه الأكمل، واستمر هذا حاله في كل مرة، وشغف بها أشد الشغف منذ ذلك الحين. ولقد وفت لاديس بنذرها لأفروديت؛ فأمرت بصنع التمثال وبعثت به إلى كيرينة، وعهدي به أنه مازال هناك قائماً، متجهاً بوجهه إلى خارج المدينة. ولما انتصر قمبيز على مصر ودخلها، كرمها بعد ما علم حقيقة أمرها وأرسلها إلى كيرينة، موطنها الأصلي.

وكان من مظاهر حسن نوايا أمازيس حيال الإغريق أنه كان يبعث بالهدايا إلى معابد الإغريق، ومنها تمثال مطلي بالذهب للإلهة أثينا وصورة لشخصه، وتمثالان من الحجر ولباس لا مثيل له من الكتان لمعبد أثينا في ليندوس، وتمثالان من الخشب يحملان شبهاً به لمعبد هيرا في ساموس وعهدي أنهما مازالا محفوظين في المعبد الكبير هناك. وكانت هذه الهدية الأخيرة قد قصد بها التعبير عن صداقته لحاكم ساموس، بوليكراتيس بن إياسيس، أما هداياه إلى ليندوس حاكم رودوس فليس فيها ما ينم عن عاطفة شخصية، وإنما قدمت تقليداً، وذلك بسبب ما ذهبت إليه الرواية فنسبت تأسيس معبد أثينا إلى بنات دانوس، حين نزلن في الجزيرة في أثناء هروبهن من أولاد اجبتوس. وأمازيس هو أول من استولى على قبرص وفرض عليها الأتاوة.

الكتاب الثالث[1]

ثاليـــــــا

كان أمازيس الملك المصري الذي جرد عليه قمبيز بن قورش حملته ،إذ زحف على رأس جيش يضم العديد من الأقوام الخاضعة له، ومن بينهم الأيونيون، والأيوليون[2] الإغريق .وسبب هذا الغزو أن قورش كان قد أرسل إلى أمازيس طالباً إليه أن يبعث له بأفضل كحال في مصر .فوقع اختياره على أحدهم ولقد استاء هذا الكحال لأن أمازيس انتزعه من زوجه وأسرته وسلمه إلى الفرس، فأراد الانتقام. ولما مات قورش أقنع قمبيز بأن يرسل إلى أمازيس طالباً يد ابنته، وهو يعلم أن ملك مصر سيضيق بهذا الطلب، وسيكون رفضه سبباً في الإيقاع بين مصر وفارس. فقام قمبيز بتنفيذ ما اقترحه الرجل، وأرسل موفداً إلى مصر للتقدم بالطلب. ووجد أمازيس نفسه عندئذ في وضع حرج فلا هو يستطيع أن يلبي طلب قمبيز ولا هو قادر على رده خائباً، ذلك أنه كان يرهب قوة فارس، ويدرك تماماً أن قمبيز إنما يريد ابنته لتكون محظية لديه لا زوجاً له. وبعد أن فكر ملياً قرر أن يرسل ابنة الملك الراحل أبريز بدلاً من ابنته، وهي غادة هيفاء تدعى نيتيس، كانت آخر الناجين من أسرتها، فألبسها الثياب الجميلة الموشاة بالذهب، فظهرت وكأنها الأميرة المبتغاة، وأرسلها إلى فارس على أنها ابنته. وبعد فترة من الزمن، عندما صادف أن خاطبها قمبيز باسم والدها. أجابته قائلة: «يا سيدي، إنك لا تدري أن أمازيس قد خدعك، إذ ألبسني حلة بهية وأرسلني إليك على أنني ابنته ـ إلا أنني في واقع الحال لست كذلك، فأنا ابنة أبريز، سيده، الذي قتله عندما قاد المصريين المتمردين عليه». كان من شأن تلك الكلمات والخلاف الذي تمخض عنها، حسب الرواية الفارسية، أن جلبت لمصر غضب قمبيز. أما الرواية المصرية فتذهب إلى أن قمبيز هو ابن

نيتيس ابنة أبريز، وبذلك يكون مصرياً، وأن قورش هو الذي أرسل لأمازيس يطلب ابنته وليس قمبيز. إلا أن هذا الادعاء لا تؤيده الوقائع، فهم يعرفون تمام المعرفة؛ أولاً: أن قوانين الفرس، تحظر على الابن غير الشرعي تولي العرش، في حال وجود وريث شرعي. وثانياً: أن قمبيز هو ابن كساندانى ابنة فارناسبيس الأخميني، وليس ابن هذه المرأة المصرية، وحقيقة الأمر، أنهم يحرفون التاريخ، رغبة منهم في ادعاء صلة قرابة ببيت قورش.

لقد بلغتني رواية أخرى، إلا أنني لا أعتقد بصحتها، مفادها أن امرأة فارسية قامت بزيارة لنساء قورش، وأبدت إعجابها الشديد بأبنائه الوسيمين ذوي القامات الممشوقة، والذين كانوا يقفون بجانب كساندانى. ولدى سماعها هذا الإطراء، قالت كساندانى المغتاظة من نيتيس: «رغم صبيتي الوسيمين فإن قورش يعاملني بإزدراء ويولي هذه المرأة التي جلبها من مصر جل اهتمامه». فهتف قمبيز، ولدها الأكبر، قائلاً: «ليكن يا أماه، ولكن متى غدوت رجلاً قلبت مصر عاليها سافلها لأجل خاطرك». كان في العاشرة من عمره فحسب حينما قطع هذا الوعد، الذي أدهش المرأة، لكنه لم ينسه أبداً، فعندما شب واعتلى العرش أنجز وعده بأن غزا مصر فعلاً.

ثمة أمر آخر مختلف كل الاختلاف عن هذا كله، أسهم كثيراً في إنجاح الحملة على مصر. إذ إن أحد المرتزقة الإغريق في خدمة أمازيس، فانيس الهاليكارناسي، وهو رجل يتصف بالشجاعة والذكاء، إلا أنه كان مستاء منه لأمر ما، قد هرب من مصر عبر البحر، بهدف لقاء قمبيز. ولما كان ذا مرتبة عالية في الجيش وعلى معرفة دقيقة بالأوضاع الداخلية لمصر، فقد جد أمازيس في مطاردته والقبض عليه، وأرسل أكثر من يثق بهم من خصيانه في سفينة ذات ثلاثة مجاذيف للحاق به. ولقد قبض عليه في ليسيا، لكنهم لم يتمكنوا من العودة به، إذ تغلب على معتقليه بدهائه، بأن جعل حراسه يسكرون حتى فقدوا الوعي، فانسل، هارباً منهم لا يلوي على شيء حتى وصل إلى الفرس. كان

قمبيز قلقاً، يومذاك يدبر الخطط لحملته على مصر ويسعى لمعرفة أفضل المسالك لعبور الصحراء. فلما حضر إليه فانيس وجد فيه بغيته فلم يكتف هذا بإفشاء أسرار أمازيس، بل بين لقمبيز أيسر السبل ليعبر جيشه الصحراء بأن يرسل لملك العرب ويطلب منه الأمان في عبورها.

لا يمكن دخول مصر إلا عن طريق عبور الصحراء، ويسكن البلاد الممتدة من أرض الفينيقيين حتى حدود مدينة كاديتس (غزة) السوريون الذين يسمون «الفلسطينيون»: ومن هذه المدينة - التي تضارع مدينة سارديس في حجمها - فإن جميع الموانئ حتى جينيسيوس تتبع ملك العرب. والمنطقة التي تمتد من هناك حتى بحيرة سربونيس (سبخة البردويل) والتي بالقرب منها ينحدر جبل كاسيوس ليصل إلى البحر، فإنها تعود لسورية أيضاً. أما مصر فتبدأ من منطقة بحيرة سربونيس (حيث تذهب الرواية إلى أن تيفون (الإله سيث) يختفي هناك). لكن المنطقة التي تقع ما بين جينيسيوس من جهة، وجبل كاسيوس والبحيرة من جهة أخرى - وهي واسعة ويستغرق اجتيازها مسيرة ثلاثة أيام على الأقل - فصحراء قاحلة ليس فيها قطرة ماء.

سأذكر الآن أمراً لا يعرفه سوى بعض الرحالة إلى مصر. تستورد مصر وعلى مدار السنة النبيذ من بلاد الإغريق والفينيقيين كافة، معبأ في جرار من الفخار، ومع ذلك فإن المرء لا يصادف آنية نبيذ فارغة في أي مكان من هذه البلاد. وهنا يتساءل المرء: ما هو مصيرها؟ وتفسير ذلك أن لدى كل مسؤول محلي في جميع المناطق أوامر بتسلُّم الجرار وتجميعها من بلدته ثم إرسالها إلى ممفيس، حيث يقوم أهلها بملء هذه الجرار بالمياه وإرسالها إلى هذه المنطقة الصحراوية في سورية. وهكذا فإن كل جرة جديدة من النبيذ تستوردها مصر، يتم تفريغها من محتوياتها، لتجد طريقها إلى سورية. والفرس هم من ابتكر هذه الوسيلة لتخزين المياه في الصحراء، وكان ذلك بعيد غزوهم لمصر مما جعل الطريق الصحراوي مطروقاً. ولكن في ذلك الزمان الذي أتكلم عنه، قبل

غزو مصر، لم يكن هناك ماء على الإطلاق، ولقد عمل قمبيز بنصيحة صديقه فانيس وأرسل إلى ملك العرب يلتمس منه الماء والمساعدة فمنحه ما أراد وتبادل الفريقان العهود بينهما.

ما من أمة تحترم العهود وتقدسها مثل العرب. فإذا أراد رجلان أن يوثقا العهود بينهما فإنهما يقفان على جانبي رجل ثالث يحمل حجراً حاداً يستخدمه لجرح راحتي يديهما بالقرب من أسفل الإبهام، ثم يأخذ بعض خيوط الصوف من ثيابهما ويغمسها بدمهما ويلطخ بها سبعة أحجار تقع بينهما، وهو يردد اسم كل من ديونيسوس وأورانيا. ثم يقوم الشخص الذي أخذ العهد على نفسه بتوصية أصدقائه بمن عاهده سواء كان غريباً أم قريباً، وبذلك يعتبر أصدقاؤه أنفسهم ملتزمين بهذا العهد. والعرب يعبدون إلهين فقط هما ديونيسوس وأورانيا، ويقولون أن أسلوبهم في حلاقة شعرهم بشكل دائري، وحلاقة الشعر في منطقة الصدغين هو محاكاة لديونيسوس وهو في لغتهم أوروتال، أما وأورانيا فهي اللات.

عندما تبادل ملك العرب ورسول قمبيز عهود الصداقة، ابتكر طريقه لمساعدة جيش قمبيز بأن ملأ قرباً كبيرة من جلود الجمال بالماء وحملها فوق جميع جماله لإيصالها إلى الصحراء، بانتظار قوات الفرس. وهذه الرواية، وفق أي معيار، هي الأقرب إلى العقل بين جميع الروايات. وهناك رواية أخرى يجب ذكرها وهي شائعة، وإن كان يصعب تصديقها، وتقول إنه كان لدى ملك العرب جلود بقر مدبوغة وأنواع أخرى مخاط بعضها ببعض على شكل أنبوب طويل جداً يوصل المياه من كوريس[٣] - نهر كبير في شبه الجزيرة العربية يصب في البحر الأحمر - إلى الصحراء، حيث أنشئ هناك عدد من الخزانات تملأ بالماء بوساطة هذا الأنبوب، وأنه تم جلب المياه إلى ثلاث مناطق مختلفة، والرحلة ما بين النهر والصحراء تبلغ بمجموعها مسيرة اثني عشر يوماً.

اتخذ جيش بسميتاك بن أمازيس مواقعه عند مصب نهر النيل المعروف

باسم البيلوسي بانتظار قمبيز.

وبينما كان قمبيز يستعد لغزو مصر توفي أمازيس، وبعد حكم دام أربعاً وأربعين سنة، لم تعترضه خلالها أية كارثة. و تم تحنيط جثته ودفنها في قبر بناه بنفسه في معبد أثينا (نيت) في سايس. وبعد تولي ولده بسميتاك العرش حدث أمر لا سابق له، إذ هطلت الأمطار في طيبة، وهو أمر كما يقول سكان المدينة لم يحدث من قبل، أو صادف حدوثه في المدينة منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، فالمطر لا يهطل في مصر العليا على الإطلاق، وأنه في هذه المناسبة هطل بشكل زخات خفيفة.

عبر الفرس الصحراء واتخذوا مواقعهم بالقرب من مواقع الجيش المصري واستعدوا للاشتباك معهم. وقبيل المعركة خطط المرتزقة الإغريق والكاريون الذين يخدمون في الجيش المصري للانتقام من فانيس لما فعله باستقدام الجيوش الأجنبية لمحاربة مصر: فقاموا بالقبض على أولاده الذين خلفهم وراءه في مصر، واقتادوهم إلى المعسكر ووضعوهم على مرأى من أبيهم فانيس، ثم وضعوا في المنطقة الفاصلة بين الجيشين وعاء، وأخذوا الصبية واحداً تلو الآخر، واجتزوا أعناقهم فوق الوعاء، وعندما انتهوا من قتل آخرهم، أضافوا الماء والنبيذ إلى الدم في الوعاء، وجعلوا الجنود المرتزقة يشربون منه. قضي الامر، وبدأ القتال، وبعد كفاح مرير وأعداد كبيرة من القتلى والجرحى من الطرفين، مني المصريون بهزيمة منكرة.

في المكان الذي وقعت فيه تلك المعركة رأيت أمراً عجباً، كان الأهالي قد لفتوا نظري إليه، فعظام الجنود القتلى مازالت ملقاة هناك، وعظام موتى الفرس منفصلة عن عظام موتى المصريين، تماماً مثلما كانت جيوشهم، ولقد لاحظت أن عظام جماجم الفرس رقيقة بحيث إن لمس الحصاة لها يمكن أن يحدث ثقباً فيها، في حين أن جماجم المصريين كانت قاسية لدرجة يكاد من المستحيل إحداث كسر فيها ولو ضربت بالحجارة. وقد حدثني رجل ثقة، أن ذلك يعود إلى

أن المصـريين يحلقـون شـعـر رؤوسـهـم منذ الصـغـر مما يعـرض رؤوسـهـم إلى الشـمس التي تكسب عظام جمـاجمـهم القسـاوة، وتجعـل حدوث الصلـع نادراً بينهم، والصلع في مـصـر هـو الأندر من أي مكان في العـالـم. أمـا رقـة عظام جماجم الفرس فيعود إلى مبدأ مشـابه إذ إنهم يلبسون قلنسوة من اللباد لتقي رؤوسـهم أشعة الشمس. وكنت قد لاحظت الأمر نفسـه في بابريميس حيث كان الفرس بإمرة أخـمينيس بن داريوس حينمـا دارت المعركة بينـهم وبين أينـاروس الليبي.

فلمـا مني المصـريون بالهـزيمة أخذوا بالفرار عشـوائيـاً إلى ممفـيس وهناك أغلقوا على أنفسـهم أبواب المدينة وتحصنوا فيها، فدعاهم قمبيز إلى التفاهم وبعث لهم رسـولاً على ظهـر سفـينة ميـتلينيـة، ومـا إن شـاهدوا السفـينة قـادمة إليهم، حتى خرجوا لملاقاتهم وحطموا السفينة وقطعوا أوصـال كل من كان على ظهرها، ثم نقلوا أشـلاءهم إلى داخل أسوار المدينة. فقام الفرس بحصـارهم، فصمدوا أمامـهم فترة من الزمن ثم ما لبثوا أن اضطروا إلى الاستسلام في النهاية. إن مـا جرى لمصر جعل جيرانهم الليبيين يتنبهون للخطر المحدق بهم فاستسلموا دون قتال. ووافقوا على دفع الإتاوة وإرسـال الهدايا. وهذا أيضـاً ما دفع أهالي كيرينة وبرقة لأن يحـذوا حذوهم. ولقـد تقبل قـمبيز بامـتنان هدايا الليبيين له، لكن، على النقيض من ذلك، لم يعجبه ما أرسله أهالي كيرينة، ولربما كان مرد ذلك أنه اعترض على المبلغ الزهيد الذي لم يتجاوز خمسمئة ميناي من الفضة، وعلى أي حال، فقد انتزع النقود ورمى بها إلى رجاله.

بعد مضي عشرة أيام، رغب قمبيز في اختبار معدن بسميتاك ملك المصريين - الذي لم يكن قد مضى على اعتلائه العرش سوى ستة أشـهر فقط - فأرغمه مع غيره من النبلاء المصـريين على الجلوس في مكان يقع في أحد أطراف المدينة، لرؤية مشـهد صـمم خصيصـاً لإذلاله. فقد تـعمـد الفرس أن يلبسوا ابنته لبـاس العبودية، وأرسلوهـا حـاملة إبريقاً لجلب الماء وبصحبتها فتيات أخريات يرتدين

الزي نفسه وجميعهن من الأسر النبيلة. وكانت الفتيات يبكين بمرارة وهن يعبرن المكان الذي جلس فيه آباؤهن لمشاهدتهن، ولقد بكى الآباء مر البكاء لرؤية ما حاق بالفتيات من مهانة وذل، لكن بسميتاك لم يجارهم إذ أطرق برأسه إلى الأرض بصمت بعد أن ألقى نظرة عجلى على المشهد. وبعد أن غادرت الفتيات المكان، جيء بابن الملك بصحبة ألفي شاب في مثل سنه، والحبال حول رقابهم واللجام في أفواههم، وهم في طريقهم إلى الإعدام تنفيذاً لحكم القاضي الملكي بإعدام عشرة من النبلاء المصريين مقابل كل قتيل فوق ظهر تلك السفينة. شاهدهم بسميتاك يمرون بالقرب منه، وعرف أن ابنه في طريقه إلى الموت، إلا أنه استمر مطرقاً برأسه إلى الأرض مثلما فعل لدى رؤيته ابنته، بالرغم من استمرار المصريين الآخرين الجالسين بالقرب منه بالبكاء والنحيب وإظهار علائم الحزن والكرب. وبعد أن عبر الفتيان صادف أن مر شيخ كبير بالقرب من المكان حيث كان بسميتاك يجلس ، وكان هذا الرجل أحد أصدقاء الملك في السابق ومن بين الذين يجلسون إلى مائدته، لكنه جرد من ثروته ولم يعد لديه سوى أن يتسول من الجنود. وحالما رآه انفجر باكياً، وناداه باسمه، وشرع يضرب رأسه حزناً وأسى. كان الحراس يقفون بالقرب منه ومهمتهم إعلام قمبيز بكل تصرفات بسميتاك في أثناء عبور المواكب، ولقد تعجب قمبيز كثيراً مما سمعه، حتى إنه بعث برسول إليه لسؤاله عن سر مسلكه. قال الرسول: «إن سيدك قمبيز يسألك كيف لم تصرخ أو تبكي وأنت ترى ابنتك تعاني الذل والمهانة أو ابنك يمضي إلى حتفه، في حين أنك كرمت متسولاً بإظهارك الحزن والأسى لمرآه، وهو الذي لا يمت لك بصلة». فكان جوابه:« يا بن قورش إن معاناتي لتفوق الدموع، إلا أنني لا أستطيع سوى البكاء لبلوى صديق ذهب عنه ثراؤه العظيم ومكانته الرفيعة حتى صار متسولاً وقد بلغ من العمر عتياً».

عندما بلغ هذا الجواب مسامع قمبيز، اعتبره رداً مقبولاً، وفق الرواية المصرية، فإن كرويسوس ـ الذي كان بصحبة قمبيز في حملته على مصر بكى

لدى سماعه هذا الرد، كذلك بكى من كان حاضراً من الفرس، حتى إن قمبيز نفسه خالجته الشفقة، إذ حالما سمع ذلك أصدر أوامره بإعفاء ابن بسميتاك من حكم الإعدام، وإحضاره إليه.

وصل الرسل لإنقاذ حياة الفتى متأخرين، ذلك أنه كان أول من أعدم بين المحكومين، إلا أنهم أحضروا بسميتاك للمثول بين يدي الملك قمبيز، الذي أحله ضيفاً عليه في قصره منذ ذلك اليوم وحظي منه بالمعاملة الحسنة. والحق لو أنه ابتعد عن إثارة الفتن، فلربما استطاع استعادة مصر ولأصبح حاكماً لها، ذلك أن من عادة الفرس معاملة أبناء الملوك باحترام، حتى إنهم يعيدون لأبنائهم العروش التي تنازعوا عليها. وهناك العديد من الحالات التي يستطيع المرء أن يستدل منها على كرم الفرس في هذا المجال: وخير مثال على ذلك السماح لثانيراس بن أيناروس الليبي باعتلاء العرش بعد والده، كذلك فقد أعادوا لباوسيريس بن أميرتايوس مملكة والده - بالرغم من أنه ما من أحد أثار الاضطرابات وسبب الخسائر للفرس مثل أيناروس وأميرتايوس. لكن بسميتاك لم يحجم عن إثارة القلاقل وقد دفع ثمن ذلك، إذ قبض عليه وهو يحاول إيقاد نار الثورة بين المصريين، وحالما سمع قمبيز بجريمته، أجبره على شرب دم ثور فمات لساعته. وكانت تلك نهايته.

غادر قمبيز ممفيس متجهاً إلى سايس وهو يبيت أمراً ما، وما إن وصل هناك حتى سارع إلى تنفيذ ما اعتزم القيام به، فما إن دخل قصر أمازيس حتى اصدر أوامره بنبش قبره وإخراج جثته والتمثيل بها ومن ذلك الضرب بالسياط، والوخز بالمهماز وانتزاع الشعر. وقد قام الجلادون بهذا كله حتى أصابهم الإنهاك، ولما كانت الجثة محنطة فقد ظلت متماسكة، فأمر، أخيراً، بإحراقها. كان القيام بأمر كهذا يعد إثماً وضلالاً في عرف الفرس والمصريين ولم يسمعوا به على الإطلاق. فالفرس يعتقدون أن النار إله ولذلك فإنهم لا يحرقون موتاهم أبداً، ويعتقدون أن تقديم جثة الميت إلى إله إثم، أما المصريون

فيعتقدون أن النار وحش حي يلتهم كل ما يصادفه، وعندما يحصل على كفايته يموت مع الطعام الذي تغذى به، كذلك فإن ترك جثث الموتى للحيوانات لتفترسها يعتبر منافياً لأعرافهم، ولهذا يلجؤون إلى تحنيطها لمنع الديدان من أن تأكلها في القبر. وهكذا فإن قمبيز بأمره هذا قد عارض المعتقدات الدينية لهاتين الأمتين. ويروي المصريون أن الجثة التي عوملت على هذا النحو لم تكن جثة أمازيس بل جثة رجل آخر شبيه به، وأن الفرس قد خالوها جثة الملك عندما اقترفوا الكبائر بحقها. ذلك أن أمازيس، وفق هذه الرواية، قد علم عن طريق عراف بالمصير الذي سينتهي إليه بعد وفاته، وللحيلولة دون ذلك، فقد دفن جثة الرجل التي ضربها الفرس بالسياط في مدفنه بالقرب من الباب، أما جثمانه فقد أعطى لابنه الأمر بدفنه في أبعد مكان من حجرة الدفن. وأعتقد أن أمازيس لم يعط هذه الأوامر، وأنها مجرد حكاية يرويها المصريون لحفظ كرامتهم.

كان قمبيز قد خطط لثلاث حملات: الأولى ضد القرطاجنيين، والثانية تتجه إلى الأمونيين، والثالثة إلى الأثيوبيين المعمرين الذين يعيشون جنوبي ليبيا على سواحل البحر الجنوبي (المحيط الهندي). وقد اعتزم أن يرسل أسطوله لمحاربة قرطاجنة، وجزءاً من قواته البرية للهجوم على الأمونيين، أما بالنسبة إلى الأثيوبيين فقد قرر إرسال الجواسيس بحجة تقديم الهدايا لملك أثيوبيا، في حين أن الغرض الحقيقي وراء ذلك جمع أكبر قدر من المعلومات، لكنه أراد بشكل خاص معرفة ما إذا كان ما يطلق عليه «مائدة الشمس» حقيقة أم لا. وقصة مائدة الشمس أن هناك مرجاً يقع في أطراف المدينة، يحتفظ فيه بمؤونة كبيرة من اللحم المسلوق من أنواع الحيوانات كافة، ومن واجب الحكام المحليين سلق اللحم ووضعه هناك في الليل، وفي النهار بإمكان أي شخص أن يتناول ما يشاء من هذه اللحوم. ويقول سكان البلاد إن اللحم يأتي من الأرض بشكل تلقائي وهو هدية الأرض لهم.

بعد أن تقرر إرسال الجواسيس، بعث قمبيز إلى الفنتينا لاستقدام بعض

الرجال الإيكتيوفاجي (أكلة السمك) الذين يعرفون اللغة الأثيوبية، وفي الوقت ذاته أصدر أوامره للأسطول بمهاجمة قرطاجنة. لكن الفينيقيين رفضوا تنفيذ المهمة، بسبب الأواصر التي تجمعهم بالقرطاجنيين، ولأن شن الحرب ضد أبنائهم إثم وشر لا يمكن أن يقترفوه. ولما كانت بقية القوات البحرية أضعف من أن تقوم بالحملة بدون الفينيقيين، فقد أفلتت قرطاجنة من قبضه الفرس، إذ إن قمبيز رأى أنه من غير المناسب الضغط على الفينيقيين لدفعهم إلى المشاركة فقد كانوا يخدمون في أسطوله طواعية، وقواته البحرية تعتمد عليهم كل الاعتماد. وكذلك القبارصة تبرعوا بتقديم خدماتهم إلى الفرس واشتركوا في الحملة على مصر.

أرسل قمبيز الرجال الذين تم استدعاؤهم من الفنتينا إلى أثيوبيا، وأعطيت لهم التعليمات بما سيقومون به، وحملوا هدايا قمبيز إلى ملك أثيوبيا وكانت ثوباً قرمزي اللون وطوقاً ذهبياً وأساور وعلبة من المرمر بداخلها صمغ المر، وجرة من نبيذ النخيل. ويقال إن الأثيوبيين - محور هذا الاهتمام كله - هم أطول وأجمل شعوب الأرض قاطبة. ويتميزون بقوانينهم وأعرافهم، وأغربها طريقتهم في اختيار ملوكهم، ذلك أنهم يختارون أطول الرجال وأقواهم ليصبح ملكاً عليهم.

وصل سفراء قمبيز الإيكتيوفاجي إلى أثيوبيا وقدموا هداياهم إلى الملك ومعها الكلمات التالية: «لقد أرسلنا قمبيز ملك فارس رغبة منه في صداقتكم والتحالف معكم، وهذه الهدايا التي حمّلنا إياها أحبُّها إلى نفسه». إلا أن ملك أثيوبيا كان يعلم أنهم جواسيس، فأجابهم: «لم يرسلكم ملك الفرس محملين بالهدايا لحرصه على صداقتي، لقد أتيتم بهدف جمع المعلومات عن مملكتي، إنكم كاذبون وملككم غير عادل. فلو كان لديه أي احترام لما هو حق، لما اشتهى مملكة غير مملكته، أو استعبد شعباً لم يقترف بحقه أي ذنب. قدموا له هذا القوس وقولوا له إن ملك أثيوبيا ينصحه بأنه عندما يستطيع الفرس شد قوس

بهذه القوة وهذا اليسر، فليحشدوا، عندها، جيشاً من الأبطال الصناديد وليغزوا بلاد الأثيوبيين المعمرين. وإلى أن يحين ذلك الوقت فليشكر الآلهة لأنها لم تدخل في عقول الأثيوبيين أمر اجتياح الدول الأخرى». ثم نزع وتر القوس، وقدمه لهم، والتقط الثوب القرمزي وسألهم ماذا يكون وكيف يصنع. ولما وصف له الرجال الصباغ وكيف يكون، علق على ذلك بأنهم مخادعون وهذا الثوب المصبوغ خدعة أيضاً. ثم سأل عن السلاسل الذهبية والأساور، ولما أجابوه بأنها تستخدم للزينة ضحك وقال بأن لديه أقوى منها، لأنه كان يعتقد بأنها قيود. ثم سأل عن صمغ المر، وبعد أن سمع وصفه وطيب رائحته عند التدليك به. كرر لهم ما قاله في الثوب القرمزي. وأخيراً وصل إلى النبيذ وبعد أن علم مراحل تصنيعه، شرب بعضاً منه فوجده لذيذ المذاق. ثم سألهم عما يأكل ملك الفرس؟ وما هو أقصى عمر يبلغه المعمر في بلاد فارس؟ ولدى سماعه وصف الطبيعة هناك وزراعة القمح، وأن ملك فارس يتناول الخبز، وأن الفرس لا يتجاوزون سن الثمانين إلا فيما ندر، قال إنه ليس من المستغرب وفاة أي شخص يتناول الروث في سن مبكرة كهذه، وأضاف أنه ما من شك في وفاتهم في سن أبكر لو لا هذا الشراب الذي يمدهم بالطاقة، وهنا أشار إلى النبيذ، وهو الشيء الوحيد الذي أقر للفرس بالتفوق فيه. وسأل المبعوثون بدورهم الملك عن سن الوفاة في أثيوبيا وماذا يأكل الشعب؟ فقيل لهم إن معظمهم يعيش ليبلغ المئة والعشرين، وإن بعضهم يتجاوز ذلك، وإنهم يأكلون اللحم المسلوق ويشربون الحليب. ولما أعرب الرجال عن دهشتهم في أن يتمكن أي إنسان من بلوغ مثل هذه السن المتقدمة، اصطحبهم إلى نبع تفوح منه رائحة البنفسج وتجعل بشرة المستحم في مياهه تتلألأ وكأنه استحم بالزيت. ويقال إن مياه هذا النبع قليلة الكثافة لدرجة أنه ما من شيء يطفو فوق سطحها، بما في ذلك الخشب أو أي مادة أخف منه، إذ تغوص جميعها إلى الأعماق. فإذا كانت هذه الرواية صحيحة فإن استخدام الأثيوبيين المستمر لهذه المياه هو ما يجعلهم يعمرون. بعد زيارة النبع قادهم

الملك إلى السجن حيث شاهدوا السجناء مقيدين بالسلاسل الذهبية، ذلك أن البرونز في أثيوبيا هو المعدن الأكثر ندرة والأغلى ثمناً. وبعدها ذهبوا إلى معاينة «مائدة الشمس».

وفي النهاية تم اصطحابهم لرؤية التوابيت، والتي يقال إنها مصنوعة من زجاج الكريستال، وفي الدفن يقومون بتجفيف جثمان الميت إما بالطريقة المصرية أو ربما بطريقة أخرى، ثم يحاط الجثمان بالجص الملون ليصبح مشابهاً للشخص في حياته، ثم يوضع في أسطوانة من الكريستال مجوفة من الداخل وتغلق بإحكام. والكريستال متوفر لديهم بكميات كبيرة ويصنعونه بسهولة. ويمكن رؤية الجثمان بوضوح داخل الأسطوانة، ولا توجد رائحة كريهة، أو ما يدعو للإزعاج، ويقوم أحد أبناء عمومة المتوفى بالاحتفاظ بالأسطوانة في منزله لمدة عام كامل، ويقدم لها بواكير الفاكهة والأضحيات، وبعدها توضع بالقرب من المدينة.

بعد ما رأى الجواسيس كل ما استطاعوا رؤيته، عادوا إلى مصر لتقديم تقريرهم الذي أغضب قمبيز لدرجة أنه بدأ زحفه باتجاه أثيوبيا ، دون أن يهتم بتوفير المؤونة لجيشه، أو يفكر بأنه سوف يأخذ رجاله إلى آخر الدنيا؛ فسماعه هذا التقرير قد أفقده عقله تماماً. مثل رجل مصاب بلوثة ذهب على رأس قوة من الجنود المشاة تاركاً وراءه الجنود الإغريق الذين كانوا يخدمون تحت إمرته. وعندما وصل إلى طيبة، أرسل قوة من خمسين ألف رجل للهجوم على الأمونيين واستعبادهم ، وإحراق معبد زيوس (آمون). ثم تابع مسيره إلى أثيوبيا ومعه بقية قواته، الذين نفدت مؤونتهم بعد أن عبروا خمس المسافة التي تفصلهم عن أثيوبيا ، فاضطر الرجال إلى قتل دوابهم لتأمين الطعام إلا أنها نفدت هي الأخرى. ولو أن قمبيز عندما رأى هذا الوضع قد عاد أدراجه، لأظهر شيئاً من الحكمة بالرغم من الخطأ الأساسي الذي ارتكبه، إلا أنه لم يهتم بما حدث واستمر في تقدمه، وللبقاء على قيد الحياة اقتات الجنود بالعشب المتوفر في

الريف لكنهم حينما وصلوا الصحراء أصبحوا يأكلون بعضهم إذ يختارون بالقرعة واحداً من بين عشرة رجال ليصبح طعاماً لهم. وكان هذا أكثر من قدرة أي إنسان على الاحتمال، حتى قمبيز نفسه عندما جاءته التقارير بهذا الأمر، تخلى عن فكرة الحملة على أثيوبيا وقفل راجعاً ووصل طيبة بعد أن تقلصت قواته إلى حد كبير. ومن طيبة ذهب إلى ممفيس وسمح للإغريق بالإبحار إلى وطنهم. وهكذا انتهت الحملة على أثيوبيا.

بدأت القوة العسكرية المرسلة لمحاربة الأمونيين مسيرتها من طيبة برفقة أدلاء. ولقد أمكن تتبع مسيرتها حتى مدينة أواسيس(الواحة)، التي كان يقيم فيها الساموس (نسبة إلى جزيرة ساموس في بلاد الإغريق)، وهي تبعد عن طيبة مسيرة سبعة أيام عبر الصحراء، ويطلق الإغريق على المكان اسم جزيرة المباركين. وتذكر التقارير بأن الجيش قد وصل إلى هذا المكان، ولكن لا يوجد أي ذكر لمصيره لاحقاً. إذ لم يصل أبداً إلى بلاد الامونيين ولم يرجع إلى مصر. وتذكر الرواية الآمونية، أن الرجال قد غادروا أواسيس وتوغلوا في الصحراء، وأنهم وصلوا إلى مكان يقع في منتصف المسافة ما بين تلك المدينة وحدود الآمونيين، وبينما كانوا يتناولون طعام الغداء، هبت ريح عاتية من الجنوب حملت الرمال التي سقطت فوقهم مشكلة كثباناً رملية طمرتهم، وهكذا اختفوا إلى الأبد.

بعد عودة قمبيز إلى ممفيس ظهر الإله أبيس (أبافوس عند الإغريق) للمصريين، فارتدى الناس جميعاً أبهى حللهم احتفالاً بالعيد. وعندما رأى قمبيز مهرجاناتهم وأفراحهم تولدت لديه القناعة بأنهم يحتفلون مبتهجين للكوارث التي ألمت به، فاستدعى المسؤولين المحليين في ممفيس وسألهم عن سبب عدم قيام المصريين بإظهار معالم الفرح والابتهاج في زيارته السابقة للمدينة، واحتفالهم بعيدهم في الوقت الراهن حينما عاد بعد خسارته لقسم كبير من جيشه. فأجابوه أن إلهاً قد ظهر بينهم، ومن عادته ألا يظهر إلا بعد فترة طويلة من

الزمن، وحينما يظهر يبتهج المصريون جميعاً وتبدأ أعيادهم ومهرجاناتهم. فاعتبرهم قمبيز كاذبين وأمر بإعدامهم. ثم استدعى الكهنة للمثول بين يديه، ولما أكدوا له ما سبق أن سمعه، رد بأنه سيعلم آجلاً أم عاجلاً ما إذا كان الذي ظهر إله حقاً، ثم أمر الكهنة باحضار أبيس فقاموا بذلك. وأبيس هذا هو عجل بقرة لا تلد غيره، ويروي المصريون أن ضوءاً وهاجاً ينزل على البقرة من السماء مما يجعلها تحمل بابيس الذي يتميز بعلامات معينة فلونه أسود، وعلى جبهته غرة بيضاء مستديرة، وعلى ظهره صورة عقاب، وشعر ذيله مضاعف، وتحت لسانه خنفسة سوداء. جلب الكهنة أبيس إلى قمبيز الذي كان أقرب إلى الجنون فاستل خنجره وصوبه إلى بطن أبيس لكنه أخطأ الهدف فجاءت الطعنة في فخذه، ثم ضحك وقال للكهنة: «أتدعون هذا إلهاً، يا لكم من مساكين؟ وهل آلهتكم من دم ولحم ويشعرون بطعنة الفولاذ؟ لا شك أن إلهاً كهذا يلائم المصريين تماماً! لكنكم لن تفلتوا من العقاب لمحاولتكم خداعي». ثم أعطى أوامره بجلد الكهنة على أيدي الجلادين، وإعدام كل مصري ما يزال يحتفل بالعيد، وهكذا انفض العيد وعوقب الكهنة، أما أبيس فقد وضع في المعبد وهو يعاني الآلام من الجرح الذي أصاب فخذه إلى أن مات فدفنه الكهنة دون علم قمبيز.

رغم أن قمبيز لم يكن يتمتع برجاحة العقل قبل هذا الحادث إلا أن المصريين كانوا على قناعة راسخة بأن فقدانه التام لعقله هو النتيجة المباشرة لجريمته هذه، وللفظائع التي اقترفها لاحقاً، وأولها قتله لشقيقه سميرديس. وكان قمبيز قد أعاده إلى فارس في وقت سابق، لأنه شعر بالغيرة منه لكونه الفارسي الوحيد الذي نجح في شد وتر ذلك القوس الذي أرسله ملك أثيوبيا ـ بالرغم من أنه لم يتمكن من شده أكثر من عرض أصبعين فقط. وبعد عودة سميرديس إلى فارس حلم قمبيز بأن رسولاً قد جاءه من فارس حاملاً خبراً مفاده أن سميرديس قد جلس على العرش وأن رأسه لمس السماء. فخاف أن يكون تفسير

الحلم أن أخاه سيقتله ويعتلي العرش بدلاً منه، ولذلك أرسل صديقه بركساسبيس الذي يثق به ثقة مطلقة إلى فارس، وكلفه بأن يقتل أخاه. فذهب إلى سوسة وَنفَّذَ ما طلب منه. وفق إحدى الروايات أنه قتله في أثناء قيامهما برحلة صيد، وفق رواية أخرى أنه استدرجه للذهاب معه إلى الخليج العربي حيث أغرقه هناك.

تلك ـ كما يقال ـ كانت الجريمة الأولى، أما الجريمة الثانية التي اقترفها بحق أهله فهي قتله لأخته التي قدمت معه إلى مصر، والتي كانت زوجه أيضاً، بالرغم من أن زواج الأخوة لم يكن من عادات الفرس على الإطلاق، إلا أن قمبيز تغلب على هذه الصعوبة، وتفصيل ذلك كالتالي: بعد أن أحب أخته وأراد الزواج بها وهو أمر يتنافى مع القانون، استدعى القضاة الملكيين وسألهم عن وجود قانون في البلاد يبيح للمرء الزواج من أخته إذا ما أراد ذلك. والقضاة الملكيون هم أشخاص يتم اختيارهم بعناية ويستمرون في مناصبهم مدى الحياة أو إلى أن يحكم عليهم بإساءة التصرف، ومهمتهم الفصل في القضايا الشائكة وتفسير القوانين والعقائد الدينية، ولذلك تحال إليهم جميع المسائل المتنازع عليها. ولما طرح قمبيز عليهم هذا السؤال، استطاعوا العثور على جواب لا يحيد عن الحق ولا يعرضهم للخطر في آن واحد، وقالوا له: «إننا لم نتمكن من العثور على قانون يبيح زواج الأخ من أخته، لكن ثمة قانوناً لا شك فيه يبيح للملك فارس فعل ما يشاء». وبذلك تجنبوا انتهاك أي قانون راسخ في البلاد، كما حافظوا على أنفسهم، فلخوفهم من غضب قمبيز قدموا له قانوناً يساعد الملك على تحقيق رغباته. وهكذا تزوج قمبيز أخته التي أحبها، وبعد فترة ليست بالطويلة تزوج أخته الثانية والتي اصطحبها إلى مصر ثم قتلها.

ثمة روايتان لحادثة موتها ـ كما في حال سميرديس ـ إذ يروي الإغريق أن قمبيز قد جعل جرواً وشبلاً يقتتلان في الحلبة على مرأى من الجمهور وكان من

بينهم زوجه. وقد عانى الجرو الأمرين. وكاد أن يهزم لولا أن أخاه التوأم استطاع التخلص من قيوده، وجاء لنجدته فاجتمعا على قتال الشبل الذي انهزم أمامهما. استمتع قمبيز كثيراً بمشاهدة القتال، إلا أن أخته التي كانت تجلس بجانبه أخذت بالبكاء، ولدى رؤيته لدموعها، سألها عما يبكيها، فأجابته أن رؤيتها لمشهد قدوم الجرو لنجدة أخيه جعلها تذرف الدموع، ذلك أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من تذكر أخيها سميرديس، وأن تفكر في أمر زوجها إذ ليس ثمة من ينجده الآن، فلما سمع قمبيز ذلك أمر بقتلها. أما الرواية المصرية، فتقول، إن الاثنين كانا يجلسان إلى الطعام عندما أخذت المرأة خسة ونزعت أوراقها، ثم سألت زوجها أيهما أجمل الخسة بأوراقها أم بدون أوراق؟ فأجاب قمبيز بأنه يفضلها بأوراقها، فردت عليه، عندئذ، بأنه عامل بيت قورش مثل ما فعلت بالخسة، فقد عراه. فركلها قمبيز في لحظة غضب، ولما كانت حاملاً فقد أجهضت وماتت.

لقد اقترف هاتين الجريمتين بحق أسرته، وكانتا ضرباً من الجنون ـ سواءً كان جنونه نتيجة لما قام به تجاه أبيس أم ما ارتكبه من أعمال أخرى. ولربما كان جنونه، ناجماً كما قيل ، بسبب مرض من الأمراضْ العديدة التي تصيب البشر. ويقال بأنه كان يعاني منذ ولادته من الصرع الذي يطلق عليه البعض اسم «المرض المقدس». وإذن فليس من المستغرب أن يؤثر مرض جسدي خطير على عقله. ومن دلائل جنونه أيضاً، إضافة إلى هاتين الجريمتين، أنه قد عامل العديد من رجاله الفرس بطريقة همجية لا تصدر إلا عن شخص أصابه مسٌّ من الجنون. ومن هؤلاء بركساسبيس الذي اصطفاه دون غيره من الفرس واعتاد إرساله في المهام الخاصة، وكان ابنه ساقي الملك، وهو منصب رفيع عند الفرس. وفي إحدى المناسبات قال قمبيز لبريكساسبيس: «أي الرجال يظنني الفرس، وما الذي يقولونه عني؟» فأجابه بريكساسبيس: «سيدي، إنهم يقدرونك أعظم تقدير ويمتدحون خصالك، لكنهم يقولون إنك مولع بالخمرة ولعاً شديداً».

فأغضب هذا القول قمبيز ورد قائلاً: «إذن يقولون إن كثرة الشراب قد دفعتني إلى الجنون. مما يعني أن رأيهم السابق بي لم يكن صادقاً».

ذلك أنه في إحدى المناسبات، سأل قمبيز الحضور، وكان بينهم كرويسوس وعدد من الفرس، عن رأيهم فيه بالمقارنة مع أبيه قورش، فأجابوه «بأنه قد فاق والده، إذ حافظ على ملك والده، وأضاف إلى ذلك استيلائه على مصر وفرض سيطرته على البحر». لكن كرويسوس لم يعجبه هذا الكلام. فقال: «يا بن قورش، لا أعتقد أنك مساو لأبيك: لأنك لم تنجب بعد ولداً كالذي أنجبه أبوك وهو أنت». سر قمبيز عند سماعه ذلك وامتدح حكمة كرويسوس. ونتيجة لسماعه هذه الإجابات قال لبريكساسبيس بغضب: «سأريك الآن ما إذا كان الفرس يقولون الحقيقة، وما إذا كان ما يقولونه إشارة إلى جنونهم هم وليس جنوني. أترى ولدك الواقف بجانب الباب؟ إذا اخترق سهمي قلبه في السويداء، أكون قد برهنت على بطلان كلمات الفرس، أما إذا أخطأت التصويب، فبإمكانك القول، إن شئت، إن الفرس محقون وإنني فقدت عقلي».

ودون أن يضيف كلمة واحدة، شد وتر القوس ورمى الفتى، ثم أعطى أوامره لفتح الجثة وفحص الجرح، وعندما وجد أن السهم قد اخترق القلب، سر لذلك، وقال لوالد الفتى ضاحكاً: «هذا هو الدليل على أنني سليم وأن الفرس هم الذين يعانون من الجنون. والآن قل لي هل سبق لك ورأيت أحداً يجيد التصويب بهذه الدقة؟»

كان بريكساسبيس يعلم جيداً أن الملك مضطرب العقل، ولذلك أجابه، خوفاً على سلامته، بقوله: «سيدي، لا أعتقد أن الإله نفسه يفوقك في إصابة الهدف». وفي مناسبة أخرى ألقى القبض على اثني عشر رجلاً من صفوة الفرس. بتهمة تافهة، ثم دفنهم أحياء، ورؤوسهم إلى الأسفل. ونتيجة لفعلته هذه رأى كرويسوس الليدي أنه من المناسب أن يقدم له النصح، فقال: «يا سيدي، لا تتصرف على الدوام وفق انفعالات الشباب. واكبح نفسك وسيطر عليها. فالحكمة

في التروي، والرجل العاقل يتطلع دوماً إلى المستقبل. فإذا ظللت طويلاً على مسلكك الحالي من قتل أبناء بلدك دون سبب مقنع، فقد يثور الفرس ضدك. ولقد حثني والدك مراراً وتكراراً أن أنصحك متى رأيت ذلك في مصلحتك، فلتكن حذراً».

بالرغم من أن كرويسوس كان يتحدث بكل مودة، فقد أجابه قمبيز: «حتى أنت تجرؤ على أن تقول لي كيف يجب أن أتصرف! أنت ـ الذي حكمت بلدك على نحو رائع، وقدمت لوالدي نصيحة ممتازة ليعبر نهر أراكسس ويهجم على الماساجيتاي في أرضهم حينما كانوا يستعدون للهجوم علينا! أنت ـ الذي جلب الخراب على نفسه بسبب حكمك السيء، وجلبت الدمار لقورش لأنه أصغى لنصيحتك! والآن ستدفع ثمن هذا كله ـ لقد انتظرت طويلاً لأجد مبرراً للانتقام منك». وفيما كان يمد يده ليصل إلى قوسه ويرميه قتيلاً، قفز كرويسوس من مقعده وهرب من الغرفة، فأرسل قمبيز رجاله للقبض عليه وقتله، ولما كانوا يعرفون طباع سيدهم فإنهم عملوا على إخفائه بدلاً من قتله. فإذا غيَّر قمبيز رأيه وسأل عن كرويسوس أحضروه له ونالوا المكافأة لإنقاذهم حياته، أما إذا لم يغير رأيه ولم يظهر أي إشارة تدل على ندمه، فبإمكانهم أن يقتلوه لاحقاً. وبعد فترة قصيرة افتقد قمبيز كرويسوس، فأعلموه أنه مايزال حياً يرزق فقال: «إنني سعيد لأن كرويسوس مازال حياً، ولكن أنتم يا من خالفتم أوامري وأنقذتموه، لن تفلتوا من عقابي وستعدمون جميعاً». وهذا ما كان.

ولقد أظهر قمبيز في أثناء مقامه في ممفيس الكثير من ضروب الوحشية والقسوة في تعامله مع الفرس وحلفائه، ومن بينها نبش القبور وانتهاك حرمة الموتى، حتى إنه لما دخل معبد هيفايستوس (بتاح) سخر من تمثال هذا الإله لشبهه بتمثال باتاكي الذي يضعه الفينيقيون في مقدمة سفنهم الحربية. ولمن لم ير هذا التمثال من قبل فإنني أخبره بأن هذا التمثال يشبه القزم. كذلك دخل

قمبيز معبد كابيري[٤]، الذي لا يسمح بدخوله إلا للكهنة، واستهزأ بالتماثيل الموجودة فيه والتي تشبه تمثال الإله هيفايستوس (بتاح) التي يقال بأنها أبناؤه، ولم يكتف بذلك، بل إنه أقدم على إحراقها أيضاً.

وبناء على هذه الدلائل، أجدني على يقين بأن قمبيز كان مجنوناً، وإلا لما جعل من عادات المصريين وقوانينهم الراسخة ومعتقداتهم المقدسة هدفاً لتجاوزاته وتهكمه. ذلك أنه لو سنحت الفرصة لشخص - أياً كان - أن يفاضل بين معتقدات شعوب الأرض قاطبة ليختار أحسنها، فلا بد أنه وبعد دراسة وافية لميزاتها النسبية سوف يختار معتقدات بلده. فالناس جميعاً بلا استثناء يعتقدون أن عادات بلادهم ومعتقداتها الدينية التي نشؤوا عليها تفضل سواها، ولهذا فمن المستبعد أن يسخر أحد منها إلا إذا كان فاقداً للعقل. والبراهين كثيرة على أن هذا هو الشعور السائد حول المعتقدات الدينية الخاصة بكل بلد. وللمرء أن يستذكر، على وجه الخصوص، رواية تحكى عن الملك داريوس الفارسي، فلقد استدعى الإغريق الذين صادف وجودهم في قصره للمثول أمامه وعرض عليهم مكافأة مقابل أن يأكلوا جثث آبائهم الموتى. فكان جوابهم أنهم لن يقدموا على فعل كهذا مهما كان الثمن. وبعد ذلك، وبحضور الإغريق وعبر مترجم لكي يفهموا ما يقال، سأل بعض الهنود من قبيلة كالاتيا، وكان من عادتهم أكل جثث آبائهم، ما الذي يطلبونه مقابل قيامهم بإحراق هذه الجثث. فصدرت عنهم صرخة اشمئزاز ومنعوه من ذكر أمر مريع كهذا. وهكذا بمقدور المرء أن يعرف ما يمكن للعقائد والأعراف أن تقوم به. وفي رأيي أن بيندار كان محقاً عندما سماها «ملكة كل شيء».

فيما كان قمبيز منشغلاً بالحملة على مصر، قام اللاكيديمونيون بحملة على جزيرة ساموس وصاحبها بوليكراتيس بن أياسيس. وكان بوليكراتس هذا قد استولى على السلطة في الجزيرة، وفي مستهل حكمه قسم دولته إلى ثلاثة

أقسام، واشترك في الحكم مع أخويه بانتاجنوتوس وسيلوسون، لكنه، أقدم فيما بعد، على قتل الأول، ونفي الثاني وهو أصغرهما واحتفظ بالجزيرة كلها لنفسه. فلما أصبح سيد الجزيرة، أبرم معاهدة صداقه مع أمازيس ملك مصر، وتبادلا فيما بينهما الهدايا. ولقد تنامت قوته بسرعة وطبقت شهرته الآفاق حتى وصلت إلى أيونيا وسائر بلاد اليونان، إذ حالفه النصر أينما توجهت قواته وكانت جميع حملاته انتصارات باهرة ومغامراته نجاحات محققة. وكان لديه أسطول مؤلف من مائة سفينة حربية من ذوات الخمسين مجدافاً وقوة قوامها ألف من الرماة. وقد اتسعت غزواته وامتدت إلى كل مكان ولم يترك صديقاً أو عدواً، وغالباً ما كان يقول إذا رددت للصديق ما كنت قد أخذته منه فإنه يشعر بالامتنان أكثر مما لو لم تأخذ منه شيئاً. واستولى على الكثير من الجزر والعديد من المدن الواقعة على البر اليوناني. ومن بين نجاحاته الأخرى، انتصاره على الليسبيان(٥) الذين أرسلوا أسطولهم بأكمله لمساعدة ملطية، وإجباره الأسرى على حفر الخندق المحيط بأسوار ساموس وهم يرسفون بالأغلال.

كان أمازيس يدرك ما يتمتع به بوليكراتيس من حظ استثنائي وحسن طالع، وهذا جعله يشعر ببعض الضيق، ولما توالت قصص نجاحه المنقطع النظير، كتب له الرسالة التالية وبعث بها إلى ساموس: «من أمازيس إلى بوليكراتيس: إنه لمن دواعي سروري أن تصلني أخبار نجاحات صديق وحليف، ولكن بما أنني أعلم أن الآلهة ضنينة بالنجاح الدائم، فلا أستطيع الابتهاج لنجاحك المستمر. وأتمنى، لنفسي ولمن يهمني أمرهم، أن أنجح في بعض الأمور وأفشل في بعضها الآخر، وأن تكون مسيرة حياتي سلسلة من حوادث النجاح والفشل المتبادلين، إذ لم أسمع أبداً برجل لم تنته حياته بالدمار بعد نجاحات متواصلة. ولتدرأ الخطر قبل وقوعه فاصغ لما أقوله لك: فتش عن أعز الأشياء إلى قلبك، ذلك الشيء الذي ينفطر قلبك إن فارقته، ثم ألق به بعيداً، ألق به بعيداً في الحال، بحيث لا يستطيع أحد العثور عليه أبداً. وهكذا إذا وجدت أن نجاحك

لم يعقبه فشل، فاعمل على استخدام هذا العلاج الذي نصحتك به لتدرأ الخطر عن نفسك».

قرأ بوليكراتيس الرسالة واستحسن النصيحة، فبدأ يبحث في كنوزه عما هو أثير على نفسه ويحزن لفراقه، فوجد أخيراً ضالته في الخاتم الذي يمهر به رسائله والذي اعتاد وضعه في إصبعه، وهو من الذهب وتحليه زمردة، قام بصنعه صائغ ساموسي يدعى ثيودوروس بن تيليكليس. وبعد أن استقر رأيه على إلقاء الخاتم في البحر أمر بتجهيز إحدى سفنه الحربية وصعد إليها، وأعطى أوامره لأن تبحر حتى تصل إلى عرض البحر، ولما ابتعدت كثيراً عن الشاطئ، خلع خاتمه على مرأى من الجميع في السفينة، وألقى به في البحر، ثم عاد إلى الجزيرة، وذهب إلى قصره وهو يرثي كنزه المفقود.

بعد ذلك بخمسة أيام أو ستة اصطاد أحد الصيادين سمكة كبيرة رائعة لدرجة أنه قرر تقديمها هدية لبوليكراتيس، فأخذ السمكة إلى قصر الملك وطلب الإذن بالمثول بين يديه، ولما سمح له، قدم له السمكة قائلاً: «مولاي، عندما اصطدت هذه السمكة لم آخذها إلى السوق لأبيعها هناك، بالرغم من أنني رجل فقير يعيش على بيع ما يصطاد، بل قلت في نفسي إن هذه السمكة التي عز نظيرها لا تصلح إلا لبوليكراتيس وعظمته، لذلك أحضرتها إلى هنا لأقدمها لكم».

سر الملك كثيراً لما قاله الصياد، وأجابه: «لقد أحسنت الصنع وإنني لمدين لك بالشكر المضاعف، لكلماتك من جهة، ولهديتك من جهة أخرى، ولذا أدعوك لتناول طعام العشاء معي».

عاد الصياد إلى بيته، وهو يشعر بالاعتزاز والفخر للدعوة التي تلقاها. وفي أثناء قيام الطباخين بتنظيف السمكة وتهيئتها، وجدوا الخاتم في جوفها، فأخذوه فرحين إلى بوليكراتيس وأخبروه كيف وجدوه. فاعتبر ذلك من صنيع الآلهة، وبعث لأمازيس في مصر برسالة يعلمه فيها بكل ما جرى. ولما قرأ أمازيس

الرسالة، أدرك أنه لا يمكن لأي امرئ أن ينقذ غيره مما خبأه له القدر. وأن بوليكراتيس الذي خدمه حسن طالعه لدرجة أنه استعاد ما كان قد أضاعه عن عمد، لا بد وأن تكون نهايته غير سارة. ولتجنب الكرب الذي سيلم به عندما تحل ببوليكراتيس الكارثة المقدرة له، بعث برسول إلى ساموس ليعلن انتهاء الحلف بينهما.

هذا الرجل الذي كان السعد حليفه في كل عمل يقوم به، هو من جاء اللاكيديمونيون لمحاربته حينما طلب مساعدتهم بعض مواطنيه الذين أسسوا فيما بعد مدينة كيدونيا في كريت. وتفصيل ذلك التالي: حينما كان قمبيز يحشد القوات استعداداً للحملة على مصر أرسل له بوليكراتيس سرا، أن يطلب من ساموس الاشتراك في الحملة بإرسال قوة عسكرية تمثل الجزيرة، وقد استجاب قمبيز بسرور لهذا الطلب، وبعث برسول ليطلب من بوليكراتيس الإسهام في الحملة على مصر. فقام هذا بتجهيز أربعين سفينة حربية وزودها بالجنود الذين تم اختيارهم بعناية، ممن لا يعتقد بولائهم له، وأرسلهم إلى قمبيز مع تعليمات بألا يسمح لهم بالعودة إلى ساموس.

ولقد تضاربت الروايات حولهم، وإحداها تقول إن هؤلاء لم يصلوا إلى مصر البتة، وإنهم لما وصلوا كارباتوس [٦] تدارسوا الوضع وتوصلوا إلى قرار بعدم متابعة الرحلة. والأخرى ترى أنهم وصلوا مصر، حيث وضعوا تحت الحراسة، لكنهم تمكنوا، فيما بعد، من الفرار وأبحروا عائدين إلى ساموس، فلاقاهم بوليكراتيس على مبعدة من شواطئ الجزيرة برفقة أسطوله الخاص، وأنهم قد خرجوا منتصرين من المعركة، فنزلوا على شواطئ الجزيرة، ثم نشبت بينهم وبين حامية الجزيرة معركة انتصر فيها جنود الحامية، فعاد المنفيون إلى سفنهم وأبحروا لطلب المساعدة من اللاكيدايمونيين. ويؤكد البعض أن هؤلاء الرجال المنفيين استطاعوا الانتصار على بوليكراتيس لكنني استبعد صحة هذا الأمر،

فلو كانت لديهم القوة الكافية لمجابهة بوليكراتيس لما احتاجوا إلى طلب المساعدة من اللاكيدايمونيين، فضلاً عن ذلك، وليس من المعقول أن يهزم هؤلاء الساموس المنفيون، وهم قلة، بوليكراتيس الذي يملك جيشاً كبيراً من المرتزقة بالإضافة إلى رماة السهام من رعاياه الذين قام بوضع زوجاتهم وأولادهم في قوارب وحبسهم فيها، وكان على أتم الاستعداد لإحراقهم مع القوارب، إذا ما حاول الرماة خيانته والانضمام إلى المنفيين العائدين.

عندما وصل المنفيون المهزومون إلى إسبارطة، تمكنوا من مقابلة الحكام وألقوا خطبة طويلة ليبينوا حاجتهم الملحة إلى المساعدة. لكن الإسبارطيين ردوا على هذه الخطبة بأنهم قد نسوا بدايتها، ولم يتمكنوا من فهم نهايتها. ولهذا كان على الساموس القيام بمحاولة أخرى. وفي اللقاء الثاني مع الحكام أحضروا كيساً وقالوا: «الكيس بحاجة إلى طحين» فرد الإسبارطيون بأن كلمة «كيس» لم تكن ضرورية. على أي حال، فقد قرروا الموافقة على تقديم المساعدة وبدؤوا تحضيراتهم للحملة.

يدعي الساموس أن الإسبارطيين قاموا بالحملة لشعورهم بالامتنان وردا على الخدمات التي كانوا قد تلقوها من الساموس الذين أرسلوا سفنهم لمساعدتهم في حربهم ضد الميسيين(٧). إلا أن الإسبارطيين من جهتهم ينفون ذلك ويبينون أنهم لم يقوموا بالحملة لامتنانهم ورغبتهم في تلبية رجاء من طلب مساعدتهم بل لتصميمهم على معاقبة من سرقوا وعاء الخمر الذي أرسلوه هدية لكرويسوس. والثوب الذي كان ملك مصر أمازيس قد أرسله هدية لهم، فاستولى عليه الساموسيون أثناء إحدى الغارات قبل حصولهم على الوعاء بسنة واحدة، وكان هذا الثوب مصنوعاً من الكتان الناعم ومطرزاً بخيوط ذهبية وقطنية، وعليه رسوم لحيوانات عديدة تمت حياكتها في القماش، وأن الشيء المذهل فيه أن كل خيط رفيع حيك منه القماش كان يتألف من ثلاثمائة وستين خيطاً مجدولاً على حدة، وجميعها واضحة للعيان. وهو يماثل الثوب الذي أهداه أمازيس إلى معبد

أثينا في ليندوس.

كان الكورنثيون كذلك على أتم الاستعداد لتقديم المساعدة في الحملة على ساموس، إذ إنه قبل جيل من عهدنا، أي قرابة الوقت الذي استولى فيه الساموس على الوعاء، تعرض الكورنثيون للإهانة على يد الساموسيين. وتفصيل ذلك: أن بيرياندر (طاغية كورنثة) قد أرسل إلى ألياتتيس ملك ليديا ثلاثة آلاف صبي من أبناء الأسر النبيلة في كوركيرا لجعلهم خصيان، وعندما وصل الكورنثيون المسؤولون عنهم إلى ساموس في طريقهم إلى ساردیس، وسمع سكان الجزيرة بالسبب وراء أخذ الصبية إلى ساردیس، جعلوا الصبية يلتجئون إلى معبد أرتميس ، ولقداسة المكان لم يتمكن الكورنثيون من إخراجهم منه، ورداً على ذلك حاولوا تجويعهم حتى الموت بقطع إمدادات الطعام عنهم. لكن الساموسيين كانوا أذكى منهم إذ ابتكروا مهرجاناً (مازالوا يحتفلون به بالطريقة نفسها) ففي كل ليلة وطوال الفترة التي بقي فيها الصبية في المعبد، نظموا حفلات راقصة، حمل فيها الراقصون والراقصات ـ فتياناً وفتيات ـ كعكاً مصنوعاً من السمسم والعسل، وكانوا يرفعونه عالياً ليتمكن الصبية من التقاطه أثناء مرورهم بقربهم، وبهذا يحصلون على ما يكفيهم للبقاء أحياء. ولكن لما استمر هذا الحال طويلاً، شعر الحراس الكورنثيون بالملل وغادروا الجزيرة، تاركين الصبية وراءهم، فأعادهم الساموسيون إلى موطنهم في جزيرة كوركيرا.

والآن وقد توفي بيرياندر أصبحت العلاقات بين أهالي كورنثة وكوركيدا طيبة وودية، لما أقدم الكورنثيون على المشاركة في الحملة على ساموس. والواقع أنه منذ الاستيطان الأول في الجزيرة لم يكن الشعبان على وفاق، ولهذا ظل الحادث في ذاكرتهم وحملوا الضغينة تجاه الساموسيين. لأن بيرياندر كان قد اختار الصبية من بين الأسر البارزة في كوركيرا[8]، وأرسلهم إلى ساردیس ليصار إلى خصيهم وذلك ثأراً للجريمة النكراء التي ارتكبها الكوركيريون بحق

الكورنثيين.

كان بيرياندر قد قتل زوجه ميليسا ـ وهذا ما أدى إلى محنة أخرى لاحقة ـ وكان له ولدان منها أصغرهما في السابعة عشرة من عمره، وأكبرهما في الثامنة عشرة، وبعيد وفاة والدتهما دعاهما جدهما لأمهما بروكليس طاغية إبيداروس لزيارته وعاملهما بمنتهى الحنان والحب الواجب على اعتبار أنهما حفيداه، ولما حان وقت رحيلهما، رافقهما بعض الطريق، وقال لهما «هل تعلمان يا أبنائي من هو قاتل والدتكما»؟ فلم ينتبه الأكبر إلى السؤال، إلا أن الأصغر ويدعى لايكوفرون شعر بضيق شديد، وعندما عاد إلى كورنثة، كان على أتم الاقتناع بأن والده هو الذي قتل أمه فرفض إلقاء التحية عليه، أو الرد على أسئلته أو محادثته في أي أمر من الأمور. وقد استمر الوضع على هذه الحال مما أثار غضب بيرياندر فطرد ولده من البيت في إحدى ثورات غضبه. وبعد أن خرج الأصغر سأل ابنه الأكبر عما قاله لهما جدهما. فوصف الشاب الاستقبال اللطيف الذي لقياه منه، أما ما قاله لهما حينما ودعهما فقد نسيه تماماً، إذ دخل من أذن ليخرج من الأخرى. لكن هذا الجواب لم يرض بيرياندر، واستمر يلح في السؤال قائلاً إنه من المستحيل أن يكون هذا كل ما في الأمر، ولا بد أن يكون بروكليس قد ألمح إلى أمر من الأمور. وفي النهاية تذكر الشاب وأخبر والده بما قاله الجد. فكر بيرياندر في الأمر ملياً، ولما لم يكن مستعداً لأن يخفف من غلوائه، فقد بعث برسالة إلى من يقيم لديهم ولده الأصغر لمنعهم من ابقائه عندهم، وبذلك أصبح لايكوفرون مطروداً للمرة الثانية، فكان لزاماً عليه أن يجد ملجأ آخر، لكن الأمر تكرر ثانية، إذ إن بيرياندر أمر مضيفي ولده بإغلاق أبوابهم في وجهه. فصار الفتى يطرد من بيت صديق لينتقل إلى بيت صديق آخر، وبالرغم من خوفهم من العواقب، فقد استقبلوه لأنه ابن بيرياندر. وفي آخر المطاف، أصدر بيرياندر بياناً مفاده إن من يقدم له المأوى أو يتحدث إليه، سيعاقب بدفع مبلغ من المال يخصص لخدمة أبوللو. كان ذلك كافياً لجعل

الجميع يرفضون التحدث إليه أو إدخاله بيوتهم، حتى إن الفتى نفسه ارتأى ألا يقدم على خرق ما هو محظور، فنام على الأرض تحت الأروقة التي وجد فيها ملاذاً له. وبعد أربعة أيام رآه بيرياندر، كان قذراً وجائعاً، فانفطر قلب الأب لمنظره، وذهب إليه وخاطبه قائلاً: «أيهما أفضل، يا بني، الاستمرار في الحالة المزرية التي تعيشها الآن، أم أن ترث الثروة والملك اللذين أتمتع بهما، شريطة انصياعك لي؟ إنني ملك مدينة كورنثة الغنية، وأنت ولدي، وبالرغم من هذا فقد اخترت أن تعيش حياة المتسولين، لأنك عازم على المقاومة وأججت في نفسك مشاعر النفور تجاه الرجل الوحيد الذي ينبغي ألا تعامله بهذه الطريقة. إذا ما حدث، لسوء الحظ، ما جعلك تشكك بي، فلتتذكر أن معاناتي لا تقل عن معاناتك، بل تفوقها، ذلك أنني كنت السبب فيما حصل. ولئن تكن موضع حسد لأفضل من أن تكون موضع شفقة، ولقد علمت الآن عواقب إغضاب الأب أو من هم أكبر سناً ومقاماً، لذا أدعوك إلى العودة إلى البيت». فكان رد لايكوفرون الوحيد على ذلك أن أخبر والده بأنه أصبح مديناً لأبوللو بالغرامة المالية لقيامه بالتحدث إليه. عندها أدرك بيرياندر أن ما يعاني منه الفتى لا يمكن البرء منه، فوضعه على متن سفينة وأرسله بعيداً عن الأنظار إلى كوركيرا، التي كانت إحدى الجزر التابعة له. ثم شن الحرب على حميه بروكليس الذي كان أصل المتاعب التي عاناها فسقطت أبيداروس، ووقع بروكليس نفسه أسيراً في قبضته.

مضت السنون، وغدا بيرياندر كهلاً وشعر بأنه لم يعد كفئاً لإدارة شؤون الحكم، فبعث موفداً إلى كوركيرا ليدعو ولده لايكوفرون للعودة إلى كورنثة وتولي الملك، متجاوزاً ابنه البكر، الذي كان شاباً بليد الذهن ولا يبرع في شيء. لكن لايكوفرون لم يتنازل حتى للرد على الرسول. ونظراً لأن بيرياندر كان متلهفاً لاسترضاء ولده فقد أرسل ابنته، أخت الفتى، لتناشده أن يعود، اعتقاداً منه أنه سيصغي لها أكثر من غيرها. فقالت له: «يا أخي، هل تفضل أن ترى سلطان والدك ينتقل إلى الأغراب وأن تنتهي ثروة الأسرة؟ أم أن تعود إلى كورنثة

وتستمتع بهما؟ توقف عن معاقبة نفسك، ولترجع إلى الوطن. فالعناد لم يمكن إنساناً في يوم من الأيام من الحصول على شيء. ولا تحاول أن تعالج الشر بالشر. إن الرحمة، كما يرى الكثيرون، لأفضل من العدل، وقد أقدم العديد من الرجال على إضاعة ثروات آبائهم باندفاعهم لإرضاء أمهاتهم. إنه لمن السهولة ضياع الملك، وهناك دائماً من يسعون لامتلاكه. لقد أصبح والدنا رجلاً كهلاً فاته الشباب منذ أمد بعيد. فلتأخذ ما هو ملك لك، ولتحتفظ به ولا تتركه للغرباء».
وكان بيرياندر قد وجه ابنته لتستخدم هذه الحجج للتأثير على أخيها، إلا أنه أجابها بأنه لن يعود إلى كورنثة طالما ظل والده حياً. ولما علم بيرياندر بذلك قام بمحاولة أخيرة فبعث برسول ليبلغه باستعداده للقدوم إلى كوركيرا بنفسه إذا ما عاد ابنه إلى كورنثة وتولى الحكم بدلاً منه. فوافق لايكوفرون على ذلك وبدأ كل منهما تحضيراته لمغادرة مكانه والانتقال إلى المكان الآخر، إلاأن أهل كوركيرا لما علموا بما يجري، أقدموا على قتل الشاب بهدف إبقاء بيرياندر بعيداً عنهم فكان هذا ما دفع بيرياندر للانتقام منهم.

وصل اللاكيديمونيون على رأس قوة كبيرة فحاصروا ساموس وهاجموا دفاعاتها وشقوا طريقهم متقدمين نحو البرج بالقرب من البحر من جهة الضواحي، لكن بوليكراتيس كان قد حشد قواته لمجابهة خطرهم وإبعادهم. ومن البرج الأعلى الواقع على قمة الجبل والمتصل بالأراضي المرتفعة، رد المرتزقة والجنود الساموس على الهجوم وصمدوا في وجه المعتدين بعض الوقت، لكنهم سرعان ما اضطروا إلى التراجع، واستمر اللاكيديمونيون في التغلب عليهم وقتلوا العديد منهم. ولو أن جميع اللاكيدايمونيين في ذلك الوقت قد أظهروا من الشجاعة والعزم ما أظهره كل من لايكوباس وأرخياس، لكانت ساموس قد سقطت في أيديهم، فقد تابعا الهجوم على الساموس المتراجعين حتى المدينة ودخلاها معهم، لكنهما إذ لم يجدا من يساندهما من رفاقهما فقتلا. ولقد قابلت بنفسي حفيد أرخياس هذا والذي يحمل الاسم نفسه في مسقط رأسه بيتانا،

فأعرب عن تقديره للساموسيين وإعجابه بهم أكثر من أي شعب آخر، وأخبرني أن والده سمي ساميوس تخليداً لذكرى وفاة والده أرخياس في موقف بطولي في ساموس، وأن الاحترام الذي يكنه لهم مرده إلى تكريمهم جده بإقامتهم له جنازة عامة.

بعد حصار فاشل دام أربعين يوماً عاد اللاكيديمونيون إلى شبه جزيرة البيلوبونيز. وقد روي في ذلك قصة مفادها أن بوليكراتيس صك كمية كبيرة من النقود من معدن الرصاص وطلاها بالذهب، وعرض النقود عليهم ليتخلص منهم، فأخذوها وارتحلوا. وتلك كانت أول حملة إلى آسيا قام بها دوريون من اللاكيدايمونيين.

ولما وجد الساموسيون المناوئون لبوليكراتيس أن اللاكيدايمونيين سوف يخذلونهم، توقفوا عن متابعة الحرب. ونظراً لحاجتهم إلى المال، فقد أبحروا إلى جزيرة سيفنوس التي كانت تتمتع بالرخاء، وكان شعبها يبز شعوب الجزر الأخرى بثرواته، إذ توفرت لهم مناجم غنية بالفضة والذهب. لدرجة أن عشر إنتاجها كان كافياً لتزويد الخزينة في دلفي بأكثر موجوداتها قيمة. أما بقية العائدات فيتقاسمها أهالي الجزيرة أنفسهم. وعندما بدؤوا بإيداع الأموال في خزينتهم في دلفي، سألوا العرافة إلى متى سيدوم ازدهارهم الحالي فجاءهم الجواب التالي:

عندما يصبح مجلس القضاء في سيفنوس متلألئاً ناصع البياض،
وواجهة السوق تغدو، هي الأخرى بيضاء متلألئة،
آنذاك، هل يحتاج ذو البصيرة إلى الحذر
الخطر يتهددكم من مضيف خشبي ورسول قرمزي.

وفي الحقيقة أن مجلس القضاء والسوق التجارية في سيفنوس قد تم تزيينهما مؤخراً بالرخام الباري[٨]. إلا أن أهالي الجزيرة لم يفهموا النبوءة في ذلك الحين. ولكن حينما وصل الساموسيون إلى الجزيرة أرسلوا إحدى سفنهم

إلى المدينة وعلى متنها وفد مفاوض، حينذاك، تمكنوا من تفسير النبوءة، ففيما مضى كان القسم العلوي لجميع السفن يطلى باللون القرمزي. إذاً هذا ما عنته العرافة حين حذرتهم من المضيف الخشبي والرسول القرمزي.

طلب المبعوث الساموسي من سكان جزيرة سفنوس قرضاً بمبلغ عشرة تالنتات، ولما رفض طلبهم، هاجموا البلد فهب السكان لإنقاذ محاصيلهم والدفاع عن بلدهم، لكنهم عانوا الأمرين، وانقطع اتصالهم بالمدينة. آنذاك أخذ الساموسيون مبلغ مائة تالنت (وزنة) عنوة ورحلوا. وبهذا المبلغ اشتروا جزيرة هايدرا من الهيرمياون، على مبعدة من البيلوبونيز، وسلموها وديعة إلى أهالي ترويزينيان، بينما ذهبوا إلى كريت حيث أسسوا مدينة كيدونيا. وعندما أبحروا، لم يكن هدفهم أن يستقروا في كريت، بل طرد الزاكيثيان من جزيرتهم، إلا أنهم استقروا بالفعل واستمتعوا بخمس سنوات من الازدهار الكبير في الجزيرة، وقاموا ببناء المعابد بما في ذلك مقام ديكتينا، والذي مازال قائماً في كيدونيا. لكنهم في السنة السادسة تعرضوا لهجوم الإيجينيين الذين انتصروا عليهم في معركة حربية بمساعدة الكريتيين وجعلوا الساموسيين أرقاء لديهم وقطعوا رؤوس الخنازير التي يحملونها في مقدمة سفنهم، ووضعوها في معبد أثينا في أجينا. وكان هذا الهجوم انتقاماً لما حصل بينهما في الماضي. ففي عهد ملك ساموس امفيكراتيس، قام الساموسيون بالهجوم على إيجينا وألحقوا بها أضراراً فادحة، بالرغم من أنهم بدورهم تعرضوا لخسائر كبيرة أيضاً[10].

لقد أطلت الحديث في تاريخ الساموسيين، لأنهم كانوا بناة ثلاثة من أهم المنجزات المعمارية في بلاد الإغريق: أولاهما، قناة شقت تحت هضبة ارتفاعها مائة وخمسون قامة. وكان طول القناة سبعة فرلنجات وعرضها ثمانية أقدام وارتفاعها كذلك. وقد تطلب العمل بأكمله شق مسافة أخرى بعمق عشرين ذراعاً وعرض ثلاثة أقدام، وكانت المياه تجلب إليها من مصادر كثيرة عن طريق أنابيب حتى تصل إلى المدينة. وقام بإنجاز هذا العمل ميجاري[11] يدعى يوبالينوس

نوستروفوس. وثانيها، الميناء الاصطناعي الذي تم تطويقه بكاسر أمواج بعمق عشرين قامة تقريباً، وطول يربو على فرلنجين اثنين . وثالثها المعبد، وهو أكبر معبد عند الإغريق. وكان أبرز المهندسين روكوس بن فيلوس الساموسي. إن هذه الأعمال كانت المبرر لهذا العرض المطول لشؤون ساموس.

استمر قمبيز بن قورش في الإقامة في مصر بعد أن فقد رشده، وإبان ذلك قام أخوان ينتميان إلى طبقة الكهنة (المجوس) بالتمرد عليه في الوطن. أحدهما، ويدعى باتيزيثيس، كان قمبيز قد عهد إليه برعاية شؤون بيته في أثناء غيابه عن الوطن. وهو الذي خطط للتمرد. ولما كان عارفاً بموت سميرديس، وأن موته موضع كتمان ولم يعلم به سوى قلة من الفرس، فمعظمهم يعتقدون أنه مازال حياً، فقد استغل هذا الوضع للقيام بمحاولة للحصول على العرش. أما أخوه وحليفه في التمرد فقد كان يشبه سميرديس بن قورش، الذي قتله قمبيز، إلى حد كبير، بالإضافة إلى أن اسمه كان سميرديس أيضاً. وقد أقنعه أخوه بالجلوس على العرش، وأرسل بياناً لجميع القوات في أنحاء فارس ومصر كافة، مفاده أن عليهم في المستقبل تنفيذ الأوامر الصادرة عن سميرديس وليس عن قمبيز. وتم إعلان البيان على الفور وصدف أن التقى المبعوث المسؤول عن إعلان البيان في مصر قمبيز وجيشه في إكباتانا[١٢] في سورية. وهنا اتخذ مكانه أمام القوات المحتشدة وأعلن الأمر الجديد. وعندما علم قمبيز بذلك اعتقد بصحة ما قاله الموفد، وأن بركساسبيس الذي كان قد أرسله إلى فارس للتخلص من أخيه سميرديس قد فشل في مهمته وخانه. فنظر إليه قائلاً: «إذاً، فهكذا تنفذ أوامري!».

فأجابه بركساسبيس: «يا مولاي، إن ما سمعت لكذب وافتراء. وأخوك سميرديس لم يتمرد عليك، ولن يكون لديك سبب للخلاف معه، فلقد نفذت ما أمرتني به، ودفنت جثته بيدي هاتين. إذا كان الموتى ينهضون من قبورهم، فبإمكانك أن تعتقد إن شئت، أن استياجيس الميدي قد يعود ليشن حرباً عليك،

لكن إذا ما استمرت الطبيعة دونما تغيير، فبإمكاني أن أجزم ألا خوف عليك من سميرديس على الإطلاق. ونصيحتي لك أن تقبض على هذا الرسول وتستجوبه، لتعرف من الذي أرسله بأمر إطاعة الملك سميرديس ».

وافق قمبيز على هذا الاقتراح، وللتو أرسلت جماعة للحاق بهذا الرسول. وعندما جيء به قال له بركساسبيس: «إنك تزعم أنك أتيت برسالة من سميرديس بن قورش، والآن يا صاحبي، من الأفضل لك أن تصدقني القول، إذا أردت الرحيل سالماً، هل أعطاك سميرديس هذه الأوامر بنفسه أم أحد أتباعه؟».

فأجاب الرجل: «منذ أن رحل الملك قمبيز بجيشه إلى مصر، لم تقع عيني على سميرديس بن قورش. والمجوسي الذي سلمه قمبيز إدارة شؤون قصره، هو من أعطاني هذه التعليمات لكنه قال لي إنها صادرة من سميرديس».

كانت الشهادة التي فاه بها صادقة للغاية. فقال قمبيز: «لقد نفذت أوامري يا بركساسبيس بإخلاص، ولا لوم عليك، لكن قل لي من يا ترى قد انتحل اسم سميرديس وتمرد علي؟»

فأجابه: «أعتقد يا مولاي، أنني فهمت ما جرى، إن المتمردين هما المجوسيان بيرتزيثيس الذي أوكلت إليه أمر العناية بشؤون بيتك وأخوه سميرديس».

حينما سمع قمبيز الاسم صدمته حقيقة ما قاله بركساسبيس وأدرك أن الحلم الذي رأى فيه شخصاً يدعى سميرديس جالساً على العرش ورأسه يطاول السماء، قد تحقق. وأصبح واضحاً له الآن أن مقتل أخيه كان بلا طائل، فأخذ يندب خسارته هذه، وانتابه شعور بالمرارة والغضب من مجمل الظروف التعيسة، وفي النهاية امتطى جواده وهو يبغي الوصول بأقصى سرعة إلى سوسة، والهجوم على المجوس وبينما كان يثب على السرج سقط غمد سيفه، وانكشف النصل فأصيب بطعنة في فخذه - في نفس المكان الذي طعن فيه أبيس العجل المصري المقدس. ولما سأل قمبيز عن اسم المدينة التي هو فيها، وقيل له إن اسمها إكباتانا أصبح على أتم الثقة بأنه ميت لا محالة، ذلك أن العراف في

بوتو قد تنبأ له بأنه سيموت في إكباتانا، واعتقد أن تفسير النبوءة أنه سيموت بعد عمر طويل في إكباتانا الميدية حيث توجد جميع كنوزه. لكن اتضح له أن العراف كان يتكلم عن إكبتانا السورية. ولقد كان من شأن الصدمة المضاعفة التي تعرض لها بسبب الجرح الذي أصابه وتمرد المجوسيين أن أعادته إلى رشده، وأصبح على يقين مما عناه العراف فقال: «مقدر على قمبيز بن قورش أن يموت هنا». ثم لم ينطق بعدها بكلمة واحدة، إلا أنه بعد عشرين يوماً أرسل في طلب مقدمي الفرس في الجيش وخاطبهم قائلاً: «يا رجال فارس، إن الظروف لتفرض علي أن أبوح لكم بما كنت قد بذلت قصارى جهدي لإخفائه. عندما كنت في مصر حلمت ـ وكم أتمنى لو لم يراودني هذا الحلم ـ بأن رسولاً من فارس جاء ليخبرني أن سميرديس يجلس على العرش وأن رأسه تطاول السماء. وخشية أن يسلبني أخي العرش، تصرفت على نحو ليس فيه شيء من الحكمة، وإنني على يقين الآن أنه ليس بإمكان البشر تفادي ما هو مقدر لهم. وبحماقتي أرسلت بركساسبيس إلى سوسة لقتل سميرديس. وتم اقتراف الفعل الشنيع، وعشت دون خوف، ولم أتخيل أن شخصاً آخر سيتمرد عليّ بعد موت سميرديس. وعجزت عن إدراك حقيقة ما هو مخبأ لي. لقد أقدمت على قتل أخي عبثاً مثلما أضعت ملكي. إن ما حذرني منه الرب لم يكن أخي بل سميرديس المجوسي. وعلى أي حال، فلقد كان ما كان، وباستطاعتكم الوثوق بأنكم لن تروا سميرديس بن قورش بعد الآن، ولديكم المجوسيان ليحكماكم: باتزيثيس الذي تركته ليكون القيم على بيتي، وأخوه سميرديس. في حين أن الشخص الوحيد من بين الناس جميعاً الذي كان بمقدوره مساعدتي للتغلب على هذه المكيدة الدنيئة التي حاكها ضدي هذان المجوسيان، قد انتهى أبشع نهاية على يد أقرب المقربين إليه وأعزهم على قلبه. ولما كان ميتاً الآن، فلزم عليّ أن أبين لكم وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة ما أرغب إليكم القيام به. فباسم الآلهة التي تحرس أسرتنا الملكية آمركم، وخاصة الأخمينيين منكم الحاضرين هنا، ألا تدعوا

الميديين يستردون السلطة. فإذا حصلوا عليها عن طريق الغدر والخيانة، فاستردوها بالسلاح نفسه، أما إذا استردوها بالقوة، فكونوا رجالاً واستردوها بالقوة. إذا قمتم بما أمركم به، فإني أدعو لكم بأن تغمركم الأرض بخيراتها، وأن ترزقوا بالأطفال، وتتكاثر قطعانكم وأن تكونوا أحراراً مدى الدهر. أما إذا فشلتم في استرداد السيادة أو لم تقوموا بأية محاولة لاستردادها، فلتنزل عليكم لعنتي وليكن مصيركم عكس ما أدعو لكم به الآن. وعلاوة على ذلك، فلتكن نهاية كل فارسي بائسة مثل نهايتي». وبعد أن قال هذا ناح وبكى وندب بشدة قسوة مصيره، وعندما رأى الفرس ملكهم والدمع ينهمر من عينيه، أخذوا بتمزيق ثيابهم، وبالبكاء والعويل، وبعيد ذلك استفحلت الغرغرينا في فخذه ومات، بعد أن حكم سبع سنوات وخمسة أشهر، دون أن يكون له عقب من الصبيان أو البنات.

لم يصدق الفرس الذين كانوا برفقة قمبيز أن المجوسيين قد استوليا على الحكم، وبدت تلك القصة التي رواها عن مقتل سميرديس ما هي إلا بدعة خبيثة ابتكرها ليجعل فارس بأكملها ضده، وكانوا على قناعة بأن سميرديس بن قورش هو الذي اعتلى العرش، وزاد في اقتناعهم أن بركساسبيس قد نفى الجريمة بشدة، وذلك لمعرفته بأن الاعتراف بإقدامه على قتل سميرديس بن قورش قد يعرضه للخطر وخاصة بعد أن مات حاميه قمبيز. فكانت النتيجة أن المجوسي بعدما انتحل صفة سميرديس وجد نفسه على العرش دون منازع. واستمر لمدة سبعة أشهر، وهي الفترة التي تكمل السنوات الثمان لحكم قمبيز. وخلال عهد المجوسي حصل رعاياه على منافع عظيمة، ولذلك أسف لموته جميع الآسيويين التابعين باستثناء الفرس، إذ إنه بعيد اعتلائه العرش أعفى جميع الأمم الخاضعة له من الضرائب والخدمة العسكرية مدة ثلاث سنوات. لكن بعد سبعة أشهر من توليه الحكم أدت الظروف التالية إلى افتضاح أمره.

كان أول من راوده الشك في أنه محتال وليس ابن قورش، رجل يدعى

أوتانيس بن فرناسبيس، وهو أكثر النبلاء الفرس ثراء، فقد أثار ريبته أن سميرديس لم يغادر التحصينات في العاصمة، ولم يقم باستقبال أي نبيل فارسي في جلسة خاصة بمعزل عن الآخرين. وكان المجوسي بعد أن اغتصب العرش قد استولى على جميع زوجات قمبيز، ومن بينهن ابنة أوتانيس وتدعى فيديم. وليتأكد أوتانيس من صحة شكوكه، أرسل لابنته يسألها عن زوجها الجديد، وهل هو سميرديس بن قورش أم شخص آخر؟ فأجابته بأنها لا تعلم، إذ لم يسبق لها أن رأت سميرديس بن قورش، ولا تدري ما إذا كان زوجها أم لا. فأرسل لها أوتانيس رسالة ثانية مفادها: «إذا كنت لا تعرفين سميرديس بن قورش، فاسألي أتوسا عمن يكون الشخص الذي تسكنان معه أنتما الاثنتان، فهي لن تعجز عن معرفة أخيها». فردت فيديم: «ليس بمقدوري التحدث إلى أتوسا أو رؤية أي من زوجات الملك، فهذا الرجل، أياً كان، ما إن اعتلى العرش حتى فرقنا وأعطى كل واحدة منا مسكناً بعيداً عن الأخريات». وكان هذا دليلاً آخر على صحة شكوك أوتانيس، ولذلك أرسل لها قائلاً: «أي، فيديم، إن ما يجري في عروقك دم نبيل لذا يجب ألا تتواني عن مجابهة المخاطر التي يأمرك والدك أن تواجهيها. وإذا كان زوجك من أظن وليس ابن قورش، فيجب ألا ينجو من العقاب لمشاطرتك الفراش، والجلوس على عرش فارس. لذا عليك القيام بما يلي: حينما يأتي إليك لقضاء الليل معك، انتظري حتى تتأكدي من أنه استغرق في النوم ثم تحسسي أذنيه، فإذا وجدتهما فأنت زوج سميرديس بن قورش، أما إذا لم تكن له أذنان فستعلمين أنك زوج سميرديس المجوسي».

فأجابته فيديم أن هذا الأمر شديد الخطورة، فإذا ثبت أن زوجها ليس له أذنان وقبض عليها وهي تحاول أن تتحسسهما، فمن المؤكد أنه سيقدم على قتلها. لكنها بالرغم من ذلك كانت على أتم الاستعداد للمجازفة. ذلك أنه عندما كان قورش ملكاً عاقب سميرديس المجوسي على جرم خطير قام به بأن قطع أذنيه.

وفت فيديم بوعدها لأبيها، فعندما جاء دورها لمشاركة المجوسي الفراش (في فارس اعتاد الرجل أن يزور زوجاته بالتتالي)، دخلت غرفة النوم وتمددت على السرير، وما إن استغرق المجوسي في النوم حتى قامت بتحسس أذنيه، وسرعان ما اكتشفت الحقيقة، ولهذا أسرعت في اليوم التالي بإعلام والدها بالنتائج. وأفضى أوتانيس باكتشافه هذا لكل من اسباثينيس وجوبرياس وهما من الشخصيات البارزة في فارس ولديه ثقة كبيرة بهما، وقد اختارهما لشكوكهما في الأمر وبالتالي كانا على أتم الاستعداد ليسلما بما قاله أوتانيس، فاتفق الثلاثة على أن يختار كل منهم أخلص أصدقائه ويفاتحه في الأمر. ووقع اختيار أوتانيس على انتافرينيس، بينما اختار جوبرياس ميجابازوس، أما اسباثينيس فقد اختار هيدراتيس. وبذلك ارتفع عدد الشركاء إلى ستة. ولما جاء داريوس إلى سوسة قادماً من فارس حيث كان والده هايستاسبيس حاكماً هناك، قرروا إشراكه معهم.

اجتمع الحلفاء السبعة لتبادل عهود الولاء ومناقشة الخطوات التي يعتزمون القيام بها. وعندما جاء دور داريوس ليعبر عن آرائه، قال إنه كان يعتقد بأنه الوحيد الذي يعرف بموت سميرديس بن قورش، وأن الملك الحالي هو المجوسي. وتابع حديثه قائلاً: «ولهذا السبب بالذات أسرعت إلى سوسة لتدبر أمر التخلص منه. والآن، بعد أن اتضح أنني لست الوحيد المطلع على السر، فأقترح الإسرا ع في التصرف. فليس في التأخير سوى الخطر».

فأجابه أوتانيس: «إنك ابن هايستاسبيس يا داريوس، ومن المرجح أنك ستكون رجلاً صالحاً مثله، ومع ذلك، فإنني أنصحك بعدم التهور وألا تكون في عجلة من أمرك، فنحن بحاجة إلى توخي الحذر، وعلينا أن نزيد من عددنا قبل أن نوجه ضربتنا».

فكان جواب داريوس: «أصغوا إلي جميعاً، إذا ما استمعتم إلى أوتانيس فإن النتيجة ستكون دمارنا جميعاً. ولا بد لأحدهم أن ينتهز الفرصة ويحقق

المكاسب لنفسه عن طريق خيانتنا وإفشاء سرنا إلى المجوسي، كان ينبغي أن تقوموا بهذا الأمر لوحدكم، ولكن بما أنكم ارتأيتم إشراك آخرين، وأطلعتموني على نواياكم، فليس لدي سوى أن أقول لنتصرف في الحال، فإذا تركنا يوماً واحداً يضيع سدى، فإني أعدكم بشيء واحد: لن يقيض لأحدكم أن يخونني، لأنني سأبلغ المجوسي عنكم جميعاً».

تنبه أوتانيس لما أبداه داريوس من إلحاح شديد وقال: «أرى أنك مصمم على دفعنا إلى الإسراع، ولن تترك لنا دقيقة للتشاور. ولكن هل تستطيع أن تقول لنا كيف نتمكن من دخول القصر والقيام بالهجوم؟ فمما لا شك فيه أنك تعلم كما نعلم بوجود الحرس في كل مكان، وإن لم ترهم، فلا بد أنك سمعت عنهم. فكيف لنا بتجاوزهم؟».

فأجاب داريوس: «يا أوتانيس، إن الكلمات لا تجدي في كثير من الأحيان، والأفعال وحدها هي المجدية، وكثيراً ما يكون من السهل الكلام ـ والكلام فحسب دون أن يلي ذلك فعل شجاع. إنكم تعلمون أنه ما من مشكلة في تجاوز الحرس. فمن الذي يجرؤ على أن يرفض إدخال رجال في مركزنا ومنزلتنا، إن لم يكن بداعي الاحترام، فليكن خوفاً من العواقب؟ فضلاً عن ذلك، لدي عذر مناسب لإدخالنا: سأقول إنني جئت من فارس حاملاً رسالة من والدي إلى الملك. إذا كان الكذب ضرورياً فلم لا أكذب؟ كلنا يسعى إلى هدف واحد، سواء كنا نكذب أم نقول الحقيقة، ألا وهو مصلحتنا الشخصية. فالرجال يلجؤون إلى الكذب حينما يظنون أنهم يستفيدون من الخديعة، ويقولون الصدق للسبب نفسه، للحصول على شيء يرغبون به وليكونوا موضع ثقة أكثر من غيرهم لصدقهم. فالصدق والكذب إذن ليسا سوى طريقين مختلفين يؤديان إلى هدف واحد. وحيثما نعدم الفائدة، يلجأ الصادق إلى الكذب شأنه شأن الكاذب ذاته سواء بسواء، والكاذب يقول الحقيقة كالصادق. والحارس الذي يسمح لنا بالدخول سنعمل على مكافأته لاحقاً، أما من يحاول منعنا فسيعامل بوصفه عدواً. ويجب

علينا في هذه الحالة أن ندخل عنوة ونبدأ عملنا على الفور».

قال جوبرياس: «يا أصحابي، هل تتاح لنا فرصة أفضل مما لدينا الآن لإنقاذ العرش، أما إذا فشلنا، فلنمت في المحاولة، أفحتم على فارس أن يحكمها ميدي، ذلك المجوسي الذي قطعت أذناه، ولن ينسى من كان منكم واقفاً بجانب قمبيز وهو على فراش الموت، اللعنة التي أنزلها بالفرس إذا لم يقوموا بأي جهد لإنقاذ العرش. آنذاك لم نأخذها على محمل الجد معتقدين أن حديثه كان محض افتراء. لكن الأمر قد تغير الآن، وأعتقد أن علينا الأخذ بنصيحة داريوس، وأن ننهي الاجتماع لنذهب فوراً إلى القصر ونهاجم المجوسيين». فوافقوا جميعاً على الاقتراح.

بينما كان هذا النقاش يدور، كانت أحداث أخرى تتوالى في مكان آخر. فقد فكر المجوسيان ملياً في الأمر وخلصا إلى الإفضاء بسرهما إلى بركساسبيس، وكان هذا القرار مبعثه عدة أسباب: أولها أن قمبيز قد عامل بركساسبيس بقسوة وأردى ابنه قتيلاً، ثم إنه الشخص الوحيد الذي يعلم بسر موت سميرديس بن قورش لأنه المسؤول المباشر عن مقتله، وأخيراً، لمكانته السامية في المجتمع الفارسي. ولذلك فقد استدعياه للمثول أمامهما وشرعا يساومانه على ولائه لهما، وحاولا الحصول منه على قسم بألا ينطق بكلمة حول الخدعة التي تآمرا بها على الفرس، وعرضا عليه أن يدفعا له مبلغاً كبيراً من المال لقاء صمته. فوافق على ذلك كله، مما شجعهما على أن يقترحا دعوة الفرس للتجمع أسفل أسوار القصر ليعلن بركساسبيس من أعلى البرج أن الملك هو سميرديس بن قورش. وكان دافعهما إلى ذلك اعتقادهما أن الفرس، على الأرجح، سيجنحون إلى تصديقه أكثر من أي شخص آخر، إذ إنه أنكر تلك الجريمة مراراً وألح على أن سميرديس مازال حياً. فوافق بركساسبيس على ذلك أيضاً، فدعا المجوسيان الناس للتجمع وطلبا منه الصعود إلى قمة البرج للإدلاء بتصريحه. ولكنه عوضاً عن ذلك تجاهل كل ما طلباه منه، وألقى خطبة تعقب

فيها سلسلة نسب قورش وصولاً إلى أخمينيس، واستعرض الخدمات الجلى التي قدمها قورش لبلده، وأخيراً، كشف عن الحقيقة، وأضاف أنه قد أخفاها طوال الوقت حرصاً على سلامته، لكن الكتمان لم يعد ممكناً، وكشف السر بات ضرورة. ولم يخف شيئاً عن الناس، وقال إن قمبيز قد أرغمه على قتل سميرديس بن قورش، وإن البلاد قد أصبحت الآن في قبضة المجوسيين. وفي النهاية، ختم كلامه بالدعاء على الفرس أن ينزل بهم الشقاء إذا لم يستعيدوا العرش وينزلوا العقاب بمغتصبيه، ثم ألقى بنفسه دون تردد من أعلى البرج إلى الأرض. وهكذا كانت نهاية من كان طوال حياته رجلاً متميزاً بين الرجال.

بعد أن توصل المتآمرون السبعة إلى القرار بمهاجمة المجوسيين اتجهوا إلى القصر فوراً وهم يبتهلون لتتكلل جهودهم بالنجاح. ولم يكونوا على علم بموضوع بركساسبيس ولم يسمعوا بما جرى، إلا بعد أن قطعوا نصف الطريق إلى القصر، فاستوقفهم هذا النبأ، إذ اعتقدوا أنه من الأفضل مناقشة العامل الجديد الذي طرأ على الوضع. وألح أنصار أوتانيس على ما تنطوي عليه محاولتهم من مخاطر، وأن من الضروري تأجيلها حتى تهدأ الأمور. لكن داريوس ومؤيديه كانوا مع التصرف فوراً ويعارضون أي تعديل في الخطة. وكان الجدال يزداد حرارة، عندما رأو سبعة من الصقور تطارد زوجين من النسور، ويعملون على تمزيقهما بمناقيرهم ومخالبهم. فكان ذلك بمثابة بشير خير، فتمت الموافقة على خطة داريوس بالإجماع، وبثقة متجددة هرعوا نحو القصر. وعندما وصلوا إلى أبوابه، كان كل شيء كما توقع داريوس، فقد سمح لهم الحراس بالدخول فوراً احتراماً لمكانتهم الرفيعة ولعدم ارتيابهم بنواياهم الحقيقية، فكان ذلك دليلاً على أن السماء ترعاهم بشكل خاص. لكن الخصيان - رسل الملك - داخل القصر أوقفوهم وسألوهم عن سبب مجيئهم، وفي الوقت نفسه، أخذوا يعنفون الحراس لسماحهم لهم بالدخول، واستغرق التحقيق برهة من الزمن، لكن السبعة في تلهفهم للإسراع ومتابعة طريقهم، أشهروا خناجرهم

وطعنوا الخصيان الذين اعترضوا طريقهم، وهرعوا بعد ذلك إلى القاعة.

كان المجوسيان داخل القصر يناقشان الوضع الذي تمخض عن خيانة بركساسبيس. وسمعا الخصيان يصرخون صرخة ذعر واضح، فهرعا لاستجلاء الأمر، وعندما أدركا الخطب الوشيك حاولا الاستعداد لمجابهته، لكن لم يتسن لأحدهما إلا الإمساك بقوسه، بينما أمسك الآخر برمحه. إلا أن صاحب القوس لم يتمكن من استخدامه لأن القتال كان على مقربة منه، في حين استطاع الآخر استخدام رمحه لإبعاد المهاجمين عنه فجرح اسباثينيس في رجله، وأصاب انتافرينيس في عينه. إلا أنه نجا بحياته بعد أن فقد إحدى عينيه. أما المجوسي الذي عجز عن استخدام قوسه والدفاع عن نفسه فقد هرع إلى أحد المخادع، التي يمكن الدخول إليها عبر القاعة، وحاول أن يغلق الأبواب في وجه من يلاحقونه إلا أن اثنين منهم استطاعا أن يقتحما المكان بالقوة فأمسك جوبرياس بالمجوسي وأحاط به بكلتا يديه. كانت الغرفة معتمة فأخذ داريوس يراقب الرجلين وهما يتصارعان على الأرض وكان يتردد في التدخل، إذ كان يخشى أن يطعن الشخص الخطأ. لكن جوبرياس وقد أدرك تردده، صرخ به قائلاً: «لماذا توجد لديك يدان، إذا كنت لا تستخدمهما؟» فرد داريوس: «لا أجرؤ على القيام بذلك خشية أن أصيبك بأذى» فأجابه جوبرياس: «لا تخش شيئاً، ولتضربنا معاً إذا تطلب الأمر ذلك». عندئذ استل خنجره وحالفه الحظ فطعن المجوسي.

بعد أن تم قتل المجوسيين، قطع المتآمرون رأسيهما وخرجوا إلى الشارع وهم يصرخون محدثين ضجة عظيمة، حاملين الرأسين المقطوعين. بينما تركوا الجريحين في القصر، إذ لم يكن بمقدورهما الحركة، فضلاً عن حاجتهما إليهما لحراسة القلعة. والتقى الخمسة السالمون بالمواطنين، وأخبروهم بما جرى، وأظهروا لهما الرأسين، ثم بدؤوا بقتل كل مجوسي صادفوه في طريقهم. وسرعان ما أصبح الفرس الآخرون على أهبة الاستعداد لأن يحذوا حذوهم، بعد

أن علموا بالعمل البطولي الذي اضطلع به الحلفاء السبعة والخدعة التي قام بها المجوسيان. فاستلوا خناجرهم وقتلوا كل مجوسي وقعت أنظارهم عليه، وكادوا يبيدون جميع المجوس لولا حلول الظلام، فتوقفت المجزرة. وقد أصبح هذا اليوم يوماً مشهوداً في التقويم الفارسي حيث يقام احتفال سنوي يعرف باسم قتل المجوس، ولا يسمح في أثنائه لأي مجوسي بالظهور، فيقبعون جميعاً في بيوتهم طوال اليوم لا يبرحونها.

اجتمع الحلفاء لمناقشة الوضع، بعد خمسة أيام، وفي أثناء ذلك ألقيت بعض الخطب التي يرفض بعض الإغريق إلقاءها على الإطلاق. كان أوتانيس أول الخطباء فطرح فكرة تأسيس حكومة شعبية في فارس. وقال: «أعتقد أن الوقت الذي تكون فيه السلطة المطلقة بيد شخص واحد قد فات. فالملكية ليست بالأمر السار أو الحسن. إنكم تعلمون ما الذي فعله جبروت السلطة بقمبيز، ولقد خبرتم شخصياً تأثير السلطة في سلوك المجوسيين، كيف يمكن للمرء أن يدرج الملكية ضمن أي نظام أخلاقي سليم، عندما تسمح للملك أن يفعل ما يشاء دون أي مسؤولية أو انضباط؟ إن أفضل الرجال إذا ما تسنم منصباً كهذا فلا بد له من أن يتغير نحو الأسوأ، إذ لا يعود بمقدوره رؤية الأمور كما كان يراها. إن الحسد والتكبر هما النقيصتان الملازمتان للملكية، والحسد ضعف إنساني طبيعي، أما التكبر فيظهر حينما يتوفر الثراء الفاحش والسلطة مما يوهم الإنسان بأنه في مرتبة تفوق البشر جميعاً. وهاتان النقيصتان هما أصل الشرور لأنهما تدفعان بالمرء للقيام بالأفعال الهمجية والعنف الوحشي. والحق أن السلطة المطلقة ينبغي أن تحول دون الحسد، لأن من يملكها يكون في حوزته كل ما قد يرغب المرء به، لكن الأمور ليست كذلك في الحقيقة، وهذا ما أثبتته تصرفات الملوك تجاه رعاياهم، فهم يغارون من أفضلهم لمجرد أنهم ما زالوا على قيد الحياة، ويجدون السرور مع أسوئهم، ولن تجد أحداً يصغي إلى الوشاة والنمامين مثل الملك. كذلك فإن الملك أكثر الناس تقلباً، فإن أظهرت له قدراً

معقولاً من الاحترام، غضب منك لأنك لم تذل نفسك أمام عظمته، وإذا أذللت نفسك أمامه فسيكرهك لأنه سيعتبرك متملقاً مرائياً. إلا أن الأسوأ من ذلك كله، أنه يعمد إلى تحطيم بنية التقاليد والعقائد الدينية، ويقسر النساء على إشباع رغباته وإرضاء ملذاته، وينزل بالرجال عقوبة الإعدام دون محاكمة. أما حكم الشعب فهو على النقيض من ذلك: أولاً، يتمتع بأحسن الأوصاف ـ المساواة أمام القانون. ثانياً، لا يقوم الأشخاص الذين يتولون الحكم بالأفعال التي يقوم بها الملوك. ففي حكومة الشعب يعين الناس من يحكمهم ويعتبرونه مسؤولاً عن تصرفاته في أثناء فترة توليه مهام منصبه، وجميع المسائل تطرح للنقاش العام. ولهذه الأسباب أقترح أن نستغني عن الملكية وأن نسلم السلطة للشعب. ذلك أن الحكومة والشعب مصطلحان مترادفان».

كان ميجابازوس قد تلا أوتانيس في الحديث، فامتدح مبدأ الأوليجركيه[١٣] في الحكم بالكلمات التالية: «إنني أتفق مع أوتانيس فيما ذهب إليه بضرورة إلغاء الملكية، إلا أنه قد أخطأ في مسألة نقل السلطات السياسية إلى الشعب. إن الجماهير جماعة فارغة لا مبالية ولن تجد جهلاً أو عنفاً أو لا مسؤولية أكثر مما لديهم. ولهو أمر لا يحتمل أن تهرب من نزوة مميتة تعرض للملك لتقع في شرك وحشية الدهماء وجلافتهم. فالملك، على الأقل، يتصرف بشكل واع ومقصود، لكن هذا لا ينطبق على الرعاع. وفي الحقيقة، أنه ليس بمقدورهم القيام بذلك، إذ لم يتم تأهيلهم على إدراك ما هو الصحيح والمناسب، ولا تتوفر لديهم معرفة ذاتية بمثل هذه الأمور. فالجماهير تعالج الأمور دون تفكير، وكل ما يستطيعون القيام به معالجة الشؤون السياسية باندفاع أعمى مثلهم في ذلك مثل نهر يفيض. أما بالنسبة إلى الشعب فلندع له الحكم في أعداء فارس، ولنختر بأنفسنا عدداً معيناً من أفضل رجالات البلد ولنمنحهم السلطات السياسية، وسنظل نحن من بينهم، ومن الطبيعي الافتراض أن أفضل الرجال ستكون سياستهم هي الأفضل».

كان داريوس ثالث الخطباء. فقال: «أعتقد أن جميع ملاحظات ميجاربازوس بشأن العامة صحيحة. إلا أنني لا أتفق معه فيما قاله بشأن الأوليجركيه. فلنأخذ أشكال الحكم الثلاثة التي نناقشها الآن وهي الديموقراطية، والأوليجركيه، والملكية. ولنفترض أن كلاً منها هو الأفضل، إلا أنني أؤكد أن ثالثها هو أفضل بكثير من النمطين الآخرين. حاكم واحد: من المستحيل إدخال أي تحسينات على نظام الحكم هذا، شريطة أن يكون هذا الحاكم هو الأفضل حينذاك سيكون حكمه منسجماً مع شخصيته، وسيطرته على الشعب أسمى من أن تكون موضع مساءلة، والاجراءات التي يتخذها لمكافحة الأعداء والخونة ستتم المحافظة على سريتها بسهولة أكبر مما لو كانت متخذة في ظل نظام حكم آخر. ففي النظام الأوليجر يمكن أن يؤدي التنافس بين عدد من الرجال للتميز والبروز في الخدمة العامة إلى حدوث ضغائن شديدة بينهم، فكل منهم يريد الوصول إلى القمة وتنفيذ مقترحاته، ولهذا السبب لا بد من أن تنشب النزاعات فيما بينهم، وهذا يمكن أن يؤدي إلى حروب أهلية، ومن ثم إلى سفك الدماء. والطريق الوحيدة للخروج من هذه الحالة تكون بالعودة إلى الملكية. وهذا أبرز دليل على أن الملكية هي الأفضل. أما في الديموقراطية فلا بد من وجود نوع من الممارسات السيئة، لكن في هذه الحالة فإن الفساد المنتشر في مرافق الدولة لن يؤدي إلى ضغائن بل إلى صداقات شخصية حميمة، فالرجال المسؤولون عن الفساد سيجتمعون ويتكاتفون وسيؤيدون بعضهم بعضاً، وسيستمر الأمر كذلك إلى أن يظهر بطل من الشعب يقوم بتقويض القوى التي أقاموها لتخدم مصالحهم، مما يكسبه إعجاب الرعاع وبالتالي سرعان ما يجد نفسه وقد وضعت بين يديه السلطات المطلقة، وما هذا إلا برهان آخر على أن الملكية هي أفضل نمط للحكم. وباختصار: كيف بلغنا حريتنا، ومن الذي منحنا إياها؟ هل جاءت نتيجة الديموقراطية، أم الأوليجركيه أم الملكية؟ لقد حررنا رجلاً واحداً، ولهذا فإنني اقترح أن نحافظ على ذلك الشكل من الحكم، وعلاوة

على ذلك، علينا أن نحجم عن تغيير العادات القديمة التي خدمتنا بشكل جيد فيما مضى، وإذا ما قمنا بالتغيير فلن نفيد منه».

كانت تلك هي الآراء التي عرضت لها الخطب الثلاث، أما الرجال الأربعة الذين لم يلقوا خطباً فقد صوتوا لصالح الرأي الأخير.فعمد أوتانيس الذي ألح على المساواة أمام القانون إلى إلقاء خطبة أخرى، فقال: «أيها الأصدقاء، من الواضح أن الملك سيكون واحداً منا، سواء انتخبناه بالقرعة، أو سألنا شعب فارس اختيار واحد منا، أو لجأنا إلى أي طريقة أخرى. لن أدخل في منافسة معكم بشأن التاج، ذلك أنني لا أرغب في أن أكون حاكماً أو أغدو محكوماً كذلك. ولهذا فإنني انسحب ضمن شرط وحيد ألا أخضع وجميع أفراد سلالتي إلى حكم أي واحد منكم عندما يصبح ملكاً». وافق الستة الآخرون على هذا الشرط، وتنحى أوتانيس. وإلى هذا اليوم مازالت أسرة أوتانيس هي الأسرة الحرة الوحيدة في بلاد فارس، والتي لا يخضع أفرادها إلى الملك إلا إذا أراد الفرد منهم ذلك، ودون أن تخرج عن قوانين الفرس.

وعندئذ تداول الستة الآخرون في أفضل الطرق وأكثرها إنصافاً لتقرير من منهم سيتولى العرش. واتفقوا إذا أصبح الملك واحداً منهم أن يتلقى أوتانيس وسلالته سنوياً بذة من الثياب الميدية، وهدايا أخرى لها أسمى اعتبار عند الفرس، للدلالة على الامتياز والشرف للدور الذي اضطلع به في العملية التي أدت إلى التخلص من المجوسيين إذ كان المحرك الأول والمخطط الأساسي لها. كانت هذه الامتيازات خاصة بأوتانيس وحده، ثم اتفقوا على امتيازين آخرين يشتركون فيهما جميعاً: هما السماح لأي من السبعة بالمثول أمام الملك دون استئذان إلا إذا كان الملك في السرير مع امرأة. وكذلك أنه يتوجب على الملك أن يتزوج من أسر الحلفاء السبعة. ولتحديد من منهم سيكون الملك، اقترحوا أن يمضوا في جولة على ظهور جيادهم في ضواحي المدينة، فيكون العرش من نصيب الفارس الذي يسمع صهيل جواده بعد شروق الشمس.

كان لدى داريوس سائس ذكي يدعى أوليباريس فذهب لرؤيته بعد انتهاء الاجتماع، وأخبره بالاتفاق الذي تم التوصل إليه، والذي بموجبه سيمتطون صهوات جيادهم ويكون العرش لمن يسمع صهيل جواده أولاً بعد شروق الشمس. وأضاف: «لهذا إن استطعت أن تفكر في وسيلة ما فافعل ما بإمكانك لتكون على يقين من أن هذه الجائزة ستكون لي، دون سواي».

أجاب السائس «حسن، يا سيدي، إذا كانت حظوظك في الفوز بالعرش تعتمد على هذا الأمر، فلا تشغلن بالك، بل ولتثق تماماً بأنك، ولا أحد سواك، ستكون الملك، ذلك أنني أعرف خدعة ستخدم هدفنا على الوجه المطلوب».

قال داريوس: «إذا كان لديك فعلاً حل ناجع، فمن الأفضل أن تسرع في تدبر الأمر، فالغد هو اليوم المشهود».

عندما حل الظلام أخرج أويباريس من الإسطبلات الفرس الأثيرة لدى حصان داريوس، وقيدها في أطراف المدينة. ثم أحضر الحصان وجعله يدور ويدور حول الفرس في حلقات بحيث يقترب منها أكثر فأكثر وأخيراً سمح له بجماعها.

في الصباح التالي قبيل الفجر، جاء الرجال الستة يمتطون صهوات جيادهم ويسيرون بها عبر ضاحية المدينة حسبما اتفقوا عليه، وعندما وصلوا إلى البقعة التي قيدت فيها الفرس الليلة الماضية والشمس تشرق، أخذ حصان داريوس يثب إلى الأمام ويصهل. وفي اللحظة ذاتها، وبالرغم من أن السماء كانت صافية، فقد لمع البرق وقصف الرعد، وكأن ذلك إشارة من السماء، وهكذا تأكد فوز داريوس بالعرش، وقفز الخمسة الآخرون عن صهوات جيادهم وانحنوا إلى الأرض عند قدميه.

كانت تلك إحدى الروايات عن داريوس وصهيل حصانه. ويروي الفرس رواية أخرى تقول إنه قام بفرك الأعضاء الجنسية للفرس وأبقى يده مغطاة داخل ثيابه. وعندما كانت الشمس تشرق سحب يده ووضعها على أنف حصانه الذي

أخذ يثب ويصهل لدى تنشقه رائحة الفرس[١٤].

وهكذا أصبح داريوس بن هايستاسبيس ملكاً على فارس. ويفضل فتوحات قورش وقمبيز، ودانت له كل شعوب آسيا بالولاء باستثناء العرب الذين لم يدخلوا في طاعة الفرس ولم يدينوا لهم بالولاء بوصفهم تابعين أو أرقاء بل أصبحوا لهم أصدقاء عندما سمحوا لقمبيز بالمرور إلى مصر لأن الفرس لم يكن في مقدورهم غزو مصر ضد إرادة العرب.

تزوج داريوس بابنتي قورش أتوسا وأرتيستون، وكانت الأولى زوج أخيها قمبيز ثم المجوسي، أما الثانية فكانت عذراء. ثم بني ببارميس بنة سميرديس بن قورش، وبالإضافة إليهن تزوج ابنة أوتانيس، الرجل الذي كشف مكيدة المجوسيين.

بعد ما أقرت بسلطانه جميع الأراضي الواقعة تحت سيطرته، كانت باكورة أعماله نصب تذكاري من الحجر نقشت عليه صورة رجل يمتطي جواداً، وتحته العبارة التالية: فاز داريوس بن هايستاسبيس بعرش فارس بفضل حصانه وسائسه أويباريس. وكان اسم الحصان مذكوراً كذلك. ثم قسم الإمبراطورية إلى عشرين حكومة إقليمية تدعى مرزبانات. وتم تعيين عدد من الحكام لهذه الأقاليم وحددت ضريبة على كل إقليم، ولأغراض إدارية تم ضم عدد من الأقوام المتجاورة ضمن مجموعة واحدة، أما الجماعات التي تعيش على الأطراف فكانت تلحق بهذه الأمة أو تلك، حسب ما هو أنسب.

وقبل أن أقدم ثبتاً بمقدار الضريبة السنوية التي كان يتوجب على كل إقليم أن يدفعها، سأذكر أنه تم إعطاء الأوامر لكل من يدفع بالفضة باستخدام التالنت (وزنة) البابلي (وحدة قياس للوزن) بينما استخدم التالنت (وزنة) اليوبوني مقياساً للذهب. والتالنت (وزنة) البابلي يعادل ١ تالنت (وزنة) يوبوني. وفي أثناء حكم قورش وقمبيز لم يكن ثمة ضرائب محددة بل كانت العوائد تأتي من الهدايا فحسب. ولما جاء داريوس وقام بإجراءات معينة وفرض

ضرائب محددة ومنتظمة، تناقل الفرس القول بأن داريوس كان تاجراً وقمبيز طاغية مستبداً وقورش أباً، فالأول كان يسعى إلى الربح أينما استطاع الحصول عليه، والثاني كان قاسياً وغير مبال بمصالح رعاياه، أما الثالث قورش فكان نظراً لطيبة قلبه وحبه لرعاياه دائم الانشغال بكل ما يحقق الخير لهم.

والآن سأعرض للضرائب التي يدفعها كل إقليم من الأقاليم العشرين:

١ ـ أربعمائة تالنت (وزنة) من الفضة ـ كان يسهم في دفعها الأيونيون والماجنيسيون في آسيا، والأيوليون، والكاريون، والليسيون، والميليون، والبامفيليون.

٢ ـ خمسمائة تالنت (وزنة) ـ من الميسيين والليديين واللاسونيين، والكابليين، والحثيين.

٣ ـ ثلاثمائة وستون تالنت (وزنة) ـ كان يدفعها سكان الساحل الجنوبي للهليسبونت (الدردنيل) والفريجيون والتراقيون في آسيا والبافلاج والماردانيون والسوريون.

٤ ـ خمسمائة تالنت (وزنة) ـ كان سكان قليقليا يدفعونها إضافة إلى تقديم ثلاثمائة وستين حصاناً أبيض (واحد لكل يوم من السنة) وكان يتم تخصيص مائة وأربعين تالنت (وزنة) من مبلغ الضريبة النقدية لاستخدامها في الإنفاق على قوة الخيالة التي تحمي قلقيليا، والثلاثمائة وستون الباقية تدفع لداريوس.

٥ ـ ثلاثمائة وخمسون تالنت (وزنة) ـ يدفعها سكان المنطقة الواقعة ما بين مدينة بوسيديوم التي أسسها الأمفيلوكيون والتي تقع على الحدود بين قليقليا وسورية حتى مصر، باستثناء المنطقة العربية، التي لم تكن تدفع أي ضريبة على الإطلاق. وهذا الإقليم كان يضم الأراضي الفينيقية والقسم من سورية الذي يطلق عليه فلسطين وقبرص.

٦ ـ سبعمائة تالنت (وزنة) ـ كانت مصر تدفعها بالإضافة إلى الليبيين على حدودها ومدينتي كيرينة وبرقة (وهما في إقليم مصر) علاوة على الأموال

المتحصلة من أسماك بحيرة مويريس ومائة وعشرين ألف مكيال من الذرة تخصص للقوات الفارسية المعسكرة في القلعة البيضاء في ممفيس.

٧ - مائة وسبعون تالنت (وزنة) يسهم في دفعها الساتاجيديان والجانداريان والداديكاي، والأباريتاي.

٨ - ثلاثمائة تالنت (وزنة) - من سوسة وبقية سيسيا.

٩ - ألف تالنت (وزنة) من الفضة - وخمسمائة من الخصيان الفتيان من بابل وبقية بلاد آشور.

١٠ - أربعمئة وخمسون تالنت (وزنة) - من إكباتانا وباقي الميديين، والباريسان والأورثوكوريبان.

١١ - مئتا تالنت (وزنة) - يسهم في دفعها الكاسبيان والبوسيك والبانتيماث والداريتاي.

١٢ - ثلاثمائة وستون تالنت (وزنة) من الباكتريين والأقوام المجاورة لهم حتى إيغلي.

١٣ - أربعمائة تالنت (وزنة) - يدفعها الباكتيك بالإضافة إلى الأرمن وجيرانهم حتى البحر الأسود.

١٤ - ستمائة تالنت (وزنة) - يسهم في دفعها الساجارت والسارابخ والثامان واليوتيان والميسي

١٥ - مئتان وخمسون تالنت (وزنة) - من الساكاي والكاسبيان.

١٦ - ثلاثمائة وتسعون تالنت (وزنة) - يقدمها البارثيان، والكوراسميان، والصغد والأريان.

١٧ - أربعمائة تالنت (وزنة) - يدفعها الباريسان والأثيوبيون.

١٨ - مئتا تالنت (وزنة) - من الماتينيين والساسبير والألاروديين.

١٩ - ثلاثمائة تالنت (وزنة) - يدفعها الموسكي والتبارين والماكرون والموسينويسي والماريس.

٢٠ ـ ثلاثمائة وستون تالنت (وزنة) من التبر ـ من الهنود وهم القوم الأكثر تعداداً في العالم المعروف ويدفعون المبلغ الأكبر.

وإذا تم تحويل مجموع المبالغ المشار إليها هنا بالتالنت البابلي إلى التالنت اليوبوني فإنها تبلغ ما مجموعة تسعة آلاف وثمانمائة وثمانون تالنتاً وإذا قدرنا قيمة الذهب بما يعادل ثلاث عشرة مثل قيمة الفضة، فإن التبر الهندي يعادل عندئذ أربعة آلاف وستمائة وثمانين تالنت، وبذلك يكون إجمالي عائدات داريوس السنوية أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وستين تالنتاً يوبونياً، باستثناء العوائد الزائدة.

تلك كانت العوائد التي تمت جبايتها من آسيا وبعض أقسام ليبيا (أفريقيا)، ولكن مع مرور الزمن، جاءت عائدات أخرى من الجزر والأقوام في أوروبا وصولاً إلى تسالية. وكانت طريقة الفرس في تخزين كنوزهم صهر المعادن وسكبها في جرار فخارية، ثم كسر هذه الجرار بعد أن يتصلب المعدن، وحينما يحتاجون إلى المال يتم صك المبلغ اللازم.

وهكذا تكون قائمة الأقاليم والمبالغ التي تلتزم بدفعها قد اكتملت. أما البلد الوحيد الذي لم أذكره بوصفه دافعاً للضرائب فهو فارس ذاتها لأنها معفوة من كل ضريبة. أما الأقوام الذين لم تفرض عليهم ضرائب دورية فقد قدموا إسهامات بشكل هدايا. فالأثيوبيون المجاورون لمصر، على سبيل المثال، كان قمبيز قد قهرهم في أثناء حملته على الأثيوبيين المعمرين والذين يقطنون قرب المدينة المقدسة في نايسا ويقيمون الاحتفالات تكريماً لديونيسوس. والحبوب التي يتغذون عليها هم وجيرانهم تماثل الحبوب التي يستخدمها الهنود الكالانت في غذائهم ويعيشون تحت الأرض. وهذان القومان كانا ومازالا يجلبان كل سنتين مقدار كوارتين من فلز الذهب الخام ومئتي جذع شجرة من أشجار الأبنوس، وعشرين ناباً من أنياب الفيل. أما الكولشيان والقبائل المجاورة لهم وصولاً إلى القوقاز الذين يشكلون الحد الشمالي للإمبراطورية، إذ إن جميع

الأقوام الذين يقطنون الأماكن الواقعة إلى الشمال كانوا خارج نطاق نفوذ الفرس. فكانوا وما زالوا يتبرعون بمائة صبي ومئة فتاة كل أربع سنوات، وأخيراً كان العرب يقدمون كل عام هدية للملك مقدارها ألف تالنت (وزنة) من البخور. تلك كانت العائدات التي ترد إلى الملك زيادة على الضرائب النظامية التي كان يجنيها[١٥].

سأذكر الآن شيئاً عن الطريقة التي كان الهنود يتبعونها للحصول على مواردهم الكبيرة من الذهب، والتي تمكنهم من تزويد الفرس بالكميات الكبيرة من التبر التي كنت قد ذكرتها. ثمة صحراء رملية إلى الشرق من الهند، وفي الحقيقة فإن الهنود هم أبعد الأقوام من جهة الشرق في آسيا الذين تتوفر لدينا معلومات موثوقة عنهم، لأن البلاد الواقعة وراءهم صحراء غير مأهولة. وهناك في ذلك الإقليم قبائل هندية عديدة تتحدث بلغات مختلفة، يعيش بعضها حياة البداوة والرعي، وبعضها الآخر على غير هذا، كما أن بعضهم يسكنون في مناطق المستنقعات بجوار النهر ويأكلون السمك النيء الذي يصطادونه بقواربهم المصنوعة من القصب. كما يصنعون ملابسهم من أحد أنواع نبات الأسل الذي ينمو في النهر، حيث يجمعونه ويدقونه جيداً، ثم يحيكونه ويرتدونه لتغطية صدورهم، وأبعد قليلاً باتجاه الشرق هناك قبيلة بدوية تعرف باسم باداي يأكل أفرادها اللحم النيء. ويقال إن من عاداتهم إذا أصيب أحد الرجال بمرض ما، أن يقوم أصدقاؤه المقربون بقتله. ويبررون ذلك بأن لحمهم سيفسد إذا ما تركوا الأمراض تضعفهم، لذلك مهما حاول المريض أن يؤكد لهم بأنه سليم فإن أصدقاءه يرفضون تصديقه بل يقدمون على قتله ويقيمون مأدبة في هذه المناسبة. وإذا كانت المريضة امرأة فإن صديقاتها يسلكن تجاهها ما يسلكه الرجال تجاه صديقهم. أما إذا حالف الحظ أحدهم فوصل حتى سن متقدمة فتتم التضحية به قبل المأدبة، لكن هذا الأمر نادر، ذلك أن معظمهم يصاب بمرض أو آخر قبل أن يعمر، ومآله بالتالي القتل على يد أصدقائه.

هناك قبيلة أخرى يتصرف أفرادها على نحو مختلف، فهم لا يقدمون على إزهاق أي روح ولا يزرعون البذور وليست لديهم بيوت ويتغذون على الخضار فهم نباتيون. وتنمو في بلدهم نبتة برية، تحمل بذوراً في قرن بحجم بذور الجاورس فيجمعونها ويسلقونها ويتناولونها كاملة بقرنها. وإذا ما مرض أحدهم فإنه يترك أصدقاءه ويرحل بعيداً إلى مكان مهجور ليموت هناك دون أن يأبه أحد بمرضه أو موته.

جميع القبائل الهندية التي ذكرتها آنفاً، يمارس أفرادها الاتصال الجنسي في العراء مثلما تفعل الدواب ولون بشرتهم أقرب إلى لون الأثيوبيين، والسائل المنوي لرجالهم لا يتصف باللون الأبيض مثل الأقوام الأخرى، بل لونه أسود مثل لون بشرتهم، وهذا ما نجده أيضاً عند الأثيوبيين، وبلادهم تبعد كثيراً عن فارس باتجاه الجنوب ولم يخضعوا لداريوس أبداً.

باتجاه الشمال هناك هنود آخرون بالقرب من مدينة كسباتيروس في بلاد باكتيكا يشبهون الباكتريان في نمط حياتهم، وهؤلاء أكثر القبائل الهندية ولعاً بالحروب، كما أنهم هم الذين يجلبون الذهب ففي هذا الإقليم صحراء رملية، يصادف فيها نوع من النمل الكبير ـ أكبر من الثعلب، إلا أنه أصغر من الكلب. (ويحتفظ القصر الملكي في فارس ببعض العينات منه) وهذه المخلوقات تختبئ تحت الأرض فتحفر الأرض وتلقي الرمال التي تتجمع لتصبح أكواماً، كما يفعل النمل في بلاد الإغريق، وهما متشابهان في الشكل. وهذه الرمال تحتوي على كميات كبيرة من الذهب الذي يسعى الهنود للحصول عليه عندما يتوجهون إلى الصحراء، حيث يجهز كل رجل ثلاثة إبل يضعها جنباً إلى جنب وتكون الناقة التي يركبها في الوسط والجمال على طرفيها، ويحرص قدر الإمكان أن تكون الناقة قد وضعت منذ عهد قريب. وجمالهم سريعة مثل سرعة الجياد إلا أنها تفوقها في القدرة على حمل الأثقال، ولا حاجة لأن أصف الجمل فالإغريق يعرفونه، إلا أنني سأذكر أمراً جديداً بالنسبة إليهم فلدى الجمل في ساقه

الخلفية أربعة أفخاذ وأربع ركب، وأعضاؤه الجنسية تتجه إلى الخلف باتجاه ذيله. وبعد أن يجهز الهنود أنفسهم للقيام بالبعثة إلى الصحراء، ينظمون الجدول الزمني للرحلة بحيث يحصلون على الذهب حينما تكون الحرارة على أشدها لأن ذلك يدفع النمل للاختباء تحت الأرض. وفي هذه البقعة من العالم لا تكون حرارة الشمس على أشدها في الظهيرة كما هو الحال في باقي بقاع الأرض، وإنما في الصباح أي منذ الفجر وحتى وقت إغلاق الأسواق. وفي هذا الوقت من النهار تكون الحرارة أشد من حرارة بلاد الإغريق وقت الظهيرة، ويقال إن أهالي البلاد ينقعون أنفسهم في الماء ليتمكنوا من تحملها. وفي الظهيرة تتناقص درجات الحرارة وتصبح مساوية لحرارة سائر المناطق، وبعد الظهر تغدو مساوية لحرارة البلدان الأخرى في فترة الصباح الباكر. وفي الأصيل تتزايد برودة الجو تدريجياً بحيث يكون الطقس بارداً جداً عند الغروب.

وعندما يصل الهنود إلى المكان الذي يوجد فيه الذهب يعملون على تعبئة الرمل بالأكياس التي جلبوها معهم، وينطلقون عائدين إلى بلدهم بأقصى سرعة؛ ذلك أن أسراب النمل (كما يروي الفرس) تشتم رائحتهم وتبدأ بمطاردتهم فوراً، ولا يستطيع أحد أن يباري هذا النمل بالسرعة، ولهذا لن يكون بمقدور أي هندي العودة إلى بلده حياً إذا لم يحرص على العودة بسرعة بينما يكون النمل ما يزال يحشد قواه. ولما كانت الجمال أبطأ من النوق فإنها تتخلف في المسير وتتركها القافلة وراءها الواحد تلو الآخر، بينما تستمر النوق بالركض السريع مدفوعة بذكرى صغارها الذين خلفتهم وراءها. وفق رواية الفرس فإن معظم الذهب يجلب بهذه الطريقة التي وصفتها، كذلك فإنهم يستخرجون من المناجم في منطقتهم كمية من الذهب ليست بالكبيرة.

يبدو أن أبعد مناطق العالم تتميز بأن لديها أفضل المنتجات، في حين أن بلاد الإغريق لديها أفضل مناخ وأكثره اعتدالاً، وكما سبق القول، فإن الهند هي أبعد البلدان باتجاه الشرق في العالم المأهول، والحيوانات والطيور فيها أكبر

حجماً من تلك التي تتواجد في أي مكان آخر، باستثناء الحصان الهندي الذي يتصف بأنه أصغر حجماً من الحصان الميدي المعروف باسم نيسابين. والذهب يتوفر هنا بكميات كبيرة، ويتم الحصول عليه إما من المناجم، أو مما جرفته الأنهار، أو يسرق من النمل على النحو الذي وصفته آنفاً. وهناك أشجار برية تنتج نوعاً من الصوف أجمل وأفضل من صوف الغنم، ويستخدمه الهنود في صنع ثيابهم. وبلاد العرب تقع في أقصى الجنوب من العالم المأهول، وهي المكان الوحيد الذي ينتج البخور والمر والسنا والقرفة والصمغ الذي يسمى اللاذن. ويتكبد العرب في جمعها - باستثناء المر - مصاعب جمة. فلكي يجمعوا البخور يحرقون صمغ الميعة (نوع من الصمغ يجلبه الفينيقيون إلى بلاد الإغريق) والدخان المتصاعد منه يبعد الأفاعي الطائرة (الجراد)، وهي ذاتها التي تغزو مصر، وتتصف بأنها صغيرة الحجم وذات ألوان عديدة، وتتواجد بأعداد كبيرة على الأشجار التي تحمل البخور، والطريقة الوحيدة للتخلص منها هي إبعادها باستخدام الدخان المنبعث من احتراق صمغ الميعة. ويقول العرب إن هذه المخلوقات كان يمكن أن تغزو العالم لولا حدوث أمر غريب يحد من انتشارها. وبالفعل من الصعب تجنب الاعتقاد بأن العناية الإلهية بما فيها من حكمة قد جعلت الأنواع الضعيفة والتي تفترسها الأنواع الأخرى كثيرة العدد، وذلك لضمان استمرارها، بينما الأنواع المتوحشة والشرسة قليلة التزايد بالمقارنة مع غيرها، فالأرانب البرية، على سبيل المثال، والتي تعتبر لقمة سائغة لجميع الحيوانات المفترسة، فضلاً عن الإنسان والطيور، تتزايد على نحو يفوق كل الحدود. وأنثى هذا الحيوان تنفرد بتوالي الحمول لديها، إذ ستجد في رحمها أجنة في مراحل النموكافة ، بعضها مكسو بالفرو، وغيرها بدون فرو، وبعضها آخذ في التشكل والبعض الآخر قد حملت به للتو. لكن اللبوة ، على النقيض من هذا، أقوى الحيوانات وأكثرها جرأة لا تنجب في حياتها سوى شبل واحد، ذلك أنها حينما تلد الشبل تخرج الرحم أو ما بقي منها معه، لأن الشبل

عندما يبدأ في التحرك في بطنها، يقوم بخدش جدران الرحم بمخالبه، التي تتصف بأنها أقوى من مخالب أي حيوان آخر، وفيما هو ينمو يستمر في الخدش. بحيث يقارب الرحم على التلف حينما يأتي وقت ولادته فتخرج بقاياه معه. وهذا الكلام ينطبق على الثعابين والأفاعي العربية الطائرة، التي لو كانت تتكاثر بشكل طبيعي، لأصبح من المحال على البشر البقاء أحياء، ولكن لحسن الحظ، أنها غير قادرة على ذلك، إذ إنها عندما تتزواج، تقبض الأنثى على رقبة الذكر في اللحظة التي يطلق فيها السائل المنوي، وتستمر في ذلك حتى تأكله وتنتهي منه، وهذا يقضي على الذكر، لكن الأنثى تدفع ثمن سلوكها، فالأجنة في بطنها تقوم بالتهام أحشائها ثأراً لأبيها، ولا تخرج حتى تكون قد أتت عليها. في حين أن أنواعاً أخرى من الأفاعي، غير المؤذية للإنسان، تقوم بوضع البيوض فتخرج منها الصغار بكميات كبيرة. إن الأفاعي الطائرة لتبدو كثيرة العدد في بلاد العرب، لأنها لا تتواجد إلا في هذا البلد دون البلدان الأخرى في حين أن الأفاعي العادية تتواجد في أرجاء العالم كافة.

عندما يخرج العرب لجمع السنا، فإنهم يغطون أجسادهم ووجوههم ما عدا العينين بجلود الحيوانات، إذ إن تلك النبتة تنمو في بحيرة ضحلة المياه تعج والأرض المحيطة بها بمخلوقات مجنحة شديدة الشبه بالعناكب، تطلق صرخات عالية لتنبه إلى الخطر ولديها ولع شديد بالقتال. ويقومون بإبعادها وعدم السماح لها بمهاجمة أعين الرجال في أثناء قيامهم بجني السنا. أما الطريقة التي يتم فيها جمع القرفة فهي أكثر مدعاة للدهشة. وهم لا يعلمون من أين تأتي وأي البلدان تنتجها، وجلهم يخمنون بأنها تنمو في مكان ما من الإقليم الذي ترعرع فيه ديونيسوس. إذ يقولون أن تلك العيدان الجافة - التي تعلمنا من الفينيقيين أن ندعوها قرفة - تجلبها طيور كبيرة وتضعها في أعشاشها المبنية من الطين، والمتواجدة على حروف الجبال، التي يعجز أي إنسان عن الوصول إليها. وقد ابتكر العرب طريقة للحصول عليها بأن يقوموا بتقطيع لحوم الثيران

أو الحمير أو أي حيوان آخر إلى قطع كبيرة، ويضعونها فوق سفوح الجبال التي تتواجد فيها هذه الطيور ثم يتراجعون إلى مسافة آمنة. فتنزل تلك الطيور وتحمل قطع اللحم إلى أعشاشها. ولكن لما كانت تلك الأعشاش أضعف من أن تتحمل وزن تلك القطع فإنها تقع على الأرض، حينذاك يأتي الرجال لالتقاط القرفة، التي يصدرونها لاحقاً إلى بلدان أخرى. لكن الطريقة التي يجلبون بها اللاذن كما يسميه العرب أكثر مدعاة للعجب، واللاذن مادة ذات رائحة زكية رغم أنها توجد في مكان ذي رائحة كريهة جداً، فهي تعلق كالصمغ بلحية ذكر الماعز الذي يرعى بين الشجيرات. ويستخدم في صناعة العديد من أنواع العطور وهو البخور الرئيس عند العرب.

وإن شذا البخور والطيب والعطور يفوح من بلاد العرب. وهناك شيء آخر مدهش لدرجة تستوجب ذكره ألا وهو أن الأغنام هناك نوعان ولا يوجد لهما مثيل في أي مكان آخر في العالم، أحدهما له ذيل طويل جداً لا يقل طوله عن ثلاثة أذرع، ولو ترك دون أن يرفع عن الأرض لتقرح من جراء الاحتكاك المتواصل، لذلك ابتكر الرعاة حيلة بأن صنعوا مساند صغيرة من الصوف تثبت تحت الذيل. ولدى النوع الآخر ذيل مسطح يبلغ عرضه ذراعاً واحداً.

أما أبعد البلدان المأهولة من جهة الجنوب الغربي فهي أثيوبيا، التي يتوفر فيها الذهب بكميات عظيمة، وبها الفيلة الضخمة، وخشب الأبنوس، ومختلف أنواع الأشجار البرية، والرجال هناك يتصفون بأنهم أطول رجال العالم قامة وأشدهم وسامة وأطولهم عمراً.

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن البلدان الواقعة في أقاصي آسيا وليبيا. أما بالنسبة إلى غرب أوروبا الأقصى فليست لدي معلومات محددة حولها، إذ إنني لا أقبل بقصة نهر تسميه الأقوام غير الإغريقية ايريدانوس، ويصب في البحر الشمالي، الذي يفترض أن العنبر يأتي منه. كذلك فإنني لا أعلم شيئاً عن وجود جزر تسمى جزر القصدير التي يجلب منها القصدير. ففي المكان الأول نجد أن

ايريدانوس ليس اسما أجنبيا بل إغريقياً، وقد ابتدعه أحد الشعراء. وثانياً، لم أتمكن من العثور على أي إنسان يملك معلومات الشاهد العيان عن وجود بحر فيما وراء أوروبا في الشمال والغرب، رغم كل ما بذلته من جهود. لكن مما لا جدال فيه أن القصدير والعنبر يأتيان إلينا من مكان ما يمكن أن ندعوه نهاية الأرض. ومن الواضح أن المناطق الشمالية من أوروبا هي الأغنى بالذهب، إلا أنني لا أستطيع أن أبين طريقة إنتاجه على وجه التحديد. وتذهب الرواية إلى القول بأن الأريماسبيان ذوي العين الواحدة يسرقونه من الجرافين الذي يقوم بحراسته، إلا أنني أرفض أن أصدق أن هناك رجالاً ذوي عين واحدة إلا أنهم من النواحي الأخرى مثل باقي الرجال. على أي حال، يبدو أن القول بأن البلدان الواقعة على أطراف العالم المأهول تنتج أشياء نعتقد أنها الأكثر ندرة وجمالاً قول صحيح.

في أسيا ثمة سهل تحيط به سلسلة من الهضاب تنفصل عن بعضها بعضاً بشقوق لتشكل خمس بقاع مختلفة. وكانت ملكية هذه الأرض تعود إلى الكوراسم وتقع على حدود خمس قبائل مختلفة هي الكوراسم أنفسهم والهيركان والبارثيان، والسارانجيان، والثامانيان. لكنها غدت ملكاً لملك فارس منذ أن قويت شوكة الفرس وأصبحوا قوة يحسب حسابها. وهناك نهر كبير ينبع من سلسلة الجبال هذه يسمى أكيس. كان يزود تلك القبائل الخمس بالماء، حيث يتفرع إلى خمس أقنية ويصل إلى كل منها عبر مضيق مختلف. ولكن بعد أن اصبح الفرس سادة البلد، أصبحت هذه الأقوام تعاني من مشاكل كبيرة؛ وآية ذلك أن الملك الفارسي كان قد سد المضائق وبنى بوابات للتحكم بتدفق المياه، فتحول السهل إلى بحيرة كبيرة. ومع أن النهر ما زال يتدفق كسابق عهده لكن لم تعد لديه وسيلة للخروج، فكانت النتيجة كارثة حلت على الناس الذين كانوا يعتمدون على مياهه في شؤون حياتهم، وحرموا منها الآن. ومما لا ريب فيه أن المطر يهطل في الشتاء كما في أي مكان آخر، إلا أنهم بحاجة إلى

مياه النهر عندما يقومون بزراعة بذور الجاورس والسمسم في الصيف. ولهذا عندما يجدون أنفسهم بلا ماء تذهب مجموعة منهم مع نسائهم إلى فارس، ويقفون أمام بوابات القصر الملكي ويبدؤون بالعويل، حتى يعطي الملك أوامره بفتح بوابات الأقنية للسماح للماء بالتدفق للقبيلة الأكثر حاجة للماء، ثم بعد أن تحصل الأرض على كفايتها من الماء، تغلق البوابات، ويأمر الملك بفتح بوابات أخرى تباعاً حسب حاجة القبائل الأخرى. ومبلغ علمي أن الملك لا يأمر بفتح البوابات إلا بعد أن يتقاضى مبلغاً كبيراً من المال يفوق الضريبة المعتادة.

بعيد قيام السبعة بحركتهم ضد المجوسيين، تم إعدام أحدهم وهو انتافرينيس، وذلك لعدم إظهاره الاحترام لمقام الملك. فقد أراد الدخول إلى القصر لإنهاء عمل كان يريد القيام به مع داريوس. وكان قد سبق للسبعة أن اتفقوا فيما بينهم على أنه بمقدور أي منهم زيارة الملك دون الإعلان عن اسمه، شريطة ألا يكون في تلك اللحظة في الفراش مع امرأة. وقد رفض انتافرينيس أن يعلن لأحد الحجاب عن اسمه، وطالب بممارسة حقه في الدخول مباشرة بوصفه أحد السبعة. لكن مرافق الملك والحراس قاموا بإيقافه عند بوابة القصر وأخبروه أن الملك برفقة امرأة في الوقت الراهن. فاعتقد أن هذا ليس إلا عذراً ملفقاً لإبعاده فاستل سيفه وقطع آذانهم وجدع أنوفهم، وقيدهم بلجام جواده وشد اللجام حول أعناقهم، وأرسلهم إلى الملك وهم على هذه الحال. فأظهروا أنفسهم لداريوس وشرحوا له سبب معاناتهم، مما أوحى للملك باحتمال قيام مؤامرة وذهبت به الظنون إلى الارتياب بحلفائه السابقين وإمكانية اشتراكهم في مؤامرة ضده. فقام بطلب كل منهم بدوره، وسألهم ليرى ما إذا كانوا يقرون ما قام به زميلهم. فلم يوافق أي منهم على هذا التصرف. ولما اقتنع أن انتافرينيس إنما كان يتصرف بمبادرة منه، أمر باعتقاله وجميع أولاده وأقرب أقربائه، إذ راوده شك قوي بأنه وعائلته على وشك القيام بثورة عليه. وتم تقييد جميع السجناء بوصفهم مجرمين مدانين. وبعد اعتقاله، جاءت زوجه إلى بوابة القصر

وبدأت بالبكاء والعويل، واستمرت على هذه الحال فترة طويلة حتى إن دموعها أثارت الشفقة في قلب داريوس، فبعث أحدهم برسالة جاء فيها: «سيدتي إن الملك على استعداد للصفح عن أحد أفراد أسرتك ـ فاختاري من تريدين إنقاذه منهم». وبعد أن فكرت في الأمر ملياً، أجابت بما أن الملك قد منحها حياة واحد من أسرتها فحسب، فإنها ستختار أخاها. أدهش هذا الجواب داريوس فأرسل لها يسألها سبب نبذها زوجها وأولادها وتفضيلها إنقاذ أخيها الذي ليس بقرب أولادها منها، أو عزيزاً على قلبها مثل زوجها. فكان جوابها: «مولاي إن شاءت الآلهة، أستطيع الحصول على زوج آخر، وأولاد آخرين عندما يرحل أبنائي. ولكن لما كان أبي وأمي قد ماتا، فلن أستطيع الحصول على أخ آخر، وهذا هو السبب فيما قلته». استحسن داريوس منطق المرأة وتعبيراً عن سروره لم يمنحها حياة أخيها فحسب، بل حياة أكبر أبنائها أيضاً. أما بقية أفراد العائلة فقد أعدموا. وتلك كانت النهاية المبكرة لواحد من الحلفاء السبعة.

لقد تزامن مرض قمبيز الأخير، مع وقوع الحوادث التالية: كان أورويتيس وهو فارسي عينه قورش حاكماً لساردیس يخطط للقيام بعمل شرير، ألا وهو قتل بوليكراتيس حاكم ساموس. فقد كان مصمماً على القبض عليه وقتله، بالرغم من أنه لم يؤذه قط، سواء بالكلام أو بالأفعال، حتى إنه لم يسبق له أن التقى به على الإطلاق. ويعتقد أن غضبه على بوليكراتيس كان نتيجة شجار حدث بين أورويتيس ورجل فارسي آخر يدعى ميتروباتيس حاكم إقليم داسكيليوم. إذ يقال إنهما كانا يجلسان بالقرب من مدخل القصر، منهمكين بالحديث، ثم تصاعدت حدة الحديث بينهما، وسرعان ما تشاجرا حول مسألة أيهما هو الرجل الأفضل، عندها قال ميتروباتيس باستهزاء: «ماذا؟ أو تعتبر نفسك رجلاً، وقد قصرت عن أن تلحق ساموس بالأراضي التابعة للملك رغم أنها تقع بالقرب من إقليمك ويسهل إخضاعها؟ لماذا استطاع أحد سكان الجزيرة بمساعدة خمسة عشر جندياً فحسب القيام بثورة هناك والاستيلاء على

الحكم ليصبح سيد الجزيرة؟» آلم هذا التوبيخ أورويتيس، لكنه عوضاً عن الانتقام ممن تفوه به، أصبح يرغب في إزالة سببه عن طريق القضاء على بوليكراتيس.

وفق رواية أخرى لم تلق القبول ذاته، أن أورويتيس بعث رسولاً إلى ساموس لتقديم بعض المطالب (لم تأت الرواية على ذكرها)، وحينما وصل كان بوليكراتيس يجلس إلى طاولة وبرفقته أناكروين شاعر تيوس. وصدف أن كان بوليكراتيس يواجه جدار الغرفة وظهره إلى الرجل القادم نحوه ليخبره بما جاء من أجله، إلا أنه لم يجب الرسول، ولم يكتف بهذا بل إنه لم يكبد نفسه عناء الالتفات إلى الرسول وهو يتحدث إليه، وقد قام بذلك إما ليظهر ازدراءه لأورويتيس أو ربما حصل هذا بمحض الصدفة. إن هاتين الروايتين لتقالان في تفسير موت بوليكراتيس، وللقارئ أن يختار أيهما أقرب إلى التصديق.

عندما كان أورويتيس يعيش في ماجنيسيا الواقعة على الماندر، فقد سبق له أن علم بنوايا بوليكراتيس الذي كان أول إغريقي بلغنا أنه خطط للسيطرة على البحر، إلا إذا أخذنا مينوس الكنوسوسي في الحسبان، أو أي شخص آخر من المحتمل أنه حكم البحر في الأزمان الغابرة. على أي حال، فإن بوليكراتيس كان الأول في تاريخ البشر المتعارف عليه، الذي كانت لديه طموحات كبيرة ليصبح سيد أيونيا والجزر الأخرى. ولمعرفة أورويتيس بطموحاته فقد أرسل إلى ساموس شخصاً ليدياً يدعى ميروس بن جيجيس حاملاً رسالة فحواها: «إنني أعلم يا بوليكراتيس أنك تفكر في القيام بمشروع هام، إلا أن مواردك دون مستوى خططك. ولدي اقتراح إذا تبنيته فإنه سيضمن النجاح لك، والسلامة لي. فقد اتضح لي، من خلال التقارير التي أتلقاها، أن قمبيز يسعى لقتلي. ولهذا أطلب إليك أن تأتي لإخراجي من البلاد، وأعدك بأن أشاركك في كل ما أملك، وهذا سيوفر لك المال الكافي لتحكم سيطرتك على بلاد الإغريق. وإذا كنت ترتاب بمبلغ ثرائي، فابعث من تثق به أكثر من سواه، ليطلع على ما لدي». سر

بوليكراتيس بهذا العرض ولم يتردد في قبوله، إذ كان مولعاً بالمال، فأرسل أمين سره وهو رجل ساموسي يدعى مياندروس ووالده يحمل الاسم نفسه، للتأكد من صحة ادعاءات أوريتيس - وبعد ذلك بوقت قصير قدم مياندريوس هذا هدية إلى معبد هيرا المفروشات الرائعة من قاعة بوليكراتيس - وعندما علم أورويتيس بأن ثمة شخصاً في طريقه إليه ومن المتوقع أن يصل قريباً لرؤية كنزه، وضع الأحجار في ثمانية صناديق حتى قاربت على الامتلاء، ثم وضع فوقها طبقة رقيقة من الذهب، وأحكم إغلاقها وأبقاها جاهزة للتفتيش. ولما جاء مياندروس ورأى الذهب عاد ومعه التقرير إلى بوليكراتيس.

رغم المحاولات العديدة التي قام بها أصدقاؤه والعرافون لإقناعه بالعدول عن الرحلة، إلا أنه أصر على الذهاب ومقابلة أورويتيس بنفسه. ولقد بذلت ابنته قصارى جهدها لمنعه إذ إنها رأت في الحلم والدها معلقاً في الهواء وقد غسله زيوس وجلده إله الشمس هيليوس. فأدخل هذا الحلم الرعب إلى قلبها حتى أصبحت على استعداد للقيام بكل ما يؤدي إلى منع أبيها من السفر، فلحقت به إلى السفينة لتنذره بالكارثة الوشيكة الوقوع. فما كان منه إلا أن هددها بتأجيل زواجها عدداً من السنين حين عودته سالماً إلى الوطن، فكان جوابها أنها تصلي ليتحقق هذا، ذلك أنها تفضل أن تصبح عانساً على أن تفقد والدها.

ذهبت جميع هذه التحذيرات أدراج الرياح، فقد سافر بوليكراتيس وبرفقته عدد من أصدقائه ومن بينهم الكروتوني ديموسيدس بن كاليفون وهو أفضل أطباء عصره. أبحر بوليكراتيس إلى ماجنيسيا حيث كانت بانتظاره نهاية لا تليق بتميزه وطموحاته الكبيرة. ذلك أنه إذا ما استبعدنا حكام سيراكوس، فليس هناك من حاكم في بلاد الإغريق يمكن مقارنته بعظمة بوليكراتيس.

لكن أورويتيس أمر بقتله بطريقة لا تستحق تدوينها هنا، ثم صلب جثته. أما الرجال الذين كانوا بصحبته فقد أمر بإخلاء سبيل الساموس منهم فحسب، وتركهم يرحلون وأخبرهم أن الفضل في بقائهم أحراراً إنما يعود له. أما من

كانوا غرباء أو عبيداً فقد اعتبرهم أسرى حرب وقام باحتجازهم. لقد تحقق الحلم الذي رأته ابنته عندما وضع على الخازوق، فقد غسله زيوس عندما هطلت الأمطار وجلده هيليوس عندما جف جسمه نتيجة لتعرضه لحرارة الشمس. وهكذا كانت خاتمة النجاح المتواصل الذي تحقق لبوليكراتيس كما توقع ملك مصر أمازيس.

لم يمض وقت طويل حتى سخّر القدر من ينتقم لبوليكراتيس. فبعيد وفاة قمبيز، وفي أثناء فترة حكم المجوسيين، كان أورويتيس يعيش في سارديس ولم يقدم أي مساندة لأبناء بلده في مقاومتهم للميديين مغتصبي العرش. فضلاً عن أنه إبان تلك الفترة المضطربة دبر مقتل ميتروباتيس حاكم داسكيليوم الذي كان قد سخر منه في موضوع بوليكراتيس. كذلك دبر مقتل ابن ميتروباتيس كراناسبيس، وكلاهما من أعيان الفرس غير أنه، على كل حال، لم يكتف بهاتين الجريمتين، بل أقدم كذلك على قتل موفد داريوس الذي جاءه حاملاً رسالة لم ترق لأورويتيس، فأرسل جماعة ليكمنوا له في طريق عودته ويقتلوه، وقد ضاع كل أثر له ولحصانه. ما إن رسخ داريوس أركان سلطته حتى غدا يتوق لمعاقبة أورويتيس لجرائمه الكثيرة. ولكنه رأى - على ضوء الظروف الراهنة - أنه ليس من الحكمة في شيء إرسال قوة مسلحة بشكل علني ضده، فالبلاد مازالت في وضع غير مستقر، ولم يمض على جلوسه على العرش وقت طويل، بالإضافة إلى معرفته بقوة أورويتيس، وهو صاحب فريجيا وليديا وأيونيا، ويحميه ألف حارس من الفرس. لذلك لجأ داريوس إلى طرق أخرى، فدعا إلى اجتماع يضم الأعيان البارزين وخاطبهم قائلاً: «أيها السادة، إنني أرغب في أن يقوم أحدكم بتولي مسألة تتطلب استخدام المكر أكثر مما تتطلب استخدام القوة. إذ يمكننا ألا نلجأ إلى القوة إذا كانت الطرق الأخرى ناجعة. فمن منكم سيقوم بقتل أورويتيس أو إحضاره حياً؟ إن هذا الرجل لم يقم حتى الآن بما يعود على بلده بالمنفعة، بل على العكس من ذلك، فقد ألحق به أعظم الضرر، حين قتل اثنين من

أصدقائنا، هما ميتروباتيس وابنه، ثم قتل موفدي الخاص الذي أرسلته لاستدعائه. إن هذا لتحد للسلطة لا يجوز السكوت عنه، بل يجب إيقافه قبل أن يلحق بنا ضرراً أكبر، فيجب قتله».

انبرى ثلاثون من بين الحضور للحصول على شرف القيام بهذه المهمة، وكان التنافس بينهم شديداً مما اضطر داريوس للجوء إلى القرعة لاختيار أحدهم. ولما قاموا بذلك تبين أن باجايوس بن أرتونيس هو صاحب الحظ السعيد، فبدأ على الفور بإعداد مجموعة من الوثائق حول عدة موضوعات، وقام بختمها بخاتم الملك، وأخذها معه إلى ساردیس. وهناك قام بزيارة أورويتيس، وبحضوره فتح تلك الأوراق الواحدة تلو الأخرى وسلمها إلى أمين سر الملك (وهو منصب هام في كل مؤسسة حكومية)، طالباً منه أن يقرأها بصوت عال. وكان هدفه من هذا اختبار ولاء حراسه، وما إذا كانوا على استعداد للانقلاب على سيدهم. لذلك عندما لاحظ ما تعبر عنه نظراتهم من احترام لتلك الوثائق، وما أبدوه من احترام أكبر لكلماتها. قدم لأمين السر وثيقة تحتوي على أمر، من المفترض أن يكون صادراً عن داريوس، مفاده أن يرفض الحراس خدمة أورويتيس. وما إن تمت قراءة الأمر علناً، حتى سارع الحراس إلى وضع رماحهم عند قدمي باجايوس الذي ما إن رأى ذلك حتى قام بتسليم أمين السر ورقة كان قد احتفظ بها حتى النهاية تنص على: «يأمر الملك داريوس جميع الفرس في ساردیس أن يعملوا على قتل أورويتيس». وللتو استل الحراس سيوفهم وقتلوه، وهكذا كانت عاقبة أورويتيس الفارسي لخيانته لبوليكراتيس.

بعيد مصادرة أموال أورويتيس ونقلها إلى سوسة، كان داريوس في رحلة صيد فالتوت قدمه وهو يترجل عن حصانه. وكانت الإصابة شديدة، ذلك أن الكاحل قد انخلع من مكانه. وقد اعتاد داريوس أن يحتفظ في مجلسه بعدد من الأطباء المصريين، الذين يبزون الجميع في شهرتهم، فاستشارهم إلا أنهم لم يفلحوا في إعادة الكاحل إلى مكانه بل جعلوا الأمر يزداد سوءاً، حتى إن

داريوس لم يتمكن من النوم سبعة أيام بلياليها لشدة الآلام التي كان يعانيها مما أدى إلى تفاقم مرضه. وفي اليوم الثامن طلب إحضار شخص يدعى ديموسيدس من كروتونا على الفور، وكان قد اطلع على مبلغ مهارته من شخص سمع عنه لما كان في سارديس. فوجدوه بين أرقاء أورويتيس وهو بحالة مزرية، فأحضروه إلى القصر بالحالة التي كان عليها، مرتدياً ملابس رثة يجرجر أغلاله.

سأله داريوس لما مثل بين يديه عن مدى معرفته بالطب، فأجاب بأنه لا علم له به، إذ كان يخشى إذا ما كشف نفسه ألا يسمح له بالعودة إلى وطنه في بلاد الإغريق. إلا أنه لم يستطع خداع داريوس الذي أدرك أن ديموسيدس يخفي معرفته بالطب، فأمر الرجال بجلب السياط والمسامير الحديدية. وكان ذلك كافياً لجعله يقر بالحقيقة - إلى حد ما، ذلك أنه ظل مصراً على عدم تضلعه العميق بالطب، وأن جل ما يعرفه إنما حصل عليه حينما كان يعيش مع أحد الأطباء. ومع ذلك فإن داريوس وضع نفسه بين يديه، وباستخدامه أساليب الإغريق وعلاجات أبسط من علاجات المصريين وأكثر لطفاً، يسر للملك النوم، ثم سرعان ما شفي تماماً. مما حدا بداريوس - الذي لم يكن يتوقع أن يتمكن من استخدام قدمه مرة أخرى - إلى إهدائه مجموعتين من السلاسل الذهبية، عندئذ سأله ديموسيدس ما إذا كان يريد أن يجازيه على علاجه له بمضاعفة معاناته، وهذا ما أضحك داريوس فأرسله لزيارة زوجاته وعندما أخبرهن الخصيان الذين رافقوه بأنه الرجل الذي أنقذ حياة الملك قدمت له كل واحدة منهن مكيالاً من القطع الذهبية من خزانتها، وكان ثمة الكثير من القطع الذهبية التي تسقط من المكاييل ويطلق عليها الخدم اسم سكيتون، وقد تمكنوا من جمع ثروة طائلة من التقاطهم لتلك القطع فحسب.

كان والد ديموسيدس رجلاً شرس الطباع، ولما لم يعد بمقدوره تحمل ما يلقاه من والده من معاملة سيئة، فقد هرب من والده ورحل عن كروتونا، فذهب

في البداية إلى أيجينا، حيث أثبت أنه أفضل طبيب في الجزيرة، رغم عدم حيازته لأي معدات أو أدوات جراحية. وفي السنة الثانية من إقامته هناك عيّنه أهالي الجزيرة في وظيفة في الدولة براتب قدره تالنت. ثم بعدها بسنة وظفه الأثينيون بمرتب قدره مائة ميناي، ثم في السنة التالية عرض عليه بوليكراتيس أن يدفع له تالنتين، وهكذا أتى إلى ساموس. والحقيقة أن الشهرة الواسعة التي نالها أطباء كروتونا إنما تعود في معظمها إلى ديموسيدس. وقد وقع الحادث الذي أصاب داريوس، حينما كان أطباء كروتونا يبزون الجميع في بلاد الإغريق، وكان أطباء كيرينة يأتون في الدرجة الثانية بعدهم. وفي الفترة نفسها كان موسيقيو أرجيفيس يبزون الجميع.

بعد نجاحه في علاج داريوس، سكن ديموسيدس في دار واسعة في سوسة، وأخذ يتناول الطعام على مائدة الملك ويتمتع بالامتيازات كافة ما عدا حرية العودة إلى بلاد الإغريق. وكان الأطباء المصريون على وشك أن يوضعوا على الخازوق عقاباً لهم على عدم تمكنهم من علاج داريوس، لولا أن تدخل ديموسيدس بما له من نفوذ عظيم لدى داريوس فعفا عنهم. وهناك شاهد آخر على المكانة الرفيعة التي حظي بها الطبيب إذ استطاع تأمين إطلاق سراح أحد كهنة إيليس وكان من بين من سافروا مع بوليكراتيس قبل وفاته، وأصبح من الأرقاء. وعلى أي حال، فإن قصة ديموسيدس لم تنته بعد. إذ بعد فترة قصيرة من شفاء داريوس أصيبت زوجه أتوسا ابنة قورش بخراج في ثديها، وكان شعورها بالخجل جعلها تخفي الأمر فلم تخبر به أحداً حينما كان الخراج ما يزال صغيراً، لكن عندما كبر وبدأ بالانتشار ووجدت نفسها مريضة على نحو خطير، أرسلت في طلب ديموسيدس ليعالجها. فأخبرها أن بإمكانه أن يشفيها، ولكن قبل قيامه بذلك جعلها تقسم بأن تقدم له بالمقابل ما يطلبه منها، وطمأنها بأنه لن يطلب منها ما يخجل. وفق هذه الشروط قام بعلاجها فتماثلت للشفاء، وأخبرها بما يرغب في أن تقدمه له. فلما كانت في السرير بجانب داريوس

أخذت تحدثه قائلة: «مولاي، إن عدم قيامك بالمزيد من الفتوحات لزيادة رقعة فارس، رغم وجود موارد هائلة تحت تصرفك، لا بد أن يعني أنك تفتقر للطموح، ولا ريب أن شاباً مثلك لديه كل هذه الثروات يجب أن يكون منهمكاً في نشاط فعال، ليظهر للفرس أن من يحكمهم رجل بمعنى الكلمة. وفي الحقيقة، هناك سببان يدفعان لإنهاء حالة الجمود هذه؛ فإذا خضت الحروب فإن الفرس لن يعلموا أن قائدهم رجل فحسب، بل إن الحرب ستعمل على إضعافهم وبذلك لن يتسنى لهم أن يستغلوا الوقت في التآمر عليك. الآن هو وقت العمل، وأنت ما تزال شاباً، ذلك أن الجسد يشتد ويقوى في أثناء النمو، شأنه في ذلك شأن العقل. ولكن حين تمضي السنون يشيخ الجسد ويضعف العقل ويفقد وميضه». وبالطبع فإن ما قالته أتوسا إنما جاء بإيحاء من ديموسيدس. وقد أجابها داريوس: «إن ما قلته هو بالتحديد ما أعتزم القيام به. لقد قررت أن أبني الجسور فوق المضائق بين آسيا وأوروبا، وأن أقوم بالهجوم على السكيثيين. ولن تضطري للانتظار طويلاً حتى يتم الأمر».

فتابعت أتوسا حديثها قائلة: «دعك من السكيثيين في الوقت الراهن، إنهم تحت أمرك متى شئت. إن ما أريد منك القيام به هو غزو بلاد الإغريق. لقد سمعت الناس يتحدثون عن النساء هناك، وأرغب في الاحتفاظ ببعض الفتيات من إسبارطة وأرجوس وأتيكا وكورنثة ليقمن بخدمتي، ولديك أنسب رجل في العالم كله ليقدم لك المعلومات الكاملة عن بلاد الإغريق ويكون مرشداً لك، وأعني به الطبيب الذي عالج قدمك».

فأجاب داريوس: «سيدتي، لما كنت تعتقدين أن بلاد الإغريق يجب أن تكون هدفي الأول، فمن الأفضل أن أبدأ بإرسال جماعة من الفرس إلى بلاد الإغريق للاستطلاع وأن يكون بصحبتهم الرجل الذي ذكرته. عندها يعودون إليّ ومعهم تقرير كامل بكل ما رأوه أو سمعوا به. وبعد أن يتوفر لي كل ما يلزمني من معلومات، أبادر إلى الحرب».

في فجر اليوم التالي، أرسل في طلب خمسة عشر فارسياً من الصفوة وأعطاهم الأوامر بالإبحار على طول شاطئ بلاد الإغريق، آخذين معهم ديموسيدس ليرشدهم إلى الطريق، مع التنبيه إلى ضرورة عدم السماح له بالهرب، وأن عليهم العودة به مهما كان الثمن. ثم قام باستدعاء ديموسيدس وطلب إليه أن يرشد مجموعة الاستطلاع ويقدم لهم ما يحتاجون إليه من معلومات، ثم العودة إلى فارس. وسمح له أن يأخذ معه أثاث بيته ليقدمه هدية لأبيه وأخيه، ووعده بأن يقدم له حينما يعود أثاثاً أفضل منه بكثير. علاوة على ذلك، عرض عليه أن يأخذ معه مركباً تجارياً محملاً بالبضائع القيِّمة.

لا أعتقد أن ما دفع داريوس لتقديم هذه الوعود شيئاً آخر سوى الصدق والاستقامة، إلا أن ديموسيدس كان يخشى أن يكون ذلك فخاً للإيقاع به ليكشف عن نواياه الحقيقية، ولهذا فإنه عوضاً عن تقبل كل ما عرضه عليه داريوس بسرور، أخبره أنه سيترك ممتلكاته كما هي لتكون بانتظاره حينما يعود إلى فارس، واكتفى بقبول المركب وحمولته الذي رغب داريوس بتقديمه هدية إلى أخيه.

اتجه ديموسيدس برفقة الفرس إلى الساحل، بعد أن تلقوا أوامرهم من داريوس. ولما وصلوا إلى صيدا في بلاد الفينيقيين، لم يضيعوا الوقت بل قاموا على الفور بتزويد مركبين من ذوات المجاذيف الثلاثة، ومركب تجاري آخر ببضائع متنوعة، وبعد أن أصبحوا مستعدين للإبحار، تقدموا مسرعين نحو بلاد الإغريق. وقاموا بتدوين نتائج مسحهم الدقيق لمعظم تضاريس الساحل، ووصلوا أخيراً إلى تاينتوم في إيطاليا. وهناك أظهر أرسطو فيليدس حاكم المدينة مدى صداقته لديموسيدس بأن أمر بإنزال دفة القيادة من السفن الفارسية الثلاث واعتقال الفرس بتهمة التجسس، وبذلك تمكن ديموسيدس من الفرار والعودة إلى كورتونا أثناء وجودهم في الاعتقال. وبعد أن أصبح آمناً في بلده، أطلق أرسطو فيليدس سراح سجنائه وأعاد لهم دفة قيادة السفن، فأبحروا فوراً

للحاق بديموسيدس، حيث وجدوه في السوق في كروتونا. فقبضوا عليه وكان بعض الأهالي على استعداد لتسليمه خوفاً من الفرس، لكن البعض الآخر وقفوا بجانبه وأخذوا يضربون الفرس بالعصي، باذلين جهدهم لإبعادهم عنه. حاول الفرس إخافتهم ولفت أنظارهم إلى أن من يحاولون إنقاذه إنما هو أحد عبيد داريوس الهاربين، وقالوا لهم: «أتدركون ما تفعلون؟ أتعتقدون أن الملك سيقنع بالإذعان إلى هذه المعاملة الجائرة؟ ماذا ستجنون إذا ما أخذتم هذا الرجل منا؟ ألن تكون مدينتكم الهدف الأول في الحرب التي لا بد وأن تنشب، وأنكم ستكونون أول من نجعلهم أرقاء؟» لكن تلك التهديدات لم تجد نفعاً، وعادوا إلى آسيا وقد أكرهوا على ترك ديموسيدس والمركب التجاري. وبعد أن خسروا دليلهم انقطعوا عن متابعة المسح ولقد طلب منهم قبيل مغادرتهم إبلاغ داريوس بعزمه على الزواج قريباً بابنة المصارع ميلو، الذي كانت له مكانة عالية في البلاط الفارسي. وأعتقد أنه كان مصمماً على إتمام هذا الزواج مهما كلفه من مال لكي يثبت لداريوس أنه رجل بارز في بلده كما في الخارج.

بعد أن أبحر الفرس من كروتونا تحطمت سفينتهم على ساحل لابيجيا فأخذوا أرقاء، إلا أن رجلاً يدعى جيلوس وهو منفي من تارينتوم، قام بعيد ذلك بدفع فدية لتخليصهم وإعادتهم إلى بلاد داريوس. وعرفاناً بجميله غدا داريوس مستعداً لتلبية كل ما يطلب، وبعد أن روى جيلوس مأساته السياسية أعلن أن أكثر ما يتمناه أن يتمكن من العودة إلى بلده، وأضاف أنه لتجنب بذر الشقاق مع بلاد الإغريق إذا ما أبحرت قوة عسكرية إلى إيطاليا من أجل إعادته، فسيكون قانعاً بالعودة إلى الوطن برفقة أهالي سنيدوس فحسب. إذ كان يعتقد بأن مساعدتهم ستضمن نجاح مشروعه على الأرجح، وذلك للصداقة التي تجمع بين أهالي سنيدوس وتارينتوم. فاستجاب داريوس لرغبته وأرسل أوامره إلى سنيدوس للقيام بالإجراءات المناسبة، وتم تنفيذ الأوامر، إلا أن أهالي سنيدوس فشلوا في إقناع أهالي تارينتوم بالموافقة على إعادة المنفي، ولم يكونوا أقوياء

لدرجة تمكنهم من فرض الأمر بالقوة.

جاء سقوط ساموس بعد هذه الحوادث، فكانت أول بقعة داخل بلاد الإغريق أو خارجها تسقط في يد داريوس وتفصيل ذلك: أنه أثناء حملة قمبيز على مصر زار عدد كبير من الإغريق ذلك البلد لسبب أو لآخر، فبعضهم، كما هو متوقع، جاء للتجارة، وآخرون للخدمة في الجيش، ومما لا ريب فيه أن البعض الآخر إنما جاء لإرضاء فضوله والاطلاع، ومن هؤلاء سيلوسون بن أيسيس الأخ الذي نفاه بوليكراتيس من ساموس. وقد صادف سيلوسون في أثناء وجوده في مصر حظاً خارقاً إذ كان يتسكع في طرقات ممفيس وهو يرتدي عباءة ذات لون ناري، عندما رآه داريوس الذي كان، في ذلك الوقت، واحداً من حراس قمبيز ولم يكن يتمتع بعد بأي شأن يذكر، فتملكته رغبة في الحصول على هذه العباءة، واتجه نحو سيلوسون وقدم له عرضاً مقابل الحصول عليها. وكان تلهفه الشديد للحصول عليها واضحاً لسيلوسون، فدفعه الإلهام إلى القول: «إنني لن أبيعها بأي مبلغ مهما كان، ولكن إذا كنت مصراً على الحصول عليها، فسأقدمها لك مجاناً». فشكره داريوس بحرارة وأخذها. وفي ذلك الحين ظن سيلوسون بأنه فقد عباءته سذاجة وحمقاً، ثم تلا ذلك موت قمبيز وثورة السبعة على المجوسيين واعتلاء داريوس العرش. ولما علم سيلوسون بأن الشخص الذي كان قد قدم له العباءة ذات اللون الناري عندما كان في مصر، أصبح ملكاً على فارس، أسرع إلى سوسة، وجلس عند مدخل القصر الملكي، وادعى بأنه أحد المحسنين إلى الملك. فقام الحرس بإبلاغ داريوس بادعاءاته، فسأل بدهشة عمن يكون هذا الرجل. وقال: «من المؤكد أنني لست مديناً لأحد من الإغريق بخدمة، فقد اعتليت العرش مؤخراً. ولم يأت أحد من الإغريق بعد إلى هنا، وبالتالي لا أذكر أنني مدين بشيء لأي إغريقي. ولكن على أي حال ائتوني به لأعلم ما يعنيه بادعائه هذا».

رافق الحراس سيلوسون للمثول أمام الذات الملكية، وعندما سأله المترجمون

من يكون وما الذي قام به ليبرر تصريحه بأنه أحد المحسنين إلى الملك، ذكر الملك بقصة العباءة، وقال إنه الشخص الذي قدمها له. فهتف داريوس: «أيها السيد، إنك لأكرم الرجال، إذ قدمت لي هدية حين كنت شخصاً لا يتمتع بأي سلطة أو شأن. ورغم تواضعها إلا أنها استحقت العرفان مني في ذلك الوقت، كما تستحقه الآن أكثر الهدايا روعة. وسأقدم لك بالمقابل الكثير من الذهب والفضة أكثر مما بمقدورك عده، حتى لا تندم في أي يوم على أنك قدمت معروفاً لداريوس بن هيستاسبيس». فأجاب سيلوسون: «مولاي، لا أريد ذهباً أو فضة، فكل ما أريده هو استعادة ساموس بلدي وجزيرتي، التي أضحت الآن ومنذ أن قتل أورويتيس أخي بوليكراتيس في قبضة أحد موظفينا. لتكن ساموس هديتك لي، ولكن دون أن يقتل أي رجل في الجزيرة أو يستعبد».

وافق داريوس على طلب سيلوسون، وأرسل قوة بإمرة أوتانيس أحد الحلفاء السبعة، وأعطى أوامره بتنفيذ كل ما يطلبه سيلوسون، فذهب أوتانيس إلى الساحل للقيام بالاستعدادات اللازمة.

كانت السلطة في ساموس بيد مياندريوس الذي عهد إليه بوليكراتيس بإدارة شؤون الجزيرة في غيابه. ولما علم بموت بوليكراتيس، وكان يرغب في أن يسمح له بأن يكون مثالاً للعدل لكن الفرصة لم تتح له، فإن أول عمل قام به تشييد مذبح للإله زيوس المحرر، وأحاطه بقطعة أرض تقع خارج المدينة مباشرة، وما يزال موجوداً حتى اليوم، وعقد اجتماعاً يضم جميع مواطني ساموس وخاطبهم قائلاً: «إنكم تعلمون مثلي أن صولجان بوليكراتيس، وما يمثله من سلطة، قد انتقلا إلي، وأنني إن شئت أستطيع أن أصبح سيدكم المطلق، ولكنني لن أقوم بما كنت أعترض عليه عند الآخرين ما أمكنني، وإذ لم أكن موافقاً على تصرفات بوليكراتيس، فلن أوافق أيضاً على أي شخص آخر يسعى للاستيلاء على السلطة فيستبد بأشخاص يساوونه في كل شيء. ولما كان بوليكراتيس قد مات الآن، فإني اعتزم تسليمكم السلطات المخولة لي، وأن أجعلكم سواسية أمام

القانون. وكل ما أطلبه من امتياز شخصي أن أحصل على مبلغ ستة تالنتات من ثروة بوليكراتيس، وحق الاحتفاظ لنفسي ولعقبي بمنصب كاهن زيوس المحرر الذي قمت ببناء مقام له، أنا الذي أقدم لكم الآن حريتكم».

انتصب أحد الحاضرين واقفاً، وهو رجل ذو صيت يدعى تيليسارخوس. وهتف قائلاً: «ماذا؟ يالها من خطبة رائعة نسمعها من شخص تافه وضيع المحتد مثلك! والأحرى بك قبل أن يزين لك الخاطر حكمنا أن تبرز حساب المال الذي استوليت عليه». كان ذلك كفيلاً لأن يبين لمياندريوس أنه إذا ما تنازل عن السلطة، فلا بد أن ينهض رجل آخر ويستولي عليها، فتحول عندئذ عن رأيه القديم وصمم على التمسك بما لديه. فانسحب إلى القلعة، وأرسل من هناك في طلب جميع الرجال البارزين للقاء كل واحد منهم على انفراد، مظهراً النية لإطلاعهم على حساباته، واعتقلهم جميعاً، ووضعهم في السجن مكبلين بالأغلال. وبعد ذلك بوقت قصير وقع مياندريوس طريح المرض، واعتقد أخوه ليكاريتوس أنه قارب على الموت، ولكي يسهل عملية استيلائه على السلطة، أمر بقتل جميع المعتقلين، وبدا بذلك أن سكان ساموس يعزفون عن الحرية».

وكانت نتيجة ذلك، أنه عندما وصل الفرس إلى ساموس لإعادة سيلوسون لم يقاومهم أحد. وأعلن مياندريوس وجماعته عن استعدادهم لمغادرة الجزيرة وفق شروط معينة، وقد وافق عليها أوتانيس، وعقدت الهدنة وجلس الفرس ذوو المراتب الرفيعة فوق المقاعد التي وضعت لهم مقابل القلعة.

كان لمياندريوس أخ طائش يدعى كاريلوس، وقد سجن لذنب اقترفه، ولما سمع بما يجري أخرج رأسه من بين قضبان سجنه، وعندما رأى نبلاء الفرس يجلسون بسلام على مقاعدهم، صرخ قائلاً إن لديه ما يريد قوله لأخيه، ولما أخبروا مياندريوس بذلك أمر بإخراج أخيه من السجن وإرساله إليه. وما إن وصل حتى بدأ يشتم مياندريوس بعبارات عنيفة وبذيئة لحثه على مهاجمة الفرس وقال له: «يا لك من جبان! هأنذا شقيقك الذي لم يقترف أي ذنب بحقك،

ورغم ذلك اعتقدت أنه من المناسب أن تضعه في السجن مقيداً بالأغلال. في حين لم تتوفر لك الشجاعة الكافية لتعاقب هؤلاء الأغراب الذين سيلقون بك خارج بيتك ووطنك! مع أنه بإمكانك سحقهم بسهولة! إذا كنت خائفاً منهم، فسلمني قيادة الجنود وسأعمل على جعلهم ينالون ما يستحقونه لتجرئهم على القدوم إلينا. أما أنت، فإني على استعداد لضمان خروجك سالماً من الجزيرة».

وافق مياندريوس على اقتراح أخيه، ولا أعتقد أنه كان أحمق بحيث يعتقد بأنه قادر على النيل من الفرس، إلا أن ما أملى عليه الموافقة إنما كان على الأغلب، شعوره بالحقد الذي ملأ قلبه. إذ لم ترق له فكرة استعادة سيلوسون السيطرة على المدينة دون إلحاق أي خسارة أو ضرر أو حتى دون قتال. فكان ينوي إثارة سخط الفرس تجاه ساموس بحيث يسلمها له في حالة من الضعف الشديد والاضطراب، لأنه يعرف أن الفرس سينتقمون شر انتقام إذا ما عوملوا بوحشية. في حين أنه كان متيقناً من قدرته على مغادرة الجزيرة سالماً متى شاء بوساطة نفق كان قد حفره ويصل ما بين القلعة والبحر.

هرب مياندريوس على ظهر سفينة تاركاً ساموس بين يدي أخيه الذي قام بتسليح الجنود، وفتح أبواب المدينة، أما سادة الفرس الذين كانوا يعتقدون بأنهم توصلوا إلى تسوية سلمية فقد أخذهم على حين غرة وقتلهم في مجلسهم. لكن سرعان ما حضرت بقية القوات الفارسية لرد الخطر، وتمت مطاردة رجال كاريلوس فلجؤوا إلى القلعة. وعندما رأى أوتانيس ما حل بالفرس من أضرار وخسائر تعمد أن يطرد من ذاكرته كل التعليمات التي تلقاها من داريوس قبل البدء بالحملة - وهي ألا يقتل أو يستعبد أي ساموسي، وأن يقوم بتسليم الجزيرة إلى سيلوسون سليمة - فأمر قواته بقتل كل من يصادفونه صغيراً كان أم كبيراً. وهكذا فلئن كانت بعض القوات الفارسية تفرض حصاراً على القلعة، فإن بعضها الآخر كان يعمل ذبحاً وقتلاً في كل من يعثرون عليه داخل الأماكن المقدسة أو خارجها على حد سواء.

أبحر مياندريوس متجهاً إلى اللاكيديمونيين، ومعه العديد من الأشياء الثمينة التي كان قد أخذها من الجزيرة عند هربه. ولما وصل هناك لجأ إلى الاحتيال للحصول على مساعدة كليومينيس بن أناكساندريديس ملك إسبارطة وكان أسلوبه في ذلك ما أصفه ههنا: كان يعمد إلى وضع كؤوس الشراب الذهبية والفضية على طاولته، وفي أثناء قيام خدمه بتلميعها، يتبادل أطراف الحديث مع كليومينيس ويغريه بالقدوم إلى بيته، وكانت هذه الكؤوس تثير في نفسه الدهشة والإعجاب، فيطلب منه مياندريوس أن يأخذ منها ما يشاء، لكن كليومينيس بعد أن خضع للإغراء مرتين أو ثلاثاً أظهر أدباً غير متوقع فرفض قبول الهدية التي عرضت عليه. ولما كان يعلم أن بإمكان مياندريوس الحصول على المساعدة التي يريدها إذا ما قدم العرض نفسه لغيره من الإسبارطيين، فقد ذهب إلى القضاة وقال لهم إن مصلحة إسبارطة تقتضي أن يرحل الزائر القادم من ساموس، قبل أن ينجح إما في إقناعه أو إقناع غيره في أن يجلب العار على نفسه. فلقي الاقتراح القبول، وتم إنذار مياندريوس بالرحيل. أما بالنسبة إلى ساموس فقد أوقع الفرس بالسكان أجمعين مثلما يقع السمك في شباك الصياد، وقدموا لسيلوسون جزيرة بدون سكان. ولكن بعد عدة سنوات أصيب أوتانيس بمرض في أعضائه التناسلية. وتزامن ذلك مع حلم رآه. فرأى أن عليه أن يجعل الجزيرة مأهولة من جديد.

وفيما كان الأسطول الفارسي يبحر إلى ساموس، انتفضت بابل وكانت انتفاضة خطط لها طويلاً وبدقة وأناة، والحق، أن التحضيرات للصمود في وجه الحصار كانت تجري بتكتم طوال فترة حكم المجوسيين، والاضطرابات التي تلت ثورة السبعة ضده. وقد أحيط السر بالكتمان الشديد فلم يتسرب شيء مما يدبر إلى الخارج. ولما حانت الساعة للخروج إلى العلن والعمل، اجتمع سكان بابل وقاموا بخنق جميع نساء المدينة، بقصد تقنين الغذاء وقد سمح لكل رجل بأن يستثني أمه، ومن يختارها من أهل بيته لتخبز له. ولما وصل نبأ الثورة إلى

أسماء داريوس توجه إليهم، وقد حشد كل قواته المتوفرة لقمع الثائرين، وهناك أحكم الحصار على المدينة. لكن البابليين لم يأبهوا بذلك، وصعدوا إلى سطح الحصن وأخذوا يرقصون ويكيلون الشتائم لداريوس وجيشه مرددين بصوت عال: «ما قعودكم هنا، يا رجال فارس؟ لم لا ترحلوا وتعودوا من حيث أتيتم؟ آه، أجل، إنكم ستستولون على مدينتنا عندما تلد البغال مهوراً». إن صاحب القول، ولسنا ندري من هو، إنما أراد به السخرية من الفرس، فما من بغلة قيضت لها الطبيعة، بعد، أن تلد مهراً.

مرت سنة وسبعة أشهر فبدأ داريوس وجيشه يشعران بالغضب لعجزهما عن إحراز أي تقدم بشأن الاستيلاء على المدينة. لقد جربوا كل خدعة عسكرية وكل مكيدة ممكنة، ولكن دون طائل إذ إنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة بعد كل ما بذلوه، وحتى عندما أقدم داريوس ـ بعد أن فشلت جميع الوسائل ـ على تكرار ما أوصل قورش إلى النصر، فإن البابليين كانوا على الدوام يقظين وحذرين إلى أبعد الحدود، فلم يتركوا للعدو أي فرصة لينفذ منها.

وأخيراً في الشهر العشرين من الحصار صادف زوبيروس بن ميجابازوس الذي كان أحد الحلفاء السبعة الذين قتلوا المجوسيين أمراً عجباً: إذ ولدت إحدى بغال النقل مهراً. وعندما أخبر زوبيروس بذلك رفض تصديق الأمر حتى رأى المهر بأم عينه، حينئذ منع كل من شاهده من التفوه بكلمة في هذا الأمر أمام كائن من كان، وبدأ بالتفكير ملياً، فخلص من تلك الواقعة بأن وقت العمل قد أزف وأصبح بإمكانهم الاستيلاء على المدينة. ألم يتنبأ ذلك البابلي في بداية الحصار، أن المدينة ستسقط عندما تلد البغلة مهراً؟ إن استخدام ذلك الشخص لتلك العبارة وحدوث هذه المعجزة فعلاً، يعني بالتأكيد أن هذا تم بمشيئة الآلهة.

ولما أيقن بأن الخراب مصير بابل لا محالة. ذهب إلى داريوس وسأله ما إذا كان للاستيلاء على المدينة الأهمية الكبرى لديه، ولما أخبره بالإيجاب، ابتكر طريقة للاستيلاء عليها بمفرده وبمبادرة منه، ذلك أن الفرس يقيمون أعلى

الاعتبار لكل خدمة تقدم للملك خاصة. فأخذ يستعرض كل خطة وحيلة قد تخطر بالبال لتنفيذ ما عول على القيام به، ورأى في النهاية أن الطريقة الوحيدة لإخضاع المدينة هي التسرب إلى داخل حصونها، بالذهاب إلى العدو، وهو مشوه الخلقة، مدعياً أنه فار من جيش داريوس، دون أن تطرف له عين لارتكابه هذه الفعلة الشنيعة، إذ لم يجد فيها ما يضير، وقد فرضتها طبيعة الظروف، فمضى في تنفيذ خطته بكل حذافيرها، حيث يقتضي الأمر المضي إلى النهاية، ولا مجال فيها للتهاون فكان أن قطع أذنيه وجدع أنفه وحلق شعره كالمجرمين، ثم أخذ في جلد نفسه بالسوط، حتى أثخن نفسه بالجراح لتكون لمن يراها شاهداً على صدقه. وذهب، بعدئذ، للمثول بين يدي داريوس، وهو على هذه الحال، فصدم لمرآه وقد شوه بهذه الدرجة المخيفة رغم مكانته الرفيعة، فهب عن كرسيه مطلقاً صرخة هلع للصورة التي ظهرت أمام عينيه لمن هو في مكانة زوبيروس ومقامه، وسأله عمن عمل فيه هذا التشويه، ومالذي فعله ليستحق ذلك. فأجاب زوبيروس: «مولاي، ما من أحد سواك يملك سلطاناً ليجعلني على هذه الهيئة، إن اليدين اللتين قامتا بتشويهي ليستا سوى يديّ، ذلك أنني لم أعد أحتمل سخرية الآشوريين سكان بابل من الفرس وهزئهم بنا».

فقال داريوس: «هذا حديث مأفون، وقولك بأنك قمت بهذا العمل الفظيع بسبب أعدائنا في المدينة المحاصرة، ما هو إلا تزيين لعمل مخز بكلمات منمقة. هل بلغ بك الحمق لتظن أنك تسرع في انتصارنا بتشويه جسمك؟ الحق أنك، بلا ريب، فقدت عقلك، عندما عملت بنفسك تشويهاً على ما رأينا».

أجاب زوبيروس: «لو كنت قد أخبرتك بما اعتزمت القيام به، لما أذنت لي. فقمت به بمبادرة مني. وإن أنت أيضاً أديت دورك أصبح استيلاؤنا على بابل محققاً. سأذهب الآن إلى أسوار المدينة على هيئتي هذه، مدعياً الفرار من الجيش، وسأخبرهم أنك أنت السبب في شقائي. ولسوف يصدقونني وسيضعون قواتهم بإمرتي. والآن أطلب منك أن تنتظر حتى اليوم العاشر بعد دخولي المدينة، ثم تضع كتيبة من ألف رجل بالقرب من أبواب سميراميس، على أن

تكون أرواحهم من التي تسترخصها، ثم أرسل بعد سبعة أيام ألفي رجل إلى أبواب نينوى، وبعد عشرين يوماً أرسل أربعة آلاف إلى أبواب الكلدان. ويجب أن يكون الرجال جميعهم مسلحين بالخناجر ولا شيء سواها ـ دعهم يحملون الخناجر فقط. ثم بعد عشرين يوماً أصدر أمراً بفرض حصار على المدينة من الجهات كافة، واحرص على أن تكون قواتنا الفارسية في القطاعات المواجهة لأبواب بيليان وكيسيان. ذلك أنني أعتقد أن البابليين سيعملون على رفع مكانتي لديهم، عندما يرون أنني قدمت لهم خدمة كبيرة، وقد يصل الأمر بهم إلى أن يضعوا مفاتيح البوابات في عهدتي. وبعد ذلك سأتولى القيام بما يلزم بمساعدة الفرس».

ولما قدم هذه الإرشادات للملك، هرب باتجاه أبواب بابل، وهو يلتفت خلفه مثل فأر مذعور، ولما رآه الحراس المناوبون، نزلوا من سطح الحصن، وفتحوا أحد الأبواب مواربة، وسألوه عن اسمه وغرضه من المجيء. ولما أخبرهم أنه زوبيروس وفار من جيش فارس، سمحوا له بالدخول، وأخذوه للمثول أمام القضاة. وهناك روى لهم قصة محنته، مدعياً أن الجراح التي افتعلها بنفسه كانت بفعل داريوس لأنه نصحه بإنهاء الحصار الذي يبدو أنه ما من سبيل إلى نجاحه. وأضاف : «والآن، هأنذا يا رجال بابل، إن قدومي سيكون مكسباً لكم، لكنه سيكون خسارة أعظم على داريوس وجيشه. فإذا اعتقد أنه سينجو بفعلته التي اقترفها بحقي، فهو لا يعرف قدري، وأنا العارف بكل تفاصيل خططه».

ولما رأى البابليون رجلاً فارسياً من ذوي المراتب السامية والمتميزين على هذه الحال، وقد جدع أنفه وقطعت أذناه وجسمه ملطخ بالدماء بفعل السياط والجلد. اعتقدوا أنه يقول الحق، وقد قدم بالفعل إليهم ليعرض عليهم خدماته، ولهذا كانوا على استعداد لتلبية كل مطالبه. وقد طلب منهم توليته قيادة بعض القوات، فلبوا طلبه وبذلك يكون قد باشر تنفيذ ما خطط له مع داريوس. وفي اليوم العاشر لوصوله زحف على رأس قواته خارج المدينة، وقام بمحاصرة وإبادة الكتيبة الأولى التي يبلغ تعدادها ألف رجل والتي اتفق مع داريوس

بشأنها. كان هذا كافياً ليعلم البابليون أن أقواله مثل أفعاله، وشعروا بالسعادة لهذا وأصبحوا على استعداد لوضع أنفسهم تحت إمرته وتلبية جميع مقترحاته. وبعد أن انتظر العدد المتفق عليه من الأيام، قام على رأس مجموعة من القوات المتواجدة في المدينة وزحف بها خارجاً وقتل الجنود الفرس الألفين والذين كان داريوس بالاتفاق معه قد وضعهم خارج أبواب نينوى. أدت هذه الخدمة الثانية التي قدمها للبابليين إلى تصاعد شهرته فأصبح اسمه على كل لسان. ثم بعد مضي الفترة المتفق عليها، زحف مرة أخرى إلى خارج المدينة على رأس رجاله عبر أبواب الكلدان وطوق القوة الفارسية المؤلفة من أربعة آلاف رجل وأبادها عن بكرة أبيها. وبعد هذا الإنجاز أصبح زوبيروس الجندي الأول والوحيد في بابل وبطل المدينة، وأعطي منصب القائد العام وحارس السور.

أمر داريوس بتنفيذ هجوم شامل على أسوار المدينة من كل الاتجاهات، وكان ذلك إشارة لزوبيروس ليكشف عن مدى دهائه. فانتظر حتى صعدت القوات البابلية فوق الأسوار لصد هجوم داريوس وفتح أبواب كيسيان وبيليان، وسمح للفرس بالدخول إلى المدينة، فقام البابليون الذين شاهدوا ما جرى بالالتجاء إلى معبد بعل، أما البقية فقد ظلوا في مواقعهم إلى أن أدركوا أنهم وقعوا ضحية الخيانة.

سقطت بابل للمرة الثانية، وقام داريوس بعد هذا النصر ـ بخلاف قورش الفاتح الأول ـ بتدمير دفاعاتها، وتحطيم أبوابها، ووضع ثلاثة آلاف رجل من أعيانها على الخازوق. وسمح للبقية بالبقاء في منازلهم. وكنت قد ذكرت في البداية إقدام البابليين على خنق نسائهم. لكن داريوس في رغبته للحفاظ على جنسهم أرغم الأقوام المجاورة على إرسال عدد من النساء إلى بابل، وقد بلغ عددهن خمسين ألفاً. ومنهن يتحدر جميع سكان المدينة الحاليين.

كان داريوس يرى أن زوبيروس قد فاق جميع الفرس، سواء قبل زمنه أو بعده في خدمة بلده ـ باستثناء قورش ـ الذي لم يكن ليجرؤ أي فارسي على مقارنة نفسه به. ويقال إن داريوس غالباً ما كان يقول إنه يؤثر زوبيروس بدون

تلك التشويهات المخيفة على عشرين بابل. ولقد أنعم عليه بأعلى مراتب الشرف، وما انقطع يغدق عليه كل سنة الهدايا الثمينة، وهي أمنية كل فارسي، وكان قد نصبه حاكماً على بابل معفاة من الضرائب مدى الحياة.

كان ميجابازوس الذي ترأس القوات في مصر ضد الاثينيين وحلفائهم ابن زوبيروس. وابن ميجابازوس هذا واسمه زوبيروس كذلك، هو الذي فر من الجيش الفارسي وذهب إلى أثينا.

الكتاب الرابع[1]

ميلبوميني

بعد الاستيلاء على بابل توجه داريوس إلى غزو بلاد السكيث[2]. ذلك أنه لما وجد خزائنه عامرة بالمال المتحصل من العوائد، وأن لديه أعداداً لا حصر لها من الرجال من مواطني المناطق الخاضعة له في آسيا. استبدت به الرغبة بالانتقام من السكيثيين لغزوهم، في ماضي الأيام، بلاد ميديا وقهرهم كل من اعترضهم في الميدان، وهيمنتهم على آسيا العليا، بعد قضائهم على قوة الميديين، الذين كانوا من قبل أسيادهم. فقد دخلوا ميديا وتوغلوا فيها في أثناء مطاردتهم للسميريين[3]، فلما عادوا إلى بلادهم بعد غياب دام ثمان وعشرين سنة، وجدوا في انتظارهم مشكلات لا تقل خطورة عن صراعهم مع الميديين تمثلت في جيش عرمرم معاد يعترض دخولهم؛ وكان السر في ذلك أن نساءهم اللواتي أزعجهن غياب أزواجهن فترة طويلة، تخلين عنهم، وتزوجن العبيد الذين بقوا في البلاد.

اعتاد السكيثيون على أن يجعلوا عبيدهم يفقدون البصر، وهذا أمر يتصل على نحو ما بالحليب الذي يتناولونه، وطريقتهم في تحضيره هي التالية: يقحم السكيثيون في شرج الفرس أنبوباً من العظم له شكل الناي، ثم يقوم أحدهم بالنفخ فيه، بينما يتولى آخر حلب أثدائها؛ ويقصدون بذلك، كما يذهبون إلى القول، تضخيم العروق في جسم الفرس بقوة الهواء فيسترخي الضرع ويدر الحليب. ومن عادتهم أن يجعلوا العميان يقفون في دائرة، ثم يصبون الحليب في قصعات من الخشب ويأخذون في خفق السائل، فيتناولون الطبقة الطافية على السطح، ويعتبرونها أفضل ما في الحليب ويعرضون عن الراسب الذي لا يرون فيه أي فائدة. أما السبب في أنهم يجعلون أسرى الحرب لديهم عمياناً، فيتصل بكونهم شعباً بدوياً، وليس زراعياً.

ومن اجتماع هؤلاء العبيد بنساء السكيثيين نشأ جيل جديد عازم على منع الجيش من العودة إلى أراضيهم، بعد ما علموا بظروف ولادتهم. وكان أول إجراءاتهم في الدفاع أنهم حفروا خندقاً عريضاً يمتد من جبال توريك حتى الجزء الأوسع من بحيرة مايوتيس (بحر آزوف) وعلى امتداد هذا الخندق اتخذوا مواقعهم، وهناك قاوموا كل المحاولات لاقتحام دفاعاتهم وشق الطريق إلى الداخل. ولقد دارت بين الطرفين عدة اشتباكات، دون أن يفلح الجيش المهاجم في التقدم، حتى عرض أحدهم خطة جديدة للهجوم، فقال لرفاقه: «إن ما نقوم به، يا أصدقائي، لسخف. فنحن الخاسرون في هذه الحرب على أرقائنا، كيفما كانت نهايتها، إن في الضحايا التي نتكبدها، وإن في ما نكبدهم؛ فكلما قتلنا منهم نقص عدد عبيدنا، متى استعدنا سيادتنا عليهم. والرأي عندي أن نطرح الرماح والأقواس والسهام، ولنمض إليهم بالسياط في أيدينا. فمتى رأونا نحمل السلاح ظنوا أنفسهم، طبعاً، أنداداً لنا، وقاتلونا كما نقاتلهم، ولكن إن وجدونا نطبق عليهم بالسياط تذكروا مكانة العبيد، كما هم، ومتى صارحوا أنفسهم بهذه الحقيقة وجدتموهم لا يقوون على مواجهتنا».

ولقد وقع الاقتراح موقعاً حسناً عندهم فأخذوا به، فكان النجاح حليفهم؛ إذ أخذ المدافعون بهذا الأسلوب، ونسي المقاتلون موقعهم كجنود فاستداروا على أعقابهم وأطلقوا أرجلهم هاربين. تلكم هي إذن، حكاية هيمنة السكيثيين على آسيا، وطردهم على يد الميديين وعودتهم إلى بلادهم، ولمعاقبتهم على اجتياح ميديا أخذ داريوس بإعداد جيش يستأصل به شأفتهم ويخضعهم لأمره.

يذهب السكيث إلى أنهم أحدث الأمم، وحسب اعتقادهم فإنهم يقولون إن رجلا يدعى تارجيتاوس كان أول من سكن تلك البقاع حيث يستوطنون الآن، وكانت قبله صحراء غير مأهولة. . وإنني أروي هذه الرواية ولا اعتقد بصحتها، وتمضي الرواية فتقول إنه ولد لتارجيتاوس هذا ثلاثة أولاد هم ليبوخايس وأربوخايس وكولاخايس، وهو أصغرهم؛ وفي عهدهم سقط من السماء محراث

ونير وفأس قاطع وكأس وكانت جميعها من الذهب. وكان أكبر الأبناء أول من وقعت عيناه على تلك الكنوز، فلما مضى ليلتقطها اتقد الذهب وشبت فيه النار، فتراجع عنها؛ فأتى الأخ الأوسط وحاول الاقتراب منها، فإذا بالنار تشب فيها من جديد، وكان أن تراجع عنها مثل ما تراجع عنها شقيقه الأكبر قبله. فتقدم أصغر الأشقاء، أخيراً، فإذا بألسنة اللهب تنطفئ وتخمد، فحملها ومضى بها إلى البيت. ولقد اعتبر شقيقاه ذلك إشارة من السماء، فسلما المملكة كلها لأخيهما الأصغر وتعرف سلالة ليبوخايس اليوم بالأوخاتاي، أما الثاني أربوخايس فسلالته تتفرع إلى عشيرتين هما الكاتياري والتراسبيان، أما سلالة الشقيق الأصغر فهم ملوك السكيث، ويعرفون بالبارالاتاي. والجميع يعرفون دون تمييز باسم الأسكولوتي، نسبة إلى أحد ملوكهم، بينما يطلق الإغريق عليهم اسم السكيث. تلكم هي رواية السكيثيين عن أصولهم، ويذهبون إلى أن بين تارجيتاوس، وهو أول ملوكهم،و عبور داريوس الهيليسبونت (مضيق الدردنيل) لمهاجمتهم، ألف عام. أما الذهب الذي نزل من السماء فيقوم الملوك على حراسته، ويزورونه مرة كل عام، ويقدمون له أعظم القرابين. وتذهب الأسطورة إلى أن الحارس الذي يأخذه النوم في الهواء الطلق أثناء الاحتفال لابد ميت في ذلك العام، ولذلك يمنح أرضاً فسيحة ليجول بها على جواده طوال اليوم. ولما كانت أرض السكيث واسعة مترامية الأطراف فقد قسمها ليبوخايس إلى ثلاث ممالك ووزعها بين أبنائه، وجعل أكبرها حيث الذهب محفوظ. ولقد قيل أنه يستحيل على المرء التوغل في أرض الشمال، أو حتى مشاهدتها، بسبب تساقط الريش (الثلج) في تلك النواحي، ليغطي السماء والأرض معاً، ويحجب النظر.

أما الإغريق في بونطس (من نواحي سينوب، على البحر الأسود) فلهم رواية مختلفة عن سكيثيا وما وراء تلك البلاد. فيذهبون إلى أن هرقل حل في تلك البقاع، وكانت غير مأهولة، ومعه ثيران جيرون، وصل إلى المنطقة التي يسكنها الآن السكيثيون التي كانت في السابق عبارة عن صحراء.وكان جيرون يسكن

في جزيرة يطلق عليها الإغريق اسم اريثيا، الواقعة بالقرب من قاديس، خلف أعمدة هرقل[٤] الواقعة على المحيط. ويقول البعض إن المحيط يبدأ من ناحية الشرق ويحيط بالعالم؛ ولكن ليس هناك برهان على هذا القول. وحين بلغ هرقل مناطق سكيثيا صادف طقساً سيئاً ، وواجه برداً قارساً، فما كان منه إلا أن اختار بقعة لجأ إليها، وغطى نفسه بجلد الأسد الذي يحمله، واستسلم للنوم، تاركاً الأحصنة التي تجر عربته لترعى، فلما صحا من نومه وجد تلك الأحصنة قد اختفت، دون أن تخلف أثراً، فشرع يبحث في البرية حوله، حتى حمله البحث بعيداً إلى أن وصل إلى بقعة تعرف بأرض الغابات. وهناك عثر على مغارة غريبة فدخلها، فانتابته الدهشة لما وقعت عيناه عليه، حين رأى أمامه مخلوقاً غريباً عجيباً، نصفه الأعلى امرأة والأسفل له جسم أفعى فتسمرت قدماه لشدة الذهول برهة من الزمن، ثم تمالك نفسه وسأل المرأة الأفعى إن كانت قد صادفت أحصنته فأجابته بأنها في رعايتها، وستعيدها إليه بشرط أن يعاشرها معاشرة الأزواج، فقبل هرقل ذلك. ولكن المرأة ـ الأفعى لم تف بوعدها، بالرغم من وفائه بالشرط وإنما ما طلت في تنفيذ وعدها لتضمن بقاءه عشيقاً لديها، أطول وقت ممكن، وهو لا يبغي من هذا كله سوى أن تعيد له أحصنته الأسيرة. ثم أعادتها إليه في آخر الأمر، قائلة: «قد حفظت لك الجياد حين وجدتك في هذه الأرض، فوفيتني أجري وهو أبنائي الثلاثة الذين حملت بهم من صلبك. فأخبرني بما ينبغي أن أفعل بهم، حين يشبون عن الطوق ويشتد عودهم؟ هل أوطنهم في هذه الأرض، التي أنا سيدتها؟ أم أبعث بهم إليك حيث تكون» فرد هرقل بقوله: «اصغي لما أقول، وأنت من الفائزات. ليكن موطنه هنا من استطاع من هؤلاء الأولاد أن يشد القوس مثلي ويضع هذا النطاق كما أفعل، فليبق في أرضه، أما من عجز فاقصه. فإن فعلت كنت المطيعة وأحسنت إلى نفسك أيضاً». وقام هرقل عندئذ وشد أمامها وتر أحد قوسيه، وكان يحمل معه دائماً قوسين، وعرض لها كيف يكون عقد النطاق، ثم وضعهما في يديها وغادرها مودعاً. وكان لذلك النطاق كأس صغيرة

من الذهب بمثابة اللسان والعقدة. ولقد شب من كان ولداً وغدا يافعاً، فكان أن أسمت الأم ولدها البكر أجاثيرسوس والتالي جيلونس والأصغر سكيتيس، ثم مضت فأخضعت الثلاثة للامتحان، حسبما كانت تعليمات هرقل. ولقد تعثر ابناها البكر والأوسط وعجزا عن شد وتر القوس وعقد النطاق، فكان مصيرهما النفي من البلاد، أما الثالث، سكيتيس، فكان النجاح حليفه في هذا الامتحان، فتركته أمه يقيم في أرضها. وهكذا غدا سكيتيس هذا مبدأ سلالة الملوك السكيث؛ وما زال هؤلاء القوم يتمنطقون بنطاقات تزينها كؤوس صغيرة، تذكرة بنطاق جدهم هرقل وكان ذلك كل ما فعلته الأم لسكيتيس.

وهناك رواية أخرى غير هذه التي يوردها إغريق بونطس؛ وهي أقرب للتصديق وتذهب إلى أن قبائل السكيثيين، وهي من البدو الرحل، كانت عرضة لغارات الماساجيتاي، فاضطرت للهجرة، إلى سميريا، ويقال إن السميريين كانوا في الزمن الغابر يسكنون ما يعرف اليوم ببلاد السكيث، بعد أن قطعوا نهر أراكسس [الفولجا]. ولقد حار السميريون حين رأوا جحافل السكيث يجتاحون بلادهم، ودب الخلاف بينهم، وباتوا فريقين، وانقسموا بين أمراء (وهم أصحاب الرأي الأفضل) وعامة. وظل كل فريق ينافح عن رأيه، فكان مذهب العامة تفادي الصدام مع غزاة على هذا القدر العظيم من القوة، بينما أخذ الأمراء - وكانوا أهل شجاعة وإقدام - يدعون إلى التعبئة والصمود والقتال دفاعاً عن الأرض. ولكن معركة الرأي هذه لم تنته إلى قرار يجمعون عليه. فاختار أحد الفريقين الاستسلام أمام جحافل الغزاة والهرب من مواجهتهم، وبالمقابل كان خيار الفريق الآخر، أي الأمراء، وقد تمثل لهم ما كانوا ينعمون به في بلادهم حتى ذلك الحين، وما ستؤول إليه أحوالهم من البؤس والمهانة إن تراجعوا أمام الغزاة وفروا مع الفارين، أن يصمدوا في وجه الغزو، مؤثرين الموت في مواقعهم، ليدفنوا في أرضهم. وكان أن نهضوا ونظموا أنفسهم في لوائين متساويين في العدة والعتاد، واندفعوا للتصدي للغزاة، وثبتوا حتى قتلوا جميعاً،

فدفنهم السكيثيون ووجدوها خالية من السكان. ومن يزور سكيثيا اليوم يشاهد آثارهم الباقية مثل القلاع والبوسفور السيميري (مضيق بين البحر الأسود وبحر آزوف) وقطعة من الأرض تحمل اسم سميريا.

ومن الجلي أن انتقال السميريين إلى آسيا كان بدافع الهرب من السكيثيين، فأقاموا مستوطناتهم حيث تقوم مدينة سينوب الإغريقية الآن؛ وليس هناك شك بأن السكيثيين أخطؤوا الطريق في أثناء مطاردتهم للسميريين فدخلوا أرض الميديين، حين اتخذوا الطريق الداخلية، جاعلين جبال القوقاز على يمينهم، بينما التزم السميريون طريق الساحل، فكان أن وجد السكيثيون أنفسهم داخل أرض الميديين. وقد اتفقت روايات الإغريق والآسيويين في هذا القول.

ومن شاء معرفة المزيد عن هذا الجزء من العالم فليرجع إلى قصيدة لأريستياس بن كاوستروبيوس البروكونسي. فقد أخبرنا في قصيدته هذه أنه رحل بتأثير « فويبوس» إلى بلاد الإيسيدون، وما بعدها بلاد الأريمسبان وما يليها هو أرض الجرافين (حيوانات خرافية نصف جسمها الأعلى في صورة الكواسر، كالنسر، والأسفل جسم أسد) التي تحرس الذهب، وما دونها أرض الهايبربور التي يحدها البحر. وأهل تلك البقاع، في صراع دائم مع بعضهم بعضاً، وكل منهم، عدا الهايبيربويان، يعمل على تجاوز حدود بلده إلى بلد الأخر، بدءاً من الأريمسباني الذين طردوا الإيسيدون، ثم السكيثيين الذين أجلوا السميريين عن أرضهم وأخرجوهم من بيوتهم على شواطئ البحر الأسود. وهذا، إذن، دليل آخر على زيف رواية السكيثيين عن هذه المنطقة.

لقد ذكرت موطن أريستياس، صاحب هذه القصيدة؛ وها أنا ذا أروي قصة سمعتها عنه في بروكونيسوس وسيزيكوس. فتذهب هذه الرواية إلى أنه ينتمي لإحدى الأسر المهمة في بلدته وصادف أن دخل حانوت أحد القصارين حيث سقط ميتاً، فأغلق القصار حانوته ومضى مسرعاً ليخبر أهله بما حدث. ولكن ما إن ذاع خبر موت أريستياس حتى ظهر شخص من سيزيكوس، وكان قد وصل

لتوه من بلده أرتاكا، ليكذب النبأ بقوله إنه قابل أريستياس، وهو في طريقه إلى سيزيكوس، وتحادث معه في ذلك اللقاء. وكان الرجل يبدي كل الثقة بما يقول، ولا يقبل من إنسان إنكاراً. وبينما الأمور تجري على هذا النحو كان أهل أريستياس في طريقهم إلى الحانوت حاملين معهم ما هو ضروري لإقامة الجنازة للميت؛ وحمله إلى مثواه الأخير؛ فلما فتح باب الحانوت، وجدوا المكان خالياً وليس فيه أثر لأريستاس، إن حياً وإن ميتاً. ولقد ظهر الميت بعد سبع سنوات في بروكونيسوس، وطلع بقصيدة يعرفها الإغريق اليوم باسم «حكاية الأريمسباني»، ثم اختفى من جديد عن الأنظار. وأضيف هنا شيئاً مما بلغني عما حدث لأهل ميتابونتوم الإيطالية قبل مائتين وأربعين عاماً (كما تبينت بعد الحسابات التي قمت بها في بروكونيسوس وميتابونتوم) بعد ا ختفاء أريستياس للمرة الثانية. فيقول أهل ميتابونتوم أن الرجل ظهر عندهم وأوعز إليهم بأن يشيدوا معبداً لأبوللو، ويقيموا إلى جانبه تمثالاً يحمل اسم أريستياس البروكونيسي؛ ثم مضوا في القول بأنهم الشعب الوحيد الذي زاره أبوللو في إيطاليا، وقد حمل لهم الذهب معه في هذه الزيارة، وكان ذهباً مسبوكاً على شكل تمثال لغراب،ثم اختفى. ولقد أوفد أهل ميتابونتوم من يسأل عرافة دلفي عن معنى ظهور أبوللو في بلدهم، فقالت العرافة إن عليهم العمل بما سمعوا، فتصلح أحوالهم. وكان أن عملوا بما أوحي إليهم. فنصبوا تمثالاً يحمل اسم أريستياس ، مازال في الساحة العامة في المدينة إلى اليوم، إلى جانب تمثال أبوللو، وتحيط بهما شجيرات الورود والنباتات دائمة الخضرة.

ليس ثمة من يملك معلومات دقيقة تفيدنا عن الأصقاع الواقعة بعد المنطقة التي أعرض لها، ولم أصادف رجلاً يدعي معاينتها فعلاً. بل إن اريستياس الذي سلف ذكره لا يزعم في قصيدته أنه مضى إلى ما بعد بلاد الإيسيدونيان، فيصارحنا بأن روايته عن الأرض التي تقع بعدها إنما مصدرها ما سمعه من

الآخرين، وأساسها ما رواه له الإيسيدونيان. ولكني سأعرض ههنا، مع ذلك، كل الروايات المحققة بعناية عن تلك البقاع النائية مما استرعى انتباهي. إن أول ما يصادف المرء غرب المرفأ الواقع عند مصب نهر البوريثنيس، في منتصف ساحل السكيث، ولقد كان أول الناس سكنا لهذه المنطقة هم الكاليبيداي، إحدى القبائل اليونانية السكيثية، وتجاورهم قبيلة الأليزون، وكلاهما يشابهان السكيث في نهج الحياة، كما يزرعون مثلهم القمح للطعام، فضلاً عن البصل والكراث والعدس والجاورس. وشمال الأليزون، يوجد السكيثيون المزارعون الذين يزرعون القمح ليس لطعامهم بل للاتجار به وتصديره؛ ويليهم النوير، وما بعدهم، على ما نعلم، أرض غير مأهولة. وحسبنا ما قلنا عن الأقوام التي تسكن ضفاف نهر الهيبانيس (البوغ)، غرب نهر بوريثنيس، وإذا مضى المرء شرق هذا النهر، بدءاً من الساحل، وصل إلى هايلايا ـ أرض الغابات ـ وتابع الطريق شمالاً وجد السكيثيين البوريستين كما يسميهم الإغريق الذين يسكنون حوض الهيبانيس. أما هم فيسمون أنفسهم الألبيوبوليت. وهؤلاء منتشرون شرقاً على النهر المسمى بنهر البنتكاب، وهو على مسافة ثلاثة أيام على ظهور الخيل، وشمال بوريثنيس مسافة أحد عشر يوماً بالقارب. أما بعد ذلك شمالاً فصحراء شاسعة غير مأهولة، وما بعدها يعيش الأندروفاج ـ الهمج أكلة لحوم البشر ـ وليس لهؤلاء أي صلة بالسكيثيين، وإنما هم عرق متميز مستقل بذاته. وإذا تابع المرء طريقه شمالاً صادف صحراء مقفرة، على ما نعلم، ليس فيها أثر لإنسان. وفي الشرق من المنطقة، حيث يعمل السكيثيون في الزراعة، وعلى الطرف الآخر من نهر البنتكاب، يعيش السكيث الرحل، وهؤلاء لا دراية لهم بالزراعة. وهذه المنطقة كلها ـ عدا هايلايا ـ بلا أشجار.

وقبائل البدو الرحل يصادفهم المرء في المنطقة الشرقية، ويقطعها في أربعة عشر يوماً، ثم يبلغ نهر جيرهوس الذي تقع على طرفه الآخر المقاطعة الملكية التي يقطن فيها، والسكيث الملوك أشرس وأشجع قبائل السكيث وأكثرهم عدداً،

ويتسمون بالتعالي ويعاملون الآخرين معاملة العبيد. وتمتد أرضهم جنوباً حتى تاوريكا، وحدودها شرقاً الخندق الذي أقامه أبناء العبيد العميان، وكرمني، وهي مركز التجارة على بحيرة مايوتيس. وفي جزء من نهر التانيس (الدون) في شمالي منطقة السكيث ـ الملكية يتواجد شعب من غير السكيثيين، يدعى الميلانخلانيين، أو أصحاب العباءات السوداء، وإلى شمالهم توجد منطقة كثيرة المستنقعات غير مأهولة، وهذا مبلغ علمنا بهذه الأرض.

إن المرء ليخلف السكيثيين وراءه، حالما يعبر نهر تانيس، فيصادف عندئذ عشيرة الساوروماتاي، وهي تحتل المنطقة الشمالية على امتداد مسافة خمسة عشر يوماً بدءاً من بحيرة مايوتيس، وهي أرض بور جرداء حافلة بالحيوانات المتوحشة. وما بعدها تأتي أرض البوديني، الحافلة بمختلف أنواع الشجر. أما شمالها فصحراء قاحلة يقطعها المسافر في سبعة أيام، وإذا حاد إلى الشرق قليلاً ، دخل أرض التايساجيتاي، وهم قبيلة متميزة كثيرة العدد، يعيش أفرادها على الصيد، وتجاورها قبيلة تدعى ايركاي، تعيش بما يتوفر لها من الصيد، وأسلوب أبناء هذه القبيلة في الصيد هو صعود الأشجار التي تزخر بها بلادهم، وانتظار الطريدة فوق أغصانها. ولكل رجل في هذه القبيلة كلب وحصان تدرب على الانبطاح ليختفي عن الأنظار، فإذا شاهد الصياد من مخبئه بين أغصان الأشجار طريدة، قفز على ظهر جواده وأخذ في مطاردتها، والكلب في إثره. وتتواجد قبيلة أخرى من السكيث في شمال وشرق تلك المنطقة، انتقلت إلى تلك الأرجاء بعد أن تمردت على السكيثيين الملكيين ، التي تنتمي إليها.

وهذه الأرض التي وصفتها منبسطة وتربتها عميقة حسنة، ثم تغدو صلبة مليئة بالحجارة؛ وما يليها سلسة من الجبال الشاهقة يسكن سفوحها قوم صلعان. ويقال إن رجالهم ونساءهم يولدون صلعاً، وأنوفهم قصيرة ضخمة ولهم لسان خاص بهم، وزيهم شبيه بزي السكيث، وغذاؤهم ثمر من شجر يدعى البونتيكوم، وهو نوع من الكرز، بحجم شجرة التين، يحمل ثمرة صلبة بحجم

حبة الفاصولياء. وهم يستخرجون من هذه الثمرة بعصرها بقطعة من القماش عصيراً كثيفاً داكن اللون يسمونه أسخي، يلعقونه بلسانهم أو يتناولونه شراباً ممزوجاً ـ بالحليب، ثم يصنعون الكعك من رواسبه الكثيفة. وهؤلاء القوم لا يملكون الكثير من الغنم، فالمراعي عندهم شحيحة. ويقيم الرجل منهم تحت شجرة البونتيكوم الخاصة به، التي يغطيها بقطع اللباد ليقيها برد الشتاء وهم ينتزعون هذا اللباد في فصل الصيف. ويقال إن هؤلاء القوم تحميهم قدرة خفية، فلا تراهم يحملون سلاحاً ولا يعترضهم أحد، ويلجأ إليهم جيرانهم لحل الخلافات فيما بينهم، ومن يلجأ إليهم ضمن لنفسه السلامة. ويعرفون باسم أرجباي[٥].

إن المعلومات وفيرة عن أرض الصلعان وأهلها شمالاً وجنوباً من الأخبار التي رواها الإخباريون، ونلم بالكثير عنها من السكيثيين والإغريق الذين يرتادون مرافئ التجارة على نهر بوريثنيس وسواها على ساحل البحر الأسود. وتجار السكيثيون يستعملون في تعاملهم مع أهل تلك المرافئ سبعة مترجمين لكل لسانه الخاص. ولكن ليس هناك من يملك معرفة دقيقة بالمنطقة بعد بلاد الأرجباي، إذ لم يبلغ تلك المنطقة أحد، بسبب سلسلة الجبال العالية التي تعترض الطريق وافتقارها للمسالك.

ويروى الصلعان (ولست آخذ بروايتهم) أن الجبال مسكونة بقوم لهم أقدام كالماعز، وفي الشمال قوم يدوم سباتهم ستة أشهر ـ وهذا قول لعمري لا يقبل التصديق. أما شرق منطقة الأرجباي فمنطقة مأهولة بلا ريب ويسكنها الإيسيدون؛ ولكن لا يعرف من يسكن المنطقة التي تقع شمال موطن هذين الشعبين، سوى تلك الروايات التي يتداولونها.

ويروى عن الإيسيدون أنهم يتبعون عددا من العادات منها أنه حين يموت والد أحدهم يأتي الأقارب بالأضاحي من الأغنام إلى بيته؛ ويقومون بتقطيع لحم الأغنام والميت ويخلطون هذه اللحوم ويقومن بطهيها ثم يتناولونها. ولكنهم

يحتفظون برأس المتوفى على سبيل التقديس ويغلفونه بقشرة من الذهب، بعد تنظيفه وإفراغه مما فيه، ويقدمون له القرابين. إن أسلوب الأبناء تجاه الأباء مشابه لتقديس الإغريق لذكرى الآباء والأجداد. وسوى ذلك يبدو الإيسيدون ذوي تقدير سليم للعدالة والرجال والنساء عندهم سواسية، وهم أصل الراويات الغريبة التي تدور حول أهل الشمال، مثل ذوي العين الواحدة، والجرافين حراس الذهب، وعن السكيثيين أخذناها نحن، وهو ما يفسر الاسم الذين نطلقه على المخلوقات ذات العين الواحدة، الأريماسباي، وهي تسمية السكيثيين، والكلمة مركبة من «الأريما» وتعني بالسكيثية واحد، وكلمة «اسبو» تعني عين.

إن فصل الشتاء في هذه المنطقة الموصوفة قاس، إذ يستمر فيها البرد قارساً لا يطاق، وتتجمد الأرض وتتصلب كالحديد القاسي، وإذا شئت أن تحيل التراب طيناً فلن يفيدك الماء في هذا، وإنما النار. وفي الشتاء يتجمد البحر والبوسفور السيمري؛ والسكيثيون خارج الخندق الذي أتيت على ذكره، يخوضون حروبهم على الجليد ويجرون عرباتهم فوقه للوصول إلى بلاد السندي. وتظل تلك المنطقة شديدة البرودة خلال الشهور الأربعة التالية للثمانية التي يسود فيها الصقيع؛ والأمر الذي يختلف فيه الشتاء هنا عن مثله في بقية أنحاء العالم هو قلة الأمطار فيه، وهو الموسم الذي يتوقع فيه هطولها، بينما ترى السماء لا تنقطع عن إرسال المطر مدراراً في الصيف. ولا يصادف المرء الرعد هنا في الموسم المعتاد، بينما يكون قصف الرعد في الصيف شديداً؛ وهؤلاء القوم يعتبرون الرعد في الشتاء أعجوبة، وكذلك الهزات الأرضية، سواء في الصيف أم في الشتاء. والجياد تحتمل الشتاء وبرده على أحسن ما يكون الاحتمال، ولكن البغال والحمير تضيق به؛ وهذا أمر غريب لأنه معروف عن هذه الحيوانات صبرها على البرد في غير تلك البلاد.

ولكن الجياد التي تبقى ثابتة في مكانها تتعرض لقضمة الصقيع. وأحسب أن افتقار البقر للقرون في هذه البقة من العالم سببه البرد، ونجد دعماً لهذا

الرأي في قول يرد في الأوديسة، إذ يحدثنا هوميروس عن « ليبيا » حيث تنمو القرون سريعاً على رؤوس الأغنام. وتلكم ملاحظة حصيفة عن ملاءمة الطقس الحار لنمو قرون الحيوانات، بينما ليس هذا شأن الطقس البارد.

ويخطرني هنا أمر مثير للعجب (ولست اعتذر لهذا الاستطراد، وقد كان هذا شأني في الكتاب كله) وهو أن البغال لا تتوالد في إيليس[٦]، مع أنها ليست بالمكان البارد، ولسنا نجد سبباً واضحاً آخر يفسر هذا الأمر. والناس هناك يعللون هذه الظاهرة بلعنة نزلت بالبغال ولذلك يلجأ أهل هذه البلاد للانتظار حتى حلول موسم الإخصاب ليدفعوا بالأفراس. إلى بلد مجاور ويطلقون الحمير عليها في تلك الأرض فإذا تم التلقيح عادوا بها إلى بلدهم من جديد.

أما الريش الذي يقول السكيثيون إنه يملأ الجو، ويحول دون المرء وتجاوز المناطق الأبعد شمالاً من القارة، بل ومجرد مشاهدتها، فيحملني على الاعتقاد أن تلك البقاع في ثلج دائم، وإن كان في الصيف أقل منه في الشتاء. ومن خبر نزول الثلج كثيفاً يدرك ما أعني بهذا القول، ذلك أن الجو والأرض يبدوان وكأنهما مغموران بالريش؛ وإذا كانت تلك المناطق خالية من السكان فذلك بسبب برودتها الشديدة. ولا ريب أن السكيثيين وجيرانهم إنما يقصدون في حقيقية الأمر الثلج في حديثهم عن الريش، لتشابه هذا وذاك. وهأنذا قد بلغت نهاية المستفاد من الروايات.

وأما الهايبربور فلا يوفر لنا السكيثيون، وغيرهم، في تلك البقاع، سوى الإيسيدون أي معلومات عنهم. ولا يعني ذلك أن لدى الإيسيدون ما يفيدوننا به من معلومات ذات شأن حقاً؛ ولو توفرت لديهم معلومات بتلك البلاد وأهلها لكان مصدرها السكيث أيضاً، مثل تلك الحكاية عن ذوي العين الواحدة. ومع ذلك فإننا نصادف ذكراً للهايبربور عند الشاعر هزيودوس، وفي ملحمة هوميروس: «الإيبيجوني» - هذا إن صدق أن هوميروس هو مؤلفها. والحق أن أكثر تلك الأقوام إلماماً بأخبار الهايبربور هم الداليان؛ فنعلم من هؤلاء أن الهايبربور

يقدمون قرابين معينة ملفوفة بقش القمح عبر أرض السكيث فالأقوام المجاورة على التوالي حتى تبلغ أقصى نقطة وهي منطقة الأدرياتيك غرباً؛ ثم تمضي بها القافلة جنوباً، ويكون أول من يتلقاها من الإغريق الدودون، حتى تبلغ خليج الماليان، فيوبويه، وتمضي من بلدة إلى أخرى إلى أن تصل إلى كاريستوس، وتترك أندروس، ثم يحمل هذه القرابين وفد من الكاريستان إلى تينوس ومنها يحملها التينيان إلى ديلوس، وهذه هي مسيرة القرابين في أيامنا؛ أما في بداية الأمر فقد حملتها فتاتان، يذكر الداليان أن إحداهما كانت تدعى هايبروخه والثانية لاوديسه. وقد عهد الهايبربور إلى خمسة رجال لحماية الفتاتين في أثناء الرحلة، ويعرف باسم البرفرين، ولهم مكانة جليلة اليوم عند أهالي ديلوس. ولكن الهايبربور عدلوا عن هذه الخطة، فيما بعد، حين وجدوا أن رسلهم لم يعودوا بعد انتهاء المهمة إلى قومهم، فكرهوا أن يفقدوا أهلهم على هذا النحو، كلما بعثوا منهم وفداً في مهمة، فبدأوا عادة رزم القرابين بالقش وحملها إلى الحدود ليحملها جيرانهم من الحدود لتبلغ الجهة المقصودة بالنقل من بلد إلى آخر، حيث يقوم كل قوم بتسليمها إلى جيرانهم، وهؤلاء يسلمونها إلى جيرانهم من بعدهم، وهكذا دواليك إلى أن تبلغ الجهة المعينة. وهذه هي الطريقة التي تبلغ بها ديلوس اليوم. وإنني أعلم بما يشبه هذا التقليد، ويأخذ به أهل تراقياً وبايونيا، حيث تقدم النساء القرابين إلى الإلهة أرتميس، وهي ملفوفة بقش القمح.

ولقد ماتت الفتاتان في ديلوس، ومازال فتيان الجزيرة وفتياتها يقصون شعورهم حزناً عليهما - وجرت الفتيات على قص خصلة، قبيل زواجهن، ويلففنها حول مغزل ويضعنها فوق قبرهما (يقع على يسار مدخل معبد أرتيس، وتظلله شجرة زيتون)؛ أما الفتيان فيلفون خصلة الشعر حول فرع جديد من إحدى الشجيرات ويضعونه فوق القبر، كما تفعل الفتيات. وتروي حكاية من حكايات أهل دلفي قصة امرأتين من الهايبربور، سابقتين لهايبروخه ولاوديسة تدعى إحداهما آرجي والأخرى أوبيس. قدمتا إلى ديلوس عن طريق غير معلومة،

لتقدما نذر الشكر لايلاتيا التي تتولى رعاية الحوامل إن سهلت لهما المخاض، وصادف أن كان حلولهما بالجزيرة في الوقت ذاته الذي نزل فيها أبوللو وأرتميس، ولذلك تلقت هاتان المرأتان تكريماً خاصاً هناك؛ فقد درجت نساء ديلوس على نظم القصائد في مدحهما، وورد اسماهما في ترنيمة وضعتها أولين الليسية تكريماً لهما ـ وتنشد هذه الترنيمة في احتفال خاص، وقد أخذت نساء الجزر الأخرى، والأيونيات أيضاً هذا الاحتفال عن نساء ديلوس؛ وأولين الليسية هي صاحبة الترانيم القديمة الأخرى التي تنشدها الديلوسيات. ومازال طقس نثر رماد عظم فخذ محروق على قبرهما يجري إلى يومنا. وهذا القبر قائم خلف معبد أرتميس، باتجاه الشرق، بالقرب من قاعة المآدب التي بناها السيانيون.

حسبنا الآن من حديث الهايبربور؛ ولسوف أمسك عن الخوض في حكاية آبيارس الذي يقال إنه منهم وعرف عنه أنه حمل سهمه ودار به العالم، دون أن يتناول لقمة طعام. ولكني أضيف مع ذلك ملاحظتي أنه إذا كان الهايبربور يسكنون «الأرض التي تلي مصدر ريح الشمال» فلا بد من أن يكون هناك قوم من الهايبربور في الأرض التي تلي الجنوب المعروف.ولست أستطيع تمالك نفسي عن الضحك من سخف رسامي الخرائط ـ وهم كثر ـ الذين يصورون المحيط متدفقاً كأنما هو نهر يحيط بأرض تامة الاستدارة، وأوروبا وآسيا فيها متماثلتان حجماً. واسمحوا لي أن أعرض هنا بكلمات قلائل فكرة سليمة عن شكل وحجم كل من هاتين القارتين.

يقطن الفرس في منطقة تمتد من الشمال حتى الجنوب لتتصل بالبحر الأحمر (الخليج العربي)، وفي الشمال منها هناك الميديون والساسبير والكولخيان، الذين تمتد أراضيهم حتى بحر الشمال، حيث يقع مصب نهر الفاسيس (أراكس، في أرمينيا) وهذه الأقوام الأربعة تحتشد في المنطقة الواقعة ما بين البحر الأسود والخليج العربي. ثم هناك لسانان جبليان قاريان ضخمان يتجهان غرباً، أحدهما يمتد من نهر الفاسيس في الشمال على مسار البحر

الأسود والهيلسبونت حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط عند سيجيوم، في ترود، ثم ينحدر جنوباً ويحاذي ساحل البحر الأبيض المتوسط من خليج ميرياند، بالقرب من فينيقيا، إلى رأس ترويبوم. وهذا الفرع من القارة يضم ثلاثين قوماً. أما اللسان القاري الآخر (الهضبة) فيبدأ في فارس ويشمل بلاد الآشوريين والعرب، وينتهي ـ كما هو متفق عليه ـ عند خليج العرب (البحر الأحمر) الذي قام داريوس بوصله بنهر النيل عبر قناة. وما بين فارس وفينيقيا أرض شاسعة واسعة؛ ويمتد هذا الفرع الذي أقوم بوصفه ههنا بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المتوسط من فلسطين ـ سورية حتى مصر، حيث ينتهي ويضم ثلاثة أقوام. هذه هي آسيا التي تمتد من فارس غرباً؛ وشرقاً، وراء بلاد الميديين ومنطقة الساسبير والكولخيان، يقع الخليج العربي، وفي أقصى الشمال بحر قزوين ونهر أراكس الذي يجري باتجاه الشرق. وآسيا مأهولة بالسكان إلى الهند، وما بعدها شرقاً أرض غير مأهولة، وليس هناك من يعلم بحال تلك المنطقة. فهذه إذن آسيا وشكلها وحجمها. وليبيا (أفريقيا) هي جزء من الفرع الثاني الذي عرضت وصفه في حديثي عن مصر التي تتصل بها؛ وأما مصر فلها شكل عنق الزجاجة الضيقة، فلا يزيد طول أرضها عن المئة والعشرين ميلاً من البحر الأبيض المتوسط حتى البحر الأحمر، ثم سرعان ما تتسع، وما يعرف بليبيا منطقة شاسعة واسعة مترامية الأطراف.

ولست أملك إلا العجب، في ضوء ما سلف القول، لأسلوب رسم خرائط ليبيا وآسيا وأوروبا. فالحق أن هذه القارات (الأقاليم) الثلاث تختلف عن بعضها أشد الاختلاف من حيث الحجم. فأوروبا طولها يبلغ ضعف طول البلدين معاً، وأما من حيث العرض فلا يقبل الأمر، في رأيي، مجرد المقارنة. وأما ليبيا فنعلم أن البحر يحدها من الجانبين، عدا ما اتصل منها بآسيا، كما سلف أن برهن في البداية ملك مصر نخاو الثاني الذي بعث بأسطول من البحارة الفينيقيين للاستكشاف، بعد أن أوقف شق القناة بين نهر النيل والبحر الأحمر، ووضع

لتلك الرحلة مهمة استقصاء المناطق والعودة إلى مصر والبحر الأبيض المتوسط عن طريق أعمدة هرقل. ولقد انطلق الفينقيون من البحر الأحمر وعبروا إلى المحيط الجنوبي، واختطو خطة بأن يزرعوا حيثما بلغوا على الساحل الليبي قطعة من الأرض كل خريف، ثم ينتظروا محصولها في الموسم التالي، فإذا تم الحصاد نشروا أشرعتهم وتابعوا الرحلة التي استمرت على هذا النحو عامين كاملين، ثم قفلوا عائدين إلى مصر. ولقد قدم هؤلاء البحارة عرضاً عن رحلتهم ولكنني لا أصدقه وإن شاء آخرون أن يأخذوا به، ومفاده أنهم شقوا طريقهم في البحر غرباً، والشمس إلى يمينهم - شمالاً منهم. وهكذا كان مبدأ اكتشاف أن ليبيا محاطة بالمياه، ثم جاء القرطاجيون فأفادوا بمثل هذا القول؛ وأما ستاسبس بن تيسبس الأخميني فإن يكن هو الذي أمر بالرحلة إلا أنه جزع لطولها وما أثارته فيه من إحساس بالوحدة فقفل راجعاً إلى بلده. وكانت أمه هي التي بعثت به في هذه المهمة؛ وتفصيل ذلك أن ستاسبس هذا اغتصب ابنة ميجابازوس بن زوبيروس، وكاد (الملك) أحشويرش بن داريوس أن يأمر بإعدامه على الخازوق، لولا أن أمه، وكانت أخت الملك داريوس، تدخلت لديه فعدل عن هذا الحكم، حيث وعدت بأن تنزل به عقاباً أشد قسوة؛ وكان عقابه أن يجوب البحر حول ليبيا، ثم يعود عن طريق البحر الأحمر. وقد وافق أحشويرش على طلبها؛ وكان أن سافر ستاسبس هذا إلى مصر، وهناك اشترى سفينة وجند لها البحارة، ثم انطلق مبحراً إلى مضيق (جبل طارق)، فمر بها متجهاً نحو رأس سولويس في ليبيا، واستمر في رحلته جنوباً، ولما وجد أنه لا نهاية لرحلته، توقف عن متابعتها وقفل عائداً إلى مصر، ومنها سافر إلى بلاط أحشويرش، وقدم للملك تقريره فذكر أنه وجد عند أبعد نقطة بلغها في الجنوب ساحلاً يسكنه قوم من الأقزام الذين يسترون عريهم بسعف النخل. وقد وجد هؤلاء الأقزام يفرون من وجه القادمين الذين حلوا في ساحلهم ويهجرون مستوطناتهم ملتجئين إلى التلال القريبة. وكان رجال ستاسبس يدعون أولئك القوم ولا يسيئون إليهم،

سوى دخول قراهم وأخذ بعض ماشيتهم. أما حجته في قطع رحلته فكانت أن سفينته ما عادت تستطيع بعد تلك النقطة متابعة الإبحار فتوقفت،واضطر ورجاله للعودة. ولكن أحشويرش لم يقبل بتلك الحجة ورفض العفو عنه، لفشله في تنفيذ مهمته، فنفذ فيه العقوبة التي كان ينوي ايقاعها به ومات بالخازوق. وكان في خدمة ستاسبس هذا خصي بلغه خبر موت صاحبه، فهرب إلى ساموس حاملاً معه ثروة ضخمة؛ فاستولى عليها رجل من الجزيرة، لا أود أن أذكر اسمه ـ ولو أنني أعرفه.

إن اكتشاف القسم الأعظم من آسيا قد تم على يد داريوس. ذلك أنه شاء أن يعرف موقع اتصال نهر السند بالبحر، وهو النهر الوحيد، غير النيل الذي يحفل بالتماسيح، فبعث بجماعة من أهل الصدق ليأتوا له بخبر هذا النهر وكانت البعثة بقيادة سكيلاكس الكارياندي وبدأت الحملة رحلتها من مدينة كاسباتيروس الواقعة في إقليم يدعى باكتيا، متبعة مجرى النهر إلى أن بلغت مصبه على البحر، ثم اتجهت غرباً، والسفن تلازم الساحل، ولا تحيد عنه، فوصلت بعد زهاء الثلاثين شهراً الموقع الذي بلغته بعثة البحارة الفينيقيين الذين أرسلهم ملك مصر، وقد سبق ذكرهم، ليجولوا حول ليبيا. وبعد أن تمت هذه الرحلة، سار داريوس بجيشه وأخضع أهل الهند، وأخذ يبعث بسفنه لتجوب المحيط الجنوبي. وهكذا كان البرهان على أن آسيا مطوقة كلها بالبحر، سوى الجزء الشرقي منها، وبذلك تم البرهان على التشابه الجغرافي العام ما بين آسيا وليبيا.

أما أوروبا فالحالة معها مختلفة؛ ذلك أنه ليس هناك من جاء بالقول القاطع إن كان البحر يحدها من شرقها أم شمالها؛ فكل ما نعلمه عنها هو أن مساحتها تعادل مساحة آسيا وليبيا مجتمعتين. وما يثير حيرتي كذلك أن تحمل كتلة واحدة من الأرض اسم ثلاث نساء، وأن يعتبر النيل وفاسيس ـ أو نهر الدون والمضائق السميرية ـ حدوداً بين البلدان. لا ولم يتسن لي أن أعرف أول

من قام برسم الحدود، ولا مصدر تلك الأسماء. فمعظم الإغريق يحسبون أن ليبيا اكتسبت اسمها من امرأة من أهل البلاد، وأن آسيا سميت كذلك نسبة إلى زوج بروميثوس لكن أهل ليديا يرون أن اسمها جاء من لاسياس بن كوتيس وحفيد مانيس وهو الذي خلع اسمه على قبيلة الأسياس في ساردبس.

أما أوروبا فليس هناك من يعرف إن كانت مطوقة بالبحر ولا لمن تنتسب أو أطلق عليها اسمها الذي تعرف به، إلا إذا قلنا بانتسابها إلى أوروبا الصورية[٧]، وقبل ذلك لم تكن تعرف باسم شأنها شأن الأقاليم الأخرى؛ لكن هذا احتمال مستبعد. ذلك أن أوروبا إنما كانت امرأة آسيوية، ولم يسبق لها أن حطت في البلد الذي نسميه اليوم أوروبا، وتقتصر حكايتها أنهاأبحرت من بلاد الفينيقيين إلى كريت، ومنها إلى ليسيا. وحسبنا ما قلنا في هذا الموضوع ولسوف استمر، في مطلق الأحوال، في استخدام الأسماء التي اشتهرت بها.

ونصادف حول البحر الأسود، وهي المنطقة التي شهدت حملة داريوس، أشد الأقوام جهلاً على الأرض، عدا السكيث. ذلك أننا لا نعرف شعباً من شعوب البحر الأسود قد اشتهر بالحكمة، ولا علمنا برجل من أهل تلك الأصقاع، سوى من كان من السكيث أو الانكاريس، وكان من أهل المكارم. ولكن السكيثيين توفرت لهم خصلة، هي الأهم في حياة البشر، واحتفلوا بها أكثر من أي قوم على وجه البسيطة، عنيت حماية أنفسهم. ذلك أنهم انتهجوا في حياتهم نهجاً لا يمكن لأي غاز لأرضهم إلا أن يلقى فناءه هناك، أما إذا شاؤوا تفادي الاشتباك مع العدو فلن يمكن له أن يقابلهم أو أن يكون له احتكاك بهم.

وإذن، فكيف يمكن لشعب لا يعرف المدن المحصنة ويعيش على نهج السكيث في عربات تنتقل معهم حيثما يرتحلون، واعتادوا القتال وعدتهم القوس والسهام يرمون بها من فوق ظهور الخيل، قوم رعاة وليسوا أهل زراعة، إلا أن يدحروا كل من يحاول دخول أرضهم فحسب، أو ينشد إخضاعهم سواء وبسواء. ولقد كانت طبيعة بلادهم وما فيها من الأنهار الكثيرة والأرض الفسيحة الغنية

بمياهها ومراعيها، وهي التي لها من الأنهار ما لمصر من القنوات، خير عون لهم في أمرهم. وها إني أذكر أشهر تلك الأنهار التي يمكن للسفن أن ترتادها وهي: ايستر (الدانوب) وروافده الخمسة والتايراس والبوج والدنيبر والبانتيكاب والهيباكريس والجروس والدون. وايستر هو أعظم ما نعرف من الأنهار، ومنسوبه من المياه مستقر لا يختلف، إن صيفاً وإن شتاءً، وهو الأبعد غرباً بين الأنهار في بلاد السكيث، والسبب في اتساعه كثرة روافده. ومن تلك الروافد خمسة أنهار تنبع من أرض السكيث، وهي البروروتوس (أو البوراتا، بلسان السكيث) والتيارانتوس والآراروس والنباري والأورديوس التي تصب في الدانوب، في مكان يقع بين النهرين الأولين. وهناك العديد من الروافد الأخرى، إضافة إلى ما سبق ذكره، وهي: نهر الماريس الذي ينبع من بلاد الأجاثيرس؛ وثلاثة أنهار كبيرة، وهي الأطلس والأوراس وتبيسيس الذي ينبع من مرتفعات هايمس في الشمال؛ والأثري والنوي والأرتان التي تنبع من أرض قبيلة الكروبيزي التراقية، والسيوس الذي ينبع من أرض البايونيا وجبل رودوب (جنوب غرب بلغاريا) عبر جبال الهايموس؛ ونهر الأنجروس في الشمال وينبع من ايليريا ويمر في سهل التريبال ويلتقي بنهر البرونجوس، فيكون هناك نهران آخران كبيران، وهناك بعد نهرا الكاربيس والألبيس اللذان ينبعان من الشمال أيضاً، من الأرض وراء بلاد الأمبريان. وهذه الأنهار تصب كلها في نهر الدانوب، وتنبع من أراضي الكلت في الغرب، وراء بلاد الكنتيين، وتقطع القارة قبل دخولها أرض السكيث. فلا عجب إن كان الدانوب أغزر الأنهار، وهو الذي تغذيه هذه الروافد كلها، وسواها كثير، وإن كان النيل ذو المجرى الواحد يفوقه، حين نستبعد في المقارنة تلك الروافد، وجعلناه - أي الدانوب - في المقارنة مع الأنهار التي لا ترفدها أنهار أو جداول؛ ذلك أن النيل لا يصب فيه أي نهر أو جدول يزيد في مياهه.أما الدانوب فيظل على منسوبه من المياه فلا يزيد شتاء أو ينقص صيفاً، فتفسير الأمر عندي هو أن مياه النهر تحافظ على منسوبها

المعتاد، أو تزيد قليلاً عن نسبتها العادية، بسبب شح مياه الأمطار في الشتاء، وإن كان الثلج كثيراً في هذا الفصل، أما في الصيف فتجد كتل الثلج الضخمة التي تراكمت في الشتاء قد أخذت تذوب وتصب في النهر، مصحوبة بالأمطار الغزيرة، وهذا شائع في فصل الصيف، فتزيد في منسوب النهر فإن كان تبخر المياه أكثر في الصيف منه في الشتاء عدل الأمر بزيادة منسوب روافد النهر في ذلك الفصل، وظل على حاله طوال العام.

ويجري النهر الآخر، التايراس، جنوباً من منبعه وهو بحيرة عظيمة تشكل الحد بين بلاد السكيث وبلاد النويري. وكان التايراتاي الإغريق قد أقاموا مستوطنة لهم عند مصب هذا النهر. أما النهر الثالث وهو الهايبانيس (البوج) فمنبعه في بلاد السكيث، ومن بحيرة عظيمة أخرى، ترعى على أطرافها خيول برية تتسم ببياض اللون. وتعرف هذه البحيرة باسم «أم الهايبانيس» وهي جديرة بهذا الاسم. وتظل مياه النهر نقية رائقة شفافة طوال مسافة رحلة خمسة ايام من البحيرة، ثم تصبح شديدة الملوحة والرحلة تقترب من البحر، وعلى مدى أربعة أيام أخرى من السفر؛ والسبب في هذا التغيير المفاجئ هو أن نبعاً مياهه شديدة الملوحة يصب في هذه النقطة من مجرى النهر، فيفسد مياهه بالرغم من ضآلة حجمه، وضخامة الهايبانيس. ويمر هذا النبع أو الجدول بأرض قبائل السكيث المزارعين، وحيث تجاور أرض قبائل الأليزون، واسمه والمنطقة المجاورة للنبع بلغة السكيث «الأكسمبايوس» وترجمته بلغة الإغريق «الطرق المقدسة». وإذا تابع النهران، الهايبانيس والتيراس، مجراهما اقتربا من بعضهما في بلاد الأليزون، ليفترقا عن بعضهما، فتكبر الأرض الفاصلة وتتسع بينهما.

إن البوريثنيس (دنيبر) وهو ثاني أضخم الأنهار في بلاد السكيث، أهم الأنهار وأكثرها نفعاً لا في تلك البقعة من العالم وحسب، بل في أي مكان أيضاً، باستثناء وحيد، هو نهر النيل الذي لا يضارعه نهر آخر. فهذا النهر يوفر أفضل المراعي وأشدها خصوبة، وهو أغنى الأنهار بالأسماك من الأشكال

والأنواع كافة، وأعذب مياه الشرب ـ فهي هنا رائقة متلألئة، بينما تجد مياه الأنهار الأخرى في المنطقة مضطربة عكرة؛ ولن تجد أرضاً خصبة تنتج أحسن المحاصيل، كالأرض الممتدة على ضفتيه؛ وحيثما يزرع القمح ترى أعواده فارعة الطول وسنابلها غنية، ولا نظير لها في العالم. وهذا النهر يوفر بفعل الطبيعة عند مصبه قدرا لا حد له من الملح، كما يعيش فيه السمك الضخم، ولحمه من الهبر الخالص بلا عمود فقري، ويصلح للحفظ مخللاً، ويعرف عند أهل البلاد باسم «انتكايوس»، كما يوفر عدداً من عجائب الأمور الأخرى. ومجرى هذا النهر جنوباً، وهو معروف حتى يبلغ ما يعرف بأرض الجروس، على مسافة أربعين يوماً؛ وما بعد تلك الأرض لا يعرف أحد أي أرض يجري فيها النهر، ومبلغ علمنا أنه يمر بأرض السكيث المزارعين بعد أن يتجاوز أرضاً غير مأهولة، وهؤلاء السكيث، منتشرون على ضفتي النهر مسافة عشرة أيام من السفر بالقارب. وهذا النهر والنيل هما النهران الوحيدان اللذان لا أعرف منابعهما، ولا أي إغريقي آخر. ويتحد النهران، الدنبير والبوج، على مسافة غير بعيدة من البحر، ويجريان معاً في أرض المستنقعات المنخفضة وتعرف هذه الأرض ما بينهما باسم رأس هيبولاوس وفيه معبد لديمتير، ومقابله مستوطنة لعشيرة السكيث الدنيبرية، قائمة على نهر البوج.

والنهر الخامس هو البنتكاب، وينبع من إحدى البحيرات متدفقاً جنوباً عبر منطقة هايلايا (أرض الغابات) ليلتقي في النهاية بالدنيبر. ويسكن الأرض بينهما قبائل السكيث المزارعين. أما النهر السادس فهو الهايبكريس وينبع من بحيرة في أرض السكيث الرحل ويصب في البحر بالقرب من كارسنيتيس، ثم يتابع مجراه متجاوزاً أرض الغابات، إلى يمين المكان المعروف باسم مضمار أخيل. ونهر الجروس يتفرع عن الدنيبر، في منطقة تعرف باسمه في أعلى الشمال، وتقع عند المنطقة التي تبدأ فيها معرفتنا بالدنيبر، وهي الحد بين ملوك السكيث والقبائل المتنقلة من هؤلاء القوم، ثم يلتقي بنهر الهايبكريس. وثامن تلك

الأنهار هو تانيس (الدون) وينبع من بحيرة ضخمة في تلك البلاد، ثم يصب في بحيرة أضخم تعرف ببحيرة مايوتيس (بحر آزوف) وهو الحد بين ملوك السكيث وقبيلة الساورماتاي، ويصب في هذا النهر، نهر آخر هو نهر الهايرجيس.هذه إذن أبرز الأنهار التي يتمتع بها السكيث. والحشائش التي تنبت في تلك البقاع تصيب الماشية بالصفراء أكثر من أي مكان آخر أحطنا به، كما يمكن للمرء أن يرى بوضوح حين يشق بطون الذبائح.

ولسوف أمضي الآن، بعد أن وصفنا طبيعة تلك البلاد وأحوالها، لأعرض لعادات الناس وتقاليدهم ومعتقداتهم. إن السكيث لا يعبدون آلهة سوى هيستيا (رأس الآلهة) وزيوس والأرض (وهي عندهم زوج زيوس) وآلهة أخرى دون تلك أهمية، منها أبوللو وأفروديت السماوية وهرقل وآريز (إله الحرب عندهم). وهذه الآلهة تسلم بها أمة السكيث كلها؛ ولكن السكيث الملوك يتقربون بالقرابين لإله البحر بوسيدون، فضلاً عن أولئك الذين تقدم ذكرهم. وهيستيا في لغتهم تابيتي، وزيوس يسمى عندهم «بابايوس» وهذا يليق به أكثر لأنه يعني الأب، والأرض «آبي» وأبوللو «أويتوسيروس» وأفروديت السماوية «ارجيمباسا »، «وبوسيدون» ثاجيما سادا.

والسكيث لا يأخذون بإقامة التماثيل أو بناء المعابد والمذابح للآلهة، عدا أريز. وأسلوب التضحية في كل أصقاع البلاد وجميع الحالات هو: تربط قائمتا الضحية الأماميتان إلى بعضهما، ويقوم الرجل الذي يتولى الطقوس بشد الحبل من الخلف ويرمي بالحيوان داعياً باسم الإله المقدم له القربان؛ ثم يلف حول عنق الأضحية حبلاً ويقحم عصا بين الحبل والعنق ثم يلويها حتى يموت الحيوان خنقاً. ولا تشعل المشاعل أو توقد النار، ولا تقدم الفواكه المبكرة أو تراق السوائل؛ وجل ما يكون هو سلخ جلد الأضحية حالما يتم خنقها ثم يسلق اللحم بالماء المغلي؛ وهذا أمر يقتضي منهم ضرباً من الابتكار، لأن أرض السكيث بلا شجر؛ وأسلوب القوم في سلق اللحم يقوم على فصل اللحم عن العظم بعد

السلخ، ثم يوضع هذا اللحم في قدر، إن توفر لهم والقدور هناك شبيهة في الشكل بدنان الخمور في ليسبوس، إنما أضخم منها حجماً ـ ويجعلون العظم وقوداً للنار. أما إذا لم يتوفر القدر لغلي اللحم، فإنهم يضعون اللحم في كرش الحيوان ويمزجونه بالماء، ويقومون بغليه في نار موقدة بالعظام، وهي حسنة الاحتراق، والكرش تضم اللحم الذي تستوعبه أحسن استيعاب بعد نزعه عن العظم. وهكذا يتم سلق الثور أو أي حيوان من حيوانات الأضاحي على هذا النحو المبتكر. وإذا انتهى طهي لحم الأضحية قدم لصاحبها بعض اللحم والأحشاء برميها أمامه على الأرض. ويستخدم في الأضاحي مختلف أنواع الماشية، إلا أن الشائع هو تقديم الأحصنة. أما الطقوس التي تقام للإله أريز فتجري على نحو مختلف. وهناك معبد له في كل ناحيةوعاصمة؛ وهذا المعبد غريب الشكل، فهو كومة هائلة من الأغصان تبلغ ثلاثة فرلنجات طولاً وأقل من ذلك ارتفاعاً، وسطحها مستو كالمنصة، ويمكن بلوغها من أحد جوانبها الأربعة الأشد انحداراً من الجوانب الثلاثة الأخرى. وقد جرى القوم على أن يأتوا كل عام بأحمال من الأغصان والأعواد في مئة وخمسين عربة ويرموا بها فوق تلك الكومة، ليعوضوا عما تذهب به الأمطار باستمرار، وهناك في الأعلى سيف أحدب قديم من الحديد نصبه السكيث ليكون صورة عن الإله أريز، وله تقدم كل عام القرابين من الأحصنة والمواشي، والتي تفوق أعدادها ما تحظى به آلهتهم الأخرى. كذلك يقدم أسرى الحرب قرابين لأريز؛ ولكن طقوس تقديمهم تختلف عن تلك التي تقدم فيها الحيوانات، ففي هذه الحالة يجري اختيار رجل واحد من بين كل مئة من الأسرى، فيصب النبيذ فوق رأسه ثم يذبح عنقه فوق قصعة تحمل إلى قمة الكومة ويصب الدم على السيف. وفي غضون ذلك ينشغل القوم بطقس آخر عند أسفل الكومة، فيأخذون عندئذ في قطع أيدي وأذرع الأسرى اليمنى، بعد ذبحهم، ثم يطوحون بها في الهواء. فإذا انتهى الاحتفال تفرق المتعبدون، ومضى كل إلى مقصده، تاركين الأيدي على الأرض، حيث سقطت،

مبتورة عن أجسام أصحابها. و السكيث لا يقدمون الخنزير في قرابينهم، بل وليس في البلاد من يقوم بتربيته، إطلاقاً.

ومن تقاليد الحرب عندهم أن يشرب الرجل دم أول من يقتل كذلك جرت العادة على أن تحمل رؤوس أعدائهم القتلى إلى الملك؛ والجندي الذي يأتي برأس نصيب من غنائم الحرب؛ وإذا لم يأت برأس فقد نصيبه من الغنيمة. وأسلوبهم في معالجة الرأس أن ينزعوا الجلد عن الرأس بشق دائرة عند كل أذن، يعمدون بعدئذ إلى هزه حتى تنفصل عنه الجمجمة، ثم يقومون بسحل الجلد بضلع ثور، ويسوونه بأصابعهم حتى يصبح طرياً، ويجعلون منه ما يشبه المنديل يزينون بما يجتمع لديهم من هذه المناديل لجام الحصان؛ وفي ذلك مدعاة للزهو والفخر. وأفضل الرجال عندهم من فاق سواه في امتلاك العدد الأكبر من هذه المناديل. وهناك كثير من السكيث يخيطون فروات الرأس إلى بعضها بعضاً في شكل عباءة كالتي يرتديها الفلاحون، بل وكثيراً ما يسلخون الكف الأيمن والذراع اليمنى لأعدائهم وينزعون منها الأظافر لتكون غطاء لكناناتهم، بعدما اكتشفوا ما يتميز به جلد الإنسان من المتانة واللون الأبيض، كأي جلد آخر تقريباً، بل إنهم يقومون أحياناً بسلخ جلد الآدمي كله ويشدونه إلى إطار من الخشب يحملونه معهم في ركوبهم. ولهؤلاء القوم طريقة خاصة في معالجة الجمجمة ذاتها ـ ولست أقصد بذلك كل الجماجم، وإنما جماجم ألد الأعداء، على وجه الحصر؛ فيقومون بنشر الجزء الذي يلي الحواجب وتنظيفه مما بقي فيه، ثم لف الجزء الظاهر بقطعة من الجلد يشدونها إليه وإذا كان الرجل فقيراً اكتفى بذلك الإجراء. أما إذا كان غنياً فيزيد بأن يطلي داخل الجمجمة بالذهب. وتستخدم الجمجمة في مطلق الأحوال في الشرب. وتعالج جماجم الأقارب بالطريقة ذاتها، وفي الحالات التي يهزم فيها الرجل في شجار أمام الملك. وتعرض هذه الجماجم أمام كبار الزائرين، ويأخذ المضيف في الإخبار عن أصحابها، وقد كانوا من أقاربه ذات يوم فانقلبوا عليه وقاتلوه، واستطاع أن يغلبهم في القتال، وما هذه

الجماجم، إذن، إلا الشاهد على شجاعته. ومن عادات القوم أن يدير الحاكم في كل إقليم من البلاد الشراب مرة كل عام، وشرعته أن لكل رجل من السكيث قتل رجلاً في معركة نصيباً من الدن؛ وذلك حق لا يشارك فيه من لا يقدم دليلاً على قتل عدو في المعركة، فلا يسمح لمثل هذا أن يقرب النبيذ، بل إن العرف يقضي بأن يجلس في مكان قصي مجللاً بالعار، بين أقرانه - وفي ذلك مهانة ما بعدها مهانة. أما من كثر قتلاه من الأعداء فعلى العكس من ذلك، إذ إن له أن يتناول الشراب من كأسين في آن واحد.

ويكثر العرافون في بلاد السكيث، وأسلوبهم في العرافة رمي عصي من أغصان شجر الصفصاف. فيأتون بعصبة كبيرة من تلك الأغصان ويضعونها على الأرض؛ ثم يفككونها عن بعضها ويفرشون كل عصا على حدة، وينطقون عندئذ بنبوءتهم، وفيما هم في ذلك يأخذون في حزم الأعواد في حزمة واحدة كما كانت من قبل. وهذا أسلوب العرافة الخاصة بالسكيث؛ ولكن للنساء - الرجال، ويطلق عليهن اسم «الإناري» أسلوب آخر في العرافة، ويزعمن أنهن تلقينه عن أفروديت، ويقوم هذا على أخذ قطعة من داخل لحاء شجرة الزيزفون وتقطيعها إلى ثلاث، ثم عقدها حول أصابعهن وفكها بعدئذ مراراً وتكراراً بينما العرافة تنطق بنبوءتها.

وحينما يصاب ملك السكيث بمرض يبعث في طلب ثلاثة من العرافين المشهورين بصدق النبوءة، فيأخذون للتو في ممارسة فنونهم؛ وغالباً ما ينحصر كشفهم بعزو المرض إلى قسم كاذب بحياة الملك - والقسم بحياة الملك شائع في المنازعات في بلاد السكيث. فيأمر الملك بعد هذه النبوءة بإحضار الفاعل الآثم للمثول أمامه، فيوجه العرافون اتهامهم له بعد الكشف بقدراتهم السحرية عن فعلته بالقسم كذباً بحياة الملك، وهو السبب في مرضه. فينكر الرجل التهمة، طبعاً، ويجادل العرافين ويشتد في الجدل، فلا يكون من أمر الملك إلا أن يستدعي مزيداً من العرافين، ويكون عددهم ستة بدلاً من ثلاثة، ليأتوا بمهاراتهم

أمامه. فإذا جاءت عرافتهم بإدانة المتهم قطع رأسه بلا جدل، وقسمت ثروته بين العرافين الثلاثة الأوائل؛ أما إذا برأه الستة الجدد، أمر الملك باستدعاء المزيد من العرافين، ثم المزيد منهم، فإذا بلغ الأمر النتيجة النهائية وقالت الأغلبية ببراءة الرجل، كان حكم القانون أن يعدم العرافون الثلاثة الأول. وأسلوب القوم في الإعدام هو التالي: تربط عربة يملؤونها بالعيدان إلى ثورين، ويوضع أصحاب الجريمة، مقيدي اليدين والرجلين بين تلك العيدان ويشعلون فيها النار، فتذعر الثيران من مشهد النار فتنطلق جارية. وغالباً ما تموت تلك الثيران في الحريق، ومعها العرافون. وإن كان الأمر يقتصر في أغلب الأحيان على احتراق محور العربة، فينجو هذا المحكوم من موت محقق ببعض الحروق. والموت على هذا النحو هو جزاء الدجال من العرافين ويسمونه المتنبئ الكذاب حين يرتكب جرائم أخرى غير هذه التي أتيت على ذكرها. ولا يسمح الملك لأبناء العرافين بالإفلات، حين يحكم على آبائهم بالموت، فيساقون إلى الموت كذلك؛ وهذا القانون يسري على الذكور وحدهم، أما الإناث فلا يمسهن أحد بأذى.

وقد جرت العادة على أن يوثقوا العهود والاتفاقات بشرب الطرفين النبيذ الممزوج بقليل من دمهما، ويكون خروج الدم بوخزة من دبوس أو مخرز أو بشق بسيط من سكين؛ ثم يغطسان في الدن سيفاً وبعض السهام وفأساً حربية ورمحاً قصيراً، ويتلوان بعض الصلوات؛ وفي النهاية يتناول كبار الأتباع من كلا الطرفين هذا المزيج من النبيذ والدم.

تقع مدافن ملوك السكيث في بلاد جرهي، قريباً من المكان الذي تبدأ فيه الملاحة في نهر بوريستنيس وقد جرى السكيث على حفر حفرة عظيمة مربعة الشكل، عندما يصاب الملك بالمرض، وينقلون جثمانه، بعد تهيئته على نحو ما سأذكر ههنا: يشق البطن وينظف من الأحشاء، ويملأ بعدئذ بمختلف المواد العطرية، ومسحوق نبات الخولنجان والبقدونس واليانسون؛ ثم يخاط البطن ويغطى جسد الميت كله بالشمع، ويحمل، على هذه الحالة، بعربة إلى قبيلة

مجاورة تقيم على أراضي السكيث، فتقوم هذه بنقله بدورها إلى قبيلة أخرى، وهكذا كل بدوره، وتستقبله العشائر على عادة الملوك السكيث بقطع أجزاء من آذانهم وحلاقة الشعر، وشق الذراعين محدثين جراحاً مستديرة فيها، وضرب الجباه والأنوف حتى تسيل منها الدماء، وغرز السهام في كفهم الأيسر. وطوال الطريق تنضم القبائل التي سارت الجنازة في أراضيها إلى القافلة حتى تبلغ في النهاية موقع الدفن في أرض الجرهي، وهي القبيلة التي تعيش في أقصى الشمال من بلاد السكيث. وهنا يسجى جثمان الميت في القبر، على محفة، فتنزل على لوح من خشب الصفصاف تسنده الرماح المثبتة على الطرفين؛ وفي هذه الحفرة الهائلة يدفن جثمان الميت، وإلى جانبه عدد من أهل بيته، ومنهم إحدى محظياته وخادمه الشخصي وطباخه وسائسه وحاجبه. ـ فهؤلاء ينتهون جميعاً بالخنق كذلك تدفن مع الملك جياده وكؤوسه الذهبية (لا يستخدم السكيث الفضة أو البرونز) ومجموعة من كنوزه الأخرى، وإذا انتهت مراسم الدفن تدافع الحاضرون إلى ردم الحفرة وإقامة تلة فوقها، وكل منهم يتبارى ورفاقه في نقل الركام فوقها لتزداد علواً. وبعد عام يجري احتفال آخر، فيأخذ السكيث خمسين نفراً من باقي خدم الملك الراحل ويقومون بخنقهم وإفراغ جوفهم من الأحشاء، ثم يحشون الجوف بالتبن ويخيطونه من جديد ـ وهؤلاء الخدم من السكيث؛ ذلك أن الملك لا يشتري خدمه، وإنما ينتقيهم من بين رعاياه. ثم يأخذون خمسين حصاناً، فيقتلونها خنقاً ويعالجونها بمثل ما عالجوا الخدم قبلها. وتكون الخطوة التالية بعدئذ، قطع عدد من الدواليب من الوسط، ويثبتونها أزواجا مقلوبة على أوتاد صلبة على الأرض، ثم يدفعون الأوتاد المستقيمة في مؤخرة الجياد حتى تخرج من العنق، وهي مشدودة إلى تلك الدواليب، بحيث يحمل الدولابان الأماميان الكتف، بينما يحمل الدولابان الخلفيان الأفخاذ، وتكون الأرجل الأربع بذلك مرفوعة متأرجحة فوق الأرض، والحصان بكامل عدته من اللجام والسرج، فيقاد من شكيمته إلى الدواليب ويثبت عليها. كذلك تكون معالجة أجسام

الرجال: تدفع الأوتاد المستقيمة عبر الرقبة وبموازاة العمود الفقري ويكون رأسا الوتد السفليان البارزان متناسبين مع ثقوب آلة التعذيب المارة بالحصان؛ وهكذا يكون لكل حصان خادم فتي ليمتطيه. وحين يتخذ الفرسان والأحصنة مكانهم عند القبر يغادر الحزانى الموقع. أما عامة الناس فقد جرت التقاليد على أن يصطحب أهل الميت الجثمان في عربة ويدورون بها على الأصدقاء، فتقوم أسرهم باستضافة القادمين بتقديم الطعام لهم هم والميت سواء بسواء، ويستمرون في ذلك أربعين يوماً، ثم يدفنون الميت. وبعد إتمام الدفن ينصرف السكيث إلى الاغتسال، فيغسلون رؤوسهم بالصابون، وأبدانهم بالبخار، على نحو ما أصف هنا: تنصب خيمة من ثلاثة أوتاد متعارضة وتنشر فوقها قطعة من نسيج الصوف، موصولة الأطراف على أكمل وجه، ويوضع وسط هذه الخيمة الصغيرة أحجار حارة متقدة. ويحضرني هنا أن القنب ينمو في بلاد السكيث، وهو نبات طويل الفرع يشبه شكل القارورة، إلا أنه أخشن ملمساً وهذا النبات بري، كما أنه يزرع، والتراقيون يصنعون منه نسيجاً شديد الشبه بالكتان - والحق أنه لا يمكن إلا للخبير أن يميز بينهما، حتى ليمكن لمن يرى قماش القنب أن يحسبه كتاناً. ويعمد السكيث في حمامهم إلى إلقاء بذور القنب فوق الحجارة الحامية، في الخيمة فينبعث منها دخان يؤدي إلى انتشار بخار لا يضارعه أي بخار في أي حمام من حمامات بلاد الإغريق. والسكيث يستمتعون بهذا الحمام أشد الاستمتاع، وتبلغ بهم المتعة إلى أنهم يأخذون، عند انتشار البخار في إطلاق صرخات النشوة. وهذا الحمام بديل الحمام المألوف لأن السكيث لا يستخدمون الماء في الاستحمام. أما النساء فمن عاداتهن طحن الصنوبر والأرز واللبان بوساطة حجر خشن، ثم يمزجن المسحوق بقليل من الماء فيصبح معجوناً سميكاً يدهن به أجسامهن ووجوههن، ويدعنه مدة يوم، وتصبح بشرتهن عندئذ ناعمة الملمس وبراقة طيبة الرائحة.

إن السكيث ينفرون، كالمصريين، من العادات المستوردة، وخاصة أساليب

الإغريق، أشد النفور. والمثال على هذه الكراهية للعادات الغريبة عنهم ما أصاب أنكارسيس ـ وسيلاس بعده. فقد كان انكارسيس رحالة عظيماً وعالماً يشهد على سعة اطلاعه الكثيرون في مختلف بلدان العالم، وصدف أن كان ماراً بهيلسبونت(٨) في طريق عودته من إحدى رحلاته إلى بلاد السكيث، فتوقف في سيزيكوس. ووجد الناس يومئذ يحتفلون بعيد أم الآلهة، فتأثر الرجل بما رأى من روعة الاحتفال وأخذ على نفسه عهداً بأن يكرم الآلهة بإقامة مثل هذا الاحتفال الذي شاهده في سيزيكوس، إن عاد إلى بلاد السكيث سليماً معافى. فلما وصل إلى تلك البلاد دخل أرض الغابات، تلك الغابة الحافلة بكل أنواع الشجر والقريبة من مضمار أخيل، وأخذ عندئذ يؤدي الطقوس، كما نذر، وهو يقرع الطبل ويزين ملابسه بصور الآلهة. وصادف أن شاهده أحد السكيث وهو منهمك في تلك الشعائر، فمضى للتو وأخبر ملك السكيث ساوليوس بما رأى وشاهد. فذهب ساوليوس ليشهد مابلغه عن انكارسيس، فلما شاهده يؤدي تلك الطقوس الغريبة أرسل إليه سهماً، فقتل لساعته. ومازال السكيث حتى اليوم ينكرون معرفتهم حتى باسم أنكارسيس، إذا ما سألهم أحد عنه ـ وكل ذلك بسبب سفره إلى بلاد الإغريق واتخاذه عادات الأجانب. ولقد أخبرني تيمنز، ممثل الأريابيث، أن أنكارسيس هذا عم ملك السكيث ايدانثيرسوس، وابن جنورس، وحفيد ليكوس، وابن حفيد سارجبتيس. فإذا صح هنا القول، وكان الرجل ابن هذه الأسرة، فإن قاتله هو أخوه؛ ذلك أن ايدانثيرسوس بن لساوليوس. ولأنكارسيس قصة غير هذه يروونها عنه، وقد سمعتها في الجزر البيلوبونيزية، ومفادها أن ملك السكيث أوفده ليجمع له ما أمكن من أخبار الإغريق، فلما عاد وصف للملك الإغريق بأنهم قوم تشغلهم الحياة عن تحصيل العلم، عدا اللاكيديمونيين؛ فهؤلاء هم الشعب الوحيد بين الإغريق الذي يستطيع أن يتابع حديثاً ذا مغزى. ولكن هذه الحكاية من سخافات الإغريق، ولا سند لها من الصحة؛ إذ إن حقيقة الأمر هي أن أنكارسيس قتل على النحو الذي وصفت،

لاتصاله بالإغريق واتخاذه العادات الغريبة عن قومه.

ولقد جاء سيلاس بعد سنوات طوال ليعاني مثل تلك الفاجعة. كان سيلاس أحد أبناء ملك السكيث أريابيثيس، وعلمته أمه التي لم تكن من أهل البلاد، وإنما قدمت إليها من استيريا (المستوطنة الإغريقية التي أنشأها الميليسيون على البحر الأسود)، ودربته على المحادثة بالإغريقية وقراءة الخط الإغريقي.

ولقد مضت السنون والملك قائم على ملكه حتى اغتال ملك الأجاثيرس سارجبتيس بمكيدة، فخلفه سيلاس وتزوج زوج أبيه وتدعى أوبييا، وكانت من السكيث، وقد ولدت له ولداً، يدعى أوريكوس. ووجد سيلاس نفسه تضيق، بسبب مما تلقاه من التربية والتعليم على يدي أمه، بأساليب حياة السكيث التقليدية، وتنجذب إلى أفكار الإغريق وتأثر بها أشد التأثر. ولذلك جرى الرجل على أن يزور مدينة البوريسينتيين، ويزعم هؤلاء أنهم قدموا أصلاً من ملطية. كلما خرج بجيشه، فيدع جنوده يقيمون معسكرهم خارج أسوارها، ويدخلها هو وحيداً. وكانت أبواب المدينة تغلق عند دخوله، ويستنفر أهلها ويبثون الأرصاد لمنع أي من السكيث من مشاهدة الملك، وقد بدل ملابسه بزي الإغريق وأخذ يتجول في شوارع المدينة دون حارس أو مرافق، ويشارك في الشعائر وطقوس الدين، ويسلك مسلك الإغريق في كل ما يتصرف. وكثيراً ما كان يمضي شهراً أو أكثر قبل أن يعود إلى سابق عهده فيرتدي زي السكيث ويقفل راجعاً إلى بلده. وكان سيلاس يكثر من تلك الزيارات، وابتنى لنفسه داراً في مدينة البوريسينتين، وتزوج امرأة من الجوار لترعى له البيت. لكن الأقدار شاءت له أن ينتهي نهاية تعيسة، كما سيتبين من تعاقب الأحداث. فقد راودت سيلاس رغبة بأن يتدرب في أسرار الديانة الديونيسية، فلما كان يوم الترسيم وفيما كانت الطقوس في بدايتها حدث خطب جلل، إذ أصابت صاعقة من السماء الدار التي ابتناها سيلاس لنفسه، وكانت داراً فسيحة زينها بأحسن الرياش وأعظم التماثيل من المرمر، وهي تصور العنقاء والجرافين، الأسد المجنح، فاحترقت. ومع ذلك فقد

تابع سيلاس طقوس الترسيم حتى النهاية.

ولا بد من الإشارة إلى أن السكيث يرون في طقوس الديونيسية التي يأخذ بها الإغريق أمراً منفراً يدعو للخجل؛ ولن تجد أحداً من السكيث يقبل بأن يتخيل إلهاً يدفع الناس إلى الجنون. وصادف في ذلك اليوم، حين رسم سيلاس وأصبح من أتباع الديانة الديونيسية، أن خرج أحد البوريسنطيين إلى السكيث المعسكرين خارج المدينة وأخبرهم بما كان يجري داخل الأسوار: «إنكم تسخرون منا، لأن روح ديونيسوس تتملكنا حين نؤدي الشعائر لها. إذن فاعلموا أن هذه الروح قد تملكت ملككم، وهو الآن تحت تأثيرها - إن ديونيسوس قد دفعه إلى الجنون. وما عليكم، إن لم تصدقوا قولي، إلا أن تأتوا معي لتروا بأم أعينكم حقيقة ما أقول.»

فقبل كبار السكيث عرض الرجل. وذهبوا معه إلى المدينة متسللين، وقبعوا في أحد الأبراج يرصدون ما يجري بين الناس. ولم يطلل بهم المقام حتى رأوا سيلاس يمر بصحبة جماعة، وهم في لهو وعبث، فانتابهم ضيق شديد لما شاهدوا وسمعوا؛ وكان أن انسحبوا عائدين إلى معسكرهم، وهناك أخبروا جنودهم بالنبأ العظيم.

وكان سيلاس على وشك العودة إلى بلده، بعد انتهاء زيارته مدينة البوريسينتين، حينما بلغه أن السكيث أعلنوا الثورة عليه. ونصبوا أخاه أوكتامساديس سبط تيريس. ولما علم سيلاس بالخطر الذي يتهدده وسبب الاضطرابات التي اندلعت، عمد للهرب إلى تراقيا. وكان أن عبأ أوكتامساديس جيشه وسار به إلى تراقيا، عند نهر الإيستر (الدانوب)، وهناك أدركه جيش التراقيين وكاد القتال أن ينشب بينهما الجيشين، لو لم يتدارك الأمر سيتالسيس برسالة إلى أوكتامساديس يقول فيها ما معناه: «علام لجوؤنا أنا وأنت، للسلاح؟ فأنت ابن أختي، وأخي سجين لديك، فسلمه لي، وأنا أعطيك سيلاس مقابله، وبذلك نتجنب كلانا التضحية بجيشينا». فرد عليه أوكتامساديس، الذي كان قد

أجار أحد إخوة سيتالسيس وجعله في حماه، وأبلغه بقبول العرض. وكان أن سلم خاله إلى أخيه مقابل سيلاس. فأخذ سيتالسيس أخاه وانسحب وجيشه؛ أما أوكتامساديس فإنه ما إن تسلم سيلاس حتى قطع رأسه في التو واللحظة. وإذن، فقد علمتم من هاتين الروايتين مبلغ حرص السكيث على عاداتهم وتقاليدهم، كما علمتم مدى شدتهم في عقاب من يأخذ بعادات الأجانب.

ولست أعلم كم يبلغ تعداد السكيث على وجه الدقة؛ فما بلغني عن عددهم يختلف باختلاف الرواة. فقد حدثني بعضهم فقالوا إنهم شعب عظيم العدد؛ وذهب بعضهم إلى القول بأنهم قلائل. وها إني أخبركم بما شاهدت بأم العين في تلك الأصقاع حيث مقامهم: هناك في تلك البقعة من الأرض بين نهر البوريثنيس (الدنيبر) والهيبانيس (البوج)، والمعروفة باسم الإكسامبايوس؛ وقد سبقت الإشارة إليها في الحديث عن النهر المالح والذي يصب في البوج، ويجعل ماءه في تلك الناحية كريه المذاق، دن من النحاس الأصفر يبلغ حجمه ستة أضعاف الدن الذي أقامه بوسانياس بن كليومبروتوس عند مدخل الأوشينة (البحر الأسود)، ولعل من لم ير دن بوسانياس يستطيع أن يتصور حجمه بخياله حين أقول إنه يتسع لستمئة امفواري (مايزيد عن ٥٠٠٠ جالون) وسماكته بعرض ستة أصابع وقد روى لي أهل المنطقة قصة هذا الدن، فذكروا أن أحد ملوكهم، ويدعى أريانتيس أراد أن يحصي رعاياه، فطلب إليهم، وهو يتألم على فراش الموت، أن يأتوه بنبلة عن كل فرد، فتجمعت لديه كومة هائلة من النبال، فأمر بأن يكون منها نصب يخلد ذكراه، فكان هذا الدن. وهذا مبلغ علمي عن عدد السكيث.

إن تلك البلاد خالية من كل ما يدعو للاهتمام، سوى الأنهار، وهي أكثر وأكبر من كل الأنهار التي تزخر بها البلدان الأخرى، مما هو جدير بالملاحظة، فضلاً عن اتساع رقعة البلاد ذاتها أن في بلاد السكيث صخرة تحمل طبعة قدم هرقل، وهي بصورة قدم بشرية، لولا أنها تبلغ مقدار ذراعين طولاً. وهذه الصخرة قائمة بالقرب من نهر التيراس. أما وقد أتممت وصف تلك البلاد فإني

أعود إلى الموضوع الذي كنت قد أردت البحث فيه في بداية الحديث.

كان داريوس قد بدأ الإعداد لحملته ضد السكيث، فبعث رسله إلى جميع البلدان التابعة له حاملين معهم الأوامر من الملك، فيطلب من بعضهم تجهيز الجيوش بالجنود، ومن بعضهم تزويده بالسفن، ومن بعضهم الأخر تأمين العمال لبناء جسر فوق البوسفور. وبينما كانت الاستعدادات للحملة جارية على قدم وساق حاول أخوه ارطبانوس بن هيستاسبيس إقناعه بأن يوقف حملته المعتزمة، وبين له مبلغ صعوبة مهاجمة بلاد السكيث.ولكن داريوس أعرض عن الأخذ بالنصيحة، وإن بذل أخوه في عرضها وإقناعه بسلامة رأيه. فأمسك الرجل عن التوسل بالمنطق وخلد إلى الصمت؛ ولما اكتملت عدة الحرب سار داريوس بجيشه، منطلقاً من سوسة. ويحضرني أنه كان في جيش داريوس أبناء رجل من الفرس يدعى أيوبازوس فسعى عند داريوس ليعفي أحدهم من الاشتراك في هذه الحملة، فأجابه، وكأنما يسدي خدمة بسيطة لصديق، أنه مستعد لأن يترك عن طيب خاطر، الأبناء الثلاثة في البلد. فسر أيوبازوس، لهذه المنة، إذ حسب أن أبناءه قد أعفوا من الخدمة، ولم يدر أن الملك كان قد أمر معاونيه بإعدام الفتيان الثلاثة، فأنجز بذلك وعده وخلفهم في البلد - وقد ضربت أعناقهم.

تابع داريوس زحفه من سوسة إلى خالدونية على البوسفور، حيث الجسر، ثم أبحر إلى الصخور السيانية التي لا تنقطع عن تبديل مواقعها، حسب الرواية الإغريقية، فأقام معبداً عند المضائق، ومن هناك أشرف على البحر الأسود - وهو مشهد مؤثر حقاً. فليس ثمة ما يضارع البحر الأسود روعة، وطوله يبلغ ألفاً وثلاثمئة وثمانين ميلاً، وعرضه أربعمئة وعشرة أميال عند أوسع جزء فيه وعرض مصبه نصف الميل، وبطول مضيق البوسفور ذاته. ويبلغ طول المضيق الذي يؤدي إليه (حيث كان الجسر) خمسة عشر ميلاً. ومضيق البوسفور هذا متصل ببحر بروبونتي (بحر مرمرة) الذي يبلغ عرضه ستين ميلاً وطوله مئة وسبعين ميلاً ويلتقي بالدردنيل، وهو مضيق ضيق يبلغ طوله خمسين ميلاً، إلا

أن عرضـه دون الميل، ويفضـي إلى البحر الواسع المسمى ببحر إيجة. وقد تم حساب تلك الأبعاد بالطريقة التالية: تقطع السفينة في الصيف مسافة ـ ٧٠ ألف قامة في اليوم، و٦٠ ألفاً في الليل. وهكذا تستغرق الرحلة من مدخل البحر الأسود حتى نهر الفاسيس، وهي المسافة الأطول، تسعة أيام وثماني ليال، أي ما يعادل ١١١٠٠٠ قامة، أو ١٣٨٠ ميلاً. وتستغرق الرحلة في الجزء الأعرض، أي من سينديكا إلى ثميسيرا الواقعة عند مصب الثيرمادون، ثلاثة أيام وليلتين، أي ٣٣٠ ألف قامة، أو ٤١٠ أميال. وها قد وصفت لكم البحر الأسود والبوسفور والدردنيل وأسلوب حساب أبعادها، ويبقى أن أضيف أن البحر الأسود يتصل ببحيرة واسعة قدر اتساعه تقريباً، وتعرف ببحيرة المايوتيس، أو أم البونتس (بحر آزوف).

لقد استطلع داريوس مياه البحر الأسود، ولما انتهى من جولته، ركب السفينة وقفل عائداً إلى الجسر الذي كان قد صممه له أحد أبناء جزيرة ساموس، ويدعى ماندوكليس. وبعد أن نظر فيما ينبغي عمله في البوسفور، أمر بنصب عمودين من المرمر، دون على أحدهما بلغة الآشوريين أسماء الأقوام التي شاركت في الحملة، ومثل ذلك على العمود الآخر إنما بالإغريقية. والحق أن الأقوام تلك التي شاركت في الحملة هي الأقوام التي تسكن إمبراطورية داريوس، وبلغ مجموع المحاربين من أبنائها ٧٠٠ألف جندي، بما فيهم الفرسان، ولكن باستثناء البحارة. وقد بلغ عدد السفن في هذا الأسطول ٦٠٠ سفينة. وجدير بالذكر أن أهل بيزنطة هدموا هذين العمودين، بعد سنين طويلة، استخدموا حجارتهما في بناء مذبح الإلهة أرتميس الحامية؛ ولم يبق منهما سوى قاعدة أحدهما، وقد حملت كتابة آشورية،وهي ملقاة بالقرب من معبد ديونيسيوس في بيزنطة. وأحسب أن جسر داريوس يقع في منتصف الطرق بين بيزنطة والمعبد الذي يقوم عند المضيق بين الفوسفور والبحر الأسود. سر داريوس بهذا الجسر أعظم السرور، فأغدق على مهندسه العطايا والهدايا؛ وقد

أنفق ماندروكليس نصف ما بلغه في رسم لوحة تصور بناء الجسر على المضيق وداريوس جالساً على العرش ينظر إلى جيشه وهو يعبر الموقع. وقدم المهندس اللوحة إلى معبد هيرا، وعليها هذه الأبيات تسجل هذا الإنجاز:

أيتها الآلهة تقبلي هذه الهدية من ماندروكليس

صاحب الجسر على البوسفور والبحار المليئة بالأسماك.

هذا العمل الذي حاز على رضى الملك داريوس أتى بالفخر لساموس وكلل رأسها بتاج.

ولما أتم داريوس تكريم ماندروكليس، عبر بجيشه إلى أوربا، بعد أن أصدر أوامره للأيونيين ـ وكانوا مع الأيوليين والهيليسبونت، أهل الدردنيل يتولون قيادة الأسطول ـ بان يبحروا في البحر الأسود حتى نهر الدانوب، لترسو سفنهم هناك بانتظار وصول جيشه، ومن ثم عبور النهر، ولقد صدع البحارة للأمر، فأبحروا بسفنهم وقطعوا جزر السيان وتابعوا طريقهم إلى الدانوب، واستمروا في رحلتهم مدة يومين حتى بلغوا نقطة انقسام النهر الرئيس؛ وهنا أقاموا الجسر. أما داريوس فإنه سار بجيشه بعد أن اجتاز جسر البوسفور، وتابع المسير عبر تراقيا ثم توقف مدة ثلاثة أيام عند منبع نهر التيروس، الذي يقال إن مياهه أفضل مياه في العالم، لما تتمتع به من خصائص، وخاصة في معالجة مرضى الجرب من البشر والخيل. وهذا تغذيه ثمانية وثلاثون ينبوعاً بعضها حارة وبعضها الآخر باردة، وكلها تنبع من صخرة واحدة، على مسافة يومين من هيرايوم بالقرب من بيرينثوس، وأبوللونيا على البحر الأسود. وهذا النهر من روافد نهر كنتاديسدوس، الذي يلتقي بدوره، بنهر الأجريانيس، ثم يتحد الجدولان، فيما بعد بنهر الهيبروس الذي يصب في البحر بالقرب من أينوس.

ولقد سحر داريوس بالنهر وسلبه لبه مما جعله يقيم نصباً بالقرب من منبعه، حمل هذه العبارات: «ينابيع التيروس التي زار مياهها الأروع فعلاً والأنبل مظهراً بين الأنهار جميعاً داريوس بن هيستاسبيس الأروع والأنبل مظهراً بين

الرجال جميعاً، ملك فارس والقارة كلها.

تابع داريوس زحفه فبلغ نهراً آخر هو الأرستيكوس الذي ينبع من بلاد الآودريس. وهناك أشار إلى مكان معين وأمر بأن يضع كل فرد في الجيش حين يمر به حجراً. ولما كان ذلك وجدنا أنه خلف وراءه بعد المسير تلالاً عظيمة من الحجارة.

وكان أول من قابله، قبل وصوله إلى الدانوب، الجيتاي.[9] فأخضعهم، وكانوا يعتقدون بأن الموت لا يبلغهم. أما تراقيو ساالميديسوس، وأولئك الذين يستوطنون الآراضي وراء أبوللونيا وميسيمبريا، ويعرفون بالسيرمياداي والنيبساي فقد استسلموا لداريوس دون قتال؛ ولكن الجيتاي، وهم أكثر قبائل التراقيين رجولة وانصياعاً للقانون، كانوا أشدهم ضراوة في المقاومة، ثم سرعان ما انتهوا إلى العبودية. واعتقاد هؤلاء القوم بخلودهم يتجلى فيما أنا مستعرض ههنا: الجيتاي لا يفنى حقاً، وإنما يغادر هذه الحياة لينضم إلى زالموكسيس، وهو كائن خارق، ويسميه بعضهم جبليزس. وتقضي طقوسهم بأن يختاروا من بينهم رجلاً، كل خمس سنوات، بطريق القرعة، ويبعثون به رسولاً إلى زالموكسيس لينقل إليه رغباتهم. وطريقتهم في إرسال هذا الرسول أن يقف بعضهم، وفي أيديهم ثلاثة رماح منتصبة، في موقع مناسب، بينما يحمل آخرون الرسول من يديه ورجليه، ويطوحون به في الهواء، فيقع على رؤوس الرماح، فإذا قتل كان ذلك إشارة إلى رضى زالموكسيس، أما إذا نجا الرجل عزوا ذلك إلى سوء خلقه، فيمطرونه بأقذع الكلام في وصفه، واختاروا رسولاً آخر لهذه المهمة. ويلقن هذا الرسول الرسالة، وهو على قيد الحياة. وقد جرت هذه القبيلة من التراقيين على أن يرموا السماء بسهامهم، ويرسلوا اللعنات إلى إله الرعد والبرق، حين ترعد؛ ذلك أنهم لا يعترفون بإله غير إلههم.

ولقد سمعت من الإغريق في الدردنيل والبحر الأسود قصة عن زالموكسيس غير تلك. فيروي هؤلاء أن هذا كان عبداً لفيثاغورث[10] بن منسارخوس، وقد

عاش في جزيرة ساموس، ثم أعتقه صاحبه وجمع ثروة، ورجع بعدئذ إلى موطنه في تراقيا، فوجد الناس في فقر مدقع وجهل عظيم. ولما كان قد عرف أفكار الايونيين وأساليبهم الرفيعة في الحياة لطول معاشرته للإغريق واتصاله بفيثاغورث، وهو من أعظم معلميهم، فإنه ابتنى لنفسه قاعة كان يستقبل فيها كبار القوم وسعى لأن يعلمهم أن الموت ليس مصيرهم أو مصيره أو مصير أي من أهل الجمع وأحفادهم، وإنما هم ينتقلون بعدئذ إلى أرض يرتعون فيها ويعيشون في بهجة أبدية وغبطة. وكان منهمكاً وهو يحاول صوغ هذه العقيدة المحدثة، في بناء غرفة قبو تحت الأرض. فلما انتهى البناء دخله واختفى عن الأنظار. وقد ظل الرجل في هذه الغرفة تحت الأرض مدة ثلاث سنوات فافتقده الناس وحزنوا عليه ونعوه نعي الميت؛ وفي السنة الرابعة ظهر بين الناس، وبذلك أقنع التراقيين بصدق عقيدته التي عمل على إشاعتها. أما أنا فلست أصدق هذه القصة عن زالموكسيس وحجرته تحت الأرض كل التصديق، ولا أكذبها كل التكذيب. والرجل، في اعتقادي، سابق لفيثاغورث. حسبنا على كل حال ما علمنا من قصة هذا الرجل، والجدل حول حقيقته، إن كان هناك إنسان بهذا الاسم أم أنه إله يختص به الجيتاي.

لقد دحر الجيتاي، الذين وصفت عاداتهم، على يد الفرس، وأكرهوا على مرافقة جيش درايوس الذي تابع زحفه بكامل قواته البرية. فلما عبروا النهر أمر داريوس الأيونيين بتدمير الجسر والانضمام إليه في زحفه عبر تلك البلاد مع العساكر المحمولين على ظهر السفن. ولكن بينما كان الجند يستعدون لتنفيذ الأمر وتدمير الجسر سعى كويز بن أركساندر، وكان قائد كتيبة الميتلان، إلى مقابلة داريوس، بعد أن ضمن استعداد الملك للإصغاء للآخرين وما يقترحون. فلما قابل الملك قال له: «يا مولاي، إنك على وشك أن تهاجم بلداً ليس فيه بلدة واحدة، ولا أرض تزرع. وأرى أن من الحكمة أن ندع هذا الجسر على حاله ونحكم حراسته ونعهد به إلى من بناه؛ فإن واجهنا السكيث وسواء نجحنا فيما

نحن في سبيله، أم لم ننجح، كان لدينا في هذا الجسر سبيل مأمون للعودة عن هذا الطريق ذاته. وإنني يا مولاي، لا أخشى أن يهزمني السكيث في معركة؛ إنما الخطر في رأيي ألا نصادفهم، وسوف ينتهي هذا الزحف المستمر لمقابلتهم إلى مأزق صعب. وقد يحسب من يحسب أني أعرض هذا الرأي لأفيد منه، لأتخلف لحراسة الجسر؛ ولكن هذا ليس صحيحاً؛ فإنني، يا مولاي، إنما أعرض لكم ما هو في اعتقادي أفضل خطة؛ ولا أعتزم البقاء هنا، وإنما أريد أن أكون جندياً في جيشكم، وأتقدم معه في زحفه.»

ولقد سر داريوس بنصيحة كويز هذا أعظم سرور، ورد عليه قائلاً: «تعال لمقابلتي، حين نعود إلى بلدنا بأمان، لأكافئك لمشورتك الممتازة، ياصديقي الليسبي». ثم دعا الحكام الأيونيين بعد سماعه اقتراح كويز، وعرض أمامهم شريطاً من الجلد، وبه ستون عقدة، وقال لهم: «يا رجال أيونيا! لقد عدلت عن الأوامر التي أصدرتها إليكم عن الجسر، وهي الآن ملغاة؛ وأريد منكم أن تأخذوا هذا الشريط، وعليكم أن تفكوا كل يوم عقدة من هذه العقد، بدءاً من يوم زحفي على السكيث. فإن فككتم كل العقد وقصرت عن العودة كان لكم أن تعودوا إلى بلادكم؛ ولكن عليكم الآن أن تقوموا بحراسة الجسر وفق التعديل الذي أجريته على خططي، وأن تلتزموا الحرص عليه ما وسعكم الأمر. وهذه أعظم خدمة تؤدونها لي.» ولما انتهى داريوس من عرض أوامره الجديدة أسرع بالزحف دون تأخير.

تشكل تراقيا، وهي تمتد حتى البحر، الفاصل بيننا وبين بلاد السكيث. وإذا بلغنا الساحل وجدناه ينحني في استدارة عظيمة، حيث تبدأ بلاد السكيث وجريان الدانوب شرقاً ليصب في البحر. ولسوف أعرض الآن مبلغ طول ساحل بلاد السكيث، بدءاً من نهر الدانوب: تبدأ بلاد السكيث القديمة شرق الدانوب وتستمر مع البحر الأسود الذي يشكل حدودها جنوباً حتى البلدة المعروفة باسم كارسنيتس وتنتهي بسلسلة عظيمة من الجبال التي تمتد كاللسان، وتسكنها قبيلة

التاوري، حتى ما يعرف باسم جبال خيرسونيس الصخرية، ثم تنحدر وتتصل بالبحر الشرقي، أي بحيرة مايوتيس (بحر آزوف). فبلاد السكيث يحدها من جانبين منها بحران مختلفان، أحدهما في الجنوب والآخر في الشرق، وهي في هذا شديدة الشبه باتيكا؛ ووضع جبال التاوري في بلاد السكيث شبيه بحال جبال الصونيوم من ثوريكس إلى أنافليستوس في أتيكا، إذا جازت مقارنة الصغير بالكبير، لو أن تلك الجبال امتدت بعيداً في البحر، كما هو الحال الآن، وكان سكانها عنصراً من غير الأثينين. أو كمثال آخر لمن لم يعرف البحر في هذا الموقع من ساحل أتيكا لو أن عنصراً آخر غير سكان المنطقة حالياً رسم خطاً بين ميناء بروديسيوم وتارنتوم في أيابيجيا واحتل المرتفعات، شرق هذه المنطقة.

وهذان مثلان بين أمثلة كبيرة أخرى تساق على سبيل المقارنة، مثل تشابه شكل الأرض وشبه الجزيرة التورية. والمنطقة شمال شبه الجزيرة والساحل شرقاً هي أرض السكيث أيضاً، ومثلها البلاد غرب الجانب السميري من البوسفور وبحر آزوف وحتى نهر الدون الذي يصب في الطرف الأقصى من البحيرة. ويحيط ببلاد السكيث براً، بدءاً من الدانوب، القبائل التالية: الأجاثيرس، فالنيور ثم الأندروفاج (أي أكلة لحوم البشر)، وأخيراً الميلانخلاني (ذوو العباءات السوداء). وهذه الأرض مربعة الشكل متصلة بطرفيها بالبحر؛ وأضلاع هذا المربع متساوية الطول، إن كانت في البر أم متصلة بالبحر. والمسافة بين الدانوب والدنيبر مرحلة من عشرة أيام، ومن الدنيبر إلى بحر آزوف مثلها، وإذن هي مرحلة من عشرين يوماً؛ ثم يقطع المرء مرحلة من عشرين يوماً من البحر الأسود إلى بلاد الميلانخلاني، وبلادهم هي الحدود الشمالية لبلاد السكيث. وأحسب أن المرء يقطع في رحلته مئتي فرلنج في اليوم؛ وإذن يبلغ طول كل ضلع قرابة أربعة آلاف فرلنج، باعتبار أن ضلعين من المربع يقعان على البر ومثلهما الضلعان المتجهان شرقاً وغرباً.

ولما ناقش السكيث زحف داريوس وجيشه وخلصوا إلى أنهم ليسوا قادرين

وحدهم على التصدي لتلك القوات، والمعركة بالتالي غير متكافئة، أوفدوا الرسل إلى جيرانهم يستطلعونهم الرأي. وكان زعماء الجوار قد تداعوا ووضعوا الخطط لمواجهة ما كان واضحاً أنه تهديد خطير لسلامتهم؛ وقد حضر هذا المؤتمر زعماء القبائل التالية: التاوري والأجاثيري والنيور، والأندروفاج والميلانخلاني والجيلون والبودين والسورمطاي. ويذكر أن من تقاليد التاوري تقديم بحارة السفن الغارقة وكل من يقع بين أيديهم من الإغريق على شواطئهم قرباناً للإلهة العذراء؛ وعاداتهم في التضحية أن يضربوا الضحية بالعصا على رأسه، بعد إتمام الشعائر. ويقول بعضهم أنهم يرمون بجثة الضحية من فوق الصخرة التي يقوم عليها المعبد ويعلقون الرأس على خشبة، بينما يذهب آخرون إلى أنهم لا يرمون بالجثة وإنما يوارونها التراب، وإن كانوا يتفقون مع الآخرين في أمر نصب الرأس علي عمود. أما التاوري فيزعمون أن الآلهة التي يقدمون لها القرابين هي إيفيجينيا بنة أجاممنون. وقد جرت عاداتهم على أن من يقع بين يديه أسير في الحرب يقطع رأسه، ويحمله إلى بيته حيث ينصبه على عصا، فوق السطح، بالقرب من المدخنة عادة،ويعتقدون أنها بمثابة الحارس الذي يحمي الدار التي يعلق فوقها. والحرب والسلب هما مصادر دخل هؤلاء القوم.

والأجاثير يعيشون في رفاه ويتزينون بالذهب. والنساء عندهم مشاع، ويشترك فيها الأخوة فيعيشون مع بعضهم بعضاً أسرة متحدة لا ينغص حياتهم شيء من الحسد أو الكراهية. ولكنهم يعيشون، في غير هذا، حياة شبيهة بحياة التراقيين.

أمّا النيور فيشاركون السكيث أعرافهم وتقاليدهم. وكانوا قبل جيل من حملة داريوس قد هجروا موطنهم بعد انتشار الأفاعي في أراضيهم التي غزت بلادهم من أراضيها في الشمال الخالي من السكان، حتى غدت الحياة هناك لا تحتمل، فلم يعد لهم سوى الهجرة، فاتخذوا مسكنهم مع البود. ويبدو أن هؤلاء كانوا يمارسون السحر، وشاهدنا على ذلك الراوية الشائعة بين السكيث والإغريق

المقيمين في بلاد السكيث أن النيور يتحولون إلى ذئاب مرة كل عام، ويستمرون على ذلك بضعة أيام يعودون بعدها إلى حالهم السابق. ولست آخذ بهذه الرواية على الإطلاق، إلا أنها رواية تدور بين أولئك القوم، وهم يقسمون على صدقها. والأندروفاج أشرس البشر، ولا معرفة لهم بفكرة القانون أو العدل، وهم قوم رعاة لا يستقرون في مكان؛ وملبسهم ملبس السكيث ولهم لسان غريب خاص بهم، وهم الشعب الوحيد الذي ينفرد دون باقي الأقوام بأكل لحوم البشر. ويعرف الميلانخلانيين بارتدائهم جميعاً العباءات السوداء ـ وبها يعرفون، وعدا ذلك فهم يشبهون السكيث في كل أحوالهم ونزعاتهم. والبود قوم كثير عددهم وذوو بأس وقوة، ويتسمون جميعاً بأنهم زرق العيون، شعرهم أحمر؛ وفي بلادهم بلدة تدعى جيلونص أبنيتها كلها، بيوتاً كانت أم معابد، من الخشب، ويحيط بها سور عال من الخشب كذلك، وهي مربعة الشكل، يبلغ طول كل ضلع فيها ثلاثين فرلنجا. وتضم البلدة معابد لتكريم آلهة الإغريق، وهي مزينة على نهجهم بالتماثيل والمذابح والمزارات ـ وإن تكن كلها من الخشب؛ ويقيم القوم هناك احتفالاً كل ثلاث سنوات، يعم فيه الصخب كما هو جدير بعيد ديونيسوس. ويعود احتفال الجيلون بهذا العيد إلى أصلهم الإغريقي؛ وكانوا قد طردوا من الموانئ على ساحل البحر، فاستقروا بين البود. ومازال لسانهم خليطاً، نصفه من لسان السكيث ونصفه من لغة الإغريق. أما لسان البود فمختلف تماماً، بل وثقافتهم مختلفة أيضاً عن لسان وثقافة من حولهم: فهؤلاء قوم رعاة كانوا يعيشون دائماً في ذلك الجزء من البلاد (وقد عرفوا بأكل العلق)، بينما الجيلون أهل زراعة ويأكلون القمح، ولهم حدائق، ولا يماثلون قوماً من تلك الأقوام إن في المظهر وإن في السحنة. ويخطئ الإغريق حين يجمعون بين البود والجيلون تحت اسم الجيلون فالحق هو أنهما قومان مختلفان لا جامع بينهما.

إن هذه الربوع غابة تحفل بمختلف أنواع الشجر. وهناك في الطرف الذي تكثر فيه الأشجار بحيرة واسعة تحيط بها سبخات غنية بأنواع الحشائش؛

ويسكن هذه البحيرة القندس وثعلب الماء، فتجد الصيادين يقبلون عليها سعياً وراء هذين الحيوانين، فضلاً عن حيوان آخر له وجه مربع يفيدون من جلده في صنع حواشي السترات؛ كما أنهم يفيدون من خصيته في معالجة أمراض الرحم.

أما الساوروماتاي فتروى عنهم الحكاية التالية: لما انتصر الإغريق في حربهم على الأمازونيات عند نهر الثرمدون، جمعوا ما أمكنهم من الأسيرات وأبحروا بهن في ثلاث سفن (ويسمى السكيث الأمازونيات «أويرباتا» أي قتلة الرجال، حيث تعني كلمة «أوير» عند السكيث رجل و«باتا» قتل. ولما بلغوا عرض البحر هبت الأمازونيات وقتلن آسريهن ولكنهن كن جاهلات بأمور السفن ولا يعرفن تسيير الدفة أو توجيه الأشرعة ولا التجديف بالمجداف وسرعان ما وجدن أنفسهن بعد مقتل الرجال تحت رحمة الرياح العاصفة والأمواج العالية المتلاطمة وهي تتدافع نحو الصخور على أطراف بحيرة مايوتس (بحر آزوف)، وسط بلاد السكيث الأحرار. ولقد نزلن هنا على الساحل، ثم توغلن في تلك لأرض إلى أن بلغن بقعة مسكونة؛ وكان أول ما صادفهن قطيع من الخيول كانت ترعى هناك، فأمسكن بها وامتطين ظهورها واندفعن يبحثن عن الغنائم. وكانت تلك مفاجأة، فلم يستوعب السكيث ما كان يجري على أرضهم، ولا من أين جاءت تلك النساء، فقد كان زيهن غريباً لم يعرفوا مثله، ولسانهن غير مألوف عندهم، وموطنهن مجهول لديهم. ولقد حسبوهن فتياناً فقاتلوهن دفاعاً عن ممتلكاتهم، وعرفوا بعد أسرهن أن من خالوهم فتياناً إنما هم في الواقع نساء. ولقد وفر هذا الاكتشاف لخطتهم منحى جديداً؛ وكان أن قرروا ألا يحاولوا قتل الغازيات بعدتلك اللحظة، وعمدوا من ثم إلى إرسال جماعة من أفتى شبابهم، وبعدد يماثل عدد الأمازونيات، ووجهوهم إلى أن يقيموا مخيماً لهم قريباً من معسكرهن ويرصدوا حركاتهن؛ فإن قامت الأمازونيات بمطاردتهم فما عليهم أن يقاتلوهن، وإنما وجب عليهم إخلاء الطريق أمامهن، فإذا انتهت

المطاردة عاد الفتيان إلى إقامة مخيهم قريباً منهن. ويظلون بذلك على مسافة منهن؛ وكان غرض السكيث من هذه الخطة أن يتصل فتيانهم بالأمازونيات لتنجبن لهم أطفالاً. ولقد أطاع أولئك الفتيان الأمر، وتبينت الأمازونيات أن الجوار لا يرمون إلى سوء فتغاضين عن مجاورتهم؛ وكان أن أدى ذلك إلى اقتراب المخيمين قليلاً من بعضهم بعضاً مع مرور كل يوم. وكانت الجماعتان لا تملكان من المتاع سوى أسلحتهم وخيولهم، وأسلوبهم في الحياة واحد، قوامه الصيد والنهب.

وكانت الأمازونيات[11] تنتشرن في الجوار حوالي الظهر، فرادى أو أزواجاً، للتفريج عن أنفسهن، فلما لحظ فتيان السكيث منهن هذا المسلك أخذوا في تتبعهن، حتى كان أن وقع أحدهم ذات يوم على إحداهن، وقد انفردت عن صاحباتها، فأخذ يتحرش بها، فلم تمانعه واستسلمت له، ثم حدثته مشيرة (كان حديثهما بالإشارة لجهلهما بلغة بعضهما) بأن يعود وأحد أصدقائه في الغد، موضحة بجلاء أن المنتظر أن يكونا اثنين في الموعد، لأنها ستأتي بإحدى صديقاتها معها. ثم كان أن غادر الفتى، ومضى ليخبر أصدقاءه بما حدث في اليوم التالي اصطحب معه في الموعد المحدد صديقاً ليقابل فتاته وصاحبتها في البقعة ذاتها التي التقيا فيها، فوجدا صاحبته الأمازونية ومعها فتاة أخرى ولما علم بقية الفتيان السكيث بما أصاب رفيقاهما من النجاح في حمل الأمازونيات على الاستسلام لهما أخذوا يسعون مع بقية الجمع، ففاز كل منهم بواحدة. فانضم المخيمان إلى بعضهما وبدأت معاشرة السكيث للأمازونيات وأصبح لكل فتى امرأة استهوته فكان لها مقام الزوج. ولقد صادف القوم صعوبة في تعليم الفتيان لغة نسائهم، إلا أن تعلم لغة السكيث كان أيسر على النساء؛ ولما حانت لحظة كان التفاهم ميسراً بينهم، بادر الفتيان إلى عرض اقتراحهم، فقالوا لنسائهم: «إن لدينا أهلاً وأملاكاً، فلندع هذا النهج الذي ننهج الآن، ولنعد إلى مرابعنا ولنعش بين قومنا ولسوف نتخذكن زوجات، ولا نشرك معكن نساء أخريات». وردت الأمازونيات على لسان واحدة منهن: «ما كان لنا ونساءكم أن

نعيش معاً؛ فأسلوبنا في الحياة وأسلوبهن على طرفي نقيض. فنحن نركب الخيل والعربات، وعملنا بالقوس والرمح، ولا نعرف شيئاً من أعمال النساء؛ وليس في بلادكم امرأة ذات دراية بهذه الأمور ـ فنساؤكم يلزمن البيت، حيث تقيمون، وشغلهن واجبات المرأة ولا يخرجن للصيد أو أي أمر آخر. وإذن، فما كنا لنوافق على مثل هذا الأمر. أما إذا شئتم أن تتخذونا زوجات لكم، ويكون مسلككم مسلك الرجال الشرفاء، فامضوا إلى أهلكم وخذوا مالكم، ثم يكون لنا أن نعيش حياتنا الخاصة». ولقد وقع هذا الرأي موقعاً حسناً عند الفتيان، فمضوا إلى أهلهم، فلما عادوا، وكل يحمل نصيبه من ثروة أهله، قالت الأمازونيات: «الحق أننا نفزع من الاستقرار هنا، فقد عسفنا كثيراً، وأنزلنا ضرراً كبيراً بالبلاد بسبب إغاراتنا، ثم إننا سلبناكم من أهلكم. فاسمعوا، إن شئتم أن تتخذونا زوجات لكم كان الأجدر أن نغادر هذه الأرض ونستقر في مكان ما بجانب التانيس (نهر الدون)». ولقد رضي شباب السكيث مرة أخرى بما شاعت لهم الأمازونيات، فكان أن قطعوا الدون، ومضوا في طريقهم شرقاً طوال ثلاثة أيام أخر من بحيرة مايوتيس (بحر آزوف) إلى أن بلغوا المكان الذي يقيمون فيه الآن، ومازالوا عليها، ونساء السورمطاي مقيمات على قديم عاداتهن إلى اليوم، فيركبن ظهور الخيل للصيد أحياناً، ويخضن المعارك دون أزواجهن أحياناً، ويرتدين على عهدن ملابس الرجال، ولسان هؤلاء القوم هو لسان السكيث، إنما تشوبه الشوائب، بسبب من عجز الأمازونيات عن إتقان هذا اللسان، وللزواج عندهم قانون يحرم زواج الفتاة حتى تقتل عدواً في معركة؛ ولذلك ترى بعض نسائهم يتقدم بهن العمر ويشخن ثم يطويهن الموت دون أن يتزوجن لتقصيرهن في تحقيق هذا الشرط.

تلكم هي، إذن، الأقوام التي اجتمع رؤساؤها للتداول في هذا الخطر الذي يتهددها جميعاً؛ وأمام هؤلاء نقل مبعوثو السكيث أخبار عبور ملك الفرس البوسفور إلى أوروبا بعد أن اجتاح القارة كلها، وباتت تراقيا تخضع له،

وانشغاله الآن بإقامة جسر فوق الدانوب، وهدفه أن يصبح سيد أوروبا وقال لهم أصحاب هذه السفارة في نهاية الخطاب: « قد جئناكم راجين ألا تقفوا على الحياد في هذا الصراع، وتدعوننا نواجه الدمار دون أن تمدوا لنا يد العون. والحري أن نتفق على خطة للعمل معاً ونواجه الغزاة مجتمعين. أما إذا أعرضتم عن مؤازرتنا فليس لنا إلا الرضوخ أمام الضغط الطاغي فإما أن نترك بلدنا أو نرضخ لشروط العدو. فماذا عسانا نفعل إن لم تسرعوا إلى معونتنا؟ وبعد، فإنكم إن تنحيتم جانباً لن تسلموا من أذى المغيرين، بأي حال؛ فهذا الغزو يستهدفكم،ولن يوفركم وأنتم تنشدون السلامة؛ فإن غلبنا الفرس لن تجدوهم يدعونكم وشأنكم، دون أذى. وإليكم الدليل الواضح على صحة ما نقول: فلو كنا نحن هدف هجوم الفرس وحدنا انتقاماً لأمر عرض قديماً يوم استعبدنا بلادهم لمضوا إلى بلادنا مباشرة دون أن يمسوا أياً من الشعوب الأخرى في طريقهم. ولو كان هذا هو حالهم لوضح للجميع أنهم يقصدون السكيث، وبلاد السكيث وحدها؛ ولكن الحال هو أنهم ما إن عبروا الحدود إلى أوروبا حتى أخذوا يخضعون كل أمة يمرون بأرضها. وحسبكم ما وقع للتراقيين، بل إنهم لم يوفروا جيراننا الجيتاي، فأخضعوهم جميعاً لأمرهم.

وبعد أن استمع الزعماء المجتمعون لعرض وفد السكيث أخذوا يتداولون فيما بلغهم من الأخبار، فلم يتوصلوا إلى رأي يجمعون عليه. وكان أن اختار الجيلون والبوديين والساوروماتاي مناصرة السكيث، أما زعماء القبائل الأخرى، أي الأجاثير والنيور والأندروفاج والميلانخلانيين فكان ردهم التالي: «كنا نراكم محقين في طلبكم لو أنكم لم تكونوا المعتدين على الفرس، ولكن الحق هو أنكم غزوتم فارس ولم ترجعوا إلينا في الرأي؛ ولبثت تلك البلاد في حوزتكم ماشاء الإله لكم أن تظلوا فيها، وها هو ذا الإله ذاته يدفع الفرس ليردوا لكم ما سلف بذات العملة. أما نحن فلم ينالوا منا يومذاك أي أذى، ولن نكون نحن البادئين اليوم بإثارة مشكلة. ولكن إذا ثبت لدينا أنهم يقصدون العدوان وقاموا بغزو

بلادنا فإننا طبعاً سنبذل كل جهد لطردهم منها؛ إلا أننا سنظل حتى ذلك الحين ملتزمين بمواقعنا ولن نأتي بأمر. فهذا الغزو في رأينا لا يستهدفنا، ولأنكم أنتم من بادر بالعدوان».

ولقد نحا السكيث حين بلغهم هذا الجواب، ووجدوا تلك الأقوام تعرض عن مناصرتهم، إلى تفادي الصدام المباشر، فاختاروا الانسحاب من مواقعهم وسد الآبار وقطع مياه الينابيع التي تروي المراعي. ثم مضوا في تنظيم قواتهم في فرقيتن، فجعلوا على رأ س الأولى سكوباسيس وانضم إليها السورمطاي، وكانت الخطة الموضوعة لها أن تنسحب، إذا ما هاجمها الفرس، على امتداد شاطئ بحر آزوف نحو نهر الدون، والهجوم على الفرس عند انسحابهم. إذن فهذه إحدى الفرقتين وهذه خطة عملها. وأما خبر الأخرى فهو أنها كانت تضم مجموعتين ـ الأولى وهي الأكبر فكانت بقيادة ايدانثيرسوس، والثانية تولاها تكساجيس وكان عليهما أن تحشدا قواتهما، وتلتحق بهما قبيلتا الجيلون والبود، وتقوم خطة عمل هذه القوات على الانسحاب شأنها شأن الفرقة الأولى، أمام تقدم الفرس وتبقى على بعد مسيرة يوم واحد منهم، وتطبق الاستراتيجية ذاتها بالانتقال إلى الهجوم عند انسحاب القوات الغازية. وكان على هذه الفرقة أن يكون انسحابهما نحو أراضي الأقوام التي رفضت التحالف مع السكيث، والقصد من ذلك استدراجها إلى الحرب رغماً عنها، إذا لم تشأ خوضها بملء إرادتها، ثم تقوم هذه الفرقة الثانية بالانسحاب إلى أرضها وتنتقل للهجوم، حين تجد الوضع يفرض عليها القتال.

ولما حسم السكيث الأمر واعتمدوا هذه الخطة مضوا للقاء داريوس، وزجوا لهذا الغرض أفضل فرسانهم في المقدمة. أما العربات التي يتخذونها بيوتاً لإيواء نسائهم وأطفالهم فوجهوها للمسير وقطعان ماشيتهم إلى الشمال لتكون في انتظارهم، إن دعت الظروف لانسحابهم. وكان أن اتصلت طلائع الفرسان بالفرس في منطقة تقع على مسيرة ثلاثة أيام من الدانوب، ثم أقاموا معسكرهم

على بعد يوم واحد، فعملوا بالمنطقة تخريباً وتدميراً. أما الفرس فقد أخذوا في مطاردة الفرسان حالما ظهروا أمامهم، وظلوا يطاردونهم، بينما استمر هؤلاء في الانسحاب أمامهم.وقد أصبح زحف الفرس ضد الفرقة الأولى في جيش السكيث، بقيادة سكوباسيس، موجهاً بالتالي نحو الشرق، باتجاه الدون. فقام السكيث بعبور النهر، والفرس في إثرهم، حتى دخلوا بلادالسورمطاي وتجاوزوها إلى بلاد البود وصادفوا في طريقهم بلدة جيلونص المنيعة والمبنية بالخشب، فوجدوها خالية من المدافعين، فأحرقوها.

وكان الفرس طوال تلك المسيرة، وما داموا في بلاد السكيث والسورمطاي، لا يأتون بأي شر، لأن تلك الأصقاع كانت في الواقع أرضاً مقفرة ليس فيها ما يمكن تدميره. ولما تم حرق المدينة تابع الفرس اقتفاء أثر عدوهم وجدُّوا في مطارته، حتى بلغوا الأرض الفسيحة التي تقع وراء بلاد البود، وعرضها مرحلة سبعة أيام، وفي الطرف القصي من تلك الأرض بلاد التيسجطاي التي تنبع منها الأنهار الأربعة العظيمة الليكوس والأواروس والدون والسيرجيس، وهي تمر ببلاد الميوطاي وتصب في بحر آزوف.

ولما بلغ داريوس هذه الأرض الخالية من السكان، أقام معسكره على ضفاف الأواروس، وشرع في بناء سبعة حصون ضخمة يفصل بين الحصن والآخر ثمانية أميال، وكانت آثارها ما تزال قائمة في أيامي. ولقد عمد السكيث إلى تغيير اتجاههم، في حركة واسعة وعبروا البلاد في الشمال عائدين إلى بلادهم، واختفوا عندئذ تماماً من وجه الفرس، بعد أن كان هؤلاء يرصدونهم وباتوا الآن منشغلين في بناء حصونهم. ولما فقد داريوس كل أثر لهم ترك حصونه ولم يكتمل بناؤها بعد. فأسرع بأقصى ما يستطيع لبلوغ مواقعهم، فلما وصل إلى بلاد السكيث صادف الفرقتين، وهما قوام الجيش الذي أنشأه السكيث، فأخذ في مطاردتهما، بينما عمدت هذه القوة إلى أسلوب التراجع أمام زحف القوات المهاجمة، وظلت تحافظ على مسافة مرحلة يوم واحد. فلما اشتد داريوس في

مطاردتهما وتابع الضغط بقواته، أخذ السكيث في تنفيذ الخطة الموضوعة باستدراجه إلى بلاد أولئك الذين رفضوا منذ البداية مؤازرتهم في مقاومة الفرس. فكان أول من عانى الميلانخلانيين الذين أزعجهم الغزو المزدوج، من السكيث أولاً والفرس ثانياً وأثار بينهم أشد الاضطراب، ثم جاء بعدهم دور الأندروفاج فالنوير، وكان مؤدى الأمر واحداً في جميع الأحوال. وأخيراً اقترب السكيث؛ وهم يتراجعون أمام الفرس، من حدود الأجاثير. ولكن هؤلاء لم يكونوا على شاكلة الأقوام الأخرى الذين يدب فيهم الفزع ويحاولون الهرب أمام الزحف القادم، فلم ينتظروا غزو السكيث، وإنما أرسلوا إليهم موفداً لينذرهم ويحظر عليهم عبور حدود أراضيهم، ويحذرهم بأنهم إن أقدموا على هذا الأمر سيواجهون الصد بقوة السلاح. أما القبائل الأخرى، أي الميلانخلانيين والأندروفاج والنوير، فلم تبد مقاومة أمام غزو السكيث أو الفرس، بل نسيت في غمرة الاضطراب العظيم تهديداتها القديمة، فهربت باتجاه الشمال، إلى الأرض المقفرة. أما السكيث فقد تحولوا بوجهتهم بعدما وجدوا الأجاثير متهيئين لردهم، واجتذبوا بذلك الفرس، من أرض النوير، ليعودوا إلى بلاد السكيث من جديد.

ولما وجد داريوس هذه المطاردات تدور بلا نهاية حاسمة بعث بأحد فرسانه حاملاً رسالة إلى ملك السكيث أيدانثيرسوس، جاء فيها: « لِمَ تستمر في الهرب، أيها الرجل العجيب؟ الأمر واضح أمامك؛ فلديك أحد الخيارين، فإما أن تثبت وتقابلني، إن كنت تعتقد بنفسك القوة ، بدلاً من التشرد في جميع أنحاء العالم في محاولتك الإفلات مني، وإما أن تواجه الحقيقة وتقر بأنك أضعف من أن تواجهني، وأي جدوى، حتى في هذه الحالة، من الهرب من المواجهة؟ الحق أن الأجدر بك أن تبعث لمولاك بالتراب والماء علامة على خضوعك،وتأتي للمفاوضة».

فرد أيدانثيرسوس بقوله: « إني لم أهرب من وجه إنسان خوفاً منه قط؛ ولن يكون هكذا شأني معك الآن. وليس ما تراه بالأمر الغريب عندي فهذا هو حالي في الحياة، حتى في أوقات السلم. فإن شئت أن تعرف السبب في أني أتحاشى

القتال فإني مخبرك: إن بلادنا تخلومن المدن وليس فيها أرض تزرع، لنندفع للقتال بسرعة،متأثرين بأي ضير يلحق بها. أما أن تكون قد حزمت أمرك على أن ترى الدماء تراق، فدونك هذا السبب الذي نقاتل في سبيله - وهو قبور أجدادنا. فابحث عن هذه القبور، فإن وجدتها وعبثت بها، فسوف تعلم عندئذ إن كنا نتصدى لك أم لا. وإلى أن يكون هذا، وحتى يقوم سبب وجيه، سنظل نتفادى المعركة. وهذا هو ردي على تحديك؛ أما قولك إنك مولاي فاعلم أني لا أعرف مولى لي سوى زيوس الذي صدرت عنه، وهيستيا، ملكة السكيث، وبعد، فلست أنا بالذي يرسل إليك بالتراب والماء، ولكني سأرسل أشياء أخرى تناسب المقام أكثر؛ وإنه من اليسير الرد على قولك أن عليَّ أن أخضع لك، سيداً لي ومولى، فأقول مت بغيظك». ذلكم هو الجواب الذي عاد به موفد داريوس من ملك السكيث.

كانت الإشارة المبطنة إلى العبودية كافية في حد ذاتها لتثير ثائرة زعماء السكيث وتشحن قلوبهم بالغضب، فوجهوا الفرقة التي يقودها سكوباسيس وكانت تضم قوات من السورمطاي إلى التداول مع الأيونيين الذي كانوا يتولون حراسة الجسر فوق الدانوب. أما الذين ظلوا في مواقعهم فكان قرارهم التوقف عن مراقصة الفرس في تلك الرقصة المعهودة ومهاجمتهم حيثما صادفوهم، وأخذوا يتحينون الفرص لتنفيذ هذه السياسة الجديدة. ولقد برهن فرسان السكيث على تفوقهم على الفرس في كل مواجهة خاضوها ضدهم، فكانوا - الفرس - يتراجعون أمامهم ويتوسلون بالمشاة في دعمهم، فيتوقف السكيث عن متابعة الهجوم لعلمهم أنه لا قبل لهم على مواجهة مشاة الفرس. فكانوا يرتدون على أعقابهم ويفضون الاشتباك بعد دحر الفرسان. وكان السكيث خلال تلك المعارك يقومون دورياً بالإغارة ليلاً على قوات الفرس.

ولابد لي من ذكر أمر غريب كل الغرابة أعان الفرس على عرقلة السكيث وإفساد تحرشاتهم، عنيت ظهور البغال ونهيق الحمير فجأة في المعارك. ذلك أن

خيول السكيث لم تألف هذه الدواب من قبل، إذ كان مناخ البلاد البارد يحول دون عيشها هناك. لذلك كانت الخيول تجمح عند سماع نهيق تلك الدواب فتضطرب له وتنفر؛ بل وكثيراً ما كانت تتوقف وسط المعمعة حين تسمع أصوات تلك المخلوقات التي لم تألف شكلها، وتنتصب آذانها، وتحرن عن المضي والمعركة لم تبلغ نهايتها. ولقد وفر هذا الأمر للفرس بعض الميزة في حملتهم.

ولما رأى السكيث الفوضى تدب في صفوف الفرس تحت ضغط الهجمات المتواصلة، تفتقت عقولهم عن خطة لإبقاء الفرس أطول مدة على أراضيهم وإشاعة الضيق في نفوسهم تحت وطأة فقدان المؤن. وكانت خطتهم تقوم على التسلل بين وقت وآخر من موقع إلى آخر، تاركين بعض المواشي في عهدة الرعاة؛ وكان الفرس يظهرون من مواقعهم ويأخذون تلك الماشية، فتعيش نفوسهم بهذا النجاح العارض. ولقد تكرر هذا الأمر مرة بعد مرة، حتى لم يعد داريوس يدري أين يتجه، فلما رأى السكيث مبلغ حرجه، بعثوا إليه بالهدايا الموعودة وكانت تتألف من عصفور وفأر وضفدعة وخمسة سهام. فسأل الفرس الرسول الذي حمل هذه الأشياء عن مغزى الهدية، فلم يحر جواباً، واقتصر على القول إنه إنما كلف بحملها وتسليمها والعودة بأسرع ما يمكن: فالفرس قادرون على معرفة ما ترمز إليه الهدية، إن كانوا على قدر من الذكاء. فأخذ الفرس يتداولون فيما بينهم، وكل يذهب مذهباً في تفسير أمر الهدية؛ وكان أن أعرب داريوس عن رأيه بأن السكيث أرادوا بهديتهم أن تعني أنهم يهدونه التراب والماء والإشارة إلى اعتزامهم الاستسلام، فقال إن الفأر يعيش على الأرض ويأكل مما يأكله البشر، والضفدعة تعيش في الماء، والعصافير تنتقل مثل الخيول؛ وأما السهام فترمز إلى قوة السكيث التي يضعونها الآن بين يديه. ولكن جوبرياس (وهو أحد الحلفاء السبعة) لم يوافقه فيما ذهب إليه، وقد فسر الهدية على النحو التالي: «إنكم أيها الفرس لن تجدوا سبيلاً للعودة إلى بلدكم إلا إذا تحولتم إلى طيور تطير في الهواء، أو أصبحتم فئراناً وسكنتم الجحور تحت الأرض، أو

ضفادع لتقفزوا في البحيرات؛ ومهما تلفتم لن يكون أمامكم سبيل إلى أوطانكم مرة أخرى، بل لسوف تمكثون هنا في هذا البلد لتصطادكم سهام السكيث».

وفيما الفرس منشغلون بتفسير رموز الهدية، كانت الفرقة التي كلفت سابقاً من قيادة السكيث برصد شاطئ بحر آزوف، ووجهت الآن للتباحث مع الأيونيين الرابضين على نهر الدانوب، تشق طريقها إلى الجسر. وهناك بدأ المتحدث باسم السكيث كلامه قائلاً: «يا رجال أيونيا ؟!إننا جئناكم بالسلام، ولسوف يتحقق لكم إن أصغيتم إلى ما سوف نعرض. لقد بلغنا أن داريوس أمركم بحراسة الجسر ستين يوماً ـ لا تزيد، فإن تجاوز هذه المدة ولم يعد كان لكم أن تعودوا إلى بلادكم. إذن فالجلي أن تنتظروا انقضاء هذا الأمر، فإن تأخر عن هذا الموعد أمكنكم العودة إلى بلادكم ـ ولن يلومكم لائم ـ لا داريوس ولا حتى نواتكم، إن غادرتم هذه الأرض. وكان أن وافقهم الأيونيون الرأي، فقفل السكيث عائدين دون انتظار.

وبعد حادثة تقديم الهدايا لداريوس، قام السكيث الذين لم يدخلوا منطقة الدانوب بحشد فرسانهم والمشاة وقصدهم الاشتباك مع الفرس. ولكن ما إن اتخذوا مواقعهم لبدء المعركة حتى وجدوا أرنباً يقفز في الحقل ويأخذ في العدو بين المعسكرين، فمضى السكيث يطاردونه سرية بعد سرية بين صيحات الجنود وضجيجهم فغدا الجيش عندئذ جماعة من المعربدين.

فأثار الأمر انتباه داريوس فخرج يسأل عن سر تلك الضجة فلما علم أن السبب هو انهماك العدو في مطاردة أرنب التفت إلى معاونيه الذين اعتاد التشاور معهم، وقال: « إن هؤلاء القوم ليكنون لنا أعظم الاحتقار، وإني لأرى الآن أن تفسير جوبرياس لدلالة تلك الأشياء التي بعثوا بها هو التفسير السليم. وإذن فالرأي عندي أن الوقت قد حان لمغادرة هذه البلاد بأمان».

فأجاب جوبرياس: «يا مولاي، قد علمت مما بلغ مسامعي صعوبة التعامل مع السكيث، أما الآن وقد خبرتهم بنفسي ورأيت كيف يخدعوننا بحيلهم، فإن

خبرتي بهم ازدادت وبت أدرى بهم. والرأي عندي أن تكون حركتنا التالية إنارة المشاعل حالما تحل العتمة، كعادتنا، ونقوم بربط الحمير إلى مرابضها ونترك بعض رجالنا من الذين لا يحتملون عناء المسير ومشقة الطريق، متذرعين بحجة ما، ونغادر المكان فنسبق السكيث في الوصول إلى الدانوب ونحول دون تدميرهم الجسر، قبل أن يأتي الأيونيون بعمل يكون فيه خرابنا».

ولقد أخذ داريوس بهذا الرأي، ولما حل الليل أخذ جيشه في المسير للعودة إلى بلاده، مخلفاً وراءه المرضى والعجز ومن لم يكن ذا نفع له، فضلاً عن الحمير في مرابطها المعهودة. وقد قصد من ترك الحمير أن يتم انسحابه تحت ستار من نهيقها؛ أما الرجال الذين خلفهم وراءه فكانوا من العاجزين والمرضى، وهم عبء عليه، وإن أوحى لهم بأنه يدعهم إلى حين لحراسة المعسكر، لانشغاله وخيرة قواته بهجوم يعده على السكيث. وبعد هذا التفسير الذي قدمه لأولئك الذين كان في واقع الأمر يهجرهم، قام بإنارة المعسكر بالمشاعل وأسرع بأقصى ما يستطيع بالمسير إلى الدانوب، بينما اشتد نهيق الحمير، وهي ترى الجزء الأعظم من القوات تتحرك مبتعدة؛ ولما بلغت تلك الأصوات السكيث لم يخطر لهم أن الوضع قد تغير؛ ثقة منهم بأن جيش الفرس سيظل مرابطاً في مواقعه حيث كان. فلما طلع الفجر وأدرك من بقي من الجند أن داريوس قد خدعهم، رفعوا أسلحتهم بإشارة الاستسلام، وأخبروا السكيث عندئذ بما وقع. فلما سمعوا النبأ أسرعوا بكامل قوتهم من الفرق الثلاث، ومعهم الساروماطاي والبود والجيلون، بالمسير نحو الدانوب دونما تأخير ليطاردوا جيش الفرس قبل أن يتم انسحابه.

وكان القسم الأعظم من جيش الفرس يسير على الأقدام، وهو لا يدري فعلاً اتجاهه لعدم توفر الطرق الاعتيادية، وبالتالي كان للسكيث السبق عليهم، وهم يمتطون الخيول ويألفون الطرق في تلك الأصقاع، ويعرفون أقصرها، فبلغوا الجسر قبلهم. وهكذا لم يتمكن الجيشان من الالتقاء على الطريق، فانتهز

السكيث فرصة تأخر الفرس عن الوصول للتباحث والأيونيين الذين كانوا يقيمون على سفنهم. فكان أن عرضوا عليهم الأمر على نحو ما سوف أذكر هنا: «ها قد انقضت الأيام الستون، يا رجال أيونيا، ومعها انتهت مهمتكم. فلقد ثبتم في مواقعكم حتى اللحظة خوفاً من عاقبة الفرار، لكن الأحوال تبدلت الآن ـ فحطموا الجسر وأسلموا أشرعتكم للرياح، وليحالفكم الحظ في طريقكم، واشكروا الآلهة والسكيث لتنعمكم بالحرية بعد اليوم. أما سيدكم فلسوف يكون له حساب لن يقوى بعده على حملة أخرى».

بعد النقاش الذي دار إثر هذه الخطبة، وقف ميلتياديس الأثيني المتسلط على الخيرسونيس في الهيلسبونت وقائد فوجهم، وعرض رأيه داعياً رفاقه للأخذ بنصيحة السكيث لتتحرر بلاد الأيونيين؛ فنهض هيستيايوس الميليسي معارضاً، وبسط رأيه بأنهم جميعاً مدينون بسلطانهم لداريوس، فإن سقط لن يقوى هو ذاته على الاحتفاظ بسيطرته على ملطية ولن يكون لأي واحد منهم أن يظل على سلطانه بعد ذلك الحين. فلا ريب بأن كل بلد سوف يثور على طاغيته ويختار نهج الديمقراطية، لحكم نفسه بنفسه. وهكذا بدأ المؤتمر بتأييد ميلتياديس، ثم ما إن عرض هيستيايوس رأيه حتى انقلب عليه رأي المؤتمرين، وأيدوا وجهة نظر الأخير. وكان أصحاب الصوت في القرار: دافنيس صاحب أبيدوس وهيبوكلس صاحب لمبسكوس، وهيروفنطس صاحب باريوم ومترودورس صاحب بروكنيسوس، وأرسطوجوراس صاحب جيزكوس وأريسطون صاحب بيزنطة ـ وكلهم ذوو حظوة عظيمة عند داريوس، وأصحاب السطوة في دولهم، التي تقع على الدردنيل وكان هناك، بعد، الأيونيون: استراتيس صاحب خيوس واياسيس صاحب ساموس، ولاداماس صاحب فوكاي وهيستيايوس صاحب ملطية ـ وهو الذي عارض ميلتياديس. وكان الأيولي الوحيد البارز بين المؤتمرين أريسطو جوارس صاحب جيمه.

ولما استقر الرأي على الأخذ برأي هيستيايوس انتقل الجمع لتدبير الخطوة

التالية وإخفاء حقيقة قصدهم. فاعتمدوا على تحطيم جزء من الجسر، بمدى مرمى سهم على جانب النهر من طرف بلاد السكيث، وبذلك يبدون كمن يُنَفِّذ أمراً، وهو ليس حقيقة، ثم يحولون دون السكيث والمرور فوق الجسر، ويطمئنونهم في الوقت ذاته إلى أن أعمال الهدم جارية على قدم وساق، حسب ما طلب إليهم. ذلكم كان نهجهم في تطبيق ما ذهب إليه رأي هيستيايوس؛ وعلى ذلك وقع خيار القوم على أن يكون هو المتحدث باسمهم أمام السكيث حين يأتون لاستطلاع الموقع. فلماأتوا جاءهم هيستيايوس مخاطباً: «يارجال السكيث، لقد جئتمونا بالأخبار الطيبة، وإنه لمن حسن الحظ أن جئتم إلينا مبكرين. إن الأمور تجري على ما يرام لصالحكم كما هي لصالحنا ـ فلقد أسديتم لنا خدمة ونحن نرد بمثلها وإننا كما ترون منهمكين في هدم الجسر، ولن نألو جهداً لننال حريتنا. ولعل أفضل ما بوسعكم عمله في هذه اللحظة أن تمضوا للبحث عن جيش الفرس، بينما نحن مستمرون في عملنا؛ وإذا ما وقعتم على المعتدين فدونكم إياهم ولينالوا ما يستحقون على عدوانهم، كما تريدون لهم وكما نريد نحن أيضاً. وكان أن أخذ السكيث بقول الأيونيين مرة أخرى؛ فقفلوا عائدين يبحثون عن جيش فارس، ولكن عبثاً، إذ ما كان لهم أن يعثروا عليه أينما كان بحثهم. والحق أن الذنب في ذلك إنما كان يقع على السكيث أنفسهم؛ فلقد كان من اليسير مصادفة الفرس وهم ينسحبون من أراضيهم، لو أنهم ـ السكيث ـ لم يردموا الآبار ويتلفوا الزرع الذي كانت خيولهم تتغذى به لو توفر، وقد كانوا يحسبون تخريبهم لمنابع المياه وتدميرهم للمزروعات من أعمال البراعة، وإذ بتلك الأعمال ترتد عليهم وتفسد عليهم حظوظهم بملاقاة العدو كما كانوا ينتظرون. ذلك أن الفرس إذ افتقدوا الماء والزرع في طريقهم حادوا إلى طريق أخرى كانت غنية بالمياه والكلأ، وكان السكيث يظنون أن الفرس سيلجؤون في سعيهم للفرار من العدو إلى طريق غير تلك. ولكن الفرس أفسدوا عليهم توقعاتهم فالتزموا في عودتهم الطريق التي ساروا عليها عند دخولهم، ولو أن الأمر كلفهم عناء شديداً

ليبلغوا نقطة العبور. وكان الليل قد أرخى سدوله حين وصلوا إلى موقع رأس الجسر، فهلعوا إذ وجدوه متهدماً، فذهبت بهم الظنون إلى أن الأيونيين قد تخلوا عنهم لحظة الشدة. غير أن داريوس طلب من أحد المصريين الذين في صحبته، وكان ذا صوت مدو، أن ينادي هيستيايوس من ضفة النهر. وما إن أطلق صوته حتى لبى هيستيايوس النداء وهيأ سفنه لنقل الجيش بعدما أصلح الجزء المهدم من الجسر. وبذلك خرج الفرس بسلام من تلك البلاد، بعد تفاديهم محاولة السكيث للالتحام بهم مرتين. ومازال السكيث يكنون للأيونيين أشد الاحتقار نتيجة ذلك المسلك، فهم يعدونهم أشد الشعوب نذالة وضعة بين الأحرار، وبين الأمم المستعبدة أكثرها خنوعاً، وأضعفها همة فلا تقوى على الهرب حين تسنح لها فرصة الإفلات من نير مستعبديها.

ولقد سار داريوس بجيشه بعد أن نزل على اليابسة فعبر تراقيا ومضى إلى جزيرة سيستوس في مضيق الخيرسونيس، ثم أبحر إلى آسيا، مخلفاً أحد البارزين من الفرس ويدعى ميجابازوس على رأس قواته في أوروبا. وكان داريوس شديد الإيثار له وقد قال فيه قولاً حسناً ذات مرة، حين التقط رمانة وأراد أن يتناول بعض حباتها فسأله أخوه أي من أملاكه يريده أن يكثر مثل حبات الرمانة، فكان جوابه: «لو كان لي من ميجابازوس مثل عدد هذه الحبات لغدوت سيد الإغريق». وكان داريوس قد قال قوله في إطرائه وهو في فارس، ثم ها هوذا يخلفه في أوروبا على رأس جحفل من جيشه قوامه ٨٠ ألف مقاتل. وكان ميجابازوس هذا قد أبدى ذات مرة ملاحظة بقيت في ذاكرة الناس في أنحاء الدردنيل لا تبرحها، وكان في بيزنطه يومذاك، فقال إن رجال خاليكيدونية (قسطنطينة الآسيوية) مصابون لا ريب بالعمى، فلو لم يكونوا عمياناً لما اختاروا أسوأ موقع، بينما هناك مواقع أفضل، ليقيموا بلدهم. ولقد شرع ميجابازوس، وقد ترك على رأس قيادة القوات في الدردنيل، كما سلف القول، في تنفيذ مهمته بإخضاع الجماعات التي لم ترض بالاستسلام لفارس.

وفيما كان ميجابازوس منشغلاً بخوض الحروب على النحو الذي عرضت، كانت هناك قوات عظيمة أخرى تسير نحو ليبيا. ولكن لا بد لي من بسط بعض الأمور الممهدة لموضوعنا، قبل بيان السبب الذي دفع إلى القيام بهذه الحملة. وخلاصة الأمر أن أحفاد بحارة السفينة «آرجو» تعرضوا للطرد من ليمنوس على يد البلاسجة الذين سبق لهم أن اختطفوا الأثينيات من براورن. ولقد ترك أولئك ليمنوس مبحرين إلى اللاكيديمونيين، وهناك أقاموا مخيماً لهم على جبل تايجيتوس. فلما رأى اللاكيديمونيون النار التي كان أولئك القوم يوقدونها على المرتفع بعثوا بواحد منهم ليستطيع خبرهم ومن أين جاؤوا. وقد أجاب القوم بأنهم من المينياي، أحفاد الأبطال أصحاب الآرجو، وكان مستقرهم في ليمنوس حيث أنشأوا الأسر وهم منها. فلما سمع اللاكيديمونيون قصتهم وعرفوا نسبهم بعثوا برسول آخر ليسألهم عن غرضهم وسبب إيقادهم النار. فأجابوه بأنهم قد أجلوا عن ليمنوس على أيدي البلاسجة، وقد جاؤوا إلى أرض آبائهم - وهذا أشرف ما يمكنهم عمله، وهم ينشدون الآن الاستقرار في هذه الأرض ويكون لهم فيها من امتيازات الحكم نصيب، ولقد تأثر اللاكيديمونيون بقصة ركوب أبناء تينداريوس سفينة الآرجو، فقبلوا بأن يحل أبناء المينياي بينهم وعلى نحو ما شاؤوا، فمنحوهم الأرض ووزعوهم بين قبائلهم. وما إن استقر حال المينياي حتى اتخذوا لأنفسهم زوجات من الإسبارطيات وصاهروا الإسبارطيين في بناتهم اللواتي جئن برفقتهم من ليمنوس. غير أنه لم يمض إلا حين حتى غلب الطمع على المينياي بعدما تذوقوا الامتيازات التي فازوا بها منذ حين، واشتطوا في الطلب، بل وزعموا لنفسهم حقاً في نصيب من سلطة الحكم، وأخذوا يأتون بأفعال لا تقل عن ذلك صفاقة ووقحة. ولقد قرر اللاكيديمونيون عندئذ حسم الأمر مع هؤلاء ووضع حد لتماديهم، فعمدوا إلى اعتقالهم ورموا بهم في غياهب السجن، مقدمة لقتلهم. وكان العرف قد جرى في بلاد اللاكيدايمونيين على تنفيذ أحكام الإعدام في الليل دون النهار؛ فجاءت نساء المينياي إلى السجن قبيل

تنفيذ الحكم، وطالبن بأن يلتقين بأزواجهن، وكن جميعهن من أهل اسبارطة وبنات أعيانها، فلم يخطر ببال أحد أن يظن بهن الخيانة، ولذلك استجاب القوم لطلبهن. فلما دخلن السجن واختلين بأزواجهن بدلن ملابسهن ليخرج الرجال وهم في أزياء النساء، ثم أسرعوا إلى جبل تايجيتوس وأقاموا عليه مضاربهم من جديد.

وفيما كانت الأمور تجري على نحو ما ذكرناه كان ثيراس بن أوتيسيون (والده تايسامينوس بن ثيرساندر وحفيد بولينيسيس) يعد العدة للرحيل عن اللاكيديمونيين ليؤسس لنفسه مستوطنة في غير تلك البلاد. وكان ثيراس هذا من نسل قدموس، خال أيوريستينس وبروكليس، ولدا أرسطوديموس، وقام بالوصاية عليهما في إسبارطة، ولكن لما بلغ الفتيان سن الرشد وتسلّما زمام الحكم، شق عليه أن يكون في موقع التابع، وهو الذي عرف طعم السلطة، فكره أن يبقى في إسبارطة، وأعلن عزمه على الرحيل لينضم إلى أهله في جزيرة ثيرا. وكانت هذه الجزيرة تعرف من قبل باسم كليستة، ويعيش فيها بعض أحفاد ميمبلياروس بن بويكليس الفينيقي، كذلك حل فيها قدموس بن أجنور في أثناء بحثه عن أوروبا، وترك فيها بعض الفينيقيين، لسبب من الأسباب.وكان من بين هؤلاء ميمبلياروس هذا. وكان قد مضى ثمانية أجيال على ذلك التاريخ حين تهيأ ثيراس للإبحار من إسبارطة، وأخذ في جمع من يأنس في نفسه الرغبة في الاستيطان من بين القبائل كافة في إسبارطة، وما كان الرجل ليرد أحداً عن الانضمام إليه في هذا المسعى، وإنما يشدد القول بأنه إنما يريد الاستقرار معهم في مستوطنة جديدة، وهو منهم بمثابة ابن العم.

ولما هرب المينياي من سجنهم وتحصنوا في جبل تايجيتوس، انشغل اللاكيديمونيون بالتخطيط لاجتثاث شأفتهم، فتدخل ثيراس لديهم حقناً للدماء، وتعهد لهم بترحيلهم من البلاد بنفسه. ولقد وافق اللاكيديمونيون على اقتراحه، فأسرع ينشر أشرعته مبحراً بسفنه ذات الثلاثة والثلاثين مجذافاً، للانضمام

إلى أحفاد ميمبلياروس،ومعه المينياي، بل قلة منهم؛ ذلك أن أكثر هؤلاء ذهب إلى بلاد الباروريتس والكاوكون وأجلوهم عن أرضهم، ثم بنوا لأنفسهم لاحقاً ست مدن، لتسكنها المجموعات الست التي انتظموا فيها وهي: ليبريوم ومكسيتوس وفريكساي وبايرجوس، وإبيوم ونوديوم، ثم دمر معظمها الإيلنس، في أيامي. وأبدل اسم كليستة بثيرا، نسبة إلى مؤسسها ثيراس،ولقد أعرض ابن ثيراس عن المشاركة في هذه الحملة، فقال أبوه إنه سيخلفه وراءه، فيكون كالذئب الوحيد، فلزمه وصف «الذئب الوحيد» وأصبح الفتى يعرف باسم أويليكوس منذ ذلك اليوم، وقد ولد له ابن فيما بعد اسمه إيجيوس، وهو الذي ينتسب إليه الإيجيداي، العشيرة القوية بين عشائر الإسبارطيين ـ وكانت نصيحة العرافة لهم أن يقيموا مزاراً لتهدئة ثائرة أوديب ولايوس، فيردا الموت عن أبنائهم، الذين يتساقطون متلاحقين. ولما فعل الأيجيداي ما أمرت العرافة به انحسر الموت واستمر نسل القوم. ومثل هذا وقع لأحفادهم في ثيرا.

إلى هنا تتفق روايتا اللاكيديمونيين والثير؛ وما سيلي مصدره الثير وحدهم. فتذهب روايتهم إلى أن جرينوس بن اينسانيوس، وهو من نسل ثيراس، وملك الجزيرة، ذهب ذات يوم ليقدم مائة ضحية قرباناً لآلهة دلفي. وكان من بين من ذهبوا في ركبه باتوس بن بوليمنيستوس من المينيان في أوفيميداي. وقد اغتنم جرينوس فرصة زيارة المعبد فسعى عند العرافة في أمور غير تلك التي جاء من أجلها، فأجابت الكاهنة جواباً بدا غير ذي صلة بسؤاله، وهو أن عليه أن يؤسس مدينة في ليبيا. فقال الرجل:«أي أبوللو، يا ربنا، إني شيخ عجوز ولا أقوى على مثل هذه الرحلة؛ فهل قلت لي أي من هؤلاء الشبان يستطيع أن يحل بدلاً عني فيها؟» وكان يشير، وهو ينطق بكلامه، إلى باتوس. فلم يأته ردٌّ على سؤاله؛ ثم غادر الجمع دلفي، ونسوا أمر النبوءة تماماً ـ فالحق أن هؤلاء القوم ما كانوا يعرفون موقع ليبيا أصلاً، ولم يكلفوا أنفسهم إرسال جماعة لتقيم المستوطنة المطلوبة، في مكان مجهول، في أعالي البحار. وكان أن حل بالبلاد قحط عظيم،

إذ لم تمطر السماء خلال السنوات السبع التالية نقطة واحدة من المطر، فجفت جذور الأشجار في ثيرا وماتت كلها، إلا واحدة. فأراد أهل الجزيرة النصيحة فبعثوا بوفد إلى دلفي علهم يجدون الدواء لهذا الوضع العصيب، فذكرتهم العرافة بالمستوطنة التي عليهم أن يقيموها في ليبيا. فلم يكن لهم، إذن، سوى أن يبعثوا ببعض رجالهم إلى كريت ليعلموا إن كان أحد أبناء تلك الجزيرة، أو حتى الغرباء الذين يقيمون هناك، قد زار ليبيا، فيعلمهم شيئا عن أحوالها. وظل أعضاء ذلك الوفد يطوفون في جميع أنحاء كريت إلى أن بلغوا قرية ايتانوس، فصادفوا فيها رجلاً يدعى كوربيوس، وكان شيخ الصيادين في الجزيرة، فأخبرهم أنه بينما كان في إحدى رحلات الصيد ذات مرة هبت عليه عاصفة هوجاء، فأطاحت بقاربه ورمت به إلى جزيرة تدعى بلاطية (بومبا)، قبالة ساحل ليبيا. فاصطحبه هؤلاء الرجال وعادوا به معهم إلى ثيرا، لقاء مبلغ من المال، ومن ثم أوفدوا بعثة وهو على رأسها لاستطلاع تلك الجزيرة. ولما بلغوا بلاطية أنزلوا كوربيوس على شاطئها ومعه من المؤن ما يكفيه شهوراً، وقفلوا عائدين بعدئذ بأسرع ما أمكنهم إلى بلدهم ليزفوا لأهلها نبأ الجزيرة.

وكانوا قد اتفقوا وكوربيوس على أن يبقى حيث تركوه فترة معينة من الزمن؛ ولكن تلك الفترة طالت أكثر مما كان متفقاً عليه، فأصاب الرجل غم عظيم لنقص المؤن، لولا أن سفينة من ساموس اضطرتها الرياح العاصفة، وهي في طريقها إلى مصر، ويقودها رجل يدعى كولايوس، للرسو على شاطئ الجزيرة، وسمع البحارة من كوربيوس حكايته، ثم استأنفوا رحلتهم إلى مصر، بعد أن تركوا له مؤونة تكفيه سنة من الزمن، وهم على عجلة من أمرهم لبلوغ وجهتهم. غير أن الرياح التي تهب عليهم من الشرق حالت دون وصولهم إلى مصر، وظلت تدفع بهم غرباً فتجاوزوا أعمدة هرقل، إلى أن نجحوا بفضل حظ غير مألوف في بلوغ طرطيسوس وكان هذا المرفأ التجاري ما يزال غير مطروق، فكان أن أصاب فيه التجار الساموس ربحاً عظيماً لم يصب مثله أي من الإغريق الذين لنا معرفة

دقيقة بهم، سوى سوستراطوس بن لاوداماس الإيجي، وهو تاجر لا نظير له بين التجار. وقد أنفق القوم عشر أرباحهم، ويعادل ستين تالنتاً، في صنع دن من البرونز يشبه دنان الخمر التي اشتهر بها أهل آرجوس، وقد زينت حافته بصف متصل من رؤوس الجرافين، وهو محمول على ثلاثة تماثيل لرجال يجثون على ركبهم، ويبلغ ارتفاعه أحد عشر قدماً ونصف، وقدموه هدية لمعبد هيرا. ولقد غدا ذلك العون الذي قدمه تجار ساموس لكوربيوس أساس الصداقة الوثيقة التي تربط بين ساموس من جهة وكيرينة وثيرا من جهة أخرى.

وأما الجماعة التي تركت كوربيوس في بلاطية فإنهم حين عادوا إلى موطنهم أخبروا قومهم بأنهم أقاموا مستوطنة على أرض جزيرة، قبالة ساحل ليبيا، فقر القرار على أن يرسلوا جماعة منهم لتوطيد المستوطنة؛ وكان القرار أن تكون الجماعة من أبناء قرى ثيرا السبع، وأخذ الشبان يتنافسون فيما بينهم على مكان في السفينة، حتى إن الإخوة كانوا يلجؤون إلى القرعة في تقرير المتطوعين. وكانت القيادة في هذه البعثة معقودة لباتوس وحده. ثم ما هو إلا بعض الوقت حتى كانت هناك سفينتان تشقان عباب البحر مشرعتان أشرعتهما في وجه الرياح وهما تقصدان بلاطية.

لقد كان مصدري في الرواية السالفة أحاديث أهل جزيرة ثيرا أنفسهم، وقد وافقهم في روايتهم أهل كيرينة.. على أن الروايات تختلف فيما يتصل بحديث باتوس. وتذهب رواية القوم إلى أنه كان لإيتيارخوس، وهو حاكم أكسوس في كريت، ابنة تدعى فرونيما، ولما ماتت أمها، اتخذ والدها زوجة أخرى؛ وحالما وطئت بقدميها الدار اتخذت هذه المرأة دور زوج الأب، فأخذت تحيل حياة الفتاة إلى جحيم مقيم بكل ما لديها من حيلة، فبلغ بها الأمر في النهاية بأن تزعم بأن الفتاة غارقة في الفسق والتهتك، وسعت لدى زوجها، والد الفتاة، حتى صدق قولها؛ وشرع إيتيارخوس يخطط للتخلص من ابنته على أسوأ وجه. فقد أقام الرجل صلة بتاجر من ثيرا يدعى ثيميسون، وكان يقيم في أكسوس، وقربه منه

فأصبح هذا بمثابة الصديق. فلما اطمأن إليه ثيميسون هذا، دفعه لأن يعده بتنفيذ ما يطلبه منه. فأقسم الرجل على هذا الوعد؛ فجاء إتيارخوس بابنته وتركها في عهدة صاحبه ثيميسون وطلب إليه أن يحملها معه في سفره ويرمي بها في لجة البحر، في الطريق. ولقد غضب ثيميسون هذا لاستغلال صاحبه له أشد الغضب فانتهى بذلك عقد الصداقة بينهما؛ ولكي لا يحنث بالقسم اصطحب الفتاة معه في أول مناسبة وأبحر بها، ولما ابتعدت السفينة عن اليابسة ربط وسط الصبية بحبل، ثم أنزلها إلى سطح البحر، وانتشلها من جديد، وتابع السفر، وهي بصحبته إلى ثيرا. وهناك تعرفت إلى أحد الأعيان البارزين ويدعى بوليمنستوس فاتخذها محظية له. وما لبثت المرأة أن حملت من صاحبها فولدت له ولداً، في نطقه لثغة ولعثمة، وأسماه أهله باتوس، أو هكذا تذهب روايات الناس في ثيرا وكيرينة. والقول عندي إن الرجل لم يعرف بهذا الاسم إلا بعد أن حط رحاله في ليبيا؛ فهناك اتخذ هذا الاسم،حسب ما ورد على لسان العرافة في معبد دلفي، ثم لصق به بحكم المقام العالي الذي تبوأه هناك - فكلمة «باتوس» تعني في لغة الليبيين «الملك»، وأحسب أن هذا هو السبب الذي جعل الكاهنة تناديه بالعبارة الليبية، وهي العارفة بأنه سيغدو ملكاً في ليبيا. وتفصيل الأمر أن الفتى ذهب يوم بلغ مبلغ الرجال إلى معبد دلفي ليسأل العرافة. إن كان سبيل من سوء نطقه فجاءه الجواب بالقول التالي:

أي باتوس جئتنا تسأل في أمر صوت، لكن أبوللو مرسلك إلى ليبيا، لترعى قوماً، وتعمر بلداً - وإذا شئنا ترجمة العبارة بالإغريقية وجدنا العرافة تقول:«أيها الملك، جئت تبحث عن علاج لنطقك». فرد باتوس بقوله: «يا رب، قد جئت إلى عرافتك راجياً علاجاً لنطقي، فإذا بك ترمي إلي بجواب لا صلة له بسؤالي، وتطلب أن أنشئ مستوطنة في ليبيا! إن هذا لأمر لا طاقة لي به،فلا مال عندي ولا رجال لأنهض بهذا العبء». ولكن الشكوى ذهبت أدراج الرياح: إذ صمتت العرافة عن الجواب، وعادت لتكرر الأمر بأن يبني مستوطنة في ليبيا،

فغادر السائل المعبد والعرافة لم تنه قولها، وقفل عائدا إلى ثيرا. ولقد ظل حظ الشاب يتعثر به دون أن يصلح حاله؛ بل الحق أن الأمور أخذت تسير به وبأهل الجزيرة من سيئ إلى أسوأ. ولقد ظل الناس يتساءلون عن سر هذا الضيق الذي حل بهم فلا يبلغون جواباً؛ ولما طال بهم هذا الحال بعثوا إلى معبد دلفي من يسأل ليأتيهم بالجواب الشافي، فما سمع هذا الذي أوفده القوم من العرافة إلا القول القديم: إن ذهبتم وباتوس وأقمتم مستوطنة في كيرينة بليبيا صلح حالكم واستقامت أموركم. وكان أن سعى أهل ثيرا عند باتوس ليسافر على رأس جماعة إلى ليبيا في سفينتين؛ وقد استمرت بهم الرحلة إلى أن بلغوا الساحل، فأخذتهم الحيرة لا يدرون أي طريق سيسيرون بعدما بلغوا نهاية الرحلة، فعادوا أدراجهم إلى ثيرا. فلما وصلوا إلى موطنهم رفض أهل الجزيرة السماح لهم بالنزول، وأخذوا يقذفونهم بالحجارة وما اتفق أن وجدوه في متناولهم ويصيحون بهم أن يسلموا أشرعتهم للرياح ويمضوا في طريقهم ثانية؛ وهكذا لم يجد أولئك الرجال أمامهم من سبيل سوى العودة إلى ليبيا. وكان من أمرهم هذه المرة أن ينزلوا في بلاطية، أي الجزيرة التي تقابل ساحل ليبيا وسبقت الإشارة إليها، ويقال إنها تعادل حجم مدينة كيرينة اليوم.

أقام المستوطنون في مستوطنتهم في بلاطية سنتين من الزمن، دون أن يحالفهم التوفيق في نيل نصيب من الرخاء؛ فكان أن عادوا جميعاً إلى معبد دلفي، مخلفين وراءهم على الجزيرة رجلاً واحداً. وهناك عرض الجمع للعرافة حالهم بعد أن خاضوا في الكفاح لإرساء حياة جديدة في ليبيا دون طائل. فأجابت العرافة: « أعجبت لذكائكم ودهائكم إذ عرفتم ليبيا ذات المراعي وأنتم لم تطؤوها، أكثر مني وقد خبرتها »!

ولما سمع باتوس ورجاله قول العرافة هرعوا إلى سفنهم وأسرعوا مبحرين إلى بلاطية من جديد، لأنه بات جلياً لهم أن أبوللو لن يدعهم وشأنهم حتى يقيموا مستوطنتهم على أرض ليبيا ذاتها. ولقد نزل هؤلاء القوم إلى الجزيرة

التي غادروها أولاً ثم تابعوا رحلتهم بعد أن حملوا معهم الرجل الذي خلفوه وراءهم في رحلتهم السابقة، فلما نزلوا إلى اليابسة انشغلوا ببناء مدينة لهم، جنوب بلاطية، في الأرض المسماة أزيريس[١٢]، وهو موقع بديع يمر به أحد الأنهار وتحيط به الوديان من جانبيه. وهناك أقاموا ست سنوات، ثم غادروا البلد، حين أقنعهم الليبيون بوجود أرض طيبة أفضل من أرضهم هذه؛ فمضوا بهم من ثم غرباً، وحرصوا أن يكون مرورهم بأفضل قطعة من أراضي ليبيا، وتعرف باسم أيراسا، في عتمة الليل، لئلا يتبينوها، وانتهى بهم المسير إلى النبع المعروف باسم نبع أبوللو، حيث قال الليبيون للإغريق:هذه أرضكم لتستقروا فيها، لأن السماء هنا مثقوبة يسيل منها الماء بلا انقطاع.

ظل سكان المدينة طوال عهد باتوس، مؤسس كيرينة، وقد دام أربعين عاماً، على عددهم يوم أقاموا المدينة، لا يزيدون ولا ينقصون، وكذلك في عهد ابنه اركيسيلاؤس، واستمر ستة عشر عاماً؛ ولكن المنطقة شهدت إقبالاً عظيماً على الهجرة إليها، في عهد ملكها الثالث، المعروف باسم باتوس المحظوظ، حين ذاعت نبوءة من معبد دلفي بين الإغريق، فاخذوا يتزاحمون للوصول إليها، فضلاً عن عرض أهل كيرينة ذاتها بتقديم الأرض لمن يأتي للاستيطان في أرضها؛ وكانت النبوءة تقول إن من يتأخر عن الوصول إلى ليبيا أرض السرور والحبور، فيصل بعد أن تكون أرضها موزعة على أصحابها، لا بد أن يناله الندم. وهكذا كان أن ازداد عدد السكان أضعاف عددهم الأصلي، وأخذ هؤلاء يزاحمون جيرانهم ويتجاوزون على أرضهم. فكان هذا التوسع المستمر مبعث ضيق وغم لدى الليبيين فضلاً عن نفورهم من تعالي أهل كيرينة وعجرفتهم، مما حمل ملكهم أديكران على أن يرسل إلى مصر سفارة ويضع رعاياه في خدمة ملكها إبريز الذي سرعان ما عبأ قوة كبيرة وبعثها لكسر شوكة كيرينة. فردت بحشد قواتها والسير نحو نبع ثيستيس، وهناك اشتبكت مع المصريين وأنزلت بالجيش المصري هزيمة منكرة فلم ينج منهم إلا قلة قليلة. وكان السبب في هذه الهزيمة

بلا ريب جهل المصريين بأساليب الإغريق في القتال، واستخفافهم بالعدو الذي ساروا لمقاتلته. وكان ذلك مبعث نقمة المصريين على إبريز، إذ حملوه المسؤولية عن هذه النكبة، فكانت السبب في الثورة عليه.

كان لباتوس المحظوظ ابن يدعى أركسيلاؤس وقد كانت له وقائع مع إخوته بعد أن تولى الملك، فما كان من هؤلاء إلا أن هجروه ومضوا إلى مكان آخر من البلاد وأقاموا مستوطنة ثانية - وهي التي تعرف اليوم باسم برقة. وقد أفلح هؤلاء الإخوة، وهم ما زالوا منشغلين في بناء البلدة، في حمل الليبيين على ترك موالاتهم لكيرينة، فكان أن أعلن أركيسيلاؤس الحرب على أولئك الذين تحولوا عنه. ولما علم الليبيون بزحف القوات من كيرينة واقترابها من بلدهم، فزعوا وأسرعوا بالانسحاب على عجل شرقاً. فقام أركيسيلاؤس يطاردهم إلى أن بلغ منطقة قصية من ليبيا تدعى ليوكون، حيث استعد الليبيون لملاقاته، فأنزلوا بقواته هزيمة ماحقة سقط فيها سبعة آلاف رجل. ولقد أصيب الرجل بعد تلك الضربة المؤلمة بمرض شديد، ثم مات خنقاً على يد أخيه ليارخوس، بعد أن تناول عقاراً من العقاقير، وانتهى ليارخوس هذا بدوره مقتولاً بمكيدة دبرتها زوج أركيسيلاؤس، أيريكسو. وبعد ذلك انتقلت المملكة إلى ابن أركيسيلاؤس باتوس - وكان أعرج - ولما تتالت المآسي على كيرينة رأى أهلها أن يسألوا العرافة في معبد دلفي النصيحة فيما يجب عليهم عمله في أمورهم، فسألوها عن أفضل حكومة لتصلح شؤونهم؛ فأجابت العرافة بأن يستدعوا رجلاً من أهل مانتينيا يدعى ديموناكس، وكان ذا سمعة ومكانة بين أهل ناحيته، ليتولى تدبير الأحوال في بلدهم. فلما سمعوا ما قالته العرافة استدعوا الرجل، وحملوه إلى كيرينة؛ وهناك اطلع ديموناكس على واقع الأمور، واتخذ من ثم الإجراءات التالية: تنظيم السكان في ثلاثة أقسام، أو طوائف - المهاجرون من ثيرا، ويجاورهم الرجال القادمون من الجزر البيلوبونيزية وكريت، وأهل الجزر، ثم أقطع حاكم المدينة باتوس أراض معينة ليختص بها وولاه بعض المهام الدينية،

وترك للعامة ما زاد من الامتيازات الأخرى كلها، وكان الملوك من قبل يختصون بها وظل هذا التنظيم قائماً لا يناله تبديل طوال حياة باتوس. ولكن حين توفي الملك تولى ابنه أركيسيلاؤس العرش مكانه فثار نزاع عظيم على الحقوق وامتيازات الحكم. وكان مبعثها رفض أركيسيلاؤس (أي ابن باتوس وفرتيما) الأخذ بالنظام الجديد الذي أتى به ديموناكس، ومطالبته باستعادة الحقوق التي ورثها عن أسلافه، وأدى الأمر إلى نشوب نزاعات أهلية، انتهت بهزيمته أمام مناوئيه وهربه إلى جزيرة ساموس، بينما لجأت والدته إلى سلاميس بقبرص ـ وكان حاكمها يومذاك أيولثون، وهو صاحب محرق البخور العظيم في خزانة الكنوز الكورنثية في معبد دلفي. ولما ألجأها أيولثون أخذت تسعى لديه أن يوفر لها جيشاً لتمضي به إلى القتال، وكان سخياً شديد السخاء في تكريم ضيفته، فلم يكن ليبخل عليها بشيء. وكانت تقابل كل هدية يقدمها لها بقولها «رائعة»، إنما ما هو أشد روعة أن يمنحها ما تتوق إليه نفسها ـ الجيش. ولقد باتت عادتها أن تغتنم كل مناسبة لتبدي الملاحظة ذاتها، وكان أن بعث إليها أيولثون بمغزل من الذهب ومعه كمية من الصوف. فردت على الهدية بالقول الذي ألفه منها. فبعث إليها برده وهو أنه لن يقدم لها جيشاً، بل هدية يعتقد أنها تليق بمن كانت من جنسها.

وكان أركيسيلاؤس منشغلاً في غضون ذلك في ساموس في تجنيد الرجال لحملته، وقد وعدهم بأن يقطعهم أرضاً واسعة من بلاده إن حاربوا إلى جانبه وصمدوا في القتال. لما تم له الحشد اللازم، مضى إلى دلفي ليسأل العرافة عن حظوظه في استعادة ملكه في كيرينة فجاءه جواب العرافة كالتالي: «إن أبوللو لوكسياس يمنحك عرش كيرينة، وسيظل في ملك أسرتك ثمانية أجيال يحكم خلالها أربعة ملوك باسم باتوس وأربعة آخرون باسم أركيسيلاؤس، ولكنه ينصح ألا تحاول أن تطيل الملك في أسرتك أبعد مما ذكر. واحرص حين تعود أن تأخذ الناس بالحلم والرحمة. فإن وجدت الفرن مليئاً بالجرار فلا تشوها، وإنما

احملها إلى الريح لتبرد حرارتها. وإن أوقدت الفرن فلا تدخل أرضاً يحيط بها الماء، فإن فعلت لقيت حتفك ومات معك أعظم الثيران».

فلما سمع أركيسيلاؤس نبوءة العرافة مضى عائداً ومعه أنصاره الساموس، وأفلح بعدئذ في استعادة ملكه ولكنه سرعان ما نسي تحذير العرافة، فالتفت إلى خصومه واشتد في مطاردتهم، فهرب بعضهم من البلاد، ووقع بعضهم في قبضته فبعث بهم ليلقوا الموت في قبرص، لولا أن ريحاً عاصفة هبت على السفينة التي كانت تحملهم فاضطر ربان السفينة للرسو في كنيدوس، فتدخل أهل الجزيرة وأنقذوا الجمع من موت محتوم، ثم حملوهم إلى ثيرا. وكان هناك آخرون لجؤوا إلى برج عال، وهو حصن لرجل يدعى اجلوماخوس، فأحكم أركيسيلاؤس حصارهم ثم أشعل النار في حطب كان قد جمعه وأحاط به الحصن، فقضى على من فيه ولم ينج أحد. ولما أتم فعلته أدرك، بعد فوات الأوان أن ما أتى به كان ما قصدت به النبوءة وحذرت العرافة من اقترافه، حين قالت له أن ينأى عن شي الجرار إن وجدها في الفرن، فآثر البعد عن كيرينة، إذ حسبها أنها «الأرض التي تحيط بها الماء» التي ذكرتها النبوءة، خشية أن تتحقق نبوءة موته. ولجأ الرجل إلى حاكم برقة ألازير، وهو يتصل به بالدم كما أنه والد زوجه؛ وفي برقة وقع عليه الناس وبعض اللاجئين إليها هرباً منه، وهو في سوق المدينة، فهجموا عليه وقتلوه، كما قتلوا ألازير والد زوجه. وهكذا أدى الجهل بمغزى النبوءة بأركيسيلاؤس أو تجاهله أن يحققها ويأتي بنهايته.

وفيما كان أركيسيلاؤس في برقة، بعد أن أتى بما حمل إليه فناءه، أخذت أمه زمام الأمور بيدها نيابة عنه في كيرينة، واتخذت مكانها في مجلس الحكم؛ ولكن سرعان ما هربت إلى مصر بعد أن بلغها خبر مصرعه في برقة، ولجأت إلى حمى قمبيز بن قورش، وكان أركيسيلاؤس قد أدى له في الماضي خدمات معينة، فهو الذي مكنه من كيرينة وأصبح يقدم له جزية معلومة. فلما بلغت مصر، ذهبت إلى عامل قمبيز أرياندیس وتظلمت له، وطلبت منه الدعم والمؤازرة

بدعوى أن ولدها إنما قتل بسبب ميله إلى الفرس. وكان قمبيز قد اعتمد أرياندیس هذا عاملاً على مصر، ثم قتله داريوس بسبب طموحه إلى منافسته، وتفصيل الأمر أن أرياندیس هذا استرعى انتباهه ما رآه من داريوس وبلغ سمعه من انشغاله بتخليد ذكره بأمر لم يأت به أحد من الملوك من قبل، فشرع أرياندیس يقتدي به ـ إنما سرعان ما لقي عاقبة رعونته، ومن ذلك أن داريوس ضرب عملة من الذهب الخالص تقريباً فاقتفى أرياندیس حاكم مصر أثره فضرب هو أيضاً نقداً من الفضة ـ ومازال الأرياندي إلى اليوم أصفى نقود الفضة. فلما بلغ الخبر درايوس غضب لمسلك عامله، ولكنه أخفى حقيقة السبب، فاتهمه بالعصيان ثم قتله لخيانته.

ولكن عوداً إلى قصتنا نقول إن أرياندیس أشفق على حال فرتيما حين سمع روايتها، فوضع بإمرتها كل ما توفر لمصر من قوات البر والأسطول، وولى أمازيس المارافي قيادة القوات البرية وبادريس الباسارجادي على رأس الأسطول؛ ومضى بعدئذ فأرسل إلى برقة يسأل عن اسم الرجل الذي قتل أركيسيلاؤس، قبل أن يصدر أمره لقواته بالتحرك والهجوم. فرد عليه أهل البلد بأنهم جميعاً مسؤولون بالتساوي عن قتله ـ جزاء وفاقا لما نالوا من عسفه. فأمر أرياندیس عندئذ قواته بالمسير وعلى رأسهم فرتيما. وكان هذا السبب الذي تذرع به أرياندیس للهجوم على برقة؛ أما هدفه الحقيقي من الحملة فأحسب أنه إخضاع ليبيا. ذلك أن ليبيا بلد يحفل بالأقوام والجماعات، وقلة منها تخضع لملك فارس، وأكثر الناس فيها لا يأبهون باسم داريوس.

وها إني مفصل لكم القبائل الليبية حسب تسلسلها: فبدءاً من جهة مصر هناك أولاً الأديرماخيداي، وأسلوبهم في الحياة شبيه بأسلوب المصريين، أما ملبسهم فهو لباس الليبيين. وأما نساؤهم فيزين كل ساق بحلقة من البرونز، ويسرحن شعورهن؛ وإذا وجدن قملة عضضنها قبل أن يرمين بها بعيداً. وهذه هي القبيلة الليبية الوحيدة التي تأخذ بهذه العادة، ومن عاداتهم أيضاً أن

يصطحبوا العروس لمقابلة الملك قبل أن تزف إلى زوجها. فإذا استحسنها افتضها. وهذه القبيلة تنتشر بما بين حدود مصر والميناء الذي يدعى بلينوس.

وبعد هؤلاء تأتي قبيلة الجيليجاماي التي تمتد أرضها حتى جزيرة الأفروديسياس غرباً؛ وفي الوسط تقع بلاطية، وهي الجزيرة التي تقع قبالة الساحل وحل فيها أهل كيرينة قبل أن يقيموا مستوطنتهم فيها، وعلى الساحل يقع ميناء منيلاوس، وفي العمق مدينة أزيريس التي أقام فيها أهل كيرينة فترة من الزمن. وفي ذلك القسم من البلاد يجد المرء الانجذان (عود الرقة)، الذي يمتد من جنوب بلاطية إلى مصب نهر السرتيس. والجيليجاماي يعيشون نمط الحياة ذاتها التي تعرف في القبائل الأخرى. وهناك إلى الغرب الأسبيستاي وبلادهم أبعد من كيرينة، ولكنها لا تبلغ الساحل الذي يحتله الكيريون ويتميز أبناء هذه القبيلة بين الليبيين بركوبهم عربات تجرها أربعة أحصنة، وهم يجهدون في الاقتداء بأسلوب حياة الكيريين. ويليهم غرباً، بعد، الأوسخياي الذين يعيشون جنوب برقة ويتصلون بالبحر قريباً من أيوسبريديس. كذلك تعيش في هذه المنطقة عشيرة البصقال، وتتصل مرابعهم بالساحل بالقرب من تاوخيره، وهي بليدة تتبع برقة؛ ولهؤلاء نمط في العيش مماثل لنمط أهل جنوب كيرينة.

وإذا ما تابع المرء طريقه غرباً صادفه الناسامونيان وهم كثر، وجرت عادتهم على ترك ماشيتهم في الصيف ترعى عند الساحل ويمضون هم إلى موقع يدعى أوجيلاء في أعالي المنطقة للعمل في جني التمر. وأشجار النخيل تنمو بكثرة في هذه المنطقة، وهي ضخمة كثيرة الثمر، ليس بينها شجرة عاقر. وهؤلاء القوم يصطادون الجراد الذي يجففونه تحت أشعة الشمس، ثم يطحنونه حتى يصبح دقيقاً ويتناولونه ممزوجاً بالحليب. ومن عاداتهم أن يتخذ الرجل عدة زوجات، والمرأة عندهم مشاع، مثل ماهي عند الماساجيتاي - وإذا أراد الرجل أن يضاجع امرأة ضرب عموداً، إشارة إلى رغبته في امرأة تشاركه الفراش. ومن

عادات هؤلاء القوم أن يقيم الرجل عند زواجه الأول حفلة، وفيها يتعاقب ضيوفه على عروسه، الواحد تلو الآخر ثم يقدمون لها هدايا متواضعة من موجودات بيوتهم. وإذا أقسم أحدهم فبأحد أهل السمعة الطيبة والشجاعة من أهل العشيرة، ويضعون أيديهم على قبر أهل الذكر الصالح؛ وأما العرافة عندهم فقد جروا فيها على أن يقوم صاحب المسألة بالصلاة على قبور أسلافه ثم يسترسل في النوم ويأخذ في تأويل ما يتوارد إليه في الحلم. ومن تقاليدهم أيضاً أن توثق العهود بين المتعاهدين بتناول الشراب من أيدي بعضهم بعضاً، فإذا افتقدوا ما يشرب التقطوا بعض التراب وأخذوا في لعقه.

ويسكن إلى جوار الناسامونيان، قبيلة البسيلي - لكنهم انقرضوا وضاع أثرهم. ويروي الليبيون عنهم رواية أثبتها ههنا، كما بلغتني فيقولون إن ريح الجنوب هبت على منطقة هؤلاء ذات مرة فجفت مياه الخزانات فلم يبق لهم ما يشربونه، وأرضهم يرويها كلها نهر السرتيس. ولما أخذوا يعانون من شدة الجفاف تداعوا إلى اجتماع للنظر فيما ينبغي عمله؛ وكان أن اتخذوا قراراً بالإجماع بشن الحرب على ريح الجنوب، وهكذا خرجوا إلى الصحراء لقتال الريح، وإذ بعاصفة تهب عليهم حاملة كثباناً من الرمل فقضت عليهم، ولم تبق منهم أحداً، وقد حل محلهم في ملكهم الناسامونيان.

وفي الجنوب من تلك النواحي، حيث يصادف المرء الوحوش الضارية، يعيش الجرامانتيس؛ وهؤلاء قوم منعزلون ويتحاشون الاتصال بالآخرين. ولا يملكون أي أداة من أدوات الحرب، ولا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم. ويجاور الناسامونيان، على الساحل غرباً، قبيلة المكاي. وهؤلاء يجعلون شعرهم في شكل عرف الفرس، فيحلقونه على طرفي الرأس ويطلقونه في الوسط؛ وإذا خرجوا للحرب حملوا دروعاً من جلد النعام. وفي بلادهم يجري نهر سينبس ويصب في البحر، ومنبعه في تلة تدعى تل النعم، وتقع على بعد خمسة وعشرين ميلاً، وهي عامرة بالأحراج، على غير ما هو الحال في ليبيا كما جرى وصفها

حتى الآن، فهي أرض جرداء تماماً.

ويلي هؤلاء الجندان، ونساء هذا القبيلة يزين كواحلهن بعقد من الجلد، فتضع المرأة منهن شريطاً من الجلد حول الكاحل عن كل رجل عاشرها، وكلما ازدادت الأشرطة في كاحلها ازدادت جاذبية وذاع صيتها، لأن كثرة الأشرطة تعني كثرة عشاقها. وفي بلاد الجندان رأس يمتد من البر إلى البحر، وهنا يعيش اللوتوفاجي، وهذه القبيلة تعيش على ثمرة اللوتس، وهي بحجم توت المصطكي، وهم يصنعون منها خمرهم.

وفي جوار اللوتوفاجي على الساحل يسكن الماخليان الذين ينتفعون أيضاً باللوتس، ولكنهم دون اللوتوفاجي في إقبالهم على هذه الزهرة.وتمتد أرضهم حتى نهر كبير يدعى تريتون الذي يصب في بحيرة تريتونيس، وهي بحيرة واسعة، تتوسطها جزيرة تدعى الفلا؛ ويقال إن إحدى النبوءات تدعو اللاكيديمونيين إلى توجيه المستوطنين إلى هذه البحيرة. كذلك تقول إحدى الروايات إن جاسون حمل على سفينته الآرجو، بعد أن أنجز بناءها على جبل بليون، منصباً بثلاث قوائم، إضافة إلى النذور المألوف تقديمها للآلهة، فدار حول الجزر البيلوبونيزية في رحلته إلى معبد دلفي، ولما بلغ موقعاً قريباً من رأس ماليا هبت عليه عاصفة شمالية ورمت به في ليبيا؛ وتبين جاسون أنه قد وقع وسفينته في بحيرة تريتونيس الضحلة. وأخذ يقدح زناد الفكر عله يجد طريقاً للخلاص من هذا المأزق؛ وفيما كان مستغرقاً في التفكير ظهر أمامه تريتون وسأل جاسون أن يعطيه المنصب الثلاثي القوائم فيدله إلى قنال يبحر فيها ويدعه يخرج وبحارته بأمان. فنفذ جاسون ما طلب منه، وبالمقابل دل تريتون طاقم السفينة إلى طريق الخروج من البحيرة الضحلة. ومضى من ثم فوضع المنصب في معبده بعد أن عرض نبوءته على مسمع من بحارة الأرجو، فقال إن القدر قد شاء أن تقوم مئة مدينة إغريقية على ضفاف بحيرة تريتونيس حين يعود أحفادهم ويعودوا بالمنصب. وقد عمد الليبيون حين بلغتهم النبوءة إلى

إخفاء المنصب عن الأنظار.

وإلى جوار الماخليان تسكن قبيلة الأوزي، والقبيلتان كلتاهما تقيم على ضفاف البحيرة، والنهر الحد الفاصل بين أراضيهما. ومن عادات الماخليان أن يطيلوا الشعر خلف الرأس، أما الأوزي فيطيلون شعر المقدمة. وقد جرى هؤلاء القوم على الاحتفال كل عام بعيد أثينا، وفيه تتوزع الفتيات بين مجموعتين تتقاتلان بالحجارة والعصي، ويقولون إنهم ورثوا هذا الطقس من أقدم الأزمان «ويؤدونه أثينا الإغريقية» وإذا أصيبت إحدى الفتيات ماتت خلال المعركة كان ذلك دليلاً على عدم عذريتها. ومن عاداتهم في هذا الاحتفال أن يختاروا الأجمل بين فتياتهم ويلبسونها درعاً إغريقياً ويضعون على رأسها خوذة كورنثية، ثم يحملونها على عربة ويدورون بها حول البحيرة. أما الذي كانوا يلبسونه قبل نزول الإغريق في جوارهم فأمر لا أملك فيه قولاً. ولكني أحسب أنهم كانوا يرتدون الدروع المصرية ـ ذلك أني واثق من أن الإغريق أخذوا الدروع والخوذات عن المصريين.

ويذهب القوم إلى أن أثينا إنما هي ابنة بوسيدون وبحيرة التريتونيس، ولكنها افترقت عن أبيها، بعد مشادة فذهبت إلى زيوس الذي اتخذها ابنة له. ونساء هذه القبيلة مشاع بين رجالها، فلن تقع على أزواج وإلى جانبهم زوجات، والجماع أمر عارض عندهم، كما هو عند الحيوان. وإذا ولد طفل انتظروا حتى يشب عن الطوق، فيعقدون عندئذ مجلساً، وهو مجلس يعقد دورياً كل ثلاثة أشهر، ويدعون إليه هذا الفتى وينسب فيه إلى من كان أقربهم إلى شبهه بين الحضور.

تلكم هي قبائل البدو التي تسكن ساحل ليبيا. أما جنوباً فندخل منطقة تحفل بالوحوش الضواري،وما بعدها طوق عظيم من الرمال يمتد من طيبة في مصر حتى أعمدة هرقل، وتنتصب على امتداده تلال من الملح، بين التل والآخر مرحلة عشرة أيام، وينبع من أعلى كل تل عين من الماء البارد طيب المذاق. والناس هناك يعيشون بالقرب من هذه الينابيع، وهي تقع ما وراء أرض الوحوش،

باتجاه الصحراء، ولا يبلغها إنسان. وأول تلك الأقوام، وهم على بعد مرحلة عشرة أيام من طيبة، الأمونيون ومعبدهم مأخوذ عن زيوس الطيبي (آمون) - وقد سبق أن ذكرت أن - وجه زيوس في المعبدين على صورة وجه كبش. وهناك نبع آخر في تلك الأنحاء يصدر الماء فاتراً في الصباح الباكر ثم يبرد مع اقتراب ساعة افتتاح السوق، ويصبح مثلجاً في العصر، وهو الوقت الذي يتم فيه ري البساتين؛ في المساء يفقد الماء برودته تدريجياً حتى يصبح فاتراً من جديد، بعد المغيب، وتبقى حرارته في ارتفا ع لتبلغ درجة الغليان في منتصف الليل؛ وتعود الدورة بعد الفجر من جديد، فيصبح الماء فاتراً فبارداً، وهكذا دواليك.

وإذا سار المرء غرباً مرحلة تبلغ عشرة أيام من موقع الأمونيين على امتداد نطاق تلال الرمل صادف نبعاً آخر من تلك الينابيع، ويعرف هذا الموقع باسم أوجيلا، وهو آهل بالسكان، وإليه يأتي النسامون لقطاف التمر؛ وإذا تابع المسير نحو الغرب مسافة مثل تلك وجد نبعاً وتلاً مثلما صادفه، وفي هذا الموقع أشجار نخيل مثمرة، مثل مناطق الينابيع الأخرى، ويعيش هنا الجرامنت، وهم كثيرو العدد ويعملون في الزراعة، وأسلوبهم في ذلك مد طبقات من التربة فوق الملح ثم نثر البذور عليها. وأقصر طريق بين الجرامنت واللوتوفاجي مرحلة من ثلاثين يوماً؛ وتتميز الماشية عند هؤلاء بأنها تسير في الرعي القهقرى، والسر في عادتها الغريبة هذه هو قرونها المعقوفة إلى الخلف، مما يحول دون الحركة إلى الأمام على النحو المألوف، فلو كانت حركتها هكذا لعلقت بالأرض؛ وهي عدا ذلك ماشية ككل المواشي الأخرى، سوى أن جلدها أشد قساوة ومتانة. وهؤلاء الجرامنت يطاردون سكان الكهوف الأثيوبية، ويستخدمون في مطارداتهم عربات تجرها أربعة جياد، ليتمكنوا من ملاحقة هؤلاء القوم الذين يتسمون بسرعة الركض - ولا يجاريهم في ذلك أي من الأقوام المعروفة؛ وطعام هؤلاء الأفاعي والسحالي وغيرها من الزواحف، وليس للغتهم ما يشبهها بين اللغات، فهي أصوات كأصوات الوطواط.

وإذا قطع المرء مرحلة عشرة أيام من بلاد الجرامنت صادف تلاً آخر ونبعاً، وعندهما تبدأ بلاد الأتارانتيان وهؤلاء القوم هم الوحيدون، بين الشعوب التي نعلم بها، الذين لا يستخدمون الأسماء. وهم يلعنون الشمس عند طلوعها ويطلقون في شتمها كل أصناف النعوت، فهي عندهم تحرق كل ما تحتها من أبناء القوم وأرضهم. وإذا سار المرء مسافة عشرة أيام بلغ مرة أخرى تلاً من الملح ونبعاً وقطعة من الأرض مأهولة بالسكان، ولصيقها جبل أطلس، وهو مخروط الشكل وشديد الارتفاع، ويقول من أخبرنا أنه أبعد من مد النظر، ويطلق عليه أهل البلاد ويعرفون بالأطالسة (نسبة إلى الجبل) اسم عمود السماء. ويقال إنهم لا يأكلون أي مخلوق حي ولا تراودهم الأحلام في النوم.

ولقد أمكنني أن أعرض حتى الآن أسماء القبائل التي تسكن نطاق تلال الرمل، وما بعده خارج عن معرفتي. لكنني أملك أن أجزم أن هذا النطاق متصل حتى يبلغ أعمدة هرقل وما بعدها، وأن كثبان الملح والينابيع تتوالى ويفصل بين بعضها بعضاً مسافة يقطعها المرء في عشرة أيام، والجوار مأهول بالناس. والبيوت في تلك الأصقاع مبنية من قوالب من الملح مما يعني أنها مناطق جافة لا تعرف المطر، ولولا ذلك لانهارت جدرانها(ذابت). والملح هناك على لونين، فهو إما ابيض أو أرجواني اللون. وهناك إلى الجنوب من نطاق الرمل، صحراء قاحلة لا يرويها مطر وجرداء من كل شجر وخالية من الحيوان، ولا تعثر فيها على قطرة ندى مهما كانت.

إن ساحل ليبيا، ما بين مصر وبحيرة تريتونيس مسكون إذن بالبدو الرحل، وغذاؤهم اللحم والحليب، ولكنهم لا يعنون بتربية الخنازير، ويعرضون عن لحم البقرة لذات السبب الذي يحمل المصريين على الامتناع عن تناول لحمها. بل إن نساء كيرينة يحرمن أكل لحم البقرة إجلالاً لايزيس المصرية التي يصمن لها ويكرسن الاحتفال تكريماً لها. كذلك تمتنع نساء برقة عن لحم الخنزير والبقرة سواء بسواء. ولا يصادف المرء غرب بحيرة تريتونيس أياً من عشائر البدو؛

والناس هنا يختلفون عن سواهم في نمط الحياة عموماً كما في نهجهم في معاملة الأطفال. فهناك الكثير من البدو - ولست أقول كلهم - يعمدون إلى كي عروق الرأس والصدغين أحياناً، حين يبلغ الطفل الرابعة من العمر، بوضع قطعة من الصوف مدهونة بالشحم على المنطقة التي يراد كي العروق فيها، فيكون ذلك تحصيناً له من الزكام. ولذلك تجد أطفال هؤلاء القوم أسلم الناس في العالم صحة - أو أنهم، وهذا حق، أفضل صحة من أي عرق آخر عرفته، وإن كنت غير واثق من أن هذا هو السبب في سلامة صحتهم. أما أنهم يتمتعون بصحة ممتازة فحقيقة ثابتة مؤكدة. ولقد وجد القوم فائدة مؤكدة في رش الطفل ببول الماعز، علاجاً وقائياً من مضاعفات الكي - وإني أكرر الآن ما سبق أن أثبته من قبل وهو أنني إنما أقول هذا نقلاً عن محدثي الليبيين. ولهؤلاء البدو أسلوب في تقديم القرابين يبدأ بقطع أذن الأضحية وإلقائها على البيت، ثم يكون احتزاز رقبة الحيوان الأضحية. وهم يقدمون القرابين تزلفاً للشمس والقمر وعبادتهما شائعة بين مختلف الليبيين، وإن كان أولئك الذين يعيشون حول بحيرة تريتونيس يخصون الإلهة أثينا بقداسة خاصة، ويليها تريتون فبوسيدون. والواضح عندي أن الإغريق أخذوا عن أزياء الليبيات الثياب والإيجيس التي يزينون بها تماثيل الإلهة أثينا، سوى أن الليبيات يستخدمن الجلود في صنع ملابسهن، ويزين أطرافها بالجلد بدلاً من توشيتها برسوم الأفاعي والحيات، وعدا ذلك كل شيء سواء. وبعد فإن كلمة ايجيس تبين بذاتها أن الزي الذي يوضع على تماثيل الآلهة إنما هو من أصل ليبي؛ ذلك أن الليبيات يستخدمن في صنع ملابسهن جلد الماعز بعد جز شعرها وصبغه باللون الأحمر، ويزين أطرافه بالتوشيات، ومن هذه الجلود اشتق الإغريق كلمة ايجيس. وفي اعتقادي أيضاً أن عادة الندب والنواح في الطقوس ليبية الأصل - فالليبيات يدمن هذه العادة، ولهن فيها أسلوب جميل. ولقد أخذ الإغريق عن الليبيين كذلك استخدام أربعة جياد في جر العربات. وبدو ليبيا، عدا الناسامونيان، يدفنون موتاهم كما الإغريق؛ وجدير

بالذكر أن الناساموينان يوارون موتاهم وهم في وضع الجلوس، ويحرصون على أن يظل المحتضر في هذا الوضع، ولا يدعونه ليموت مستلقياً. ويسكن هؤلاء البدو في بيوت متنقلة (خيام) مصنوعة من أوراق بعض النباتات المجففة التي يشدونها إلى بعضها بعضاً بحبال. وهناك في ليبيا غرب نهر تريتون ووراء أوسيس، بعد، قبائل تسكن البيوت العادية ويمارس أبناؤها الزراعة. وأول هذه القبائل المكسيس الذين يطلقون شعرهم على الجانب الأيمن من الرأس ويحلقونه على الطرف الأيسر. ولهم عادة في صبغ أبدانهم بصباغ آخر، ويزعمون أنهم من نسل رجال طروادة. إن البلاد هنا، وبقية البقاع غرب ليبيا، غنية بالغابات والحيوانات البرية مما لا نظير له في المناطق التي يسكنها البدو. وهذه المنطقة، عنيت شرق ليبيا، أرض واطئة ورملية، حتى يبلغ المرء نهر تريتون، بينما تتميز المنطقة الزراعية بكثرة مرتفعاتها وغاباتها وأحراجها وحيواناتها. فهناك تصادف الأفاعي الضخمة والأسود والفيلة والدببة والحيات السوداء والحمير ذات القرون، فضلاً عن الرجال الذين يحملون وجوه الكلاب، وأولئك الذين لا يحملون رؤوساً ويبصرون بعيون موقعها في صدورهم (والعهدة في هذا على الليبيين) والمتوحشين والمتوحشات، وغير هذا وذاك من المخلوقات كثير، وإن لم تكن من الخوارق. ولكن المرء لا يصادف شيئاً مما وصفت في بلاد البدو، وإنما يجد الأيل ذات الردف الأبيض والغزلان والوعول والحمير - ولست أعني تلك التي تحمل قروناً في رؤوسها، وإنما قصدت نوعاً مختلفاً من الحمير، وهو بغنى عن الماء، بل إنه يعرض عن شربه، ونوعاً آخر من الأيل بحجم الثور، وتستخدم قرون هذا النوع من الأيل في حفر جوانب القيثارة، والثعالب والضباع والقنفذ، وأغنام البراري والفهود وسوى ذلك من التماسيح البرية، وهي أشبه بالسحالي إنما أضخم حجماً، ويبلغ طولها أربعة أقدام ونصف القدم، والنعام، والحيات الصغيرة وحيدة القرن. وهذه المخلوقات كلها يصادفها المرء إلى جانب الحيوانات الأخرى المألوفة في غير تلك الأصقاع، عدا الظبي والخنزير البري

الذي تخلو منه ليبيا تماماً. غير أن هناك في تلك الأنحاء ثلاثة أنواع من الفئران هي الديبود والزجري والإتشين - هذا فضلاً عن الدلق الصغير الذي يصادف في أحراج الأنجذان، وهو يشبه الدلق الذي يعيش في طرطسوس. حسبنا إذن ما عرضنا من حياة الحيوان في ذلك الصقع، وحيث يتواجد البدو، في ليبيا؛ وما قدمت في هذا العرض هو قدر ما أتاحت لي استقصاءاتي بلوغ معرفته على وجه التمام والدقة.

إذا تابع المرء رحلته غرباً من الماكسيس فإنه يصادف الزاويسن ومن نسائهم من يعملن في قيادة عربات القتال. ويجاور هؤلاء الجيزانت، وبلادهم غنية بالعسل، والكثير منه نتاج النحل، لكن أكثره من مادة السكر والشائع عند هؤلاء القوم صباغة البدن بالأحمر، وكل فرد منهم يقبل على هذا الصباغ، ويأكلون لحم القرود، وهي كثيرة في جبالهم. وهناك قبالة الساحل جزيرة تدعى كيراونيس، حسب رواية القرطاجيين، وتبلغ خمسة وعشرين ميلاً طولاً، وتكثر فيها أشجار الزيتون والكرمة وفي هذه الجزيرة بحيرة تقبل عليها الفتيات لاستخراج شذرات الذهب المترسبة في طين القاع، ووسيلتهن في ذلك رمي ريش الطيور المدهون بالقطران لتعلق بها- والعهدة على الراوي. ومع ذلك فقد لا تعدم هذه الرواية نصيباً من الحقيقة، فقد شهدت بنفسي مثل هذه الواقعة. في زاكينتوس، حيث يستخرج القطران من ماء إحدى البحيرات. وفي زاكينتوس عدد من البحيرات أو برك يبلغ طول أوسعها سبعين قدماً ومثل ذلك عرضها، وعمقها مقدار قامتين. ووسيلة أهل زاكينتوس في استخراجه من البحيرة تتمثل في ربط غصن الآس إلى رأس عصاً طويلة فيدفعون بها إلى قاع البركة فيعلق القطران ثم يسحبون العصا، وقد تكوم حول الغصن ما في القاع من تلك المادة. ولهذا القطران رائحة القار المعدني، إلا أنه أفضل من قطران بييريا. ويصب هذا القطران بعد استخراجه في حفرة بالقرب من البركة، فإذا اجتمع للقوم مقدار حسن منه قاموا بصبه في جرار. إن كل ما يسقط في هذه البركة ينزل

إلى أعماقها ثم يظهر ثانية في البحر، وهو يبعد عنها مسافة نصف ميل. وإذن فقد تكون تلك الرواية عما يجري في الجزيرة صادقة، وليس ذلك مستبعداً في ضوء ما سلف ذكره عن أمر تلك البركة.

ويروي القرطاجيون أن لهم تجارة مع قوم يسكنون وراء أعمدة هرقل، فيسافرون إليهم، وحين يبلغون أرضهم يعرضون بضاعتهم في ترتيب حسن عند المرفأ، ثم يشعلون ناراً ليصعد منها الدخان، ويقفلون عائدين إلى مراكبهم؛ فيأتي أولئك القوم عند رؤية الدخان ليضعوا مقداراً معيناً من الذهب على الأرض مقابل تلك البضاعة، ثم يبتعدوا مسافة ويقبعوا في مكانهم. فينزل القرطاجيون إلى الشاطئ ليحملوا الذهب معهم؛ فإذا وجدوا ما دفع مناسباً أخذوا ثمن بضاعتهم ورحلوا، وإلا مكثوا حيث هم، حتى يقترب الزبائن ويزيدوا بما يرضي التجار. والصدق والأمانة في هذه العلاقة بين الطرفين على أتم وجه، فلا القرطاجيون يمسون الذهب ما دام دون السعر المطلوب ولا الأهالي يمسون البضاعة قبل أن يحمل أصحابها الذهب ويمضوا في طريقهم.

لقد ذكرت الليبيين الذين أحطت بأسمائهم كافة ؛ ومعظم هؤلاء لا يأبهون بملك فارس ولا كانوا يحفلون به في الماضي. ولعلي أضيف فأقول في أمر هذا الصقع أنه مسكون من أربعة أقوام لا خامس لها. فالسكان الأصليون فيه هم الليبيون والأثيوبيون، والليبيون يسكنون البقاع الشمالية من البلاد بينما يسكن الأثيوبيون جنوبها. وأما الوافدون فهم الفينيقيون والإغريق. وإن أرضهم شديدة الخصب، دونها آسيا وأوروبا فلا يضارعها سوى بلاد السنيبس الذي يجري فيها النهر الذي تنسب إليه، وهي تختلف أشد الاختلاف عن بقية أنحاء ليبيا، وهي أفضل ما تكون لزراعة الحبوب. والتربة هنا غير ما هي عليه في البقاع الأخرى، ولونها أسود، ترويها مياه الينابيع؛ ثم إنه لا يخشى عليها من القحط أو سيول المطر (فالمطر يهطل في تلك البقعة من ليبيا)، وما تنتجه من المحاصيل يعادل محصول بلاد بابل. وهناك تربة طيبة في أيوسبريدس - وهي تأتي في

أفضل الأعوام بمائة مثل، لكن أرض السنيبس تأتي بثلاثة أضعاف هذا. وتنفرد أرض كيرينة،وهي أعلى بقعة في ذلك الصقع من ليبيا ويسكنها البدو، بمزية خاصة هي أنها تتمتع بثلاثة مواسم الأول ويختص بالقمح الذي يزرع في الحقول القريبة من الساحل، وهو مبكر؛ وما يكاد محصول منطقة الساحل يتم حصاده إلا ويكون محصول ما يسميه أهل البلاد بمنطقة الجبل، وهي أعالي البلاد قد بات مهيئاً للحصاد والدرس؛ فإذا انتهى هذا الموسم كان البدء بحصاد محاصيل المنطقة الثالثة الأخيرة، وهي الأعلى وبذلك تكون دورة الزراعة عند أهل كيرينة السعداء على مدى ثمانية أشهر متصلة. وحسبنا الآن ما فصلنا في هذا الموضوع.

ما إن وصلت القوات التي أرسلها أرياندس من مصر لمساعدة فرتيما حتى أحكمت الحصار حول برقة، داعية أهلها إلى تسليم المسؤولين عن مقتل أركيسيلاوس، إلا أن سكانها رفضوا الدعوة، قائلين إنهم جميعهم متساوون في المسؤولية. واستمرت تلك القوات في حصارها تسعة أشهر متصلة، والفرس يحاولون خلالها فتح أنفاق تحت الأرض ودخول المدينة بالتسلل بعدما امتنعت عليهم وردت هجماتهم؛ وفيما كان المحاضرون يشددون حصارهم والمدينة ممتنعة لا يقدرون على دخولها، أخذ أحد الحدادين يستطلع ويستقصي نقاط الضعف في أسوارها، حتى يكتشف الثغرات فيها، بطريقة ذكية، إذ سار يطوف حول تلك الأسوار ويطرق أرضها بدرع من البرونز فيأتيه الصدى كتيماً، إلا في منطقة معينة فكان لطرقه رنين. ولقد حاول الفرس استغلال هذه الثغرات والنفاذ منها، لولا يقظة أهل برقة وتصديهم للمتسللين الفرس ورد هجماتهم عن أسوارها.

ولما طال الحصار وضاق الجمعان وساد الغم على الجانبين، لكثرة الخسائر، وخاصة من طرف الفرس فتوصل أمازيس، قائد المشاة، إلى أساليب مبتكرة لكسر هذا الجمود؛ فقد أدرك أنه لن يستطيع أن يأخذ برقة عنوة، إذن فليكن

بالخدعة. فكان أن انتظر حتى حل الظلام فأمر بحفر خندق عريض ثم وضع فوقه ألواح الخشب الرقيق لتكون غطاء له. وفي فجر اليوم التالي دعا أهل برقة إلى اجتماع للصلح فرحبوا بالدعوة؛ ولقد انتهى الاجتماع بالاتفاق، وكان العهد بين الطرفين، وهما واقفان على الخندق المستور بأن يقدم أهل برقة لملك الفرس مقداراً مناسباً من المال، ويمتنع الفرس بالمقابل عن مضايقتهم، ويظل هذا الاتفاق سارياً ما دامت الأرض التي يقفون عليها ثابتة. فلما تم تبادل العهود، خرج أهل برقة وفتحوا أبوابها، لا يراودهم خاطر بخديعة، ودعوا من يشاء من الفرس لدخول مدينتهم. فقبل الفرس الدعوة وأسرعوا إلى دخول المدينة ـ إنما بعد أن هدموا الخندق المخفي، حرصاً على قسمهم لأهل برقة بالالتزام بالعهد طالما ظلت الأرض التي يقفون عليها ثابتة. فإذا مادت الأرض، بطل العهد.

ولقد سلم الفرس لفرتيما المتورطين في مقتل أركيسيلاؤس، فنصبت لهم الخوازيق حول أسوار المدينة، وبها ماتوا. ومضت فقطعت أثداء زوجاتهم، وقتلتهن على نحو ما قتلت أزواجهن على الخوازيق. أما أهالي المدينة فقد تركت أمرهم لجنود الفرس ليفعلوا بهم ما شاؤوا، سوى آل باتوس وأولئك الذين لم يكن لهم يد في قتل أركيسيلاؤس. وقد تركت لهؤلاء السيطرة على المدينة. وماعدا هؤلاء وأولئك أخذ الفرس الناس جميعاً عبيداً، ثم مضوا عائدين إلى وطنهم. ولقد ارتضى أهل كيرينة أن يدعوا جيش الفرس يمر ببلدهم، وهو في عودته، تحقيقاً لنبوءة من النبوءات ظهرت لهم. فلما دخلوا المدينة وأخذ الجند يجولون في شوارعها، خطر لبادريس قائد الأسطول أن يستولي جيشه عليها، فعارضه قائد المشاة أمازيس، على أساس أن الحملة إنما هدفت في الأساس إلى إخضاع مدينة إغريقية هي برقة وحدها.

ومع ذلك فإنهم ما إن غادروا المدينة وتوقفت مسيرتهم عند تلة زيوس اللكياني حتى ندموا لضياع فرصتهم بالاستيلاء عليها، فعادوا إلى كيرينة من جديد، لكن أهلها رفضوا السماح لهم بالدخول، فدب الذعر في صفوف الفرس،

بالرغم من أنه لم يقع بينهم والسكان أي اشتباك، فتراجعوا على عجل مسافة سبعة أميال قبل أن يتوقفوا للاستراحة. وهناك أقاموا معسكرهم وبلغتهم رسالة أرياندیس يأمرهم فيها بالعودة؛ فطلبوا من كيرينة إمدادهم بالمؤن، حينذاك، فأمدتهم بما شاؤوا فأسرعوا بالعودة إلى مصر. ولقد تبعهم الليبيون وتبعوا فلولهم طمعاً في ملابسهم وعتادهم، حتى حدود البلد.

كانت أيوسبريديس أبعد نقطة بلغها جيش الفرس في ليبيا. وأما أهل برقة الذين اتخذهم الفرس عبيداً فقد أعادهم داريوس من مصر وأقطعهم قرية ليقيموا فيها، فاسموها برقة، وعهدي بها أنها مازالت قائمة.

وأما فرتيما فلم تحظ بخاتمة سعيدة. إذ سرعان ما انتهت حياتها. على أسوأ شكل، بعيد عودتها إلى مصر، وانتقامها من أهل برقة، فقد فشت في جسمها الديدان وهي ماتزال حية. وهكذا قدمت ابنة باتوس درساً بما أتت به من العسف بأهل برقة على أن الولوغ في الانتقام لا بد من أن يأتي بغضب الآلهة.

الكتاب الخامس[1]

تربسيخوري

بدأ الفرس الذين خلفهم الملك داريوس، وعلى رأسهم ميجابازوس، بإخضاع البيرنث، قبل أي من دول الهيلسبونت، لإبائهم الخضوع له. وقد سبق لهؤلاء البيرنث أن تعرضوا للعسف من البايون، وهم قوم يسكنون النواحي القريبة من نهر الستريمون. وتفصيل ذلك أن هؤلاء شنوا ذات يوم حرباً على البيرنث امتثالاً لإشارة عرافة إذا تقابل المعسكران فتحدوهم بالاسم، فيكون لهم أن يقاتلوهم، وإلا فليس لهم أن يتورطوا معهم في قتال. ولقد أخذ البايون بما أشارت به العرافة؛ ثم كان أن خرج رجالهم ذات يوم لمباراة البيرنث في ظاهر مدينتهم: رجلاً لرجل وحصاناً لحصان وكلباً لكلب؛ وكان الفائز فيها البيرنث، إذ غلبوا منافسيهم في مباراتين من المباريات الثلاث، فابتهجوا لهذا الفوز وأقاموا احتفالاً بهذه المناسبة، وتعالى صياحهم في غمرة الفرح بكلمة «أيو بايون» (قد انتصرنا). فاعتقد البايون حين سمعوا الصيحة أن هذا ما عنته العرافة في نبوءتها، فأخذوا يقولون فيما بينهم: «قد تحققت نبوءة العرافة، وحان وقت العمل». فأطبق هؤلاء البايون على البيرنث، وهم في غمرة الاحتفال بالنصر ودحروهم، وقتلوا منهم الجمع الغفير، ولم ينج إلا القليل. كان ذلك في عهد مضى. والآن، وبالرغم من كفاح البيرنث ونضالهم في الدفاع عن حريتهم، فقد تغلب عليهم ميجابازوس والفرس بكثرة أعدادهم.

لما انتهى أمر البيرنث مضى ميجابازوس واجتاح تراقية وأخضع مدنها وشعوبها لسيطرة ملك فارس، داريوس، الذي أمر بغزو تلك البلاد. وتراقية بلاد عامرة بالسكان لا يضارعها في ذلك بلد آخر في العالم، سوى الهند. ولو قدر لأهلها الانضواء تحت لواء حاكم واحد، أو حل خلافاتهم فيما بينهم، لأضحوا

أقوى أمم الأرض، ولما استطاع بلد آخر أن يضاهيهم، ولكان لهم أن يتفوقوا على كل دول العالم. ولكن هذا الاتحاد مستحيل، وليس هناك من وسيلة لبلوغه. وهذا مكمن الضعف فيهم. ولقد عرف التراقيون بأسماء مختلفة باختلاف المناطق في بلادهم، لكنهم يتماثلون جميعاً في نواحي الحياة والسلوك، ولا يشذ عنهم سوى الجيتاي والتراوسوي وأولئك الذين يعيشون في المنطقة وراء كريستون؛ ولقد سبق لي وصف عادات الجيتاي وتقاليدهم، واعتقادهم بخلودهم. والتراوسوي يتشابهون وسواهم من التراقيين في كل أمر سوى عاداتهم في الولادة والموت. فعندما يولد الطفل يتحلق الأهل حوله ويشرعون في النحيب، ويندبون أسفاً لما سيلقاه هذا الوليد من العذاب بعد الآن، ويعددون المصائب التي نزلت بالبشرية؟ أما في الوفاة فإنهم يدفنون الميت وسط الضحك والفرح، مردديين قولهم إن الرجل خلص من المحن والآلام وبات ينعم بأتم السعادة.

أما التراقيون الذين يقيمون وراء كريستون، فقد درج رجالهم على الجمع بين عدة زوجات، وحينما يتوفى أحدهم، تتبارى نساؤه، وتتذكر كل واحد منهن مزاياها وتنسب لنفسها مكانة الحظوة لديه، فيثني أصدقاؤه على القول، ويطنبون في مدح مزاياها، ويكون نصيب من حظيت بإجماع الرأي حولها، ونالت ثناء الرجال والنساء على حد سواء، الذبح على قبره بيد أبناء عمومتها ثم الدفن بجوار زوجها. وأما نساؤه الأخريات اللواتي لم يقع عليهن الاختيار، فإن عدم اختيارهن يعد أسوأ عار يلحق بامرأة فيقعدن حسيرات حزينات. والتراقيون من غير هذه القبائل يقومون ببيع أولادهم إلى تجار الرقيق، ولا يمارسون أي رقابة على فتياتهم، بل يجيزون لهن الاتصال الجنسي بأي رجل يرغبن به. إلا أنهم يفرضون أشد الرقابة على زوجاتهم اللواتي يشترونهن من أهلهن بأثمان باهظة.

وهم يعتبرون الوشم دلالة على الرفعة، وعدم وجوده علامة تدل على الأصل الوضيع؛ وأفضل الرجال برأيهم هو المتبطل، وأما أقل الرجال احتراماً فهو

الأجير الذي يعمل في الحقول. وأشرف مصادر الدخل هي التي تتأتى من الحروب والسلب والنهب. وتلك أبرز عاداتهم. أما آلهتهم الوحيدة فهي أريس وديونيسوس وأرتميس، في حين أن ملوكهم، يختلفون عن الناس عموماً، لأنهم يعبدون هرمس ولا يقسمون بإله سواه، ويزعمون أنهم يتحدرون منه. وعندما يتوفى أحد الأثرياء منهم فقد جرت العادة على أن تمدد جثته ثلاثة أيام، يتم خلالها، وبعد فترة تمهيدية من الحداد إقامة وليمة تحفل بأنواع الحيوانات المذبوحة لهذه المناسبة؛ ثم يوارونه الثرى، سواء أحرقت جثته أم لم تحرق، ويهيلون لتراب فوقها، ويشرعون بإقامة أنواع المباريات كافة ، وتمنح الجوائز الكبرى في هذه الألعاب لقتال الأفراد.

أما البلاد الواقعة شمال تراقية، فلا تتوفر لدينا معلومات دقيقة عنها أو عن سكانها؛ لكن يبدو أنه تقع وراء الأيستر (الدانوب)، أرض لا حدود لها غير مأهولة (هنغاريا والنمسا). وأما الشعب الوحيد الذي يسكن الضفة الأخرى من الدانوب، ويلغني خبره، فهو شعب السيجناي وأفراده يرتدون، كما قيل، الزي الميدي، ولديهم أحصنة صغيرة أنوفها فطس ويبلغ طول شعرها نحو خمسة أصابع يغطي أجسامها. ولا تقوى هذه الأحصنة على حمل أحد، لكنها سريعة جداً في جر العربات، وهذا ما يفسر اعتمادهم على العربات في كل شيء. وتمتد حدود هذه البلاد لتصل حتى أينيتي على البحر الأدرياتيكي. ويزعم السيجناي أنهم مستعمرون من ميديا، لكنني لا أستطيع أن أتخيل كيف يمكن أن يكون ذلك صحيحاً - مع أن أي شيء يمكن أن يحدث في طيات الزمن السحيق. والسيجناي كلمة يستخدمها الليجوريون الذين يقيمون أعلى ماسيليا للدلالة على «التاجر»؛ وهي تعني في قبرص «الرمح». وبحسب الرواية التراقية فإن النحل يسكن البلاد الواقعة وراء الدانوب على الدوام، مما يجعل التوغل فيها أمراً مستحيلاً؛ ولكن في رأيي أن هذه القصة غير قابلة للتصديق، ذلك أن النحل ليس من الكائنات التي تحتمل البرد. وأفضل الاعتقاد بأن البرد هو الذي

يحـول دون إقـامـة الناس في تلك المناطق. تلكم هي الحـقـائق التي تناهت إلى سمـعي حـول هذه البقـعة في العـالم، والتي كـان ميـجابازوس يخـضـع المنطقة الساحلية منها للسيطرة الفارسية.

ما إن اجتاز داريوس الهيلسبونت وبلغ ساردیس، حتى تذكر الصنيع الذي أسداه له هستيايوس صاحب ملطية، وما قدم كويز الميتيليني من نصح، مما دفعه إلى أن يرسل في طلبهما ويسألهما ماذا يودان أن يقدم لهما بالمقابل. ولما كـان هسـتـيـايوس في ذلك الحين الطاغـيـة في ملطيـة، فلم يطلب منه أية دولة سـواها؛ بل طلب منه عوضاً عن ذلك، أن يقدم له ميرسينوس في بلاد الإيدون، لأنه كـان راغبـاً في إقـامـة مـدينة هناك؛ ومن ناحـيـة أخـرى، طلب كـويز وكـان مـواطناً عـادياً، تسليمه مـقـاليد الحكم في مـيتيلينه وقـد لبى لهمـا كـلا الطلبين، ومضى كل منهما إلى المكان الذي وقع عليه اختياره.

وفي غضـون ذلك شـاهد داريوس شـيـئـاً حـمله على الإيعاز إلى مـيـجابازوس بتـرحـيل شـعب البايون بأكمله من أوروبا إلى آسـيـا. ذلك أن اثنين من البـايون وهما بيجريس ومانتيس، كانا يطمعان إلى الحكم في بلدهما؛ ولذلك ما إن انتقل داريوس إلى آسيا، حتى مضيا إلى سـارديس وبرفقتهما شقيقتهما، وهي فتاة جمـيلة ذات قـوام أهيف. وفي حـفـل تتـويج داريوس أمـام أهالي عـاصـمـة ليـديا، ألبسا الفتـاة أبهى حلة وأرسلاها وعلى رأسها جرة لتمـلأها بالماء، وتقود حصاناً بإحدى يديها وتغزل الكتان وهـي تسير. وكان منظرها وهـي تشق طريقها ملفتاً للنظر بما يكفي لاجتـذاب نظر داريوس؛ ذلك أن ما كـانت تقوم به لم يـكن أمـراً متوقعاً من امرأة فارسية أو ليدية أو أية امرأة آسيوية.

والحق أن داريوس لم يلاحظهـا فـحـسب، بل أرسـل بعض حـرسـه ليـروا مـا سوف تصنع بالحصـان. ولقد تعقبـهـا هؤلاء الرجال، وما إن بلغت النـهر حتى سقت الحصان وملأت الجرة بالماء، وعادت بالطريقة نفسها التي أتت بهـا، وجرة الماء فوق رأسـهـا، تقود الحـصـان وتتـابـع غزلها. وإذ عـرت الدهـشـة داريوس لما

شاهده رجاله وما رآه بعينيه، أمر بأن تمثل الفتاة بين يديه. وسرعان ما أتت ويصحبتها شقيقاها، اللذين بقيا بقربها ليراقبا الوضع: سأل داريوس الفتاة عن قومها، فأجاب الشابان بأنهم من البايون وأنها شقيقتهما. وعندئذ أراد الملك أن يعرف من هم هؤلاء البايون وأين تقع بلادهم، ولِمَ جاء الشقيقان إلى ساردیس، فأجاباه بأنهم مستوطنون تيوقراط جاؤوا من طروادة وأن بلادهم تقع على نهر ستيرمون، القريب من الهيلسبونت، وقد جاءا إلى ساردیس ليضعا نفسيهما في خدمته. فسألهما داريوس ما إذا كانت نساء البايون يعملن بجد مثل شقيقتهما، فأكدا له ذلك بحماس شديد وكان ذلك طبعاً الغرض المرجو من عملهما.

فما كان من داريوس إلا أن كتب إلى ميجابازوس، الذي كان قد أسند إليه القيادة في تراقية، يأمره بأن يخرج البايون نساء ورجالاً من بيوتهم ويحضرهم إليه. فانطلق رسوله بأقصى سرعة إلى الهيلسبونت، وعبر المضيق، وسلم ميجابازوس الكتاب، الذي ما إن قرأه حتى استعان بمرشدين تراقيين وزحف نحو بلاد البايون. وإذ بلغ هؤلاء الخبر، زجوا بقواتهم في الطريق الساحلية، ظناً منهم بأن الفرس سوف يحاولون شق طريقهم بالقوة من ذلك الاتجاه. وكانوا على أهبة الاستعداد لمجابهة ميجابازوس، لكن ما لبث الفرس أن علموا بتجمع قواتهم لحماية الممر عند البحر المؤدي إلى بلادهم، فجمعوا المرشدين، وسلكوا الطريق الداخلية، قبل أن ينتبه البايون إلى ذلك، ونزلوا على مدنهم، التي غادرها الرجال فسقطت لقمة سائغة. فلما سمعوا بسقوط مدنهم في أيدي الأعداء، انحل عقدهم وتفرقوا؛ واستسلموا للفرس. وكانت نتيجة الحملة أن رحل عدد من القبائل البايونية، ومنهم السيروبيون والبيوبلين وغيرها حتى بحيرة بارسياس ثم نقلوا معاً إلى آسيا. أما القبائل في منطقة دوبيريس بجوار جبل بانجايوم والمقيمة على البحيرة ذاتها وهي الأجربان والأودمان فلم يخضعها ميجابازوس مع أنه حاول غزو الأخيرة. وبيوت قاطني البحيرة هؤلاء مقامة في البحيرة،

وتنتصب على منصات تسندها دعائم طويلة ويتم الوصول إليها من البر بوساطة جسر ضيق. وفي الأصل من المفترض أن نقل الدعائم كان عملاً يشترك فيه جميع أفراد القبيلة لكنهم ما لبثوا أن أخذوا فيما بعد بطريقة مختلفة؛ فيتم الآن جلب الدعائم من جبل أوربيلوس وكل رجل ينقل ثلاث دعائم لكل زوج من زوجاته ـ إذ كل واحد منهم لديه عدد كبير من الزوجات. ولكل فرد من أفراد القبيلة كوخه الخاص على واحد من هذه الأرصفة، ولكل كوخ باب سري مفتوح على الماء تحته. وللحيلولة دون سقوط أطفالهم، يعمدون إلى ربط أرجلهم بشريط، ويقومون بإطعام خيولهم ودوابهم الأخرى بالأسماك التي تتوفر بكثرة في البحيرة، بحيث إنهم حين يفتحون الباب السري يدلون سلة فارغة مربوطة بحبل، وما عليهم سوى الانتظار دقيقة واحدة ليسحبوها ثانية، مليئة. والأسماك لديهم نوعان ـ يطلقون على أولاهما بابراسيس وثانيهما تيلونيس.

وهكذا سيق البايون أو الأسرى منهم، على الأقل، إلى آسيا، أما ميجابازوس فإنه بعد نجاح حملته على البايون، وجه سفارة إلى أمينتاس المقدوني طالباً التراب والماء، إشارة لخضوعهم لداريوس. وعهد إلى أبرز سبعة فرسان في الجيش بمهمة إبلاغ هذه الرسالة. والمسافة بين بحيرة براسياس ومقدونيا قصيرة جداً؛ وبجوار البحيرة يقع المنجم الذي سوف ينتج للإسكندر تالنت (وزنة) من الفضة يومياً، وما على المرء سوى أن يجتاز جبل ديسوروم ليصل إلى هناك. ولدى وصولهم اجتمع الموفدون الفرس السبعة إلى أمينتاس وطالبوه بالتراب والماء. فلم يكتف بتلبية طلبهم وحسب؛ بل إنه دعاهم إلى مأدبة عشاء فاخر كان قد أعده لهم، وأكرم وفادتهم أيضاً. وبعد العشاء، وبينما كانت كؤوس الخمرة تدور بين الحاضرين، قال أحد الفرس: «في مآدب عشاء فاخرة كهذه، يا صديقي المقدوني، درجنا في فارس على أن تجالسنا على المائدة نساؤنا وعشيقاتنا. لقد أكرمتم وفادتنا، وقدمتم لنا عشاء فاخراً، وقدمتم التراب والماء لمليكنا داريوس؛ هلم إذن ـ ألن تتبعوا عاداتنا؟»

أجاب أمينتاس: «أيها الفرس، إن ما أتيتم على ذكره ليس من العادات المتبعة لدينا في مقدونيا على الإطلاق؛ فنحن نفصل بين الرجال والنساء. لكنكم سادتنا، وبما أنكم طلبتم ذلك، فلن نردكم خائبين».

أرسل أمينتاس بطلب النساء، فجئن وجلسن في صف مقابل الفرس، الذين افتتنوا بجمالهن الساحر، وأشاروا إلى أمينتاس بأن إجراء كهذا لم يكن مناسباً على الإطلاق: فمن الأفضل لو أنهن لم يحضرن أبداً إذ بدلاً من أن يجلسن بجوارهم، جلسن أمامهم. ولقد كان السماح بمشاهدتهن في حد ذاته أمراً مؤلماً لهم. فأشار أمينتاس للنساء أن يجالسن الضيوف، وما إن قمن بذلك حتى بدأ الفرس، الذين غلبت عليهم الخمرة ودارت رؤوسهم بمداعبتهن، حتى إن أحدهم حاول تقبيل المرأة التي كانت بجانبه.

شاهد أمينتاس ما كان يجري، لكن خوفه الكبير من الفرس حمله على كظم غيظه، وأن يمسك بلسانه لكن ولده الإسكندر الذي كان حاضراً أيضاً وشاهداً على سلوك الفرس، عجز عن ضبط نفسه ـ وهو الفتى الغر، ولا دراية له بقسوة العالم، فقال لأبيه وهو في حالة من الثورة: «أبتاه؛ إنك رجل عجوز، وعليك أن تهتم بنفسك. فلا تحاول أن تشاركهم الخمرة، فاذهب لتأخذ قسطاً من الراحة. وسوف أبقى وأقدم لضيوفنا كل ما يحتاجون». فرد أمينتاس، وهو مقتنع بأن ولده سوف يقدم على عمل طائش، فقال لولده: «ناشدتك بالآلهة، يا ولدي الغالي، ألا تلحق بهؤلاء الرجال أي أذى؛ فإن فعلت، كان في ذلك خرابنا جميعاً. فتجمل بالصبر وانظر ما يفعلون، أما أنا فمغادر المكان، كما طلبت».

وبعد ذلك، خرج أمينتاس، فالتفت الإسكندر إلى الفرس. وقال: «أيها الأصدقاء، إن النساء رهن إشارتكم؛ فبإمكانكم مضاجعة أي منهن ـ وفي الواقع معهن جميعاً. ما عليكم سوى طلب ذلك. أما الآن، وبما أن وقت النوم قد أوشك وإنكم، كما ألاحظ، منتشون من الشراب، فاسمحوا لي أن أرسلهن ليغتسلن ـ وبعد ذلك سأعيدهن لكم» . فوافق الفرس، وبعدما طلب الإسكندر من

النساء العودة إلى مخادعهن، ألبس ملابسهن عدداً مماثلاً من الشبان حليقي الذقون، وأعطى كل واحد منهم خنجراً، وأدخلهم؛ إلى قاعة الطعام، وقال للفرس: «أيها السادة، أعتقد أنكم تناولتم عشاء رائعاً. وكان كل ما نملك وما نستطيع الحصول عليه ملكاً لكم؛ والآن، لنضع اللمسات الأخيرة لإمتاعكم فإننا نقدم لكم أمهاتنا وشقيقاتنا بلا مقابل، لكي تعلموا علم اليقين بأننا نوفيكم حقكم من التبجيل والاحترام، وأن بإمكانكم أن تخبروا ملككم، الذي أرسلكم، بأن إغريقياً، هو سيد مقدونيا، قد أكرم وفادتكم، كما يليق بالملوك وقدم لكم الفراش والطعام». ثم وضع الإسكندر مقدونياً بجانب كل فارسي؛ ولما حاول الفرس، ظناً منهم أنهم نساء، أن يلمسوهم، انتضوا خناجرهم، وعملوا فيهم ذبحاً وقتلاً.

تلكم هي نهاية السفراء الفرس إلى مقدونيا ونهاية خدمهم أيضاً؛ فقد جلبوا الخدم والعربات ومقداراً كبيراً من أمتعة السفر فاختفت هذه كما اختفى أصحابها، ولقد عانى الفرس الكثير من المشاق في اقتفاء أثر سفرائهم؛ لكن الإسكندر أفلح بذكائه ورجاحة عقله في معالجة هذه القضية بتقديم المال من جهة - وتزويج أخته جيجايا للقائد الفارسي بوباريس الذي رأس بعثة الفرس للبحث عنه من جهة أخرى، وتم بذلك التعتيم على موت تلك الجماعة ولم يكتشف الأمر على الإطلاق.

إن أفراد هذه الأسرة من الإغريق، ويتحدرون من برديكاس، كما يؤكدون ذلك بأنفسهم، وهذا ما سوف أظهره بوضوح وأبرهن عليه. ولقد اعترف منظمو الألعاب الأولمبية؟ بصحة نسبهم هذا، فحينما أراد الإسكندر المشاركة في المباريات وحاول منافسوه الإغريق استبعاده منها على أساس أن المشاركة مقصورة على الإغريق، وحدهم دون الأغراب. ولكنه، أثبت انتسابه للآرجوس، وبذلك تم القبول به باعتباره من الإغريق وسمح له بالاشتراك بسباق الجري فكان الأول.

ساق ميجابازوس البايون إلى الهيلسبونت وعبره، وواصل سيره إلى

ساردیس وفي ذلك الحين كان هستيايوس الميليسي منصرفاً لبناء سور وتحصين ميركينوس، المكان الذي كان قدطلب من داريوس أن يخصه به مكافأة له على خدماته التي قدمها بحماية جسر الدانوب. وتقع ميرسينوس هذه على نهر الستريمون. ولقد استرعت أعماله انتباه ميجابازوس؛ فما إن وصل ساردیس ومعه البايون، حتى قال لداريوس: «إنني أعجب يا مولاي لتهوركم إن سمحتم لإغريقي بارع وذكي مثل هستيايوس أن يؤسس مستوطنة في تراقية. فهذا المكان عظيم القيمة بما فيه من مناجم الفضة وأخشاب وفيرة لبناء السفن وصنع المجاديف، وهو مأهول بالإغريق والأجانب، الذين سوف يقبلون به سيداً وآمراً عليهم، ويعملون في خدمته ليل نهار. ناشدتكم أن تضعوا له حداً، وإلا وجدتم أنفسكم في حرب مع رعيتكم. أرسلوا في طلبه، لئلا يسترسل في غيّه - ولتكن رسالتكم له لبقة؛ ومتى أصبح عندكم فلتحرصوا ألا تسنح له فرصة بعد ذلك للعودة إلى بلاد الإغريق». ولم يواجه ميجابازوس، الذي أظهر بعد نظر في هذا الأمر، أية صعوبة في إقناع داريوس بأن يلبي ما طلبه منه، وتم إرسال رسول إلى ميرسينوس يحمل الرسالة التالية: «من الملك داريوس إلى هستيايوس: لدى تمحيص المسألة، وجدت أنه ليس لدي صديق أكثر ولاء منك أو أكثر إخلاصاً وتفانياً منك؛ ودليلنا على ذلك ما عرفنا من أفعالك أكثر من الأقوال. ولذلك، وبما أن لدينا مشروعاً نعمل للتحضير له. فإننا نرغب أن تأتي إلينا لنطلعك على ما نحن بصدده».

أخذ هستيايوس الرسالة مأخذ الجد وأشبع غروره أن يعتمده الملك مستشاراً له. فامتثل لدعوته، ولدى وصوله ساردیس، قال له داريوس: «سوف نخبرك، يا هستيايوس، بسبب استدعائنا لك. فمنذ أن انقطعت عنا بعد عودتنا من بلاد السكيث لم نرغب في أمر سوى مشاهدتك والتحدث إليك من جديد، فنحن على قناعة بأن أغلى ما لدى المرء الصديق الوفي والحكيم، وقال أيضاً: أظهرت لنا التجربة أنه تتوفر في شخصك هاتان الخصلتان. والآن، وبما أنك قد

تفضلت بالقدوم إلى ساردیس، فإن لدينا عرضاً لك: فلتدع أمر ملطية ومستوطنتك الجديدة هذه في تراقية، ولتأت معنا إلى سوسة ولسوف نشاركك في كل ما لدينا، فلتعش معنا، ولتكن مستشاراً لنا».

وعندئذ غادر داريوس متجهاً إلى سوسة واصطحب هستيايوس معه. وقبل أن يذهب، عين أخاه لأبيه أرتفرنيس حاكماً على ساردیس، وعهد إلى أوتانيس بقيادة قوات الساحل. وكان سيسامنيس والد أوتانيس أحد القضاة الملكيين وقد لقي مصرعه على يد قمبيز لتلقيه رشوة وإعاقته سير العدالة، فأمر قمبيز بسلخ جلده ثم قصه إلى شرائح وتنجيد الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه في المحكمة بها. ثم عين قمبيز ولده أوتانيس قاضياً محله، وأخبره ألا ينسى ما تم تنجيد كرسيه منه، عندما يصدر أحكامه. وبعدما حل أوتانيس هذا - صاحب الكرسي الذي لا مثيل له - محل ميجابازوس في القيادة، قام بالاستيلاء على بيزنطة وخاليكيدونيا وكذلك كلاً من أنتاندروس في طروادة ولامبونيوم؛ وبمساعدة من سفن الليسبان استولى على جزيرتي ليمنوس وإمبروس اللتان كان البلاسجة يحتلانهما. أبدى رجال ليمنوس مقاومة شديدة، وقاتلوا قتالاً ضارياً، لكن تم سحقهم أخيراً، وسلم الفرس مقاليد حكم ليمنوس إلى ليكاريوس شقيق ماياندريوس طاغية ساموس. وفيما بعد، توفي ليكارتوس وهو حاكم في ليمنوس.

وأما السبب الذي قدمه أوتانيس لإخضاع كل هؤلاء الناس واستعبادهم فهو أن بعضهم قد تهرب من الخدمة في حملة السكيث، فيما تعرض الآخرون لجيش داريوس في طريق عودته إلى الوطن.

تلكم هي مآثر أوتانيس بعد ما تولى القيادة. ولقد ساد الهدوء فترة من الزمن، إلى أن اندلعت المشكلات في أيونيا من جديد. وقد أتت هذه المرة من ناكسوس وملطية وكانت ناكسوس في ذلك الحين أغنى جزر المنطقة، وأما ملطية فكانت في تلك الفترة قد بلغت أوج ازدهارها مما جعلها مفخرة أيونيا. وفيما

مضى، أدت الاضطرابات الأهلية التي استمرت جيلين من الزمن إلى إضعاف ملطية كثيراً؛ إلى أن دعيت لجنة من باروس لتعيد الأمور إلى نصابها. وقد قام الباروس ـ الذين وقع اختيار شعب ملطية عليهم من بين شعوب الإغريق جميعاً لحل نزاعاتهم ـ بحل المسألة على النحو الآتي: زار خيرة رجالهم المكان، ولما وقفوا على الدمار الذي عم أرجاء المكان طلبوا السماح لهم بمعاينة أراضي الجزيرة كلها. وهذا ما فعلوه، وكانوا كلما شاهدوا قطعة ارض محروثة بشكل جيد وسط هذه الأراضي المقفرة، عمدوا إلى تسجيل اسم صاحبها. وبالرغم من قيامهم بمسح المنطقة الملطية بأكملها، إلا أنهم لم يجدوا سوى بضعة مزارع بهذا الشكل. وبعد ما فرغوا من ذلك عاد أعضاء اللجنة إلى المدينة ودعوا إلى عقد اجتماع عام، أعلنوا فيه عن قرارهم بأن يتولى الحكم الرجال الذين وجدوا أراضيهم بحال جيدة ـ ففي رأيهم، أن رجالاً كهؤلاء سوف يديرون الأعمال العامة بالكفاءة التي يديرون بها أعمالهم الخاصة. وطلبوا إلى الملطيين أن يتلقوا أوامرهم من الحكومة الجديدة.

بدأت مشكلات الأيونيين في هاتين المدينتين اللتين أتيت على ذكرهما آنفا ـ عنيت ناكسوس وملطية. وكان العامة في ناكسوس قد أجبروا مواطنين معينين من علية القوم على مغادرة الجزيرة، فالتجؤوا إلى ملطية، التي كان يحكمها أرستاجوراس بن مولباجوراس بوصفه نائباً للحاكم. وهو ابن أخ هستيايوس ابن ليساجوراس الذي احتجزه داريوس في سوسة وزوج ابنته. وكانت السلطة في ملطية في الحقيقة بين يدي هستيايوس ـ لكنه ـ كان في سوسة حينما وصل المنفيون الناكسوس الذين نزلوا ذات يوم ضيوفاً عليه. وكان أول ما قاموا به حينما وصلوا هناك أن طلبوا من أرستاجوراس أن يمدهم ببعض القوات، يحدوهم الأمل باستعادة موقعهم في بلادهم. مما أوحى لأرستاجوراس أنه إذا ما قدم يد العون إلى المنفيين لكي يعودوا، فلسوف يصبح هو نفسه حاكم ناكسوس؛ فتوسل بصداقتهم لهسيتايوس للتستر على غاياته، وقدم لهم عرضاً.

وقال «إنني لا أستطيع أن أعد بتزويدكم بقوات كافية لفرض عودتكم إلى ناكسوس بعكس رغبات من يحكمون الآن. فلديهم، كما علمت، ثمانية آلاف رجل مسلح وأسطول قوي. ومع ذلك، فلسوف أبذلك كل جهد في مساعدتكم. وفكرتي هي التالية: إن أرتفرنيس صديق لي، وهو ابن هستاسبيس وأخو الملك داريوس، وقائد المنطقة الساحلية من آسيا بأكملها، وبإمرته قوات ضخمة برية وبحرية وأحسب أن هذا الرجل يمكن أن يقوم بما نطلبه منه».

وبناء على ذلك، فوض الناكسوسيون أرستاجوراس لاتخاذ أفضل التدابير الممكنة، وأشارو إليه أن يعد بتقديم هدايا ومبالغ معينة من المال للجنود، إذ كانت لديهم آمال عريضة بأنه حينما يظهر الفرس في ناكسوس، فسوف يخضع السكان لأوامرهم، ثم تليها الجزر الأخرى في سيكلاديس، ذلك أن أياً منها لم تكن خاضعة لداريوس.

مضى أرستاجوراس إلى ساردیس وأخبر أرتفرنيس بأن ناكسوس، برغم صغرها، هي جزيرة رائعة وخصبة، تقع على مقربة من الساحل الإيوني وهي غنية بثرواتها وعبيدها وتابع قائلاً: «لذلك، فإنني أقترح أن تقوموا بمهاجمتها وتعملوا على إعادة المنفيين. ولسوف تتمخض عن ذلك فائدتين أولاهما، أنني أدّخر لكم هدية ضخمة تليق بمقامكم، بالإضافة إلى تقديم نفقات الحملة كاملة. وثانيهما، أنكم لن تلحقوا بالأراضي الخاضعة للملك ناكسوس فحسب، بل جزراً أخرى في سيكلاديس مثل باروس وأندروس اللتان تعتمدان عليها. ثم باتخاذكم سيكلاديس قاعدة لكم لن تواجهوا أية صعوبة تذكر في مهاجمة يوبويه، وهي جزيرة كبيرة تعادل قبرص في المساحة، ومزدهرة جداً وسهلة المنال. ولتحقيق هذا المشروع كله لن تكون بحاجة إلى ما يزيد على مئة سفينة».

أجاب أرتفرنيس «إن الخطة التي تقدمت بها ذات فائدة كبيرة لأسرتنا المالكة على الأرجح، وأعتقد أن نصيحتك ممتازة، سوى أن لي تحفظاً واحداً عليها - عنيت حجم الأسطول. فبدلاً من مئة، سوف أجهز لك مئتي سفينة في الربيع

القادم. والأمر الوحيد الذي نحن بحاجة إليه هو الحصول على موافقة الملك».

عاد أرستاجوراس إلى ملطية مسروراً أيما سرور بهذه الإجابة، واتصل أرتفرنيس بسوسة على الفور. وعرض الاقتراح الذي قدمه أرستاجوراس على الملك، وحصل على موافقته، وشرع بتحضيراته، فجهز مئتي سفينة ثلاثية المجاديف وقوة كبيرة من الفرس وحلفائهم، وعهد بقيادتها جميعاً إلى ميجاباتيس، الأخميني وابن أخ أرتفرنيس وداريوس. وفيما بعد ـ إذا ما كان لهذه الرواية نصيب من الصحة ـ تمت خطوبة ابنة ميجاباتيس لبوسانياس بن كليومبروتوس، الذي كان عازماً على أن يكون سيد بلاد الإغريق.

بعد ما ولي ميجاباتيس القيادة، زوده أرتفرنيس بتوجيهات بالتقدم إلى ملطية، حيث اصطحب على متن سفنه أرستاجوراس والفرقة الأيونية والمنفيين الناكسوس. وتظاهر بالإبحار إلى الهيلسبونت؛ لكنه، ما إن بلغ خيوس، حتى توقف عند كوكاسا، بقصد العبور منها إلى ناكسوس حالما تهب رياح الشمال. ولكن، الأقدار شاءت أن يتجنب الناكسوسيون الكارثة التي كانت ستأتي بها هذه الحملة. فما حصل كان التالي: صادف ميجاباتيس في أثناء قيامه بدورياته على نقاط الخفارة الليلية، سفينة ميندية وليس على ظهرها أي خفارة. فغضب لهذا الإهمال، وامر حرسه أن يعثروا على قبطان السفينة ـ المدعو سكيلاكس ـ ويكبلوه بالأغلال ويخرجوا رأسه عبر فتحة مجداف السفينة. وكان أن أعلم أحدهم أرستاجوراس بهذه العقوبة القاسية التي نزلت بحق ضيفه الميندي، فذهب إلى ميجاباتيس وحاول أن يطلق سراحه. لكنه رفض ذلك، فما كان من أرستاجوراس إلا أن أطلق سراحه بنفسه. مما زاد من غضب القائد الفارسي ـ فخاطب أرستاجوراس بعنف؛ فرد ارستاجوراس عليه «لا شأن لك بهذا كله. ألم يضعك أرتفرنيس بإمرتي عندما أرسلك إلى هنا؟ ألم يخبرك أن تبحر إلى أي مكان أجده مناسباً فلم تدخلك؟»

شعر ميجاباتيس بالغضب لهذا؛ وحالما أرخى الليل سدوله أرسل فريقاً من

الرجال الفرس بقارب إلى ناكسوس، ليحذروا أهلها من الخطر الذي يتهددهم. ذلك أنهم كانوا يجهلون بأن الحملة كانت موجهة ضدهم. وإذ بلغهم التحذير، لم يضيعوا وقتاً في الاستعداد للحصار؛ فجنوا المحاصيل من الحقول، وخبؤوها داخل أسوار المدينة، وخزنوا الطعام والشراب، وقاموا بتدعيم التحصينات ونتيجة ذلك الاستعداد لمواجهة الحرب الوشيكة، وجد العدو، بعد ما عبر من خيوس، سكان الجزيرة في وضع قوي وعلى استعداد لملاقاتهم.

وبدأ الحصار واستمر أربعة أشهر؛ وبحلول ذلك الوقت نفدت المؤن التي أحضرها الفرس معهم، وكان أرستاجوراس قد أنفق مبلغاً كبيراً من المال من مدخراته الخاصة ـ وما يزال بحاجة إلى المزيد، إذا ما قيض للحصار أن يستمر. ولقد قرر الفرس فك الحصار. وبنوا بعض الحصون للمنفيين وانسحبوا إلى عمق البلاد. فكان أن منيت الحملة بالإخفاق.

لم يعد أرستاجوراس قادراً على الوفاء بالوعد الذي قطعه لأرتفرنيس. وكانت وعوده لدفع رواتب الجند قد زادت من صعوباته. وخشي أن يؤدي إخفاق محاولة غزو ناكسوس وخلافه مع ميجاباتيس، إلى أن يفقد موقعه في ملطية. وكان الإنذار بالخطر على اختلاف أسبابه قد جعله يفكر ملياً بإعلان التمرد، عندما طرأ أمر آخر ليعزز هدفه: وصول أحد أرقاء هستيايوس من سوسة، وهو الرجل الموشوم الرأس، يستحثه على القيام بما يدور في خاطره، أي الثورة.

كان هستيايوس يريد من أرستاجوراس الإقدام على هذه الخطوة، لكنه كان يواجه صعوبة في إيصال الرسالة بأمان له، ولما كانت الطرق من سوسة مراقبة؛ لذلك عمد إلى حلق شعر رأس أكثر عبيده موضعاً لثقته، ونقش الرسالة على فروة رأسه، وانتظر حتى ينمو شعرة ثانية. ثم، ما إن نما شعره، حتى أرسله إلى ملطية وزوده بتوجيهات ألا يفعل شيئاً عندما يصل سوى أن يطلب من أرستاجوراس أن يحلق له شعره وينظر إلى رأسه. وكانت الرسالة التي وجدت هناك، كما قلت، تتضمن أمراً بالثورة. وما دفع هستيايوس إلى القيام بهذا كان

شعوره بالأسى لاحتجازه في سوسة، وكان يحدوه الأمل، إن بدأت الثورة، فربما يرسل إلى الساحل ليتولى معالجة الأمور، وإذا لم يحدث شيء من هذا القبيل فإن آماله برؤية ملطية ثانية قد تتضاءل.

وإذ عقد العزم على تحقيق هذه الغاية، أرسل رسوله، وهكذا وجد أرستاجوراس نفسه مواجهاً بمجموعة من الظروف، كانت تدفعه جميعاً بقوة في الاتجاه نفسه. وكان أن عقد اجتماعاً لمشايعيه، وعرض لهم فيه أفكاره، ونقل إليهم رسالة هستيايوس.

ولقد وافق أصدقاؤه بالإجماع على الثورة - سوى شخص واحد هو المؤرخ هيكاتيوس[٢]، إذ انفرد بنصحهم بألا يتورطوا في حرب مع فارس، وعدد لأصحابه القدرات التي تحت تصرف داريوس، وأيد وجهة نظره بذكر قائمة طويلة بالدول الخاضعة لفارس، وهي كثيرة. لكن حجته هذه أخفقت في إقناع الحضور، ولذلك نصحهم بالعمل على بسط سلطانهم على البحر بوصفه خياراً ثانياً. ثم ذهب إلى القول بأنه نظراً لضعف ملطية التي كان يدركها جيداً، كان ثمة، برأيه، سبيل واحد لتحقيق ذلك: الاستيلاء على كنز الملك الليدي كرويسوس الذي كان قد أهداه لمعبد برانشيداي. ولو تم ذلك، لكان الأمل لديه كبيراً بالنجاح في السيطرة على البحر - ولقُدّر لهم، على أي حال، أن يفيدوا من المال، ويحولوا دون وقوعه في أيدي العدو. فلقد كان هذا الكنز، كما بينت في الجزء الأول من تاريخي هذا، ثميناً ذا قيمة عظيمة. غير أن المجلس رفض، على كل حال، اقتراح هيكاتيوس، لكنهم قرروا، مع ذلك، أن يتخلصوا من عبوديتهم لفارس؛ فكان أن عمدوا، تمهيداً لذلك إلى إيفاد واحد منهم إلى ميوس، حيث كان الأسطول يرسو منذ عودته من ناكسوس، للقبض على قادة الأسطول.

وكان الرجل الذي أرسلوه هو أياتراجوراس، فاستطاع أن يوقع عدداً من القادة في الفخ الذي نصبه لهم، فاعتقل أولياتوس بن إيبانوليس من ميلاكا وهستيوس بن تيمنيس من تيرميرا وكويز بن إريكساندر (الذي ولاه داريوس

على متيلينة) وأرستاجوراس بن هيراكليدس من كيم وسواهم. وبعد ذلك، تم إعلان الثورة على الفرس، وعقد أرستاجوارس العزم على النيل من داريوس بكل وسيلة ممكنة. وفي سبيل استمالة الملطيين إلى جانبه، أعلن التخلي عن سلطاته لصالح قيام حكومة شعبية، ومضى فأشاع هذا النمط من الحكم في الولايات الأيونية الأخرى، فأطاح بطغاتها، بأن أزاح البعض، وألقى القبض على البعض الآخر، وكانوا على متن السفن التي انضمت إلى حملته على ناكسوس، فسلمهم إلى المدن التي كانوا يحكمونها، يحدوه الأمل بالحصول على تأييد رعاياهم السابقين. وعند متيلينة ما إن وضع الناس أيديهم علي كويز، حتى قاموا برجمه بالحجارة حتى الموت. أما في كيم فقد سمح لطاغيتها أرستاجوراس بن هيراكليدس أن يمضي حراً، وأظهرت المدن الأخرى مع حكامها الطغاة مثل هذا التسامح.

وهكذا زال هذا النمط من الحكم من المدن كافة. ولما تم لأرستاجوراس الملطي الإطاحة بالطغاة، وترك للأهالي حق اختيار حكامهم، أبحر على متن سفينة ثلاثية المجاذيف إلى بلاد اللاكيديمونيين، وغرضه أن يحظى بدعمهم، وهو يسعى إلى حليف قوي.

وفي إسبارطة افتقد ملكها أناكساندريدس بن ليون، إذ توفي، ووجد أن ولده كليومنيس قد خلفه - والحق أنه لم يخلفه لجدارته بالمنصب، وإنما بحكم الوراثة. وكان أناكساندريدس قد تزوج من ابنة شقيقته، وكان شغوفاً بها شديد الإخلاص لها، إلا أنه لم يحظ بالأولاد منها. فخاطبه مجلس الأيفور (خمسة حكام يتم تبديلهم كل عام) في هذا الأمر، وبينوا له أنه ولو اختار إهمال مصالحه الخاصة، فلن يسمحوا لأسرة يوريثينيس أن تنقرض، وأن الأجدر له أن يتخلص من امرأته هذه، ويتخذ أخرى زوجاً له، إن كان يريد سعادة الإسبارطيين. فأجابهم أنه لا ينوي أياً من الأمرين، فزوجه لم تقترف ذنباً ليتركها، وأن نصيحتهم أن يهجرها ويتزوج بأخرى لا يمكن أن يقوم بها.

اجتمع مجلسا الأيفور والشيوخ وتشاوروا في هذه المسألة وخلصا إلى العرض التالي: «إنه لمن الواضح أنك شديد التعلق بزوجك. وإننا لنرى أن من الحكمة أن تأخذ بما نعرض عليك الآن، فإن أعرضت عن النصيحة حملت الإسبارطيين على أمور يبغضونها. فأما زوجك فإننا لا نكرهك على خلعها، بل لك أن تبقي على ما تتمتع به من امتيازات، إنما عليك بالزواج من أخرى لتنجب أطفالاً. وكان أن وافق أناكساندريدس على هذا الاقتراح، وظل يجمع بين زوجتين، لكل منهما مسكنها الخاص، وتلك سابقة لم تعرف إسبارطة مثلها من قبل.

وما هو إلا حين حتى رزقت زوجه الثانية بكليومنيس، فكان وريثاً للعرش. ومن عجائب الصدف، أن الزوجة الأولى التي لم تكن تنجب فيما مضى، غدت حاملاً أيضاً. وقد أثار أقرباء الزوجة الثانية هرجاً ومرجاً لما بلغهم النبأ، وأكدوا - ما لا صحة له أبداً - أنها تتظاهر بالحمل صوناً لسمعتها، وما ستقدمه للناس على أنه ولدها لا يمت لها بصلة. وكانت الاحتجاجات التي أثاروها عنيفة إلى حد جعل الأيفور، الذين لم يصدقوا أنها حامل، يتحلقون حول فراشها عندما جاءها المخاض ليشاهدوا الجنين في أثناء الوضع. ولقد سمي الطفل دوريوس، وما إن وضعته حتى حملت من جديد، وكانت هذه المرة حاملاً ببليونيداس، ثم ولدت بعد فترة قصيرة كليومبروتوس - حتى إن بعضهم ذهب إلى القول بأن الولدين الأخيرين كانا توأمين.

أما زوج أناكساندريدس الثانية والدة كليومنيس ابنة برنتاديسبن بن ديمارمينوس - فلم تنجب أي ولد آخر. لكن لنعد إلى كليومنيس؛ إذ تذهب الرواية إلى أنه كان مضطرب العقل معتوهاً يكاد يبلغ حد الجنون، فيما كان دوريوس أفضل الشبان في جيله وواثقاً من جدارته بوراثة العرش. ولذلك كان ناقماً عند وفاة أبيه، حين نصب الإسبارطيون تبعاً لتقاليدهم ولده الأكبر كليومنيس ملكاً. وإذ لم يستطع دوريوس احتمال أن يحكمه كليومنيس طلب من الإسبارطيين

جماعة من الرجال، ورحل بهم لتأسيس مستوطنة في مكان آخر، دون أن يستمد المشورة من عرافة دلفي حول موقع مناسب، أو يراعي المألوف، فتوجه إلى ليبيا في نوبة غضب وبرفقته بعض المرشدين من ثيرا. وما إن وصل هناك، حتى استقر بجوار نهر سنيبس، على قطعة أرض خصبة في ليبيا. لكنه طرد منها، بعد ثلاث سنوات، على يد الماكاي (قبيلة ليبية) والقرطاجنيين. فعاد إلى البيلوبونيز. فنقل له أنتيخاريس الأيليوني ما أشارت إليه العرافة من لايوس، بأن يؤسس مدينة باسم هرقليا في صقيليا، وقال له إن كل بلاد إيريكس في صقيليا تتبع هرقل منذ أن استولى عليها، فما كان من دوريوس إلا أن ذهب إلى دلفي يطلب المشورة من العرافة لتفيده بنبوءتها إن كان له أن ينال هذه الأرض. فأجابته العرافة بأنه فائز بها، بلا ريب، وعندئذ حمل معه فرقة من المستوطنين الذين كان قد أخذهم معه إلى ليبيا، وأبحر بهم بمحاذاة الساحل الإيطالي.

ويذهب أهالي سايباريس إلى أنهم كانوا يعتزمون وحاكمهم نيليس يومئذ الدخول في حرب مع كروتونا، ولما تنبه الكروتون للخطر المحدق بهم، طلبوا المساعدة من دوريوس، فانضم إليهم في حملتهم وكان عوناً لهم في الاستيلاء على سايباريس. تلكم، كما سلف القول، رواية السايباريين، لكن الكروتون يذهبون إلى القول بأنه لم يكن لهم أي حليف غريب في حربهم مع السايباريين، سوى العراف كاليا الإيلي، وهو عراف الأياميديين، الذي انضم إليهم بعد ما هجر نيليس، ذلك أنه وجد، لدى تقديمه القرابين، بأن الهجوم على كروتون ينذر بسوء العاقبة.

ويقدم كل طرف الشواهد على صدق روايته: فالسايباريون يشيرون إلى معبد وأرض مقدسة بجوار نهر كارسيس الجاف، على أنهما تقدمة من دوريوس إلى أثينا الكراثية بعد استيلائه على المدينة، ثم يأتون بما هو عندهم الدليل الذي لا يدحض، ألا وهو مقتل دوريوس، لتنكره للعرافة. فلو أنه اقتصر على انجاز مهمته كما حددت له. ولم يتورط في الانسياق وراء أمور عارضة، لاستطاع أن

يستولي على بلاد أيريكس، ولما انتهى وجيشه إلى الهلاك، ومن ناحية ثانية، يشير الكروتون إلى المساحات الواسعة من الأراضي الواقعة في منطقتهم التي أقطعت لكالياس (والتي ما تزال، على ما أذكر، بحوزة أسرته)، بينما لم ينل دوريوس وعقبه أية أراض على الإطلاق. ومع ذلك، فلو أن دوريوس كان عوناً لهم في الحرب حقاً، لكان نصيبه من الأراضي يفوق ما ناله كالياس. وبتعارض الأدلة هذا، لك أن تأخذ بأي من الروايتين على أنها الصحيحة.

كان ثمة إسبارطيون آخرون مع دوريوس هم ثيسالوس وباريباتيس وكيلياس ويوريليون، وقد أبحروا معه ليكونوا عوناً له في تأسيس المستوطنة الجديدة. فوصل هؤلاء جميعاً إلى صقلية، لكنهم هزموا ولقوا مصرعهم، ومعهم جميع الرجال الذين بإمرتهم، في معركة مع الفينيقيين وأهل إيجيستا، أما الناجي الوحيد منهم فكان يوريليون، فجمع هذا الناجين القلائل من الجيش واستولى على مينوا، وهي مستعمرة تابعة لسيلينوس، وقدم يد العون لأهلها لتخليصهم من حاكمهم المستبد بايثاجوراس. فلما تمت الإطاحة به، سعى بوريليون لأن يحل محله، فتسلَّم مقاليد السلطة في سيلينوس لفترة من الزمن، إلى أن كانت ثورة الأهالي عليه، فتم قتله على يد الثوار، ولم يشفع له في ذلك أنه لجأ إلى مذبح زيوس. وهناك رجل آخر رافق دوريوس في رحلته وقتل معه وهو فيليبوس، ولد بوتاكيديس من أهل كروتونا، وقد كانت خطيبته ابنة تيليس طاغية سايباريس، ولكن الزواج لم يتم، لأنه نفي من كروتونا. ولما أحبطت آماله أبحر إلى كيرينة، ومن هناك تزود بسفينة ثلاثية المجاذيف، ووفر لها أطقم البحارة على نفقته الخاصة، وانضم إلى دوريوس. وكان فيليبوس هذا من أبطال المباريات، وفاق في جماله جميع رجال عصره من الإغريق، ولقد كرمه أهل أيجيستا لوسامته تكريماً لا نظير له، بأن أقاموا له معبداً تخليداً لمآثره وبطولاته، وما زالت الاحتفالات الدينية والقرابين تقدم له منذ ذلك اليوم.

تلكم هي نهاية دوريوس، الذي كان من الممكن أن يصبح ملك إسبارطة لو

أنه بقي هناك وتحمل لبعض الوقت أن يكون من رعايا كليومنيس، ذلك أن أيام حكم كليومنيس لم تطل، وتوفي دون أن يكون له ولد يخلفه، تاركاً ابنة واحدة تدعى جورجو.

على أي حال، كان كليومنيس يتربع على العرش عندما جاء أرستاجوراس من ملطية إلى إسبارطة. واستناداً إلى رواية الإسبارطيين، أحضر معه إلى المقابلة خارطة للعالم محفورة على البرونز، تظهر كل البحار والأنهار، واستهل كلامه بقوله: «لا تستغربن، أيها الملك، إن وجدتني قد احتملت مشاق البحر لأبلغ هذه الأرض؛ فقد حملني على السفر والحضور، شؤون سأعرضها لك. إن العار لحق بنا، كما أصاب أبناء أيونيا، إذ أصبح هؤلاء عبيداً، وكانوا أحراراً من قبل. وهذا أمر شائن لكم أيها الإسبارطيون، كما هو مشين للإغريق الآخرين. لذلك ناشدتك بآلهة الإغريق كلهم، أن تحرر أهلك الأيونيين من نير العبودية. وليس هذا بالأمر العسير، لأن البرابرة ليسوا أهل حرب وقتال، بينما أنتم أفضل المحاربين في العالم كله. وعدتهم في القتال تقتصر على القوس والرمح القصير، ولباسهم في ساحة المعركة السراويل وعلى رؤوسهم العمائم. وليس هناك ما هو أيسر من دحرهم! واعلم، بعد، أن في تلك الأصقاع من الخيرات ما ليس له نظير في العالم كله - فدونك إن شئت الذهب والفضة والنحاس والقماش المطرز، والحيوانات المدجنة، والخدم المسخرين، أما الأمم المجاورة فهم الأيونيون». وهنا أشار بإصبعه إلى موقع على خارطة العالم، «وهنا موطن الليديين، وأرض هؤلاء خصبة، وهم أغنياء ولديهم من الفضة الشيء الكثير. ثم يلي هؤلاء الفريج. ولست أعلم بقوم في العالم يماثلون هؤلاء فيما عندهم من قطعان الماشية، ومحاصيل وفيرة. وعلى حدود هؤلاء القوم موطن الكبادكيين الذين نعرفهم، نحن الإغريق، باسم السوريين، وهم بجوار القليقليين الذين يمتد ملكهم حتى هذا البحر، حيث قبرص التي ترى موقعها هنا. والقليقليون يدفعون للملك ضريبة تبلغ خمسمائة تالنت كل عام. ويلي هؤلاء الأرمن الذين يقيمون في هذه الربوع -

وهؤلاء أيضاً أصحاب ماشية ودواب. وبعد هؤلاء يأتي الميثيان الذين يسكنون هذه الأرض، ثم هناك سيسيا، وهي هذه الناحية التي ترى فيها نهر خوسبيس، ومدينة سوسة على ضفته، حيث كرسي الملك العظيم، وفيها خزائنه. فمتى أصبحتم سادة هذه المدينة غدوتم تنافسون الآلهة في ملكها. وأنتم تخوضون اليوم حروباً مع منافسيكم الميسيين، ومعهم الأرجوس، ومثلهم الأركاد، إنما تخوضون حروباً على حدود تافهة وأراض لا تستحق النظر، ثم تصارعون من لا يملك ذهباً، بل ولا فضة، مما تخفق له قلوب البشر وتدفع بهم للتنازع وتحملهم على الموت. أفتراكم مضطرون للانشغال بهذه الحروب، وأنتم أكفاء لتكونوا سادة آسيا، فهل نظرتم في هذا؟ وكان أن أتاه جواب كليومنيس على هذا الخطاب: «إذن، اعلم أيها الميليسي الغريب، أن ردي سيبلغكم بعد ثلاثة أيام من الآن».

عندما جاء اليوم الموعود، اجتمع كليومنيس وأرستاجوراس في المكان المحدد، لإعلان القرار، فسأل كليومنيس كم تبعد سوسة؟ وكم يوماً يستغرق الوصول إليها من الساحل الأيوني؟ حتى هذه اللحظة، كان أرستاجوراس حاذقاً ذكياً، ونجح في خداع الملك، لكنه تعثر الآن وتلعثم في الحديث، واخطأ في إجابته عن هذا السؤال. فلو أنه كان يسعى لاستدراج الإسبارطيين إلى اجتياح آسيا، لكان عليه أن يسلك طريق الخداع والمواربة، غير أنه رد ببساطة، أنها تبعد مسافة ثلاثة أشهر. وهنا أوقف كليومنيس أرستاجوراس عن الاستفاضة في الحديث عن الطريق إلى سوسة. وصاح قائلاً: «أيها الغريب الميليسي، عليك أن تغادر إسبارطة قبل المغيب. إن العرض الذي قدمته يأخذ اللاكيديمونيين في رحلة تستغرق ثلاثة أشهر في البحر، وما كنت لأرضى بهذا لقومنا قط».

ثم مضى كليومنيس إلى داره، فلحق به أرستاجوراس وبيده غصن زيتون، كالمتوسل، ودخل إلى كليومنيس متضرعاً أن يصغي له، وأن يبعد الطفلة، فقد صادف أن كانت ابنته الوحيدة جورجو واقفة بجوار أبيها، وهي فتاة صغيرة في

الثامنة أو التاسعة من عمرها. فأخبره كليومنيس أن يقول ما يريد وألا يبالي بالطفلة، وبدأ أرستاجوراس جوابه بأن عرض عليه أن يدفع له عشرة تالنتات (وزنة) إذا ما وافق على تلبية طلبه. فهز كليومنيس رأسه معرضاً، فأخذ أرستاجوراس يزيد في عرضه، شيئاً فشيئاً. ولما بلغ عرضه خمسين تالنتاً (وزنة) صرخت الفتاة الصغيرة فجأة: «أبتاه، اترك هذه الغرفة، وإلا أفسدك هذا الغريب». ولقد أخذ كليومنيس بتحذير ابنته فترك الغرفة ودخل غرفة أخرى، بينما غادر أرستاجوراس إسبارطة إلى الأبد، دون أن يفصل في وصف الطريق إلى سوسة.

ولسوف أبسط الآن الحديث الموثوق عن الطريق الذي أشار إليه أرستاجوراس. على طول الطريق توجد المحطات التي تحتوي على خانات ممتازة، والطريق نفسها حافلة بالنقاط التي أقامها الملك لعمال البريد، وهي طريق آمنة تخترق أراضي عامرة بالسكان. ففي ليديا وفريجيا، على طول مسافة قدرها ٩٤،٥ فرسخ - قرابة ٣٣٠ ميلاً - توجد ٢٠ محطة من تلك المحطات، وفي الجهة البعيدة من فريجيا يبلغ المرء نهر خاليص؛ وتوجد هنا بوابات، يجب أن يمرالمرء عبرها قبل أن يعبر النهر، علاوة على نقطة حراسة مشددة. وما إن أصبح المرء فوق النهر واتجه نحو كبادوكية فإن عليه قطع مسافة قدرها ١٠٤ فراسخ، تتخللها ٢٨ محطة، تحمله إلى حدود قليقلية، حيث يمر الطريق عبر مجموعتين من البوابات، وعلى كل منها مجموعة حراسة. وإذا خلفنا هذه وراءنا، فإن المسافة عبر قليقلية هي ١٥،٥ فرسخ وثلاث محطات. ويفصل قليقلية عن أرمينية نهر الفرات الذي يجب أن يقطع بقارب، والمسافة عبر أرمينية ذاتها ٥٦،٥ فرسخ و١٥ محطة. وهنا يوجد مركز حراسة أيضاً. ويمر عبر هذا الجزء من البلاد أربعة أنهار يجب أن تعبر بمركب: أولها دجلة، ويحمل ثانيها وثالثها الاسم نفسه زاباتوس، مع أنهما مختلفان ومنابعهما مختلفة، فأحدهما ينبع من أرمينية والثاني من بلاد الميتيان، ورابعها جنديس - وهو النهر

الذي قسمه قورش ذات مرة إلى ثلاثمائة وستين قناة.

وبمغادرة أرمينية ودخول ميثيان، يجب على المرء أن يقطع مسافة قدرها ١٣٧ فرسخاً، و ٣٤ محطة، وللمرور من هناك إلى سيسيا توجد ٤٢،٥ فرسخ أخرى و ١١ محطة، إلى أن يبلغ المرء نهر خوسبيس، وهو جدول صالح للملاحة تقوم عليه مدينة سوسة. وبذلك فإن مجموع المحطات على الطريق من سارديس إلى سوسة يبلغ ١١١ محطة. وإذا ما كان قياس الطريق الملكي بالفراسخ صحيحاً، والفرسخ يعادل ٣٠ فرلنجاً، فإن المسافة من ساردیس إلى قصر ممنون ٤٥٠ فرسخاً تبلغ ١٣٥٠٠ فرلنج. وإذا ما سافر المرء بمعدل ١٥٠ فرلنجاً يومياً، فإن رحلته سوف تستغرق تسعين يوماً وحسب. ولذلك فإن أرستاجوراس كان مصيباً حينما أخبر كليومنيس الإسبارطي بأن بلوغ سوسة من البحر يستغرق ثلاثة أشهر. لكن، إذا ما أراد أي شخص المزيد من الدقة، فإنني أنبه إلى أنه يجب أن تضاف المسافة من أفسوس إلى ساردیس إلى المجموع، وبذلك يحصل المرء على قياس نهائي للمسافة من بحر إيجة إلى سوسة - مدينة ممنون - على مسافة قدرها ١٤٠٤ فرلنجات، ولما كانت المسافة من أفسوس إلى ساردیس تبلغ ٥٤٠ فرلنجاً، فإن هذا يزيد الأشهر الثلاثة التي تستغرقها الرحلة ثلاثة أيام.

لما عاد أرستاجوراس خائباً محبطاً، فإنه مضى إلى أثينا التي تحررت من حكم الاستبداد على نحو ما سأفصله الآن: كان هيباركوس بن بيزستراتوس وأخو الطاغية هيبياس قد رأى حلماً حذره من الخطر الذي يتهدده، لكنه رغم هذا النذير لقي مصرعه على يد هارموديوس وأرسطوجايتون، وكلاهما من أسرة جيفيراي. لكن مقتله لم يعد على أهل أثينا بطائل، إذ ظلوا على حالهم من الاضطهاد طوال السنوات الأربع التالية، وكانت عهداً أسوأ من سابقه، أما حديث الحلم الذي رآه هيباركوس في الليلة السابقة لمهرجان باناثنياك، أن رجلاً طويل القامة، بهي المحيا، وقف إلى جانب فراشه وحدثه بعبارات مبهمة ملغزة:

تجمل برباطة الجأش، وكن ثابت الجَنان كما الأسد

ما من رجل يأتي إثماً ويفلت من العقاب

فلما كان الصباح استدعى مفسري الأحلام، وقدم القرابين، ومضى في الموكب الذي لقي فيه مصرعه.

تعود أسرة جيفيراي التي ينتمي إليها قاتلا هيباركوس بأصولها، بحسب روايتهم - إلى إريتريه لكنني بحثت واستقصيت في هذه المسألة، ووجدت أنهم كانوا من الفينيقيين حقاً، ويتحدرون من أولئك الذين قدموا مع قدموس إلى ما يعرف الآن باسم بيوتيه، حيث خصوا بمنطقة تانجارا ليستقروا فيها.

وبعد طرد القدموسيين على يد الآرجوس، طرد الجيفيراي على يد البيوتيين. فالتجأوا إلى أثينا، حيث تم قبولهم في المجتمع بشروط معينة، استثنتهم من بعض الامتيازات التي لا مجال هنا لذكرها وقد أدخل الفينيقيون الذين جاؤوا برفقة قدموس - ومن بينهم الجيفيراي - إلى بلاد الإغريق، بعد استقرارهم في تلك البلاد، عدداً من الفنون، أهمها الكتابة، وهي فن لم يكن، على ما أظن، معروفاً لدى الإغريق حتى ذلك الحين. وفي البداية استخدموا الأبجدية التي يأخذ بها سائر الفينيقيين، لكن بمرور الزمن تحولوا عن لغتهم، وعن الطريقة التي يرسمون بها شكل الحروف. وفي تلك الفترة كان معظم الإغريق الذين يسكنون في هذه المناطق أيونيين. وقد درسوا هذه الحروف على يد الفينيقيين وأخذوا يستخدمونها مع تعديلات طفيفة، وظلوا يشيرون إليها على أنها «الأبجدية الفينيقية»، ولقد أصاب هؤلاء القوم بهذه التسمية، ذلك أن الفينيقيين هم من أدخل هذه الأبجدية. كذلك يطلق الأيونيون على الورق اسم «الرق» - وهي تسمية مازالت مستخدمة، فمنذ زمن بعيد كان من الصعب الحصول على الورق، وكانوا يستخدمون جلود الماعز والخراف ليدونوا عليها كتاباتهم. والواقع أنه حتى في يومنا هذا، ما زال العديد من الأقوام الغرباء يستخدمون هذه الوسيلة في تثبيت المدون. وفي معبد أبوللو الإسميني في طيبه في بيوتيه شاهدت بنفسي

مناصب ثلاثية القوائم نقشت عليهاكتابة بالأحرف القدموسية ـ ولا يختلف معظمها عن الأحرف الأيونية كثيراً. وكان هناك ثلاثة من هذه المناصب، نقش على أحدها «أهداني أمفيتريون مما غنمه من تيليبوي»، وتعود بتاريخها إلى عهد لايوس ولد لبداكوس وحفيد بوليدوروس بن قدموس.

ونقش على آخره بيتان من الوزن السداسي التفعيلة:

تقدمة الملاكم سكايوس، الظافر في المباريات،

إلى أبوللو، الرامي الخارق ـ يالها من تقدمة جميلة.

إذا كان هذا المنصب تقدمة سكايوس بن هيبوكون، وليس من شخص آخر يحمل الاسم ذاته، فيكون، إذن، معاصراً لأوديب، ولد لايوس. وقد حمل المنصب الثالث أيضاً نقشاً سداسي التفعيلة:

هذا المنصب تقدمة الملك لاوداماس إلى أبوللو،

ذي البصيرة، يوم كان جالساً على عرشه ـ آية من آيات الجمال.

وفي عهد لاوداماس هذا؛ ابن إيتوكليس أخرج الآرجوس القدموسيين من بلدهم، فلجؤوا إلى الإنخيليين، وقد ظل الجيفيراي مقيمين آنذاك في البلاد، ثم أخرجهم البيوط منها، فانسحبوا إلى أثينا، حيث لهم معابد خاصة بهم يقصدونها للعبادة، ويحظر على أهل أثينا الآخرين دخولها؛ وأحدها معبد ديميتر الآخيه الذي تقام فيه طقوس سرانية.

حسبنا ما روينا من قصة حلم هيباركوس، وأصل الجيفيراي، الأسرة التي ينتمي إليها قاتلاه، ولنعد الآن إلى موضوعنا الأساسي، وهو تحرير أثينا من حكم الطغيان، وكيف كان ذلك. كان هيبياس ما يزال الطاغية في البلاد، ويحمل أشد الحفيظة على أهل أثينا لمقتل أخيه. وكانت أسرة ألكمنيد الأثينية قد نفيت على يد البسيستراد، فسعوا يؤازرهم المنفيون الآخرون لتدبر أمر عودتهم وتحرير أثينا بالقوة. فاستولوا على ليبسيدريوم في أعالي بايونيا وأقاموا فيها التحصينات، غير أن المصائب توالت عليهم، وفشلوا. لكنهم ظلوا على نزعتهم،

ولم يتورعوا عن سلوك أي سبيل لبلوغ هدفهم بالقضاء على البسيستراد. فاتصلوا بالأومفيكتيون بقصد بناء المعبد الذي يوجد الآن في دلفي، ولم يكن قائماً آنذاك. فلما تم الاتفاق بينهم مضوا، وهم الأثرياء ذوو المحتد العريق، فبنوا معبداً أفضل وأشد فخامة من المطلوب، وحرصوا على أن تكون واجهته من الرخام الباروسي، بينما الاتفاق يقتصر على أن تكون عمارة المعبد برمته من الحجر الأملس. ويذهب أهل أثينا إلى القول بأن هؤلاء القوم، قاموا وهم في دلفي برشوة العرافة لتوجه أهل إسبارطة فيما يشغلهم من أمورهم الخاصة والعامة، بأن الواجب يفرض عليهم تحرير أثينا. فلما وجد الإسبارطيون الإجابة ذاتها تتكرر مع كل سؤال، أرسلوا أحد مواطنيهم البارزين أنخيموليوس بن أستر على رأس قوة بحرية لإخراج البسيستراد. على الرغم من روابط الصداقة التي تجمع بينه وبينهم، ذلك أن لأوامر الآلهة عند الإسبارطيين إجلالاً دونه الروابط الإنسانية. ولقد رست هذه القوة البحرية في فاليروم. لكن البسيستراد الذين عرفوا بنوايا القادمين، أرسلوا يطلبون العون من التيساليين بسبب من الحلف الذي كان بينهم. فاستجاب التيساليون ولبوا النداء، وزجوا إلى جانبهم ألفاً من الفرسان، بقيادة ملكهم كينياس الكوندي. فلما وصلت هذه الإمدادات عمد البسيستراد إلى قطع الأشجار وتسوية الأرض حول فاليروم لتصلح لحركة الخيالة. وكانت خطتهم تقوم على الهجوم بسلاح الفرسان. وقد كان ذلك، فتكلل الهجوم بالنجاح، وقتل العديد من اللاكيديمونيين، من بينهم قائدهم أنخيموليوس، فيما رد من بقي على قيد الحياة منهم إلى سفنهم. تلكم هي نهاية المحاولة الإسبارطية الأولى. وما زال قبر أنخيموليوس حتى الآن في أتيكا، عند الوبيكاي (مدينة الثعالب)، بالقرب من معبد هرقل في سينوسارجيس.

جهز الإسبارطيون حملة جديدة قوية، وتولى إمرتها ملكهم كليومنيس بن أناكساندريدس، وسلكوا الطريق البرية بدلاً من ركوب البحر. وعبر الجيش الحدود ودخل أتيكا، فتصدى له الفرسان الثيسال، لكنهم هزموا شر هزيمة بعد

اشتباك محدود، وقتل منهم ما يزيد على أربعين، فقفل البقية عائدين إلى تيساليه. ثم تقدم كليومنيس نحو أثينا، وكان يرفد قواته أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى الحرية من أهل أثينا، فشددوا الحصار على الطغاة، وقد لجأوا إلى قلعة البلاسجة وتمترسوا فيها. وكان حظ الإسبارطيين في وقوع البسيستراد في قبضتهم ضئيلاً، إذ كان لديهم مخزون وافر من الطعام والشراب. ومن المرجح أن كليومنيس لن يستمر في محاصرتهم أكثر من أيام معدودة، ثم ينسحب عائداً إلى إسبارطة، لكن لحسن طالع الإسبارطيين وسوء حظ أعدائهم، وقع ما لم يكن بالحسبان، وتفصيل ذلك أن أولاد البسيستراد قد قبض عليهم بينما كان يتم تهريبهم من البلاد خوفاً على حياتهم. ولقد أفسدت هذه الكارثة عليهم جميع خططهم، إذ أجبروا على القبول بشروط أهل أثينا لقاء استعادة أبنائهم، فقبلوا بمغادرة أتيكا في غضون خمسة أيام. وانسحبوا بعد ذلك إلى سيجيوم الواقعة على نهر السكاماندر. وانتهى بذلك حكم هذه الأسرة، في أثينا، وقد دام ستة وثلاثين عاماً. وتعود هذه الأسرة بنسبها إلى نيليدس من البيلوز، ومن هذه الأسرة كوردوس وميلانثوس، وكان هذان في قديم الزمن من المستوطنين الغرباء، قبل أن يصبحا ملوكاً في أثينا. ولقد أطلق هيبوكراتيس على ولده اسم بيزستراتوس تيمناً ببيزستراتوس بن نستور.

هذه إذن، قصة تحرير أثينا من الطغاة. ولسوف أتابع الآن رواية ما كان من أمر أهل أثينا، وما خبروا بعد تحررهم حتى ثورة أيونيا، ووصول أرستاجوراس الملطي أثينا في طلب المعونة لمحاربة الفرس. ولقد كانت أثينا مدينة عظيمة قبل هذا العهد، وحينما فازت بحريتها ازدادت قوة وعظمة.وكان أكثر الرجال نفوذاً فيها: كليسثنيس من آل ألكمنيد والذي تذهب الرواية إلى أنه قدم الرشوة لكاهنة دلفي. وأيساجوراس بن تيساندر وهو سليل أسرة عريقة، وإن كنت لا أعرف أصولها، إلا أنهم يقدمون القرابين إلى زيوس الكاري. وكانا يتنافسان على السلطة، ولما عرف كليسثنيس أنه الأضعف استمال إليه العامة. ثم زاد في عدد

القبائل الأثينية فأصبحت عشر قبائل، وكانت أربعاً من قبل، وعمد إلى إلغاء الأسماء القديمة لهذه القبائل وهي جيليون وأيجيكوريس وأرجاديس وهوبليس الأبناء الأربعة لأيون. أما الآن فقد أطلق على القبائل الجديدة أسماء أبطال آخرين، كانوا جميعاً من أثينا، باستثناء أجاكس، الذي وإن كان أجنبياً وضع في القائمة باعتباره جاراً وحليفاً لأثينا وفي اعتقادي أن الرجل إنما كان يقتفي أثر جده لأمه كليسثنيس، وكان الطاغية في سيكيون، حين أوقف مباريات المنشدين في بلده، في أثناء حربه والأرجوس، لأن ملاحم هوميروس التي كانوا ينشدونها تحفل بذكر بلاد الأرجوس وأهلها.

فسيراً على هذا النهج سعى الرجل إلى إخراج أدراستوس بن تلاوس من بلده، بعد ما تبين له أن هذا من أبطال الأرجوس، وله مزار مكرس له في سيكيون، وما زال قائماً هناك في ساحة السوق. فمضى كليثنيس إلى دلفي وسأل العرافة المشورة إن كان له أن يطرد أدراستوس من المدينة. ويقال إن العرافة أجابته بأن «أنى له، وهو ابن الحجّار، أن يطرد ملك السيكيون».

فعلم أن الآلهة لن تحقق له أمنيته، فعاد إلى بلده وهو يقدح زناد الفكر منقباً عن وسيلة تحمل أدراستوس على ترك المدينة طواعية. ثم تفتق عقله عن خطة اعتقد بها النجاح. وكان أن أوفد رسله إلى طيبة في بيوطيا يطلب من أهلها (تمثال) ميلانيبوس بن أستاكوس.

ولقد استجاب أهل طيبة لهذا الطلب، فخص التمثال بمكان في دار الحكومة وأقام له مزاراً في أكثر الأماكن أمناً وأبرزها. ولا يفوتني أن أذكر السبب في اختيار كليسثنيس ميلانيبوس ليكون له مقام في سيكيون. فالحق أن ميلانيبوس كان عدواً لدوداً لأدراستوس، فهو الذي قتل أخاه ميستيس وصهره تيديوس. فلما أقره في موضعه الجديد جعله موضع التكريم بتقديم الأضاحي والاحتفال، وكان أدراستوس يختص بهذا من قبل.

وكان أهل سيكيون يبجلون أدراستوس على الدوام، فهو سبط بوليبوس

صاحب البلاد القديم، وقد مات دون وَلَدٍ يرث الملك عنه. وقد بلغ من احتفال السيكيون به أنهم خصوه بنشيد حزين؛ وعهدنا أن هذا النشيد يغنى في أعياد ديونيسوس عادة، إلا في سيكيون، حيث يعرض المنشدون سيرة أدراستوس وعذاباته. لكن كلسثنيس أبطل هذا التقليد، وأصبح النشيد لديونيسوس، وخص بقية الطقس بميلانيبوس. ثم كان منه أن استبدل أسماء قبائل الدوريين للتمييز بين الأرجوس والسيكيون، وزاد في التمييز حتى جعل اسم السيكيون موضع السخرية، من قبيل «الحمار» و «الخنزير»، محوراً لاحقات الاسم وحسب. وقد سرى هذا على القبائل جميعها، إلا قبيلته وتدعى «آركلاي»، أي «حكام الشعب»، أما القبائل الأخرى فتدعى «هياطاي» أي «بنو خنزير» و «أونياتاي» ومعناها «بنو جحش» و «حوريتاي» وتعني «أصحاب الخنزير البري». وقد ظلت هذه الأسماء متداولة في سيكيون ستين سنة بعد وفاة كليثنيس، حين تداولت القبائل في الأمر، فاتخذت الأسماء التالية: الخيليس، والبمفالي والديمناطاي، وسميت القبيلة الرابعة بالأيجياليس، تيمناً بإيجياليوس، ولد أدراستوس.

ولقد حذا كليثنيس المستبد بأثينا حذو جده كليستنيس صاحب سيكيون، فأراد أن يميز بين قبيلته والأيونيين، والحط من شأن هؤلاء، على ما يذهب بي الاعتقاد؛ ذلك أنه عمد حين حاز على تأييد العامة في أثينا، وكانوا موضع الاحتقار من قبل، إلى استبدال أسماء القبائل وزاد من عددها فجعل على رأسها عشرة رؤساء، وكانوا أربعة في ذلك الحين، ثم ضم إلى كل قبيلة عشرة فروع من المقيمين في البلاد. ثم وجد نفسه، وقد حاز على تأييد الدهماء، أشد قوة من جميع منافسيه، فأخذ في تصفيتهم تباعاً. وكان أن تم له دحر أيساجوراس، فلجأ هذا إلى كليومنيس الإسبارطي، وكان ضيفه ـ الصدوق في أثناء حصار البسيستراد (بل وتذهب الأقاويل إلى أنه كان على علاقة بزوج أيساجوراس. فوجه كليومنيس بادئ ذي بدء، أمراً إلى أثينا بطرد كليستنيس وعدد كبير من الأثينيين الذين وصفهم في أمره بـ «الملعونين». وكان هذا برأي

من أيساجوراس؛ فقد قيل إن لآل ألكمنيد وحلفائهم ضلعاً في تلك الجريمة، أما أيساجوراس فكان وجماعته أبرياء منها.

وقد أطلق على هذا الجمع وصف الملعونين لسبب أفصله فيما يلي: كان في يوم مضى أثيني يدعى سيلون، عرف بفضل فوزه في المباريات الأوليمبية. ولقد أخذت تراود هذا الرجل أفكار تزين له الصعود إلى مركز المستبد في أثينا، فجمع عصبة من أصدقائه محاولاً احتلال الأكروبول. لكن محاولته فشلت، فلجأ عندئذ إلى تمثال الإله هناك وتمسك بساقيه، ولم يترك موقعه، إلا بعد أن أفلح القائمون على المعبد في إقناعه وأصحابه بتسليم أنفسهم للحكومة، متعهدين لهم بالإبقاء على حياتهم. ومع ذلك فقد قتل هؤلاء ويقال إن مقتلهم كان على يد آل ألكمنيد. وكان ذلك قبل أيام بيزستراتوس.

ولقد وصل أمر كليومنيس بطرد كلستنيس والملعونين، في وقت كان هذا قد غادر فيه أثينا طواعية. غير أن مغادرته المدينة لم تحل دون قدوم كليومنيس إليها على رأس قوة صغيرة، وقيامه بطرد سبعمائة أسرة أثينية كان أيساجوراس قد عينها له في قائمة خاصة. غير أن مجلس المدينة عارض الأمر وقاوم، ثم رفض تنفيذه. فرد بأن احتل أيساجوراس وأشياعه الأكروبول. وكان من أثر ذلك أنه وحد الأثينيين في مقاومته، فطوقوا المكان وأحكموا الحصار طوال يومين حتى كانت الهدنة بين الطرفين في اليوم الثالث، فترك اللاكيديمونيين منهم ليغادروا البلاد. وقد سلف الحديث عما جرى بعد ذلك ولا حاجة لتكراره الآن؛ إنما حسبنا القول أن كليومنيس صادف العرافة، حين صعد ليستولي على المعبد، وهمَّ بدخول معبد أثينا، فنهضت عن مقعدها، وصاحت به أن «عد أدراجك، أيها اللاكيديموني الغريب، ولا تطأ أرض هذا المكان المقدس، فهو محرم على الدوريين». فكان رده عليها «أيتها المرأة أنا لست من الدوريين، بل أنا من الآخيين»، ثم أهمل النذير، وتابع احتلال الأكروبول، كما اعتزم، وكان ما ذكرت من طرده وجماعته اللاكيديمونيين من المكان. أما

الآخرون فقد ساقهم الأثينيون إلى السجن، ونفذوا فيهم حكم الموت، وكان من بينهم تيماستيوس الدلفي، وهو رجل لو شئت لاسترسلت طويلاً في وصف شجاعته، ولكني سأمسك عن الخوض في أمره.

استدعى الأثينيون بعد إعدام السجناء، كليستنيس والأسر السبعمائة التي طردها كليومنيس؛ ولما باتوا يدركون أنهم بذلك قد دخلوا في الحرب مع كليومنيس وإسبارطة، بعثوا بسفرائهم إلى سارديس، آملين بتدعيم وضعهم بحلف مع الفرس. وفي سارديس أبلغوا الرسالة المكلفين بها، فسألهم الحاكم أرتفرنيس بن هايستاسبيس، من يكون هؤلاء الأثينيون الذين يسعون للتحالف مع فارس، وفي أي مكان من العالم يعيشون. فلما أخبر بأمرهم، عرض موقف الفرس باقتضاب شديد بأن داريوس يرضى بالحلف، إذا أظهر الأثينيون خضوعهم بتقديم الهدية المعتادة من التراب والماء، وإلا فالأفضل لهم أن يعودوا على أعقابهم إلى بلدهم. ولقد كان هؤلاء السفراء في لهفة لعقد الحلف فبادروا من ذات أنفسهم بقبول شروط أرتافيرنيس - وعلى هذا نال هؤلاء السفراء أشد التعنيف عندما عادوا إلى أثينا.

وكان كليومنيس يقوم، في تلك الأثناء، بتجنيد جيش من كل بلاد البيلوبونيز، للرد على ما ناله من إهانة من الأثينيين، قولاً وفعلاً. وكان هدفه من هذا الحشد، وإن حرص على كتمان سره، الانتقام من أثينا، وإعادة أيساجوراس إلى سدة الحكم، طاغية على البلاد، وكان قد هرب من الأكروبول. فلما تمت له الاستعدادات واكتملت سار بجيش قوي حتى بلغ الليوسيس، بينما كان البويوتيون يستولون وفق خطة منسقة، على ناحيتي أوينوي وهايسياي، من آتيكا، في حين دخل خاليكيديون آتيكا من ناحية أخرى، وانزلوا بها عسفاً وتدميراً. ولقد حزم الأثينيون الأمر، إذ وجدوا أنفسهم مهددين من جانبين في آن واحد، وقرروا التصدي للإسبارطيين عند الليوسيس، ومواجهة البويوتيين و خاليكيديين بعد الانتهاء منهم. أما الكورنثيون فإنهم، وقد وجدوا أنفسهم

يخطئون التصرف بالانحياز ضد الأثينيين، عدلوا عن الاستمرار في الحرب، والمعركة لم تبدأ بعد، فانسحبوا من الساحة. كذلك كان شأن ديمارتوس بن أريستون، وهو أحد الملكين في إسبارطة، والقائد المشارك في الحملة، إذ لحق بالكورنثيين وانسحب من القتال، بالرغم من أنه لم يكن بينه وكليومنيس خلاف في أي وقت مضى. ولقد أدى هذا الاختلاف في السياسة بإسبارطة إلى سن قانون جديد. وتفصيل ذلك أن القاعدة اقتضت قبل ذلك على أن يخرج ملكا إسبارطة كلاهما مع الجيش، ثم حظر القانون هذا الأمر بعد تلك الواقعة، فنص على بقاء أحد الملكين في العاصمة، وكان هذان يرافقان الجيش حتى صدور هذا التشريع على سبيل المؤازرة. ولما رأت القوات الحليفة الأخرى الشقاق يدب بين ملكي إسبارطة، ثم انسحاب الكورنثيين، تخلت هي أيضاً عن مواقعها وتركت الميدان. وكانت هذه هي المرة الرابعة التي يشاهد فيها جيش إسبارطة على أرض أتيكا: وكانت المناسبتان الأوليان مناسبة حرب، والثانيتان لخدمة شعب أثينا وكان الغزو الأول حين أسس الإسبارطيون ميجارا، ووقع في عهد ملكها كودروس، أما الغزوان الثاني والثالث فكانا حملتين شنتهما إسبارطة لطرد البسيستراد، والحملة الرابعة هي هذه الأخيرة، حين زحف كليومنيس مع جيش بيلوبونيزي وبلغ الليوسيس.

غدا الانتقام شاغل الأثينيين، بعد ما رأوا الجيش الغازي يتفرق متبعثراً على هذا الشكل المشين، وهموا بالزحف على الخاليكيدونيين أولاً، لولا أن وجدوا البويوتيين يهرعون لنجدتهم، عند مضيق أوريبوس، فقرروا عندئذ التعامل معهم أولاً. وتحقق لهم النصر المؤزر في المعركة، فقتلوا الجمع الغفير، ووقع منهم سبعمائة أسير غيرهم. ثم دخلوا يوبويه في اليوم التالي، وقاتلوا الخاليكيدونيين ودحروهم. وبعد هذا النصر وطنوا أربعة آلاف رجل، وأقطعوا كل رجل منهم قطعة أرض، من أراضي «أصحاب الخيل»، كما يسمى الأثرياء الخاليقدونيون. وكان أخذهم الأسرى في هذه الموقعة الثانية، وقد وضعوهم والأسرى السبعمائة

البويوتيين، مكبلين بالأصفاد، تحت حراسة الحراس، ثم أطلق سراحهم فيما بعد لقاء فدية بمائتي دراخمة عن كل أسير. وقد علق الأثينيون تلك الأغلال على الجدران في الأكروبول؛ وما زالت القيود معلقة إلى يومنا هذا على الجدران التي أحرقتها نار الفرس، مقابل المزار المتوجه إلى الغرب.

وأنفق الأثينيون عشر الفدية في صنع عربة من البرونز ذات أربع عجلات، نذراً للربة أثينا، وهي أول ما يطالعكم من جهة اليسار حين تمرون بالبروبيلايا على الأكروبول، وقد نقشت عليها العبارات التالية:

قاتلت أثينا الخاليقدونيين والبويوتيين.
وقيدتهم بالسلاسل وسفحت كبرياءهم.
وكان السجن الكئيب مأواهم والفدية باهظة ـ
العشر أنفق في صرح العربة المنتصبة هنا.

وهكذا كانت أثينا تزداد قوة ومنعة وأثبتت، إذا شئتم دليلاً، مبلغ سمو المساواة أمام القانون، ليس على صعيد واحد وإنما على الأصعدة كافة؛ وآية ذلك أنهم لم يعرفوا النصر في حروبهم والجوار، حينما كانوا يعانون الاضطهاد على يد الطغاة، ثم إذا بهم يثبتون، حين رفع عنهم نيره، أنهم أفضل المحاربين في العالم. وفي هذا البيان الساطع على أنهم كانوا يتعمدون التهرب من أداء الواجب في ساحة الحرب، كما يتعمد الأرقاء تفادي العمل في خدمة أسيادهم، طالما ظلوا، الأثينيون، مقيدين بقيود الحاكم الطاغية؛ ثم ما إن فازوا بحريتهم حتى غدا كل فرد منهم معنياً بما يتصل بقضية حياته.

كان أهل طيبة، في تلك الأثناء، تضطرم في نفوسهم الرغبة في تصفية حسابهم مع أثينا. فأرسلوا يسألون العرافة في دلفي المشورة، فأتاهم جواب الكاهنة أنه لن يكون لهم الانتقام، إذا تصدوا لهم وحدهم دون عون: فعليهم أن يطرحوا الأمر للنقاش، كما قالت، لتتداورها الأصوات الكثيرة»، وطلب المعونة من «الأقرب». وهكذا كان، فما إن عاد الرسل من دلفي حتى دعا حكام طيبة

إلى اجتماع عام، وأعلنوا فيه ما أشارت به المتنبئة. ولقد عجب الناس، حين سمعوا ما قالت به النصيحة من طلب العون من «الأقرب» إليهم، وهم يعلمون أقرب الجيران أهل تانجرا وكورونيا وثيسبيا، وتساءلوا عن حقيقة معنى النصيحة. وأخذوا يقلبون النبوءة على وجوهها: «إن هؤلاء الجيران ليسوا بحاجة، قطعاً، للسؤال، فلطالما كانوا حلفاءنا وقاتلوا إلى جانبنا ما دامت الحرب قائمة، وكانوا أصدق الحلفاء. فلعل النبوءة تنطوي على معنى آخر». واستمر النقاش حيناً، وإذ بالمغزى الحقيقي يبرق فجأة في عقل أحد الحاضرين، فيصيح: «أعتقد أني عرفت حل اللغز. فلقد قيل إن لنهر الأسوبوس ابنتين، طيبة وإيجينا. وطيبة وإيجينا ـ شقيقتان، وهذا ما تعنيه كلمة الأقرب. فقد أشار إليهم الإله بطلب العون من إيجينا، باعتبارها الأقرب، حسب المضمر في النبوءة؛ وكان أن رد الإيجيون بالاستجابة للطلب بإيفاد أبطالهم أبناء أياكوس. وعلى هذا الدعم القوي استند أهل طيبة في محاولتهم، إلا أنهم هزموا هزيمة نكراء أمام الأثينيين. وكان أن أرسلوا إلى إيجينا رسالة ثانية، وأعادوا لهم أبناء أياكوس (أياكيداي)، مطالبين بإمدادهم بعدد من الرجال، بدلاً عن هؤلاء.

وكان الإيجينيون يرفلون في تلك الفترة في رغد عظيم، فشجعهم هذا الحال وذكرى عداوتهم القديمة لأثينا على الاستجابة لطلب طيبة والمبادرة للقتال دون إعلان الحرب رسمياً. وفيما كان الأثينيون منصرفين لقتال البويوتيين، أرسل الإيجينيون مجموعة من السفن ثلاثية المجاذيف إلى أتيكا، فخربت مرفأ فاليروم وعسفت بعدد من القرى الساحلية المجاورة.

وأصل حافز أهل إيجينا لتصفية حسابهم وأثينا ظروف أعرض لها فيمايلي: صدف أن ساءت المواسم في أبيداروس، قبل عهد بعيد، فقصد أهل المنطقة عرافة دلفي يسألونها النصيحة فيما يجب عليهم عمله لتلافي هذه المصيبة. فأجابت العرافة، بأن حالهم سيصلح ، إن أقاموا تمثالين لداميا وأوكسيسيا. فسألوها إن كان عليهم صنعهما من البرونز أو الحجر، فاستبعدت هذا وذاك،

وأشارت إليهم باستخدام الخشب من أشجار الزيتون المزروعة في أتيكا. وكان أن سألوا الأثينيين السماح لهم بقطع بعض أشجار الزيتون، اعتقاداً منهم بأن لأشجار زيتون أتيكا قدسية - وقيل أيضاً أن أثينا كانت يومذاك البلد الوحيد الذي يزرع الزيتون. وقد أذن الأثينيون لهم بقطع الأشجار شرط أن يقدم أهل أبيداروس الأضاحي كل عام (للإله) إريختيوس والإلهة أثينا بولياس. فوافق القوم على هذا الشرط وحصلوا على مطلوبهم، ثم كان لهم التمثالان؛ ولما تم نصبهما تحسنت المحاصيل، وظل الأبيداروس يثابرون على عهدهم للأثينيين.

وكانت أيجينا تخضع في ذلك الزمن لإبيداوروس، في كل شأن، حتى إنهم كانوا ينتقلون إليها لعرض خلافاتهم والفصل في كل ما يختلف عليه اثنان. ولكن زمناً أتى بعدئذ، زمن بنى فيه أهل الجزيرة (إيجينا) أسطولاً، وباتوا بعدئذ يضيقون بتسلط الإبيداوروس وأخذوا بالعناد وثاروا عليهم. وأتاح لهم تفوقهم في البحر، بعد بدء القتال ضدهم، أن ينزلوا بهم خراباً عظيماً. وكان من بين ما قاموا به أنهم حملوا تمثالي داميا وأوكسيسيا، ونصبوهما في موقع يدعى أويا، في عمق جزيرتهم، ويبعد نحو عشرين فرلنجاً. ولقد ابتدعوا في تكريمهما احتفالات خاصة، منها تقديم القرابين، ومنها حفلات تشارك فيها الراقصات والمغنيات، ويغلب عليها التهكم والتهتك، لا يقصد بها الرجال، وإنما النساء في تلك البقعة. وقد بلغ بهم الاهتمام بهذه الاحتفالات أنهم قاموا بتعيين عشرة مدربين (تشوريجي) يتولون تدريب الراقصات ودفع أجورهن. ومثل هذا الشكل من العبادة كان شائعاً، وغير هذا الشكل من الطقوس - «السرانية» - في أبيداروس أيضاً.

بعد سرقة التمثالين انقطع الإبيداوروس عن الوفاء بالتزامهم بالعطية السنوية لآلهة أثينا. ولقد أبدى الأثينيون كل احتجاج، ولكن دون جدوى، إذ أثبت الإبيداوروس أنهم لم يخطئوا أو يحيدوا عن التزامهم ولا أتوا بخطأ في مسلكهم. ذلك أنهم كانوا يفون بالتزاماتهم ما دام التمثالان في حيازتهم،

ولكنهما لم يعودا بين أيديهم، وبذلك ينتهي التزامهم، بعد ما أخذ الإيجينيون التمثالين وهم الأجدر أن يقع على عاتقهم تسديد التكاليف. فأرسل الأثينيون يطالبون الإيجينيين برد التمثالين؛ وكان رد هؤلاء بأن لا شأن لهم بأثينا ومعاهداتها. ويزعم الأثينيون بأنهم بعثوا بوفد منهم على سفينة ثلاثية المجاديف ليأتوا بالتمثالين، فهما من خشب أثيني، وبالتالي ملك لأثينا. فحاولوا أولاً انتزاع التمثالين عن قاعدتيهما؛ ولما عجزوا عن ذلك حاولوا انتزاعهما بشدهما بالحبال. ولكن بينما كانت هذه الجماعة منهمكة في عملها إذ بالسماء ترعد والأرض تزلزل، فجن الرجال وأخذوا في قتل بعضهم بعضاً، حتى لم يبق حياًمنهم سوى رجل واحد، عاد بمفرده إلى فاليروم. غير أن الأثينيين يأتون برواية أخرى عن تلك الواقعة، وتناقض رواية الإيجيان كلياً - إذ ينكر هؤلاء في روايتهم قصة السفينة، ويذهبون إلى أنه لو كان الأمر يقتصر على سفينة واحدة أو عدة سفن، لكان من اليسير عليهم ردها، ولو لم يكن لديهم أسطول يتوسلون به؛ والصحيح عندهم أن الأثينيين أرسلوا إليهم أسطولاً ضخماً، ولم يحاولوا مقاومته حين طرق جزيرتهم. وليس واضحاً ما إذا كانوا قد تفادوا الاشتباك مع المغيرين لضعف قدراتهم في المواجهة في البحر، أم لحظة تجلت فيما كان منهم لاحقاً. ومهما تكن الرواية، فما حدث هو أن الأثينيين قاموا بإنزال قواتهم على الجزيرة دون أن تلقى مقاومة، وتابعت هذه الجماعة طريقها إلى حيث كان التمثالان؛ فلما عجزوا عن إنزالهما، عمدوا إلى ربطهما بالحبال وشدهما عن قاعديتهما، وما زالوا يشدونهما، دون جدوى، حتى وقع أمر خارق. وأنا شخصياً لا آخذ بهذه الرواية عن الخوارق، وإن صدقها سواي، وتذهب إلى أن التمثالين خرا على الركبتين، وما زالا على هذه الحال منذ ذلك الحين. ويمضي الأيجينيون في القول بأنهم سعوا إلى الآرجوس لمؤازرتهم، حالما بلغهم اعتزام أثينا مهاجمتهم، فلما حط الأثينيون على أرضهم كانت التعزيزات قد وصلت فعلاً من الآرجوس للتصدي لهم ومقاومتهم، إذ تسلل الجند عبر بلاد الإبيداوروس، وباغتوا

الأثينيين قبل أن يتبينوا موقع أقدامهم، وقطعوا عليهم طريق الانسحاب إلى سفنهم. وكان وقوع الزلزال وقصف الرعد في تلك اللحظة. وفي هذا يتفق الآرجوس والأيجينيون، والأثينيون أيضاً يقرون بعودة شخص واحد وحسب حياً إلى أتيكا: ونقطة الخلاف الوحيدة بينهم تتصل بطريقة نجاته، فيقول الآرجوس إنه إنما هرب بعد ما قضوا على بقية القوة الأثينية، بينما يقول الأثينيون إن الأمر كله كان من تصاريف الآلهة. غير أنه لم ينج حتى هذا الرجل الوحيد الذي سلم، إذ سرعان ما انتهى إلى نهاية سيئة؛ وتفصيل ذلك أن أرامل القتلى تجمعن، حين بلغهن خبر وصوله، وقبل أن يتمكن من رواية ما حدث، وجدهن يتدافعن إليه ويحلقن حوله، ومشاعر الحزن تعصف بهن، والغضب قد نال منهن، إذ وجدن رجالهن قد قضوا، بينما هذا الرجل يقف أمامهن دون الجميع، فشرعن يدفعن بدبابيس مشابك ثيابهن في بدنه، وكلما غرزت واحدة منهن بدبوسها في بدنه تسآله عن مصير زوجها. وهكذا قضى الرجل، وجزع الأثينيون لمقتله على هذا النحو أشد مما جزعوا لهزيمة جندهم في إيجينا وكان أشد عقاب يمكنهم أن ينزلوه بنسائهم حملهن على ارتداء أزياء الأيونيات، جزاء وفاقاً على فعلتهن؛ وكانت الأثينيات يرتدين من قبل زي الدوريات، وهو شديد الشبه بزي نساء كورنثه؛ فتحولن الآن إلى الرداء الطويل، لئلا يعدن إلى التحلي بمشابك الزينة. والحق أن هذا الزي لا يعود إلى الأيونيين بأصله، وإنما هو زي الكاريات؛ ذلك أن الزي الشائع بين الإغريقيات في قديم الزمان هو ما يعرف اليوم باسم الزي الدوري. أما الآرجوس والأيجينيون فاعتمدوا قانوناً في بلادهم ينص على زيادة طول الدبوس نصف ما كان عليه في الماضي، وتقديم المشابك الهدية الرئيسة التي تقدمها المرأة للآلهتين اللتين سلف ذكرهما؛ كما نص القانون على ألا يكون بين ما يقدم لهما مرة عما هو مصدره أتيكا، ولو كان ذلك قطعة من الفخار، ولم يعد القوم يتناولون شرابهم إلا بأوان من صنع البلاد.

ولقد غدت العادة أن تتحلى الأرجوسيات والإيجينيات بالمشابك بدبابيس

أطول من الدبابيس التي كن يستخدمنها في الماضي وكل ذلك بسبب صراعهم مع أثينا. وإذن فأصل الكراهية المتبادلة بين أثينا وإيجينا هو ما ذكرت آنفاً. وهكذا لبى الإيجيان نداء أهل طيبة للمؤازرة بكل حماس ولهفة، وأخذوا في شن الغارات على ساحل أتيكا. وكاد الأثينيون أن يبدأوا بالرد، لولا نبوءة وردتهم من دلفي تنصحهم بالإمساك عن الرد مدة ثلاثين سنة، ثم تخصيص قطعة من الأرض في السنة الحادية والثلاثين لأياكوس، ويكون بعدها إعلان الحرب. وذهبت النبوءة إلى أن الأمور ستسير على هواهم، إن أخذوا بالنصيحة؛ أما إذا باشروا بالاعتداء على إيجينا، فإن النصر إلى جانبهم، إنما سوف يعانون الآلام ويتكبدون من الخسائر قدر ما كلفوا خصومهم. ولقد سمع الأثينيون النبوءة وامتثلوا لها، على أن قصدها بناء تلك المنطقة المعروفة والتي ما تزال ماثلة للعيان عند سوق أثينا، تخليداً لأياكوس؛ ولكن الأثينيين، وقد ضاقوا بالعسف العظيم الذي نزل بهم على يد الإيجيان، لم يكونوا ليطيقوا الصبر ـ ثلاثين سنة حتى يتحقق لهم الانتقام.

وكان أن قاموا بالاستعداد للأخذ بثأرهم، لولا أن أنباء وردت إليهم عن اضطراب أحوال اللاكيديمونيين. فقد أدرك هؤلاء الحقيقة، فبلغهم خبر رشوة الألكمنيد عرافة دلفي، ومؤامرتها على اللاكيديمونيين، والبسيستراد أيضاً؛ فكان هذا سبباً لغم شديد بينهم؛ ذلك أنهم لم يدفعوا بأصدقائهم الصدوقين إلى المنفى وحسب، بل ولم ينالوا أي خير من أثينا وزاد في الأمر ما بلغهم من نبوءات معينة تقول إن كوارث كثيرة ستنزل بهم على يد الأثينيين.

وكانوا يجهلون هذه النبوءات حتى أتى كليومنيس إلى إسبارطة، بعد ما التقى باللاكيديمونيين في عاصمة الأثينيين، وكانت هذه النبوءات في عهدة البسيستراد، وقد خلفوها في معبد دلفي، حين طردوا من أثينا، فوجدها كليومنيس هناك، وحملها معه. فلما اطلع اللاكيديمونيون على هذه النبوءات ورأوا الأثينيين يزدادون قوة، وليس في نيتهم الإقرار ولو بقدر من التبعية لهم،

وجدوا أن أهل أتيكا سيبلغون من القوة، إن ملكوا الحرية مالهم، أما إذا ابتلوا بالطغيان فسوف ينالهم الضعف ويكون مآلهم الخنوع وهكذا استدعى اللاكيديمونيون هيبياس بن بزيستراتوس، من مقامه في سيجيوم عند هيلسبونت، حيث التجأ البسيستراد. وكان أن لبى هيبياس الدعوة، فلما حضر استدعى الإسبارطيون موفدين عن حلفائهم الآخرين إلى اجتماع؛ وكان لهم في هذا الخطاب:

«أيها الأصدقاء ويا إخوة السلاح، إنا مصارحوكم بأننا أتينا مؤخراً أمراً مقيتاً. فقد خدعنا بنبوءات زائفة فطردنا من كانوا أصدقاء خلصاً لنا، وقد أعانونا في إكراه أثينا على البقاء على اعتمادها علينا، فدفعنا بهم خارج بلادهم؛ ثم إننا سلمنا البلاد إلى قوم جاحدين - قوم ما إن تحققت لهم الحرية بفضل إمكاناتنا، وازدادوا قوة، حتى طردونا، وملكنا،من بلدهم وهم يقذفوننا بكل إهانة. وما فتئوا منذ ذلك الوقت تداعب خواطرهم المطامح، شأنهم شأن جيرانهم في بيوطيا وقلقيزيا، وخبروا بكلفة بالغة، وسيخبرون الآخرين أيضاً إذا ما سولت لهم أنفسهم مضايقتهم. أما وقد أخطأنا على نحو ما ذكرنا فسوف نسعى إلى إصلاح ما صدر عنا من هذه الشرور ونثأر من الأثينيين. ولذلك فقد طلبنا حضور هيبياس واستدعيناكم من دولكم لنتحد قلباً واحداً ويداً واحدة لنعيده إلى حكم أثينا، ونعيد إليه ما كنا قد سلبنا منه».

ذلكم هو مقال الإسبارطيين، وقد استمع إليه أكثرهم دون أن يحملهم على الاقتناع بما حمل؛ ولكنهم لم يقطعوا، مع ذلك، حبل الصمت، إلا سوسكليس الكورنثي، فقال مستغرباً: «لا ريب أن السماء ستنزل، وسترتفع محلها الأرض عالياً، عما قريب، ولسوف ينتقل البشر للعيش في البحر، والسمك سينتقل إلى حيث يعيشون، على اليابسة. ذلكم ما استوعبنا من مقالكم أيها اللاكيديمونيين حين اقترحتم إسقاط الحكومات الحرة في المدن الإغريقية وإقامة أنظمة طغيان محلها. فاعلموا، إذن، أن ليس ثمة ما هو أشد ظلماً، ولا أشد ضراوة وعدواناً،

من حكومة طاغية. أما إذا طاب لكم أن يسود حكم الطغيان في هذه المدن، فالأحرى أن تبدأوا بأنفسكم فتنصبوا عليكم طاغية أولاً، ثم تنتقلون بعدئذ لتنصيب الطغاة أمراء على الدول الأخرى. فأنتم، دون أن تخبروا هذا الحكم، بل الحق أنكم لتحرصون أشد الحرص على أن تجنبوا إسبارطة التورط فيه، تسيؤون بعملكم هذا إلى حلفائكم؛ ولو أنكم خبرتم، كما نعلم الآن، سوء الحكم غير المسؤول، لسمعنا منكم نصيحة أفضل مما أسمعتمونا الآن».

لقد كان الحكم في كورنثة أوليجارخياً، وكانت السلطة بيد عشيرة واحدة، هي البخياد، وأفرادها لا يتزاوجون إلا فيما بينهم. وقد كان لأحد أفراد هذه العشيرة، ويدعى أمفيون، ابنة عرجاء، هي لبدة، لم يكن هناك بين البخياد من يقبل الزواج بها، فتزوجها أيتيون، ولد أخكريطس، من قرية بيترا، وكان ينتسب إلى عشيرة اللابيتاي، وفرعها بيت كانيوس. ولما لم يعقب أيتيون من زوجه لبدة أو أي زوجة أخرى، فقد قصد معبد دلفي ليسأل العرافة، إن كان مقدراً له أن يحظى بوريث. فلما دخل المعبد خاطبته العرافة بهذه الكلمات:

يا أيتيون، أيها الجدير بالشرف، إنك لا تجد من يكرمك.
اعلم أن لبدة حامل، ولسوف يكون ولدها حجراً ثقيلاً
سوف ينزل على الحكام ويقيم العدل في كورنثة .

ومع أن هذه النبوءة اختصت أيتيون بعباراتها، فقد صدف أن بلغت آذان البخياد، الذين كانوا لم يصلوا، بعد، إلى فهم مغزى نبوءة سابقة تتصل بما سيكون إليه مآل كورنثة. أما وقد عرضت لهم هذه النبوءة الجديدة الآن فإن اللغز بات مكشوفاً، لأن النبوأتين تتناولان حدثاً واحداً مشتركاً بينهما. وكان نص النبوءة الأسبق كالتالي:

أنثى النسر حملت، ولسوف تلد أسداً
جباراً، ضارياً، يأتي على رقاب كثيرة
فاصغوا وعوا، أيها الكورنثيون، يا من تسكنون

[خليج] بيرينة الجميل ومدينة كورنثه المنحوتة من الصخور عنده.

ولقد ظلت هذه النبوءة الأولى تستعصي على فهم الجماعة، كما سلف القول؛ ولكن ما إن سمعوا الثانية التي قيلت لأيتيون حتى فتحت مغاليقها فأدركوا معناها واتصال النبوأتين بالموضوع. فلما بانت معاني النبوأتين خلد البخياد إلى الصمت، إنما بعزم على أن يتم تدبر أمر طفل أيتيون حالما تلده أمه.

وكان أن بعثوا بعشرة من جماعتهم حالما بلغهم خلود لبدة إلى الفراش لتضع ولدها، وهمهم أن يقتلوه في سريره. وحين وصلت هذه الفرقة بيترا قصد الجمع الدار، وسألوا أهلها أن يظهروا الطفل ليروه، فقدمته لبده لهم ليحملوه، وهي تحسب أنهم أرادوا رؤيته تقديراً لوالده، وكان هؤلاء الرجال قد اتفقوا فيما بينهم، وهم، بعد، في طريقهم إلى بيترا، على أن يرمي بالطفل إلى الأرض من يحمله ولكن شاءت الصدفة - أو هي العناية الإلهية - أن يطالع حامله بابتسامة، فتأثر الرجل وعجز عن قتله، فقدمه إلى رفيقه بجانبه، فقدمه هذا بدوره إلى رفيقه وهكذا حتى تداوله الرجال العشرة، وعجز كلهم عن قتله. فأعادوا الطفل في النهاية إلى أمه، وأخذوا طريقهم يقصدون الباب للخروج، ووقفوا هناك يتبادلون التأنيب والتقريع، ولقد لقي الرجل الذي كان أول من حمل الطفل النصيب الأكبر من التعنيف، لما كان منه من التقاعس في قتله، ثم استقر بينهم الرأي أخيراً، على العودة وقتل الطفل جماعة. ولقد شاء القدر على أن يظل ابن أيتيون حياً ويكون سبباً في شقاء كورنثه؛ وتفصيل ذلك أن لبدة سمعت كل ما دار من الحديث بين هؤلاء الرجال، إذ كانت تقف قريباً من الباب، فخشيت أن يتمكنوا من طفلها في المحاولة الثانية فلا تستكين له قلوبهم فيقتلونه. وكان أن عمدت إلى إخفائه في أحد الصناديق، وهو المكان الذي قدرت أنه لن يخطر لهم أن ينظروا فيه، إن عادوا وبحثوا عنه. وكان هذا ما حدث؛ فقد عاد الرجال وأخذوا في البحث عن الطفل في كل مكان يخطر بالبال، دون أن يوفقوا بالعثور عليه؛ فاتفقوا فيما بينهم على أن يخبروا موفديهم بأنهم قد نفذوا المهمة كما

أمروا. وقد كان ؛ وقدر لولد أيتيون أن يشب ويحمل اسم كايبسيلوس، نسبة إلى الصندوق الذي خبئ فيه وأنقذه من الموت المحتم.

وصادف أن طلب كايبسيلوس ذات يوم، وكان قد بلغ مراتب النضج، نبوءة العرافة، فأخذ بها ـ وكانت ملتبسة تقبل التأويل على وجهين ـ فنصب نفسه سيداً على كورنثه.

وكانت النبوءة كما يلي:

محظوظ من دخل داري،

كايبسيلوس، ولد أيتيون، سيد كورنثه ذات الشهرة:

محظوظ هو وأولاده، لا أحفاده.

تلكم هي النبوءة التي حفزت كايبسيلوس على الاستيلاء على السلطة. وإني لمنبئكم كيف تصرف بها حين حازها: لقد عمد إلى نفي الكثيرين من أهل كورنثه، ثم صادر أملاك العدد الغفير منهم، وقضى على حياة العديدين. وظل يحكم في كورنثه ثلاثين عاماً، ثم خلفه ابنه بورياندر. وكان بورياندر هذا في مبدأ أمره دون أبيه في العسف، ثم سرعان ما فاقه في جوره وظلمه وكان هذا نتيجة مراسلة بينه وطاغية ملطية ثراسيبولوس. فقد أوفد سفير إلى بلاط هذا الطاغية ليسأله النصيحة فيما يجب عليه عمله ليحفظ حكمه في مدينته على أفضل وآمن وجه. فدعا ثراسيبولوس هذا السفير ليصبحه في جولة سيراً من المدينة إلى حقل له يزرع فيه الذرة. فظل الطاغية لا ينقطع طوال الطريق يسأل الموفد عن سبب مجيئه من كورنثه، وهو مستمر في قطع رؤوس سنابل القمح كلما صادفها في الطريق، ثم يرمي بها، حتى أفسد أفضل الزرع. وهكذا قطع الحقل، ثم صرف الموفد. فلما عاد إلى كورنثه، وجد بورياندر ينتظره متلهفاً لسماع ما نصح به ثراسيبولوس، فأجابه الرجل بأن صاحب ميليطس لم يزوده برأي، مستغرباً إيفاده أصلاً إلى رجل كهذا، معتوه ومأفون، بلا ريب، إذ يخرب أملاكه على نحو ما رأى منه ـ ثم مضى يصف له ما شاهده.

فلما سمع بيرياندر حديث موفده، أدرك مغزى سلوك ثراسيبولوس، وعلم أن الرجل ينصحه بقتل كل من يجد من سكان المدينة إن كان ذا نفوذ ومكانة أوكفاءة. ولقد أخذ بيرياندر بالنصيحة حالما لحظها، ولم يعد يتوانى منذ تلك اللحظة عن ارتكاب أي جريمة مهما بلغت في حق أهل كورنثة، بل الحق أنه أتى من الجرائم والفظائع ما كان ثراسيبولوس قد قصر عنه، من قتل ونفي وتشريد. وأذكر هنا أنه عمد ذات يوم إلى تعرية كل نساء المدينة بسبب زوجه ميليسا وتفصيل ذلك: أن برياندر أضاع في أحد الأيام وديعة أودعه إياها أحد الأصدقاء، فبعث يسأل عرافة الموتى عند الثيسبروت، على ضفاف الآخيرون، أن تنبئه عن مكان الوديعة. فظهر له شبح ميليسا، وقال له إنه لن يكشف عن المكان الذي أضاع فيه تلك الأمانة، إن بالكلمة وإن بالإشارة، فقد كانت المرأة تشكو البرد وهي عارية، لأن ثيابها التي دفنت معها لا توفر لها دفئاً، إذ لم تحرق لتفيد منها. ولتدلل على صحة قولها لزوجها ذكرت المرأة أن برياندر قد وضع أرغفته في فرن بارد. فعاد رسل برياندر وأخبروه بما شاهدوا وسمعوا، واقتنع الرجل بما جاء به رجاله، حين ذكروا له شارة الفرن البارد والأرغفة (وهي إشارة إلى مضاجعته إياها وهي ميتة)، وللتو أصدر أمراً بحضور كل امرأة في كورنثة إلى معبد الإلهة هيرا. ولقد أطاعت النساء الأمر وأخذن يتزاحمن إلى المعبد، وهن في أجمل أزيائهن، وكأنما يحضرن احتفالاً. وهناك عمد برياندر، وكان قد أخفى بعض حراسه لهذا الأمر، إلى تجريدهن من ملابسهن، سواء كن من الأحرار أم من الخدم، ثم جمعها وقام بإحراقها في حفرة، بينما أخذ هو يصلي لتستجيب له روح زوجه ميليسا. ولما انتهى الأمر، عاد فبعث بالرسل إلى العرافة، فظهر لهم شبح ميليسا فأخبرهم بالمكان الذي وضع فيه عهدة صديقه.

ذلكم هو شأن حكومة الطغيان، أيها اللاكيديمونيين، وما تأتي به. أما نحن أهل كورنثة فقد عجبنا حين وجدناكم ترسلون في طلب هيبياس، وإننا لأشد عجباً الآن، إذ سمعنا حديثكم. إننا لنضرع إليكم باسم آلهة الإغريق، ألا

تنصبوا طغاة قادة في مدننا. أما إذا أبيتم ترك هذا الأمر، ومضيتم في إعادة هيبياس إلى السلطة، رغماً عن القانون ومنطق العدل، فكونوا على ثقة، على الأقل، من أنكم لن تنالوا دعماً من كورنثة في هذا الشأن».

فلما أنهى ممثل كورنثه، سوسيكليس، خطابه، وقف هيبياس، وكان أكثر الحضور دراية بالنبوءات، وأقسم بالآلهة الذين يعترف بهم الجميع بأن اليوم لا ريب آت حين يجد فيه الكورنثيون أنفسهم تحت ضغط الاثينيين، ثم يكون توقهم لعودة البسيستراد أشد من أي قوم في العالم. وظلت الوفود الأخرى ممسكة عن الكلام، حتى سمعوا خطاب سوسيكليس؛ فأخذ الكل في الخطابة، ولم يعد هناك بينهم من يمسك نفسه عن الكلام، وجاءت الكلمات كلها في تأييد سوسيكليس، داعية الإسبارطيين إلى الامتناع عن التدخل في شؤون أي من مدن الإغريق. وكان أن حسم الأمر على هذا النحو، وتخلى الإسبارطيون عن مشروعهم، وغادر هيبياس البلد. ولقد عرض عليه، قبل مغادرته، أمينتاس المقدوني، تسليمه أنثيموس، كما عرض عليه الثيسال أيولكس، إلا أنه أعرض عن كلا العرضين، مؤثراً العودة إلى سيجيوم. وقد انتزع بسيستراطوس هذا البلد من الميتلينيين بقوة السلاح، ثم نصب عليه هيجيسيستراتوس طاغية، وهو ابنه غير الشرعي من امرأة من الآرجوس. غير أن هيجيسيستراتوس لم يتمكن من الاستمتاع بهدية والده، إلا بمشقة عظيمة، إذ لم تنقطع الحرب طوال عهد مديد بين الأثينيين وسيجيوم والميتلينيين في أخيليوم حول ادعاء الميتلينيين بحقهم في أرض استولى عليها الأثينيون، فيرد هؤلاء الادّعاء ويحتجون بعدوان الأيوليين على أرض بجوار طروادة، ولهم فيها نصيب شأنهم شأن جميع الإغريق الذين أعانوا مينلاوس على الانتقام لاختطاف هيلين. وكان من وقائع هذه الحرب حادثة جديرة بالذكر: فقد هرب الشاعر الكايوس من القتال في إحدى المعارك مع الأثينيين، تاركاً سلاحه بيد المنتصرين. وكان أن علق هؤلاء السلاح على جدران معبد أثينا في سيجيوم. فكتب الكايوس بعض الأبيات في وصف تلك

الحادثة وأرسلها لصديقه ميلانيبوس في ميتلينه. وانتهت الحرب بين أثينا وميتلينه على يد برياندر، وقد دعاه الطرفان المتحاربان للتحكيم بينهما، فاشترط أن يحتفظ كل طرف بما له في تلك اللحظة. فكانت سيجيوم من نصيب أثينا.

أما هيبياس فلم ينقطع بعد عودته إلى آسيا عن تحريض أرتفرنيس على الأثينيين، ليحوز على أثينا لنفسه وداريوس؛ فلما علم الأثينيون بسعايته لدى الفرس، بعثوا بسفارة إلى سارديس لنصحهم بعدم الإصغاء للمنفيين وسعاياتهم. فرد أرتفرنيس بأن الأجدر بهم أن يردوا إليهم هيبياس، إن كانوا يؤثرون السلامة. ولكن الأثينيين أعرضوا عن النصيحة، وحزموا أمرهم على قبول نتيجة رفضهم ـ وهي الصراع المفتوح مع فارس.

وفي تلك اللحظة، حين حسم الأثينيون قرارهم وكانت علاقاتهم وفارس في أسوأ حال، وصل إلى أثينا أرستاجوراس الميليسي، الذي طرده كليومنيس من إسبارطة. وكان الرجل يعلم مكانة أثينا الآن، وهي ثاني أقوى دولة في بلاد الإغريق؛ وهناك وقف مخاطباً الجماهير، مكرراً الحجج التي سبق له أن أوردها في إسبارطة عما وجد في آسيا من ثروات وأساليب الفرس في الحرب ـ وبين أنهم لا يستخدمون الدروع أو الرماح في قتالهم وأن من السهل قهرهم. ثم أشار إلى أن ملطية تأسست على يد المستوطنين الأثينيين، ومن الطبيعي، إذن، أن يهرع الأثينيون، وقد بلغوا هذه الدرجة من القوة، لنجدتها.بل لقد حمله التلهف لنيل العون من أثينا لأن يقطع للقوم ما خطر بباله من وعود حتى أفلح بإقناعهم بمد يد العون. ويبدو أنه من الأيسر على المرء أن يحمل جماعة على ما يريد من أن يقنع فرداً بمثل ذلك، وقد وجدنا أرستاجوراس، وقد عجز عن حمل كليومنيس على القبول بما يعرضه، يفلح في اجتذاب ثلاثين ألف أثيني إلى صفه. ولما اقتنع الأثينيون استجابوا لنداء أرستاجوراس بأن رسموا لإرسال عشرين سفينة، يقودها ميلانثيوس وهومقدم عند الأثينيين، إلى أيونيا. وكانت هذه السفن مبدأ المصائب التي نزلت بالإغريق والبرابرة على السواء.

ولقد أبحر أرستاجوراس، مستبقاً القوة الأثينية، إلى ملطية؛ وهناك وضع خطة على عمل لا طائل للأيونيين منها - بل الحق أنه لم يقصد منها فائدة للقوم، وإنما كان غرضه الوحيد مضايقة داريوس. فأرسل رجلاً إلى فريجيا برسالة إلى البايون من منطقة الستريمون، الذين كان ميجابازوس قد اعتقلهم، ثم استوطنوا إحدى القرى في تلك المنطقة الفريجية وقد حمل الرسالة التالية: «يا رجال بايونيا، إن حاكم ملطية، أرستاجوراس، قد أوفدني لأبين لكم طريقاً تنقذون بها أنفسكم، إن اتبعتموها. واعلموا أن أيونيا كلها قد ثارت على الملك الفارسي، ودونكم، إذن، فرصة لاستعادة وطنكم. وما عليكم إلا أن تشقوا طريقكم إلى البحر، ثم نتولى نحن أمركم». سر البايون لهذا النبأ وهذا العرض، فأخذوا نساءهم وأطفالهم وسعوا إلى الشاطئ - إلا قلة وهنت عزائمهم فتخلفوا عن الركب. ولما بلغ هؤلاء الشاطئ أبحروا إلى خيوس، ثم ما هو إلا وقت قصير وإذ بجماعة كبيرة من فرسان الفرس تسعى في أثرهم؛ فلما عجزت هذه القوة عن التغلب عليهم، أرسل الفرس رسالة إلى الجزيرة تحث هذه الجماعة على العودة. فقابل البايون، هذه الدعوة بالرفض، ثم حملهم أهالي خيوس إلى ليسبوس، ثم قادهم الليسبوسيون إلى دورسيكوس، ثم أخذوا طريقهم سيراً على الأقدام إلى بايونيا.

وفيما تجري أحداث تاريخنا كانت مجموعة السفن العشرون الأثينية قد وصلت إلى ملطية رافقها خمس سفن أيرترية ثلاثية المجاذيف. ولم تكن مشاركة الأيرتريين بسبب من مراعاة خاطر الأثينيين، وإنما ردٌّ لدين قديم لأهل ملطية يعود عهده إلى يوم وقفوا يؤازرونهم في حربهم ضد الخاليكيدونيين. وكان هؤلاء بدورهم في صف ساموس.وهكذاكان أن حشد أرستاجوراس جموع حلفائه، حالما وصلت هاتان المجموعتان من السفن، ومضى بهم إلى الهجوم على سارديس، دون أن يصحب هو الحملة. إذ ظل في ملطية، وجعل على رأس قوات ملطية أخاه خروبينوس وقائد ميليسي آخر يدعى هيرموفانتوس.

ولقد أبحر الأسطول قاصداً إفسوس[٣]، ثم ألقت السفن مراسيها في كرويسوس، من أعمال تلك البلاد، بينما أخذت القوات البرية، وهي جمع كبير من الجند، بالزحف إلى عمق المنطقة، بصحبة مرشدين من الإفسوسيين. فسارت قوات الحملة على امتداد نهر الكايستر، ثم مضت بعد تجاوز تلة تمولوس، ثم انحدرت لتنزل على ساردیس، فأخذوها دون مقاومة، إلا معبد الجبل الذي دافع عنه أرطفرنيس على رأس قوة كبيرة. غير أنهم لم يتمكنوا من نهب البلاد بعد الاستيلاء عليها بسبب من عادة أهل المدينة في جعل أسقف معظم بيوتهم من أعواد القصب، حتى تلك البيوت التي بنيت بالقرميد. وحدث أن أشعل أحد الجنود النار في بيت من تلك البيوت، فإذا باللهب ينتشر ويمتد إلى البيوت وسرعان ما أتت النيران على المدينة كلها، حتى وصلت إلى البيوت في الضواحي أيضاً؛ وقد بلغ من انتشار النار أنها أمست تحيط بالأهالي الليديين ومن كان في المنطقة من الفرس آنذاك فلم يتمكنوا من الخروج من المدينة، فتدفقوا جموعاً إلى ساحة السوق على جانبي نهر باكتولوس، حيث لم يعد أمامهم سوى الوقوف هناك والعمل على حماية أنفسهم. ونهر باكتولوس هو الذي يحمل فلزات الذهب من تلال طمولوس، ويمر عبر السوق في ساردیس ثم يلتقي بنهر هرموس وهذا يصب، بدوره، في البحر. ولقد انتاب الأيونيين الخوف، وهم يرون بعض جند العدو يثبتون في الدفاع عن أنفسهم، بينما كانت أعداد غفيرة غيرهم تتقدم من المدينة، فانسحبوا إلى تلال تمولوس؛ وقبيل حلول الليل زحف الأيونيون عائدين إلى سفنهم. وقد خرب في الصدام الذي دار في ساردیس معبد الربة سيبيب التي يتعبد لها أهل المنطقة، فكان ذلك الذريعة التي تذرع بها الفرس في إحراق معابد الإغريق.

أخذ الفرس المتواجدون على هذا الجانب من نهر خالص يحتشدون، وقد تنبهوا للأمر، واندفعوا للدفاع عن الليديين؛ ولما وجدوا الأيونيين قد رحلوا عن ساردیس، مضوا في أعقابهم فأدركوهم عند إفسوس. وأخذ الأيونيون ينظمون

صفوفهم لرد الهجوم، إلا أن الفرس تمكنوا منهم وأنزلوا بهم هزيمة نكراء وكان من بين القتلى المشاهير الكثيرون في هذه المعركة القائد الأيرتري أيواكيديس، وكان من المبرزين في المباريات، وقد نال التاج أكثر من مرة، وأطنب في مدحه الشاعر سيمونيديس السيوسي. أما الناجون فقد تفرق شملهم وتوزعوا بين المدن.

وكان من أثر هذه المعركة أن أصبح الأثينيون عازفين أشد العزوف عن الاهتمام بثورة الأيونيين، ولم تفلح نداءات أرستاجوراس في حملهم على العودة لمساعدته. ولكن الأيونيين تابعوا الحرب بعزيمة ونشاط، بعد ما ألحقوا بجنود داريوس ما ألحقوا من الأذى، ولم يخفف من دأبهم انقطاع العون من أثينا. ولقد حملتهم الحرب على الإبحار إلى الهيلسبونت وتمكنوا من السيطرة على بيزنطة وما حولها من البلدات، ثم حازوا،على القسم الأعظم من كاريا؛ وعندئذ أعلنت كاونوس الثورة، بعدما كانت تقاوم هذا الاتجاه، وقد حملها على ذلك إحراق سارديس.

كذلك قدمت قبرص كلها، عدا أماتوس، العون والمساعدة لهذه القوات وأعلنت الثورة على فارس. وأصل ثورة قبرص على الفرس أن رجلاً يدعى أونسيلوس، وهو شقيق جورجس حاكم سلاميس، الأصغر، وابن خرسيس (ابن سيروس وحفيد أيولطون) دأب على حث أخيه على الثورة على الفرس، فلما بلغه نبأ ثورة الأيونيين زاد في الإلحاح داعياً إياه إلى اغتنام الفرصة، ولكن جورجس ظل على إعراضه المألوف. وهكذا كان أن انتظر أونسيلوس حتى غادر شقيقه المدينة ذات يوم، فقام بمساعدة أنصاره بإغلاق أبوابها دونه. فهرب جورجس إلى الفرس، وأصبح أونسيلوس بذلك سيد سلاميس، ومن ثم سعى إلى حمل القبارصة الآخرين إلى الانضمام إلى الثورة، ولم يقصر عن الاستجابة لدعوته سوى أماتوس، فقد أعرض رجالها عن الأصغاء له، فما كان منه إلا أن سار إليها وأحكم حصارها.

وبينما كان أونسيلوس منصرفاً إلى حصار أماتوس، وردت الأخبار إلى داريوس بسقوط ساردِيس وإحراقها على يد الأثينيين والأيونيين، وعلم أن المحرض على الثورة هو أرستاجوراس صاحب ملطية. وتذهب الرواية أن داريوس، حين بلغه نبأ الكارثة، لم يول الأيونيين كبير اهتمامه، فقد كان يعلم أن عقابهم لثورتهم لا بد آت؛ ولكنه أبدى اهتمامه بالأثينيين فسأل عن أمرهم ومن يكونون، فلما علم بحالهم أمر بأن يأتوه بقوسه؛ فرفعه وأطلق منه سهماً، وهو يقول متضرعاً بصوت عال: «سألتك يا إلهي أن تمن علي بأن أنزل بهؤلاء الأثينيين العقاب الذي يستحقون»، ثم التفت إلى خدمه وأمرهم بأن يرددوا عليه، كلما جلس إلى العشاء، ثلاث مرات العبارة التالية: «تذكر، يا مولاي، الأثينيين».

ثم أرسل في طلب هستيايوس الميليسي، وكان قد أطال بقاءه في قصره، فلما حضر بادره بالقول: «قد بلغني، يا هستيايوس، أن نائبك الذي عهدت إليه بملطية خلع عنه ولاءه لي. وأنه قد سير رجالاً من القارة وراء البحر وحمل الأيونيين على الانضمام إليهم في خدمة أغراضه ولك أن تثق بأنهم سيلقون جزاءهم، واستولى على ساردِيس، وهي في يدي. فأخبرني الآن إن كانت هذه فعلة حسنة؟ وهل كانت تتم دون علم ومشورة منك؟ إن وقتاً قد يأتي لتلوم نفسك على ما كان».

ورد هستيايوس: «كيف تقول هذا، يا مولاي؟ أفيعقل أن أكون قد دبرت لك أذى على أي نحو، صغر أم كبر؟ إن لدي كل ما أطمح له، فأي دافع لدي لأقدم على مثل هذه الخيانة؟ أفليس مالك لي أيضاً؟ ثم ألم تشرفني بتقديم المشورة في كل ما يعرض لك؟ فإذا كان نائبي في ملطية قد اقترف هذا العمل فثق تماماً بأن تصرفه كان بمبادرة منه. وإني لا أملك أن أصدق أنه والميليسيين يتصرفون الآن سعياً للإضرار بمصالحك؛ أما إذا كان هذا ما يفعلون حقاً - وإذا صدق الرواة فيما أخبروك - فقد تأكد لك، يا مولاي، مبلغ مجافاتك للحكمة حين فرضت علي ترك الساحل؛ إذ يبدو لي أن الأيونيين كانوا ينتظرون غيابي لينفذوا أمراً

طالما كانوا يسعون إليه.ولو بقيت هناك لما تجرأ أحد على الإتيان بحركة فدعني أعُد الآن إلى أيونيا وسوف أعيد الأمور إلى ما كان عهدك بها، وأسلمك نائب حاكم ملطية هذا. وليس هذا كل ما في الأمر، فقسماً بكل آلهة بيتكم المالك لن أخلع عني ثيابي هذه التي أصل بها ملطية حتى أكره ساردينيا، وهي أكبر الجزر في العالم، على دفع غرامتها لك».

كان غرض هستيايوس من هذا الخطاب تضليل داريوس، وقد نجح في ذلك. إذ إن داريوس صدق مقالة الرجل فسمح له بمغادرة بلاطه، على أن يعود إليه في سوسة متى تحقق وعده. وفيما الأمور تجري على نحو ما فصلنا، أي انتقال خبر ساردیس، ورمي الملك السهم، ومحادثته وهيستيايوس،وسفرهذا بإذن الملك إلى الساحل، وقعت الأحداث التالية: علم أنسيلوس صاحب سلاميس، وهو يحاصر أماتوس، بأن قوة ضخمة في طريقها إلى قبرص وعلى رأسها قائد من الفرس يدعى أرتيبيوس. فأرسل أونسيلوس نداء على الفور يطلب إلى دول الأيونيين كافة مؤازرته. فلبوا النداء سريعاً وأتوا إليه في قبرص بقوة كبيرة. وما كادت هذه القوات تصل إلى قبرص حتى كان الفرس قد عبروا البحر من طرف قليقليه وأخذوا في السير إلى سلاميس، بينما كان الفينيقيون يبحرون حول اللسان المعروف بـ «مفاتيح قبرص» لينضموا إلى القوات الأخرى القادمة. فلما وردت أنباء هذه التحركات تنادى الطغاة في الجزيرة إلى اجتماع وقادة الأيونيين، فخاطبوهم بالكلمات التالية: «يا رجال أيونيا، إننا رجال قبرص نعرض أمامكم أحد الخيارين: فإما أن تقاتلوا الفرس أو الفينيقيين. فإذا شئتم أن تمتحنوا قوتكم والفرس على البر، فلتنزلوا وتتخذوا مواقعكم، فنركب نحن سفنكم ونقاتل الفينيقيين في البحر.أما إذا كنتم تؤثرون قتال الفينيقيين - فدونكم هم؛ ولكن أحسنوا القتال، أيّاً يكون خياركم.فعليكم يقع الذنب إن قصرت أيونيا وقبرص عن حماية حريتهما».

ورد الأيونيون بهذه المقالة: «لقد أوفدنا مجلس الدول الأيونية حماية للبحر، لا

لنسلمكم سفننا وقتال الفرس على اليابسة. ولذلك فإننا سنحافظ على المواقع المعهودة إلينا، ولن نتقاعس في أداء الواجب. أما أنتم فتذكروا ما عانيتم في عبوديتكم من أسيادكم الفرس، وكونوا رجالاً وأدوا واجب الرجال».

ولقد وصل جيش الفرس إلى وجهته، في سهل سلاميس، فظهر الملوك القبارصة واتخذوا مواقعهم للاصطدام. فوقفت قواتهم. وكانت تضم نخبة المقاتلين في سلاميس وصولي، مقابل جنود الفرس، بينما تولت القوات من بقية المدن في قبرص التعامل مع الجماعات المعادية الأخرى وخرج أونسيلوس بنفسه لمواجهة القائد أرطيبيوس الفارسي، وكان يمتطي جواداً درب على ضرب جندي المشاة في أثناء الهجوم بحافريه الأماميين، بالتقدم والتراجع. وكان أن بلغ أونسيلوس خبر هذا الحصان، فتحدث فيه إلى حامل دروعه، وهو من الكاريين، وجندي شجاع ممتاز: «قد بلغني أن لأرتيبيوس حصاناً شرساً يهاجم من يعترضه بحوافره وأسنانه. فأخبرني أي الأثنين تجعله هدفك الأول».

أجاب تابعه بقوله: «إني يا مولاي على استعداد لمهاجمتهما معاً، أو أياً منهما - فمرني وأنا كفيل بانجاز أمرك؛ ومع ذلك فإني أصارحك بما أعتقد أنه في صالحك. فأقول إن الحاكم والقائد جدير بأن يقاتله نظير له،حاكم وقائد. فإذا قتلت قائداً كان ذلك مأثرة لك؛ أما القتل - رجوت الآلهة أن تحميك بلطفها - بيد من كان يناسب المرء مكانة وشأناً فأهون وأدعى للرضى. وإذن فعليك بمنازلة أرتيبيوس؛ أما نحن الأدنى مرتبة فنختص بأمثالنا - أما الحصان فلا تخش ما قد يلجأ إليه من الحيل: فعهداً علي أن أجعله لا يقوى على رفس أي كائن ثانية».

ولقد دارت المعركة بعيد ذلك في البر والبحر. وفي البحر برز الأيونيون - وخاصة جماعة ساموس - فكسروا الفينيقيين؛ وفي البر، وفي وطيس المعركة، هجم أرتيبيوس، على ظهر حصانه، وهم باونسيلوس، فعاجله بضربة استهدفت جذع الفارس، كما رتب الأمر مع حامل دروعه؛ فانتصب الجواد على قائمتيه

الخلفيتين ووجه حافريه إلى درعه، فرد الكاري بضرب قوائمه بسيفه المقوس، فوقع ومعه فارسه القائد الفارسي أرتيبيوس. وفي موقع آخر من الساحة، أقدم ستيسينور، طاغية كوريوم (وقيل إنها كانت مستوطنة للآرجوس)، وهو على رأس قوة يعتد بها، على الخيانة، وتبعه فيها سائسو عربات القتال السلاميسيين. فانتهت المعركة بنصر لفارس، وقد قتل في أثناء مطاردة جيش قبرص جمع كبير، ومنه أونسيلوس بن خرسيس ومدبر ثورة القبارصة، وأريسطوقبرص، صاحب صولي، (وهو ابن فيلوقبرص الذي مدحه صولون عند زيارته، أكثر من أي حاكم آخر).

وقام أهل أماتوس بقطع رأس أونسيلوس القتيل، تشفياً وانتقاماً منه لحصاره بلدهم، وعلقوا جثته على أبواب مدينتهم. ولقد فرغت الجثة بعد حين من أحشائها فسكنتها أسراب النحل وجعلت منها خلية لعسلها. فعجب أهل البلد لهذا الأمر فحملهم العجب على أن يقصدوا إحدى العرافات لسؤالها، فأشارت إليهم بإنزال الرأس ودفنه، وأن يكرموا أونسيلوس بطلاً من أبطالهم، إذا شاؤوا البركة، ويقيموا له عيداً كل عام يقدمون فيه الأضحيات. وعهدي بالقوم أنهم مقيمون على هذا العيد. في موعده كل عام. ولقد انتصر الأيونيون في معركة البحر، لكن أمام الفشل الذريع لثورة أونسيلوس، وحصار مدن قبرص، عدا سلاميس التي أعاد أهلها جورجس إلى كرسي الحكم، سرعان ما قفلوا عائدين إلى أيونيا. وكانت صولي، في هذا كله، المدينة الوحيدة في قبرص التي تصمد في وجه الحصار، فلم يتمكن الفرس من الاستيلاء عليها إلا بعد أربعة شهور، فدخلوها بعد أن هدموا أسوارها.

وهكذا فرض على قبرص أن تعود إلى العبودية بعد أن ذاقت طعم الحرية عاماً. وفيما جرت الأمورعلى هذا النحو، شرع داوريس، صهر داريوس، وقائدان من قادة الفرس، هما هايمايس وأوتانيس، وهما أيضاً صهران للملك، في مطاردة الأيونيين الذين هاجموا سارديس، فأهلكوا من أهلكوا منهم،

وساقوا من نجوا إلى سفنهم؛ ثم توزعوا المدن فيما بينهم، وعملوا فيها سلباً ونهباً. أما داوريس فسار إلى المستوطنات في الهيلسبونت، فاستولى على داردونوس وآبيدوس وبيركوتي ولمبساكوس وبايسوس في أيام معدودات. ولقد بلغه، وهو يغادر بايسوس وباريوم، خبر عن تحالف الكاريين والأيونيين لرفع نير الفرس عن البلاد، فالتفت إلى كاريا، وأخذ بالزحف عليها. فبلغ الكاريين نبأ تحركه نحوهم، بطريقة من الطرق، قبل وصوله إليهم، فحشدوا قواتهم في المنطقة التي تدعى بالأعمدة البيضاء على نهر مارسياس - وهو من فروع المايندر في أيدريا. فلما اجتمع حشد الكاريين أخذوا يتجادلون فيما بينهم في أفضل السبل لدرء الخطر الذي يتهددهم؛ وأحسب أن أفضل خطة كانت تلك التي أتى بها بكسوداروس بن ماولسولس، وهو من سينديا، وكان صهراً لملك قليقلية ساينيسيس. وكانت هذه تقوم على عبور الجيش نهر المايندر والقتال والنهر في المؤخرة، للحيلولة دون هربهم فيضطر كل جندي للثبات في موقعه، والاستبسال في القتال أكثر مما شاءت له الطبيعة. ولكن القادة لم يأخذوا بهذه الخطة، وقرروا أن يكون ظهر الفرس، لا الكاريين، إلى النهر - وحجتهم في اعتماد هذه الخطة أن الفرس سيضطرون إذا اندحروا إلى الانسحاب فيتعذر عليهم عندئذ الهرب، فيكون مسيرهم إلى النهر. ولم يمض إلا وقت حتى وصل الفرس وعبروا المايندر، وتصدى لهم الكاريون وقاتلوهم عند نهر المارسياس. فكانت المعركة طويلة والقتال ضارياً، إلا أن الفرس تمكنوا منهم بغلبة أعدادهم، فقتل من الفرس ٢٠٠٠ رجل ومن الكاريين ١٠٠٠٠. ولجأ الكاريون الأحياء إلى لبراوندا في بستان الأشجار المقدسة المعروف بأرض زيوس إله الجيش، وهناك اتخذوا مواقعهم، وشرعوا في التداول في خطة لإنقاذ أنفسهم، وهم في حيرة لا يدرون إن كان الأفضل لهم الاستسلام للفرس أم مغادرة آسيا بلا رجعة. وفيما كانوا يتداولون ويقلبون الأمر على وجوهه جاءهم الميلسيان وحلفاؤهم بالمساعدة، فتحولوا من جديد وكان أن بادر الفرس إلى الهجوم عليهم فدارت المعركة

الثانية، لكنها انتهت إلى خاتمة أسوأ من سابقتها، فتكبد فيها الكاريون وحلفاؤهم خسائر فادحة، إلا أن أفدح الخسائر كانت في صفوف الميلسيان. ومع ذلك فقد تغلب الكاريون على تلك النكبة فاستأنفوا القتال فيما بعد، وكانت معركة ثالثة أخرى. وتفصيل ذلك أنهم لما علموا بنية الفرس الهجوم على مدنهم، عمدوا إلى نصب فخ لهم على طريق بيداسوس، فوقعوا فيه أثناء المسير في الليل فمزقوهم شر ممزق، وقتلوا ثلاثة من قادتهم، هم داوريس وأمورجس وسيسيماسيس، وجيجس بن ميرسوس. أما صاحب الكمين فكان هيراقليديس، وهو ابن أيبانوليس.

وكان هايمايس، وهو قائد من قادة الفرس الذين شاركوا في ملاحقة الأيونيين بعيد هجومهم على ساردیس، قد سار إلى بحر البروبونتيس (مرمرة) واستولى على سيوس في مايسيا. وكان داوريس قد غارد الهيلسبونت، في طريقه إلى كاريا، حين سمع بنبأ الاستيلاء على هذه المدينة، فسار إلى الهيلسبونت على رأس قواته وقمع الأيونيين في جوار طروادة والجرجيث، وهم بقايا التيوكريان القدماء. ولقد مات في أثناء إحدى هذه الحملات، مريضاً، في منطقة الترواد. وفي غضون ذلك، هاجم حاكم ساردیس أرتفرنيس، والقائد الثالث أوتانيس، أيونيا والجزء المجاور لها من بلاد الأيوليين فاستوليا على كلازوميناي في أيونيا وسيمه في بلاد الأيوليين.

بدا جلياً الآن أن أرستاجوراس، طاغية ملطية، كان في نهاية المطاف كائناً خائر العزيمة، فهو الذي قاد أيونيا من أذنيها إلى ما عانته من المتاعب، ولما وجد تلك المدن تسقط، وأدرك ضعف حيلته مع داريوس أخذ يبحث عن مهرب. فقد دعا أنصاره إلى اجتماع، وأشار إليهم أن يتدبروا لأنفسهم ملجأ، إذا ما طردوا من ملطية، ثم سألهم أن يرشدوه إلى أفضل موقع ليقيموا عليها مستوطنة لهم، حين تسوء الأحوال. وكان يفكر آنذاك باللجوء إلى سارديينيا أو مرسينوس، وهي بلدة أيدونية أقطعها داريوس لهيستيايوس وقام بتحصينها .وقد عارض

هيكاتيوس المؤرخ، وهو ابن هيجساندر، الخياريين، واقترح أن يقوم أرستاجوراس ببناء قلعة في جزيرة ليروس، إذا ما طردوا من ملطية، والبقاء هناك، والنأي عن إثارة الضجيج، وعدم استرعاء الانتباه إليهم هناك قدر ما يقتضي الأمر؛ فيكون لهم العودة إلى ملطية، اعتماداً على هذه القاعدة للانطلاق من جديد. على أن أرستاجوراس رأى لهم فرصة أفضل في حيازة مرسينوس؛ وكان أن سلم شؤون البلاد إلى فيثاغوروس، وهو من المبرزين في البلاد، وقد أبحر إلى تراقيا ومعه كل من شاء مرافقته في هذه الرحلة؛ وقدر له أن يسيطر على مرسينوس التي كان يسعى إليها، ثم قتل ومعه رجاله كافة في أثناء حصارهم إحدى البلدات في الجوار؛ وكان مقتلهم على يد التراقيين،الذين كادوا أن يقبلوا بمغادرة المنطقة في إطار هدنة.

الكتاب السادس[1]

أراتـــــــــو

تم القضاء على أرستاجوراس الذي خطط لتمرد الأيونيين، على نحو ما وصفت آنفاً. وفيما الأمور تجري مجراها، ذهب هستيايوس طاغية ملطية إلى ساردیس، بعد أن سمح له داريوس بمغادرة سوسة. ولما وصل إلى ساردیس سأله مرزبانها أرتفرنيس عن الأسباب التي أدت، برأيه، إلى اندلاع ثورة الأيونيين. فتظاهر بجهله المطبق بكل ما يتعلق بهذا الموضوع، وأبدى دهشة بالغة لحدوث أمر كهذا. ولما كان أرتفرنيس يعلم أنه كاذب ويعلم تمام العلم قصة الثورة، رد عليه قائلاً: «سأخبرك كيف تم ذلك، يا هستيايوس، أنت من صنع الحذاء الذي ارتداه أرستاجوراس». ولقد أثبت هذا التعليق أن أرتفرنيس يعلم الحقيقة مما نبهه إلى الخطر المحدق به، فعندما أرخى الليل سدوله، انسل هارباً إلى الساحل. وهكذا فهو لم يكتف بعدم الوفاء بالوعد الذي قطعه لداريوس بأن يجعل سردينيا، أكبر الجزر في العالم، خاضعة للسيادة الفارسية، بل كان في الحقيقة يسعى لقيادة الأيونيين في حربهم ضد داريوس.

عبر هستيايوس البحر ووصل إلى جزيرة خيوس، إلا أن أهلها الذين اتهموه بتدبير مؤامرة ضدهم خدمة لمصالح داريوس، قاموا باعتقاله، لكنهم، على أية حال، أطلقوا سراحه فوراً، بعدما سمعوا القصة كاملة واقتنعوا بعدائه لداريوس. ولقد سأله أهالي خيوس عن سبب إلحاحه على أرستاجوراس للقيام بالثورة على الملك والتي جلبت للأيونيين الكثير من المشكلات. ولما كان هستيايوس حريصاً على إخفاء السبب الحقيقي، أجابهم بأنه إنما قام بذلك لأن داريوس كان ينوي ترحيل الأيونيين، ويعتزم توطين الفينيقيين في أيونيا والأيونيين في بلاد الفينيقيين. وأنه لهذا السبب أرسل إلى أرستاجوراس

يستحثه على القيام بالثورة. وبالرغم من أن هذا القول كان يجانب الحقيقة، إذ لم تكن لدى الملك أية نية للقيام بهذا المشروع. إلا أن هستيايوس نجح في إثارة مخاوف الأيونيين وتنبيههم.

أرسل هستيايوس رسائل إلى بعض الفرس المقيمين في ساردیس، الذين سبق أن ناقش وإياهم موضوع التمرد وكان رسوله إليهم أتارنيوسي يدعى هيرميبوس. ولقد قام هذا الرسول بتسليم تلك الرسائل إلى أرتفرنيس عوضاً عن تسليمها لأصحابها، ولما اطلع على فحواها أمر هيرميبوس بأن يوصلها إلى من أرسلت إليهم، وأن يجلب له إجاباتهم. وبذلك اكتشف الخونة من الفرس وقام بإعدامهم، وغدت ساردیس في حالة فوضى. وأدت هذه الحوادث إلى تلاشي آمال هستيايوس، فاقنع أهالي خيوس بمساعدته على العودة إلى ملطية، لكن الملطيين بعد أن سعدوا بالتخلص من أرستاجوراس، وذاقوا طعم الحرية، لم يكونوا على استعداد للترحيب بطاغية جديد، لذلك عارضوا عودته. ولما حاول دخول المدينة بالقوة تحت جنح الليل، قام أحد السكان بطعنه في فخذه. ولما وجد نفسه مبعداً عن مدينته. عاد إلى خيوس، لكنه فشل في إقناع أهلها بتزويده بالسفن، فذهب إلى متيلينه في ليسبوس، وهناك حالفه الحظ فوافق الليسبوسيون على تزويده بالسفن، وقدموا له ثماني سفن ثلاثية المجاذيف، أبحرت معه إلى الهيلسبونت، الذي جعلوه قاعدة لهم للاستيلاء على كل السفن القادمة من البحر الأسود، باستثناء تلك التي يتعهد طاقمها بإطاعة أوامره.

إبان انشغال هستيايوس والملطيين بهذا الأمر، كانت ملطية ذاتها تتوقع هجوماً كبيراً مشتركاً يأتيها من البر والبحر. فقد وحد القادة الفرس قواتهم وشكلوا جيشاً واحداً، واتجهوا لمهاجمتها، متجاوزين المدن الأخرى التي اعتبروها ذات أهمية ثانوية. ومن بين القوات البحرية نهض الفينيقيون بالعبء الأكبر من الأعمال الحربية، بالرغم من وجود فرق عسكرية من قبرص التي تم إخضاعها منذ زمن ليس ببعيد، وقليقلية ومصر.

علم الأيونيون بنوايا الفرس وهم يعدون لحملتهم ضد ملطية والأيونيين، فأرسلوا مبعوثيهم إلى البانيونيوم. وتم إجراء مشاورات وتوصلوا إلى القرار بعدم حشد أي قوات عسكرية برية لمجابهة الفرس، وأن يتركوا لأهل ملطية الدفاع عن أسوار مدينتهم، بينما يعملون على تجهيز جميع السفن بالرجال والعتاد وحشدها بجانب جزيرة لادي الصغيرة على الساحل قبالة ملطية. ومن هنا سيخوضون المعركة البحرية دفاعاً عن المدينة.

بدأت قطع الأسطول الأيوني بالتجمع، وقطع الأسطول الأيولي من ليسبوس؛ واصطفت السفن وفق الترتيب الآتي: في الجناح الشرقي كانت هناك ثمانون سفينة ميليسية، وبجوارها اثنتا عشرة سفينة بيرينية، وثلاث سفن ميوسية، وسبع عشرة سفينة من تيوس، ومئة من خيوس، وتليها ثماني سفن من اريثرا وثلاث سفن فوكية. وإلى جانبهم قوات الليسبوسيين التي تتألف من سبعين سفينة، وفي الجناح الغربي قوات ساموس التي تتألف من ستين سفينة. وبذلك يكون تعداد قطع الأسطول ثلاثمائة وثلاثاً وخمسين سفينة ثلاثية المجاديف.

و زجَّ البرابرة (الفرس) ستمئة سفينة تجمعت عند الساحل الميليسي، في حين اتخذت القوات البرية مواقعها على الشاطئ. ولقد أصيب الضباط بالصدمة، ذلك أن حجم الأسطول الأيوني قد فاق توقعاتهم، وباتوا يخشون ألا يتمكنوا من إلحاق الهزيمة به، وإذا لم يستطيعوا السيطرة على البحر، فلربما سيكون الفشل حليفهم في الاستيلاء على ملطية، مما سيعرضهم للعقاب على يدي داريوس لفشلهم. فقادهم تفكيرهم في هذه الأمور إلى اللجوء إلى الحل التالي؛ بأن جمعوا الحكام الطغاة لمختلف المدن الأيونية الذين كانوا قد فروا إلى فارس، بعد أن طردهم أرستاجوراس، والذين كانوا مع الجيش قبالة ملطية، فخاطبوهم قائلين: «يا رجال أيونيا، لقد حان الوقت لتظهروا إخلاصكم للملك. فليبذل كل منكم قصارى جهده ليفصل أبناء مدينته عن الاتحاد الأيوني. قدموا

لهم الوعود بأنهم إذا ما تخلوا عن حلفائهم فلن يلحق بهم أي أذى لاشتراكهم في الثورة، ولن نعمد إلى إحراق بيوتهم ومعابدهم، ولن نعاملهم بأقسى مما كنا نعاملهم سابقاً قبل تمردهم. ولكن إذا ما رفضوا الخضوع وأصروا على القتال، فعليكم أن تهددوهم بالمصير الذي سينتظرهم وأخبروهم بأننا سوف نبيعهم في سوق النخاسة بعد ما نتغلب عليهم، وسنقوم بإخصاء أبنائهم، وسنأخذ بناتهم إلى باكتريا، وسنمنح أرضهم للغرباء».

وافق الطغاة المنفيون على مقترحات الفرس، وبعث كل منهم ليلاً برسول إلى البارزين من أهل مدينته لينقل إليهم وعود الفرس ووعيدهم. إلا أن الخطة لم تنجح، ذلك أن الذين تلقوا الرسائل في كل مدينة كانوا وطنيين مخلصين، فرفضوا جميعاً خيانة أبناء بلدهم. ولقد حدث ذلك بعيد وصول القوات الفارسية إلى ملطية.

بعيد ذلك عقد الأيونيون المجتمعون في لادي اجتماعاً، ألقيت فيه عدة خطب إلا أن أبرزها كانت تلك التي ألقاها القائد الفوكي ديونيسوس، إذ خاطب الأيونيين قائلاً: «أيها الأيونيون، إن مصيرنا يتأرجح على خيط رفيع بين أن نكون أحراراً أو عبيداً مطاردين، فليس أمامكم إلا الحرية أو العبودية، فإذا اخترتم الحرية عليكم الالتزام بنظام صارم تمضون فيه بعض الأيام المضنية ثم تتمكنون من إلحاق الهزيمة بالفرس والاحتفاظ بحريتكم. أما إذا ما اخترتم الاستمرار في العيش المريح واتباع أهوائكم فلن يكون لديكم أي أمل في النجاة من العقوبة التي سينزلها الملك بكم لقيامكم بالثورة. إنني ألتمس منكم أن تأخذوا بنصيحتي، وتمتثلوا لأوامري، فإذا أنصفتنا السماء، فإني أعدكم بأن يرفض العدو الاستمرار في القتال، أو يهزم شر هزيمة إذا ما قرر المضي في القتال». ولقد نجح الالتماس ووافق الأيونيون على تلقي الأوامر من ديونيسوس الذي باشر العمل فوراً. فعمل على إخراج السفن بأطقمها للتدريب يومياً، وجعل السفن تبحر في صفوف، وأبقى القوات على سطح السفن مستعدين للقتال.

ودرب المجدفين على القيام بمناورات لاختراق سفن العدو، وأصر على أن تبقى السفن جميعها مثبتة بوساطة المرساة، عوضاً عن نقلها إلى الشاطئ. وبهذا لم يحصل الرجال على أي قسط من الراحة إذ استمروا في التدريب من الصباح حتى المساء، وظلوا على هذه الحال مدة سبعة أيام، لكنهم في اليوم الثامن لما كانوا غير معتادين على العمل الشاق وقد أنهكهم الكدح تحت أشعة الشمس المحرقة، فقد بدأوا بالتذمر، وأخذوا يقولون فيما بينهم: «أي إله أغضبناه لنجلب لأنفسنا العقاب على هذا النحو؟ لا بد أننا قد فقدنا رشدنا لنضع أنفسنا بين يدي هذا الفوكي المغرور الذي زود الأسطول بثلاث سفن فقط! إلا أنه قد أخذ بزمام الأمور. إن الطريقة التي عاملنا بها لا تطاق، ولن نبرأ منها أبداً لقد أصاب المرض العديد منا، ومن المتوقع أن يصاب آخرون. أي شيء سيكون أفضل من الشقاء الذي نعاني منه الآن، إذا كان الأمر أن نختار بين نوعين من العبودية، فإن النوع المهددين به مهما ثبت في النهاية أنه سيء، فلن يكون أسوأ مما نحتمله الآن. إذاً دعونا نرفض إطاعة أوامره». وسرعان ما رفض كل بحار في الأسطول القيام بواجباته. ونصبوا الخيام في الجزيرة مثل الجنود، وتسكعوا في الظل ورفضوا الصعود إلى سفنهم أو متابعة التدريب بأي شكل من الأشكال. ولما رأى قادة قوات الساموس كيف كان الأيونيون يتصرفون ومدى افتقارهم للانضباط، غيروا رأيهم بشأن الاقتراح الذي سبق أن قدمه لهم إياكيس بن سيلوسون بناء على طلب الفرس، وكانوا قد رفضوه. فقرروا قبول العرض والانسحاب من الاتحاد الأيوني، إذ باتوا مقتنعين بأنه من المستحيل إلحاق الهزيمة بالأسطول الفارسي، وإنهم حتى لو تمكنوا من ذلك فإن داريوس سرعان ما سيرسل أسطولاً ثانياً أكبر بخمسة أضعاف. ولهذا حينما رأوا الأيونيين يتهربون من أداء واجبهم، اعتقدوا أن أفضل ما يمكن القيام به هو إنقاذ بيوتهم ومعابدهم والفرصة ما تزال مواتية. وكان إياكيس الذي اقترح الانشقاق هو ابن سيلوسون وحفيد إياكيس، وكان طاغية ساموس فعزله

ارستاجوراس حاكم ملطية مع غيره من الطغاة الأيونيين.

بدأت المعركة حينما تقدم الأسطول الفينيقي[٢] للهجوم، وأبحر الأسطول الأيوني للالتقاء به، وسرعان ما اشتبكوا وبدأ القتال فوراً، إلا أنني لا أستطيع أن أذكر بدقة أي الفرق الأيونية أفلحت وقاتلت بشجاعة وأيها لم تفلح، ذلك أن التقارير متضاربة، وكل منهم ينحو باللائمة على الآخر. أما بالنسبة إلى الساموسيين، فيقال إنهم تنفيذاً للاتفاق الذي عقدوه مع إياكيس تركوا مواقعهم في المعركة، وأبحروا بسفنهم عائدين إلى الوطن ـ باستثناء إحدى عشرة سفينة، استمر الضباط المسؤولون عنها في القتال مخالفين بذلك أوامر رؤسائهم. وإحياء لذكرى بسالتهم، شيدت حكومة ساموس نصباً، نقشت عليه أسماؤهم ونسبتهم وما زال في الساحة العامة إلى يومنا.

كان مشهد الساموسيين وهم يبحرون عائدين إلى الوطن أكثر مما يستطيع الليسبوسيون احتماله، إذ كانوا بجوارهم، ولذلك سرعان ما اقتفوا أثرهم، وهذا ما قام به معظم الأسطول الأيوني. أما أهالي خيوس فكانوا من بين الذين ظلوا صامدين فلم يغادروا أماكنهم بل استمروا في التصدي للعدو، وأبلوا بلاء حسناً وبزوا الجميع في الشجاعة والبطولة. وكما سلف القول، فقد أسهموا بمائة سفينة على متن كل منها أربعون من خيرة الرجال، من طبقة المواطنين؛ وعلى الرغم من رؤيتهم خيانة القسم الأعظم من الحلفاء، فإنهم أعرضوا عن مجاراة مثل هذا السلوك الجبان، واستمروا في القتال بمساعدة بعض الأصدقاء الذين قاتلوا إلى جانبهم، فتمكنوا من خرق دفاعات العدو المرة تلو المرة، واستمروا في الكفاح، واستطاعوا الاستيلاء على بعض سفن العدو لكنهم خسروا جميع سفنهم، وبعد ذلك فروا إلى خيوس بوساطة السفن التي بقيت عائمة على سطح البحر، فيما شق بحارة السفن التي تعطلت طريقهم إلى ميكيل، والعدو في أعقابهم، ولما وصلوا إلى الشاطئ تخلوا عن مطاردتهم، فاستمروا في رحلتهم براً سيراً على الأقدام، ودخلوا منطقة أفسوس. وكان ذلك بعد أن حل الظلام،

وكانت النسوة يحتفلن بأحد الأعياد. ولما لم يكن لدى أهالي أفسوس أي علم بمأزق الخيوسيين، فإنهم حينما رأوا جماعة من الرجال المسلحين يعبرون الحدود، اعتقدوا على الفور أنهم قطاع طرق ولصوص يسعون وراء نسائهم، فسارعوا للتصدي لهم وقتلوهم جميعاً. وفي نفس الوقت، كان القائد الفوكي ديونيسوس الذي أسر ثلاثاً من سفن العدو في أثناء المعركة، قد فر في اللحظة التي أدرك فيها أنه خسر كل شيء. لكنه لم يتجه نحو فوكاي، إذ كان يعلم أن شعبه سيشاطر الأيونيين الآخرين مصيرهم وأنهم سيصبحون بأجمعهم عبيداً للفرس. ولذلك اتجه نحو بلاد الفينيقيين حيث أغرق عدداً من سفن الشحن بعد أن غنم منها الغنائم الثمينة، ثم أبحر إلى صقلية، فجعلها قاعدة له للإغارة على سفن القرطاجنيين والتيرينيين، لكنه لم يعتد على أي سفينة من سفن الإغريق.

بعد أن انتصر الفرس على الأسطول الأيوني قاموا بمحاصرة ملطية وأحكموا تطويقها من البر والبحر، وحفروا عدة خنادق تحت أسوارها، وجلبوا الأدوات لدكها، فاكتسحوها بعد خمس سنوات من ثورة أرستاجوراس. وهكذا استعبدت ملطية وتحققت نبوءة العرافين. وقد حصلت النبوءة كالتالي: كان أهالي أرجوس قد استشاروا عرافة دلفي في مسألة تتصل بسلامة مدينتهم، فتلقوا جواباً تضمن الحديث عن آخرين بالإضافة إليهم، فكان هناك قسم من النبوءة يتعلق بأرجوس، أما القسم الآخر فقد أشار إلى ملطية. وسأذكر القسم الأول في حينه، أما القسم الثاني من النبوءة فكان:

أما أنت يا ملطية أيتها المتآمرة،

ستكونين وليمة للكثيرين، وجائزة رائعة،

وستغسل نسوتك أقدام العديد من الرجال ذوي الشعر الطويل،

وسيرعى آخرون مزار ديديما.

كان ذلك ما حدث للملطيين، فقد قتل معظم الرجال على يد الفرس الذين

يطيلون شعر رأسهم، واستعبدت النساء والأطفال، وتم نهب وإحراق معبد ديديما. وكنت قد ذكرت ثراء هذا المعبد مراراً في مواضع أخرى من قصتي هذه. وتم إرسال الرجال الذين أسروا أحياء إلى السجون في سوسة، لكن داريوس لم يلحق بهم أي أذى، ووطنهم في أمبي على الخليج العربي بالقرب من مصب دجلة. واستولى الفرس على الأرض الواقعة بجوار ملطية والمزارع المحيطة بها، وقدموا المنطقة الجبلية إلى الكاريين من بيداسوس.

لم يبد سكان سيباريس التعاطف المناسب تجاه الملطيين، رغم أن هؤلاء قد أظهروا لهم كل تعاطف حينما خسروا مدينتهم واتخذوا ليوس وسكيدروس موطناً لهم؛ ذلك أنه عند سقوط سيباريس بيد الكروتون عمد سكان ملطية الذكور فتياناً ورجالاً إلى حلق شعر رأسهم وأعلنوا الحداد للدلالة على الصداقة بين المدينتين، وفي الواقع لا أعلم بوجود مدينتين أكثر من هاتين تتصل بينهما الروابط والوشائج. أما أهالي أثينا فقد كانوا على النقيض من ذلك، إذ أظهروا عميق تأثرهم لسقوط ملطية بعدة طرق، وبالأخص، عندما عرض فرينيكوس مسرحيته «سقوط ملطية» فقد انفجر الحضور في المسرح بالبكاء. وجرى تغريم الكاتب بألف دراخمة لتذكيرهم بنكبتهم. ومنعوا عرض المسرحية مرة أخرى.

وهكذا تم إخلاء ملطية من سكانها. أما في ساموس فإن المواطنين الأغنياء لم يكونوا راضين أبداً عن الطريقة التي توصل فيها ضباطهم إلى التفاهم مع الفرس. وبعد معركة لادي عقدوا مؤتمراً، قرروا فيه عدم انتظار قدوم إياكيس، وإنما العمل على هجر الجزيرة والاستيطان في مكان آخر عوضاً عن البقاء ليصبحوا عبيداً لدى إياكيس وأسياده الفرس. وفي ذلك الوقت، كان شعب الزانكلاين (ميسينا) في صقلية قد أرسل يدعو الأيونيين لإرسال مستوطنين إلى كالي - أكتي، أو الشاطئ الذهبي، وهو مكان يقع على الساحل الشمالي للجزيرة قبالة تيرينه، ويسكنه أهل صقلية وكان هدفهم من ذلك انشاء مستوطنة أيونية في هذه البقعة، وكان أهالي ساموس الوحيدين الذين قبلوا هذه الدعوة،

فأبحروا متجهين إليها مع من هرب من الملطيين. وبينما هم في الطريق إليها، وصلوا إلى كوكريا الغربية في جنوب إيطاليا، في الوقت الذي كان فيه سكيثاس طاغية الزانكلاين يحاصر ورجاله إحدى مدن صقلية بهدف الاستيلاء عليها. فعمد أناكسيلوس حاكم ريجيوم المستبد الذي كانت علاقته بالزانكلاين قد ساءت في تلك الفترة، وكان على اطلاع بما يجري، إلى الاتصال بالساموسيين وأقنعهم بنسيان أمر الشاطئ الذهبي هدفهم الأول، والعمل على الاستيلاء على مسينا نفسها التي تركت دون حماية، فوافق الساموس على ذلك، واستولوا على المدينة. وعندما وصل النبأ إلى أسماع الزانكلاين، أسرعوا عائدين للعمل على استرجاع مدينتهم، وطلبوا من حليفهم هيبوكراتيس حاكم جيلون الطاغية أن يقدم لهم المساعدة. فاستجاب لطلبهم وتوجه بجيشه إلى زانكل، لكنه عندما وصلها قبض على الملك سكيثاس، الذي كان قد خسر مدينته، وأرسله مع أخيه بيثوجينيس مقيدين بالأغلال إلى إنيكوس. ثم توصل إلى تفاهم مع الساموس وتبادل وإياهم المواثيق والعهود ، وبذلك يكون قد أتم خيانته لأهل زانكل، ولقد حصل مقابل هذه الخيانة على نصف ممتلكات المدينة المنقولة وأرقّائها، علاوة على كل ما يستطيع أن يستولي عليه في الريف، وقبض على معظم سكان المدينة وجعلهم عبيداً لديه، وسلم الساموسيين ثلاثمائة من الأعيان ليقطعوا أعناقهم، لكنهم امتنعوا عن ذلك وأبقوا على حياتهم.

تمكن سكيثاس من الفرار من إنيكوس وذهب إلى هايميرا، ومن هناك شق طريقه إلى آسيا حتى وصل إلى بلاط داريوس الذي رحب به واعتبره أكثر الرجال الذين قدموا إليه من بلاد الإغريق استقامة ونبلاً. ولقد سمح له داريوس بزيارة صقلية، ثم عاد إلى فارس، حيث عاش في رفاه عظيم، ومات هناك بعد أن تقدمت به السن.

وهكذا حصل الساموسيون الذين هربوا من سيطرة الفرس على مدينة مسينا أجمل المدن وأغناها دونما عناء. أما في ساموس نفسها فإن الفينيقيين

قاموا ـ بعد المعركة البحرية التي جرت بالقرب من ملطية ـ بناء على توجيهات من الفرس بإعادة إياكيس بن سيلوسون إلى عرشه، عرفاناً وتقديراً للخدمات الجليلة التي قدمها للفرس، ومكافأة للساموسيين الذين تخلوا عن الاشتراك في معركة لادي، حافظ الفرس على ساموس ولم يقدموا على إحراقها أو إحراق معابدها، ولم يستعبدوا أهلها، كما فعلوا بالمدن الأخرى. وبعد سقوط ملطية سارع الفرس إلى الاستيلاء على كاريا، واحتلال بعض المدن بالقوة وبعضها الآخر استسلم دون مقاومة.

في غضون ذلك، وصلت أنباء سقوط ملطية إلى أسماع هستيايوس الميليسي، وكان في بيزنطة يعترض السفن التجارية الأيونية القادمة من البحر الأسود. فترك أعماله في هيلسبونت بين يدي بيسالتيس بن أبوللوفانيس من مواطني أبيدوس، وأبحر على الفور إلى خيوس على رأس مجموعة من الليسبوسيين فهاجم حاميتها واستولى على مكان يسمى هوللوز وقتل العديد من الجنود أهالي خيوس الذين قاوموه. وبمساعدة الليسبوسيين استولى على مدينة بوليخنه التي اتخذها قاعدة لعملياته العسكرية واستطاع الانتصار على بقية أهالي خيوس الذين أضعفتهم المعركة البحرية والسيطرة على الجزيرة.

يبدو أنه ما من كارثة توشك أن تنزل بمدينة أو أمة إلا ويسبقها إنذار ما. ولم تكن خيوس مستثناة من ذلك، إذ إنها تلقت إنذارات لا يمكن تجاهلها أو إهمالها قبل سقوطها، ومن ذلك أن أهاليها قد أرسلوا إلى دلفي مائة شاب، فأصيب منهم ثمانية وتسعون بالطاعون وماتوا ولم ينج منهم سوى اثنين فقط. وقد صادف ذلك مع ما جرى في عاصمة الجزيرة، قبيل معركة لايدي البحرية، حيث سقط سقف إحدى المدارس على رؤوس التلاميذ ولم ينج من الطلاب البالغ عددهم مائة وعشرين سوى طالب واحد. لقد كان الحادثان عملاً من صنع الآلهة لتنبيه أهالي خيوس وتحذيرهم، وقد تبعتهما معركة لايدي، التي أركعت المدينة وأضعفتها، ولذلك استطاع هستيايوس ومن معه من اللسبيوسيين قهر أهالي

خيوس بسهولة إذ كانوا في أضعف حال.

كانت الخطوة التالية التي أقدم عليها هستيايوس هي حشد قوة كبيرة من الأيونيين والأيوليين والتوجه نحو ثاسوس ومحاصرتها، وفي أثناء حصاره لها وصلت أنباء بمغادرة الأسطول الفينيقي ملطية وتوجهه للهجوم على المدن الأيونية الأخرى. فأنهى هستيايوس حصاره لثاسوس وأسرع إلى ليسبوس مصطحباً جميع قواته. ولما كانت قواته تعاني من شح المؤن، فقد انتقل من ليسبوس إلى البر بهدف جني المحاصيل في المنطقة المحيطة بأتارنيوس، ومنطقة كيكوس الميسية. لكن شاء القدر أن يتواجد القائد الفارسي هارباجوس على رأس جيش كبير في نفس المنطقة، فاشتبكت قواته بقوات الإغريق بقيادة هستيايوس ونشب القتال بين الجيشين في مالينا من أعمال أتارنيوس، واستمر القتال بينهما متكافئاً لفترة طويلة من الزمن، لغياب الفرسان الفرس عن ساحة المعركة، لكن لما وصلوا رجحت كفة الفرس وتم لهم الانتصار على الإغريق وقتلوا معظمهم، وفر البقية. أما هستيايوس الذي لم يكن يتوقع أن يأمر داريوس بإعدامه فقد حاول للمرة الأخيرة إنقاذ حياته، إذ بينما كان يحاول الهرب انقض عليه أحد الفرس، وهم برميه برمح، فصرخ بالفارسية: «إنني هستيايوس الملطي». واعتقد أنه لو اقتيد إلى داريوس لما وجد نفسه في مأزق كبير، بل، على الأغلب، سيحصل على عفو داريوس. لكن الواقع أن أرتفرنيس مرزبان سارديس وهارباجوس القائد الذي اعتقله، كانا قد عقدا العزم على قتله لمنعه من استعادة حظوته ونفوذه في قصر داريوس. وما إن وصل إلى سارديس حتى أعدم بالخازوق، وقطع رأسه وحنط وأرسل إلى داريوس في سوسة. ولما أحيط داريوس علماً بما قام به كل من أرتفرنيس وهارباجوس غضب منهما لعدم إحضارهما إياه حياً، وأعطى أوامره بغسل الرأس ودفنه بما يليق به من الاحترام والتكريم لرجل قدم خدمات جليلة لفارس وللملك، وبهذا انتهت قصة هستيايوس.

قضى الأسطول الفارسي الشتاء في ملطية. ثم أبحر في السنة التالية، واستولى بسهولة على جزر خيوس وليسبوس وتنيدوس مقابل الشاطئ الآسيوي. وكان الفرس يعمدون عند الاستيلاء على جزيرة ما إلى طريقة بإيقاع أهلها يسمونها جر الشباك، وذلك بأن يشبك الرجال أيديهم بعضهم ببعض ليشكلوا سلسلة تمر عبر الجزيرة من الشمال إلى الجنوب، ممسكة بجميع السكان، وهي تتحرك من جهة إلى أخرى. علاوة على ذلك فقد استولى الفرس على جميع المدن الأيونية الواقعة في البر الرئيس، لكن دون اللجوء إلى الشبكة التي لا يمكن تطبيقها في البر. وجرى العمل على تنفيذ التهديدات التي سبق أن أطلقها القادة الفرس حينما وجدوا الأيونيين عازمين على المقاومة، وحالما أصبحت تلك المدن في قبضتهم، تم اختيار أكثر الصبية وسامة وأخصوهم، وأبعدت أجمل الفتيات عن بيوتهن وأرسلن إلى بلاط داريوس، وأحرقت المدن نفسها ومعابدها حتى أصبحت رماداً. وبذلك يكون الأيونيون قد استعبدوا للمرة الثالثة - على يد الليديين أولاً، وعلى يد الفرس، ثانياً وثالثاً.

بعد سقوط أيونيا في قبضتهم، تابع الأسطول الفارسي الإبحار للاستيلاء على المدن الواقعة إلى يسار الهيلسبونت، والتي يصادفها المرء حينما يدخل المضيق. أما المدن الواقعة على الجانب المقابل فقد سبق للفرس أن استولوا عليها بالهجوم البري. وهذه المناطق التي كان الأسطول يتوجه إليها والواقعة على الجانب الأوروبي من الهيلسبونت هي خيرسونيس التي تحتوي عدداً كبيراً من المدن، منها بيرنثوس، والحصون الواقعة في تراقيه، وسيلايبريا، وبيزنطة. إلا أن أهالي بيزنطة وجيرانهم المقابلين لهم أهالي خاليكيدونية لم ينتظروا هجوم الفينيقيين، بل هجروا أوطانهم وهربوا إلى ساحل البحر الأسود، حيث استوطنوا مدينة ميسمبريا. وبعد أن أحرق الفينيقيون جميع المناطق التي أتيت على ذكرها، توجهوا إلى بروكونيسوس وأرتاكا، وأحرقوها أيضاً، ثم عادوا إلى خيرسونيس للاستيلاء على الأماكن التي أغفلوها في زيارتهم السابقة. وكانت

خيرسونيس المدينة الوحيدة التي نجت، إذ إن أهلها كانوا قد توصلوا إلى تفاهم مع أويباريس بن ميجابازوس مرزبان داسكيليوم بأن يرضخوا لسلطان الفرس، وتم ذلك قبل دخول الفينيقيين المضيق. وبذلك أصبحت كل مدن خيرسونيس باستثناء كارديا في قبضة الفينيقيين.

كان ملتياديس بن سيمون بن ستياجوراس الطاغية المستبد الذي بسط سلطته على جميع المدن الخيرسونيية. وكان قد ورث منصبه هذا من ملتياديس بن سيبسيلوس، الذي حصل عليه على النحو التالي: كانت الدولنكي قبيلة تراقية ينتمي إليها الخروسونيون، وقد واجهوا مصاعب عدة في حربهم مع الأبينثيان، فذهب وفد من زعمائهم إلى دلفي طلباً لنصيحة العرافة، التي أشارت عليهم بأن يأخذوا معهم إلى الوطن أول شخص يستضيفهم عنده بعد خروجهم من المعبد. وفي أثناء سفرهم على الطريق المقدس مروا بإقليمي فوكس، وبويوتيه، ولما لم يتلقوا دعوة من أحد فقد انحرفوا عن مسارهم واتجهوا نحو أثينا.

كانت السلطات العليا في أثينا بين يدي بزيستراتوس، لكن ملتياديس بن سيبسيلوس كان من أبرز رجالات أثينا. فهو ينتمي إلى أسرة ثرية جداً لدرجة تسمح لها بدخول سباق المركبات التي تجرها أربعة جياد. علاوة على أنه يرجع بنسبه إلى إياسوس وايجينا. وكان فيلوس بن أجاكس أول فرد من أسرته يصبح مواطناً أثينياً. وقد صادف أن مر الدولنج أمام بيته، وكان جالساً عند مدخله فلمحهم ولاحظ من لباسهم أنهم غرباء ومسلحون بالرماح، فناداهم ودعاهم للدخول وعرض عليهم أن يستضيفهم لديه ويقدم لهم المأوى والطعام، فقبلوا دعوته، وحين كانوا في ضيافته أخبروه بالنبوءة الإلهية. ثم تضرعوا إليه أن يرضخ لمشيئة الإله. وما إن سمع قولهم حتى استجاب لدعوتهم، ذلك أنه كان كارهاً لحكومة بزيستراتوس ويسعى لأن يكون بعيداً عن متناول الطاغية. فذهب فوراً إلى دلفي ليستشير العرافة فأجابته بأن ما يقوم به هو الصواب. وهكذا فإن ملتياديس بن سيبسيلوس الذي كان قد فاز بسباق العربات الأولمبي التي

تجرها أربعة جياد ، غادر أثينا برفقة جماعة من أهلها، تدفعهم إلى مرافقته رغبة في المغامرة، فأبحر مع الدولنج إلى خيرسونيس، ونصبه الزعماء الذين أتوا به ملكاً عليهم. وكان أول ما قام به بناء سور عند المنطقة الضيقة من كارديا إلى باكتيا، وذلك لمنع الأبسنت من مهاجمة خيرسونيس. ويبلغ عرض هذه المنطقة من شبه الجزيرة قرابة ست وثلاثين فرلنجاً، وإجمالي طولها أربعمائة وعشرون فرلنجاً.

بعد أن أنهى ملتياديس بناء السور وحصن خيرسونيس، التفت إلى الحروب فكان أولها مهاجمته تمباسكوس؛ لكنه وقع في كمين وأخذ أسيراً. ولقد كان يحظى بتقدير عال من الملك الليدي كرويسوس لذلك فإنه حينما وصل إلى أسماعه نبأ اعتقاله، أرسل إلى تمباسكوس يأمرهم بإطلاق سراحه، وهددهم وتوعدهم إذا لم يفرجوا عنه بأن يقوم بقطعهم مثل شجرة التنوب. واحتار أهل المدينة ولم يعرفوا ماذا يعني بقوله أنه سيقطعهم مثل شجرة التنوب، حتى اتضحت الدلالة الحقيقية لهذه العبارة عندما أوضح لهم أحد المسنين أن التنوب هو النوع الوحيد من الشجر الذي لا ينبت ثانيه بعد أن يقطع بل يموت. فأثار هذا التفسير الهلع في قلوبهم فأطلقوا سراح ملتياديس.

وهكذا نجا ملتياديس بفضل كرويسوس، لكنه، بعد ذلك، مات دون عقب، تاركاً مملكته وثروته إلى أخيه غير الشقيق، ستيساجوراس بن سيمون. ومنذ موته اعتاد أهالي خيرسونيس تقديم القرابين تكريماً له باعتباره مؤسس دولة، وأقاموا على شرفه سباق المركبات والمباريات الرياضية التي لم يسمح لأحد من أمبساكوس بالاشتراك فيها. وقبل أن تنتهي الحرب مع أمبساكوس شاء القدر أن يموت ستيساجوراس دون عقب أيضاً. فقد كان في المجلس التشريعي حينما قام رجل تظاهر بأنه فار فضربه على رأسه بفأس، وتبين فيما بعد أنه كان من أعدائه الحاقدين.

وهكذا لقي ستيساجوراس حتفه، فأرسل البسيستراد ملتياديس بن سيمون

شقيق القتيل إلى خيرسونيس في مركب ثلاثي المجاديف لتسلُّم مقاليد الحكم. وكان البسيستراد قد أحسنوا معاملته إبان وجوده في أثينا، وكأنهم لم يكونوا مسؤولين عن مقتل والده سيمون. ولسوف أبسط هذا الأمر في موضع آخر. حينما وصل ملتياديس إلى خيرسونيس قبع في البيت متذرعاً بالحزن والاحترام لأخيه الميت، فتنادى المقدمون من جميع المدن وتجمعوا وذهبوا إليه للإعراب عن حزنهم لمصابه. فأمر باعتقالهم جميعاً وأودعهم السجن. ونصب نفسه سيد خيرسونيس واحتفظ بمجموعة من المرتزقة يبلغ عددهم خمسمائة وتزوج هجيسبيلا ابنة ملك تراقية أولوروس.

ولم يمض وقت طويل على وجود ملتياديس بن سيمون في خيرسونيس، حتى واجه مشكلات أكثر تعقيداً اضطرته للفرار لمدة ثلاث سنوات هرباً من قبائل السكيث، الذين أثار عدوان داريوس سخطهم الشديد، فوحدوا قواهم وزحفوا حتى وصلوا إلى خيرسونيس، إلا أن ملتياديس لم ينتظر قدومهم، فولى هارباً، وبقي خارج البلاد حتى انسحبوا، فأرسل الدولنج له وأعادوه. وقد حدث ذلك قبل ثلاث سنين من الأحداث الراهنة.

وما إن علم أن الفينيقيين يهاجمون تنيدوس حتى جمع ممتلكاته وحملها على خمس سفن ثلاثية المجاذيف، وأبحر متجهاً إلى أثينا، وكانت نقطة انطلاقه كارديس، وحينما كان يبحر أسفل خليج ميلاس، على طول شاطئ خيرسونيس صادف الأسطول الفينيقي، ولقد تمكن من الفرار بمشقة، فوصل إلى إمبروس ومعه أربع سفن فقط، إذ وقعت السفينة الخامسة التي كان يقودها ابنه الأكبر متيوخوس الذي لم تكن أمه ابنة ملك تراقية، بل امرأة أخرى، في قبضة الفينيقيين، الذين اعتقدوا أنهم قد حصلوا على غنيمة عندما اكتشفوا أنهم أسروا ابن ملتياديس بالإضافة إلى السفينة؛ ذلك أنهم تذكروا أن ملتياديس هو الذي نصح الأيونيين بتلبية طلب السكيث وهدم جسر الدانوب والإبحار إلى الوطن، ولما قاموا بإحضار متيوخوس إلى داريوس لم يلحق به أي أذى، بل

أحسن معاملته وأحله في منزلة طيبة، فقدم له بيتاً وأقطعه أرضاً، وزوجه بفارسية أنجبت له أولاداً عاشوا بوصفهم فرساً. أما ملتياديس نفسه فقد أبحر من إمبروس ووصل أثينا بسلام.

وفي هذا الوقت لم يقم الفرس بأي إجراء ضد الأيونيين، بل على العكس من ذلك، قدموا لهم ما فيه أعظم الفائدة، فقد أرسل أرتفرنيس مرزبان سارديس في طلب ممثلين من جميع الدول الأيونية وأرغمهم على أن يقسموا على حل خلافاتهم بالتحكيم عوضاً عن الاقتتال. علاوة على إصدار أوامره بمسح مناطقهم وقياس مساحتها بالفرسخ (مقياس فارسي يعادل ٣٠ فرلنجاً)، وحدد مقدار الضريبة التي يجب على كل دولة أن تدفعها وظل هذا المقدار ثابتاً حتى يومنا هذا، علاوة على أنه لم يتجاوز كثيراً المبلغ الذي كانوا يدفعونه قبل ثورتهم. ولقد ساعدت هذه الإجراءات على إحلال السلام بين الفرس والأيونيين.

في الربيع التالي قام داريوس بتسريح جميع القادة، وأرسل ماردونيوس بن جوبرياس إلى الساحل على رأس قوة كبيرة جداً برية وبحرية. وكان ماردونيوس ما يزال شاباً، وقد تزوج مؤخراً من ارتازوسترا إبنة داريوس. وبعد أن وصل قليقلية على رأس جيشه، قاد الأسطول على طول الساحل، تاركاً القوات البرية بقيادة ضباط آخرين ليتابع مسيره ليصل إلى الهيلسبونت. وعندما وصل أيونيا، قام بأمر دهش له الإغريق الذين لم يصدقوا أن أوتانيس نصح الحلفاء السبعة أن يقيموا في فارس دولة ديمقراطية. وآية ذلك أن ماردونيوس أطاح بجميع الحكام الطغاة للدول الأيونية وأقام مؤسسات ديمقراطية بدلاً منهم. ثم توجه إلى الهيلسبونت. ولما تجمع لديه عدد كبير من السفن، وقوة عسكرية كبيرة، قام بنقل قواته عبر المضيق وبدأ زحفه عبر أوروبا، وهدفه الرئيس السيطرة على إيرتريا وأثينا. كان الهدف المعلن لحملته إخضاع هاتين المدينتين، في حين أن الهدف الحقيقي كان إخضاع أكبر عدد من المدن الإغريقية. ولقد أصبح هذا جلياً حينما استولت القوات البحرية على ثاسوس التي لم تبد أي مقاومة، وتمكنت

القوات البرية من إخضاع مقدونية وبذلك أصبحوا من رعايا الملك. ومن ثاسوس أبحر الأسطول على طول الساحل حتى أكانثوس، ومن هناك حاولوا الانعطاف حول جبل أثوس، قبل أن يصلوا إليه باغتتهم ريح عاصفة آتية من الشمال، لم تستطع السفن الصمود في وجهها، فدفعت العديد منها إلى الساحل وتحطمت عند جبل أثوس، وتذكر التقارير أن ما يقارب من ثلاثمائة سفينة قد تحطمت وعلى متنها عشرون ألف رجل. والبحر المحيط بأثوس مليء بالوحوش، فأخذت هذه الوحوش تقتنص الناجين وتفترسهم، بينما قضى بعضهم إثر تحطم سفنهم على الصخور، وغرق آخرون لجهلهم بالسباحة، بينما مات غيرهم من البرد.

فيما كانت هذه الكارثة تعصف بالأسطول، قامت قبيلة براجي التراقية، بالإغارة على الجيش الفارسي الذي كان يعسكر ليلاً في مقدونية، وألحقوا به خسائر فادحة، حتى إن ماردونيوس نفسه أصيب بالجراح، لكن البراجي لم يتمكنوا من الاحتفاظ بحريتهم طويلاً، إذ إن ماردونيوس لم يغادر بلدهم حتى تمكن منهم وأخضعهم وقهرهم وجعل منهم عبيداً عند الفرس.

أدت الإصابات التي تعرض لها جيشه من جراء هجوم البراجي والخسائر الجسيمة التي لحقت بالأسطول في أثوس، إلى حث ماردونيوس على البدء بالانسحاب، فعاد الجيش إلى آسيا يجر أذيال الخيبة والخزي.

وفي السنة التالية وتحت تأثير وشاية أطلقها بعض جيرانهم مفادها أن أهالي ثاسوس يخططون للثورة، أرسل لهم داريوس أمراً بإزالة دفاعاتهم، ونقل أسطولهم إلى أبديرا. وكان أهالي ثاسوس قد تعرضوا لحصار هستيايوس فعقدوا العزم على تخصيص مواردهم الوفيرة لبناء سفن حربية وتحصينات أكثر مناعة. وتتألف موارد الجزيرة من أراض تقع في البر، ومناجم ذهب، وكانت مناجم الذهب في سكابتي هايلي تنتج ما مقداره ثمانون طالناً سنوياً، أما مناجم الجزيرة نفسها فكانت تنتج دون ذلك، وقد كان بمقدور أهالي الجزيرة تأمين دخل سنوي يعادل مئتي تالنت خالصة من الضريبة، أما في السنوات

الأخيرة فقد تبلغ عوائدهم ثلاثمئة تالنت. ولقد رأيت هذه المناجم بنفسي وأروعها تلك التي اكتشفها الفينيقيون الذين كانوا مع ثاسوس واستوطنوا الجزيرة التي حملت اسمه منذ ذلك الحين. وتقع هذه المناجم ما بين كوينيرا ومكان يدعى اينيرا، في الجهة الجنوبية الشرقية مقابل ساموتراقية، حيث تم قلب الجبل رأساً على عقب بحثاً عن الذهب. ولقد امتثل أهالي الجزيرة لأوامر داريوس فهدموا حصونهم وأرسلوا أسطولهم بأكمله إلى أبديرا.

عكف داريوس على دراسة موقف الإغريق إن كانوا سيجنحون للمقاومة أو الاستسلام. فبعث بالرسل إلى الدول الإغريقية العديدة يطالبها بتقديم الماء والتراب للملك. وفي الوقت نفسه أرسل أوامره إلى مدن الساحل الآسيوي الخاضعة لسلطانه، لإمداده بالسفن الحربية والجياد، وبينما كان يتم تأمين هذه المعدات، حصل رسله إلى بلاد الإغريق على ما طلبه من عدد من المدن الإغريقية الواقعة في البر وعدد من الجزر. وكانت ايجينا من بين تلك الجزر التي قدم أهلها الدليل على خضوعهم لداريوس.

حينما وصل إلى مسامع الأثينيين ما قامت به إيجينا، اعتقدوا أن عداوة الإيجينيين لهم كانت وراء خضوعهم لداريوس، وأن في نيتهم الاشتراك في الهجوم الذي يعده الفرس ضدهم، ولهذا قاموا على الفور بإيفاد السفراء إلى إسبارطة متهمين إيجينا بخيانة الإغريق. وهذا ما دفع كليومنيس بن أناكساندريس أحد ملكي إسبارطة، لأن يتوجه بنفسه إلى إيجينا بهدف اعتقال الرجال المسؤولين عن ذلك. لكنه عندما أراد القيام بالاعتقالات، لقي معارضة كبيرة من أهالي الجزيرة. وكان أبرزهم أحد أبناء بوليكراتيس ويدعى كريوس، الذي أعلن أن كليومنيس لن يفلت من العقاب، وأن اعتقال أي فرد من سكان الجزيرة سيكلفه غالياً. وما يقوم به إنما لإرضاء أثينا التي قدمت رشوة، فهو لا يستند إلى دعم حكومة إسبارطة، وإلا قام الملكان معاً بالاعتقال. ولقد قال ذلك بتحريض من ديماراتوس الملك الثاني لإسبارطة. وفيما كان كليومنيس يغادر

الجزيرة، سأل الرجل عن اسمه فأجابه كريوس. فقال كليومنيس: «حسن يا سيد كريوس، من الأفضل لك أن تكسو قرونك بالنحاس لتواجه الأخطار القادمة إليك.

في غضون ذلك، كان ديماراتوس بن أرسطون ـ الذي بقي في إسبارطة ـ يجمع الاتهامات ضد كليومنيس. وديماراتوس هذا هو ثاني ملوك إسبارطة لكنه ينتمي إلى أسرة أقل عراقة من أسرة كليومنيس. والحق أن أسرته لم تكن في واقع الأمر أدنى من الأسرة الأخرى، فكلتاهما تنتميان إلى جد واحد، لكن أسرة أيريثنيس التي ينتمي إليها كليومنيس تتمتع بمكانة أعلى لأنها تنحدر من الأخ الأكبر سناً.

ويؤكد اللاكيديمونيون بخلاف الشعراء، أنهم عندما استوطنوا الأرض التي يعيشون عليها حالياً كان أرسطوديموس بن أرسطوماخوس بن كليوديوس بن هيلوس هو الملك، وليس أبناء أرسطوديموس. ويذكرون أن زوج أرسطوديموس أرجيا بنة أوتيسيون بن تيساminوس بن ثيرساندر ابن بولينيسيس، قد أنجبت توأمين بعد استقرارهم بفترة قصيرة، وأن أرسطوديموس عاش ليرى الطفلين لكنه أصيب بالمرض ومات بعيد ولادتهما. فقرر الإسبارطيون ـ كما جرت العادة ـ أن ينصبوا أكبرهما ملكاً، لكن لما كانا متماثلين في الحجم والشكل استحال التمييز بينهما، فسألوا أمهما، لكنها قالت إنها هي نفسها لا تستطيع أن تفرق بينهما. والواقع أنها كانت تستطيع ذلك وتعرف أن تميز أحدهما من الآخر، لكنها تظاهرت بعدم تمكنها من ذلك، أملاً في أن يصبح ولديها ملكين بطريقة ما. ولقد حار الإسبارطيون في أمرهم ولم يعرفوا ما يجب عليهم عمله، ولحل هذه المعضلة أرسلوا إلى عرافة دلفي ليستمدوا منها النصح والإرشاد، فأجابت أن عليهم تنصيب هذين الطفلين ليكونا ملكين، على أن يعطوا مكانة أرفع للأكبر بينهما. لكن جواب العرافة لم يحل اللغز على الإطلاق، ذلك أن الإسبارطيين لم يتمكنوا من تحديد أيهما ولد قبل الآخر.

وفي آخر الأمر قدَّم رجل من ميسينا ويدعى بانيتيس اقتراحاً مفاده أن عليهم مراقبة والدتهما ومعرفة أي الطفلين ستقوم بإرضاعه وغسله أولاً. فإذا ما وجدوا أنها كانت تعطي الأفضلية لأحدهما على الدوام، فإن ذلك سينبئهم بكل ما يودون معرفته، أما إذا سارت الأمور على العكس من ذلك تماماً وأخذت تبدل بينهما، فتأخذ أحدهما أولاً أحياناً، والآخر في أحيان أخرى، فمن الجلي أن معرفتها لا تفضل معرفتهم وأن عليهم اللجوء إلى خطة أخرى.

عمل اللاكيديمونيون بنصيحة الرجل الميسيني. فواظبوا على مراقبة الأم، دون أن يطلعوها على سبب قيامهم بذلك، فوجدوا أنها كلما غسلت طفليها أو أرضعتهما، كانت تعطي الأولوية على الدوام للطفل ذاته. لذلك أخذوا الطفل الذي كانت تعطيه الصدارة واعتبروه الأكبر وربُّوه في القصر وأسموه أيريسثينيس، وأخاه بروكليس. وبعدما شبا اشتدت الخصومة بينهما واستمرت طوال حياتهما، على الرغم من أنهما كانا شقيقين؛ وانتقلت إلى عقبهما حتى يومنا هذا.

وقد انفرد اللاكيديمونيون بهذه القصة دون سواهم من الإغريق. ولسوف أبسط فيما يلي التقليد الذي سار عليه الإغريق بشكل عام. فقد قيل إن الملوك الدوريين منذ عهد بيرسوس بن داناي وهم بذلك يغفلون ذكر الإله ـ وردت أسماؤهم في القوائم التي اعتمدها الإغريق الأقحاح. وما يبرر قولي «منذ عهد بيرسوس» وليس أبعد من ذلك، أنه ليس لدى بيرسوس أب من البشر ينسب إليه، فهرقل مثلاً هو ابن أمفيتريون. ومن جهة أخرى، إذا أردنا تتبع سلسلة نسب داناي بنة أكريسيدس، فلسوف نجد أن الزعماء الدوريين هم من المصريين الأقحاح. وهذه هي الرواية التي يجمع عليها الإغريق بشأن سلسلة نسب العائلة المالكة في إسبارطة. أما الفرس فيذهبون إلى القول بأن بيرسيوس كان آشورياً ثم إغريقياً، ولذلك فإن أسلافه ـ وفق هذه الرواية ـ ليسوا من الإغريق؛ وهم لا يقرون بوجود صلة بين أسلاف أكريسيوس وبيرسيوس، بل يقولون إنهم

مصريون، وهذا ما يتفق والرواية الإغريقية، وعلى أي حال، ليس ثمة حاجة للاسترسال في الموضوع أكثر من ذلك، فلقد تولى آخرون الإجابة عن كيف جاء المصريون إلى البيلوبونيز؟ وكيف استولوا على مملكة الدوريين؟ وماذا فعلوا ليصبحوا ملوكاً؟ ولهذا فلن أضيف شيئاً، بل سأقوم بالتحدث عن النقاط التي لم يقاربها أحد.

كان الإسبارطيون يخصون ملوكهم بالامتيازات التالية: في المقام الأول، يتولى الملك منصبي الكاهن للإله زيوس اللاكيديموني، وزيوس اليوراني، كما يتمتع بسلطة إعلان الحرب على أي بلد، دون أن يعارضه أي إسبارطي تحت طائلة العقوبة لانتهاك المحرمات. وفي الحرب يتقدم الملوك الجيش في مسيره إلى القتال، وهم آخر من يتراجع. وأن يكون لديهم مئة حارس من الصفوة لحمايتهم. وللملوك الحرية في تقديم العدد الذي يرونه مناسباً من الأضاحي. ولهم الحق كذلك في جلود حيوانات الأضاحي وقسم من لحومها.

أما امتيازاتهم في أثناء السلم فهي أن يكونوا أول من يجلس إلى مائدة العشاء الذي يلي تقديم القرابين في الاحتفالات الدينية العامة. وأن يكونوا أول من يقدم لهم الطعام وتلبى طلباتهم. كما يحصل كل منهم على ضعف ما يحصل عليه الآخرون. ومن حقهم قيادة الاحتفال بإراقة النبيذ، والحصول على جلود جميع الحيوانات التي قدمت للتضحية. وفي اليوم الأول والسابع من كل شهر يقدم لكل ملك حيواناً مسمناً لتقديمه قرباناً في عيد أبوللو، وبوشل من دقيق الشعير وربع جالون من النبيذ. ولهم مقاعد الشرف في كل المباريات العامة. ومن واجباتهم انتقاء وتعيين المسؤولين عن الترفيه عن الزوار الأجانب، ولكل منهما أن يرشح اثنين من البيثيان، وهم موظفون موكلون باستشارة العرافة في دلفي، ويأكلون مع الملكين، ويعيشون مثلهما على حساب الدولة. وإذا لم يحضر الملكان الوليمة العامة يرسل إلى منزل كل منهما مقدار بوشلين من الدقيق ونصف (باينت) من النبيذ، أما عند حضورهما فيقدم لهما كميات مضاعفة من

كل شيء، وهذا ينطبق أيضاً على الولائم الخاصة التي يقيمها أحد المواطنين في بيته. كما أنهما القيمان على تدوين النبوءات، والتي يجب أن يكون البيثيان على معرفة بها أيضاً. وكذلك ينفردان باتخاذ القرار في بعض الأمور القانونية المحددة وهي: أولاً: إذا ورثت إحدى الفتيات ملكية والدها، ولم يكن قد عين من يخطبها، فيقرر الملكان من سيكون زوجها. وثانياً: كل ما يتعلق بالطرقات العامة منوط بحكمهما. ثالثاً: إذا ما رغب أي امرئ في تبني أحد الأطفال، فيجب أن يتم ذلك بحضورهما. علاوة على ذلك، لهما الحق في الجلوس في مجلس الشيوخ بأعضائه الثمانية والعشرين، والتصويت على القرارات فإذا غابا يقوم الشيوخ الأقرب إليهما بالتصويت بدلاً منهما ويصبح لهما صوتان هما امتياز الملكين بالإضافة إلى الصوت الخاص بهم.

تلك هي الامتيازات التي كانت لملوك إسبارطة في حياتهم، أما حينما يموت الملك، فللمناسبة طقوس خاصة، كأن يقوم الخيالة بنقل نبأ موت الملك إلى أنحاء بلاد اللاكيديمون كافة . بينما تسير النساء في مختلف أنحاء المدينة وهن يقرعن على إبريق وهذه الإشارة توجب أن يعلن الحداد اثنان، رجل وامرأة، من الأحرار في كل منزل من منازل المواطنين. وإذا لم يتم ذلك تغرم الأسرة غرماً كبيراً ومن العادات المألوفة عند موت ملك إسبارطي، وهي مألوفة في آسيا كذلك، أنه في حالة موت الملك يفرض على عدد معين من الأهالي من أنحاء بلاد اللاكيدايمونيين كافة وليس من إسبارطة وحدها حضور الجنازة، فتجتمع حشود ضخمة من عدة آلاف رجالاً ونساء وتتألف من مواطني إسبارطة وأهالي بلاد اللاكيديمون والهلوت (وهم عبيد إسبارطة). ويقومون جميعاً بضرب جباههم بعنف والبكاء والنواح دون توقف، وهم يعلنون على الدوام أن الملك الذي مات هو أفضل ملوكهم. أما إذا مات إبان المعركة، فيقيمون له تمثالاً، ويحملونه إلى المدفن على نعش مزخرف. وبعد جنازة الملك تتوقف الاجتماعات العامة أو الانتخابات لمدة عشرة أيام، تستمر خلالها مراسم الحزن والحداد. وبعد موت

الملك واعتلاء العرش ملك جديد فإنه يتبع تقليداً يماثل التقليد الفارسي، هو أن يقوم الملك الجديد بإسقاط جميع الديون المترتبة على الإسبارطيين سواء أكانت للملك أم للخزينة العامة. وهذا يشابه ما يقوم به الملك الفارسي الجديد إذ يقوم بإعفاء الدول التابعة له من دفع الضرائب.

يشابه اللاكيديمونيون المصريين في جعلهم بعض الحرف وراثية، فمنادو البلدة والمراسلون، وعازفو الناي، والطهاة قد ورثوا مهنهم عن آبائهم الذين ورثوها عن أسلافهم. فعلى سبيل المثال، لا يمكن للمرء أن يصبح منادياً أو رسولاً لمجرد أن له صوتاً جَهْوَرياً، بل إذا كان أسلافه قد مارسوا هذه المهنة. تلك هي تقاليد اللجدمون.

أما فيما يتصل بما كنا في صدده من أحداث، ففي أثناء تواجد كليومنيس في إيجينا وسعيه من أجل تحقيق الخير لبلاد الإغريق قاطبة، استمر ديماراتوس في كيل التهم لكليومنيس، ولم يكن ذلك حباً بأهالي ايجينا بل شعوره بالغيرة والكراهية لزميله. وبالمقابل فإن كليومنيس أخذ يفكر وهو في طريق عودته إلى إسبارطة في كيفية تنحية ديماراتوس من منصبه. وسرعان ما وجد بعض الظروف تيسر عليه مهمته. وتفصيل ذلك: كان أرسطون ملكاً على إسبارطة، لكنه لم ينجب أطفالاً رغم زواجه مرتين، ولما لم يكن مستعداً للاعتراف بأن ذلك ربما كان لعدم قدرته على الإنجاب، فتزوج للمرة الثالثة؛ وكان له صديق من مواطني إسبارطة، يفضله على غيره من الأصدقاء. وكانت زوج هذا الصديق أجمل امرأة في إسبارطة. والغريب في الأمر أنها كانت في طفولتها قبيحة جداً، والفضل في تبديل قبحها جمالاً يعود إلى مربيتها، التي ما إن وجدت أن الطفلة دميمة وأن ذلك قد أحزن والديها وكانا من أهل الثراء، حتى خطر لها أن تحملها كل يوم إلى معبد هيلين في ثيرابنا فوق معبد أبوللو، وتضعها أمام تمثال هيلين، وتدعو الربة لأن تأخذ القبح منها. ويقال إنه في أحد الأيام وبينما كانت المربية تحمل الطفلة وتخرج من المعبد، ظهرت لها امرأة رجتها أن تفصح عما تحمله

بين يديها، فأجابتها بأنها تحمل طفلة. فطلبت منها أن تريها إياها، إلا أن المربية رفضت لأن أهل الطفلة قد منعوها من أن تريها لأي كان. لكن تلك المرأة أصرت وألحت على ذلك، فلما رأت المربية مقدار لهفتها وإصرارها على إلقاء نظرة على الصغيرة، سمحت لها بذلك، فضربت رأس الصغيرة بلطف وقالت: «يوماً ما ستغدو هذه الطفلة أجمل نساء إسبارطة». ومنذ ذلك اليوم أخذ منظر الصغيرة بالتبدل ولما بلغت سن الزواج، تزوجها أجيتوس بن ألكيديس صديق أرسطون الذي ذكرته من قبل.

لقد وقع أرسطون في هوى زوج أجيتوس، واستولى هواها على عقله، ولكي يحظى بها تفتق ذهنه عن الخطة التالية: إذ عرض على صديقه زوج تلك المرأة أن يتبادلا الهدايا وأن يختار كل منهما ما يرغب به من ممتلكات الآخر وأن يحصل عليه. ووعده أن يقدم له كل ما يرغب به، شريطة أن يقوم صديقه بمثل ما قام به. فوافق أجيتوس ولم يخطر بباله أن زوجه في خطر، لأن أرسطون كان متزوجاً. وتبادلا العهود وأقسما على احترام هذا الاتفاق، وقدم أرسطون كل ما رغب به أجيتوس. ولما حان دور أرسطون في طلب ما يريد، حاول أخذ زوج صديقه. فاحتج أجيتوس قائلاً إنه وافق على أي شيء سوى زوجه. لكنه أرغم على ترك زوجه بسبب الخدعة التي استخدمها أرسطون من جهة، ولأنه لم يستطع أن يحنث بقسمه من جهة ثانية. فحملها أرسطون إلى بيته.

طلق أرسطون زوجه الثانية، وتزوج للمرة الثالثة من هذه المرأة. وبعد ذلك وقبل أن تنتهي الأشهر العشرة للحمل أنجبت هذه المرأة صبياً دعي ديماراتوس. وكان أرسطون في مجلس الإيفور المؤلف من خمسة أشخاص يتم تبديلهم كل عام. عندما أتاه خادم بالخبر. وبعد أن حسب على أصابعه عدد الأشهر منذ أن تزوج صاح: «هذا الصبي لا يمكن أن يكون ابني». ولقد سمع هؤلاء ما قاله ولكنهم لم يعيروه اهتمامهم. وبعد ذلك بزمن، وعندما كبر ديماراتوس ندم أرسطون على ذلك التعليق، إذ أصبح على يقين بأن الصبي من صلبه. أما سبب

تسميته ديماراتوس فهو أن أهالي إسبارطة قد اشتركوا في صلاة دعوا فيها لأرسطون الذي يعتبرونه أفضل ملوكهم، أن تمن عليه الآلهة بإنجاب طفل، ولذلك حينما ولد دعي باسم ديماراتوس ومعناه صلاة الشعب.

وبعد فترة من الزمن مات أرسطون واعتلى ابنه العرش. لكن شاء القدر أن تظهر القصة بأكملها إلى النور وأن تؤدي إلى خلعه، بسبب ذلك النزاع الذي نشب بينه وبين كليومنيس ـ أولاً عندما أعاد كليومنيس الجيش من إيليوسيس، وثانياً عندما ذهب إلى إيجينا ليعتقل من وقف إلى جانب الفرس من أهالي الجزيرة.

ولما كان كليومنيس تواقاً للانتقام، فقد عقد اتفاقاً وأحد أقرباء ديماراتوس ويدعى ليوتيخيدس بن ميناريس بن أجيس، تعهد له أن يجعله ملكاً بدلاً من ديماراتوس شريطة ان يحصل على دعمه في الهجوم على ايجينا. وكان ليوتيخيدس عدو ديماراتوس اللدود، بسبب بركاليوس بنة خيلون بن ديمارمينيوس، وكانت خطيبة ليوتيخيدس، لكن ديماراتوس تجرأ وسبقه إليها، وانتزعها منه بالقوة، وتزوجها. وكان هذا أساس النزاع الذي نشب بين الرجلين. وبعد إلحاح من كليومنيس أعلن ليوتيخيدس أنه: «لا يحق لديماراتوس وهو ابن غير شرعي لأرسطون أن يكون ملكاً لإسبارطة». وأقسم على ان هذا هو الحق، ثم طالب بمقاضاته مذكراً الناس بما قاله أرسطون عندما بشره الخادم بمولد الغلام ـ وكيف أخذ يعد الشهور ثم أعلن بأنه لا يمكن أن يكون ابنه. وكان هذا هو الأساس الذي استند إليه في إثبات بطلان حقه في العرش. وقدم شهوداً على ذلك الإيفور الذين كانوا حاضرين في تلك المناسبة وسمعوا ما قاله أرسطون. وقد أدى ذلك إلى نشوب نزاع عنيف دفع بالإسبارطيين إلى اتخاذ قرار باللجوء إلى عرافة دلفي لحسم مسألة نسب ديماراتوس. وإثر التوصل إلى هذا القرار، ضمن كليومنيس ـ الذي كان وراء هذه الخطوة ـ مساندة كوبون الذي يتمتع بنفوذ قوي في دلفي. وأقنع العرافة بيريللا أن تقدم للإسبارطيين

الجواب الذي يريده كليومنيس. ولذلك فإنها أجابتهم حينما سألوها بقولها: «إن ديماراتوس لم يكن ابن أرسطون». ولقد اتضحت فيما بعد وقائع هذه الصفقة. ونفي كوبون، وعزلت بيريللا من منصبها.

أدت هذه الحوادث إلى عزل ديماراتوس عن العرش. لكن مغادرته للبلد متجهاً إلى فارس كان نتيجة لما لحق به فيما يعد من إهانة. فبعد عزله انتخب ليشغل منصباً آخر في الدولة، وذات مرة عندما كان جالساً بين الحضور في مهرجان الصبية العراة. أرسل ليوتيخيدس الذي أصبح ملكاً بدلاً منه، خادمه ليسأله من قبيل السخرية به والإذلال ما هو شعوره الآن وقد أصبح أحد الحكام بعد أن كان ملكاً. ولقد آلمه هذا السؤال لكنه أجاب: «أخبره عني أني خبرت المنصبين، إلا أن ليوتيخيدس لم يحظ بذلك، ومع ذلك فإن هذا السؤال سيكون بداية لما ستعرفه إسبارطة من عظائم الأمور، خيراً وشراً». ثم غادر المسرح وتوجه إلى داره وقد غطى رأسه بعباءته، وأحضر ثوراً لتقديمه قرباناً إلى زيوس. وبعد أن انتهى من ذلك أرسل في طلب والدته، وعندما حضرت وضع بين يديها أحشاء القربان وقال لها، وعليه أمارات الجد:« أماه، إني أتوسل إليك بجميع الآلهة، وخاصة براعي بيتنا زيوس، أن تصدقيني القول، وأن تخبريني من هو والدي الحقيقي؟ فقد قال ليوتيخيدس في أثناء النزاع الذي نشب بيننا، إنك عندما تزوجت أرسطون كنت حاملاً بي من زوجك السابق ـ وهناك قصة أكثر فظاعة يرويها بعضهم، وهي أنك كنت عشيقة أحد الخدم وهو سائس يرعى الحمير، وأنني ابنه. ناشدتك الآلهة يا أماه أن تقولي الحقيقة، وألا تكذبي علي. وحتى لو صدق ما يقال عنك، فلن تكوني الوحيدة، فثمة نساء كثيرات فعلن الشيء نفسه. علاوة على ذلك، يشيع العديد من الإسبارطيين أن أرسطون كان عاجزاً جنسياً، وأنني لو كنت ابنه حقاً، فلماذا لم ينجب من زوجتيه السابقتين».

أجابته أمه قائلة: «يا بني العزيز، بما أنك متلهف لمعرفة الحقيقة، فإنني لن أخفي عنك شيئاً. بعدما أخذني أرسطون إلى منزله، ظهر لي في الليلة الثالثة

شخص يشبهه تماماً حتى أني اعتقدت أنه أرسطون. وبعد أن مكث معي فترة قصيرة، نزع الإكليل الذي يتوج رأسه ووضعه فوق رأسي، ثم ذهب. ولما أتى أرسطون لاحقاً، سألني من الذي قدم لي هذا الإكليل. فأجبته بأنه هو الذي قدمه لي بنفسه، لكنه نفى ذلك بشدة، فأقسمت بأنه لم يكن هناك سواه، ووبخته لإنكاره، إذ ما هي إلا برهة منذ أن احتضنني بين ذراعيه وقدم لي الإكليل. وبعد أن سمعني أقسم، اقتنع بما قلته، وأدرك أن ذلك من صنيع الآلهة، علاوة على ذلك، فقد اتضح أن الإكليل جاء من مقام البطل استراباخوس، الذي يقع بجوار بوابة الحديقة، وعندما تم استجواب الكهنة، كان جوابهم أن الشبح الذي قام بزيارتي كان استراباخوس نفسه. هذا كل ما في الأمر يا بني، وها أنت الآن تعرف كل ما تريد معرفته، سواء كان البطل استراباخوس هو والدك أم أرسطون، ذلك أني حملت بك في تلك الليلة. أما بالنسبة إلى الأساس الذي استخدمه أعداؤك في هجومهم عليك ـ وأعني إنكار أرسطون لأبوته لك بحضور شهود عندما بشر بك، وذلك لعدم انقضاء الأشهر العشرة. فقد كان لجهله بمثل هذه الأمور، مما جعله يقول ما قال. فالمرأة لا تحمل الطفل حتى الشهر العاشر على الدوام، إذ تحمله في بعض الأحيان تسعة أشهر وفي أحيان أخرى سبعة أشهر فقط ـ وأنت يا بني، كنت وليد أشهر سبعة فقط. ولقد أدرك أرسطون، بعد ذلك، أنه تحدث عن جهل. إن ما قلته لك هو الحقيقة، لذلك لا تصغ لأية قصة أخرى عن نسبك، وإني أدعو السماء أن تنتقم من كل من يتحدث عنك بسوء».

لما علم ديماراتوس من والدته كل ما يريد معرفته، قام بالتحضير للقيام برحلة إلى إيليز متظاهراً بأنه ذاهب إلى دلفي لاستشارة العرافة هناك. فعمل اللاكيديمونيون على إرسال من يتبعه لارتيابهم بأنه يريد الهروب من البلاد. إلا أنه كان أسرع منهم، فعبر من إيليز إلى زاكينثوس قبل وصولهم. فتبعوه وسعوا للامساك به، وأبعدوا خدمه عنه، لكن أهالي زاكينثوس رفضوا تسليمه، وبذلك تمكن من العبور إلى آسيا، وقدم نفسه في بلاط داريوس. الذي رحب به وقدم له

هدية عظيمة عبارة عن أرض ومدن. تلك كانت ظروف قدوم ديماراتوس إلى آسيا، ولقد كان رجلاً عزَّ نظيره بين رجال إسبارطة قولاً وفعلاً، وامتاز عن جميع ملوك إسبارطة بأنه كان الملك الوحيد الذي أحرز شرف الفوز في سباق العربات ذات الخيول الأربعة في الأولمبياد.

اعتلى ليوتيخيدس بن ميناريس العرش، بعد عزل ديماراتوس، وكان له ولد يدعى زيوكسيداموس، وكان يناديه البعض باسم كينيكوس، لكنه لم يعتل العرش فقد مات قبل والده، تاركاً ابناً وحيداً هو أرخيداموس. وبعد وفاة ابنه تزوج ليوتيخيدس ثانية من أيوريدام أخت مينوس وابنه دياكتوريدس، لكنها لم تنجب له أولاداً من الذكور، بل أنجبت ابنة وحيدة هي لامبيتو، وقد زوجها أبوها إلى حفيده أرخيداموس.

وعلى أي حال، فإن ليوتيخيدس لم يصرف سنوات حياته الأخيرة في إسبارطة، بل قضى وهو يعاني آلام العقوبة التي أنزلت به، وكانت بمثابة الانتقام لما بدر منه بحق ديماراتوس؛ إذ بينما كان على رأس جيش اللاكيديمونيين في حملة ضد تساليه، وكان النصر قاب قوسين أو أدنى، سمح لنفسه أن يتلقى رشوة ضخمة، فقبض عليه متلبساً، حيث كان يجلس في خيمته فوق كيس ممتلئ حتى آخره بالقطع الفضية. ولقد حوكم وعوقب بالنفي وسويت الأرض ببيته حتى اندثر، فالتجأ إلى تيجيا، حيث أمضى ما تبقى له من العمر ومات هناك. لكن هذه الحوادث جرت في وقت لاحق.

وإبان تلك الفترة التي نتحدث عنها، ذهب كليومنيس ـ بعدما أفلح في مسعاه ضد ديماراتوس ـ مع ليوتيخيدس إلى ايجينا، وكان غاضباً منهم للإهانة التي لحقت به في زيارته السابقة لهم. وبعد قدوم الملكين فإن أهالي إيجينا قد مالوا إلى الرأي القائل بأنه من الأفضل عدم القيام بمزيد من المقاومة. فاختار الملكان عشرة من المواطنين الأكثر ثراء وتميزاً، وكان من بينهم كريوس بن بوليكراتيس وكسامبيوس بن أرسطوكراتيس، اللذان كانا يتمتعان بالنفوذ الأكبر في

الجزيرة، وحملوا الجميع إلى أتيكا، حيث وضعوهم بين أيدي الأثينيين ألد أعداء الإيجينيين.

عندما علم الجميع في إسبارطة، فيما بعد، بالمكيدة التي حيكت ضد ديماراتوس، استولى الرعب على كليومنيس، وهرب من إسبارطة إلى تساليه. ومن هناك انتقل إلى أركاديا، حيث بدأ بإثارة القلاقل، وحاول توحيد جهود الأركاديين والفوز بمساعدتهم للعمل ضد إسبارطة. وجعلهم يقسمون كل أشكال الأيمانات أن يتبعوه إلى أي مكان يريد أن يذهب بهم إليه. بل ولقد جهد لحمل الأعيان على الذهاب معه إلى نوناكريس، بهدف جعلهم يقسمون على مياه ستيكس على دعمه ومؤازرته - يعتقد الأركاديون أن مياه نهر شيطاني غير مرئي تظهر هنا في نوناكريس - وهذه هي حقيقة الأمر إذ يمكن للمرء أن يرى المياه تقطر من بين الصخور وتتساقط في حوض يحيط به جدار دائري منخفض. ونوناكريس حيث يوجد هذا النبع، هي مدينة أركادية تقع بالقرب من فينيوس.

لما علم اللاكيديمونيون بما يقوم به كليومنيس في أركاديا، توصلوا إلى تفاهم معه بأن يرجع إلى وطنه ويستعيد ملكه كما في السابق. فعاد إلى إسبارطة. ورغم أن غرابة الأطوار كانت من خصاله في الماضي، إلا أنها تفاقمت فأصيب بمس من الجنون بعيد عودته، وأصبح يضرب بعصاه وجه كل إسبارطي يقابله. ونتيجة لهذا السلوك الجنوني فقد عزله أقرباؤه حتى إنهم قيدوه ووضعوا رجليه في آلة التعذيب الخشبية. وبينما كان قابعاً هناك وحيداً، ومقيداً بإحكام، بحراسة أحد العبيد، طلب من سجانه أن يعطيه سكيناً. فرفض في البداية أن يستجيب لطلبه. لكن كليومنيس هدده بما يمكن أن يقوم به إذا ما استعاد حريته، وبذلك تمكن من إخافته، فامتثل لطلبه وقدم له السكين. وما إن أصبحت بين يديه حتى بدأ بتقطيع أوصاله بنفسه، بادئاً بمقدمة ساقه، مستمراً في ذلك حتى وصل إلى فخذيه، ثم وركه وخاصرتيه، حتى وصل إلى بطنه وبعدها مات. ومعظم الناس في بلاد الإغريق يقولون إن ذلك إنما كان قصاصاً لإفساده عرافة

دلفي وحثها على الكذب بشأن ديماراتوس. إلا أن الاثينيين يختلفون عن الجميع بأنهم يعزون ذلك إلى تخريبه للغابة المقدسة الواقعة في حمى الإلهتين ديميتر وبيرسيفون، عندما اجتاح إليوسيس، في حين أن الأرجوس يؤكدون أن ذلك كان عقاباً له لتدنيسه المقدسات عندما قام بعد إحدى المعارك بإحضار من هرب من الأرجوس والتجأ إلى حمى غابة أرجوس المقدسة، وأخذ بتقطيعهم إرباً إرباً، ثم أحرق الغابة نفسها مظهراً بذلك عدم احترامه للمقدسات. وقد جرى هذا الحادث كمايلي: في إحدى المرات أرسل كليومنيس إلى دلفي يسأل العرافة هناك النبوءة فأخبرته بأنه يجب عليه أن يستولي على أرجوس. فزحف على رأس جيش إسبارطي حتى وصل إلى نهر إيراسينوس، وهو جدول يقال إنه يتدفق من بحيرة ستيمفاليس، التي ترشح مياهها إلى شق غير مرئي ثم تعود إلى الظهور من جديد في أرجوس حيث يطلق عليها اسم إيراسينوس. ولما وصل إلى ضفة النهر قام بتقديم القرابين قبل الشروع في عبوره. لكن الأمور لم تكن تبشر بالخير، إذ لم تسهل هذه القرابين مسألة عبوره للنهر فخاطب كليومنيس النهر قائلاً: «حسن، إنني معجب بإله النهر لأنه يرفض خيانة أبناء بلده. ومع ذلك، فإن الأرجوس لن ينجوا من عقابي »، ثم سحب قواته وقادهم إلى ثيريا، حيث قدم ثوراً قرباناً لإله البحر وحمل قواته بالسفن فوصلوا إلى نوبليا في تيراينا. ولما علم الأرجوس بتحركاته توجهوا إلى الساحل للدفاع عن بلدهم، واتخذوا مواقعهم في سيبيا بالقرب من تيراينا. مقابل جيش اللاكيديمونيين. ولم يعودوا يهابون المعركة الضارية التي سيواجهونها، بالرغم من أنهم تلقوا نبوءة جعلتهم يتخوفون الخيانة. فقد تنبأت العرافة لكل من الأرجوس والميليسيين بمايلي:

سيأتي زمن تقهر فيه الأنثى الذكر، وترمي به بعيداً،
فتنال ثناء أهل أرجوس والمجد عندهم
ولسوف تندب، عندئذ، نساءهم حتى تتمزق وجناتهن

وسيقول ذات يوم رجال لم يولدوا بعد:

«بالرمح روضت الأفعى الرهيبة الملتفة على نفسها وقتلت».

ولما تنبهوا لاقتران هذه الظروف، فقد قرروا اتباع الخطة التالية؛ وهي أن يعملوا حسب الأوامر التي ينادي بها المنادون في الجيش الإسبارطي. وهكذا، كلما ردد المنادي الإسبارطي أمراً، يقوم الأرجوس بتنفيذ مثله. لكن سرعان ما لاحظ كليومنيس ما كان يجري. فأصدر أمراً لرجاله مفاده أن عليهم حينما سيطلب منهم المنادي أن يتناولوا طعام الغداء، ألا يطيعوا هذا الأمر، بل أن يشهروا سلاحهم ويقوموا بمهاجمة الأرجوس بدلاً من تناول الطعام. ولقد نجحت الخطة بحذافيرها، فلما سمع الأرجوس منادي الجيش الإسبارطي ينبه إلى تناول الطعام، جلسوا بهدوء لتناول الطعام، لكن تم الهجوم عليهم بشكل مفاجئ، فقتل الكثيرون، وفر عدد أكبر إلى الغابة الصغيرة المقدسة لدى البطل أرجوس، حيث حوصروا وتمت مراقبتهم عن كثب.

بعد أن عرف كليومنيس من الأرجوس الفارين أسماء بعض الرجال الذين التجؤوا إلى الغابة، أرسل من ينادي بأسمائهم واحداً تلو الآخر، ويخبرهم بأنه قبض فديتهم، ويدعوهم للخروج (كانت فدية الأسير في بلاد البيلوبونيز نحو مينايين). وحينما يخرجون من الغابة يأمر بذبحهم، وبهذه الخدعة تمكن من إخراج خمسين رجلاً منهم. أما من ظلوا في الغابة فلم تكن لديهم أية فكرة عما يجري، لأن كثافة أشجار الغابة لم تمكنهم من رؤية مصير رفاقهم في الخارج. ولكن أخيراً تسلق أحدهم إحدى الأشجار وشاهد ما يجري فحذر رفاقه، وبذلك لم تعد الدعوة للخروج مقبولة. عندها أمر كليومنيس العبيد بأن يحيطوا الغابة بأكوام الحطب، ويشعلوا النار فيها لإحراقها. وتمت إطاعة الأمر، وبينما كانت ألسنة اللهب تتصاعد، سأل كليومنيس أحد الأرجوس من هو الإله الذي تقع الغابة في حماه؟ فكان الجواب أرجوس. وعندما سمع هذا الاسم أطلق تنهيدة وصرخ قائلاً: «يا إله النبوءة، يا أبوللو، لقد غررت بي عندما قلت إن عليّ

الاستيلاء على ارجوس، إنني أعتقد أن نبوءتك قد تحققت».

بعد هذا أرسل كليومنيس قسماً كبيراً من جيشه إلى الوطن، وذهب على رأس ألف من خيرة قواته إلى معبد هيرا، لتقديم القرابين. لكن كهنة المعبد رفضوا السماح له بالقيام بذلك، لأن تقديم القرابين في هذا المعبد كانت محرمة على الغرباء. فأمر العبيد بأن يجروا الكاهن بعيداً عن المذبح وأن يجلدوه بالسياط، وقدم القربان بنفسه ثم عاد إلى إسبارطة.

عندما وصل إسبارطة طلب أعداؤه أن يمثل أمام مجلس الإيفور بتهمة قبوله الرشوة مقابل عدم الاستيلاء على أرجوس، رغم أنه كان بمقدوره الاستيلاء عليها بسهولة. فكان جوابه على ذلك ـ ولست على يقين ما إذا كان صادقاً أم كاذباً، أنه عندما اكتشف أن المنطقة المقدسة التي استولى عليها كانت تعود لأرجوس، اعتقد أن النبوءة قد تحققت، ولذلك وجد أنه من غير المناسب أن يهاجم مدينة أرجوس دون أن يستشير الإله مرة ثانية، وأن يعرف بوساطة القربان ما إذا كان سيمنحه النصر أم لا. وأنه لما قدم القربان في معبد هيرا، انطلقت الشعلة من صدر تمثال الربة، فتيقن بأنه لن يستطيع الاستيلاء على أرجوس. إذ لو أن الشعلة قد انبثقت من رأس التمثال، لكان ذلك إشارة إلى أنه سيتحقق له الاستيلاء على المدينة. إلا أن الشعلة التي انطلقت من الصدر قد دلت على أنه قام بكل ما أراده الرب. فقبل الإسبارطيون هذا الدفاع واعتبروه موثوقاً ومعقولاً، وتمت تبرئة كليومنيس.

نتيجة لهذه الأحداث، غدت أرجوس تعاني نقصاً في الرجال، فتركت إدارة شؤون المدينة بين أيدي الأرقاء، الذي شغلوا جميع المناصب الحكومية، واستمروا فيها حتى كبر أبناء الذين قتلهم كليومنيس. فأزاحوا العبيد واستعادوا سيطرتهم على المدينة. فقام هؤلاء العبيد باحتلال تيراينا إثر معركة كانت لهم الغلبة فيها. وقد استمرت العلاقات بين تيراينا وأرجوس ودية فترة من الزمن. لكن كاهناً فيجالياً من اركاديا يدعى كليندر، جاء إلى تيراينا وألّب

العبيد وأقنعهم بالهجوم على أسيادهم السابقين. فكانت النتيجة دخول المدينتين في صراع استمر طويلاً، لم يحرز الأرجوس فيه النصر إلا بعد عنت شديد وصعوبات جمة.

يعتقد الأرجوس أن جنون كليومنيس وميتته البائسة[3] إنما كانا نتيجة سلوكه تجاههم. إلا أن أبناء بلده لا يوافقون على فكرة أن جنونه كان عقاباً أنزل عليه من السماء، بل إنهم يعتقدون بأن جنونه إنما هو نتيجة لعادته في شرب النبيذ صرفاً غير ممزوج بالماء، التي تعلمها من السكيث حينما خالطهم. وقد كانت هذه القبائل تواقة للانتقام من داريوس لاجتياحه بلادها، فأرسلت عروضاً إلى إسبارطة للقيام بجهد مشترك لمواجهته، وكان الاقتراح أن يقوم السكيثيون باجتياح فارس عن طريق نهر فاسيس، في حين يتولى الإسبارطيون الزحف براً من أفسوس وبعدها يلتقي الجيشان ليشكلا جيشاً واحداً. وعندما جاء سفراء السكيث إلى إسبارطة لمناقشة هذا المشروع، أمضى كليومنيس وقتاً طويلاً معهم، فاكتسب منهم عادة شرب النبيذ صرفاً غير ممزوج بالماء، ويقول الإسبارطيون إنهم منذ ذلك الوقت اعتادوا استخدام هذه العبارة: «على طريقة السكيث عندما يريدون مشروباً قوياً جداً. تلك كانت رواية الإسبارطيين، وفي اعتقادي أن نهايته إنما كانت عقاب السماء له على ما فعله بديماراتوس.

حالما وصلت أنباء موت كليومنيس إيجينا، أرسلوا سفراءهم إلى اسبارطة للاحتجاج على ليوتيخيدس بوضع أصدقائهم رهائن في أثينا. قدم اللجدمون القضية أمام المحكمة، وجاء القرار أن ليوتيخيدس قد عامل أهالي إيجينا معاملة سيئة جداً. وحكموا عليه بأن يتم تسليمه لأهالي إيجينا مقابل الرجال المعتقلين في أثينا. وعندما كان السفراء على وشك الذهاب به تدخل أحد الرجال البارزين في إسبارطة ويدعى ثياسيدس بن ليوبريبس، وخاطب الإيجينيين قائلاً: «يا رجال إيجينا، ماذا تعتزمون القيام به؟ أو تجرؤون على نقل ملك إسبارطة بالقوة؟ لقد وضعه أبناء بلده في أيديكم، لأنهم غاضبون منه الآن وحكموا عليه

بأن يعامل هذه المعاملة المهينة. لكنني أحذركم، إذ سيأتي اليوم الذي سيعملون فيه على تدميركم انتقاماً لملكهم». فأدت هذه الكلمات إلى جعل الإيجينيين يغيرون رأيهم، فعقدوا مع ليوتيخيدس اتفاقاً ـ بدلاً من أخذه سجيناً ـ أن يصطحبهم إلى أثينا ويعمل على تسليمهم الرهائن. وعندما وصل هناك وطلب تسليمه الرجال الذين تركوا أمانة لديهم، لم يكن الأثينيون على استعداد للاستجابة لطلبه، بل عملوا على التسويف والمماطلة واصطناع الأعذار كسباً للوقت، وقالوا إن الملكين قد وضعا الرجال لديهم، ولذلك ليس من الصواب تسليمهم لأحدهما دون وجود الملك الآخر. ولما جوبه ليوتيخيدس برفض الأثينيين إطلاق سراح الرجال، خاطبهم قائلاً: «يا رجال أثينا، افعلوا ما بدا لكم، فإما أن تطلقوا الرهائن وتكونوا أهل استقامة، وإما أن تحتفظوا بهم، وبذلك تحيدون عن سواء السبيل ولسوف أروي لكم ما حدث ذات يوم في إسبارطة ويتصل بالعهود. فيروى أنه كان في إسبارطة، قبل ثلاثة أجيال، رجل يدعى جلاوكوس بن أبيسيديس، وكان الأول في المملكة في كل أمر، وقد طبقت شهرته الآفاق لما اتصف به من صدق وأمانة، فحاز مكانة لم يبلغها إسبارطي آخر في زمانه. ولكن يد القدر كانت تدبر له أمراً ـ ولسوف تعلمون القصة كما تروى بيننا. فقد جاء ذات يوم إلى اسبارطة رجل من ملطية وسعى إلى جلاوكوس في أمر. فلما قابله قال له: «قد جئتك لما بلغني عن أمانتك، وهي حديث الناس في بلاد الإغريق - بل وفي بلاد الأيونيين أيضاً، فحملني ما سمعت على التفكير، وقلت في نفسي إن بلاد الأيونيين ليست بمأمن من التغيرات وانقلاب الأحوال، حيث لا استقرار لملك، ولا شيء يبقى في يد واحدة. أما بلاد البيلوبونيز فآمنة مستقرة. فحملني الفكر على أن أحول نصف أملاكي إلى أموال وأضعها بين يديك، وأنا واثق بأنها ستكون في أمان. لذلك رجوتك أن تأخذ هذه الأموال ومعها هذه الشارة. فإذا أتاك من يحمل النصف الثاني لهذه الشارة، أعطه المال. وكان جلاوكوس مصغياً طوال حديث هذا الغريب من ملطية، ثم قبل منه الوديعة وفق الشروط

التي حددها. ومضت السنون، حتى كان ذات يوم جاءه أبناء ذلك الرجل مطالبين جلاوكوس برد الأمانة، وأبرزوا له نصف الشارة، كما أوصى صاحبها. فقال جلاوكوس محاولاً التملص منهم: ولكنني لا أذكر أنني حملت وديعة كالتي تذكرون، ولا شيء مما قلتم قد أنعش ذاكرتي. ولكن إن تذكرت تلك الواقعة لا بد معيد لكم المال، كرجل صادق شريف، إذا كنت قد تسلَّمته. أما إذا لم أتذكر فلسوف أقاضيكم كما يحكم قانون الإغريق. ولكم مني عهداً بحل هذا الأمر، بطريقة من الطرق في غضون أربعة أشهر من الآن».

اعتقد الميليسيون أن النقود قد فقدت إلى الأبد، فقفلوا عائدين إلى بلدهم وقد انتابهم يأس كبير. وقام جلاوكوس بزيارة دلفي طلباً لمشورة العرافة. وكان سؤاله هل يتوجب عليه أن يقسم ويحوز على أموال الميليسيين أم لا؟ فوبختته الكاهنة، مستخدمة الكلمات التالية:

قد تفلح الآن، يا جلاوكوس، أن تنفذ أمرك
بالقسم الكاذب وتنهب أموالهم
اقسم إن شئت، فالموت مصير كل إنسان ولو أقسم صادقاً
ومع ذلك، فللقسم ولد لا اسم له ولا يدين أو قدمين
لكنه سريع في الطراد مآله أن يدرك طريدته
ويأتي على أهل صاحب القسم الكاذب وأسرته
وسعداء أبد الدهر أبناء من أقسم صادقاً.

ولما سمع جلاوكوس هذا الجواب، توسل إلى الآلهة أن تصفح عنه لسؤاله هذا، لكن الكاهنة قالت له إن طلب موافقة الإله على خطيئة ما، هو بمثابة اقترافها. وعلى أي حال، فقد أرسل في طلب أولاد الميليسي وأعاد لهم أموالهم.

والآن، أيها السادة، سأبين لكم مالذي أرمي إليه من رواية هذه القصة. ففي يومنا هذا لا يوجد لجلاوكوس أي عقب، ولا تحمل أي أسرة في إسبارطة اسمه، لقد اجتثت هذه الأسرة من جذورها. إن هذا سيجعلكم ترون أنه حينما تترك

الأمانة في عهدة أحدهم فلا يحوز حتى مجرد التفكير بعدم إعادتها لأصحابها. ولما وجد أن الأثينيين لم يعيروه أذناً صاغية، عاد إلى وطنه دون أن يتمكن من استعادة الرهائن.

كان الإيجينيون قد قاموا، فيما مضى، بالهجوم على أثينا إرضاء لطيبة، ومع ذلك لم يتم إنزال أي عقوبة في حقهم. ولكن لما كانوا هم الذين وقع عليهم الحيف الآن، ورفض الأثينيون إعادة الرهائن، فقد أعدوا العدة للانتقام. وكان من عادة الأثينيين إقامة احتفال كل أربع سنوات في سنيوم، فاستغل الإيجينيون هذه المناسبة ونصبوا كميناً لسفينتهم واستولوا عليها وكان على متنها عدد من الشخصيات البارزة في أثينا، فقبضوا عليهم وأودعوهم السجن.

لم تتلكأ أثينا في الرد، بل وضعت خطة للهجوم على إيجينا وأخذت تحشد قواها ومواردها لاستخدامها في هذا الهجوم. وكان ثمة رجل إيجيني مشهور يدعى نيكودروميوس بن كنويثوس، وقد حكم عليه بالنفي من الجزيرة وما زال يحمل الضغينة لمواطنيه، ولما علم أن الأثينيين يعدون العدة للهجوم على إيجينا، اتفق معهم على تسليم الجزيرة، وتم الاتفاق على توقيت الهجوم وحدد موعد تنفيذ المهام الموكلة إليه في الخطة وموعد وصول القوات الأثينية لمساندته. وفي الوقت المتفق عليه قام بتنفيذ مهامه، فاحتل مكاناً يدعى المدينة القديمة، لكن الأثينيين فشلوا في الالتزام بالتوقيت المتفق عليه. إذ إنهم لما وجدوا أن أسطولهم لا يضارع الإيجينيين، طلبوا من الكورنثيين أن يعيروهم سفناً، لكن ذلك تطلب زمناً، وأدى فيما بعد إلى فشل العملية كلها. وفي تلك الفترة، كان الكورنثيون والأثينيون على أتم وفاق، وحين طلب الأثينيون إمدادهم بالسفن جهزوا عشرين سفينة وقدموها لهم، ولما كان قانونهم يمنع تقديم السفن بلا مقابل، فقد باعوهم السفينة الواحدة بخمسة دراخمات. وبذلك أصبح لدى الأثينيين سبعون سفينة حربية، وأبحروا صوب إيجينا. إلا أنهم تأخروا يوماً كاملاً عن الموعد المتفق عليه.

ولما وجد نيكودروميوس أن الأثينيين لم يظهروا في الوقت المتفق عليه، هرب من الجزيرة على متن قارب برفقة عدد من الإيجينيين المناصرين له. وقد سمح الأثينيون لهؤلاء بالاستقرار في سنيوم، التي جعلوها قاعدتهم للإغارة على أبناء بلدهم في إيجينا. لكن هذا جرى في وقت لاحق.

وهكذا تمكن أغنياء إيجينا من إخماد الثورة التي قام بها العوام بقيادة نيكودروميوس، واعتقلوا عدداً منهم واقتادوهم إلى حيث يتم إعدامهم. لكنهم ارتكبوا في أثناء ذلك ما أدى إلى إغضاب الإلهة وتدنيس المقدسات، ولم يستطيعوا استعادة رضاها عنهم رغم كل ما بذلوه من جهود وما قدموه لها من قرابين. وتم إبعادهم عن جزيرتهم قبل أن ترضى الربة عنهم ثانية. ولقد حدث ذلك بعد انتصارهم على العامة إذ إنهم قبضوا على سبعمائة منهم وكانوا في طريقهم إلى الإعدام حينما تمكن أحدهم من الفرار، ووصل إلى بوابة معبد الإلهة ديميتر المشرعة وتشبث بكلتا يديه بقبضة الباب. فحاول مطاردوه إبعاده وجره، ولما فشلوا في تحرير قبضتيه قطعوا كفيه، واقتادوه بعيداً، وقد بقيت يداه هناك ملتصقتين بمقبض الباب. وهذا ما أثار غضب الإلهة عليهم.

تلك كانت الطريقة التي عامل بها الإيجينيون بعضهم بعضاً. ولما وصل الأثينيون توجهوا لملاقاتهم على رأس أسطول من سبعين سفينة، ودارت المعركة بين الأسطولين وانتصر الأثينيون. فالتفت الإيجينيون إلى طلب المساعدة من الأرجوس حلفائهم القدماء. لكنهم رفضوا تقديم أي مساعدة لهم، لاستيائهم منهم لاشتراك السفن الإيجينية في الهجوم الذي شنه عليهم كليومنيس الذي استولى على تلك السفن عنوة، ورافقته في اجتياحه لأرجوليس وساعدت في هجوم الإسبارطيين عليهم. وفي هذه المعركة نفسها انضم إلى الإسبارطيين عدد من سفن السيكيون، ولقد فرض الأرجوس غرامة على إيجينا وسيكيون مقدارها ألف تالنت، يدفع كل منهما خمسمئة تالنت. وكان أن أقر أهالي سيكيون بأنهم مخطئون ووافقوا على دفع مبلغ مئة تالنت. وبذلك تمت تسوية الأمر مع

الأرجوس. إلا أن الإيجينيين لم يعترفوا بذلك ورفضوا دفع أي مبلغ وأظهروا الصلف والعجرفة. وهذا ما دفع الحكومة في أرجوس إلى رفض تقديم أي مساعدة لهم، فلم يتم إرسال أي مساعدة رسمية، لكن تطوع ألف رجل وذهبوا إلى إيجينا تحت إمرة أوريباتيس، وهو رجل متمرس في مباريات الخماسي. ولقد قتل معظمهم على يد الأثينيين ولم يعودوا أبداً إلى أرجوس، وتمكن قائدهم في سلسلة من المعارك الفردية من قتل خصمه في المعارك الثلاث الأولى، إلا أنه قتل في المعركة الرابعة على يد رجل من ديميليا يدعى سوفانيس. ولقد استطاع الإيجينيون، فيما بعد، الإيقاع بالأسطول الأثيني في غفلة من حراسه فانزلوا الهزيمة بالأثينيين، واستولوا على أربع سفن بكامل أطقمها من البحارة. وهكذا دارت رحى الحرب بين أثينا وإيجينا. فيما تابع ملك فارس رسم خططه للهجوم على الإغريق. ولم ينقطع أفراد حاشيته عن ترديد «تذكر أثينا»، في حين استمر البسيستراد في بلاطه بالتهجم على مواطنيهم الأثينيين والتشنيع عليهم. علاوة على ذلك، فإن داريوس نفسه كان تواقاً للحصول على مبرر ليغزو المدن الإغريقية التي رفضت أن ترسل ما يدل على خضوعها له من تراب وماء. ونتيجة لإخفاق ماردونيوس في حملته فقد أعفاه من مهامه، وعين قائدين آخرين للجيوش التي اعتزم إرسالها للهجوم على إيرتريا وأثينا، هما داتيس الميدي وابن أخيه أرتفرنيس بن أرتفرنيس، وحملهما الأوامر بجعل سكان أثينا وإيرتريا عبيداً وإحضارهم للمثول بين يديه.

غادر القائدان فارس على رأس جيش جبار حسن التجهيز، واتجها إلى سهل أليان في قليقلية، فعسكروا هناك وانضمت إليهم قوات عسكرية بحرية، كانت جميع سفنها ورجالها من البلدان الخاضعة لفارس التي أمرت بالمساهمة. كما وصلت الجياد التي صادرها داريوس في العام الماضي من الدول التي يفرض عليها الضرائب. وتم نقل القوات إلى أيونيا عن طريق البحر، وكان تعداد سفن الأسطول ستمئة سفينة ثلاثية المجاذيف. لكنهم لم يتبعوا طريق الساحل

من هناك إلى هيلسبونت وتراقية، وإنما انطلقوا من ساموس وأبحروا عبر البحر الإيكاري والجزر. ومن المحتمل أن يكون ذلك مرده خشية القائدين من الإبحار حول أثوس الذي كان السبب في كارثة تحطم الأسطول في الحملة السابقة. ومما زاد في إحجامهم عن الأخذ بهذا المسار فشل الفرس، فيما سبق، في الاستيلاء على ناكسوس، التي غدت الآن هدفهم الأول في الحرب. وحين وصلوا إلى الجزيرة، لم يبد أهلها أي مقاومة، بل هربوا إلى الهضاب، وقد تمكن الفرس من الإمساك ببعضهم وجعلهم عبيداً، وقاموا بإحراق المدينة بأكملها بما في ذلك المعابد. ثم أبحروا للهجوم على جزر أخرى. وإبان انشغال الفرس بهذا الأمر، غادر سكان جزيرة ديلوس جزيرتهم وانتقلوا إلى تينوس، وفيما الأسطول يمخر عباب البحر، أصدر داتيس أمراً إلى جميع السفن بألا ترسو في ديلوس بل في رينايا المقابلة لها. ثم عمل على التحقق من مكان وجود الديليان وبعث لهم برسالة مفادها: «أيها السادة المبجلون، لماذا تهربون؟ ما هذا الرأي الغريب الذي تحملون ويدفعكم إلى التواري؟ من المؤكد أنني أمتلك من الحصافة - دون الحاجة إلى أوامر الملك - ما يكفي لأن أستثني الجزيرة التي ولد فيها أبوللو وأرتميس، وألا أقوم بأي عمل فيه ضرر لها ولشعبها. ولهذا فإنني أرجوكم أن تعودوا إلى بيوتكم وجزيرتكم». وأتبع داتيس رسالته بإحراق ما زنته ثلاثمائة مثقال من البخور في المعبد في ديلوس تقرباً من الآلهة. ثم غادر الجزيرة، وأبحر على رأس قواته متوجهاً إلى إيرتريا، حاملاً معه الأيونيين والأيوليين الذين كانوا خاضعين للفرس.

أكد الديليان أن زلزالاً ضرب الجزيرة بعد مغادرته لها، وأن هذا كان أول وآخر زلزال يصيب الجزيرة حتى يومنا هذا. ومن الجائز أن تكون هذه الهزة من صنيع الآلهة لتحذير الناس من الشر القادم الذي ستعاني منه بلاد الإغريق في المستقبل. فمنذ استلام داريوس بن هيستاسبيس الحكم وعلى مدى ثلاثة أجيال مروراً بابنه أحشويرش وحفيده أرتحششتا. عانت بلاد الإغريق كوارث أكثر مما

عانته خلال عشرين جيلاً قبل حكم داريوس. والواقع أن قسماً من هذه الكوارث كان نتيجة للحروب مع الفرس، في حين أن القسم الآخر كان نتيجة للصراعات الداخلية التي نشبت بين زعمائهم. لذلك ليس من المستغرب أن يضرب الزلزال ديلوس، التي لم يصادف أبداً أن ضربها زلزال من قبل. لكن كانت هناك نبوءة مفادها:

كذلك سأهز ديلوس، تلك التي لم تهتز أبداً.

إن اسم داريوس يعني بلسان الإغريق «العامل» وأحشويرش «المحارب» وأرتحششتا «المحارب العظيم».

بعد ما غادر البرابرة ديلوس، تابعوا تقدمهم بحراً للاستيلاء على الجزر الأخرى، فاخضعوها وجعلوا رجالها في عداد قواتهم العسكرية، وأخذوا أطفالها رهائن لديهم. ووصلوا أخيراً إلى جزيرة كاريستوس التي رفض أهلها تقديم الرهائن أو إمدادهم بالرجال لمحاربة جيرانهم - ويعنون بذلك أهالي أثينا وايرتريا - فقام الفرس بمحاصرة المدينة وإتلاف المحاصيل في الأراضي الزراعية المحيطة بها، فأُجبر السكان على الخضوع والامتثال لأوامرهم.

في غضون ذلك، أدرك أهالي ايرتريا أن الفرس إنما يسعون وراءهم، ولدى وصول أنباء اقترابهم منهم، طلبوا من الأثينيين مساعدتهم، فلم يرفضوا تلبية ندائهم، لكنهم أرسلوا لهم أربعمئة رجل كانوا قد وطنوهم في ممتلكات هيبوباتاي الخاليكيدوني. ومع ذلك، فإن الأمور في ايرتريا لم تكن على ما يرام، إذ رغم استغاثتهم بأثينا فقد اختلفوا فيما بينهم في تصرفهم حيال الفرس، فاقترح بعضهم التخلي عن المدينة واللجوء إلى الهضاب الإيوبوينية، في حين أن بعضهم الآخر، ممن كانوا يتطلعون إلى الحصول على المكاسب من الفرس، كانوا على استعداد لخيانة بلدهم. وحينما وصلت هذه الأمور إلى أسماع أيسخينيس بن نوثون - أحد الرجال البارزين في إيرتريا، أعلم الأثينيين الذين وصلوا للتو بمجريات الأمور، وحثهم على العودة إلى بلدهم قبل أن يتم القضاء

عليهم مع مواطنيه. فعملوا بنصيحته وعبروا إلى أوروبيوس، مما جعلهم في مأمن من الخطر.

أصبح الأسطول الفارسي قاب قوسين أو أدنى منهم، واستولوا على جزر تاميناي وخويرياي وإيجيليا التي تقع في المنطقة الإيرترية. ثم تابعوا سيرهم حتى اقتربوا من مدينة ايرتريا، فأنزلوا الجياد إلى الشاطئ وبدأوا بالتحضير للهجوم. لم يكن الإيرتريون يعتزمون مغادرة تحصيناتهم، والدخول في معركة مع الفرس؛ بل كان همهم الوحيد تنفيذ قرارهم بعدم التخلي عن المدينة والدفاع عن أسوارها، إذا كان بمقدورهم ذلك. وسرعان ما وقع الهجوم، وصمدت القوات المدافعة، ودار القتال ستة أيام، ووقع العديد من القتلى من الجانبين، ولكن في اليوم السابع قام مواطنان مشهوران هما يوفوبيوس بن الكيماخوس وفيلارجوس بن سينياس بخيانة المدينة وإدخال الفرس إليها، الذين قاموا بنهب معابدها وتجريدها من كنوزها، ثم أحرقوها انتقاماً لإحراق معابدهم في سارديس، واستعبدوا جميع السكان وأخذوهم معهم تنفيذاً لأوامر داريوس.

بعد استيلائهم على إيرتريا وقهرهم لأهاليها واستعبادهم لهم، انتظر الفرس عدة أيام ثم أبحروا إلى أتيكا مزهوين بانتصارهم، وهم يعتقدون بأنهم سيتمكنون من معاملة الأثينيين كما عاملوا الايرتريين. ووقع الاختيار على سهل الماراثون لكونه أقرب مكان من أتيكا إلى ايرتريا، علاوة على أنه لم يكن في أتيكا مكان يناسب تحركات الفرسان مثل الماراثون. لهذا قام هيبياس بن بريستراتوس بإرشاد جيش الفرس إلى الماراثون. وحينما وصلت الأخبار إلى الأثينيين حشدوا قواتهم وسارعوا إلى بناء تحصيناتهم وخطوط الدفاع لمواجهة الفرس. وكانت القوات الأثينية تحت إمرة عشرة قواد أحدهم ملتياديس الذي كان والده سيمون بن ستيساجوراس قد نفاه بسيستراطوس بن هيبوكراتيس من أثينا. وإبان وجوده في المنفى حالفه الحظ إذ تمكن من الفوز في سباق العربات التي تجرها أربعة خيول في الأولمبياد، وبذلك نال المكانة نفسها التي

كان يتمتع بها أخوه من أمه ملتياديس. وفي دورة الألعاب الأولمبية التالية فاز بالجائزة للمرة الثانية مستخدماً نفس الأفراس، لكن في هذه المرة تخلى عن فوزه هذا لصالح بزيستراتوس بعد أن تم الاتفاق على إعلان فوز بزيستراتوس مقابل سماح الأخير لسيمون بالعودة إلى أثينا. وفي السباق الأولمبي اللاحق فاز للمرة الثالثة مع نفس الأفراس. وسرعان ما قتله أبناء بسيستراطوس بعد موت أبيهم، إذ أرسلوا بعض الرجال في إحدى الليالي ليكمنوا له بالقرب من مجلس الحكومة حيث قتلوه، ثم دفنوه خارج أثينا خلف مكان يسمى طريق الوادي، ومقابل قبره دفنت الأفراس التي فازت في السباق ثلاث مرات متتالية. لم يكن لهذا النصر المثلث مثيل في الماضي سوى ما حققه إيواجوراس اللاكيديموني مع المجموعة نفسها من الأفراس. حينما مات سيمون، كان ستيساجوراس أكبر أبنائه الاثنين يعيش في خرسونيس مع عمه ملتياديس، أما أصغرهما ويدعى ملتياديس أيضاً تيمناً باسم مؤسس المستوطنة في خرسونيس فكان يعيش مع أبيه في أثينا. وكان ملتياديس هذا هو الذي أصبح الآن قائداً لجيش أثينا. إذ فر مؤخراً من خرسونيس وشارف على الموت مرتين عندما لاحقه الفينيقيون حتى أمبروز لحرصهم الشديد على الإمساك به وتسليمه إلى داريوس، ومرة أخرى، وبعد نجاته من ذلك الخطر ووصوله إلى الوطن الذي يمثل له الأمان، وجد أعداءه بانتظاره وتمت محاكمته لاستبداده في خرسونيس . إلا أنه نجا من هذا أيضاً، وانتخبه الشعب بعد المحاكمة لمنصب القائد.

قبل أن يغادر القواد أثينا ، أرسلوا رسالة إلى إسبارطة، حملها فيديبيدس عداء المسافات الطويلة المحترف. وحينما عاد من مهمته قال للأثينيين بأنه قابل الإله بان بالقرب من جبل بارثينيوم، فوق تيجيا. وأن هذا الإله قد ناداه باسمه وطلب إليه أن يسأل الأثينيين سبب عدم احتفالهم به، بالرغم من الود الذي خصهم به والمساعدات الكثيرة التي قدمها لهم في الماضي والتي سوف يقدمها لهم في المستقبل. ولقد صدق الأثينيون هذه الرواية، ولما تخلصوا من متاعبهم

وعادت أحوالهم إلى الازدهار ثانية، قاموا ببناء معبد للإله بان تحت الأكروبول، وواظبوا منذ أن تلقوا هذه الرسالة على إقامة احتفال سنوي، يجري فيه تقديم القرابين وسباق حملة المشاعل تكريماً لهذا الإله.

أما فيما يتصل بالمناسبة التي نحن بصددها - ألا وهي إرسال القادة لفيديبيدس الذي روى أنه قابل الإله بان - فقد وصل إسبارطة في اليوم التالي لمغادرته أثينا وقابل قادة إسبارطة، وخاطبهم قائلاً: «أيها اللاكيديمونيون، إن الأثينيين يناشدونكم أن تسرعوا لنجدتهم، وألا تسمحوا للبرابرة أن يستعبدوا أقدم مدينة في بلاد الإغريق، هاكم قد استعبدت إيرتريا، وأصبحت بلاد الإغريق أضعف لخسارتها هذه المدينة الرائعة».

وهكذا قام فيديبيدس بالمهمة التي عهدت إليه، وأوصل رسالة الأثينيين إلى الإسبارطيين، الذين أثيرت مشاعرهم ورغبوا في إرسال المساعدة لأثينا، لكنهم كانوا غير قادرين على إرسالها فوراً لأنهم لا يستطيعون خرق قوانينهم. ذلك أن الرسالة وصلتهم في اليوم التاسع من الشهر، والقانون يحرم عليهم الخروج من إسبارطة والاشتراك في القتال قبل أن يصبح القمر بدراً. ولهذا فقد انتظروا اكتمال القمر. وفي غضون ذلك، كان هيبياس بن بريستراتوس يقوم بإيصال البرابرة إلى سهل الماراثون.

في الليلة التي سبقت وصول الفرس إلى المارثون، حلم هيبياس بأنه كان يضاجع أمه، فاعتقد أن هذا الحلم يعني عودته إلى أثينا، واستعادته للسلطة التي فقدها، وأن يعيش في وطنه حتى نهاية حياته. وفي اليوم التالي عندما كان يعمل مرشداً للفرس، قام بإنزال السجناء الإيرتريين في جزيرة إيجليا التابعة لستيرينس، ووجه الأسطول حتى مرساه في الماراثون. وعمل على تنظيم قوات البرابرة بعد نزولهم من سفنهم. وفي أثناء قيامه بهذا، انتابته نوبة عنيفة وغير عادية من العطاس والسعال، ولما كان رجلاً مسناً لم يبق من أسنانه سوى القليل، فقد سقط أحد أسنانه أثناء السعال، ووقع في الرمل، ولم يتمكن من

العثور عليه، بالرغم من جميع الجهود التي بذلها في التفتيش عنه. فالتفت إلى مرافقيه، وأطلق تنهيدة عميقة ثم قال: «هذه الأرض ليست لنا، ولن نستطيع أبداً الاستيلاء عليها، ولن يكون نصيبي منها أكثر من موقع السن الذي فقدته». وهكذا أصبح معنى الحلم واضحاً بالنسبة إليه.

تم ترتيب القوات الأثينية فوق قطعة من الأرض مقدسة في حمى هرقل، ثم انضمت إليهم القوات البلاطية التي قدمت لمساندتهم. وكان هؤلاء قد تنازلوا، في وقت مضى، عن استقلالهم ووضعوا أنفسهم في حمى الأثينيين الذين سبق لهم أن قدموا لبلاطية مساعدات عديدة في مناسبات مختلفة. أما ظروف خضوعهم للأثينيين فإني أفصلها ههنا:

كان البلاطيون يعانون من عدوان أهالي طيبة عليهم، إذ ما انفك هؤلاء يهاجمون بلاطية ويعتدون على أهلها. ولذلك، تفتق ذهن البلاطيين حينما كان كليومنيس بن أناكساندريدس مع الجيش الإسبارطي في جوارهم، عن فكرة أن يضعوا أنفسهم بين يدي الإسبارطيين. إلا أن اللاكيديمون رفضوا ذلك قائلين: «إن المسافة بين بلدينا كبيرة جداً، ولذلك لن نستطيع أن ننجدكم حين تحتاجون إلينا، ومن الممكن أن تتعرضوا للاستعباد مراراً قبل أن يبلغنا نبأكم، ونصيحتنا لكم أن تخضعوا لأثينا فهي جارتكم التي تستطيع تقديم الحماية الحقيقية لكم». ولم يكن مبعث هذه النصيحة محض النية الحسنة تجاه بلاطيه وإنما رغبتهم في زج أثينا في المتاعب بتوريطها في نزاع مع البويوتيين. ولقد اتبع البلاطيون هذه النصيحة وأوفدوا ممثلين عنهم إلى أثينا؛ وبينما كان الأثينيون يقومون بتقديم القرابين للآلهة الاثني عشر، كان البلاطيون معهم بجانب المذبح يتضرعون للآلهة، وعندئذ بادروا بإعلان استسلامهم للأثينيين. فلما سمع أهالي طيبة بما كان من البلاطيين، أرسلوا جيشاً على الفور لمهاجمة بلاطية، فهرع الأثينيون إلى إرسال القوات لنجدتهم، وكاد القتال يحتدم لولا تدخل الكورنثيين الذين صادف وجودهم في الجوار، ولما كان الطرفان قد وافقا على القبول بتحكيمهم،

فإنهم قاموا بفض الخلاف وتثبيت الحدود بين البلدين، شريطة ألا تتدخل طيبة بأي بويوتي لا يرغب بالانتماء للدولة البويوتية، بل تسمح لهم باتباع ميولهم. وبعد التوصل إلى هذه التسوية عاد الكورنثيون إلى وطنهم، وبدأ الأثينيون رحلة العودة، فلحق بهم البويوتيون وهاجموهم بعنف. فكان النصر حليف الأثينيين في المعركة، واستمروا في مطاردة البويوتيين ولم يتوقفوا عند الخط الفاصل الذي وضعه الكورنثيون، بل تابعوا تقدمهم وجعلوا نهر أسوبوس الحد الفاصل بين طيبة من جهة، وبلاطية وهيسيا من جهة أخرى. تلكم هي الظروف التي دفعت أهالي بلاطيه ليكونوا تابعين لأثينا، والتي أدت إلى قدومهم الآن لمساندة الأثينيين في معركة الماراثون.

كان القادة الأثينيون منقسمين بالرأي، بين من ينصح بتجنب المخاطرة بخوض المعركة، نظراً للتفاوت الكبير بين القوات الأثينية القليلة العدد وقوات الفرس الضخمة مما يجعل فرص الفوز لديها تكاد تكون مستحيلة، ومندفع يلح على خوض المعركة فوراً، وكان ملتياديس من بين هؤلاء. ولبعض الوقت بدا أن سياسة التخاذل سيتم تبنيها، لولا تدخل ملتياديس الذي توجه إلى أرخون الحرب (عماد الجيش) لأنه كان له صوت في مجلس الحرب مساو لكل قائد من القواد العشرة، ليتباحث معه. وكان أرخون الحرب في أثينا يعين بالقرعة. وفي هذا الوقت كان كاليماخوس الأفيدني يشغل ذلك المنصب. فخاطبه ملتياديس قائلاً: «أي كاليماخوس، إن مصير أثينا بين يديك، فإما أن تجعلها مستعبدة، أو أن تحفظ لها حريتها، وتترك وراءك للأجيال القادمة ذكرى المجد والفخار الذي يفوق ما تركه هارموديوس وأرسطوجيراطيون فما نجابه من خطر الآن لم يسبق أن جابهنا مثله في تاريخنا. فإذا تركنا رقابنا لنير الفرس، فإننا سوف نعاني كثيراً حينما يستعيد هيبياس السلطة، ولكن إذا ما حاربنا وانتصرنا، فإن مدينتنا هذه ستتفوق على جميع المدن الإغريقية. وإذا ما أردت معرفة كيفية حصول ذلك، وأن حصوله عائد إليك، فإني موضح لك الأمر: إن عددنا نحن

القادة عشرة، ولم نتفق على القرار الواجب اتخاذه فنصفنا يؤيد القتال، ونصفنا الآخر ضده. وإذا أعرضنا عن القتال كانت النتيجة وبالاً علينا، وستخور عزائمنا، وسنرضخ للفرس. أما إذا بادرنا إلى الحرب قبل أن يصل خلافنا إلى أسماع المواطنين، فلن يكون بإمكاننا القتال فحسب. بل الفوز كذلك، إن أنصفتنا الآلهة. إن القرار قرارك، وكل شيء يتوقف عليك، ليكن صوتك للقتال وستكون أثينا حرة، والأولى بين مدن الإغريق. أما إذا ناصرت الذين لا يريدون القتال، فستحرم هذه السيادة وسيكون الأمر غير ما تتوقع تماماً». وبهذه الكلمات استطاع ملتياديس كسب تأييد كاليماخوس وتم اتخاذ قرار القتال، حينما صوت لصالح هذا القرار.

تولى القواد رئاسة الجيش بالتتابع، يوم لكل منهم، ولما جاء دور الذين صوتوا إلى جانب ملتياديس عرضوا تسليمه القيادة بدلاً منهم. فقبل العرض لكنه، على أي حال، لم يباشر القتال إلا عندما حل موعد دوره الفعلي في قيادة الجيش. اتخذ الجيش الأثيني مواقعه على أرض المعركة، وتولى أرخون الحرب قيادة الجناح الأيم وفق تقاليد الأثينيين، ثم كانت القبائل بترتيبها الاعتيادي في خط متصل، وأخيراً شكل البلاطيون الجناح الأيسر. ومنذ معركة ماراثون، اعتاد الأثينيون أثناء تقديم القرابين في مهرجانهم الذي يقام كل خمس سنوات، أن يقوم المنادي بربط اسمي أثينا وبلاطيه في الابتهالات لنيل بركات الآلهة.

اهتم الأثينيون أثناء تنظيمهم لقواتهم بمد خطوطهم الدفاعية لتوازي خطوط الفرس، مما أدى إلى إضعاف القلب إذ إن عمقه لم يتجاوز بضعة صفوف، في حين تم حشد معظم القوات في الجناحين. وانتهى ترتيب القوات، وتقبلت الآلهة القرابين، فأعطيت الأوامر ببدء المعركة، وتقدم الجنود راكضين باتجاه العدو الفارسي، الذي لم يكن يفصله عنهم سوى ثمانية فرلنجات. ولما شاهدهم الفرس استعدوا لمواجهتهم، بالرغم من اعتقادهم بأن قيام الأثينيين بالهجوم وليست

لديهم سوى قوة صغيرة، ودون دعم من الفرسان أو رماة السهام يعتبر جنوناً وانتحاراً. ولقد تقدم الأثينيون واشتبكوا والعدو على طول خطوط القتال، وقاتلوا بطريقة باهرة تستأهل التدوين. وفي حدود معرفتي، كانوا أول الإغريق في تصويب الرماح وهم يركضون، وأول من تجرأ من الإغريق على النظر إلى اللباس الفارسي أو مواجهة الرجال الذين يرتدونه دون أن ينتابهم الذعر، إذ لم يتمكن أي إغريقي، قبل هذا اليوم، من سماع كلمة فارسي دون أن يصيبه الهلع.

استمر القتال بين الفريقين في سهل الماراثون طويلاً. وفي الوسط حيث كانت مواقع الفرس والساكاي، كان النصر للبرابرة الذين استطاعوا اختراق خطوط الإغريق وأزاحوهم من مواقعهم نحو الداخل. أما في الجناحين فقد تمكن الأثينيون والبلاطيون من الانتصار على العدو، وسمحوا للبرابرة المنهزمين أن يلوذوا بالفرار، ثم عملوا على ضم الجناحين إلى بعضهما بعضاً، وانقضوا على الفرس الذين خرقوا خطوطهم في الوسط. وقاتلوهم وانتصروا عليهم أيضاً، ثم عمدوا إلى ملاحقة المنهزمين وقتالهم لاستئصال شأفتهم، وطاردوهم على طول الطريق إلى الشاطئ، واستولوا على بعض السفن وأضرموا النار في بعضها أيضاً. في تلك المرحلة من المعركة قتل أرخون الحرب وهو يقاتل بشجاعة، وكذلك كان مصير ستيسيلايوس بن ثراسيلايوس أحد القواد العشرة. أما سينجيريوس بن يوفوريون فقد ضربت يده بفأس أثناء استيلائه على احدى السفن، فقتل، بالإضافة إلى العديد من مشاهير الأثينيين.

استولى الأثينيون على سبع سفن، إلا أن بقية الأسطول تمكن من النجاة، وعمل الفرس بعد أن أخذوا السجناء الإيرتريين الذين كانوا قد تركوهم في إيجيليا، على الالتفاف حول رأس سونيوم في طريقهم إلى أثينا، التي أملوا أن يصلوها قبل عودة القوات الأثينية. أما في أثينا فقد تم اتهام الألكمنيد باقتراح هذه الخطوة، إذ قيل إنه كان بينهم وبين الفرس اتفاق بهذا الشأن، وكانت

إشارتهم للفرس برفع ترس، بعد أن أصبحوا على ظهر سفنهم.

وفيما كان الأسطول الفارسي يدور حول رأس سينيوم، سعى الأثينيون جاهدين للإسراع بالعودة إلى مدينتهم لإنقاذها من براثن الفرس، ونجحوا في الوصول إليها قبلهم. وكما كان الأمر في ماراثون حينما عسكر الأثينيون في بقعة مقدسة من الأرض في حمى هرقل، كذلك فقد أقاموا معسكرهم الآن في مكان مقدس في كينوسارجيس في حمى الإله ذاته. وعندما وصل الأسطول الفارسي، رسا لفترة من الزمن في فاليريوم وهو المرفأ الرئيس لأثينا، ثم أبحروا عائدين إلى آسيا.

كانت حصيلة معركة الماراثون مقتل ستة آلاف وأربعمائة فارسي. وعلى الجانب الإغريقي مائة واثنان وتسعون رجلاً. ولقد حدث أمر غريب أثناء المعركة، فقد كان أحد الجنود الأثينيين ويدعى أبيريليوس بن كوفاجوراس يقاتل بشجاعة عندما فقد بصره فجأة، بالرغم من أنه لم يمسه سيف أو رمح. وأمضى حياته أعمى منذ تلك اللحظة. وقد سمعت أنه في وصفه لما جرى قال بأنه شاهد رجلاً ضخماً يرتدي درعاً ثقيلاً، ولحيته الكثة تحجب ترسه، يقف قبالته إلا أنه تجاوزه، وقتل الرجل الواقف بجانبه.

في طريق عودته إلى آسيا على رأس جيشه، توقف داتيس في ميكونوس. وفيما هو نائم رأى حلماً - لم يتم التعرف على فحواه - فأصدر أوامره منذ الفجر الباكر بتفتيش جميع السفن، فعثر على تمثال أبوللو في إحدى السفن الفينيقية وقد وضعت فوقه القطع الذهبية لإخفائه، فاستعلم عن المكان الذي سرق منه والمعبد الذي كان فيه، فأخذه وأبحر على متن سفينته إلى ديلوس، وأعاده إلى المعبد هناك. وفي ذلك الوقت كان الديليان قد عادوا إلى جزيرتهم. وتمت إعادة التمثال إلى ديليوم وهو مكان في منطقة طيبة، يقع على البحر قبالة خاليكس، وبعد ذلك غادر داتيس ليعود إلى أسطوله. إلا أن الديليان لم يتمكنوا من استعادة التمثال في ذلك الوقت، بل بعد عشرين عاماً حينما أعاده أهالي

طيبة، بعد سماعهم نبوءة العرافة.

أما بالنسبة إلى الإيرتريين الذين استعبدهم داتيس وأرتفرنيس، ورحلوا من بلادهم، فإنهم نقلوا إلى سوسة بعد أن وصل الأسطول إلى آسيا. وكان الملك داريوس يشعر بالغضب الشديد من أهالي إيرتريا لأنهم آذوه دون مسوغ، ولكن عندما مثلوا بين يديه أذلاء مقهورين، زال غضبه، ولم يزد في عقوبتهم، بل أمر بتوطينهم في منطقة تدعى أرديريكا تقع في سيسيا، على بعد مئتين وعشرة فرلنجات عن سوسة، وأربعين فرلنجاً عن بئر ينتج ثلاث مواد مختلفة؛ وهي القار والملح والنفط، ويتم استخراج السائل بالقادوس، وبدلاً من الدلو يستخدمون نصف زق يثبت إلى إحدى نهايتي الحبل، ويتم إنزاله إلى البئر وحينما يمتلئ بالسائل يخرجونه، ويصب هذا السائل في حوض، ثم ينقل إلى حوض ثان ثم ثالث وبذلك يتم فصل المواد الثلاث عن بعضها بعضاً. ويتصلب كل من القار والملح ويبقى النفط سائلاً ويسمى باللغة الفارسية راديناكي، وهو سائل أسود اللون ذو رائحة وخازة كريهة. ولقد تم توطين الإيرتريين فعلاً في أرديريكا، واستمروا في العيش هناك، وما زالوا يتحدثون بلغتهم الأصلية إلى يومنا هذا.

حينما اكتمل القمر بدراً، بدأ ألفا إسبارطي رحلتهم إلى أثينا. وكانوا متلهفين للوصول في الوقت المناسب، حتى إنهم قطعوا المسافة بين إسبارطة وأثينا في وقت قصير، إذ أصبحوا في أتيكا في اليوم الثالث لمغادرتهم. وعلى أية حال، فقد وصلوا متأخرين، لكن رغبتهم في رؤية الميديين كانت قوية لدرجة أنهم ذهبوا إلى الماراثون لمعاينة الجثث. وبعد أن تم لهم ذلك ـ ذهبوا إلى أثينا حيث كالوا المديح للأثينيين للإنجاز الذي حققوه، ثم قفلوا عائدين إلى وطنهم.

لقد أدهشني كثيراً، ذلك التقرير الذي لم أستطع تصديقه، والذي يقول أن الألكمنيد كانوا متواطئين مع الفرس وأنهم رفعوا الترس إشارة للفرس، ورغبة منهم في إخضاع أثينا لنير البرابرة والطاغية هيبياس. إن مسيرة الألكمنيد تظهر أنهم مناوئون للطغاة ويكنون لهم كراهية لا تقل عن كراهية كالياس بن

فينيبوس ووالد هيبونيكوس لهم. وكان هذا هو الوحيد في أثينا الذي تجرأ على شراء ممتلكات البسيستراد عندما عرضت للبيع بعد طردهم من أثينا. كذلك اتبع الرجل شتى السبل لإظهار ما يكنه لهم من عداء شديد. وكان رجلاً لا يمكن أن ينسى، وذلك لأنه لم يبز الآخرين في الدفاع عن حرية بلده فحسب، بل بالجوائز التي فاز بها في الألعاب الأولمبية أيضاً. وكان الفائز بجائزة سباق الخيل، وكان ترتيبه الثاني في سباق العربات التي تجرها أربعة خيول، كما فاز في وقت سابق في مباريات البيثيان. علاوة على أن جميع الإغريق اعتبروه شخصاً كريماً لا مثيل له في البذل والجود. وكانت معاملته لبناته الثلاث مثار إعجاب الناس وتقديرهم، إذ لما أصبحن في سن الزواج قدم لكل واحدة منهن بائنة سخية جداً، وسمح لهن باختيار أزواجهن من بين مواطني أثينا ووافق على زواجهن ممن اخترنه.

إلا أن هذا الرجل لم يبز الألكمنيد في كراهيتهم للطغاة وحكمهم الاستبدادي، ولهذا فقد أصابني الذهول عندما سمعت الاتهام الموجه ضدهم، لأنني لا أستطيع أن أحمل نفسي على تصديق أنهم تواطؤوا مع الفرس ضد بلدهم وحريته. إذ إنهم كانوا منفيين طوال الفترة التي دام فيها الحكم الاستبدادي، وكان لهم الفضل في المكيدة التي أطاحت بعرش البسيستراد. والواقع أنني أعتبرهم محرري أثينا، فما قاموا به فاق ما قام به كل من هارموديوس وأرسطوجيتون، ذلك أن قيامهما بقتل هيبارخوس لم يؤد إلى التخلص من الحكم المطلق، بل أثار غضب عشيرة البسيستراد، دون تعريض طغيانهم للخطر بأي حال من الأحوال. في حين أن الألكمنيد هم المحررون الحقيقيون لأثينا، إذا صح أنهم قاموا بدفع رشوة لعرافة دلفي لتستمر في إخبار اللاكيديمون بأن عليهم تحرير أثينا. ولربما كان بالإمكان القول بأنهم قاموا بخيانة بلدهم لاستيائهم من الأثينيين. إلا أن الحقيقة أنهم كانوا موضع احترام الجميع وتقديرهم. ولهذا فمن غير المنطقي أن نفترض أنهم أعطوا

الإشارة لسبب كهذا. لقد رفع الترس، وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها، لكن فيما يتصل بحقيقة من قام بهذا العمل فليس بمقدوري أن أضيف شيئاً لما قلته سابقاً.

كان الألكمنيد من الأسر البارزة في أثينا منذ زمن بعيد، لكن أصبحت لهم الصدارة منذ أيام ألكميون وميجاكليس من بعده. فلقد قام ألكميون بن ميجاكليس بتقديم كل ما بوسعه من مساعدة إلى الليديين الذين أرسلهم كرويسوس من سارديس لاستشارة العرافة في دلفي، وعندما أعلم الليديون كرويسوس بما أحاطهم به ألكميون من اهتمام ورعاية، دعاه إلى ساردیس، فلبى الدعوة، وعندما وصل كافأه بأن عرض عليه أن يأخذ من الذهب قدر ما يستطيع أن يحمل فوق جسده ولمرة واحدة. ففكر ألكميون بطريقة بارعة للاستفادة من هذا العرض الخارق، فارتدى رداء طويلاً فضفاضاً جداً يشد بحزام عند الخصر، ولبس أكبر حذاء استطاع العثور عليه، ودخل غرفة الخزينة التي قاده موظفو الملك إليها، وهو يرتدي هذه الملابس. وهناك حشا فردتي حذائه حتى أعلى ساقيه بالذهب، وملأ ثوبه به، ونثر التبر فوق شعره، ووضع بعض الذهب في فمه، وخرج وهو يترنح ويكاد لا يستطيع أن يجر قدميه إلا بصعوبة، وكان منظره بخديه المنتفخين وقوامه المتضخم أبعد ما يكون عن مظهر البشر. فلما رآه كرويسوس انفجر ضاحكاً ولم يكتف بأن يعطيه ما كان يحمله من ذهب، بل قدم له هدايا تعادلها أيضاً. وهكذا وجدت أسرة ألكميون نفسها غنية فجأة، وكان له أن يحتفظ بالخيول التي فاز بها في سباق العربات الأولمبي.

وفي الجيل الثاني ازدادت الأسرة شهرة وعلا صيتها فوق ما كان لها بسبب ما خصهم به كليستنيس حاكم سيكيون الطاغية من تكريم. فقد كان لدى كليستنيس بن أرسطونيموس بن ميرون بن أندرياس، ابنة تدعى أجاريستا، ويرغب في تزويجها إلى أفضل رجل في بلاد الإغريق، فأعلن أثناء مهرجان الألعاب الأولمبية التي فاز فيها بسباق العربات، أن على أي إغريقي يرى نفسه أهلاً لأن يكون له صهراً أن يحضر إلى سيكيون خلال ستين يوماً، لأنه يعتزم

أن يختار لابنته زوج المستقبل خلال سنة تلي فترة الستين يوماً. فجاء كل إغريقي لديه ما يفخر به سواء بنفسه أو ببلده. وكان كليستنيس قد أعد لهم مضماراً للسباق وحلبة للمصارعة. ومن سايبارس الزاهرة في إيطاليا جاء سميندريدس بن هيبوكراتيس، الذي عرف بالثراء ورغد العيش. ومن سيريس في إيطاليا أيضاً، جاء دماسكوس بن إميريس الملقب بالحكيم. وكان هناك أمفيمنيستوس بن إبيستروفوس آتياً من إبيدام في خليج أيونيا، وماليس من أيتوليا وهو أخو تيتورميوس أقوى رجال الإغريق، الذي اعتزل الناس وذهب للعيش في مكان قصي في أيتوليا. ومن البيلوبونيز جاء ليوسيدس بن فيدون طاغية أرجوس الذي أدخل نظام الوزن والقياس إلى البيلوبونيز، وطرد الإيليين الذين كانوا يديرون الألعاب الأولمبية وباشرها بنفسه. واميئتوس بن ليكورجوس من طرابيزوس في أركاديا، ولافاتيس وهو أزاني من بيوس، ويقال إن أباه إيوفوريون قد استضاف في بيته الديوسكوري، ثم أقام مضافة لكل قادم. وأونوماستوس بن أجيوس قادماً من إيليس. ومن أثينا جاء ميجاكليس بن ألكميون الذي زار بلاط كرويسوس، وهيبوكليدس بن تيساندر أغنى رجال أثينا وأوسمهم. وليسانياس من إيرتريا التي كانت في ذلك الزمن في أوج ازدهارها، ومن تساليه جاء دياكتوريدس، وألكون من مولوسيان. تلكم هي قائمة الخطّاب.

عندما وصل جميع الخطّاب، وجاء اليوم الموعود، بدأ كليستنيس بسؤال كل منهم عن اسمه ونسبه وبلده وأسرته ثم استضافهم في بيته سنة كاملة، لتتوطد معرفته بهم، وكان يشترك معهم في الحوار، فرادى أحياناً، وجماعة أحياناً أخرى. ويختبر صفاتهم ومزاجهم وثقافتهم وسلوكهم، وكان يصطحب الشباب منهم إلى الألعاب الرياضية لكن أكثر الاختبارات أهمية كان سلوكهم على مائدة الطعام. وقد استضافهم طوال هذه الفترة بكثير من الكرم. ولسبب من الأسباب كان الشابان الأثينيان هما اللذين تركا أحسن انطباع لديه، وكانت الأفضلية لهيبوكليدس بن تيساندر لما يتمتع به من صفات فاضلة ولصلة القربى التي

تربطه بأسرة سيبسيلوس الكورنثية منذ أجيال خلت.

وفي النهاية حل اليوم المحدد لإعلان الخطوبة وتعيين الرجل الذي وقع عليه الخيار. ولقد جعل كليستنيس هذا اليوم مميزاً بتقديم مئة ثور قرباناً للآلهة، ثم أقام مأدبة عظيمة، دعا إليها الخطّاب، وكل ذي مكانة في سيكيون. وبعد انتهاء العشاء، بدأ الخطّاب في التنافس في الموسيقا والتحدث في موضوعات معينة، واستطاع هيبوكليدس أن يبز الجميع بسهولة في الأمرين. وبعد أن شرب الكثير من النبيذ، طلب من عازف الناي أن يعزف له لحناً وبدأ يرقص على أنغامه ببراعة مشهودة. ولما شاهد كليستنيس ما يجري أخذت تراوده الشكوك بجدارة هيبوكليدس بأن يكون صهره. وبعد توقف قصير عن الرقص أرسل هيبوكليدس في طلب طاولة ولما أحضرت، اعتلاها ورقص فوقها بعض الرقصات اللاكونية ثم تبعها ببعض الرقصات الأتيكية، ثم وقف على رأسه وطوح برجليه في الهواء. وبالرغم من أن كليستينيس بات الآن ينفر من أن يكون لديه صهر كهذا لرقصه وتهتكه؛ إلا أنه، مع ذلك، تمالك نفسه أثناء الرقصتين، لكن لما رآه يطوح برجليه في الهواء، لم يعد قادراً على احتمال المزيد، فصاح: «يا بن تيساندر قد رقصت فأضعت زيجتك». فأجاب: «إن هيبوكليدس لا يأبه». فذهب قوله مثلاً. ثم طلب من الجميع التزام الصمت وخاطبهم قائلاً: «أيها السادة، إنكم هنا خطّاباً تطلبون يد ابنتي وإنني أحمل لكم جميعاً أسمى التقدير، لذلك فإن اصطفاء أحدكم ورفض البقية ليس بالأمر اليسير، ولقد كان يسرني، لو استطعت أن اتخذكم جميعاً أصهاراً، فلا اضطر لاختيار أحدكم وأعرض عن بقيتكم، ولما كان ذلك متعذراً لأنه ليس لي سوى ابنة واحدة أمنحها لزوج المستقبل. لذلك سوف أمنح كل من لم يقع الخيار عليه تالنت فضة تقديراً للشرف الذي منحني إياه، حينما أراد التقرب من أسرتي، وتعويضاً له عن غيابه الطويل عن بلده. وإنني وفق القانون الأثيني أعلن خطوبة ابنتي أجاريستا إلى ميجاكليس بن ألكميون». فأعلن ميجاكليس قبوله بتلك الخطوبة. وتم استكمال إجراءات الزواج.

تلك كانت قصة اختيار الخطّاب، وعلى هذا النحو أصبحت أسرة ألكميون حديث بلاد الإغريق قاطبة. وكان وليد هذا الزواج كليستثنيس (وقد سمي كذلك تيمناً باسم جده حاكم سيكيون) الذي نظم القبائل الأثينية وأقام الديموقراطية في أثينا. وقد أنجب ميجاكليس ولداً آخر هو هيبوكراتيس، الذي أنجب ولداً سماه ميجكليس وبنتاً سميت أجاريستا تيمناً باسم جدتها، وقد تزوجت خوثيبيوس بن أريفرون. وحينما حملت حلمت بأنها ستلد أسداً وبعد ذلك ببضعة أيام أنجبت بيركليس.

بعد معركة الماراثون زاد إعجاب الأثينيين بملتياديس وتعاظم نفوذه. ولما طلب منهم أسطولاً من خمسين سفينة بالإضافة إلى الجند والأموال، دون أن يخبرهم بالبلد الذي سيهاجمه بل اكتفى بالقول بأنه سوف يجعلهم أغنياء إذا ما تبعوه، إذ إنه يعرف مكاناً يستطيعون الحصول منه على الكثير من الأموال، فجرفهم الحماس، وقدموا له كل ما طلبه من مال ورجال وسفن. فأبحر بقواته إلى باروس. وكان السبب الظاهر للهجوم الانتقام من الباريين الذين اشتركوا مع الفرس في معركة ماراثون، حين رفدوا أسطول فارس بسفينة ثلاثية المجاذيف لكن هذا لم يكن سوى ذريعة لإخفاء هدفه الحقيقي وهو الرد على ليساجوراس بن تيسياس الباري المولد الذي كان قد شنع عليه عند هيدارنيس الفارسي.

حينما وصل إلى الجزيرة تمترس الباريون وراء حصونهم فحاصرهم ملتياديس، وأرسل يطالبهم بغرامة قدرها مئة تالنت، مهدداً إياهم بأنه سيستمر في حصارهم حتى تسقط المدينة إن لم يدفعوا الغرامة. لكن الباريين لم يكن في نيتهم الاستجابة لمطالبه بل أظهروا براعة في الدفاع عن المدينة، واحتالوا بأن زادوا في ارتفاع السورأثناء الليل ليبلغ ضعف ارتفاعه الأصلي في جميع أجزائه التي يمكن أن تتعرض للهجوم.

تلكم هي الرواية التي يتناقلها الإغريق، أما التتمة فمصدرها شهادة الباريين

أنفسهم. ولما أُسقط في يد ملتياديس، جاءت إحدى السجينات وهي امرأة تدعى تيمو، وهي كاهنة متدنية المرتبة في معبد ربات الأرض، وطلبت الالتقاء به، واقترحت عليه أن يتبع نصائحها، إذا ما كان يريد الاستيلاء على باروس. وعرضت عليه اقتراحها، قام ملتياديس بالذهاب إلى الهضبة الواقعة خارج المدينة، حيث يوجد مقام ديميتر. وبعد أن عجز عن فتح باب السياج الذي يحيط بالمقام، عمد إلى القفز فوقه واتجه فوراً نحو المقام، وربما كان في نيته العبث ببعض الأشياء المقدسة المحرم لمسها أو القيام بأي شيء آخر بها. وعلى أي حال، فإنه عندما وصل إلى باب المقام أصابته نوبة مفاجئة من الارتعاش، وهرع عائداً من الطريق نفسها التي سلكها في قدومه. وحينما قفز عن السور وقع وكسرت عظام فخذه، ويقول البعض إن ركبته انسحقت. وهكذا عندما عاد إلى أثينا كان في حال يرثى لها، وكل ما حققه بعد ستين يوماً من الحصار هو تخريب المحاصيل في الريف، بعدما فشل في الاستيلاء على الجزيرة، وعاد إلى بلده خاوي الوفاض.

لما اكتشف الباريون ما فعلته تيمو أرادوا معاقبتها، ولذلك ما إن تم فك الحصار حتى أرسلوا إلى دلفي لمعرفة ما إذا كان يحق لهم إعدامها لإفشائها للعدو معلومات ربما أدت إلى خراب بلدها، ولأنها كشفت لملتياديس أسراراً لا يسمح لأي رجل معرفتها. فأجابتهم عرافة دلفي أن تيمو ليست مذنبة في هذه الجرائم، وأنه كان مقدراً لملتياديس أن ينتهي هذه النهاية، وكل ما قامت به أن تتظاهر حتى تقوده إلى المشاكل.

ولدى عودة ملتياديس إلى أثينا، وكان قد أصبح حديث المدينة، رفع الكثيرون أصواتهم في انتقاده، وكان أبرزهم خوثيبيوس بن أريفرون الذي انتقده علانية وأحضره ليحاكم أمام الشعب لسلبه المال العام، وهي جريمة عقوبتها الإعدام. وبالرغم من أن ملتياديس كان حاضراً في المحكمة، إلا أنه كان عاجزاً عن الكلام دفاعاً عن نفسه لإصابة رجله بالغرغرينا، وقد مدد على إحدى الأرائك

وقام أصدقاؤه بالكلام نيابة عنه، وأشاروا إلى خدماته السابقة التي أسداها للوطن. فكان لديهم الكثير ليتحدثوا به عن معركة الماراثون وعملية الاستيلاء على ليمنوس، مذكرين بمعاقبته للبلاسجة وإخضاعه الجزيرة لسيطرة أثينا. فكان حكم الشعب الإبقاء عليه، وتغريمه مبلغ خمسين تالنتاً. بعيد ذلك بزمن قصير استفحلت الغرغرينا مما أدى إلى موته، ودفع ابنه سيمون الخمسين طالناً.

كانت الحوادث التي أدت إلى استيلاء ملتياديس على ليمنوس هي التالية:

أجبر الأثينيون بعض البلاسجة على مغادرة أتيكا. وليس من الواضح ما إذا كانوا محقين في ذلك أم لا، وكل ما أستطيع القيام به هو عرض رواية. هيكاتيوس ين هيجيساندر، الذي يخطئ في تاريخه الأثينيين ملقياً عليهم الذنب فيما وقع. فالأثينيون عنده، قدموا للبلاسجة الأرض لقاء بنائهم سوراً حول الأكروبول. وكانت تلك الأرض التي تقع عند سفح جبل هيميطوس سيئة بخسة غير صالحة. فقام البلاسجة باستصلاحها فتبدلت وأصبحت خصبة. وعندما رأى الأثينيون ما آلت إليه تلك الأرض أصبحوا تواقين لاسترجاعها، فقاموا بطرد المستوطنين وأخلوهم منها قسراً، أما الأثينيون فيدعون أنهم لم يظلموا البلاسجة، بل يذهبون إلى القول أن البلاسجة اعتادوا مغادرة مستوطنتهم وتعقب فتيات أثينا عندما يذهبن لجلب المياه في الينابيع التسعة. إذ لم يكن لدى الأثينيين أو الإغريق الآخرين عبيد ليخدموا في البيوت في تلك الأيام، وأن بناتهم قد اعتدن الذهاب لجلب المياه. فيتعرض لهن البلاسجة ويتحرشون بهن. علاوة على أنهم تآمروا على أثينا وأرادوا شن الحرب عليها. وينفي الأثينيون عن أنفسهم الذنب إذ لم يكن منهم الأمر بالرحيل، بدلاً من قتلهم جراء ما قاموا به من جرائم. فرحل البلاسجة إلى أتيكا واستقروا في أماكن أخرى كانت ليمنوس من بينها.

بعد أن استقر البلاسجة في ليمنوس لفترة من الزمن، بدأوا بالتفكير بالثأر من الأثينيين. ولقد أفادوا من معرفتهم بأعياد أثينا واحتفالاتها، فجهزوا بعض

السفن وأبحروا باتجاه براورون، ليفاجئوا الأثينيات وهن يحتفلن بعيد أرتميس، فأغاروا عليهن بغتة وقبضوا على بعضهن ثم قفلوا عائدين إلى ليمنوس معهم تلك الغنائم، واتخذوهن خليلات. وقد أنجبن عدداً كبيراً من الأطفال، عملن على تربيتهم ليسلكوا مثل الأثينيين ويتكلموا بلهجة إغريق أتيكا. ومع أن الصبية كبروا إلا أنهم لم يخالطوا أبناء البلاسجيات، وكانوا يعاضدون بعضهم بعضاً عندما يتعرض أحدهم للضرب من الأولاد البلاسجة. بل إنهم توهموا أنهم أسياد الآخرين واستطاعوا أن يسيطروا عليهم. فبدأ البلاسجة يفكرون بالأمر، ويحاولون التوصل إلى حل لهذه المعضلة، ولاسيّما أن هؤلاء الذين يتعاضدون ويصممون على أن يسودوا على أبنائهم الشرعيين مازالوا صغاراً، ولذلك بدأوا يتخوفون مما سيفعلونه حينما يبلغون مبلغ الرجال. فقرروا قتل أطفال النساء الأثينيات، فقتلوهم ثم قتلوا أمهاتهم. وكانت هذه الجريمة، بالإضافة إلى الجريمة التي سبقتها عندما قتلت النساء في ليمنوس أزواجهن في أيام ثواس أصل عادة الإغريق في الإشارة إلى أي جريمة منكرة بأنها «عمل ليمنوسي».

وكان من شأن هذه الجرائم أن قلّت المحاصيل في ليمنوس وتناقصت الولادات ولم تعد الماشية على تكاثرها بالسرعة التي كانت عليها، وكانت معاناة أهل الجزيرة بعدئذ شديدة من نقص المؤن وتناقص السكان. ولما تفاقمت الأحوال واشتد العسر قصد القوم دلفي يسألون النصيحة للخروج من هذه الشدة. فنصحتهم الكاهنة بقبول ما يشاء لهم الأثينيون من العقاب فأخذوا بالنصيحة ومضوا إلى أثينا معلنين قبولهم بما يشاء الأثينيون تكفيراً عن جريمتهم. ولقد استقبلهم القوم في مجلس المستشارين، وهم جلوس على أريكة مفروشة بأثمن قماش، وبجانبها طاولة مغطاة بالنفائس، وطلبوا من البلاسجة يومئذ أن يسلموهم أرضهم وهي في مثل هذه الحال. فرد البلاسجة: «لسوف يكون ذلك يوم تقطع سفينة المسافة من أتيكا إلى ليمنوس، وهي مبحرة في ريح شمالية، في يوم واحد. وكانوا يعلمون أن هذا مستحيل لبعد أتيكا، وهي جنوب

ليمنوس. وظل الحال كما هو، حتى صادف، بعد سنوات عديدة، حين أصبح الخيرسونيس تحت سيطرة أثيني، أن قطع ملتياديس بن كيمون، الرحلة بين إيليس في خيرسونيس إلى ليمنوس في يوم واحد. فلما وصل أمر البلاسجة بمغادرة الجزيرة، مذكراً بالنبوءة التي كانوا متأكدين من أنها لن تتحقق. ولقد أطاع أهل هفايستيا؛ أما في مرينا فلم يكن هناك من سلم بأن خيرسونيس جزء من أتيكا، فأحكم حصارها حتى اضطرت للاستسلام. وهكذا كان دخول لمنوس في ملك الأثينيين، بمساعدة ملتياديس.

الكتاب السابع[1]

بوليهيمنيا

كـان لأنبـاء مـعـركـة الماراثون أشـد الوقـع على ملك الفـرس داريوس بن هايستاسبيس، فقد ثار وغضب لما انتهت إليه، واشتدت نقمته على أثينا فوق ما كانت عليه بعد هجومها على ساردیس، فأصبح أشد تصميماً على مهاجمة بلاد الإغريق. وأسرع في إرسال مبعوثيه إلى مختلف الولايات التي تدخل في ملكه يطلب منها إمداده بجيش أضخم من سابقه، بالإضافة إلى توفير السفن لأسطوله ووسائط النقل والخيول وإمداده بالحبوب. وهكذا دارت أوامر الإرادة الملكية، وعلى وقعها أرعدت آسيا بما فيها. وظلت على هذه الحال طوال ثلاث سنوات انقطع فيها الناس لتجهيز الجيوش والأساطيل والإعداد للحرب، وتطوع لخوضها الشجعان والصناديد من الرجال. وفي العام التالي [٤٨٧ قبل الميلاد] قامت في مصر التي أخضعها قمبيز ثورة لم يكن من شأنها إلا أن تزيد من تصميم داريوس على شن الحرب ليس على بلاد الإغريق فحسب، بل على مصر أيضاً.

كانت الاستعدادات للحملتين قد اكتملت والجيشان على وشك التحرك حين نشب صراع عنيف بين أبناء داريوس حول ولاية العرش وخلافة الملك؛ وما أثار هذا النزاع هو أن شرعة فارس تنص على أن يكون للملك وريث قبل توجهه مع الجيش للقتال. أما تفصيل الأمر فهو أنه كان لداريوس قبل صعوده إلى العرش ثلاثة أبناء أنجبهم من زوجه الأولى ابنة جوبرياس، وأربعة آخرون ولدتهم له، بعد تسلُّمه صولجان الملك، أتوسا بنت قورش. وكان البكر بين هؤلاء الأبناء أرطبازان وأكبر أبنائه من أتوسا أحشويرش وبين هذين دار النزاع، فاستند أرطبازان في ادعائه بحق ولاية العهد إلى حقيقة أنه ابن داريوس البكر، وما

تواضعت عليه الأمم على أنه من حق الولد البكر ولاية العهد، أما أحشويرش فرد بأنه الأجدر، لأنه ابن أتوسا بنة قورش محرر الفرس. وبينما كان داريوس يقلّب الأمر على وجوهه، ولما يبلغ قراره بعد، وصل إلى سوسة ديماراتوس بن أريسطون المخلوع عن عرش إسبارطة، وقد اختار حياة المنفى، وتقول الرواية إنه لما سمع بالخلاف بين أبناء داريوس ذهب إلى أحشويرش وأشار إليه أن يدعم حججه بالإشارة إلى أنه ولد وأبوه على العرش، بينما ولد أرطبازان حينما لم يكن أبوه قد تولى أي منصب بعد. وإذن فإنه ليس من العدل والإنصاف في شيء أن يتولى العرش أحد غير أحشويرش. وذهب ديماراتوس في تدعيم حجته إلى أن العرف جرى في إسبارطة ذاتها على أن يخلف أباه في الحكم الابن الذي ولد بعد تولي أبيه للعرش دون سواه من الأبناء، الذين ولدوا والأب لم يكن قد تولاه بعد. فأخذ أحشويرش بهذا الرأي وعرضه في معرض الإدعاء أمام داريوس فرأى فيه وجاهة، فأقره ولياً للعهد. وأعتقد أن داريوس كان سينصب أحشويرش خلفاً له حتى بدون تلك النصيحة من ديماراتوس، وذلك بتأثير النفوذ العظيم الذي كانت تتمتع به أتوسا. وهكذا كان أن أعلن أحشويرش وريثاً للعرش، وتفرغ داريوس، من ثم، لأمر الحرب. إلا أن الموت اختاره قبل أن تكتمل استعداداته لها فمات في السنة التالية لتلك الواقعة وقيام الثورة المصرية، بعد أن استمر ملكاً ستة وثلاثين عاماً، فحرم من فرصته لعقاب المصريين والأثينيين. وخلفه على العرش ابنه أحشويرش[٢].

إن أحشويرش لم يكن معنياً في بداية عهده بغزو بلاد الإغريق، وإنما كان جل اهتمامه يومذاك بناء جيش يتوجه إلى مصر؛ لكن ماردونيوس بن جوبرياس وأخت داريوس، وبالتالي ابن عمة الملك- الذي كان من حاشية القصر، وأكثر الناس نفوذاً لدى أحشويرش، لم ينقطع عن التحدث في هذا الأمر. فكان يقول للملك: "مولاي، لقد ألحق الأثينيون بنا ضرراً عظيماً والعدل يقضي بأن ينالوا عقاباً على جرائمهم بحقنا. ولا بأس في أن تنجز الأمر الذي أنت فيه، ولكن إذا

ما انتهيت من ترويض مصر كان عليك أن توجه جيشاً إلى أثينا وتكسر شوكتها. فإن فعلت كللت هامتك بالغار ونلت المجد ودوى اسمك في أرجاء العالم أجمع؛ ولسوف يتمهل من يفكر في غزو بلادك في المستقبل كثيراً قبل أن يقدم على المغامرة". وكان ماردونيوس يزين له أمر الغزو بالإشارة إلى مبلغ جمال أوروبا، وما تحفل به من الأشجار من كل نوع وضرب، وأرض خصبة لا يجدر بأي إنسان، سوى ملك الفرس، أن يحوز عليها. ولقد كان حافز ماردونيوس لحض الملك على توجيه حملة إلى بلاد الإغريق نزوعه إلى المؤامرة والمغامرة وطموحه إلى ولاية تلك البلاد. وما زال الرجل يحث أحشويرش على غزو تلك البلاد حتى مال إلى المحاولة، وقد ساعده في ذلك تضافر عدة أحداث يسرت عليه القرار. فقد جاء موفدون من اليواد في تساليه (اليواد الأسرة الحاكمة في تساليه) يدعون أحشويرش لغزو البلاد، متعهدين بتقديم الدعم لحملته. وكان البسيستراد في سوسة قد فاتحوه في هذا الأمر، بل وكانوا أشد من اليواد في الحض على الغزو، و فوضوا في الحديث أحد الأثينيين ويدعى أونوماكريتوس، وكان شاغله جمع النبوءات، وهو الذي رتب نبوءات موسايوس واختصرها. وكان للبسيستراد حوادث مع أونوماكريتوس هذا، قبل مجيئهم إلى سوسة؛ وكان هذا الرجل قد أبعد من أثينا على يد هيبارخوس لإقحامه مقاطع من أقوال موسايوس في نبوءة تقول بأن الجزر قبالة ليمنوس سوف تغرق تحت الماء – وقد ضبطه لاسوس الهرميوني وهو يقوم بتزوير النبوءة؛ وكان قبل إبعاده من أثينا صفياً لهيبارخوس. ومهما يكن من أمر الرجل فما يعنينا منه هو رحيله إلى سوسة، ثم تصالحه مع البسيستراد الذين أخذوا كلما حضروا وإياه مجلس الملك، يعظمون من شأنه وينسبون إليه الكرامات ويوردون من نبوءاته الشيء الكثير. وكان يحرص إذا ما نقل نبوءة على أن يهمل منها ما يشير إلى نكسة تصيب الفرس، فيختار المقاطع التي تنبئ بأعظم الانتصارات، فيذكر لأحشويرش أن القدر قد شاء لجيشه أن يعبر آسيا ويدخل بلاد الإغريق. وهكذا

كان أن رضخ ملك فارس، الذي كان عرضة لضغط مزدوج، تمثل في نبوءات أونوماكريتوس من الجهة الأولى، ونصائح البسيستراد واليواداي من الجهة الأخرى، وأخذ يتهيأ لغزو بلاد الإغريق. ولقد افتتح عهده، بعد عام من وفاة داريوس بتوجيه جيش لقمع العصاة في مصر فدحرهم وقضى عليهم، وما إن تمكن من البلد ورضخت له حتى جعل أهلها في حال من العبودية لم يعرفوا مثلها في أي عهد من العهود السالفة، وأقام أخاه أخمينيس والياً عليها، والذي قتل فيما بعد، وهو على ولايته، على يد ايناروس الليبي، ابن بسميتاك.

دعا أحشويرش، البارزين في بلده، بعد انتصاره في مصر، وهو يتهيأ ليكون على رأس الحملة على أثينا، للتداول فيما ينبغي أن يكون أمرهم في الحرب، ويبين لهم مقاصده ومراميه. فلما التأم المجلس خاطب الحضور بقوله: " لا يحسبن أحدكم، يا رجال فارس، أننا آتون بجديد فيما اعتزمناه وانتدبناكم له. وإن لنا نحن معشر الفرس نهجاً خاصاً في حياتنا، وقد ورثناه عن أسلافنا، وإنا لننصحكم بأن تثابروا على هذا النهج فلا تحيدوا عنه. ولقد علمنا من الحكماء أننا منذ أن أطاح قورش باستاجيس وانتزعنا السلطان من الميديين لم نتقاعس في أمر قط. تلك هي مشيئة الله وباتباعها بلغنا هذه النعم. ولستم بالذين يذكّرون بماضينا، فأنتم أدرى بالأمور العظيمة التي أتى بها قورش وقمبيز ووالدنا داريوس وما أضافوا إلى إمبراطوريتنا. ولقد كنا نقلب الأمور منذ أن تولينا العرش، ورأينا أنه يجدر بنا ألا نتخلف عمن كانوا قبلنا من الملوك، بل الأحرى أن نزيد في منعة إمبراطورية فارس ما وسعنا. فوجدنا أخيراً ما يمكننا من أن نفوز لفارس لا بمجد جديد وحسب وإنما ببلد لا يقل عن بلادنا مساحة وثراء – بل الحق أنه أشد ثراء وغنى من هذه البلاد – ونحقق ثأراً في الوقت ذاته. ذلكم هو، إذن، الأمر الذي دعوتكم إليه، فنكشف لكم ما اعتزمنا عمله. فلسوف نوجه جيشاً ليعبر مضيق الهليسبونت إلى بلاد الإغريق ومن ثم أوروبا، فيعاقب الأثينيين على جرائمهم التي أتوا بها في حق والدنا وحقنا

جميعاً. ولقد وجدتم داريوس يعد بنفسه العدة لشن الحرب على هؤلاء القوم، وكان مقدماً عليها، لولا أن حال الموت دونه وهذا الهدف. ولن يهدأ لنا بال حتى نقضي هذا الأمر لوالدنا ونحقق لرعايانا ما هو لصالحهم كافة، فنستولي على أثينا ونجعلها هشيماً جزاء وفاقاً على ما ألحقه الأثينيون بنا وبوالدنا إثماً وعدواناً. فلقد جاء هؤلاء إلى ساردييس مع أرستاجوراس الميليسي، وكان من أرقائنا، كما تذكرون، فأحرقوا المعابد وغياضنا المقدسة؛ وأنتم أدرى، بعد، بمعاملتهم لجنودنا وعلى رأسهم داتيس وارتفرنيس حين نزلوا على الأرض الإغريقية. لذلك أعددنا للحرب عدتها، وإنا حين نظرنا في الأمر وجدنا في هذا المشروع فوائد عدة؛ ومن ذلك أننا حين نهزم الأثينيين وجيرانهم الفريجيين في البيلوبونيز نحقق مدى أوسع لملك فارس حتى تبلغ حدود السماء، فلا تغيب الشمس بعد اليوم عن ملكنا. ولسوف نمضي بعدئذ، بعونكم، إلى أوروبا فتكون لنا من أقصاها إلى أقصاها، وتغدو بعد هذا اليوم موحدة. وإذا صدق ما بلغنا فلن تكون هناك مدينة أو بلدة تتمنع علينا، متى أزحنا هؤلاء عن طريقنا. وهكذا ستجدون الآثم والبريء عبيداً لكم. وإذا شئتم مرضاتنا فعلى كل منكم أن يحضر بإرادته وبقلب خالص ويقدم نفسه إلينا في الموعد الذي نحدد؛ ومن يأتي برجاله وهم في أحسن عدة وعتاد، سينال منا المكانة الممتازة بين مواطنينا. ذلك ما يتوجب عليكم أن تفعلوا في هذا الأمر الذي عزمنا عليه؛ ولئلا نقع تحت تأثير الأهواء فإنا نعرض مشروعنا للنقاش الصريح، ونسأل كل رجل منكم يشاء أن ينهض معنا بهذا الأمر أن يدلي برأيه." وكان أول المتحدثين، بعد الملك، ماردونيوس، فبدأ بالقول:" أنتم يا مولاي أعظم من ظهر في فارس أو سوف يظهر. فبالصدق نطقتم وكنتم الأوضح بياناً، وليس من شأنكم أن تدعوا هؤلاء الأيونيين الأذلاء في أوروبا يستخفون بنا. وإنه لأمر يثير القشعريرة في أبداننا أن نعجز عن كسر الإغريق الذين ألحقوا بنا الأذى، دونما استفزاز منا، ونحن الذين قهرنا الساكاي والهنود والأثيوبيين والآشوريين، وهم لم يأتوا بإثم نلومهم

فأنزلنا بهم الهزائم واستعبدناهم لتتوسع حدود إمبراطوريتنا، وليس لأمر آخر. فهل هناك ما نخشاه منهم ؟ أهي جيوشهم الجرارة ؟ أم ثروتهم الضخمة؟ إن السؤال لسخيف؛ فنحن أدرى بنهجهم في القتال؛ وندري مبلغ ضآلة ثرواتهم. ولقد أخضعنا أقواماً منهم، وما زالوا يخضعون لنا - عنيت الإغريق الذين يعيشون في آسيا، الأيونيون والأيوليون والدوريون. ولقد خبرت هؤلاء يوم غزوت أرضهم بأمر من والدكم، وبلغت حتى بلاد المقدون، بل وأطراف أثينا ذاتها، فلم أجد جندياً واحداً يعترض جيشنا. ومع ذلك فقد علمت من أمرهم أنهم على قدر من الرعونة والتهور ما يجعلهم يندفعون للقتال حين تستبد بهم النزوة، دون تدبير أو روية تبرر القتال. وهم عندما يتحاربون فيما بينهم يمضون معاً إلى أكثر الأماكن استواء، ثم يخوضون معركتهم - وبذلك فإنه حتى الطرف المنتصر يخرج بالكثير من الخسائر، أما المهزوم فينتهي بالفناء التام. وقد يقول القائل إنه حري بهؤلاء القوم ولهم لسان مشترك أن يجدوا وسيلة أفضل لحسم الخلافات فيما بينهم، كأن يتفاوضوا أو يتباحثوا في أسباب الخلاف، أو أي أمر آخر، سوى اللجوء إلى السلاح؛ أو لعلهم، إذا تعذر تفادي القتال يعملون بأصول الإستراتيجية فينشدون الموقع القوي لينطلقوا منه للقتال. وفي جميع الأحوال لم يكن ليخطر ببال الإغريق، بما لهم من أفكار خرقاء عن فن الحرب أن يعترضوا طريقي وأنا أقود جيشي إلى بلاد المقدونيين. وإذن، فمن الذي يمكن أن يعترض طريقكم، يا مولاي، وأنتم تمضون إليهم وملايين آسيا وراءكم وأسطول فارس إلى جانبكم؟ وإني لأصدقكم القول إنه ليس من طبع الإغريق المجازفة. ولكن إن أخطأت التقدير وكانوا هم على قدر من الحماقة ليدخلوا معنا في معركة، فسيعلمون عندئذ أننا أفضل الجنود في العالم. ومع ذلك اسمحوا لي أن آخذ هذا الأمر بالجد الذي يستحقه ولا أداري لتطمئن النفوس: إن الفوز في هذا العالم لا يأتي بسهولة،ولا شيء ينال دون غلاب ". ولقد يسرت عبارات ماردونيوس على الجمع قبول ما عرضه أحشويرش، فلما انتهى من حديثه كان

الصمت مخيماً على المؤتمرين. ولم يكن هناك لبرهة من يجرؤ على عرض رأي غير ما بلغهم من الملك، إلى أن استجمع أرطبانوس شجاعته معتمداً على صلته به، فهو ابن هايستاسبيس وبالتالي عم أحشويرش، فقام ليقول كلمته: إن لم يكن هناك نقاش يعرض لجانبي الموضوع، يا مولاي، تعذر علينا اختيار الطريق الأفضل، وإلا ما كان للمرء إلا أن يقبل بما عرض أمامه. إما إذا أفسحتم المجال للنقاش وجدتم أمامكم عدداً من الخيارات لتتدبروا ما تواجهون. والذهب لا يعرف، يا مولاي، بالنظر وحسب، وإنما علينا أن نمتحنه بالذهب، وعندئذ نملك أن نعرف أيهما الأصفى. ولقد حذرت والدكم، وهو أخي داريوس، من مهاجمة السكيث، أولئك القوم الذي لا يقيمون في مدن. ولكنه صم أذنيه ولم يصغ للنصيحة؛ وإذ غلبت عليه الثقة بقدرته على كسرهم فهاجم بلادهم، ثم عاد وقد خلف وراءه العدد الغفير من الجنود البواسل الذين ساروا في ركابه. أما أنتم، يا مولاي، فقصدكم أن تهاجموا قوماً يفضلون السكيث بما لا يقاس: قوماً ذاع صيتهم لبأسهم في القتال، في البر والبحر. وإن الواجب ليحملني على أن أبين لكم ما ينبغي أن تحذروا منهم: قد ذكرتكم أنكم تعتزمون عبور مضيق الهليسبونت ووسيلتكم في ذلك جسر، من ثم تمضون عبر أوروبا إلى بلاد الإغريق. فلنفترض، إذن، وليس هذا بمستبعد، أنكم عانيتم نكسة في البحر أو البر، أو كليهما. فهؤلاء الإغريق مقاتلون أشداء، كما يقال، وهذا ما يمكن للمرء أن يستخلصه من كون الأثينيين قد تمكنوا منفردين من كسر الجيش الكبير الذي زججنا به ضدهم بقيادة داتيس وأرتفرنيس أو لعلكم تفترضون إن شئتم أنهم ربما تمكنوا من جزء واحد وحسب من قواتنا – لنفترض أن الإغريق اعترضوا أسطولنا ثم دحروه، وتابعوا طريقهم إلى الهليسبونت ودمروا الجسر: إنكم لسوف تجدون أنفسكم حينئذ في وضع خطير حقاً. وإني إذ أعرض عليكم هذه الاحتمالات لا أعتمد على حكمة خاصة بي تحملني على هذا النقاش، وإنما أعتمد على وقائع سابقة أتت بالكوارث، ومثلها كاد أن يؤدي إلى هزيمتنا هزيمة

ماحقة حينما أقام والدكم جسراً وعبر البوسفور من ناحية تراقيا والدانوب ليتوغل وجيشه في بلاد السكيث. وإنكم تذكرون بلا ريب كم بذل الأيونيون ليدمروا جسر الدانوب، وكيف كان لهيستيايوس، طاغية ملطية، أن ينزل الخراب بفارس باتباع نصيحة طغاة أيونيا الآخرين، بدلاً من معارضتهم. وإنه لأمر يثير الفزع في النفس أن يسمع المرء، مجرد السماع، أن مصائر الملك كانت تتوقف على رجل واحد. لذلك ترونني أناشدكم، يا مولاي، أن تصرفوا النظر عن هذا الأمر؛ وخذوا بمشورتي ولا تجازفوا هذه المجازفة الرهيبة، وليس هناك من ضرورة تفرضها. فاصرفوا هذا المجلس؛ ثم أمعنوا النظر في الأمر وتدبروه بالروية، وإذا بلغتم قراركم، أعلنتموه. فليس هناك ما هو أهم للإنسان من أن يرسم خططه بعناية وروية وإحكام: فلئن جرت الرياح بما لا يشتهي وعملت القوى التي لا يملك سيطرة عليها وخيبت مسعاه، رضيت نفسه إذ علم أن المصادفة هي التي هزمته؛ أما إذا اندفع إلى مواقع الخطر ثم أفلح بتصريف الحظ، فذلك يكون من أمر الحظ، فعلاً، ومع ذلك فإنه لابد أن يرزح تحت وطأة العار الذي تأتي به المعرفة بأنه كان قد قصّر في الإعداد لهذا الأمر. وأنتم تعلمون، يا مولاي، أن الإله ينزل غضبه على الكبار، دون كل مخلوقاته، ضيقاً بكبرهم وتيههم. أما الصغار فلا يأبه بهم. فالعمارات والأشجار العالية هي التي تستهدفها الصواعق. وذلك شأنه في خفض الكبير المتعالي. وكم من جيش عظيم دحره جيش صغير، لأن الإله إذا غضب على قوم بث في قلوبهم الفزع، أو أرسل عليهم عاصفة، أو بدد شملهم على غير ما يتوقعون. ذلك أنه اختص بالكبر ولا يطيقه من المخلوقات. واعلموا، بعد، يا مولاي، أن العجلة أمُّ الفشل- وثمن الفشل دائماً باهظ؛ والمكسب كل المكسب في التأني. وقد لا يظهر المكسب فوراً، ولكنه وافد إلينا حتماً في حينه. تلكم، يا مولاي، نصيحتي أبذلها لكم. أما أنت يا ماردونيوس بن جوبرياس، فحذار من التهوين من شأن الإغريق فتغمطهم حقهم؛ فامسك لسانك عن قول الترهات فيهم. فإنك بالتشنيع على

الإغريق تزيد من تلهف الملك على شن الحرب عليهم، وإني لأرى أن هذا عين ما تسعى إليه وتتوق. سألت الإله أن يقينا هذه الحرب! والتشنيع أمر خطير. ففي التشنيع طرفان مخطئان؛ ولكن أحدهما هو الذي سيعاني. فمن يشنع مخطئ لأنه يأتي بقول السوء في غياب الطرف الآخر؛ والمستمع إليه مخطئ أيضاً إذا أخذ بكلامه دون تمحيص. ومعاناة المستهدف بالتشنيع مضاعفة – لما ناله من عبارات ذلك الذي أخذه على هذا النحو، مرة، وتصديق مستمعه بأنه على نحو ما وصف، مرة أخرى. وبعد، إذا لم يكن هناك من سبيل لتفادي هذه الحملة على بلاد الإغريق، فاسمحوا لي أن أعرض أمامكم رأياً أخيراً. فأقول ليبق الملك في فارس، ولنضع أبناءنا رهاناً، ولكم أن تبدأوا مغامرتكم بمن تشاؤون من الرجال، فإذا انتصر الملك، كما تعدون، فإني أرضى بأن يذبح أبنائي وأنا بينهم؛ أما إذا تحققت توقعاتي، فليبذل أبناءكم حياتهم، ولتبذلوا حياتكم أنتم أيضاً – إن بلغتم بلادكم بعد هذا. ولعلكم لا ترضون بهذا الرهان، ثم لربما ثابرتم على الإلحاح على توجيه حملة إلى بلاد الإغريق. إذن فإليكم نبوءتي: لسوف يأتي يوم يسمع فيه الناس النبأ بأن ماردوينوس هو الذي جلب الكارثة لفارس، وأن جثته تنهش فيها الكلاب والكواسر في مكان ما من بلاد الأثينيين أو الإسبارطيين – إن لم يكن على قارعة أحد الطرقات هناك. فتلك هي طريقكم لتعرفوا معدن القوم الذين تحثون الملك على شن الحرب عليهم". ولقد أثارت تلك العبارات الغضب في نفس أحشويرش وغلت مراجله. وكان أن رد على تلك الخطبة، قائلاً: " إنك يا أرطبانوس شقيق والدنا، وهذا وحده قد أنقذك من دفع الثمن الذي يستحقه خطابك الحافل بالرعونة والخاوي من المعنى. ولكن ما أظهرت من الجبن ووهن العزيمة لن يمر إلا وقد مرغت نفسك بالعار. فاعلم إذن أنك لن ترافقنا في زحفنا على بلاد الإغريق – بل لتبق هنا مع النساء، أما نحن فلسوف ننجز كل ما وعدنا دون معونة منك. فإن قصرت عن عقاب الأثينيين ما كنت جديراً بأن أكون ولد داريوس بن هايستاسبيس بن أرساميس أريرامينس بن تيسبيس بن قورش

ابن قمبيز بن تسبيس بن أخمينس . فإننا نعلم علم اليقين أن الأثينيين لا ريب قادمون لغزونا إن لم نبادرهم نحن بالردع. وحسب المرء أن يستقرئ سجل أفعالهم في الماضي ليعرف ما يبيتون لنا من سوء الأعمال: فهؤلاء القوم هم من زحف على آسيا وأحرق ساردیس. والتراجع لم يعد ممكناً لأي منا: فإن لم نستبقهم بالضربة تلقيناها نحن بلا ريب. فإما أن يكون للإغريق كل ما هو ملكنا، أو يكون ملكهم للفرس. ذلكم هو الخيار المتاح أمامنا، وفي العداوة بيننا لن تجدوا طريقاً وسطاً. وإذن فإن من الحق أن نثأر لأنفسنا لما نالنا في الماضي من الشر والأذى؛ ولا ريب بأننا سنعرف طبيعة الشر الذي سيلحق بنا، إذا زحفنا على هؤلاء القوم الذين قهرهم البيلوبز، الفريج، وهم مجرد عبيد أرقاء عند ملوك الفرس، وما زال الناس والبلد ينسبون إلى من قهرهم."

وهكذا انتهت الخطابات في ذلك المؤتمر، ولكن إذ حل المساء أخذت كلمات أرطبانوس تتداعى إلى خاطر أحشويرش فتثير فيه الشكوك والمخاوف من أن تنتهي الحملة على بلاد الإغريق إلى غير ما يشتهي ويرغب. وقر رأيه في النهاية على أن يصرف النظر عنها، واستسلم بعدئذ للنوم. ويروي الفرس أن الليل لم يكن قد انصرم بعد. حينما راوده الحلم، فرأى خيال رجل طويل القامة ذا مهابة ووقار يقف عند طرف سريره ويخاطبه: "أيها الفارسي، أفتحول عقلك عن توجيه الجيش إلى بلاد الإغريق، بالرغم من إعلانك عن التعبئة لقومك؟ لقد أخطأت القرار، وإذا استمريت بذلك فإني لن أغفر لك هذا. فهيا ثابر على الدرب الذي اخترت البارحة." ولما انتهى صاحب الخيال من مقالته طار واختفى. وفي الصباح كان أحشويرش قد نسي أمر الرجل الذي زاره في الحلم، فاستدعى إليه من حضر مجلس الأمس، وخاطبهم بهذه العبارات: "أستميحكم العذر، أيها السادة، إذ تجدوننا قد خرجنا الآن بقرار غير ما أعلناه بالأمس. فلم نكن قد استوعبنا الحال كما يجب، ولا كان من يدفعون بنا إلى هذه الحرب يدعوننا لخلوة نقلب فيها الأمر على وجوهه كافة. ولقد ثارت فينا حمية الشباب لحظة

حين سمعنا كلمات أرطبانوس، فتفوهنا بحقه بما لا ينبغي لفتى أن يخاطب به من يتقدمونه سناً. غير أننا نقر الآن بأن ما قاله هو الحق، ولسوف نأخذ بمشورته. واعلموا، إذن، أننا لن نشن حرباً على الإغريق، وأننا على السلام مقيمون."

ابتهج الفرس لهذا النبأ وانحنوا أمام مولاهم علامة الطاعة والتسليم؛ ولكن الحلم راود أحشويرش من جديد في الليلة التالية، ورأى الرجل ذاته واقفاً بجانب سريره، ثم يتحدث إليه بالعبارات التالية: "إذن فقد أعلنتها صراحة، يا بن داريوس، أمام أتباعك أنك قد عزفت عن السير بحملتك، واستخففت بما قلت، وكأنما لم أقل شيئاً قط. فلأخبرك الآن بما سيكون إن لم تنهض إلى هذه الحرب في التو واللحظة: فكما نلت المجد والسلطان في لحظة كذلك سوف تسقط في لحظة إلى الحضيض وسوء المقر. فاحذر وتبصر." ولقد فزع أحشويريش من هذا الحلم فهب من سريره، وأرسل يستدعي أرطبانوس إليه. فلما حضر بادره بالقول: "حينما عرضت مشورتك الحسنة وجدتني أضيق بها ففقدت رباطة الجأش ورددت عليك رد السفه والحمق. ثم إذ تمالكت زمام نفسي وأخذت أتبصر في الأمر أدركت عندئذ أن الحق فيما قلت، وهو ما ينبغي أن يكون قراري. غير أن أموراً عرضت لي تحول دون العمل بما تشير، وإن كنت أجنح إلى رأيك. ذلك أنه منذ أن تحولت عن السير في طريق الحرب راودني حلم ما انفك يؤرقني ولا يدع لي أن أمضي في السير على هدى مشورتك. وقد حمل إليّ النذير في آخر حلم بكارثة سوف تحل بي. وإذا كانت إرادة الآلهة أن نغزو الإغريق، فإن هذا الحلم سيتجلى لك أنت أيضاً. وأرى أن ذلك يكون إن ارتديت ملابسي وجلست على عرشي ونمت في فراشي." إلا أن أرطبانوس رأى أنه ليس مما يليق أن يجلس على العرش فاعتذر، ولكن أحشويريش ما زال به حتى اضطر في النهاية للامتثال لرغبته- إنما بعد أن قال له: "باعتقادي، يا مولاي، أن استعداد المرء للإصغاء للنصيحة الطيبة يجعله كصاحب الحكمة سواء

بسواء. وأنتم طبعاً تملكون الفضيلتين معاً؛ ولكنكم سهوتم عن سواء السبيل بتأثير من صحبة أهل السوء. فنصيحتهم لكم أشبه بهبوب الرياح إذ تفسد على البحر هدوءه- ولولا اضطراب أحواله لكان أنفع ما على الأرض لنا. أما أنا فلم يسئني ما قلتم في حقي بقدر ما ساءني أن أجدكم تختارون، حين عرض أحد الخيارين، أحدهما الذي يرضي فينا الغرور والكبرياء وتعرضون عن الآخر وهو ترياق قوامه أنه من الخطأ أن نحمل القلب على أن يسير على عكس ما ارتضته له الطبيعة، فرأينا أنكم جنحتم إلى الرأي الذي من شأنه أن يوردكم والبلاد موارد التهلكة. وها أنتم تميلون الآن إلى طريق أفضل؛ غير أنكم تفيدونني بأن خيالاً بات يزوركم في الأحلام، منذ أن تخليتم عن مشروع الحرب على الإغريق، وهو مقيم ولن يغادركم إلا أن تعودوا إلى الحرب. وتحسبون، يا بني، أن هذا الحلم وحي من إله من الآلهة. غير أن الأحلام لا تصدر عن الآلهة وإني أقول لكم، وأنا الشيخ الذي يتقدمك في السن سنوات وسنوات، أن هذه رؤى تلوح لعينيكم وأنتم نيام؛ فهذه الخيالات الجوالة تكاد تكون انعكاسات لما كان يشغل بالكم طوال اليوم؛ وقد كنا منشغلين طوال الأيام التي سبقت الحلم في التداول في أمر الحملة، كما تعلمون. ومع ذلك فقد لا يكون تفسير الحلم على وجهه الصحيح كما ذهبت أنا في التفسير؛ وقد يكون من وحي قوة إلهية حقاً- ولعل ما عرضتم يا مولاي هو الصواب؛ فليظهر هذا الخيال لي إذن، كما ظهر لكم، وليبلغني منه ما يأمر به. وإذا شاء هذا الخيال أن يظهر لي فلن يعنيه إن كنت أرتدي ملابسكم أم ظللت على ملابسي، أو كنت نائماً في فراشكم أم في فراشي أنا. فلا ريب أن هذا الشبح الذي يراودكم في أحلامكم، ليس على هذا القدر من الحمق ما يجعله يخلط بيني وبينكم لمجرد أني ارتديت ملابسكم. ولكن، ولنضع أمر الثياب جانباً، إذا شاء هذا الخيال أن يعرض عني، لأني لست بغيته، فلا يظهر لي، ثم شاء أن يعاودكم- فلننتظر، ولسوف نعلم شيئاً من أمره! ذلك أنه إن كان يكثر من زيارتكم فلسوف لا يكون لي من مناص سوى الإقرار

بأنه وحي من الإله إليكم يوحي بما يشاء ويريد. "أما إذا كان قراركم قد استقر على أمر ولا أملك أن أصرفكم عنه: أي إذا كان لابد لي من النوم في فراشكم، فأمركم مطاع، وإني لمتثل له، ولنرَ إن كان هذا الخيال سيظهر لي. ولكن إلى أن يكون ذلك سأظل على ما عرفتم". ومضى أرطبانوس ففعل كما أُمر، وهو يبغي أن يثبت لأحشويرش خطأه. فارتدى ثياب الملك، وجلس على كرسي الملك؛ ثم خلد للنوم في فراشه. فرأى في منامه الخيال ذاته الذي زار الملك في أحلامه، مخيماً بظله فوق الفراش. وابتدره قائلاً: "أهذا أنت الرجل الذي يثير المخاوف في قلب الملك ويحاول أن يثنيه عن شن الحرب على الإغريق؟ إن عقابك محتم، ولن تفلت منه، إن عاجلاً أم آجلاً، جزاء لمحاولتك معاكسة ما يجب أن يكون؛ أما أحشويرش فقد أنذر وهو عالم بما لابد أن يناله إن عصى أمري". ولما انتهى من قوله هم بأرطبانوس يريد كيَّ عينيه بقضيبين من الحديد المحمى، فانتفض وهب من نومه، وهو يرتعش وهرع إلى أحشويرش. وجلس على حافة فراشه، عندئذ، وشرع يروي له الحلم بالتفصيل، وانتهى بالقول: "لقد رأيت كما رأى سواي رجال آخرون، يا مولاي، ممالك قوية تنهار أمام ممالك دونها قوة وجبروتاً. وهذا ما حملني على أن أقيك من الانسياق وحماس الشباب فالخطر يكمن في الرغبات التي لا تشبع؛ إن ذكرى حملة قورش على الماساجيتاي وغزو قمبيز لأثيوبيا وما انتهتا إليه ما زالتا ماثلتين أمامي. حقاً، أفلم أرافق داريوس في حملته على السكيثيين؟ إن ذكرياتي عن تلك الكوارث لتحملني على الإعتقاد بأن العالم سيقول فيك إنك السعيد إن عشت في سلام وحسب. ولكني أعلم الآن أن الإله قد أخذ الأمور بيديه؛ ولما كانت السموات العلى ستنزل على ما يبدو الخراب ببلاد الإغريق فلا أملك إلا الاعتراف بخطأ تقديري. فدونكم أهل فارس، وليعلموا بأمر الرؤى التي ظهرت لنا كما شاء لها الإله أن تظهر؛ وليعدوا للحرب عدتها كما سبق أن أمرتم، ولتقوموا بنصيبكم كاملاً فيها، طالما أن الإله قد عرض لكم هذه الفرصة العظيمة."

وهكذا اطمأنت نفس كل من أرطبانوس وأحشويرش الآن لما لاح لهما، فأوليا الحلم كل ثقتهما. وكان أن نهض الملك واستدعى إليه أعوانه، مع أول خيوط الفجر، وعرض لهم الأمر؛ أما أرطبانوس الذي كان يناهض فكرة الحرب علانية وسراً، فقد أصبح مؤيداً لشنها بذات القدر من الحماس والصراحة. ولقد راود أحشويرش، بعد أن اتخذ قراره بالقتال، حلم ثالث، فشاور الكهنة المجوس في مغزاه، فكان رأيهم أن الحلم يحمل بشائر بغزو العالم وخضوعه التام لفارس. فقد صور له الحلم بأنه مكلل بتاج من أغصان الزيتون، التي انتشرت لتغطي الأرض كلها ، وإذ بتاجه يختفي فجأة عن رأسه. ولما تم تفسير المجوس للحلم على الوجه الأحسن، هرع نبلاء الفرس الذين حضروا مجلس الملك، كل إلى بلده، والأمل يحدوهم بأن ينالوا العطايا التي وعد بها أحشويرش، ولا يألون جهداً في الإعداد بنصيبهم للحرب، بينما أخذ - أحشويرش - يعمل نهباً في كل جزء من القارة لتمويل حشده من الجيوش. ولقد استغرقت تعبئة القوات وتخزين المؤن في المستودعات وتجهيز ذلك الجيش العرمرم أربع سنوات، ولما أشرفت الخامسة على نهايتها، بدأ أحشويرش مسيرته على رأس ذلك الحشد العظيم. والحق أنه كان جيشاً لم نشهد له مثيلاً من الضخامة، دونه جيش داريوس في حملته على السكيث، والجمع العظيم الذي سار به السكيث واجتاحوا بلاد الميديين وتعقبوا السميريين، وأخضعوا أعالي آسيا كلها، فدانت لهم الأقوام. (وكانت هذه الإغارة هي التي حملت داريوس على الهجوم عليهم، انتقاماً لما أتت به أيديهم). وكان ذلك الحشد أضخم بما لا يقاس بحملة الألترِيداي على طروادة، أو حشود الميسان والتيوقران الذين قاموا قبل حرب طروادة بعبور البوسفور متجهين إلى أوروبا، فعبروا تراقيا ثم نزلوا إلى ساحل الأدرياتيكي واندفعوا حتى نهر البنيوس جنوباً. ولقد كانت هذه الجحافل كلها مجتمعة دون الجيش الذي قاده أحشويرش. أفكانت هناك أمة في آسيا ولم يسر بها إلى بلاد الإغريق؟ أهناك جدول أو غدير، عدا الأنهار العظيمة، لم تنهل منه

تلك الجحافل حتى جف ماؤها؟ كان من تلك الأمم من قدم السفن، وأخرى وحدات المشاة؛ كذلك طلب من بعضها توفير الفرسان، والخيول والدواب وأطقهما من بعضها الآخر؛ كما طلب من بعض الأمم، بعد، توفير السفن لاستخدامها في مد الجسور المتحركة أو المؤن والسفن والقوارب من مختلف الأصناف.

ويما أن الأسطول السابق أصيب بكارثة بالقرب من جبل آتوس، فإن الاستعداد لهذه الحملة استمر ثلاث سنوات. فنزل أسطول من السفن الطويلة ذات المجاديف الستة عند جزيرة إيلايوس بالقرب من شبه جزيرة الخيرسونيس،ومن هذه القاعدة نُقل الجنود، الذين أسهمت بتقديمهم الأقوام على اختلافها، على دفعات إلى آثوس، حيث عهد إليهم بفتح قناة تحت الجلد بالسياط. كذلك اشترك سكان آثوس في هذا العمل. وكان المشرفان على هذا المشروع هما بوباريس بن ميجابازوس وأرتاخاييس بن أرتايوس. أما بالنسبة إلى جبل آثوس فهو جبل شاهق الارتفاع ذائع الصيت ويمتد إلى البحر، وهو مأهول، وفي هذا المكان حيث ينتهي الجبل مشكلاً شبه جزيرة توجد، ويعنق عرضه ميل ونصف وأرض مستوية تتخللها تلال منخفضة، تمتد عبر البحر عند أكانثوس حتى تورني في الجهة المقابلة للبحر. وتقوم فوق هذا البرزخ وحيث ينتهي آثوس بلدة سانة الإغريقية، أما على الجبل ذاته فتوجد في الجنوب ديوم وأولوفكسوس وأكروثوم وثيسوس وكليوناي، وهي البلدات التي أراد أحشويرش أن يحول أهلها إلى سكان جزر. وهاكم وصف العمل في شق القناة: قسمت الأرض إلى أجزاء عُهد بها إلى العمال من مختلف الأمم الذين قسموا العمل فيما بينهم على خط يبدأ من سانه حتى ممر كورنثه فكان إذا بلغ الخندق عمقاً معيناً حمل العمال التراب إلى فريق آخر ثم تابعوا أعمال الحفر، بينما يقوم أولئك العمال الذين تسلموا التراب بحمله إلى جماعة أخرى تتناوله وتسلمه بدورها، بعد، إلى جماعة أخرى حتى تبلغ أعلى الحفرة حيث يلقى بها هناك.

وكانت الجماعات كافة من الأقوام المشاركة في أعمال شق القناة تضطر للعمل بشكل مضاعف، من أجل توسيع جانبي الحفرة ثم رفع التراب، ماعدا الفينيقيين الذين برزوا في أعمال القناة، كما في الأعمال الأخرى التي كُلفوا بتنفيذها. وكان شأنهم هنا أن حفروا القسم المعهود إليهم بضعف النسب الموضوعة للقناة بشكل مخروط يضيق عند أسفل الخندق، فكانوا يحفرون ويهيلون التراب فوق الجوانب، حتى تصبح قاعدة القطاع المعهود لهم مساوية لعرض القطاعات الأخرى. وقد أقيم لهؤلاء العمال مكان للقاء وسوق في مرج بالقرب من موقع العمل، جُلبت إليه مقادير كبيرة من القمح المطحون من آسيا. ولست أملك بعد أن قلبت الأمر على وجوهه مغالبة الاستنتاج بأن ما حمل أحشويرش على حفر القناة إنما هو الرغبة في استعراض جبروته أمام الملأ ولتكون تلك القناة أثراً تذكره الأجيال من بعده. ذلك أنه لو شاء أن تعبر سفنه ذلك الممر وترسو عند اليابسة لما واجه في ذلك أي قدر من الصعوبة؛ لكنه شاء أن يشق قناة تصل البحر بالبر وتتسع لمرور سفينتين من السفن الثلاثية المجاذيف في آن واحد. كذلك عُهد إلى العمال أنفسهم الذين شقوا القناة بإقامة جسر على نهر الستريمون، فيما كانت هناك أعمال أخرى غير تلك تجري على قدم وساق، منها صنع الحبال من البردي وألياف الكتان الأبيض للجسور، مما عهد به أحشويرش إلى الفينيقيين والمصريين؛ وقد أقام في تلك الأثناء مستودعات للمؤن لتدبر معيشة الإنسان والحيوان في هذا الجيش، فلا يواجه مشكلة الجوع أثناء الزحف إلى بلاد الإغريق، واختير لها أفضل المواقع بعد كثير من الدراسة والاستطلاع، بعدما نقلت من مختلف البلاد في آسيا على ظهر السفن التجارية. وكانت أكثر المؤن قد جلبت من موقع على ساحل تراقيا يدعى ليوكي - أكتيه (الرأس الأبيض)؛ كما أقيمت مستودعات أخرى في تيروديزا في منطقة بيرينثيان، ودوريسكوس وأيون على نهر الستريمون، وكذلك مقدونيا .

وهكذا سار العمل في هذا المشروع، بينما حشد الجيش العظيم، بما ضم

من الجنود من مختلف بلدان القارة ليشاركوا في الحملة، في كريتالا في كبادوكية، لينطلقوا من ثم بقيادة أحشويرش باتجاه سارديس. ولست أدري أي من حكام الأقاليم الفرس قد فاز بالعطايا التي وعد بها الملك لمن يقدم أفضل القطعات إعداداً؛ بل ولست أعلم إن كان هذا الأمر قد حسم. ولقد عبر هذا الجيش نهر خالص، ثم مضى فدخل بلاد إقليم فريجيا وتابع طريقه إلى مدينة كيلاينيا، وهنا منابع نهر الماندر ونهر آخر بحجمه يدعى كاتاركت الشلال، وهو ينبع من أرض ساحة السوق في كيلاينيا ثم يلتقي بالماندر؛ وفي هذه الساحة يعرض القوم جلد مارسياس السيلينوسي الذي تقول عنه أسطورة فريجية أن أبوللو سلخ جلد مارسياس ونشره معلقاً في ساحة السوق. وهنا في كيلاينيا كان أحد الليديين، ويدعى بايثيوس، ابن أتيس، في انتظار أحشويرش، فاستضافه وجيشه، وأحسن الضيافة، ووعده بدعم حربه بالمال. فلما سمع أحشويرش بالمال التفت إلى أعوانه من الفرس وسألهم عن أمر بايثيوس ومبلغ ثرائه. فأجابه الفرس الذين كانوا بجانبه أن "هذا الرجل هو الذي قدم لوالدكم داريوس، يا مولانا، الشجرة والكرمة الذهبيتين؛ وعهدنا به أنه ما زال أغنى رجل في العالم، بعدكم." ولقد عجب أحشويرش لهذا القول أشد العجب، فكرر سؤاله مرة أخرى، إنما موجهاً حديثه هذه المرة إلى بايثيوس ذاته، سائلاً عن مبلغ ثرائه. فأجاب :" سأكون صريحاً، وإياكم، ولن أدعي أني لا أعلم مقدار ما لدي من المال. فأنا أعلم ما عندي، وسأصارحكم بمقداره على وجه الحقيقة والدقة؛ إذ لما بلغني أنكم متوجهون إلى ساحل إيجه ألحت عليَّ الرغبة بأن أقدم مساهمة في نفقات الحرب، فأخذت أحصي ما عندي من المال، فوجدت في خزائني ألفي تالنت من الفضة وثلاثة ملايين وتسعمائة وثلاث وتسعين قطعة ذهب دارية. وإني عازم على تقديمها لكم؛ أما أنا فحسبي ما لدي من الرقيق وما يأتيني من أملاكي." سر أحشويرش أيما سرور مما سمع من مضيفه، فرد قائلاً:" قد كنتم، يا صديقي الليدي، الرجل الوحيد منذ أن غادرت الأرض

الفارسية الذي استضاف جيشنا وعرض المساهمة بالمال في الحرب عن طيب خاطر. ومكافأة لكم لكرمكم فإني أجعلكم ضيفاً وصديقاً دائماً لنا، وفوق ذلك لكم صلة بسبعة آلاف قطعة ذهبية دارية من خزائني الخاصة، لتبلغ ثروتكم أربعة ملايين قطعة. فهنيئاً لكم بما لديكم، ونرجو لكم أن تثابروا على ما بدا لنا من حكمتكم اليوم. ولن تندموا إن اليوم وإن غداً..

ولقد قدم أحشويرش الصلة كما وعد، ثم تابع وجيشه المسير، فمر ببلدة أناوا الفريجية وبحيرة يُستخرج منها الملح، ووصل مدينة كولوساي الفريجية العامرة، حيث يختفي نهر ليكوس ثم يعاود الظهور بعد مسافة خمسة فرلنجات، ليلتقي بنهر المايندر. وتابع الجيش مسيرته بعد كولوساي إلى الحدود الليدية، فوصل إلى كيدزارا حيث النصب الذي أقامه قرون وعليه نقش يدل على الحدود بين فريجيا وليديا؛ والطريق إلى ليديا ينقسم إلى مسارين أحدهما، إلى اليسار، يؤدي إلى كاريا، والآخر، إلى اليمين، يؤدي إلى ساردیس. وعلى المسافر الذي يسير على هذا الدرب أن يعبر نهر الميانذر ويمر بكلاتيبوس، وهي بلدة يستخلص أهلها العسل من القمح وشراب فاكهة البجم . وكان هذا الطريق هو الذي سار عليه أحشويرش، وصادف شجرة دلب فسحر بجمالها فزينها بالذهب وعين لها حارساً. ثم وصل في اليوم التالي إلى عاصمة الليديين.

كان أول ما قام به أحشويرش حين وصل إلى ساردیس أن بعث بالسفراء إلى كل بقعة في بلاد الإغريق، عدا أثينا وإسبارطة، وطلب من أهلها إرسال التراب والماء إشارة إلى خضوعهم، وأضاف أمره بالاستعداد لاستضافته وجيشه وتوفير أسباب الترفيه عند حضورهم. وكان مبعث هذا الطلب بإعلان الخضوع له من جديد ثقته بأن الإغريق الذين سبق لهم رفض مطالبة داريوس، لابد وأن يفزعوا الآن من جيشه الضخم وحسن استعداده فيرضخوا له. ولقد قام بهذه الخطوة رغبة منه في معرفة هل أصاب أم أخطأ. ثم تهيأ أحشويرش للزحف على أبيدوس، حيث نصب جسراً على الهليسبونت يصل بين آسيا

وأوروبا. وهناك بين سيستوس وماديتوس في شبه جزيرة الخيرسونيس وهي عبارة عن لسان صخرية تمتد في البحر مقابل أبيدوس. وفي هذا الموقع كان مقتل أرتايكتيس حاكم سيستوس الفارسي، فيما بعد، على يد قائد الأثينيين أكسنتيبوس بن أريفرون، بأن صلبه حياً- وقد عرف عنه أنه كان يجمع النساء في معبد بروستيمسيلاؤس في إلليوس ويقترف كل المحرمات بحقهن. وعند هذا الامتداد الصخري أقام المهندسون في خدمة أحشويرش الجسرين من أبيدوس- وهذه مسافة من سبعة فرلنجات- وقد نصب الفينيقيون أحدهما، وكان من حبال الكتان، والآخر أقامه المصريون من حبال مصنوعة من البردي. ولقد أُنجز العمل على الوجه الأكمل، لولا أن عاصفة قوية هبت وحطمتهما، وذهبت بكل ما كان. فلما بلغ نبأ الكارثة أحشويرش غضب وثار، وأمر بجلد الهليسبونت ثلاثمائة جلدة وأن يلقي فيه زوج من القيود. وقد بلغني من قبل أنه أمر بدمغ المضيق بالقضبان المحمية بالنار. غير أن المؤكد هو أنه أصدر لرجاله أمراً بأن ينزلوا به مئات الجلدات، وقال يومئذ هذه العبارات التي تنم عن صلفه وعجرفته:" أيها الجدول المالح ذو المذاق المقيت، إن مولاك ينزل بك هذا العقاب جزاء على إثمك بحقه، وهو الذي لم ينلك منه ضير. ومع ذلك فاعلم أن الملك أحشويرش سوف يعبر فوقك، رضيت أم كرهت. ولن يكون لك قربان من أحد قط، وأنت الجدير بأن تهجرك مياهك الكريهة الملوثة بالطين." ثم أمر أحشويرش زيادة في العقاب أن تقطع رؤوس من عُهد إليهم ببناء الجسرين. ولقد كان أن نفذت تلك الأوامر الظالمة، وتولى غير أولئك المهندسين إنجاز الجسور. وكان أسلوبهم في إنشائها كالتالي: ربطت السفن الضخمة ذات المجاذيف الثلاثية والخماسية إلى بعضها بعضاً لحمل الجسور، فكان منها ٣٦٠ سفينة اختصت بالجسر المقام على طرف البحر الأسود، و٣١٤ سفينة اختصت بذاك الذي أقيم على الطرف الآخر، وقد وضعت بشكل منحرف نحو البحر الأسود، وعلى زاوية قائمة عند الهليسبونت، للتخفيف من الضغط على الحبال. كذلك وضعت مراسٍ للسفن بالغة المتانة عند

نهايتي الممر المائي- وقصد بالمراسي الشرقية أن تقي السفن من رياح البحر الأسود التي تهب على المضيق، وتلك التي وضعت على الجانب الآخر، من الغرب والمتجهة نحو بحر إيجه، لتخفف العبء عند هبوب الرياح من الغرب والجنوب. وقد ركزت فجوات في ثلاثة مواقع للقوارب الواردة إلى البحر الأسود أو الخارجة منه. ولما اتخذت السفن مواقعها رفعت الحبال بوساطة روافع موضوعة على البحر. ولم يُستخدم هذه المرة نوعا الحبال التي استخدمت فرادى لكل جسر، كما في المرة الأولى، وإنما اعتمد في ذلك حبلان من ألياف الكتان وأربعة من ألياف البردي في الجسرين كليهما. وكانت حبال الكتان والبردي بذات المتانة، إلا أن ألياف الكتان كانت أثقل وزناً - وتبع ذلك قطع ألواح الخشب بطول وعرض يناسب الطوافات ومدها متصلة ببعضها على الحبال المشدودة وربطها إلى بعضهاالبعض من جهة السطح. فلما تم ذلك وضعت أغصان الأشجار ومددت بشكل متوازن على ألواح الخشب، ومعها طبقة من التراب الصلب. وفي النهاية وضعت الأوتاد على كل جانب للحيلولة دون نظر الخيول والبغال إلى الأسفل والفزع من الماء عند رؤيته.

كان العمل في الجسور قد انتهى وباتت مهيأة ليزحف عليها الجيش؛ ثم وصلت الأنباء في ذلك الحين من آثوس تفيد بأن القناة قد أُنجز شقها، بما في ذلك مكاسر المياه عند الطرفين، وقد أُنشئت هذه للحيلولة دون تراكم الطين عند المداخل؛ وأما الجيش فبعد أن أمضى الشتاء في ساردیس وأتم استعداداته أخذ في المسير في الربيع إلى إبيدوس. وما كادت القوات تبدأ تحركها حتى كان أن اختفت الشمس من موقعها في السماء، بعد أن كانت ساطعة ظاهرة، فعم الظلام وكأنما العالم من حولها في ليل، بالرغم من صفاء السماء وغياب الغيوم. فتكدر أحشويرش وسأل المجوس تفسيراً لهذه الحالة الغريبة، فأفادوه بأنها إشارة من الآلهة للإغريق بأفول نجمهم وزوال مدنهم- فللشمس عند الإغريق ما للقمر من مكانة عند الفرس. فاطمأنت نفس أحشويرش إلى هذا

التفسير ومضى يزحف بجيشه؛ وهو في أحسن حال. ولكن ما إن قطع جيش أحشويرش مرحلة من الطريق، حتى كان بايثيوس الليدي يجد للحاق به، وقد أفزعته تلك الإشارة السماوية، ويريد أمراً يحدوه الأمل بأن يقضيه له أحشويرش، بفضل الهدايا التي قدمها له. فلما قابله خاطبه بقوله:" إن لي، يا مولاي، حاجة وددت لو قضيتها لي، أمر بسيط لكنه منة منكم عظيمة لو تفضلتم بها." ولقد أجاز أحشويرش، الطلب قبل سماعه، وما كان ليخطر بباله حقيقة مطلبه، فعلت آمال بايثيوس بقرب المنال. فقال لأحشويرش:" إن لي، يا مولاي، خمسة أبناء مجنَّدين في جيشكم الزاحف إلى بلاد الإغريق. وأنا رجل عجوز، يا مولاي، أرجو منكم العطف بأن تدعوا لي واحداً من أبنائي - وهو أكبرهم - ليرعاني وأملاكي، ولكم الأربعة الآخرون، وكل الأماني بعودتكم ظافرين." ولقد كان لتلك الكلمات أشد الوطأة على أحشويرش، فثار وغضب، وانهال على محدثه بأشد العبارات: " أيها البائس التعس، تذكر ابنك، وأنا أتولى المقدمة في السير إلى الحرب على الإغريق، ومعي أبنائي وإخوتي والأهل والأصدقاء- أنت، يا من هو من عبيدي، والواجب يحتم عليك أن تسير في الركب؛ وكل فرد من بيتك، حتى زوجك؟ إذن اصغ لما أقول: اعلم أنك تملك أن تثير في المرء، عبر الأذن، البهجة والسرور، وقد تحمله على الغضب أيضاً. إن سمع سيئة منك. حين أديت لنا خدمة وزدت كافأناك وزدنا، وليس لك أن تقول إنك كنت أكثر كرماً منا، وبعد، فلسوف تلقى عقاباً أقل مما تستحقه لسفهك. إن ضيافتك لنا تعفيك أنت وأربعة من أبنائك من هذا العقاب الذي تستحق، لكنك ستدفع حياة ابنك الخامس الذي تؤثر جزاء وفاقاً لوقاحتك وسوء تبصرك." ولما أنهى أحشويرش مقالته، أمر المكلفين بهذه الأمور من أعوانه بالبحث عن ابن بايثيوس البكر، وقطع جسمه نصفين، ونصب كل نصف على طرف من الطريق ليمر الجيش بينهما. ولقد نُفِّذ أمره كما ورد.

وهكذا أخذت جحافل الجيش تمضي، مارة بين نصفي جثة الفتى، متقدمة

في زحفها: فكان في المقدمة حراس العدة والعتاد وهم يجرون الدواب بأحمالها، ومن ورائهم الحشد من مختلف الأقوام، وكانوا خليطاً جرى جمعهم دونما تدبير. ولما كان نصف الطابور قد مر، ترك المنظمون فجوة في المسيرة لمنع اتصال الجند بالملك الذي كان يتقدمه ألف من الفرسان، وهم مختارون من أرجاء بلاد فارس كافة ، وفي إثرهم ألف من حملة الرماح رافعين سلاحهم مقلوباً، ثم عشرة من الجياد المقدسة المعروفة بالنسيانية وهي في أجمل زينة (وقد عرفت هذه الخيول بالنسيانية نسبة إلى سهل النيسيان، في بلاد الميديين، حيث تربى الخيول الضخمة، التي لا مثيل لها في العالم). وتلي الخيول عربة زيوس المقدسة، وتجرها ثمانية من الجياد البيض، ومن ورائها سائسها يمسك بلجامها – إذ ليس لأي فانٍ أن يركب العربة ذاتها. ثم جاء موكب الملك، وهو في عربة تجرها خيول نسيانية، وسائس العربة باتيرامفيس بن أوتانيس الفارسي إلى جانبه. ذلكم هو الموكب الذي خرج به أحشويرش من ساردیس، وظل عليه حتى شاء أن يترك عربته فانتقل إلى أخرى ذات غطاء، يلحق بها ألف من حملة الرماح، وسلاحهم شاك على النحو المعهود، وكانوا جميعهم من أعرق أسر فارس نبالة وصفاء دم؛ من ورائهم ألف من خيرة فرسانهم، ثم فيلق من عشرة آلاف من المشاة، وقد جرى انتقاء هؤلاء أيضاً من بين الصفوة المختارة. وكان من بين هؤلاء جميعاً ألف تميزوا بأن أعقاب رماحهم تنتهي برمانات ذهبية. وكانوا يحيطون بتسعة الآلاف الآخرين. وكان حملة الرماح المقلوبة، وقد سلف ذكرهم، يزينون أعقابها بالرمانات الذهبية أيضاً، بينما كانت التفاحة الذهبية علامة الجند الذين يسيرون خلف أحشويرش مباشرة. وكان يتبع المشاة عشرة الآلاف جناح من عشرة آلاف من الخيول الفارسية، ثم ينقطع هذا الحشد مسافة فرلنجين (قرابة نصف كيلو متر)، وفي أعقابهم سار بقية الجيش في جمع خليط.

ومن ليديا مضى هذا الجيش باتجاه نهر كايكوس وأرض مايسيا، ومن ثم

إلى أتارنيوس فكارينه، جاعلاً جبل كانة إلى ميسرته. ثم عبرت الحشود سهل طيبة مارة بأدرامايتيوم (أترامايتيوم) فبلدة أنتاداروس البلاسجية، جاعلا جبل آيدا على ميسرته وهو يدخل إقليم طروادة. فلما كان الليل أقام معسكراته عند سفح الجبل، وثارت في تلك الليلة عاصفة شديدة مصحوبة ببرق ورعد، ومات فيها كثير من الجند. ولما بلغ الجيش نهر السكمندر، وهو أول نهر يصادفه منذ أن خلف ساردیس وراءه، وكان شحيحاً لا تكفي مياهه لإرواء الجند ولا الدواب، ولقد استبدت بأحشويرش رغبة قوية بزيارة طروادة، مدينة بريام التي تحدث عنها الأقدمون. فذهب لزيارتها وصعد إلى القلعة، واطلع على ما شاء من معالمها وسمع من أهل البلد ما جرى في ذلك الموقع من أحداث، فأمر بألف ثور قرباناً لأثينا الطروادية، وسكب الكهنة المجوس النبيذ لذكرى الأبطال. وفي الليلة التالية سرى الذعر بين الجند في المعسكر، خوفاً من أن تتكرر عاصفة االبارحة، ثم استأنف الجيش مسيرته في صبيحة اليوم التالي، وعن يساره، بلدات روتيوم وأوفرينيوم وداردانوس، وهي أقرب إلى أبيدوس، وعن يمينه تيوكريان جرجبيتوس، وحتى وصل أبيدوس، مقصده، في نهاية الأمر.

قرر أحشويرش أن يستعرض الجيش. وعلى مرتفع من الأرض في ذلك الموقع، وضع له أهل أبيدوس عرشاً من المرمر الأبيض صنعوه خصيصاً له؛ فجلس عليه الملك، ومنه نظر إلى الساحل فكان أن رأى كل الجيش والأسطول في نظرة واحدة. ثم رغب، وهو يستعرض قواته هناك، أن تجري مباراة في التجديف، فاز فيها الفينيقيون من أبناء صيدا ، فسر بها أحشويرش بذلك، كما سر بقواته، أيما سرور. ولم يتمالك نفسه حين رأى الهليسبونت كله يختفي عن النظر بحشد أسطوله، وشواطئ أبيدوس وسهولها تزدحم برجاله، فوصف نفسه بالسعيد– وبعد لحظة انهمرت الدموع من عينيه، وكان إلى جانبه في تلك اللحظة عمه أرطبانوس، الرجل الذي عرفنا عنه الصراحة في القول ومحاولته إقناع أحشويرش بالتخلي عن الحملة؛ فلما رآه يبكي، بادره بالقول: "عجبت لأمركم يا

مولاي، إذ أراكم على حالكم الآن وكنتم على غيره قبل لحظة. فقد وصفتم شخصكم بالسعيد، وإذا بكم تذرفون الدمع الآن." فرد أحشويرش بقوله:" خطر ببالي، وأنا أقلب الأمور على وجوهها، كم هي حياة الإنسان قصيرة – إذ لن تجد بين هذه الآلاف من الرجال من يمتد به العمر ليبلغ المائة سنة." فقال أرطبانوس: " والحق أننا نعاني أموراً أدعى للتعاسة من هذا. والحياة على ما هي عليه من القصر لن تجد فيها إنساناً ينال من السعادة ما يجعله لا يؤثر الموت على الحياة- ليس مرة واحدة عارضة، وإنما مراراً. فالمصاعب تعترضنا في الحياة؛ وتنال منا الأمراض؛ وذلك ما يجعل الحياة تبدو على قصرها أطول من أن تحتمل. وإن عبأها لثقيل فيبدو الموت معه ملجأ نتمناه جميعاً، وهنا دليل على أن الإله الذي عرفنا إلى حلاوة مذاق هذه الدنيا يضيق بمنته علينا." قال أحشويرش:" الحق ما قلت، يا أرطبانوس، فحال الإنسان على الأرض هي على ما وصفت. ولكن لندع هذه التأملات القاتمة جانباً؛ فأمامنا أمور طيبة تنتظرنا. والآن أصدقني القول إن كنت ستظل مقيماً على رأيك الأول وتعمل على أن تحول دوني وشن الحرب على الإغريق، لو لم يظهر لك ذلك الخيال في المنام، أم تراك كنت ستتحول برأيك عن ذاك؟" رد أرطبانوس على سؤال الملك:" سألت الآلهة يا مولاي ألا يخيب ذلك الحلم آمالك أو آمالي. ومع ذلك فإن الجزع ما انقطع يطاردني منذ تلك الليلة، غير أن ثمة أموراً تزيد في أسباب الفزع الذي لا يكف عني، وأشدها وطأة معرفتي بقوتين من أعتى القوى تتضافران في العمل ضدكم." قال أحشويرش:" عجبت من أمرك، يا رجل. فأي قوتين تعني؟ أتجد في جيشنا مأخذاً يؤخذ عليه؟ أتراه قاصراً في العدد والعدة؟ أتعتقد أن جيش الإغريق يفوقه عدداً، أم أن أسطولنا أضعف من أسطولهم؟ ما هي أسباب مخاوفك. فلعلك تخشى الأمرين! فإن كنت ترى أن قواتنا لا تكفي لهذه الحرب جمعنا لك جيشاً آخر، وما كلفنا الأمر إلا بعض التأخير." أجاب أرطبانوس:" يا مولاي! ليس هناك ذو عقل ويملك أن يرى عيباً في قوة حشدكم إن في البر وإن

في البحر. ولو زدتم من قواتكم لوجدتم القوتين اللتين تشغلان فكري قد أصبحتا أشد عداء لكم مما هي الآن. وها إني أذكرهما لكم يا مولاي: البر والبحر. فليس هناك على ما أعلم مرفأ يتسع لاستقبال أسطولكم ويوفر له الحماية إذا ما داهمته العواصف. ولئن كان هناك العديد من المرافئ على امتداد الساحل لتتوقف عندها السفن، إلا أنه ليس هناك مرفأ واحد تنزل فيه؛ وما أرجو منكم، يا مولاي، هو أن تلاحظوا أن رجالكم سيكونون تحت رحمة الظروف. والآن اسمحوا لي، يا مولاي، أن أشير إلى العدو الخطير الآخر: إنه الأرض، فإن لم تواجهكم مقاومة أصبحت الأرض أشد ضراوة في عدائها كلما تقدم حشدكم؛ إذ ليس من شيم البشر أن يكتفوا بما تحقق لهم من النجاح، فتراهم يطلبون المزيد. وقصدي من هذا القول أنكم إن لم يعترض سبيلكم أحد وجدتم الأرض ذاتها، عنيت المسافات وهي تزداد طولاً، تنتهي بكم في نهاية المطاف إلى الجوع. الحق، أن أفضل الرجال، في اعتقادي، هو من احتاط في التدبير بالحذر، متحوطاً لكل كارثة قد تصادفه، فإذا حان وقت العمل مضى فيه بجرأة وثقة."

رد أحشويرش:" لقد جئت بالحق في كل ما نطقت ؛ غير أنه لا ينبغي لك أن تلتزم الحذر في كل ما تفعل، أو تشغل الفكر في كل طارئ قد يواجهنا. فلو وزنت كل الأمور عند النظر في خطة بميزان واحد لعجزت عن الإتيان بأي أمر. فالأفضل عندي أن يجازف المرء ويواجه المصاعب نصف وقته على أن يخشى الصعاب فينأى بنفسه عن معاناتها. فلو جادلت في كل ما يعرض، وقصرت عن الإتيان بالبراهين على صدق محاجاتك، لكنت إلى الخطأ أقرب، كأي شخص عادي. أما البرهان– كيف للإنسان أن يبلغ اليقين في أي أمر يعرض له. الحق هو أن اليقين يتجاوز طاقة البشر. ولكن مهما يكن من الأمر فإنه لا يفوز باللذة إلا الجسور، لا الحذر المتردد وحسبك أن تنظر كيف غدت فارس قوة يحسب حسابها: فلو أن أسلافي ذهبوا مذهبك – أو أخذوا بمشورة من ينزعون هذه

النزعة، ولو لم يكونوا هم يأخذون بها - لما رأيت بلادنا على ما هي عليه من المجد والسؤدد. بل الحق أن أجدادي إنما أورثونا ما نحن فيه اليوم بفضل ما تحقق لهم بالمجازفة. فبالمجازفات العظيمة يكون نيل النتائج الكبيرة. ولذلك ترانا سائرين على خطى آبائنا؛ ونحن نسير إلى الحرب الآن في أفضل فصول العام؛ وإننا لسوف نقهر أوروبا كلها، ثم سوف نعود إلى بلدنا - دون أن نواجه الموت جوعاً في أي نقطة نبلغها، أو نعاني مكروهاً- إنما ظافرين مكللين بالنصر. فنحن نمضي في طريقنا مدخرين بالمؤن، وهذا سبب؛ والآخر هو أنه سيكون في متناولنا كل الحبوب في أي بلد ندخله، كائناً من كان فيه. وتذكر أن أعدائنا ليسوا من قبائل البدو، وإنما هم أهل زراعة وفلاحة." فأجاب أرطبانوس بقوله:"إن كنتم معرضين عن الإصغاء إلى مخاوفي، فخذوا بهذه النصيحة، على الأقل- ذلك أنه كلما اتسعت القضايا التي تحتاج النقاش ازدادت الحاجة إلى كثرة المفردات. فاعلموا أن قورش بن قمبيز غزا وفرض الأتاوات على بلاد الأيونيين، إلا أثينا؛ لذلك رجوتكم ألا تأخذوا هؤلاء الأيونيين، مهما حملتكم الأسباب، لقتال قوم يشاركونهم الدم. وإنا لقادرون على هزيمة أعدائنا دونما عون منهم. فإذا أتانا الأيونيون كانوا إما أهل خسة ونذالة حين يساعدوننا على استعباد وطنهم، وإما أهل شرف وحمية فيعملون على تحريره. فإذا كان خيارهم الأول ما أفدنا منهم إلا القليل؛ أما في الثاني فمن شأنهم أن ينزلوا بجيشنا ضرراً عظيماً. وتذكروا يا مولاي صدق القول القديم، إن النهاية لا تظهر دائماً في البداية."

ورد أحشويرش بقوله:" إنك، يا أرطبانوس، لم تخطئ في كل ما سلف قدر خطئك في الخشية من أن يتخلى الأيونيون عن قضيتنا. ولدينا أسطع برهان على ثباتهم، وأنت وقد شاركت في حملة داريوس على بلاد السكيث، شاهد على هذا الدليل، شأنك شأن الآخرين معك. فيومذاك لم يأتوا بسوء، وكان في وسعهم أن يدركوا جيش فارس بعونهم أو يلحقوا به الضرر، فما كان منهم إلا الوفاء والالتزام بعهد الشرف. ثم إن هناك سبباً آخر يحملنا على الوثوق بهم، إذ هل

يعقل منهم أن يحاولوا إفساد مشروعنا، وقد تركوا أزواجهم وأطفالهم وأملاكهم في بلادنا؟ وإذن، لا ضير علينا، ولك أن تنتزع هذا الخوف من قلبك فيستريح بالك. اطمئن، ولا تفسد عليك راحة البال بالشك؛ وحسبك أن تحفظ لي بيتي وأملاكي من البلاء، فقد عهدت لك بملكي في غيابي، فأنت وحدك الذي أئتمنه على العرش." وبعد هذا الحديث، أمر أحشويرش أرطبانوس بالعودة إلى سوسه، ثم دعا كبار الفرس للقائه. ولما حضروا بادرهم بالقول: " يا كبار القوم، قد دعوتكم إلى هذا اللقاء لأطلب منكم الثبات أمام ما ينتظرنا؛ فلا تأتوا بما يشين قومنا، وقد بذلوا في الماضي، وأتوا بكل مأثرة وكانوا قبلة الأنظار. فليبذل كل منا ما وسعه البذل، فالهدف النبيل الذي وضعناه نصب أعيننا يتطلب جهود كل واحد بيننا. فقاتلوا وابذلوا ولديكم سبب لهذا البذل، فأعداؤنا، إذا صح ما بلغنا، قوم أشداء، وأهل شجاعة وإقدام؛ فإذا كسرنا شوكتهم لن تجدوا، بعد هذا، جيشاً في العالم كله يجرؤ على الوقوف أمامنا. فلنضرع الآن إلى الآلهة أن تحفظ لنا وطننا- ولنعبر الجسر".

استمر الإعداد للعبور طوال ذلك اليوم؛ وفي اليوم التالي، وبينما كان قادة الجيش ينتظرون طلوع الشمس، أخذوا يحرقون البخور من كل صنف ونوع على الجسرين، ويفرشون الدرب بأغصان الآس. ثم كان الشروق، فأخذ أحشويرش يصب النبيذ في البحر من قارورة من الذهب، وشرع في الصلاة، وهو يستقبل الشمس بوجهه، ضارعاً ألا يواجه ما يحول دونه والانتصار على أوروبا أو الانكفاء عنها قبل أن يبلغ أقصى أهدافه. فلما انتهى من صلاته ألقى بالكأس في مياه الهليسبونت وأتبعه بالقارورة الذهبية وبالسيف القصير الذي عُرف به الفرس. ولست أملك القول إن كان ذلك على سبيل التقرب من إله الشمس- أم هدية للهليسبونت وإعراباً عن أسفه لجلده بالسياط. ومع انتهاء هذا الطقس بدأت أعمال العبور. فاختصت المشاة والفرسان بالجسر الأعلى، وهو الأقرب إلى البحر الأسود، بينما سارت دواب النقل والمجندون غير المحاربين على

الجسر الأدنى عند بحر إيجه. وكان أول العابرين عشرة الآلاف، تكلل رؤوسهم أكاليل الورد والزهور، وفي إثرهم جحافل الجند من كل قوم وعرق، واستغرقوا في عبورهم اليوم الأول كاملاً. وفي اليوم التالي كان عبور الفرسان عشرة الآلاف وفرقة حملة الرماح المعكوسة، وكان هؤلاء أيضاً مكللين بالأزهار والورود، ومن بعدهم الخيول والعربة المقدسة، ثم أحشويرش وفرقته من حملة الرماح والفرسان، وبقية الجيش في المؤخرة، فيما كانت السفن تتحرك نحو الشاطئ المقابل. وتقول رواية أخرى إن الملك كان آخر تلك القافلة. وهناك على الساحل الأوروبي وقف أحشويرش يستعرض قواته، وهي تتقدم تحت ضربات السياط. ولقد استغرق العبور سبعة أيام وليال، لم تنقطع خلالها حركة الجند، مشاة وخيالة. وتروي إحدى الروايات أن أحد أهالي المنطقة صاح وهو يرى ذلك الجيش العرمرم، ينزل ببلده:" أي زيوس لم اتخذت شكل فارسي واستبدلت اسمك بأحشويرش وتجمع البشرية لتغزو بلاد الإغريق وتروع أهلها؟ إنه كان في ميسورك أن تحيلها دماراً دون أن تتكلف هذا العبء.؟"

بعد أن حط الجيش على ساحل أوروبا وأخذ في التقدم في تلك الأرض، وقع أمر عجيب، فقد ولدت فرس أرنباً. فلم يول أحشويرش هذا النذير أي اهتمام، وإن كان مغزاه لا يحتاج إلى ذكاء عظيم. فمن الجلي أن تلك كانت إشارة إلى أنه مقدر لأحشويرش أن يقود جيشاً لغزو بلاد الإغريق، بكل بأس وجلال، ثم يرتد على أعقابه جارياً ينشد النجاة، حيث انطلق. وكان قد حدث مثل هذا في ساردیس من قبل، إذ وضعت بغلة فِلْواً خنثى. ولكن أحشويرش تجاهل النذيرين، وتابع تقدمه على رأس جيشه في أعماق تلك البلاد. أما الأسطول فأبحر غرباً في الهليسبونت، ثم اتجه نحو رأس سربدون، حيث أُمر بالانتظار هناك، وبذلك بدأ حركته عكس حركة قوات البر التي كانت حركتها باتجاه الشرق عبر الخيرسونيس، متخذة قبرهيلي ابنة أناموس إلى يمينها، وبلدة كارديا إلى يسارها. وبعد أن اخترقت الموقع المعروف بالسوق التفت حول

الخليج الأسود وعبرت النهر الأسود الذي ينسب الخليج إليه- وهو نهر شحيح الماء لم يفد الجيش منه كثيراً، هناك توجه غرباً متجاوزاً مستوطنة آينوس الإيولية وبحيرة ستنتوريس، وتابع المسير إلى دوريسكوس.

ودوريسكوس هو الاسم الذي أطلق على شريط من ساحل تراقيا، يتصل بسهل واسع يمر به نهر هيبروس، وهو نهر عظيم. وكان هناك أيضاً حصن يعرف بحصن دروريكسوس، وتحتله حامية كان داريوس قد خلفها، وظلت هناك منذ غزو بلاد السكيث. وبدا لأحشويرش أن ذلك المكان مناسب ليجري فيه تنظيم قواته ويحصي أعدادها، فشرع في ذلك لفوره. وكان قادة الأسطول قد تلقوا في غضون ذلك الأمر من أحشويرش بتحريك السفن من دوريسكوس إلى الشاطئ المحاذي عند زونة ومدينة سالة الساموتراقية – الشاطئ الممتد حتى لسان سيريوم. وكانت هذه المنطقة كلها في ملك السيكونيين. وهنا رست السفن لتجفف من الرطوبة. وفي ذلك الوقت، انشغل أحشويرش في دوريسكوس بإحصاء قواته. ولست أملك أن أذكر عدد ما قدمه كل قوم من قوات لهذا الجيش على وجه الدقة، لأن أحداً لم يقدم سجلاً موثقاً بذلك، ولكن المجموع كان ١٧٠٠٠٠٠ جندي[٣]، عدا الأسطول. وكان أسلوبهم في التعداد يعتمد على جمع كل عشرة آلاف إلى بعضهم ورسم دائرة حولهم، ثم يصرفون من الصف، وينصب حول الدائرة سياج بعلو سرة الرجل تقريباً، ثم يأتون بقوات أخرى إلى هذه الدائرة ويدون عددهم، ويُصرفون بعدئذ، حتى يتم إحصاء كامل الجيش. ولما تمت عملية الإحصاء كان تنظيم القوات في فرق حسب جنسية أفرادها.

كان جيش أحشويرش يتألف من الشعوب التالية: أولاً الفرس، ويرتدون القبعة المثلثة، وهي من اللباد الناعم، والقميص المطرز مع أكمامه، وفوقه الدرع الذي يبدو كحراشف السمك، والسروال؛ وأما عدتهم فهي الترس المصنوع من قضبان الصفصاف وتحته المقلاع والرمح القصير، والقوس القوي والسهام المصنوعة من الخيزران، والخنجر المربوط بالنطاق ويبرز إلى الفخذ الأيمن.

وكان على رأس هذه القوات أوتانيس والد أمستريس، زوج أحشويرش. وكان الإغريق يطلقون على الفرس في قديم الزمان اسم الكيفيان، وإن كان هؤلاء يسمون أنفسهم الأرتاي، وبهذا الاسم عرفوا بين الجوار. ولم يعرفوا باسم الفرس إلى أن زار برسيوس، ولد زيوس ودانا، كيفيوس بن بيلوس، وتزوج بابنته أندروميدا، وأنجب ولداً أسماه بيرسيس (وقد تركه لدى جده كيفيوس، لأنه كان بلا عقب من الذكور ليرث ملكه) فلصق اسمه بقومه، وبه باتوا يعرفون. أما الفرقة الميدية فكانت بقيادة تيجرانيس الأخميني ومسلحة بذات العدة والعتاد كالفرس– والحق أن هذا النمط من اللباس ميدي الأصل، وليس زياً فارسياً بأي شكل. وكان الميديون يعرفون ذات يوم باسم الآريين، ثم استبدلوا هم أيضاً اسمهم؛ ولكن ذلك كان حسب روايتهم بعد زيارة ميديا القلقيزية لبلدهم، وكانت قد قدمت إليهم من أثينا.

أما لباس الفرقة الكيسية فهو شبيه بلباس الفرس، سوى أنهم يعتمرون باللفة بدلاً من القبعة، وقائدهم أنافيس بن أوتانيس. وكان سلاح الهيركانيين مماثلاً للفرس، وقائدهم ميجابانوس. وقد تولى فيما بعد منصب حاكم بابل. وكان لباس الآشوريين يتألف من خوذة فولاذية مصنوعة بطريقة غريبة معقدة يصعب وصفها، والدرع والخنجر (الشبيه بالخنجر المصري) والعصا المدعمة بالحديد من داخلها والدرع المصنوع من الكتان، وكان الإغريق يسمون هؤلاء القوم بالسوريين، أما كلمة آشور فكانوا يعرفون بها بين الأقوام المتبربرة. ومن الشعوب التي يتألف منها الجيش الفارسي أيضا الكلدانيون وقائدهم أوتاسبيب ابن أرتاخايوس، والباكتيريون الذين يعتمرون بعمرات مطابقة لعمرة الميديين، وسلاحهم القوس والنشاب المصنوع من قصب الخيزران والرمح القصير؛ والساكيون (وهم من السكيث) يرتدون السروال والقبعة الطويلة ويضعونها مستقيمة على رؤوسهم، وسلاحهم القوس المعروف في بلادهم والخنجر والسجريس، أو البلطة. والساكاي اسم يطلقه الفرس على قبائل السكيث كافة،

أما هؤلاء الذين نقصدهم هنا فهم قبيلة الأمرجان منهم. وكان يتولى الباكتيريين والساكيين هايستاسبيس بن داريوس وأتوسا ابنة قورش.

أما الهنود فكانوا يرتدون لباساً من نسيج القطن، ويحملون الأقواس المصنوعة من الخيزران والنبال المصنوعة من الخيزران أيضاً سوى أن رؤوسها من الحديد، ويتولى قيادتهم فرنانزاثريس بن أرطباتيس. أما الآريون فكان على رأسهم سيزامنس بن هيدارنيس ، وسلاحهم القوس الميدي، وعدا ذلك كانوا يماثلون الباكتيريين؛ وهذا شأن البارثيين والخوارزميين، وهم بإمرة أرطبازوس بن فرناس، والصغديون بإمرة أزنيسي بن أرتايوس، والقندهاريون والداديكاي بإمرة أرتيفيوس بن أرطبانوس، والخزريون (القزوينيون) وقد تولى قيادتهم أريوماردوس شقيق أرتيفيوس، وكانوا يرتدون سترات من الجلد، وسلاحهم "الاسيناس" والقوس المصنوع من الخيزران، وقد اشتهرت به بلاد هؤلاء القوم؛ والسرنجيون بقيادة فرنداتيس بن ميجبازوس ، وسلاحهم القوس والنشاب والرماح الميدية، وقد عرفوا بألوان لباسهم الزاهية وأحذيتهم العالية التي تبلغ حد الركبة. وهؤلاء يرتدون السترات الجلدية ومسلحون بالقوس والنشاب والخنجر. وأما البكتيان فكان قائدهم أرتينيس بن إيثار متريس، واليوتيان والمايكس بإمرة أرتامين بن داريوس، والبريكان وقائدهم سيروميتريس بن إيوبازوس، وهم مماثلون للبكتيان في العدة والعتاد.

وكان العرب يرتدون العباءة الطويلة ويشدونها إلى الوسط بنطاق، ويتنكبون القوس الطويل إلى كتفهم الأيمن- وهو قوس شديد المرونة قوي الوتر، أما الأثيوبيون فرداؤهم من جلد النمور والأسود، وسلاحهم القوس الطويل من جريد النخيل، وقد يبلغ طوله ستة أقدام، ويستخدم في رمي سهام قصيرة من الخيزران، ورؤوسها من الحجر المدبب بعناية، لا من الحديد، وهو من نوع الحجر الذي يستخدم في حفر الأختام. وهؤلاء الأثيوبيون كانوا مسلحين أيضاً بالرماح ورؤوسها من قرن الأيل والعصي الغليظة ذات العقد. وقد درج هؤلاء

قبل دخولهم المعركة على تبييض نصف الجسم بالطبشور ودهن النصف الآخر بلون السيرقون. وكان على رأس العرب والأثيوبيين، وهم من جنوب مصر، أرساميس بن داريوس- وأمه أريستونة بنة قورش، وكانت المفضلة عند زوجها، وقد بلغ شغفه بها ما جعله يقيم لها تمثالاً من الذهب المطروق. وكان الجيش يضم طائفتين من الأثيوبيين الشرقيين، وهم يخدمون جنباً إلى جنب مع الهنود. لا يختلفون عن أبناء جلدتهم، إلا في اللغة والشعر؛ فشعر هؤلاء الشرقيين مسدل، بينما شعر الأثيوبيين من أهل ليبيا مجعد وهو أكثر الشعر جعدة في العالم. وعتاد الأثيوبيين من سكان آسيا شبيه بعتاد الهنود من وجوه عديدة، سوى أن لباس الرأس عندهم من فروة رأس الجياد بعد سلخها مع الاحتفاظ بالأذنين والعرف – وهم يحرصون على أن تبقى الأذنان منتصبتين بينما العرف يؤدي وظيفة الذؤابة. أما تروسهم فمن جلد طائر الغرنوق. وكان لباس الليبيين من الجلد، ومن عاداتهم تقوية رماحهم بطرقها بعد إحمائها بالنار. وكانوا تحت قيادة ماساجيس بن أواريزوس. أما البافلاجونيون فكانوا يعتمرون بخوذات من الصفصاف، ويتسلحون بالرماح القصيرة والخفيفة والخناجر، وينتعلون الأحذية الطويلة التي تختص بها بلادهم. وهذا شأن اللايجانيين والميتانيين والمرياندييين والسوريين (أو الكبادوكيين، كما يسميهم الفرس). وكان على قيادة البافلاجونيون والميتانيين دوتوس بن ميجاسيدروس، بينما كان المرياندييون واللايجانيون والسوريون تحت قيادة جوبرياس بن داريوس. وهندام الفريجيين مثل هندام البافلاجونيين، عدا بعض الفروق البسيطة. وكان هؤلاء القوم يعرفون، حسبما يروي المقدونيون، باسم البريج، يوم كانوا من الأوروبيين ويسكنون مقدونيا، ثم استبدلوا الاسم عند هجرتهم إلى آسيا، كما استبدلوا موطنهم. والأرمن، وهم مستوطنون فريجيون، كانوا مسلحين على هيئة الفريجيين ويقود الفريجيين أتوخميس ، وهو متزوج بإحدى بنات داريوس.

وكان عتاد الليدين مشابهاً لعتاد الإغريق. وقد عرف هؤلاء القوم قديماً

بالمايونيين، وأخذوا اسمهم عن ليدوس بن آتيس. أما المايسيون فكانوا يرتدون خوذة خاصة ويتسلحون بالرماح القصيرة ويحملون دروعاً صغيرة من الخشب المقوى بالنار. وهؤلاء من مستوطني ليديا، ويعرفون بالأولمبيين، نسبة إلى جبل أولمبس. وكان هذان الفوجان بإمرة أرتافرنيس بن أرتفرنيس الذي نزل مع القائد داتيس في أرض الماراثون، وكان التراقيون يغطون رؤوسهم بجلود الثعالب، ويرتدون الجلابيب والعباءات الطويلة، وهي ذات ألوان زاهية، وينتعلون الأحذية العالية المصنوعة من جلد صغار الظباء؛ وسلاح هؤلاء يتألف من الرمح والترس والخنجر الصغير. وقد عرف التراقيون بعد هجرتهم إلى آسيا باساكيس، وكانوا يسمون حسب روايتهم، من قبل بالستريمونيين، نسبة إلى نهر الستريمون؛ وقد عاشوا يومذاك عند ضفته، حتى طردهم التيوقران والميسيان من مواطنهم. وكان على رأس التراقيين سكان آسيا باساكيس بن أرطبانوس. وعدة البيسيد الدروع المصنوعة من جلد الثور ورمحان قصيران من صنع الليسيين، وخوذة من البرونز ذات عرف ومزينة بأذني ثور وقرنية، وهذه من البرونز أيضاً؛ ومن عاداتهم ربط الساقين بشرائط من القماش قرمزية اللون. وفي بلاد هؤلاء معبد (إله الحرب) آريز. وكان القابال (وهم، في حقيقتهم، من المايون، ولكنهم يعرفون باللاسون كذلك) يتسلحون بذات العدة التي يحملها أهل قليقلية – وسوف آتي على وصفها عند الحديث عن هؤلاء. وللميلانيين رماح قصيرة، وهم يشبكون ملابسهم بمشابك، كما أن بعضهم يحمل القوس الليسي، ويحمون رؤوسهم بالبيضة (خوذة إهليلجية). وقائد هذه الأفواج بارديس بن هايستانيس. وللموسخيان خوذات من الخشب، ويحملون الدروع وسلاحهم الرمح القصير ذو الرأس الطويل. ومثلهم في السلاح الطيبار والمقرون والموسينويق. وكان القائم على تنظيم الموسخيان والطيبار وقيادتهم أريوماردوس بن داريوس وبارميس (وهي بنت سميرديس وحفيدة قورش)، بينما كان المقرون والموسينويق بإمرة أرتايكتيس بن خيراسميس، حاكم سيستوس، على

الهليسبونت.

وقد عرف الماريان بخوذاتهم المضفورة التي اشتهرت بها بلادهم، وسلاحهم الترس الصغير والرماح. وأما الكولخيون فخوذاتهم من الخشب ودروعهم من الجلد غير المدبوغ والرماح القصيرة والسيوف. وكان هذان الفوجان بقيادة فرنداتيس بن تياسبيس. ويماثل هؤلاء في السلاح اللاروديين والساسبيريين، وقائدهم ماسيستيس بن سيروميتراس.

أما سكان جزر الخليج العربي الذين كانوا يستوطنون الجزر التي يرسل اليها الملك من يعاقبه ياالإبعاد عن وطنه كانوا على الأغلب يرتدون زياً مشابهاً للميديين وكانوا تحت قيادة ماردونتيس بن باجايوس ،الذي هلك بعد ذلك بسنة في موقعة مايكالة حيث كان أحد القادة.

تلكم، إذن، هي قوات البر والأمم المشاركة في الحملة؛ وقد ذكرت قادتهم، وهم الذين قاموا على تنظيمهم وإحصائهم، وعينوا قادة الالآف من الجند. وتولى قادة الالآف هؤلاء تعيين قادة وحدات وأقوام، لكن من ذكرت هم القادة. كان هؤلاء جميعاً يخضعون لإمرة قيادة القوات البرية، وقد عقدت لماردونيوس بن جوبرياس وتريتانتايخميس بن أرطبانوس (الذي عارض الحملة) وسميردومنيس بن اوتانيس (وهما ولدا شقيقي داريوس وأبناء عمومة أحشويرش)، وماسيستيس بن داريوس واتوسا ، وجرجيس بن أريزوس، وميجابايزوس بن زوبايروس. وكان لهؤلاء الستة قيادة المشاة، إلا عشرة الآلاف– وهم فرقة النخبة وأفرادها مختارون، وكانوا بقيادة هايدرانيس بن هايدرانيس، وقد عرفت فرقتهم بالخالدين، لأن مرتباتها من الأفراد لا تنقص؛ فإذا قتل أحدهم أو مرض حل آخر محله فوراً، وبذلك تظل عدد عشرة الآلاف بلا نقصان.و لم يكن الجند الفرس أفضل قوات الجيش عدة وعتاداً فحسب، وإنما أحسنهم تجهيزاً كذلك؛ ولئن سبق لي وصف أزيائهم وتسليحهم فلابد لي من أن أذكر أن كل فرد منهم كان يتلألأ بما كان يتزين به من الذهب، وهو ينأى عن الحصر. وكان برفقة

هؤلاء الجند عربات مغطاة ضمت نساءهم وخدمهم، وجميعها مجهزة على أحسن ما يكون التجهيز. وكانت المؤن الخاصة بهؤلاء الجند تحمل على ظهور الجمال والبغال، وهي مفردة لهم دون الوحدات الأخرى في الجيش. إن هذه الأقوام التي سلف ذكرها تألف استخدام الفرسان، ولكن كان لهذه الحملة ترتيب خاص: فهناك أولاً الفرس وتسليحهم مماثل لتسليح المشاة منهم، سوى أنهم كانوا يضعون على رؤوسهم خوذات من البرونز أو الحديد المطروق. وتليهم قبيلة من البدو تعرف بالساجرت، وأفرادها يتحدثون بالفارسية، وزيهم خليط، نصفه من زي الفرس ونصفه من زي الباكيتاو، وهم يؤلفون فوجاً من ثمانية آلاف نفر، ولا يحملون سلاحاً من الحديد أو البرونز، عدا الخنجر. والسلاح الذي يختصون به حبل مجدول من شرائط الجلد ينتهي بأنشوطة. وأسلوبهم في القتال يقوم على إرسال حبالهم لحظة الاشتباك بالعدو، ثم جذبها بما علق بالأنشوطة، حصاناً كان أم رجلاً. ثم يعمدون إلى ذبح الضحية وهي عاجزة عن المقاومة، فوراً بلا توان. وفوج الساجرت هذا مرتبط بجحفل الفرس.وأما الميديون والكيانيون فهم مسلحون كالمشاة أيضاً وكذلك الفرسان الهنود، وهم مسلحون كالمشاة منهم، فئتان، فئة تمتطي الخيل والأخرى تركب العربات التي تجرها إما الأحصنة وإما البغال الشموس. وأما الكثيريون والخزر فسلاحهم سلاح المشاة. وكذلك شأن الليبيين، سوى أنهم يمتطون العربات جميعاً. وهذا حال الكاسبيريين والباريكيين في السلاح، سوى أنهم راجلون. والعرب سواء في التسليح مشاة وجنداً محمولين، لكنهم يعتمدون على الإبل في تحركهم، وهي لا تقل عن الخيول سرعة. إن هذه الأقوام التي قام عليها سلاح الفرسان؛ وقد بلغت قواتها الثمانين ألفاً، عدا العربات والجمال، منظمة في أجنحة. وكان موقع الفوج العربي في المؤخرة، لئلا تصاب الخيول بالذعر عند رؤيتها للجمال، إن وضعت في المقدمة أو في الوسط وكانت قيادة الفرسان معقودة لولدي داتيس، أرماميثراس وتيتايوس. أما القائد الثالث فرنوخس، فقد أصابه حادث، فترك في

ساردیس. وتفصيل ذلك أن كلباً جرى بين أقدام حصانه، فذعر هذا وجفل فرمى فارسه عن ظهره، وشرع يبصق دماً فأصيب في النهاية بداء السل. وكان أن تولى خدمه تنفيذ أمره بالحصان بأن اقتادوه إلى حيث رمى بسيده عن ظهره، وقطعوا قوائمه، وهكذا أُعفي فرنوخس من القيادة.

وكان الأسطول يتألف من ألف ومائتين وسبع من السفن الضخمة الطويلة، عدا السفن العادية وقوارب النقل: قدم الفينيقيون والسوريون سكان فلسطين ٣٠٠ سفينة. وبحارتها يرتدون خوذات شبيهة بخوذات أمثالهم من الإغريق فضلاً عن الدروع من نسيج الكتان والتروس والرماح. ويروي هؤلاء أنهم كانوا يسكنون الخليج العربي في قديم الزمان ثم هاجروا إلى الساحل السوري، وما زالوا يسكنون هذا الساحل إلى اليوم. وتعرف هذه المنطقة من سورية وما يليها جنوباً حتى مصر بفلسطين. وكان إسهام المصريين ٢٠٠ سفينة. ويضع بحارتها على رؤوسهم الخوذات المشبكة ويحملون التروس المقعرة ذات الإطار العريض، ويتسلحون بالرماح المصفحة والفؤوس الثقيلة. ومعظم البحارة يرتدون الدروع ويحملون الخناجر الطويلة. وكان إسهام القبارصة ١٥٠ سفينة. وأمراؤهم يرتدون العمامات، بينما رداء الرأس عند البحارة القبعة المدببة. ويرجع القبارصة بأصولهم، حسب روايتهم، إلى سلاميس وأثينا، وبعضهم إلى اركاديا وسيثنوس، ومنهم من أتى من فينيقيا وأثيوبيا. وإسهام القليقليين ١٠٠ سفينة، ويتألف زي بحارتهم من الخوذة التي تعرف بها بلادهم والدروع المصنوعة من الصوف، ويتسلحون بالتروس المصنوعة من الجلد غير المدبوغ. وكان القليقليون يعرفون قديماً بالهايباخايين، وقد حملوا اسمهم اليوم عن كيليكس بن اجنور، وهو فينيقي. وقدم البامفيليون ٣٠ سفينة، وسلاحهم سلاح الإغريق، فهم ينحدرون ممن لحق منهم بامفيلوخوس وكلخاس بعد أن تشتت الجيش، عقب الاستيلاء على طروادة. وأسهم الليسيان بـ ٥٠ سفينة، وكانوا يرتدون الدروع حتى الساقين، ويتسلحون بأقواس مصنوعة من خشب القرو الصلب وسهامها

من الخيزران، وهي بلا ريش، فضلاً عن الرماح. ويتألف لباسهم من فرو الماعز يضعونه حول أكتافهم والقبعات المزينة أطرافها بالريش. كما كانوا يتسلحون بالخنجر واليطغان (السيف العريض القصير ذو الحد الواحد وينتهي بطرف حاد جداً). وأصل هؤلاء من كريت، وكانوا يعرفون في موطنهم الأول بالترميلاي، أما اسمهم الذي يعرفون به الآن فنسبة إلى ليكوس بن بانديون الأثيني. وقدّم الدوريون سكان آسيا ٣٠ سفينة. وأصلهم من جزر البيلوبونيز، وسلاحهم على مذهب الإغريق. وكان للكاريين إسهام من ٧٠ سفينة. وعتادهم شبيه بعتاد الإغريق، عدا أنهم يحملون اليطغان والخنجر. وقد ذكرت اسمهم القديم في فصل سابق من هذا التاريخ. وكان إسهام الأيونيين ١٠٠ سفينة. وسلاحهم سلاح الإغريق. وكانوا يستوطنون طوال حياتهم، حسب الرواية الإغريقية، آخيا، في جزر البيلوبونيز، وظلوا يعرفون ببلاسجة الساحل، حتى مقدم داناوس واكسوثوس. أما الاسم الذي باتوا يعرفون به فنسبة إلى أيون، ولد اكسوثوس. وكان إسهام أهالي الجزر ١٧ سفينة، وهم أيضاً يرتدون الدروع الإغريقية. وهؤلاء من البلاسجة كذلك؛ ثم عرفوا فيما بعد بالأيونيين، لذات السبب الذي أضفى هذا الاسم على الذين سكنوا المدن الاثنتي عشرة التي اقطعتها لهم أثينا. وقدم الأيوليون (وهم عند الإغريق من البلاسجة أيضاً) ٦٠ سفينة. وعتادهم عتاد الإغريق. وقدمت المدن الواقعة على الهليسبونت والبوسفور (وأهلها مستوطنون أيونيون ودوريون) ١٠٠ سفينة- وجميعها مجهز بالعدة والعتاد والسلاح على نهج الإغريق. وقد استثنيت ابيدوس من هذه الحملة، إذ كان أمر أحشويرش إلى أهلها أن يمكثوا في بلدهم لحراسة الجسور.

كانت هذه السفن جميعها تحمل على ظهرها مشاة البحرية من الفرس والميديين أوالساكاي. وكانت أسرع السفن هي التي قدمها الفينيقيون، وأفضلها سفن أهل صيدا. وكان قادة السفن مثل قادة المشاة، من أبناء جلدة الأفراد؛

ولسوف أمسك عن ذكر الأسماء، طالما أن روايتي لا تقتضي مني ذلك. ولكن حسبي أن أقول إن منهم من لم يكن ليذكر بين اللامعين بأي حال. ثم أن كل أمة من تلك الأمم قدمت من الضباط ما يعادل ما لها من المدن. والحق أن أولئك الضباط ممن دفعت بهم أقوامهم للمشاركة في الحملة لم يكونوا من القادة حقاً، وإنما خدموا عبيداً، شأنهم في ذلك شأن أفراد المراتب. ولقد سبق أن ذكرت أسماء القادة الفرس الذين كانوا على رأس القطعات التي زجت بها الأمم الأخرى. فاقتضى التنويه. وأورد فيما يلي أسماء قادة قوات الأسطول، وهم: أريابجنس بن داريوس؛ وبركاسبيس بن أسباتين؛ وميجابازوس بن ميجاباتيس؛ وأخمينيس بن داريوس. وكان على رأس الأيونيين والكاريين أريابجنس، وهو ابن داريوس من زوجه ابنة جوبرياس، وأخمينيس شقيق أحشويرش من والديه، على رأس المصريين. وكان بقية الأسطول بإمرة الاثنين الآخرين. وقد بلغ عدد قطع الأسطول بما في ذلك السفن ذات الثلاثين وذات الخمسين مجدافاً، وسفن النقل، ثلاثة آلاف قطعة. ويلي قادة الأسطول ضباط وأشهرهم: تترامنيستوس بن أنيسوس، وهو من صيدا؛ ومابين بن سيروموس، من صور؛ وميربالوس بن اجبالوس،الأروادي؛ وسينيسس بن أورمندون، القليقلي ؛ وكسبيرنيسكوس بن سيكاس، من ليسيا؛ وجورجوس بن فيرسيس وتيموناكس بن تيماجوراس، من القبرصيين؛ وهايمتايوس بن تيمنيس، وبيجريس بن سيلدوموس وداميثايوس بن كانداولوس،الكاري. ولست أجد ما يدعو لعرض أسماء الضباط الأصغر،ولكن لا أستطيع أن أغفل ذكر أرتيميسيا ، وهي امرأة أسهمت في الحملة على الإغريق. وتفصيل أمرها أن السلطان صار إليها بعد وفاة زوجها، وكان أن مضت مع الأسطول؛ بالرغم من أن لها ولداً شاباً، وليس هناك ما يحملها في هذه الحالة على خوض الحرب مع الأسطول؛ سوى ما انطوت عليه من حب المغامرة وشجاعة الرجال. وكانت ارتيميسيا بنة لجداميس الهاليكارناسي، ولكنها كريتية من جانب والدتها. وقد تولت في هذه الحملة قيادة الهاليكارناس وكوس

ونسيروس والكاليدنا، وكانت مشاركتها بخمس سفن، وهي أشهر قطع الأسطول، بعد سفن أهل صيدا؛ وكانت هذه المرأة على قدر عظيم من الحكمة، وليس هناك من وفر لأحشويرش من بين قادة التحالف مشورة أفضل من مشورتها، وكان في حكمها الدرويون- وجدير بالذكر أن الهاليكارنيين في حقيقة الأمر مستوطنون قدموا من ترويزن وسواهم من أبيداروس.

وبهذا تم ما بلغ علمي من أمر الأسطول. ولما أُنجز إحصاء القوات وتنظيمهم وأراد أحشويرش استعراض المشهد على العموم. ركب عربته ومضى يمر بكل الوحدات والقطعات، يلقي على قادتها الأسئلة، وكُتّابه يدونون الإجابات، حتى شملت جولته كل وحدة من المشاة أو الفرسان. ثم كان دور الأسطول، وهنا ترجل أحشويرش وصعد إلى ظهر سفينة صيداوية، وجلس على كرسي من الذهب، ووجهها لتمر بباقي قطع الأسطول الراسية، وكان يلقي الأسئلة على الأمراء عن كل سفينة ويتلقى منهم الإجابات، فيدونها الكتّاب، كما كان الحال عند تفتيش الوحدات البرية. وكان قادة السفن قد وضعوها على بعد أربعمائة قدم من الساحل، في خط واحد منتظم، وعلى ظهرها البحارة مرتدين لباس الحرب، جاهزين للقتال، وأقواسهم بأيديهم موجهة نحو الشاطئ. ولقد مضى أحشويرش في جولته بالسفينة بين صف القطع البحرية والشاطئ حتى اكتمل تفقدها. فلما انتهت الجولة واستعرض أحشويرش وحدات الأسطول الراسية، نزل إلى الشاطئ وأرسل في طلب ديماراتوس بن أريسطون، وكان في ركابه في الحملة على الإغريق، فلما حضر بادره بالقول: "وددت لو أجبتني، يا ديماراتوس، عن بعض الأسئلة، التي تلِّح على خاطري، وأود لها جواباً. فأنت إغريقي وابن بلد ليس شأنه بالقليل في بلاد الإغريق، على ما بلغني من أخبارها ممن حدثوني من أهلها. فقل لي، إذن، إن كان الإغريق يجرؤون على الوقوف في وجهي، وقد رأيت ما رأيت من قوتنا؟ فإنني أعتقد أنه لو اجتمع الإغريق وشعوب الغرب كله لما استطاعوا الصمود أمام جيشي- فماذا يكون شأنهم إذا كانوا

متفرقين. ذلك هو اعتقادي، ولكن ما أريد سماعه هو رأيك أنت في هذا الأمر." رد ديماراتوس:" أهو رأيي الحق ما تنشد، أيها الملك، أم أنك تود سماع ما يطيب لك أن تسمع وترتاح إليه نفسك؟" قال الملك: " بل قول الحق! وعهدك عليّ ألا ينالك ضير." فلما سمع قول الملك، اطمأن ومضى يقول:" قد طلبتم إلي يا مولاي أن أصدقكم القول، فلا يتبين منه فيما بعد كذب. فليكن، إذن. وإليكم رأيي: كان الفقر الإرث الذي ناله الإغريق من سالف الأزمان، أما الثبات والاستبسال في القتال فقد نالوهما بالحكمة وقوة الشريعة. وبفضل بسالتهم وشدتهم في الحرب أمكن لهم أن يبعدوا عنهم الفقر والطغيان. وإني لأحمل تقديراً عالياً للإغريق الذين يسكنون بلاد الدوريين، ولكن ما سوف أقول لا أقصد به كل الدوريين، وإنما يصدق على الإسبارطيين وحدهم. وأول ما أقول هو أنهم لن يقبلوا منكم، مهما تكن الظروف، ما قد يعني العبودية للإغريق. ثانياً لسوف تجدونهم يثبون لمقاتلتكم، ولو خضعت لكم بلاد الإغريق الأخرى كلها. وليس يجدي أن يسأل المرء إن كان لديهم العدد الكافي من الرجال لهذا الأمر؛ فإن كان لديهم في الساحة ألف رجل قاتلكم هؤلاء، كذلك سيقاتلونكم كبُر عددهم أم صَغُر." ضحك أحشويرش مما سمع، وقال:" عجبت لقولك، يا ديماراتوس! أفتحسب حقاً أن بوسع ألف رجل أن يقاتلوا جيشاً كجيشي؟ إذن، فقل لي، وقد كنت ملكاً على هؤلاء القوم، إذا كنت مستعداً الآن لقتال عشرة رجال وحدك منفرداً؟ ولكن إن كانت الأحوال في إسبارطة حقاً على ما تقول، فعليك بحكم الشريعة، وأنت الملك، أن تتولى قتال ضعف عدد من يقاتلهم الفرد العادي منهم– فإذا كان الإسبارطي نداً لعشرة من رجالي، فأحسب أنك ندٌّ لعشرين. فإن توليت أمرهم صدق عندي قولك. وهذا هو البرهان المؤكد. فإذا كان الإغريق، الذين يحملون لأنفسهم تقديراً عالياً، بحجم من زارني في بلاطي من أبناء جلدتك ومن معدنهم– وأنت منهم يا ديماراتوس– فالخشية ألا تكون عباراتك أكثر من مجرد تفاخر أجوف. إنما دعني أعرض لك فكرتي بأقصى

قدر ممكن من المنطق- كيف يمكن لألف رجل، أو عشرة آلاف، أو خمسين ألفاً أن يصمد أمام جيش عرمرم مثل جيشي هذا، خاصة إذا لم يكن أولئك بقيادة قائد واحد. وإنما يتمتعون بكل الحرية ليتصرف كل واحد منهم على نحو ما يشاء. فإذا قلنا أن أمامنا خمسة آلاف رجل منهم، فتكون النسبة عندئذ ألف منا مقابل كل رجل منهم! ولكن إذا كان هؤلاء يأتمرون بإمرة قائد واحد، كحالنا نحن، فلربما كان لدينا سبب للخشية منهم، بالرغم من اختلاف العدد، فقد يبدون عندئذ ضرباً من الشجاعة المتكلفة، أو يكون نصيبهم الفناء في ساحة القتال؛ أما وأن لكل واحد منهم حق التصرف على هواه، فليس يعقل والحال هذه أن يبدوا هذا الضرب من الشجاعة، ولن يظهروا في الساحة ليقتلوا. بل إني لأذهب إلى القول إنه ليس في وسعهم مواجهة الفرس دون عون، ولو تساوت القدرات على الجانبين. فنحن لدينا أيضاً هذه الخصلة التي كنت تتحدث عنها - ولست أقول إنها شائعة، لكنها موجودة؛ فمثلاً لدي بين حراسي من لا يتهيب مصارعة ثلاثة من الإغريق معاً. ولكنك تجهل هذه الأمور وإلا لما تفوهت بتلك الترهات."

رد ديماراتوس قائلاً:" كنت أعلم، أيها الملك، أنك لن تستطيب كلماتي، إن صدقتك القول. ولكني حين وجدتك تطلب الحقيقة ولا أقل منها وصفت لك حال الإسبارطيين على حقيقتهم. وأنت تعلم أني لا أكن وداً لمواطني، وقد سطوا على إرثي من السلطان والامتيازات، وجعلوا مني شريداً بلا وطن- بينما رحب بي والدك في بلاطه ووفر لي أسباب العيش والمأوى. ولا ريب أن الجحود ليس مما يحمد عليه المرء، فالعاقل هو من يشكر النعمة. وأنا لا أزعم لنفسي القدرة على قتال عشرة رجال، بل ولا اثنين؛ بل إن شئت الحق فإني لا أميل لمصارعة رجل واحد. ولكن إذا جد الجد ودعت الضرورة، وكان ثمة أمر خطير يحفزني فلسوف يكون من دواعي غبطتي العظيمة أن أنازل واحداً من رجالك هؤلاء الذين يزعمون أنهم أهل لمنازلة ثلاثة من الإغريق. وهذا شأن الإسبارطيين أيضاً: فإن

قاتلوا فرادى كان الواحد منهم نداً لأي رجل آخر، أما إذا قاتلوا مجتمعين فهم أفضل الجنود في العالم. أما أنهم قوم أحرار، فهذا حق، ولكنهم ليسوا أحراراً على وجه الإطلاق؛ ذلك أن لهم سيداً يخضعون له، وهذا المولى هو القانون الذي يخافونه أكثر من خوف رعاياك منك. وهم يمتثلون لما يقتضيه منهم هذا المولى، وأوامره ثابتة لا تتغير وتقول ألا تراجع في المعركة، مهما اشتدت الأهوال، بل الثبات والتماسك، ثم النصر أو الموت. فإذا وجدت، يا مولاي، ما قلت هراء، فإني ممسك لساني من الآن فصاعداً. وإني لأضرع، في كل حال، على أن تنتهي الأمور على ما تبتغي وتشتهي." وهنا انفجر أحشويرش ضاحكاً لجواب ديماراتوس، وتركه يمضي وهو في مزاج رائق.

بعد هذا الحديث أمر أحشويرس بتولية مسكاميس بن ميجادوتيس على دوريسكوس محل الرجل الذي كان داريوس قد وضعه في هذا المنصب، ثم تابع المسيرة عبر تراقيا، إلى بلاد الإغريق. ولقد أثبت ميسكاميس فيما بعد موهبة فذة جعلت أحشويرش يبعث إليه بهدية خاصة كل عام اعترافاً منه بتفوقه على الحكام الذين أقرهم هو أو داريوس كافة؛ بل إن ولده ارتحششت ظل يرعى عقب ميسكاميس من بعده. وتفصيل ذلك أن ملك الفرس كان يولي أبناء قومه على مناطق في تراقيا والهليسبونت، حتى قبل حملة أحشويرش، ولكن الإغريق تمكنوا منهم فيما بعد وطردوهم من مواقعهم جميعاً، إلا حاكم دوريسكوس- إذ ما استطاع أحد من الإغريق طرد ميسكاميس، رغم ما بذلوا من الجهد في سبيل ذلك. وهذا سر هدية أحشويرش له. ومن بين أولئك الحكام الذين طردهم الإغريق كان بوجيس، حاكم ايون، دون سواه، الذي اختصه أحشويرش بالتقدير، ولم ينقطع عن الثناء عليه، وظل يحدب على أبنائه من بعده، وقد خلفهم والدهم في فارس، ويوليهم تقديره أمام الناس. والحق أن هذا الرجل جدير بأعظم آيات التقدير؛ ذلك أنه لما حاصره الأثينيون بقيادة سيمون بن ميلتياديس، وكان له أن يغادر المدينة، وفق معاهدة بينهم وبينه، إلى آسيا رفض العرض،

لئلا يظن أنه تنكر لواجبه لينقذ جلده؛ فآثر الصمود حتى آخر نبضة في قلبه على أن يستسلم. فلما نفذت المؤن جمع مقداراً كبيراً من الحطب وأشعل فيه النار وأتى بأطفاله وزوجه ومحظياته وذبحهم ثم رمى بجثثهم لتلتهمها ألسنة اللهب، ومضى بعد ذلك فجمع كل ما في البلد من ذهب وفضة ورمى بما اجتمع له من أعلى الأسوار إلى نهر الستريمون، وأتبع ذلك بأن قفز بنفسه وسط النار الملتهبة. ومنذ ذلك اليوم واسمه يتردد في فارس مقروناً بالاحترام؛ وهو جدير به.

ومن دوريسكوس انطلق أحشويرش نحو بلاد الإغريق، وأخذ يجند وهو في سيره الرجال من كل قوم يمر بهم جيشه؛ وكان ذلك ميسراً له، كما سبق الذكر، بسبب خضوع المنطقة حتى تساليه لحكمه، وهي تقدم لفارس الإتاوة، بعد غزوها على يد ميجابازوس أولاً ثم ماردونيوس لاحقاً. وبعد أن غادر الجيش دوريسكوس مرَّ أولاً بالحصون الساموتراقية، وأبعدها ميسمبريا غرباً؛ وكان الموقع التالي الذي مر به ستريمة، وهي من بلدان الثاسيان. وبين هذين الموقعين يمر نهر ليسوس، وهو جدول شحيح المياه، قصر عن تأمين حاجة جيش أحشويرش هذه المرة. وقد جف بعد أن غادره الجيش الزاحف. وكانت تلك المنطقة من البلاد تعرف ذات يوم باسم جاليكا، أما اليوم فتعرف ببريانتيكا؛ وهي أيضاً موطن السيكون. ولما عبر أحشويرش قناة ليسوس الجافة تابع طريقه متجاوزاً مدن مارونيا وديكايا وآبديرا الإغريقية، كما مر ببعض البحيرات المعروفة في المنطقة، وهي ايسماريس، وتقع بين مارونيا وستريمة، وبستونيس، بالقرب من ديكايا، وهذه بحيرة يصب فيها نهرا تراوس وكومباستوس. أما آبديرا فليس فيها بحيرة تذكر، فكان أن عبر نهر نيستوس وهو يصب في البحر. ثم بلغ مستوطنات الثاسيان في القارة، وفي إحداها بحيرة يبلغ محيطها ٣٠ فرلنجاً، مليئة بالسمك ومياهها شديدة الملوحة، وقد استهلكتها دواب النقل وحدها حتى جفت. وتدعى البلدة التي بجانب البحيرة بيستيروس. وكان

أحشويرش يتابع طريقه وهذه المستوطنات التي أقامها الإغريق على الساحل، على ميسرته، فيما هو يتجه غرباً. أما القبائل التراقية التي مر بها في طريقه فهي البايتي والكيكون والبستون والباينة والايراسنة والإيدون والساتراي؛ وكانت بعض هذه الأقوام التي تسكن الساحل تمتهن صناعة السفن لأسطول الملك؛ أما القبائل الأخرى فكانت تسكن أراضي الداخل وقد أُجبرت كلها، عدا الساتراي، على ما نعلم، على الانضمام إلى الحملة. والسبب في هذا الاستثناء أن الساتراي هؤلاء لم يخضعوا، وهم الوحيدون بين التراقيين الذين حافظوا على استقلالهم. ومرد ذلك طبيعة بلادهم التي تتألف من جبال عالية تغطيها الثلوج وغابات كثيفة بالأشجار من كل نوع وصنف، وهم مقاتلون أشداء من أفضل المقاتلين. وفي بلادهم معبد لديونيسوس يقوم على أعلى جبالها، ويتولى خدمته البيس، وهم فرع من الساتراي، وفيه كاهنة، كما هو الحال في معبد دلفي، وهي التي تأتي بالنبوءات – وهذه بالمناسبة ليست أشد تعقيداً من نبوءات عرافة دلفي. وما إن عبر أحشويرش تلك المنطقة حتى أصبح على مشارف الحصنين القائمين في نواحي بيرينه، ويعرف أولهما بالفاجري والآخر برجامه؛ ومر بأسوارهما، وجبل البنجيوم الشاهق على ميمنته، وفي هذا الجبل مناجم الذهب والفضة، وهي شراكة بين البيريان والأودمنت، ولكن أكثرها بيد الساتراي. ثم تابع الملك طريقه فمر ببلاد الدوبير والبيوبلا (وهاتان قبيلتان تستوطنان المنطقة شمال البنجيوم) واستمر في مسيرته غرباً إلى أن بلغ نهر الستريمون وبلدة أيون التي كان يتولاها بوجيس، وقد سبق ذكره هنا، وتعرف البلاد المجاورة لجبل بنجيوم باسم فيليس، وهي تمتد غرباً حيث يحدها نهر الأنجيط الصغير الذي يصب في الستريمون، وجنوباً حتى الستريمون ذاته. وقد حاول المجوس استرضاء هذا النهر بتقديم جياد بيضاء قرابين له، واضطروا، بعد قيامهم بحيل سحرية عديدة لكنها كانت غير مجدية، لقطعه بركوب جسور وجدوها في الدروب التسعة في منطقة ايدوني، فلما علموا أن الدروب التسعة اسم تعرف به تلك

الناحية، جاؤوا بتسعة فتيان وتسع فتيات من أهلها فدفنوهم أحياء. ودفن الأحياء عادة فارسية؛ وقد علمت أن زوج أحشويرش دفنت أربعة عشر صبياً من أعرق الأسر الفارسية وهم أحياء آملة أن يقبل بهم من يزعم الفرس أنه إله العالم السفلي بديلاً عنها.

ولما قطع الجيش نهر الستريمون وصل إلى شريط على الساحل جهة الغرب، حيث بلدة أرجيلوس الإغريقية. وتعرف هذه الناحية وجوارها في الداخل باسم بيزالتيا. ثم تابع أحشويرش المسير، وخليج بوسيرديوم إلى يساره، فمر بسهل سيلوس، وتجاوز بلدة ستاجروس الإغريقية إلى أن بلغ اكانثوس. وكان مصير سكان هذه النواحي وأهل المنطقة المحيطة بجبل بنجيوم التجنيد في صفوف جيش أحشويرش، شأنهم شأن سكان المدن والمناطق الأخرى، أما سكان السواحل فكان تجنيدهم في عداد طواقم الأسطول، كما جند أهل الداخل في القوات البرية. وما زال الطريق الذي سار عليه الملك أحشويرش غير مطروق إلى اليوم؛ إذ يحرص عليه التراقيون ويجلونه، فلا تجدهم يحرثون أرضه أو يزرعون فيه الزرع. ولما وصل أحشويرش وجيشه إلى أكانثوس أظهر الصداقة لأهلها، وقدم لهم هدية من الأزياء الميدية، مع الثناء كثيراً على حماسهم وما قدموا من دعم للمجهود الحربي وعملهم في شق القناة. وبينما كان أحشويرش ما يزال في تلك المنطقة أصاب ارتاخاييس مرض وما لبث أن مات. وكان ارتاخاييس من الأسرة الأخمينية، وله مكانة عظيمة عند أحشويرش، وهو الذي تولى شق القناة. عملاق ليس له نظير في بلاد فارس كلها يبلغ طوله زهاء مترين ونصف، ذو صوت جهوري يتردد صداه في أرجاء العالم. ولذلك حزن لفقدانه أحشويرش أشد الحزن، وأمر بأن يحمل جثمانه ويوارى بكل مظاهر الأبهة والفخامة، حتى إن الجيش كله شارك في تشييد التل فوق قبره. وما زال أهل أكانثوس يقدمون الأضاحي قرباناً لأرتاخاييس، انصياعاً منهم لنبوءة معينة، وهم يعتبرونه بطلاً ويذكرون اسمه في صلواتهم.

ولئن كان لموت أرتاخاييس أشد الوقع على أحشويرش، فإن جميع الأمور كانت أسوأ للإغريق، لأنه كان عليهم القيام بواجب الضيافة لجيش فارس وتوفير العشاء للملك، وفي ذلك خراب لهم حملهم على ترك البيت والمأوى. فمثلاً قدّر انتباتر بن اورجيس، وقد كلفه قومه بترتيب أمور الضيافة لما له من سمعة عطرة، أن كلفة تلك الوجبة على الثاسيان، وهم الذين نهضوا بالواجب نيابة عن أهل البر، أربعمائة تالنت من الفضة. وقد تكرر الأمر في البلدات الأخرى، وثار جدل كثير حول الوليمة، وتكلف القوم هناك الشيء العظيم، إذ كانت الأوامر ترد قبل زمن ليتهيأ لها الناس؛ فكان القادة يبلغون بأمر من الملك الناس بموعد حضور الحشد، فينصرف هؤلاء، في كل بلدة، للاستعداد لليوم المعين، فيفتحون عنابر المؤن، ويمضون الشهور في طحن الحبوب من قمح وشعير وشراء أفضل المواشي وتربيتها وتسمينها وتغذية الدجاج وطيور الماء في البحيرات. وفوق هذا وذاك كله كلفوا الصياغ بصنع كؤوس من الذهب والفضة للشرب ومزج الشراب، وكل ما يستخدم في تزيين الموائد خصيصاً لهذه المناسبة، وهي طبعاً، لاستخدام الملك ومن يجلس معه للطعام والشراب؛أما الجند فكان الأمر يقتصر على تدبير الطعام لهم على العموم. ولما وصل الجيش كانت هناك خيمة واسعة أقامها القوم قبل حين لينزل فيها أحشويرش، بينما عسكر الجند في العراء؛ غير أن المشكلة كانت عند حلول وقت العشاء للمضيف عاثر الحظ؛ إذ لما أكل الضيوف ما شاؤوا من الطعام وتناولوا ما طاب لهم من الشراب ظلوا في أماكنهم لقضاء الليل ليغادروا في الصباح حاملين معهم الكؤوس والأطباق وكل زينة المائدة، دون أن يخلفوا شيئاً وراءهم. وكان أحد مواطني ابديرا، ويدعى ميجاكريون، قد قال في هذا الموضوع إن على أهل البلد أن يرسلوا زوجاتهم إلى المعابد لسؤال الآلهة أن تخفف عنهم نصف ما تحملوا من العبء، والشكر على النعمة لأن الملك أحشويرش لم يعتد تناول وجبتين في ليلة واحدة. فلا ريب بأن القوم كانوا سيخلون البلد قبل نزول أحشويرش لديهم لو كان عليهم أن

يقدموا له وصحبه الفطور بعد العشاء، وإلا كان مصيرهم الخراب. ولقد مضى أهل البلاد التي كان يحل بها الملك في طريقه بتقديم الطعام وإن تكبدوا في ذلك تكاليف باهظة. ولما بلغ أحشويرش أكانثوس وجه الأسطول للإبحار منفصلاً عن القوات البرية، وطلب من القادة انتظاره في ثيرمة – وهي بلدة تقع على الخليج، الذي سمي باسمها وفي ثرمة تأكد من أقصر الطرق لمسيرة جيشه. وكان هذا الجيش قد سار من دوريسكوس في ثلاث فرق، إحداها بإمرة ماردونيوس وماسيستيس، واتخذت طريقها على الساحل، وكانت على اتصال بالأسطول، والأخرى بقيادة تريتانتاخميس وجرجيس وسارت بخط مواز للأولى على بعد منها في الداخل، والثالثة بقيادة سميردومينيس وميجابازوس وسارت متوسطة بين الفرقتين. وكان أحشويرش يرافق هذه الفرقة. أما الأسطول فإنه بعد أن تلقى أوامره من أحشويرش أبحر وقطع قنال آثوس التي تؤدي إلى فرجة عميقة تقوم عندها بلدات آسا وبيلروس وسينجوس وساتري؛ ومن هذه البلدات حمل الأسطول تعزيزاته من البحارة، وتحدد الطريق إلى خليج ثرمة. وبعد الالتفاف على أمبيلوس، اللسان الممتد في توروني، تابع الأسطول طريقه ومر بتوروني وجاليبسوس وسرميلاي وميكيبيرنه وأولينتوس (وتعرف الأرض هنا بأستونيا)، وهي كلها إغريقية، مصادراً مزيداً من السفن ومجنداً الرجال. غير أن الجزء الأساسي من الأسطول أبحر مباشرة من رأس امبيلوس إلى كنسترايوم (وهي في أقصى جنوب شبه جزيرة بالينة)، ثم حمل مزيداً من التعزيزات من السفن والرجال من بوتوديا وافيتيس ونيا وايجي وثيرمبوس وسيكونة وميندى وساني، وجميعها فيما يعرف اليوم باسم بالينة، وكانت تعرف في الماضي باسم فليجرا. ومن هذا الموقع تابع الأسطول إبحاره بمحاذاة الساحل إلى نقطة الالتقاء في ثرمة، وهو يجند الرجال من البلدات القريبة من بالينه وخليج ثرمة – وهي ليبكسوس وكومبريا وليساي وجيجونس وكمبسا وسميلا وإينيا. وهذه المنطقة كانت وما زالت تدعى كروسايا. وقد وجد الأسطول نفسه بعد هذه البلدة

الأخيرة، أي إينيا، على مقربة من مقدونيا وداخل الخليج فعلاً، فمضى إلى موقع التجمع المعين في ثرمة. وكان الأسطول قد رسا في سيندوس وكاليسترا الواقعتين على نهر اكسيوس الذي يفصل بين مقدونيا بوتيايس. وهذه المنطقة الأخيرة شريط ساحلي تقع فيه مدينتا إيخناي وبيلا.

وفيما ظل الأسطول راسياً بالانتظار بالقرب من ثرمة وأكسيوس والبلدات هناك، كان أحشويرش يمضي وجيشه من إكانثوس على البر إلى المكان المحدد لتجمع قواته، فمر ببايونيا وكريستونيا متجهاً إلى نهر إيخادوروس الذي ينبع من السبخات عند مصب نهر اكسيوس. وفيما كان الجيش يتابع مسيرته هاجمت الأسود الجمال من مكامنها المألوفة، ولم تستهدف أية دابة أخرى. وأعجب لاختيار الأسود الجمال دون سواها من الدواب والبشر، وهي التي لم تخبر الجمل ولا رأته من قبل. وهذه المنطقة من البلاد- أي تلك التي تقع بين نهر نيستوس الذي يمر بابديرا واخيلوس الذي يمر باكارنانيا- حافلة بالأسود والثيران الوحشية المعروفة بقرونها الهائلة التي يستوردها الإغريق؛ فلا يصادف المرء الأسود في أوروبا شرق نهر نيستوس أو في القارة غرب نهر إخيلوس، إلا في المنطقة الواقعة بين هذين النهرين وحسب. وفي ثرمة أوقف أحشويرش تقدم جيشه، وهناك أقام معسكراته، التي انتشرت على الساحل كله، من ثرمة في مقدونيا حتى ليدياس وهلياكمون- وهما النهران اللذان يشكلان باتحادهما الحدود بين بوتياس ومقدونيا. وكانت تلك القوات تتزود أثناء وقوفها هناك، حيث أقامت معسكراتها، بما تحتاج من الماء من تلك الأنهار التي وفت بما لديها، سوى نهر الإخيدوروس فقد قصر. وكان أحشويرش يرى من موقعه في ثرمة جبال تساليه وقمم أولمبس وأوسا الشامخة فلما علم بواد ضيق بين الجبلين يمر به نهر بنيوس وطريق يؤدي إلى تساليه ألحت عليه الرغبة في الإبحار ومعاينة مصب النهر بنفسه. وكان غرضه أن يمضي بالجيش على الدرب الأعلى داخل مقدونيا ليبلغ بريبيا، وهي تلي بلدة جونوس، بعد ما علم أن ذلك الدرب أفضل

الدروب؛ فأسرع إلى تنفيذ هذا الخاطر؛ فركب السفينة الصيداوية التي اعتاد ركوبها في مثل هذه المهمات، وأشار إلى الأسطول بالإبحار، بينما ترك الجيش في معسكراته. ولقد عجب أشد العجب حين رأى مصب النهر، فسأل من رافقه من المرشدين إن كان من الممكن تحويل مجرى النهر فيصب في غير مصبه. ويذكر في هذا المجال أن تساليه كانت في غابر الأزمان بحيرة– وليس في هذا الافتراض ما لا يقبل العقل به، نظراً لأن البلاد كلها محاطة بالجبال العالية؛ فهناك إلى الشرق الحاجزان العظيمان؛ بيليون وأوسا، وهما جبلان شاهقان تشكل سفوحهما سلسلة جبلية متصلة؛ وإلى الشمال سلسلة جبال أوليمبوس، وبندوس إلى الغرب، وأوثريس إلى الجنوب، ووسط هذه الحلقة من الجبال، سهل تساليه المنخفض، الذي يصب فيه عدد من الأنهار، وأشهرها بنيوس وأبيدانوس وأونوخونس وأنيبيوس وبماسوس؛ وجميعها تنبع من الجبال المحيطة ثم تتحد في مجرى واحد، لتصل إلى البحر عبر ممر واحد ضيق. وإذا التقت هذه الأنهار فقدت أسماءها المعروفة، وبات اسم النهر الذي تصب فيه مياهها بنيوس. ومفاد الرواية أن هذه الأنهار كانت في العهود القديمة تصب من منابعها في الجبال مقدار ما تصب الآن، ولم تكن قد اكتسبت أسماءها بعد، بالرغم من ضخامتها، وقبل أن يخرج الوادي إلى الوجود، وبذلك كانت تساليه بحراً داخلياً. ولأهالي تساليه قول يذهب أن [إله البحر]بوسيدون هو الذي شق الوادي، وهي رواية مقبولة، ذلك أنه إذا قبل المرء بما يعزى إلى بوسيدون من اهتزازات الأرض وتلك الانشقاقات التي تنشأ عن الهزات الأرضية فإن منظر هذا الموقع كاف ليحمل المرء على القول بأن هذا كله من صنعه. والحق أن ذلك الانشقاق في الجبال قد بدا لي أنه ناجم عن هزة أرضية. وهكذا أجاب الأدلاء حين سألهم أحشويرش إن كان ثمة منفذ آخر يبلغ به نهر بنيوس البحر: "لا، يا مولانا؛ فليس هناك منفذ آخر، سوى هذا، لأن تساليه مطوقة بالجبال من كل الأطراف، التي تحيط بها كالتاج." ويروى عن أحشويرش أنه قال معقباً: " إن التساليين أهل حكمة؛ إذ

إنهم أدركوا الخطر الذي يحيط بموقعهم فكان خضوعهم في الوقت المناسب- فقد تبينوا بين جملة أمور أن بلادهم يسهل أخذها وشديدة الضعف. فلا يحتاج إغراقها بالماء سوى إقامة سد عند الأخدود وبذلك يتحول النهر عن مجراه الحالي؛ فيمكن عندئذ إغراق تساليه كلها تحت الماء، عدا الجبال." وكان الملك يقول هذه العبارات أمام أبناء اليود التساليين الذين كانوا أول الإغريق خضوعاً للملك وقد اعتقد أنهم عرضوا صداقتهم عليه نيابة عن كل الشعب اليوناني. ولما تم لأحشويرش تفقد المنطقة، ، قفل عائداً عن طريق البحر إلى ثرمة. ثم انتقل أحشويرش بعدئذ إلى بيريا ومكث هناك بضعة أيام؛ كان ثلث وحدات جيشه تعمل خلالها في قطع أشجار الغابات في مقدونيا، لشق طريق لتتقدم عليها قواته إلى بيريه، بينما عاد سفراؤه إلى صفوف الجيش، الذين بعث بهم إلى بلاد الإغريق يطالب أهلها بالخضوع- وقد عاد بعضهم خاوي الوفاض، وبعضهم الآخر حاملاً التراب والماء. أما من أعلن الخضوع فهم التساليون والدلوبيون والإنيانيون، والبرايبيون واللوكريون، والماجنيتيون والاخيون والفثيوتيون والطيبون، والبويوتيون عدا أهل بلاتيا وثيسباي. وأما من اختار طريق المقاومة وصمم على مقاومة الغازي فقد أقسموا على إنزال العقاب بكل من يحمل دم الإغريق ولم يقبل الخضوع للفرس، واقتطاع عشر ما لهم للإله في معبد دلفي.

أما أثينا وإسبارطة فلم يطالبهما أحشويرش بأي شيء، لما وقع لسفراء داريوس يوم أرسلهم إلى هذين البلدين في مناسبة سابقة: فقد رمي بهم في أثينا في حفرة عميقة، وألقي بهم في إسبارطة في البئر، وقيل لهم إنهم سيجدون هناك التراب والماء لمليكهم. ولذلك لم يشأ أحشويرش أن يوجه أحداً إلى هذين البلدين. أما ما ترتب من عواقب وخيمة على سوء معاملة الأثينيين لرسل الملك فلست أملك أن أقول فيه شيئاً، فلعل ذلك كان سبب الخراب الذي نزل بمدينتهم وما حولها، وإن كنت لا أعتقد أن ذلك كان نتيجة مباشرة لفعلتهم؛

أما الإسبارطيون: فقد نزل بهم غضب تالثايبيوس رسول أجاممنون، فحق عليهم أن يعانوا بسبب اللعنة. ويوجد في إسبارطة معبد أقامه أهلها تخليداً لتالثايبيوس والأسرة التي تحدرت عنه- ويعرف أبناؤها بالتالثبه، وتختص بمنصب الوفادة. ولقد مضى عهد منذ أن كانت تلك الواقعة التي عرضت لها؛ ولكن أثرها لم ينقطع، فظل الإسبارطيون محرومين من رحمة الآلهة، تلاحقهم النكبات والأزمات، مهما قدموا من القرابين والأضاحي؛ وكان ذلك يثير في نفوسهم أشد القلق، وقد حملهم الأمر على أن يعقدوا المجلس تلو المجلس، والسؤال المتداول في كل مجلس هو إن كان هناك "إسبارطي لا يتهيب الموت في سبيل وطنه؟"؛ وكانوا يبعثون بالمنادين لينادوا بذلك بين الناس. فبرز اثنان من أهل إسبارطة، سبيرخياس ابن أنيريستوس وبوليس بن نيكولاؤس وكلاهما من أسرة طيبة واسعة الثراء، يبذلان حياتهما عند أحشويرش تكفيراً عما نزل برسل داريوس ولما ارتكبه أهل إسبارطة بحقهم من الإثم والعدوان. وكان أن أُرسل هذان الإسبارطيان إلى فارس ليواجها القضاء المحتوم. ولا ريب بأن ما كان يتحلى به هذان الفدائيان من الشجاعة يبعث على الإعجاب، وما صدر عنهما من البيان جدير بالتنويه؛ وآية ذلك أنهما حين زارا، وهما في طريقهما إلى سوسة، هيدارنيس وهو فارسي يتولى الساحل الآسيوي كله، وقد أحسن ضيافتهما، وسمعا منه في أثناء العشاء قوله:" لم الإعراض، أيها الإسبارطيان عن مد يد الصداقة إلى الملك؟ حسبكما أن تنظرا إلى حالي لتريا ما أتمتع به من الجاه فتعرفا أنه يعرف كيف يقدر في الناس فضائلهم. وأحشويرش يعلم أنكما أيضاً من أهل الفضائل؛ ولعلكما إن أعلنتما الخضوع كافأكما بالسلطة التي سيمنحها إياها على الإغريق." فكان أن ردا على قوله:" إن نصيحتك لنا، يا هيدارنيس، لا تصدر عن معرفة تامة بالوضع. فأنت لا تحيط إلا بنصف الحقيقة. ولئن كنت تعلم معنى العبودية على أحسن وجه فإنك لم تخبر الحرية كما ينبغي أن يكون الاختبار، وإذاً فلست تدري إن كان حلواً مذاقها أم مراً.

ولو كنت قد عانيت الحرية لنصحتنا بالقتال لا بالرماح وحسب، بل وبالفؤوس أيضاً." ولقد تابع الرجلان رحلتهما بعد تلك الإقامة، قاصدين سوسة، وكان أول ما صادفهما عند مثولهما بين يدي الملك، أن أمرهما حراسه، بل قل أكرههما، على الركوع أمامه كالعبيد الخاشعين لكن الإسبارطيين ردا بالقول إنه لا يمكنهما الإتيان بمثل هذا الفعل، ولو دفع الحرس برأسيهما إلى الأرض دفعاً؛ إذ ليس من عادة الإسبارطيين عبادة إنسان آخر مثلهما، ولا هما قدما إلى فارس لهذا الغرض. وظل الرجلان على امتناعهما يأبيان الركوع أمام الملك، وقالا ما مفاده:" يا ملك الميديين، قد أرسلنا أهل إسبارطة إليكم لتنزلوا بنا عقابكم جزاء قتل رسل الفرس"؛ وكان أن رد أحشويرش برحابة صدر وأخلاق كريمة تنم عن نبالة حقة، فقال إنه ما كان له أن يسلك مسلك الاسبارطيين، وقد انتهكوا بقتلهم سفراء دولة أجنبية الشريعة التي يُجلُّها العالم كله؛ وهو لن يأتي بالأمر الذي يأخذونه عليهم، أو يقبل بالانتقام منهما، فيكونا الكفارة عما أتى به القوم من الإثم. ولقد أفلح سلوك الإسبارطيين في تهدئة غضب تالثايبيوس حيناً من الوقت، بالرغم من عودة سبيرخياس وبوليس سالمين من الأذى؛ غير أن القوم عادوا إلى معتقدهم القديم، بعد زمن طويل، إبان الحرب بين أثينا وأهل البيلوبونيز، فقالوا إن غضب تالثايبيوس عاد يتقد من جديد- وكانت يد الآلهة، في رأيي، واضحة يومئذ فيما جرى. ولهو من العدل تماماً أن يحل غضب تالثايبيوس على من قتل السفراء، ولا يزول إلا بعد إرضائه؛ أما أن يصيب الغضب أبناء الرجلين اللذين قاما بالسفارة لدى ملك الفرس بسبب هذا الغضب- وأن يستهدف ابن بوليس نيكولاوس وابن سبيرخياس أنيريستوس بن سبير ثياس، وهو الرجل ذاته الذي استولى على مستوطنة هاليبس التيرنثية، بسفينة تجارية وطاقم من المسلحين- فهذا، عندي على الأقل، دليل على تدخل الآلهة في مجريات الأحداث. وتفصيل ذلك أن إسبارطة أرسلت هذين الرجلين في مهمة إلى آسيا، فخانهما سيتاكليس بن تيريس ملك تراقيا، ومعه

نيمفودورس بن بيثيس، وهو من أبديرا، فأفشيا سرهما؛ وكان أن ألقي القبض عليهما وزج بهما في سجن بيزنطة على الهليسبونت، ثم اقتيدا إلى اتيكا، حيث أعدمهما الأثينيون، ومعهما اريستياس بن أدايمنتوس الكورنثي. غير أن هذه الأحداث جرت بعد عهد طويل من غزو أحشويرش لبلاد الإغريق، فلنعد إلى قصتنا.

كان الهدف من حملة أحشويرش العمل ضد أثينا، وهو الهدف المعلن، أما الواقع فقد كان هدفه غزو بلاد الإغريق كلها. وذلكم أمر كانت المدن الإغريقية على دراية به منذ عهد بعيد، لكنها كانت تنظر إلى الخطر المتوقع بأعين مختلفة تماماً. وكان بعضهم قد أعلن خضوعه لأحشويرش، وكانت معنوياتهم بالتالي طيبة، إذ حسبوا أنه لن يصيبهم من الغزاة ضير كبير؛ أما بعضهم الآخر، وقد رفضوا الخضوع له، فأصابهم الذعر، وبعض السبب في ذلك افتقار الإغريق للسفن لمواجهة الفرس بما يسمح لهم بمنازلتهم، مع توفر بعض الحظ في قتال متكافئ، وبعضه أن معظم الإغريق كانوا عازفين عن القتال، ونزوعهم أشد للقبول بهيمنة الفرس. وأجدني هنا محمولاً على الإدلاء برأي أعلم أن معظم الناس يعارضونه، على أنني أرى فيه صواباً، ولا أرى محيصاً عن عرضه. فأذهب إلى أن الأثينيين، لو أنهم تركوا بلادهم خوفاً من الخطر الداهم، أو إذا بقوا حيث كانوا واستسلموا لأحشويرش ولم يحاولوا مجابهة الفرس في البحر؛ ولهو يسير على المرء أن يتصور مجرى الأحداث على البر، في حال افتقار الإغريق لأسطول يؤازرهم. وعلى كل حال فقد كان مآل العديد من خطوط التحصين التي أقامها الإسبارطيون في ممر اشموس (ممركورنثه) إلى الانهيار بسبب تخلي حلفائهم عنها؛ ولست أقصد أن هؤلاء الحلفاء قد هجروا التحصينات طواعية، وإنما لأنه لم يكن أمامهم سبيل آخر، إذ كان مآلها إلى السقوط الواحدة تلو الأخرى أمام ضغط قوة الفرس البحرية. وهكذا كان الإسبارطيون سيبقون وحدهم، فإما أن يأتوا بأعمال عظيمة أو يكون مصيرهم

الموت المشرِّف. وبعد فلربما حملهم مشهد استسلام بقية الإغريق على الرضوخ لأحشويرش، قبل أن تبلغ الأمور حد المجابهة والحسم. ومهما يكن الأمر فاجتياح الفرس بلاد الإغريق كان مؤكداً؛ فلست أرى الجدوى من تحصين ممر اشموس(ممركورنثه) إذا كان للفرس السيطرة على البحر. وهكذا فإن القول بفضل الأثينيين في إنقاذ الإغريق من الوقوع في قبضة الفرس قول صائب. فقد كان الأثينيون يملكون يومئذ ميزان الترجيح، وكان الفوز مؤكداً لمن تميل إليه الكفة. ثم إنهم، وقد اختاروا لبلاد الإغريق أن تبقى حية وتحفظ لنفسها الحرية، هم من استنهض همم الدول الإغريقية التي لم تكن قد استسلمت بعد للغزاة. وكان الأثينيون هم- بعد الآلهة – من رد ملك الفرس على أعقابه. فقد كانوا مصممين أشد التصميم على المقاومة، وما كان يثنيهم عن عزمهم شيء، حتى تحذيرات عرافة دلفي الرهيبة لم تحملهم على هجر بلاد الإغريق، ولقد صمدوا في مواقعهم وكانت لهم الشجاعة لمجابهة الغازي.

كان الأثينيون قد أرسلوا الموفدين لسؤال العرافة في معبد دلفي؛ وهناك دخلت العرافة اريستونيسه، حالما تمت الطقوس المعهودة في مثل هذه الأحوال، ونطقت بنبوءتها التالية:

عَلامَ قعودكم، يا من انتهى أجلهم؟ اهربوا إلى أقصى العالم
اهجروا الوطن والجبال التي تحيط بمدينتكم كالدولاب
إن الرأس لن يبقى في مكانه، ولا الجسد،
ولا القدمان أو الكفان، ولا الأعضاء التي بينها،
بل الخراب عامّ، فالنار وإله الحرب الجامح،
مسرعاً في عربة سورية، سيأتيان لكم بالذل
ولسوف يُدمر الأبراج، وليس أبراجكم وحدها،
ويقدم للنار العاتية العديد من مزارات آلهتكم

التي تقف منذ الآن تتصبب عرقاً ومن الخوف ترتعد
بينما فوق الأسطح يجري الدم الأسود كالتيار
تلكم نبوءة بالكارثة التي ستنزل بكم. هيا انهضوا
واخرجوا من المعبد وأثقلوا قلوبكم بالحزن.

أصغى رسل أثينا إلى تلك العبارات وامتلؤوا غماً وكدراً؛ بل الحق أنهم كادوا أن يستسلموا لليأس من المصير الذي صورته النبوءة لهم، حين اقترح عليهم تيمون بن أندروبولوس، وكان من أبرز الرجال في دلفي، أن يحملوا أغصان الزيتون بأيديهم، ويعودوا بزي الزهاد ليسألوا العرافة من جديد. ولقد أخذ الأثينيون باقتراحه، وعادوا يسألون مرة أخرى: يا أبوللو! يا إلهنا! ألا رأفت بنا بحق هذه الأغصان التي نحملها لك فقدمت لنا نبوءة أفضل لبلادنا؟ فإن لم تفعل مكثنا حيث نحن لا ننتقل خطوة واحدة حتى نقضي هنا." وعندئذ نطقت العرافة بالنبوءة الثانية:

بوسع بيلاس (أثينا) أن تفوز بقلب زيوس، ولكن ليس كله،
وإن كانت تصلي معه كثيراً، بالرغم من دهائها؛
ومع ذلك سأخبركم بالقول الآخر، ثابتاً وراسخاً:
فإن يكن مآل كل ما في نطاق ملك سيكروبوس (مدينة أثينا)
إلى النهب ومعه جبل سيطايرون المقدس
سوف يستجيب زيوس العارف بكل الأحوال لصلاة أثينا
وسيحفظ السور الخشبي وحده دون الأسوار،
وسيكون عوناً لكم ولأبنائكم،
ولكن لا تنتظروا جحافل الخيول والراجلة من آسيا
ولا تسكنوا، بل أديروا الظهر وانسحبوا من مواجهة الخصم

واليوم آت لتواجهوا خصمكم وجهاً لوجه
ويا سلاميس المقدسة، لسوف تأتين بالموت
لأطفال النساء حين تتبعثر الذرة أو تجمع المحاصيل.

بدت النبوءة الثانية، كما هي حقاً، أقل رهبة من الأولى؛ وكان أن دونها الرسل ثم قفلوا عائدين إلى أثينا. فلما قرئت على الملأ عند وصولهم إلى المدينة وأخذ الناس في تفسيرها، ظهر تأويلان أحدهما يناقض الآخر كل التناقض. فحسب بعض الشيوخ أن النبوءة تعني أن الأكروبول سوف يفلت من الدمار، نظراً لأن المعبد قد أحيط بسياج خشبي مسلح بالمسامير منذ قديم الزمن، وهو المقصود بالسور الخشبي في النبوءة؛ بينما بعضه الآخر أن الإله عنى بالسور المذكور السفن، فحثوا بالتالي على التخلي عن كل أمر والالتفات إلى بناء أسطول من السفن فوراً. ولكن نبوءة العرافة حوت سطرين سبّبا إرباكاً لأصحاب الرأي ببناء السفن:

يا سلاميس المقدسة لسوف تأتين بالموت.
لأطفال النساء، حين تتبعثر الذرة أو تجمع المحاصيل

فهذا بيان غامض، وقد أثار ارتباكاً شديداً بين الذين رأوا في الإشارة إلى الجدار الخشبي معنى السفن؛ أما الذين يمتهنون تأويل النبوءات فقد أخذوا هذين السطرين على أن الهزيمة تنتظر الأثينيين في معركة بحرية عند سلاميس غير أن أحد الأثينيين الذين برزوا حديثاً، وكان يدعى ثيميستوكليس ويعرف بابن نيوكليس، تقدم بين الجمع الآن وقال إن المفسرين أخطؤوا في نقطة مهمة. ومضى في شرح رأيه وهو لو أن الكارثة التي وردت في النبوءة ستنزل بالأثينيين لما وردت بتلك العبارات المخففة، ولكان الأرجح أن تقول " سلاميس الحقود " بدلاً من "سلاميس المقدسة"، إذا كان الخراب سينزل بأهل البلد. وذهب إلى أن التأويل الصحيح لما ورد في النبوءة، هو العكس من ذلك، فهي لم تقصد الأثينيين، بل عنت أعداءهم. وقد قصدت بالسور الخشبي فعلاً السفن؛

فنصح قومه، بالتالي، بالإعداد لمواجهة الغزاة في البحر. ولقد رأى الأثينيون تفسير ثيميستوكليس أقرب إلى نفوسهم من تفسير ممتهني التفسير الذين لم يقتصروا على محاولة ثنيهم عن الاستعداد للقتال في البحر وحسب، بل وكانوا يعارضون المقاومة بأي شكل أيضاً. وكان السبيل الوحيد عندهم أمام القوم التخلي عن أتيكا والبحث عن موطن في بقعة أخرى.

وكان ثيميستوكليس قد أفلح، في مناسبة سابقة، في حمل قومه بالأخذ بآراء عرضها، فأفاد منها البلد أعظم إفادة. وتفصيل ذلك أن الأثينيين أصابوا ذات يوم ربحاً كبيراً من نتاج مناجم لاوريوم، ورأوا أن يتوزعوا ما تحقق لهم، فيكون لكل رجل نصيب من عشرة دراخمات؛ ولكن ثيميستوكليس أقنع القوم بصرف النظر عن الفكرة، وإنفاق المال، بدلاً من ذلك، في عمارة مئتي سفينة لتعبئتها في الحرب ضد إيجينا. وكان أن أنقذ اندلاع الحرب في تلك اللحظة بلاد الإغريق، حين جعل من أثينا قوة بحرية. والحق أن تلك السفن المئتين لم تستخدما للغرض الذي بناها الأثينيون من أجله، وإنما وضعت لخدمة الإغريق وقت الحاجة؛ ثم توسع الأثينيون في بناء السفن ليزيدوا في أسطولهم؛ ثم تقرر فيما بينهم، بعد مناقشة النبوءة، الأخذ بإشارة الإله ومواجهة الغزاة في عرض البحر بكل ما لديهم من القوة، ومعهم من شاء من الإغريق للانضمام إليهم في هذا المجهود.

ولقد اجتمعت دول الإغريق المنضوية تحت لواء القضية المشتركة في مؤتمر وتبادلت العهود والمواثيق، وقررت فيما بينها تسوية خلافاتها ووضع حد لأي قتال يدور بين أعضاء الحلف. وكانت الساحة حافلة يومذاك بمثل هذه الصراعات، وأشدها بين أثينا وايجينا. ولما بلغ تلك الدول نبأ وصول أحشويرش وجيشه إلى ساردیس، تقرر إرسال العيون والأرصاد إلى آسيا للإحاطة بأمر القوات الفارسية؛ ثم تقرر في الوقت ذاته إرسال سفارة إلى أرجوس لعقد حلف معها، وأخرى إلى جيلون بن دينومينيس في صقيلية، وبعثوا بوفود أخرى إلى كروسيرا وكريت، بهدف توحيد العالم الإغريقي، إذا أمكن، وحمل مختلف

الأقوام على القيام بعمل مشترك في وجه الخطر المشترك. وقد قيل في وصف جيلون إنه صاحب قوة عظيمة، دونه أي ملك أو صاحب سلطان من الإغريق. وكان المؤتمرون سريعين في تنفيذ قراراتهم. وقد تمت يومئذ تسوية المنازعات الخاصة بين الدول والحكام، ثم أرسلت الدول المتحالفة ثلاثة رجال إلى آسيا لجمع المعلومات. فوصل هؤلاء إلى ساردیس، وعرفوا ما أمكن لهم عن جيش الملك، فاكتشف أمرهم فيما كانوا يقومون بجمع المعلومات، وأخذ قادة الجيش يعملون فيهم تعذيباً. فلما علم أحشويرش بنبئهم وبلغه أنهم في طريقهم إلى الإعدام، لم يجد في تصرف القادة لديه صواباً، فأرسل بعض العناصر من حرسه الخاص لإحضار الجواسيس الثلاثة، إن كانوا ما زالوا أحياء، للمثول أمامه، فلما علم منهم أمر مهمتهم وجه حرسه إلى مرافقتهم في جولة لإطلاعهم على كل الأسلحة في جيشه من مشاة وفرسان، وإطلاق سراحهم بعد الجولة، دون أن يلحقوا بهم أي أذى، ليمضوا إلى أي بلاد يشاؤون. ومضى الملك بعدئذ إلى شرح سبب مسلكه هذا، وهو أنه لو أعدم هؤلاء الجواسيس لما عرف الإغريق مبلغ قوة الفرس إلا بعد الصدام، ثم أن إعدام الجواسيس الثلاثة لن يُلحق بالعدو أي أذى، أما إذا عادوا وأبلغوا قومهم أي قوة عظيمة تنتظرهم فلا ريب بأن البلاغ سيحملهم على التسليم طواعية قبل وقوع الغزو، فيكفون الفرس عناء خوض الحرب. وكان أحشويرش قد قال مثل هذا الرأي في مناسبة أخرى، يوم كان في أبيدوس وشاهد قوارب محملة بالمؤن تبحر عائدة من البحر الأسود عبر الهليسبونت إلى إيجينا والبيلوبونيز. وهنا تهيأ أعوانه للاستيلاء عليها حين علموا أنها من السفن المعادية، وطلبوا من الملك الإذن بالتحرك ومصادرة ما عليها من الحمولة. فسألهم أحشويرش: وإلى أين وجهتها؟" فأجابوه:" إلى أعداء فارس، يا مولانا، وهي تحمل لهم الحبوب." فقال الملك:" وإذن، أفلسنا نقصد ذات الوجهة؟ ألا تتضمن عدتنا القمح، بين أشياء أخرى؟ والحق أني لا أجد ضيراً في أن يحمل هؤلاء الرجال في تلك السفن القمح لنفيد نحن منه." وهكذا

سمح للجواسيس الثلاثة بالعودة إلى أوروبا، بعد أن قاموا بجولتهم واطلعوا على أحوال جيش فارس.

ولقد عمد الإغريق الذين وحدوا صفوفهم لمقاومة فارس إلى إيفاد رسلهم بعدئذ إلى آرجوس. ويعرض أهل البلاد لمسلكهم لاحقاً على نحو ما يلي، فيقولون إنهم كانوا على بينة منذ البداية لما يحضر له الفرس أنفسهم ضد الإغريق، كما كانوا موقنين بأن الإغريق لابد أن يسألوهم المؤازرة في التصدي للغزو؛ فكان أن أوفدوا من يسأل العرافة في معبد دلفي النصيحة فيما ينبغي لهم، وما هو في صالحهم، في تلك الظروف. والسبب في اتخاذهم هذه الخطوة أنه سقط منهم ستة آلاف رجل من عهد قريب على يد الإسبارطيين، بقيادة كليومينس بن انكساندريدس. فكان جواب العرافة التالي: احفظوا عليكم رماحكم وتيقظوا أنتم يا من يحتقركم الجوار وتؤثركم الآلهة. احرصوا على الرأس وأحسنوا حمايته، ولسوف يحفظ لكم الجسد. وكانت العرافة قد نطقت بالنبوءة، حين وصل الموفدون إلى آرجوس، ودخلوا على أعضاء مجلس الحكم ليعرضوا مهمتهم أما الجمع فكان رد مجلس الحكومة أن أبدوا استعدادهم للتجاوب وما يطلب منهم، شرط أن تكون لهم هدنة والإسبارطيين طوال ثلاثين عاماً، ثم تكون لهم قيادة قوات التحالف، جنباً إلى جنب مع الإسبارطيين، وعلى قدم المساواة معهم. ولقد كان للأرجوس حق الانفراد بالقيادة، إلا أنهم قنعوا بالمشاركة فيها، دون احتكارها. ذلك هو رد المجلس على الطلب، وفق روايتهم، بالرغم من أن النبوءة قد حظرت عليهم المشاركة في التحالف. وبعد فلئن حاذر الأرجوس معصية النبوءة فقد حرصوا على كسب هدنة الثلاثين عاماً، ليوفروا لأبنائهم عهداً من السلام لينشئوا ويشبوا ويترعرعوا في طمأنينة وأمان؛ أما إذا قصروا في بلوغ هذا العهد، وشاء لهم سوء الطالع أن يواجهوا هزيمة أخرى – على يد الفرس هذه المرة – فالأرجح أنهم سوف يجدون أنفسهم خاضعين لإسبارطة إلى الأبد. وكان أن أجاب الإسبارطيون لمطالب حكومة الأرجوس

بأنهم سوف يعرضون موضوع المعاهدة لاستفتاء الشعب ليدلي برأيه؛ وأما الموضوع الآخر، أي قيادة الجيش، فإن الوفد مزود بالتوجيهات للرد بأن لإسبارطة ملكين بينما يحكم أرجوس ملك واحد، ويستحيل حرمان أحد الملكين الإسبارطيين من حق القيادة؛ غير أنه ليس هناك، من جهة أخرى، ما يمنع ملك الآرجوس من حق التصويت على القرارات، على قدم المساواة مع الملكين. ويضيف الأرجوس أنهم وجدوا نهج الإسبارطيين على قدر عظيم من الجشع والاستئثار، وكانوا يؤثرون التسليم لهيمنة الغرباء، على التنازل عن قدر من سلطاتهم؛ وهكذا كان أن أنذروا الإسبارطيين بالمغادرة قبل الغروب، وإلا عوملوا معاملة الأعداء.

وحسبنا الآن ما بلغنا من رواية الآرجوس عن ذلك اللقاء؛ ولنلتفت إلى رواية أخرى شائعة في بلاد الإغريق، وتحكي قصة غير تلك. وهي أن أحشويرش أوفد رجلاً إلى الأرجوس، قبل أن يبدأ جيشه الزحف. فجاء هذا الرسول مخاطباً الآرجوس حال وصوله، على ما تذهب الرواية، قائلاً:" يا رجال الأرجوس، قد حملني الملك أحشويرش رسالة إليكم. وعندنا نحن معشر الفرس أننا متحدون من صلب بيرسيس بن داناي، وهو ولد بيرسيوس، وأمه اندروميدا بنة سيفيوس. وإذن فالدم الذي يجري في عروقنا وعروقكم أيها الأرجوس واحد، ولا يليق بنا أن نحارب قوماً هم أهلنا ومنهم تحدرنا، كما لا يليق بكم أن تعينوا آخرين على مناهضتنا. بل الأحرى بكم أن تنأوا بأنفسكم عن السجال الذي سوف يدور، فلا تشاركوا فيه. وإذا ما انتهت الأمور على نحو ما آمل فلن يكون هناك قوم لهم مني قدر ما لكم من الإجلال." وتذهب الرواية إلى أنه كان لرسالة أحشويرش وقع حسن بين الآرجوس؛ ولكنهم لم يقطعوا على أنفسهم أية وعود في تلك اللحظة، بل طالبوا بأن يكون لهم نصيب في قيادة الجيش؛ غير أنهم زعموا، حينما أخذ الإغريق، فيما بعد، يسعون إلى مؤازرتهم، أنه إدراكاً منهم بأن الإسبارطيين لابد أن يرفضوا مشاركتهم في القيادة، طالبوا بها، فكانت ذريعة

توسلوا بها ليتجنبوا زجهم في الحرب. وهناك من الإغريق من يقول إن أصل هذه الرواية قول صدر عن ارتحششتا في وقت متأخر جداً عن واقعة الحرب. ويذهب هؤلاء إلى أنه بينما كان كالياس بن هيبونيكوس وبعض الأثينيين في زيارة سوسة، بلد ممنون، لغرض ما، صادف أن ورد إليها وفد من آرجوس أيضاً ليسألوا ارتحششتا بن أحشويرش إن كان ما يزال يعتبر صلات الود التي أسسها الآرجوس ووالده قائمة، أم أنهم باتوا عند الفرس من الأعداء. فرد ارتحششتا بأنها ما تزال على حالها القديم، ولست أعتقد أن هناك مدينة أفضل من آرجوس في صداقتها وفارس.

ولست أملك القول جازماً إن كان أحشويرش قد بعث برسول إلى آرجوس فعلاً، كما لا استطيع الجزم بصدق قصة سفر الأرجوس إلى سوسة لسؤال ارتحششتا في أمر علاقتهم بفارس. ففي هذا الموضوع أجدني ممسكاً عن الإدلاء برأي، ولا قول لي سوى ما صدر عن الأرجوس أنفسهم. غير أنني على ثقة من أمر واحد، وهو أنه لو اجتمعت البشرية وحمل كل إنسان معاناته ليبادلها، فإنه بعد إمعان النظر في هموم سواه، سيؤثر ما هو فيه على ما يعاني منه جاره. وإذن فليس الأرجوس بالأسوأ بين الأعداء. إن شاغلي هو تدوين ما يقول الناس، ولكني لست ملزماً في أي حال بالتسليم بما يقولون- وهذا القول يصدق على ما يرد في هذا الكتاب كله. وهناك، بعد، قصة أخرى تروى عن الأرجوس ويذهب أصحابها إلى أن الآرجوس هم الذين حرضوا الفرس على غزو الإغريق ليخففوا عنهم وطأة الحرب مع إسبارطة، ووجدوا أن أي حال أفضل من نكبتهم.

كان أصحاب الحلف قد وجهوا سفارة إلى صقيلية للتداول مع جيلون في الأمر الداهم، وكان بين أعضاء السفارة سياجروس الإسبارطي. وقد قدم جد جيلون، الذي توطن في البداية في جيلا وبها عُرف، من جزيرة تيلوس، قبالة تريوبيوم، فلما أقام أنتفيموس واللينديون الرودوسيون مستوطنة جيلا، مضى

مع القوم إلى هذه المهمة. ثم غدا عقبه مع مرور الزمن كهنة في معبد إلهات الأرض، وهذه وظيفة ما انقطعوا يقومون بها منذ أن تولاها تيلين. أما كيف فازوا بها فقصة تُروى، وتفصيل ذلك أن بعضهم اضطرتهم الحرب الأهلية التي اندلعت في جيلا للهرب منها والبحث عن مأوى آمن في ماكتوريوم في التلال المجاورة، ولكن تيلين أعاد هؤلاء القوم إلى موطنهم، لا بقوة السلاح، وإنما بفضل رموز إلهات الأرض المقدسة. أما سبيله إليها فأمر لم يبلغ علمي؛ وجل ما أعلم هو أنه اعتمد عليها، وعليها وحدها، في مسعاه، وعاد باللاجئين، شرط أن يكون له وأولاده وعقبهم منصب الكهانة. ولهو من العجب، على ما بلغني من خبره، أن يستطيع تحقيق هذه الأعجوبة. فلطالما كنت أعتقد أن من يملك القوة والشجاعة قادر على تحقيق الخوارق؛ ومع ذلك فإن أهل صقيلية يزعمون أن تيلين هذا لم يكن ذا قوة ولا كان من أهل الشجاعة، بل الحق أنه كان يتصف بالنعومة والتخنث. ولكن حسبنا من أمره أنه بلغ منصبه على نحو ما روينا.

بعد مقتل كلياندر بن بنتاريس- وقد اغتاله سابيلوس الجيلي بعد أن حكم جيلا سبع سنين- انتقلت السلطة إلى أخيه هيبوكراتيس؛ أما جيلون، وهو من عقب الكاهن تيلين، فكان مع آخرين، منهم انيسديموس وبتايكوس، من بين حرسه. وقد قدر لجيلون أن يترقى سريعاً إلى رتبة قائد الفرسان، بعد أن برز وهو بإمرة هيبوكراتيس في المعارك التي خاضتها قواته وحصار كاليبوس وناكسوس وزانكل وليونتيني وسيراكوزه، وشعوب عديدة أخرى. ولقد خضعت تلك المدن كافة، فلم تنج من هذا المصير سوى سيراكوزه، فأنقذها تدخل كورنثه وكورسيرا، بعد هزيمتها في المعركة عند نهر ايلوروس؛ وكان ذلك حين تفاوضت المدينتان على إحلال السلام، شرط أن تتخلى سيراكوزة عن كامارينا، وهي بلدة كانت في ماضي الأيام في ملك هيبوكراتيس.

كان هيبوكراتيس الطاغية في جيلا، وظل قائماً عليها مدة تماثل عهد أخيه كلياندر، ومات أثناء الهجوم على هيبلا في إحدى الحملات على الصقيليين. وكان

موته الفرصة التي ينتظرها جيلون، فتظاهر بتأييد ولدي هيبوكراتيس، ايوكليديس وكلياندر، في صراعهما مع أهل جيلا، وهم يسعون للخلاص من نير الطغيان، فقمع المتمردين بقوة السلاح، ثم استولى على السلطة، منتزعاً ثمار النصر من الأخوين. وأعقب تلك الضربة الناجحة بأن نصب نفسه سيداً على سيراكوزه. وكان العامة قد طردوا أصحاب الأراضي الأغنياء، بمساعدة عبيدهم (ويعرفون بالسيلير) فلجؤوا إلى كازمين؛ ولكن جيلون أعادهم إلى سيراكوزه واستولى على البلدة، دون مقاومة من العامة الذين استسلموا له حالما شاهدوا زحف قواته. ولقد أدى استيلاؤه على سيراكوزه إلى قلة اهتمامه بجيلا، فسلمها إلى شقيقه هيرون، بينما مضى هو في تحصين سيراكوزه، وقد غدت بمثابة السويداء منه، وسرعان ما نمت وازدهرت كالشجرة الفتية، فجلب إليها كل أهل كامارينا التي خربها حتى سوّاها بالأرض، ثم منح أهلها حقوق المواطنة، ثم أحضر إلى سيراكوزه نصف سكان جيلا ومنحهم أيضاً حقوق المواطنة ،أما أهالي ميجارا الذين كانوا في حرب مع جيلون ،فقد أجبرهم على الاستسلام وكانوا يتوقعون الموت على يديه. إلا أنه عمد بدلاً من ذلك إلى نقلهم إلى سيراكوزه ومنحهم حقوق المواطنة على قدم المساواة مع المواطنين الآخرين. أما عامة أهالي ميجارا فقد بيعوا رقيقاً في الخارج، وكانوا يظنون أنهم سيلقون معاملة حسنة، لبراءتهم من جريرة الحرب. كذلك لقي أهل أيوبويا الصقيليين مثل معاملة الميجاريين، فكان التمييز بين الأثرياء والعامة الفقراء. وكان جيلون في هذا يتصرف وفق معتقده بأن الجماهير لا تحمل إلا الإزعاج. ولقد صعد بهذه الأساليب وغدا طاغية، له سلطان عظيم.

وعوداً إلى موضوعنا أقول إن رسل الإغريق لما وصلوا إلى سيراكوزه دخلوا على جيلون، وخاطبوه بما مفاده:" قد أرسلَنا إليكم الاسبارطيون وحلفاؤهم لنيل العون في مقاومةالبرابرة. وأنتم تدرون بالطبع من القادم إلى بلاد الإغريق، وأن الفرس قد أوشكوا على اجتياز الهليسبونت والزحف علينا من آسيا ومن ورائهم

كل جيوش الشرق، وغرضهم استعباد كل بلاد الإغريق، تحت شعار واه هو قتال أثينا. إن قوتكم عظيمة، وأنتم باعتباركم صاحب صقيلية، تملكون رقعة لا يستهان بها من بلاد الإغريق؛ ولذلك نسألكم أن تضموا قوتكم إلى قوتنا في كفاحنا لتبقى بلادنا حرة. ففي وحدة بلاد الإغريق قوة لها، وبها تكون نداً للغازي؛ أما إذا خان بعضنا وتنحى بعضنا الآخر، ولم يكن في الميدان سوى الأقلية، فالخوف من سقوط بلاد الإغريق عندئذ مبرر. ولا تحسبن أن الفرس إن هزمونا في المعركة وفروا زيارتكم بعدنا. فهم قادمون إليكم بلا ريب- فخذوا حذركم واحتاطوا للأمر قبل أن يداهموكم في عقر داركم. وأنتم إذ تقدمون لنا المؤازرة إنما تدافعون عن أنفسكم. وكم أفلح من أعد للأمور عدتها واستقبل الأيام بالتدبير." وكان أن جاء رد جيلون على هذا الخطاب مشحوناً بالقوة والحماس:" يا رجال الإغريق، بأي وجه تأتون وتعرضون لي حججكم التي تنضح بالأنانية لتطلبوا مني مساعدتكم في مقاومة غاز غريب؟ أفنسيتم أني كنت ذات يوم أيضاً في مثل حالكم في حرب مع دولة غريبة، هي قرطاجنة، وسألتكم العون؟ نعم، لقد رجوتكم العمل والانتقام من أهل ايجيستا لقتلهم دوريوس بن اناساندريس، وطلبت المساعدة لتحرير الموانئ التي كانت مصدر ربح وفائدة عظيمة لكم. فماذا كان ردكم؟ لقد أبيتم مساعدتي ولم تحركوا ساكناً للانتقام لمقتل دوريوس- وما كان يعنيكم في شيء إن كان هذا البلد كله تحت حكم الأجنبي. ولكن أموري غدت في أحسن حال. ثم ها هي الحرب تطل عليكم الآن، فإذا بكم تتذكرون جيلون! ومع ذلك فلئن كان شأنكم الازدراء بي والاستخفاف بشأني في الماضي فإني لن أقتدي بكم الآن. وهأنذا أعرض عليكم المساعدة بمئتي سفينة ثلاثية المجاديف وعشرين ألف من المشاة وألفين من الفرسان وألفين من رماة السهام ومثلهم من رماة المقلاع وألفين آخرين من الفرسان الخفيفة؛ ولكم مني مؤونة جيش الإغريق كله ما دامت الحرب قائمة. وذلك كله لقاء شرط واحد - هو أن تكون لي القيادة العليا لقوات الإغريق

المحاربة ضد الفرس، وإلا فإني لن أحضر هذه الحرب ولن أرسل قواتي لتشارك فيها ". ولقد نزلت هذه الأقوال ثقيلة على سياجروس، فانفجر قائلاً:" إن أجاممنون بن بيلويز كان سيتلوى في قبره لو بلغه أن جيلون انتزع القيادة من إسبارطة! فدعنا من الحديث عن تسليمك القيادة. وإذا كنت تشاء إعانة الإغريق على هذا الأمر فاعلم أن ذلك سيكون بقيادة إسبارطة. أما إذا كنت تنفر من فكرة الخدمة دون القيادة فلك أن تمسك عن المساعدة." ولما سمع جيلون مقالة سياجروس، وأدرك أنه من المرجح ألا يقبل شروطه، تقدم بعرضه النهائي، فقال:" يا صديقي الإسبارطي، إن التكبر يجلب السخط أحياناً. ولئن سمعت منك الإهانات فإني أجيبك بما تفرضه اللباقة: إذا كنتم متمسكين بحقكم في القيادة فحق لي أن ألح أشد من ذي قبل على طلب القيادة، طالما أن لدي أسطولاً أعظم مما لديكم وجيشاً أضخم مما عندكم أضعافاً مضاعفة. ومع ذلك إن شق عليكم العرض الذي سمعتم فلعلي أعرض، بعد، بعض التنازل، لنقل أن تكون لإسبارطة قيادة القوات البرية، ولي قيادة البحرية. أو لكم البحر إذا شئتم ولي البر. فإما أن تقبلوا بهذا الاقتراح أو تتدبروا أموركم دون الدعم القوي الذي أستطيع توفيره لكم:" فأسرع موفد أثينا بالجواب، دون أن يدع لسياجروس فرصة للرد، إذ ما إن انتهى جيلون من بسط عرضه، حتى رد بقوله:" يا ملك سيراكوزه، إن الإغريق لم يوفدونا إليكم لنبحث عن قائد لنا، وإنما لنأتي بجيش يشد من أزرنا. ولكن من الجلي أنك لست مستعداً للزج بقواتك ما لم تكن أنت على رأس القيادة– وهو الأمر الذي جعلت الفوز به نصب عينيك. والآن، عندما طالبت بأن تكون لك الإمرة على قوات الإغريق كافة نأينا بأنفسنا عن التدخل وأمسكنا عن الكلام، فقد كنا ندرك أن رفاقنا الإسبارطيين قادرون على التعبير عن موقفنا معاً؛ ولكن الأمور باتت تختلف الآن؛ ذلك أنك أصبحت تطالب بإمارة الأسطول، بعد أن فشلت في نيل مطلبك الأول. ولكن ليكن معلوماً أنه وإن سلمت إسبارطة بهذا المطلب، لن نقبل نحن به. فقيادة

الأسطول، إذا لم يكن إسبارطة راغبة بها، حق لنا. ونحن لن نعارض إن شاءت إسبارطة أن تتولى إمارته، لكننا لا نقبل التخلي عنه لأي كائن آخر. فما جدوى أن نبني أفضل سلاح بحر في بلاد الإغريق كلها، إذا سلمناه للسيراكوزيين؟ أفلسنا سكان أثينا- أعرق شعوب الإغريق كلها، والأمة الوحيدة التي لم تهجر الأرض التي نشأت فيها؟ ألم يقل الشاعر هوميروس أننا بعثنا إلى طروادة أفضل من يوجه جيشاً ويحركه. وإذا تحدثنا على نحو ما سمعت وبلغك فلأن لنا من تاريخنا ما يبرر هذا الحديث وهذا المنطق." رد جيلون على خطبة الأثيني، فقال:" يبدو أن لديكم، يا صاحبي، قادتكم، إنما تفتقرون للرجال كي يقودونهم. ولما كنتم تطالبون بكل شيء ولا تتنازلون عن شيء، فالأجدر بكم أن ترحلوا بأسرع ما تستطيعون لتخبروا الإغريق بأنهم أضاعوا الربيع، وذهب هباء". وكانت تلك نهاية المفاوضات بين الإغريق وجيلون، بعد أن رد وفدهم على أعقابهم عائدين إلى ديارهم. ولقد كان جيلون ذاته يخشى ألا يقوى الإغريق على الصمود أمام غزو الفرس؛ ولكنه لم يكن في الوقت ذاته قادراً على أن يتحامل على نفسه ويذهب إلى البيلوبونيز ويخضع، وهو الطاغية في صقيلية، لأوامر الإسبارطيين. فكان أن اختار نهجاً آخر مختلفاً. فما إن بلغه نبأ بدء أحشويرش عبور مضيق الهليسبونت، حتى أرسل ثلاث سفن بإمرة قدموس بن سكايثاس، وهو من كوس، ووجهه إلى معبد دلفي، ومعه مبالغ طائلة من المال وما لا يحصى من عبارات الود، ليلقي مراسيه هناك ويرصد تطورات الحرب؛ وكان عليه أن يقدم لأحشويرش المال والماء والتراب من مملكة جيلون، في حال فوز الفرس في القتال. أما إذا كان الفوز من نصيب الإغريق فليس عليه سوى أن يقفل عائداً بالمال.

وكان قدموس هذا قد ورث ولاية كوس عن والده الذي أرسى فيها دعائم سلطته على أقوى الأسس؛ ولكن الابن شاء أن يتنازل بمحض إرادته، ودونما ضغط من أحد، عن سلطته للشعب. وقد غادر بلده منذ تلك اللحظة وسافر إلى

صقيلية، حيث أقام في بلدة زانكله ومعه الساموس، أو الميسيان كما غدوا يعرفون. وتلكم هي قصة نزول قدموس في صقيلية، وذلك هو السبب الذي جعل جيلون، وقد لمس فيه إحساساً بالكبرياء والأنفة، يختاره لهذه المهمة إلى دلفي. ولقد برهن الرجل على أمانته بأن حمل تلك المبالغ الضخمة من المال والتي عهد بها جيلون إليه، وكان بوسعه أن يحتفظ بها لنفسه، فآثر أن يعيدها لصاحبها؛ وهذا آية من آيات الأمانة التي عرف بها، ولكنه فاق كل حد هذه المرة؛ ذلك أنه ما إن تحقق للإغريق الفوز في الحرب وعاد أحشويرش أدراجه، حتى رجع قدموس إلى صقيلية وسلم الأمانة لصاحبها غير منقوصة. وهناك رواية تدور في صقيلية وتذهب إلى أن جيلون كان في سبيله إلى توجيه دعمه إلى الإغريق وإن كان ذلك ينطوي على خضوعه لأمر إسبارطة، لولا أنه شُغل بأمر تيريللوس بن كرينيبوس طاغية هميرا. وتفصيل ذلك أن ثيرو بن اينسيديموس صاحب أجريجينتوم، قدم إلى صقيلية، بينما كان جيلون يتأهب لزج قواته إلى جانب الإغريق. وكان اتيريللوس قد أنزل فيها جيشاً كبيراً تعداده ٣٠٠ ألف من مختلف الجنسيات، منهم القرطاجنيون والليبيون، والأيبيريون والليجوريون والهيليكيون والسردانيون والكورسيكيون، وعلى رأسهم ها ميلكار بن هانو ملك قرطاجنة. وكان تيريللوس قد أفلح في حمل هاميلكار على توجيه هذه القوة إلى صقيلية، مستفيداً في ذلك من رابطة الصداقة التي تجمع بينهما، إنما الأهم من ذلك التأييد الحار الذي أبداه طاغية رجيوم آنكسيلاوس بن كريتينس، الذي كان زوج ابنة تيريللوس كايدييه، لهذا المشروع إذ أراد به نيل رضى حميه، فقدم أولاده ضمانة لدى هاميلكار ليشارك في الحملة. فلما كان يستحيل على جيلون أن يرسل قواته إلى نجدة الإغريق، بينما هو يتصدى لهذا الخطر الداهم اختار أن يوجه المال إلى دلفي. ويزعم الصقيليون، بعد، أن انتصار جيلون وثيرون على هاميلكار القرطاجي كان في اليوم نفسه الذي انتصر فيه الإغريق على الفرس في موقعة سلاميس. ولقد كان هاميلكار قرطاجياً في بعضه، أي من ناحية

الأب، وحسب، بينما أمه من سيراكوزه أصلاً؛ وأما توليه ملك قرطاجنة فلجدارته؛ وقد بلغني أنه لما أخذت المعركة تتحول لصالح العدو اختفى عن الأنظار. ولقد بحث عنه جيلون في كل البقاع، فلم يقع له على أثر، حياً أم ميتاً. وتذهب الرواية الدائرة في قرطاجنة أن هاميلكار ظل في معسكره ولم ينقطع طوال المعركة، وقد استمرت حتى وقت متأخر من الليل، عن حرق الأضاحي تزلفاً إلى الآلهة لتمنحه النصر؛ ولما أخذ جيشه ينهار في النهاية رمى بنفسه في النار فأصبحت جثته رماداً، وهكذا تلاشى واختفى. ومهما كان الأمر في تفسير اختفائه، فإن القرطاجنيين يحيطونه اليوم بالقداسة ويقدمون له القرابين، وقد أقاموا له النصب في جميع مدنهم، علاوة على ما شيدوه له في قرطاجنة ذاتها وهو أعظم النصب وأروعها على الإطلاق. وهكذا كانت نهاية الحملة على صقيلية. واعلموا أن رسل الإغريق إلى صقيلية كانت لهم زيارة إلى كورسيرا أيضاً، وكان قصدهم طلب المساعدة، وتوسلوا في ذلك بالعبارات ذاتها التي سمعها جيلون منهم. فكانت النتيجة وعداً من الكورسيريين بالمساهمة بأسطول لخدمة الحلف؛ وقالوا في ذلك إنه ليس بوسعهم الوقوف جانباً ورؤية الإغريق يغلبون على أمرهم؛ وقطعوا على أنفسهم العهد ببذل كل ما في طاقتهم لمساعدتهم؛ فلو سقطت بلاد الإغريق لما انقضى اليوم حتى يلتفت الأعداء إليهم، وليجدوا أنفسهم عبيداً يرزحون تحت نير سادتهم. ولقد بدا ما سمعه الوفد مبشراً بأمل طيب، ولكن الأفعال عندما جدّ الجد لم تأت مطابقة للأقوال، فعندما دعا الداعي كانت الخواطر قد تبدلت؛ فلما جهز الكورسير أسطولاً من ستين سفينة حربية، تلكؤوا بعض الوقت قبل إنزاله إلى البحر، ولم يبعد بعدئذ عن منطقة البيلوبونيز، ثم ظل يحوم حول بيلوس وتاينروم، منتظراً، مثلما فعل جيلون، ما ستسفر عنه المعارك. وكان يرجح عندهم أن الإغريق لن يكون لهم نصيب في الفوز؛ وأن حظ الفرس بالنصر هو الأعظم، وجنحوا إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الفرس سيغدون أسياد بلاد الأغريق. فأحكموا مسلكهم على نحو يتيح لهم

أن يقولوا لأحشويرش، في حال أن غدا المهيمن على البلاد، أنهم وإن أنزلوا إلى البحر - استجابة لنداء النجدة من الإغريق - أسطولهم وهو ثاني أعظم الأساطيل بعد أسطول أثينا، إلا أنهم رفضوا زجّه في الحرب، مراعاة له، ولم يأتوا بعمل قد يصيبه بالضيق. وكانوا يأملون بأنهم سينالون بهذا المسلك معاملة أفضل مما ستناله دول الإغريق الأخرى- ولا ريب عندي أن هذا ما كان يراودهم حين سلكوا هذا المسلك. وكان هذا يوفر لهم عذراً يخاطبون به الإغريق، وقد توسلوا به حين قرعوهم لتقصيرهم في توفير الدعم حين طُلب منهم. فكانت ذريعتهم أنهم أرسلوا فعلاً ستين سفينة للمساعدة، وحالت دون التفافها حول رأس ماليا للوصول إلى هدفها رياح شمالية شرقية عاصفة، فكان أن افتقدت قواتهم حين دارت رحى المعركة في سلاميس- ولم يكن ذلك تخاذلاً أو جبناً.

وأما الكريتيون فقد أوفدوا عند وصول رسل الإغريق حاملين نداء العون، من يسأل العرافة في دلفي إن كان من المفيد لهم الانضمام إلى حلف الإغريق. وكانت نبوءة العرافة كما يلي: "أيها الحمقى، أما كرهتم الدموع التي ذرفتموها بسبب ما حل بكم من غضب مينوس لمساعدتكم مينلاوس؟ أما غضب لتقاعس الإغريق عن مساعدتكم في الانتقام لمقتله في معركة كاميكوس، وأنتم الذين أنجدتموهم في الثأر لاغتصاب أمير غريب امرأة إسبارطية؟ وما كان من الكريتيين حين سمعوا النبوءة إلا أن أعرضوا عن الدخول في الحلف. وتذهب الرواية إلى أن مينوس ذهب إلى سيكانيا- كما كانت تعرف صقيلية قديماً- بحثاً عن دايدالوس (صاحب المتاهة)[٤] فمات هناك ميتة شنيعة. وبعد فترة من الزمن ذهب جميع أهالي كريت، عدا أهل بوليخنا وبرايسوس، بأمر من الإله، في أسطول عظيم إلى سيكانيا، وهناك أمضوا خمس سنوات في حصار كاميكوس- وعهدي بها ناحية في أجرجنتوم. ولقد عصي عليهم أخذها، أو الاستمرار في حصارها لشح المؤن، فرفعوا أشرعتهم في النهاية ورحلوا عنها.

وفيما كانوا يتابعون رحلتهم هبت عليهم، قبالة أيابيجيا، عاصفة هوجاء عصفت بهم وحطمت سفنهم، ورمت بهم على شاطئها. وحين انقطعت بهم سبل العودة إلى كريت أقاموا مدينة هيريا واستوطنوها، وغدوا يعرفون من ثم بأيابيجيان ميسبيا، بعدما كانوا يسمون الكريتيين. ولما رسخ استيطانهم في هيريا انتقلوا لبناء مدن أخرى، وقد عانى أهل تارنتوم، بعد عهد طويل من ذلك الوقت، وتكبدوا أفدح الخسائر في محاولة طردهم منها؛ بل ونزلت بهم يومذاك مذبحة لم يعرف الإغريق مثلها، على ما بلغت من العلم، فلم تقتصر على التاريتين وحدهم، وإنما نالت أهل ريجيوم الذين اضطرهم مايكاثوس بن خويروس إلى دعم التاريتين، فسقط من بينهم ثلاثة آلاف قتيل. أما ما تكبده هؤلاء فأكثر من أن يحصى. ومايكاثوس هذا كان خادماً في بيت أنكسيلاوس وترك ريجيوم في عهدته، وهو الذي قدّم التماثيل الشهيرة التي تقوم على جبل أولمبوس. وحسبنا هذا من خبر ريجيوم وتارينتوم. ولنعد لمتابعة روايتنا.

وتذهب رواية أهل برايسوس إلى أن أقواماً شتى قصدت كريت واستوطنت فيها، وإن كان الإغريق العنصر الغالب بينهم، بعد أن هُجِّر أهلها في الحملة على صقيلية؛ ثم كانت حرب طروادة، وكان أهلها يومئذ من الجيل الثالث بعد موت مينوس، وأبدوا في القتال ضراوة جعلتهم أشرس أنصار مينلاوس، وكان جزاؤهم بعد عودتهم المجاعة والوباء؛ وقد استفحل أمرهما فلم يسلم منهما بشر أو ماشية، فافتقدت السكان مرة ثانية. وهكذا وجدنا أن سكان كريت حالياً، ومعهم من نجا من سكانها القدامى، ثالث شعب يستوطن الجزيرة. وكانت هذه الأحداث ما قصدت عرافة دلفي الإشارة إليها تذكرة للكريتيين بالأحداث الماضية، وهي التي ردعتهم عن الانضمام إلى حلف الإغريق، وإن كانوا يميلون إليه. أما التساليون فلم يستسلموا للفرس حتى حملتهم الأحداث على ذلك، وبعدما ضاقوا ذرعاً بألاعيب أليوادي. وتفصيل ذلك أنه لما بلغ القوم أخبار اعتزام جيش فارس العبور وشيكاً إلى أوروبا أرسلوا موفديهم إلى ممر

أشموس (ممركورنثه) حيث اجتمع الموفدون من بلدان الإغريق المتحالفة لدرء الخطر. وما إن وصل السفراء التساليون حتى بادروا المجتمعين بالحديث: " علينا أيها الأخوة، أبناء الوطن، أن ندافع عن الممر بين الجبلين أولمبوس وأوسا، إن شئنا أن نحمي تسالية وبلاد الإغريق كافة. وإنا لجاهزون لمساعدتكم في الدفاع عن هذا الممر الحيوي، وعليكم أنتم، بدوركم، أن تزجوا في الميدان قوة كبيرة يعتدٌ بها. ولكن إذا قصرتم في هذا، والواجب يفرض أن نحذركم، فإننا سوف نختار مصالحة الفرس. فبلدنا مكشوفِ، وليس لكم أن تتوقعوا منا أن نضحي بحياتنا، وحدنا وليس هناك من يعيننا، في سبيل الآخرين. فإذا كنتم عازفين عن إمدادنا بالعون، فليس لكم أن تفرضوا علينا أن نخوض معركتكم؛ فالعجز الصريح أقوى من كل ضرورة. ولسوف نحاول من جهتنا أن نتدبر طريقة نأمن بها شر الأخطار."

وكان جواب الإغريق وعداً بتوجيه جيش، بحراً، إلى تسالية للدفاع عن الممر. وكان أن تم حشد الجنود على ظهر السفن، عبر أوريبوس، ثم نزلوا في آلوس في آخيا، حيث رست السفن، وساروا إلى تسالية راجلين. فاحتلوا تمبا، وهو الممر الذي يصل بين جنوب مقدونيا وتسالية، وعلى امتداد مجرى نهر بنيوس، بين جبلي، أولمبوس وأوسا. وهنا اتخذ مواقعهم عشرة آلاف من المشاة الإغريق، تؤازرهم وحدات من الفرسان التساليين. وكان على رأس الإسبارطيين، وانتوس بن كارينوس، وقد اختاره أمراء الجيش لهذا المنصب، بالرغم من أنه ليس من النبلاء. وفي قيادة الأثينيين ثيميستوكليس بن نيوكليس. ولكن ما إن مضت بضعة أيام على هذا الجيش حتى وردت رسالة من الإسكندر بن أمينتاس في مقدونيا ينصح فيها بانسحاب قوات الإغريق من مواقعها، لئلا تقضي تحت سنابك الخيل، وهو يعرض مبلغ قوة جيش فارس وأسطولها. ولقد بدت النصيحة سليمة، وقدمها المقدوني بروح طيبة، وكان أن أخذ بها الإغريق. ولكني أحسب أن ما حملهم على الأخذ بهذه النصيحة ما بلغهم عن طريق أخرى تؤدي إلى

تسالية،من شمال مقدونيا وبيرايبه، بالقرب من بلدة جونس- وهو الممر الذي سلكه جيش أحشويرش فعلاً في زحفه. وكان أن ركب الإغريق سفنهم وأقلعوا عائدين إلى ممر أشموس (ممركورنثه). تلكم هي الظروف التي أحاطت بالحملة التسالية - وقد جرت وأحشويرش في آبيدوس، قبيل عبور المضيق من آسيا إلى أوروبا. وكانت نتيجة الأمر، أن اسرع التساليون، إذ وجدوا أنفسهم بلا ظهر في الساحة، متحمسين للعمل لخدمة الفرس، وكانوا أعظم عون لأحشويرش في الحرب.

ولما عاد الإغريق إلى ممر أشموس (ممركورنثه) أخذوا يبحثون عن الموقع المناسب لهم، في ضوء ما بلغهم من تحذير الإسكندر من قوة الفرس. وكان أن جنحوا إلى الرأي القائل بحراسة ممر ثيرموبلاي، باعتباره أضيق من الممر إلى تساليه وأقرب إلى أرضهم في الوقت ذاته. وكانوا آنذاك ما زالوا يجهلون طريق الجبل الذي سلكه الفرس وفاجأوا الرجال في ثيرموبلاي من المؤخرة، وأخذوهم على حين غرة، وما علموا به إلا بعد وصولهم من أهل تراخيس. وكان قرار الجمع، إذن، التشبث بالممر للحيلولة دون دخول الفرس الأرض الإغريقية، وتوجيه الأسطول، في الوقت ذاته، إلى أرتيميسيوم على ساحل هيستياي، حيث يسهل اتصال القوات ببعضها لقرب الموقعين من بعضهما. وما يلي وصف للأرض وتضاريسها. تقع ارتيميسيوم حيث يضيق البحر جنوب تراقيا فيكون قناة ضيقة بين جزيرة سياثوس وبر مجنيسيا؛ فإذا ما مررت بالقنال صادفك شريط على الساحل، وهذا ما يعرف باسم ارتيميسيوم، وهو جزء من أوبويا، ويضم معبد أرتيميس. ويبلغ عرض الممر المؤدي من تراخيس إلى بلاد الإغريق، عند ثيرموبلاي، خمسين قدماً، ويصبح أضيق شرقاً وغرباً؛ ثم إنه عند ألبيني، شرقاً، لا يتسع إلا لعربة واحدة؛ وله مثل هذا العرض حين يقترب المرء من أنثيلا على نهر فنيكس (الفينيق)، غرباً. أما في جنوب غرب الموقع فالمرور متعذر، لأن الممر مغلق، والطريق شديدة الانحدار، وتؤدي إلى جبل أوسا، بينما يحاذي

البحر من الطرف الآخر وتتخلله الأماكن ذات المياه الضحلة. ويحفل الممر بينابيع المياه الساخنة– وتعرف عند أهل المنطقة بالبرك– ويعلوها مذبح مكرس لهرقل. وكان هناك فيما مضى جدار وله بوابة فوق الممر، وقد بناهما الفوك خوفاً من غزو التساليين، يوم قدموا من ثريسبروتيا ليستقروا في ناحية أيوليس، وما زالوا يسكنونها إلى اليوم. وقد حاول المستوطنون الجدد اكتساح أرض الفوك، فأقام هؤلاء الجدار ليردع المغيرين، ثم قاموا بتحويل المياه الحارة عن مجراها إلى الممر ليقسموا الأرض جداول، ولم يدعوا وسيلة إلا ولجأوا إليها لمنع التساليين من دخول أراضيهم. وهذا الجدار قديم يعود إلى زمن بعيد، وقد تداعى معظمه وأصبح خراباً لطول العهد؛ غير أن القوم عزموا الآن على تجديده واستخدامه في منع الفرس من دخول بلاد الإغريق. وهناك بالقرب من هذا الدرب قرية تدعى ألبيني، وعليها عول الإغريق في الحصول على المؤن. تلكم هي، إذن، المواقع التي وجدها الإغريق ملائمة لخططهم؛ ولقد حملتهم دراسة الظروف كافة دراسة معمقة، ثم إدراكهم عجز الفرس عن استخدام فرسانهم أو الإفادة من تفوقهم عددياً، على اتخاذ القرار بالصمود في هذا الموقع؛ فلما بلغهم أن العدو بات في بييرا تركوا ممر أشموس (ممركورنثه) ومضوا إلى مواقعهم الجديدة، وقد جاء بعضهم راجلاً إلى ثيرموبلاي، بينما مضى بعضهم الآخر بحراً إلى ارتيميسيوم. وفيما كان جند الإغريق يهرعون إلى مواقعهم ، لجأ اهل دلفي إلى العرافة، وقد استبد بهم القلق من المصير الذي يتهددهم والبلاد سواء بسواء، لتخبرهم بما عليهم فعله في وجه الخطر الداهم. فكانت نصيحة العرافة أن " اطلبوا رضى الرياح، لأنها ناصرة ملة الإغريق." وكان أول ما فعل أهل دلفي عند سماع النبوءة أنهم أذاعوها في كل دول الإغريق التي أعلنت تصميمها على القتال لصون حريتها؛ وحق لهم بإذاعة هذه الرسالة الملهمة، في وقت كان فيه الذعر قد استولى على الإغريق من شبح الغزو، امتنان الأمة على مر الزمان. وكان من أمرهم بعد هذا أنهم أقاموا مذبحاً للريح في ثيا– وهو

موقع أطلقوا عليه اسم ابنة سيفيسوس، ولها فيه مذبح– وقدموا القربان للعواصف، خاشعين. وما زال أهل دلفي يصلون للرياح إلى يومنا تقرباً وتزلفاً.

بينما كانت الأمور تجري على هذا النحو في بلاد الإغريق، وجدنا أسطول أحشويرش قد غادر ثيرما، واتجهت عشرة من أسرع السفن نحو سياثوس، حيث كانت ثلاث من سفن الإغريق تجوب المياه تستطلع الأحوال، ومنها واحدة من ترويزن، والثانية ايجينية، والثالثة أتيكية. فلما لاح لها مشهد سفن العدو أسلمت أشرعتها للرياح، وأسرعت بالهرب من موقعها، فجدَّ الفرس في أثرها، فسقطت السفينة الترويزينية فوراً، وكانت بقيادة بركسينوس، وقام من استولى عليها عندئذ بالبحث عن أفتى المقاتلين وأشدهم وسامة، واقتادوه إلى مقدمة السفينة وقطعوا رأسه، اعتقاداً منهم، بلا ريب، بأن التضحية بأول أسير وسيم من الإغريق تجلب الخير لهم. ولربما كان اسم هذا الرجل، وهو ليون (الأسد) سبباً فيما انتهى إليه. أما السفينة الايجينية، فكان أخذها أصعب للفرس. وقد برز أحد الجنود على ظهرها، ويدعى بثياس بن اسخينوس، في ذلك اليوم، فقاتل المغيرين أشد قتال، وظل يقاومهم حتى نالت سيوفهم من كل قطعة من جسده، إلى أن سقط، إنما لم يكن قد فارق الروح بعد، فهرع إليه الفرس متلهفين لإنقاذ هذا البطل فبذلوا ما استطاعوا وضمدوا له جراحه بالمر وقماش الكتان. ولما عادوا إلى قاعدتهم عرضوا أسيرهم بكل إعجاب وتقدير، وعاملوه بالعطف والرحمة. أما الأسرى الآخرون من بحارة السفينة فكانت لهم معاملة الرقيق. وهكذا سقطت سفينتان من سفن الإغريق الثلاث في قبضة الفرس؛ وأما الثالثة، وكانت بقيادة فرموز الأثيني، فجنحت إلى الشاطئ، فيما كانت تحاول الإفلات من مطارديها، عند مصب نهر بنيوس؛ وهناك أدركها الفرس، إلا أن رجالها تمكنوا من الهرب، إذ قفزوا منها حالما حطت، وأسرعوا بالجري عائدين إلى أثينا عبر تسالية. وسرعان ما طارت أخبار تلك الواقعة وبلغت الإغريق في ارتيميسيوم، بإشارات الدخان التي أطلقها القوم في جزيرة (سياثوس)،

فاستولى عليهم الذعر فهجروا موقعهم وانتقلوا إلى خالكيس، يريدون حراسة ممر اليوريبوس، بعد أن تركوا بعض مواقع الرصد على أرض يوبويه المرتفعة. واصطدمت يومئذ ثلاث سفن فارسية من بين أسطول من عشر بالأرض عند آنت حيث حيد المرجان الغارق بين سياتوس وماجنيسيا، مما حمل الفرس على إقامة منارة من الحجر في هذا الموقع بعد تنظيفه؛ وانطلق الأسطول من ثم إلى ثيرمه؛ وكان ذلك بعد أحد عشر يوماً من زحف أحشويرش وجيشه من تلك البلدة. وتقع أرض آنت هذه في وسط الطريق؛ وكان بامون، وهو من أبناء المنطقة، قد اصطحب الفرس، إليها حين أقاموا منارتهم فيها. ثم ما هي إلا مرحلة من يوم حتى وصل أسطول الفرس إلى سبياس في مجنيسيا والشريط الساحلي بين رأس سبياس وكستاسنيا.

ولقد دامت رحلة الأسطول الفارسي حتى سبياس حيث ألقى مراسيه، بينما كانت مسيرة القوات البرية حتى ثيرموبلاي، دون أن تتكبد أي خسارة. وإذا حسبنا حشود الفرس نجد أن عددها كان كالتالي: ١٢٠٧ سفن تنتمي إلى مختلف الأمم في آسيا، ومعها طواقمها وقوامها ٢٤١٤٠٠ رجل، بحساب ٢٠٠ لكل سفينة، وهي تحمل ثلاثين مقاتلاً، غير ما كانت تحمل من الجند- مشاة البحر، إضافة إلى طواقم الملاحة. وكان هؤلاء الرجال الثلاثون إما من الفرس أو الميديين أو الساكاي، فيكون العدد ٣٦٢١٠ رجال فوق العدد السابق. ويضاف إلى هؤلاء طواقم السفن الخمسينية وتحمل كل سفينة حوالي ٨٠ رجلاً، وكان الأسطول يضم ٣٠٠٠ آلاف قطعة، فيكون المجموع ٢٤٠ ألف رجل آخر. تلكم هي القوة البحرية التي جاء بها أحشويرش من آسيا، وعلى ظهرها ٥١٧٦١٠ من الرجال. وأما الجيش فقد بلغ عدد المشاة ١٧٠٠٠٠٠ جندي والفرسان ٨٠ ألفاً، وإلى جانبهم فيلق الهجانة العرب وسائسو العربات الليبية، وأحسب أن عددهم بلغ ٢٠ ألف سائس. وإذن مجموع قوات البر والبحر التي جاءت من آسيا هو ٢٣١٧٦١٠ عناصر، سوى عناصر خدمة الجيش ونقل المؤن، يضاف

إليهم من جندهم أحشويرش أثناء مروره بأوروبا. وليس لي من سبيل سوى تقدير عدد هؤلاء على وجه التقريب. ولعلي أقول إن مقدار مساهمة إغريق تراقيا وجزر البحر هناك ١٢٠ سفينة، ومن الرجال ٢٤ ألفاً، و٣٠٠ ألف من المشاة من التراقين وألبايونييه والايورديين والبوتايين والخاليقدونيين والبريجيين والبيريانيين، والمقدونيين والبريبيانيين، والايونيونيين والدولوبيين والمجنيسيين والآخاييه وأهل المستوطنات التراقية في الساحل. وإذا ما أضفنا هؤلاء إلى الحشد الذي قدم به أحشويرش من آسيا كان المجموع ٢٦٤١٦١٠ وأقول أخيراً إن عدد الخدم ومن لحق بالركب وطواقم قوارب نقل المؤن لم يكن أقل، بل يزيد عن عدد الجند المقاتلين، على أنني لن أقول إنهم يزيدون أو ينقصون، ولكني وضعتهم مساوين لأولئك في العدد، وهذا عندي التقدير النهائي للحشد الذي كان يرافق أحشويرش بن داريوس حين بلغ سبياس وثيرموبلاي، وهو على رأس جيش يبلغ تعداده ٥٢٨٣٢٢٠ رجلاً.

وحسبنا ما قلنا في أمر الجيش وقواته الضاربة؛ أما الخصيان والطاهيات ونساء المتعة فلم أجد من يشير إلى عددهم ولا عني بأمرهم أكثر من عنايته بدواب النقل والكلاب الهندية التي كانت في أعقاب الجيش. فعدد هذه أكثر من أن يعد أو يحصى. ولست أعجب إن كانت الأنهار تقصر عن توفير الماء لهذا الحشد العظيم من البشر والدواب، ولكن ما أعجب له هو عدم نفاد المؤن، فلو كان نصيب كل رجل شوينة من الذرة لا أكثر في اليوم لاستهلك هذا الجيش العرمرم ١١٠٢٤٠ مكيالاً، غير ما تستهلكه النساء والخصيان ودواب النقل والكلاب. وبين هذا الجمع الهائل لم يكن هناك من رجل يضارع أحشويرش وسامة ومهابة ونبالة محتد ليمسك بزمام القيادة والسلطة. وكان أسطول فارس قد توجه، كما سبق القول، إلى ساحل مجنيسيا ما بين بلدة كاستانيا ورأس سبياس، فلما بلغ مقصده أسرعت السفن في المقدمة لترمي مراسيها قريباً من اليابسة، بينما ألقت البقية مراسيها واصطفت في صفوف من ثمانية، إذ ما كان

بوسعها أن تجد فسحة على الشريط الساحلي الصغير. وأمضى الرجال تلك الليلةوهم على هذه الحال؛ ولكن الأحوال تغيرت فجر اليوم التالي فجأة، فبعدما كان الجو صافياً اكفهرت السماء، وهبت ريح عاتية من ناحية الشرق- ويعرفها الناس هناك باسم الهليسبونتية- اضطرب لها البحر فتعالت أمواجه وتأرجحت كأنها قدور تغلي. وقد استطاع أولئك الذين تنبهوا إلى قدوم العاصفة ومن صادف أن كان في موقع آمن إنقاذ مراكبهم وحياتهم أيضاً بأن سعوا إلى الشاطئ وابتعدوا عن البحر المضطرب والرياح العاصفة؛ وأما من كانوا بعيدين عن الشاطئ فقد رمت بهم الأمواج إلى الموقع المعروف بالأفران، عند سفح جبل بيليون، أو إلي الشاطئ؛ كما أن الرياح قذفت ببعضهم إلى سبياس، بينما اضطر آخرون، للجوء إلى بلدتي تيليبويا وكاثنايا على الساحل. وكانت تلك عاصفة هوجاء لا قبل لأحد بمصارعتها.

ويروى أن الأثينيين تضرعوا إلى (إله الريح) بورياس لمساعدتهم، بإشارة من نبوءة أخرى، حين دعتهم لطلب المساعدة من "صهرهم". وكان بورياس، حسب الرواية الإغريقية، قد تزوج امرأة من اتيكا، وتدعى اورثيا بنة آرخيوس، وبذلك أصبح الأثينيون يسمون بورياس "الصهر"، على ما تذهب الرواية الإغريقية؛ وهكذا أخذ الأثينيون يقدمون القرابين لبورياس واورثيا، حين لاحت لهم العاصفة، أو ربما قبل ذلك، وهم في موقعهم خالكيس في أيوبويا متضرعين لمساعدتهم وتكرار كارثة سابقة وقعت عند جبل أثوس بتدمير الأسطول الفارسي. ولست أملك القول إن هذا هو السبب حقاً في وقوع الأسطول وهو ملقٍ مراسيه حين دهمته الرياح الشمالية الشرقية، إلا أن الأثينيين على يقين من أن ذلك كان نجدة من بورياس وأورثيا: فبورياس كان سباقاً إلى مساعدتهم في الماضي، على ما يزعمون، وهو الذي أنجدهم في هذه المحنة أيضاً. ولما عاد إلى بلدهم أقاموا له مزاراً عند نهر إيليسوس. ويقال إن هذه الكارثة ذهبت في أقل التقديرات بأربعمائة سفينة، وزهقت فيها أرواح كثيرة وخسائر بالمال لا تقدر.

وقد أفاد من هذه المصيبة أحد المجنيس، ويدعى إمينوكليس بن كريتينيس، وكان صاحب أرض بالقرب من سبياس، فأصاب ثروة كبيرة حين حملت الأمواج إلى مزرعته الكثير من كؤوس الشراب من الذهب والفضة، كما عثر على عدد من الخزائن الفارسية وفيها ما لا يعد أو يحصى من الذهب. وبات بعدئذ على ثراء فاحش، فكان رجلاً محظوظاً لولا أن ألمت به مصيبة أليمة حين تسبب في مقتل ولده.

إن ما ذهبت به العاصفة من السفن التجارية وسواها لينأى عن الحصر. بل ولقد بلغت الكارثة من الضخامة حداً جعل قادة البحرية الفرس يخشون استغلال التساليين لوضعهم الصعب فيهاجمونهم، فكان أن لجؤوا إلى بناء ثكنة عالية الأسوار من حطام السفن. وقد استمرت العاصفة ثلاثة أيام، ثم انتهت بفعل القرابين التي قدمها الكهنة المجوس ونثر كلمات السحر على الريح، ثم تقديم المزيد من الأضاحي لثيتيس وحوريات البحر– أو لربما كان السبب، طبعاً، أن الريح سكنت كما تسكن عادة بعد العاصفة. أما تقديم المجوس الأضاحي لثيتيس فأمر أخذوه عن الأيونيين، الذين يروون أن بيليوس اختطف ثيتيس من ذلك المكان وأن سيباس مقدس لديها ولدى بنات نيريوس الأخريات. وما يهمنا من الأمر أن الريح هدأت في اليوم الرابع. وفي اليوم الثاني من العاصفة رأى الإغريق الأرصاد في تلال أيوبويا يهرعون إليهم ويروون بالتفصيل ما نزل بسفن الفرس من دمار. فأخذوا عند سماع النبأ يصلون صلوات الشكر ويريقون النبيذ لمنقذهم بوسيدون، ثم أسرعوا إلى مواقعهم في ارتيميسيوم، وفي ظنهم أنه ما زالت هناك بعض السفن لتقاومهم؛ ولذلك عمل هؤلاء الإغريق على إغلاق ارتيميسيوم للمرة الثانية. وما زال الأثينيون منذ ذلك الحين يتوجهون إلى بوسيدون باسم المنقذ. وفيما كانت الأمور تجري على هذا النحو أخذ الفرس، بعد أن هدأت العاصفة، ينزلون سفنهم إلى البحر ثانية، وأبحروا على امتداد الساحل، ثم التفوا حول جنوب مضيق مجنيسيا، ودخلوا الخليج المؤدي إلى

باجساي. وهناك في هذا الخليج بقعة يقال إن جيسون وأصحابه في أثناء رحلتهم على السفينة آرجو بحثاً عن الفروة الذهبية في آيا (قلقيز)، قد أنزلوا هرقل فيها، ليجلب لهم الماء، ثم أبحروا دونه. وقد عرف هذا الموقع باسم افتاي- المنطلق- لأن بحارة الآرجو كانوا يبغون أن يجعلوه منطلق رحلتهم بعد التزود بالماء. وإلى هذا الموقع جاء أسطول أحشويرش. وكان بين سفن الفرس خمس عشرة سفينة تفتقر للتجهيز، والبحارة منهمكون في إعدادها. وفيما هم يعملون في تعميرها لمحوا سفن الإغريق عند ارتيميسيوم، ولكن الأمور اختلطت عليهم فحسبوا تلك السفن من قطع أسطولهم؛ ولما ساروا إليها وهم يظنونها سفناً صديقة وجدوا أنفسهم في قبضة أعدائهم. وكانت هذه السفن بقيادة ساندوكيس بن تيماسيوس وحاكم جيمه في ايوليس. وكان ساندوكيس هذا أحد القضاة المعينين من الملك، وقد اعتقله داريوس قبل عهد من الزمن وصلبه، بتهمة الرشوة والإخلال بالعدل، ثم أمر بإنزاله عن الصليب، حين أدرك أن خدماته للبيت المالك تفوق ما ارتكب من الجنح، وأن ما كان منه إنما بسبب الغفلة وقلة الحكمة. وهكذا نجا الرجل بحياته من [عسف] الملك داريوس، ولكن لم يقدر له أن يهرب هذه المرة، حين اصطدم بأسطول الإغريق؛ ذلك أنهم ما إن شاهدوا الجناح الذي كان بقيادته حتى أدركوا الضعف في تنظيمه، فأسرعوا لملاقاته وأمكن لهم أسره دونما مشقة. وكان من بين الذين وقعوا في أسرهم آريدوليس، طاغية ألابانده في كاريا، وبنثيلوس، ابن القائد البافياني الذي أتى باثنتي عشرة سفينة من بافوس. وقد تحطم منها إحدى عشرة سفينة في العاصفة عند سبياس، ثم أسر وهو على ظهر آخر سفنه، في طريقه إلى ارتيميسيوم. ولما أُخضع ورفيقه للاستجواب وأفادا بكل ما يعلمان من حال قوات أحشويرش، أُرسلا بالأغلال إلى ممر كورنثه. وبينما الأمور تجري على نحو ما ذكرت، وصل أسطول فارس سليماً إلى افيتاي، عدا السفن الخمس عشرة التي كانت بقيادة ساندوكيس: وكان أحشويرش قد تقدم بزحفه في اليومين السابقين في أرض تسالية وآخيا،

ثم دخل بلاد الماليان. وشاء وهو في تسالية أن يجرب خيول البلد بعدما سمع بشهرتها، باعتبارها أفضل الجياد في بلاد الإغريق، فأجرى سباقات بينها وبين خيوله، وكانت هزيمة الجياد التساليهة في تلك المباريات مدوية. أما أنهار تسالية فلم تقصر عن إمداد جيشه، عدا نهر اونوخونس؛ بينما في آخيا فقد كاد أضخم أنهارها، وهو آبيدانوس، لا يفي بإرواء تلك القوات. وفي هالوس بآخيا لم يبخل الأدلاء في بذل كل ما لديهم من المعرفة بأحوال البلد، وأخبروه، في جملة ما أخبروه، بالقصة المتداولة عن زيوس اللافيستاني. وتذهب هذه الرواية إلى أن أثاماس بن آيولوس تآمر واينو على قتل فريكسوس؛ ثم كان أن أخذ الآخاي بإعدام أعقاب فريكسوس وابنه كايتييروس، تنفيذاً لنبوءة تحظر دخول الابن البكر من هذه العائلة إلى قاعة المجلس، أو مجلس الشعب كما يسميه الآخايون، وتفرض على أهل البلد الحرص على تنفيذ هذا الحظر. فكان إذا دخل أحدهم المجلس لم يخرج منه إلا ليقدم قرباناً. ومضى الأدلاء في روايتهم بأن العديد من هؤلاء اضطروا للهرب إلى بلاد أخرى، حين تبينهم القوم وهم يدخلون بناء المجلس وأصبح خطر الموت ماثلاً؛ وإذا ما عادوا إلى البلد فذلك إنما يكون بعد عهد طويل. ووصفوا لأحشويرش، طقس تقديم القربان فقالوا أن القوم يضعون على رأس الضحية في هذه المناسبة إكليلاً، وهو يسير في طريقه إلى الموت في موكب مهيب. وكان السبب في معاناة سلالة كايتييروس وفريكس، هو أن ستيسروس قدم من آيا بالقلقيز فأنقذ اثمازبن ايولوس من بين أيدي الآخاييين، وهم العازمون على تقديمه إلى المذبح قرباناً، وفداء للبلد؛ فكان أن استدعى غضب الإله عليه وعقبه من بعده. فلما سمع أحشويرش هذه الرواية أخلى تلك الأرض المقدسة، وحظر على جيشه الاقتراب منها؛ وأظهر الاحترام للمجلس وأرض أسرة أثماز.

انطلق أحشويرش من تسالية وآخيا متجهاً نحو ماليس، سالكاً دربه على شاطئ خليج يتناوب في المد والجزر يومياً. والأرض في هذه المنطقة مستوية،

متسعة في بعضها وشديدة الضيق في بعضها الآخر، يحيط بها سلسلة من الجبال الشاهقة، التي يصعب تسلقها، وتعرف بصخور ترافيس، وأول ما يصادف القادم من آخيا في هذا الخليج بلدة انتيكايرا، ويصب بالقرب منها نهر سبيرخيوس الذي ينحدر إليها من بلد الإينيان. وإذا سار المرء مسافة عشرين فرلنجاً، بعد، صادف نهراً آخر هو نهر دايراس- الذي تقول الأسطورة إنه تفجر من الأرض ليعين هرقل على أمره، حين شبت به النيران؛ وإذا مضى المرء مثل هذه المسافة صادف جدولاً ثالثاً، وهو نهر الميلاس، ويبعد خمسة فرلنجات عن مدينة تراخيس. وفي تراخيس تتسع المسافة ما بين التلال والبحر، وهي أوسع هنا منها في أي بقعة أخرى، ومساحة السهل تربو عن خمسة آلاف فدان. ويقع المرء في حلقة التلال جنوب تراخيس على شق، وفيه يجري نهر آسوبس ثم ينحدر إلى السفح. وهناك إلى الجنوب، بعد، جدول صغير، هو نهر فينيكس (الفينيق) يجري من الجبال ثم يصب في نهر اسوبس؛ والسهل يضيق أشد الضيق عند نهر فينيكس، فلا يتسع عندئذ إلا لمرور عربة واحدة. والمسافة ما بين نهر فينيكس وثيرموبلاي نحواً من خمسة عشر فرلنجاً، وما بينهما قرية أنثيلا، ويمر بها نهر آسوبس قبل مصبه في البحر. والأرض حول انثيلا أرحب، وفي تلك النواحي معبد ديميتر الأمفيكتيونية (إلهة الزراعة) ومبنى مجلس نواب عصبة الأمفيكتيون ومزار أمفيكتيون (العرافون).

وكان الموقف، إذن، يتجسد في وقوف أحشويرش ومعه قواته عند تراخيس في أرض الماليان، بينما الإغريق يحتلون الممر الذي يسميه أهل المنطقة بممر بيلاي، وإن يكن الاسم الإغريقي ثيرموبلاي أكثر شيوعاً. وهكذا كانت إذن المواقع التي اتخذها الجيشان، حيث للأول السيطرة على المنطقة الممتدة من تراخيس باتجاه الشمال، بينما كان الآخر يسيطر على البر كله جنوباً. وكانت القوة الإغريقية التي تنتظر قدوم أحشويرش تتألف من الوحدات التالية: ٣٠٠ جندي مشاة من إسبارطة و٥٠٠ من تيجيا، و٥٠٠ من مانتينيا و١٢٠ من

أورخومينوس الأركادية و١٠٠٠ من مدن أركاديا الأخرى؛ ومن كورنثه ٤٠٠، ومن فليوس ٢٠٠، و٨٠ من ميسناي. كان هناك حضور من بويوتيا وحدات من ٧٠٠ جندي من تسالية و٤٠٠ من طيبة. إلى جانب هؤلاء المشاركين لبى النداء أيضاً لوكيريان أوبوس الذين قدموا بكل رجالهم ،والفوكيون الذين أسهموا بألف رجل. وكان الإغريق الآخرون قد عملوا على اجتذاب اللوكيريانيين والفوكيونيين للإسهام برسالة يستحثونهم على المشاركة في الدفاع وأن ما قدمه الإغريقيون إلى الآن كان عبارة عن طلائع قوة، أما الحشد الكبير فتمنى أن يكون قدومه وشيكاً، وقد يصل أرض المعركة في أي لحظة؛ وأن الأثينين والإيجيين يقومون بحراسة البحر بأساطيلهم يساعدهم غيرهم من القوى البحرية. وذهبت رسالتهم إلى طمأنة أهل المدينتين بأن الوضع لا يدعو للخوف، فما يهدد الآن ليس إلهاً وإنما رجل من البشر، وليس هناك مخلوق، بعد، قد وُلد دون نصيب لا بأس به من المصائب- وكلما عُظم الرجل عظمت مصائبه – وما يصدق في الناس يصدق على هذا العدو، فما هو بمستثنى؛ ذلك أنه هو من البشر أيضاً، ولابد من أن تخيب آماله وتذهب مطامحه الكبار. ولقد أثرت رسالة النداء هذه على اللوكيريانيين والفوكونيين فأرسلوا قواتهم لرفد القوات الأخرى في تراخيس. وكان يقوم على رأس الكتائب قادة من البلاد التي أسهمت في تلك القوة، ولكن أدعاهم إلى التقدير كان ليونيداس الإسبارطي الذي عقد له لواء – القيادة على هذا الجيش. وهو ليونيداس بن أنكسندريدس بن ليون بن يوريكرا تيديس بن اناكسندر بن يوريكراتيديس بن بوليدوروس بن الكافيس بن تلكليس بن أرخيلاؤس بن أجيسلاؤس بن دوريسوس بن لابوتاس بن إخيستراتوس بن أجيس بن يوريستنيس بن أرسطوديموس بن أرسطوماخوس بن كليوديايوس بن هايلوس بن هيراكليس. وقد صار ملكاً على إسبارطة بصورة غير متوقعة حيث كان أخواه الأكبر كليومنيس ودوريوس،أولى منه بتولي العرش . ولكن صدف أن قتل دوريوس في صقلية، ثم مات كليومنيس أيضاً، ولم يكن له عقب، صار الملك

إليه. وكان أكبر سناً من كليومبروتوس، أصغر أولاد انكسندريدس، ثم إنه كان فوق هذا متزوجاً بابنة كليومنيس. واصطحب معه ثلاثمائة رجل جاء بهم إلى ثيرموبلاي وكان قد انتقاهم بنفسه، وجميعهم أبناؤهم أحياء. كذلك اصطحب معه إلى تلك الأرض الطيبيين الذين أشرت إليهم، بقيادة ليونتياديس بن يوريماخوس؛ والسبب في اصطحابه جنوداً من طيبة، ومن مدينة طيبة دون سواها من النواحي والكور، الشبهة القوية لدى الناس بتعاطفهم والفرس، فحمله ذلك على دعوتهم للقيام بنصيبهم في الحرب، وإلا كان عليهم أن يرفضوا الانضمام إلى الحلف صراحة. ولئن زجوا بقوات من عندهم في الساحة فإن عواطفهم كانت تميل إلى العدو. وكانت إسبارطة قد سيَّرت ليونيداس وجنوده الثلاثمائة قبل وصول القوات الحليفة الأخرى، آملة أن يكون مشهدهم حافزاً للآخرين على القتال، وللحيلولة دون انتقالهم إلى جبهة العدو؛ وذلك أمر كان محتملاً لو وجد الحلفاء لدى إسبارطة تقاعساً. وكان هدفهم في تلك الآونة، وبعدما انتهى القوم من الاحتفال بعيد الكارينيا (وكان هذا الاحتفال هو ما حال دون نزول جند إسبارطة إلى الساحة على النحو المألوف)، أن يتركوا في المدينة حامية تدافع عنها، ثم الزحف بكل ما لديهم من القوات. ولقد عرض الحلفاء الآخرون مثل هذا الرأي، إذ صادف أن جرت الألعاب الأولبية في ذلك الموعد ايضاً. ولم يكن من بين هؤلاء من توقع وقوع المعركة في ثيرموبلاي سريعاً- وكان هذا السبب في اقتصارهم على توجيه طلائع القوات، دون حشدها على النحو المناسب. كان جيش الفرس قد أصبح في تلك الأثناء على مقربة من الممر، وهنا انتاب الإغريق الشك بمقدرتهم على الصمود، فعقدوا مؤتمراً للتداول في اقتراح يدعو إلى الانسحاب. وكان رأي البيلوبونيز عموماً أن ينسحب الجيش إلى (شبه الجزيرة) البيلوبونيزية والتشبث بأرض ممر أشموس (ممركورنثه)؛ إلا أن ليونيداس، إذ وجد الفوكيونيين واللوكيريانيين يقابلون هذا الاقتراح بالامتعاض، مال بصوته إلى الداعين بالبقاء والتشبث

بالأرض وطلب إلى مختلف الدول المتحالفة المؤازرة بالقوات، نظراً لقلة الجند في المواقع للتعامل مع الفرس.

وبينما كان المؤتمرون يتداولون في أمورهم وجه أحشويرش أحد الخيالة ليستطلع قوة الإغريق وأحوالهم، وكان قد بلغه قبل مغادرة تسالية أن قوة صغيرة قد توضعت في ذلك الموقع، بقيادة اللاكيديمونيين وإمرة ليونيداس من بيت هيراكليس. وهناك اقترب الخيال الفارسي من معسكر الإغريق وأخذ باستطلاع الأرض ورصد كل ما يمكن رؤيته- ولم يكن ذلك، على كل حال، كل جيش الإغريق؛ ذلك أن الجزء البعيد من السور بات محمياً بعد تجديده، فأخذ الجند يتوسلون به في الاختفاء عن الأنظار؛ وقد صادف أن كان هؤلاء جند إسبارطة، وبعضهم قد تعرى للتدريب، وبعضهم الآخر منشغلاً بتمشيط شعورهم؛ فأخذ الجاسوس الفارسي يراقبهم، فاستولى عليه العجب لحالهم؛ غير أنه أحصى عددهم وعلم أحوالهم، على أقصى ما يمكن من الدقة، ثم قفل عائداً على ظهر جواده، دون أن يلفت إليه الانتباه. والحق أن أحداً من الجند لم ينتبه لوجوده أصلاً. ولمّا عاد هذا الرجل إلى معسكره أخبر أحشويرش بما رأى. فعجب أحشويرش لما سمع؛ فحقيقة أن الإسبارطيين يعدون أنفسهم للموت بكل ما لديهم من القوة، كانت أبعد مما يستوعب عقله، وبدت له أعمالهم ضرباً من الحماقة. وكان أن أرسل في طلب ديماراتوس بن أريسطون، الذي جاء بمعية الجيش، وسأله أن ينظر في تقرير الجاسوس، آملاً أن يجد لديه تفسيراً لسلوك الإسبارطيين. فأجابه :" قد بلغكم مني، يوم سألتموني قبل بدء مسيرنا إلى بلاد الإغريق، ما أراه في أمر هؤلاء القوم. وبسطت لكم يومئذ رأيي وما سيؤول إليه هذا المشروع، فسخرتم مني. وأنا لا أقصد في حضرتكم إلا الحقيقة، لوجهها وحسب؛ ولذلك أعيروني أذنكم واصغوا لما سأقول مرة أخرى: إن هؤلاء القوم قد أتوا لقتالنا على هذا الممر، ولهذا القتال هم يتهيؤون، فعهدنا بالإسبارطيين أنهم يزينون شعرهم وهم يستعدون لبذل حياتهم. غير أنني واثق من أنكم إن غلبتم

هؤلاء الرجال على أمرهم، ومعهم بقية الإسبارطيين القابعين في وطنهم، لم تجدوا في العالم بعد ذاك اليوم من يجرؤ على الوقوف أمامكم، أو أن يرفع يداً مقابلكم. [ولكن]عليكم اليوم أن تواجهوا أفضل مملكة تضمها بلاد الإغريق، كما ستواجهون أشجع الرجال." ولقد تابع أحشويرش، وهو ما يزال غير قادر على تصديق ما قاله ديماراتوس، فسأله كيف يمكن لفئة صغيرة أن تتصدى وتقاتله. فرد :" يا مولاي، إن لم تجدوا مصداقاً لما أنبأتكم حَقٌّ لكم أن تأخذوني مأخذ الكاذب." ولكن أحشويرش ظل على حاله لا يصدق ما أنبأه به . ولقد ظل أحشويرش ينتظر طوال أربعة أيام أن يهرب الإغريق من المواجهة؛ ولما كان اليوم الخامس والقوم على حالهم لا يأتون بحركة وبدا حضورهم في ذلك الموقع ضرباً من الرعونة والحماقة، استولى عليه الغضب، فوجه إليهم الميديين والكسيسيانيين ليأتوا بهم أحياء ويمثلوا أمامه. فاندفع إليهم الميديون، فكانت معركة سقط فيها الكثير منهم، فإذا بآخرين يحلون محلهم؛ وبالرغم مما تكبدوا من الخسائر فإنهم ظلوا على صمودهم يأبون الهزيمة. وكانت رسالتهم واضحة جلية لكل ذي لب، وبالأخص الملك ذاته، وهي أن لديه حقاً جيشاً من الرجال، إلا أن الجنود فيه قلة. ولقد دارت رحى القتال ولم تنقطع طوال اليوم، واضطر الميديون بعد طول القتال، وسقوط الكثير من الضحايا في صفوفهم، للانسحاب، فحل هايدارنيس ونخبة العسكر الفرس – عنيت " الخالدين " في حرس الملك – محلهم، فمضوا للهجوم، وهم واثقون كل الثقة بقدرتهم على حسم المعركة بسرعة ويسر. ولكن ما إن نزلوا إلى أرض المعركة حتى وجدناهم شأنهم شأن من سبقوهم في الميدان؛ فدار القتال واحتدم بين الجيشين في رقعة ضيقة من الأرض، والفرس يضربون برماح أقصر من رماح الإغريق، ولا يفيدون من كثرة عددهم. ولقد خاض الاسبارطيون معركة مشهودة؛ وكانوا رجالاً عرفوا الحرب وقبالتهم عدو غرٍ غير مجرب؛ فكان من أساليبهم في القتال أن يديروا ظهورهم جميعاً، ثم يأخذوا في الانسحاب، متظاهرين بالفزع متكلفين الفوضى، فيلحق

بهم الأعداء في صياح وهياج؛ فيستدير الإسبارطيون حالما يجدون الفرس قد اقتربوا منهم فيقاتلوهم، ويسقط من مطارديهم العدد الكبير من القتلى والجرحى. وكان الإسبارطيون يتكبدون الخسائر أيضاً، إلا أن الضحايا ليسوا بالكثرة. وفي النهاية انقطع الفرس عن الاشتباك، بعدما تبين لهم عقم الهجوم وأخذ الممر بالقوة، إن بالفرق وإن بأي وسيلة أخرى، فانسحبوا منكفئين على أعقابهم. وكان أحشويرش يراقب المعركة من حيث كان يجلس. ويروى أن الفزع دب في قلبه على جيشه، حين رأى انكسار الهجمات الثلاث التي شنتها وحداته على الإسبارطيين؛ حتى إنه لم يتمالك نفسه فهب على قدميه، لهول ما رأى.

وفي اليوم التالي بدأ القتال يدور بين الجمعين من جديد، دون أن يحقق الفرس نجاحاً أفضل مما كان لهم بالأمس؛ وكانوا هم المبادرين بالهجوم، وقد عولوا يومذاك على أن يكون الإنهاك قد نال من الإغريق، وهم أقل عدداً، بعدما تكبدوا عدداً من الضحايا وسقط منهم من أثخنته الجراح، فتضعف همتهم على المقاومة. لكن الإغريق ظلوا على قوة العزيمة، ولم تهن لهم همة؛ فعادوا إلى تجميع قواتهم وتنظيمها في كتائب، كل حسب الدولة التي ينتمي إليها؛ وكانت هذه الكتائب تتناوب في صفوف القتال، إلا الفوك الذين أنيطت بهم حراسة الدرب الجبلية. فلما وجد الفرس أن أوضاعهم اليوم لم تكن أحسن حالاً مما كانت عليه البارحة، عمدوا إلى الانسحاب من جديد. ولقد حار أحشويرش في الأمر، ولم يعد يدري كيف يتدبر الوضع؛ ولكن فيما كان يقدح زناد الفكر باحثاً عن حل لهذا المأزق، ورد رجل من ماليس يدعى إفيالتيس بن ايوريدموس، ليدل الملك، طمعاً في مكافأة، إلى الدرب الجبلي الذي يؤدي إلى ثيرموبلاي– وكان من جراء هذا أن قتل الإغريق الذين كانوا يحرسون الممر. ولقد هرب إفيالتيس إلى تساليه، فيما بعد، خوفاً من انتقام الإسبارطيين، وكان المجلس المنعقد في بيلاي قد أعلن عن جائزة مالية لمن يأتي برأسه. ثم عاد هذا الرجل إلى انتيكسيرا بعد حين، وهناك قتله اثيناديس التراقي. ولم يكن السبب في قتله ما أتى به من

الخيانة، وإنما لسبب آخر، سوف نفصل القول فيه، فيما بعد، ومع ذلك فقد كرمه الإسبارطيون لأنه قتله. وتذهب رواية أخرى إلى أن الرجل الذي كشف لأحشويرش الدرب يدعى اونيتس بن فناجوراس الكاريسطوسي وشريكه كوريدالوس، وهو من انتيسيرا، وهما اللذان أرشدا الفرس إلى الطريق. ولكن هذه الرواية لا تصمد عند التمحيص، وشاهدي على ذلك أن المجلس وضع جائزته لمن يأتي برأس إفيالتيس، لا برأسي اونيتس وكوريدالوس، ولا ريب بأن المجلس إنما اتخذ قراره بمنح الجائزة بعد بحث واستقصاء. وشاهدي الثاني هو أن هرب افيالتيس كان بسبب تهمة الخيانة التي وجهت إليه. ولعل أونيتس كان يعلم بالمر، ولو أنه ليس من أهل ماليس، إذ كان قد أقام في الجوار ردحاً من الزمن- ولكن إفيالتيس هو الذي أرشد الفرس إلى الدرب، ولا أحد سواه، وإني أثبت اسمه للتاريخ هنا باعتباره المجرم في هذا الأمر. سر أحشويرش حين سمع من افيالتيس عرضه، فأمر هايدارنيس وفصيل من الجند بالذهاب فوراً إلى الموقع. وكانت مغادرة الجماعة مع إضاءة المصابيح. كان الماليان الذين يعيشون في الجوار أول من اكتشف الدرب؛ وقد استخدموه فيما بعد لمساعدة التساليين في مهاجمة الفوكيونيين، يوم كانوا يحتمون من الغزو بالجدار الذي أقاموه في المر. وإذن، فعهد الماليان باستخدام المر في أغراض الشر قديم! يبدأ الدرب عند غدير الآسوبوس الذي يجري عبر الخندق الضيق، ويدور حول الجبل الذي يحمل اسم أنوبايا، ثم ينتهي كالدرب ذاته، عند مدينة البينوس، وهي أول مستوطنة لوكرانية يصادفها القادم من ماليس، بالقرب من الصخرة المعروفة بنصب الوركين الأسودين ومجالس الكيراكوبيس، حيث الجزء الأضيق في المر.

وهذا هو إذن الدرب الذي سار عليه الفرس بعد عبور نهر الآسوبوس. واستغرق سيرهم الليل كله، وكانوا يسيرون، وجبال ليتا عن يمينهم وتراخيس عن يسارهم، فلما طلع الفجر كان الرجال قد بلغوا قمة التل، حيث وقف

الفوكيونيون الألف، كما سبق القول، يحرسون الممر ويحمون بلدهم. وكانوا قد تطوعوا لهذه المهمة خدمة لليونيداس، بينما كانت تجري حراسة الطريق السفلي على نحو ما سبق وصفه. ولقد أمكن للفرس أن يخفوا صعودهم بفضل أشجار البلوط التي كانت تغطي التلال تلك كلها، فلم يلحظهم الفوك إلا بعد أن ركبوا الجبل؛ وأصبح لأقدامهم وقع مسموع وهي تطأ أوراق الشجر المتناثرة على الأرض، بسبب سكون الهواء. فلما هب الفوكيون إلى السلاح كان العدو يطبق عليهم. ولقد دهش الفرس حين رأوا الجنود ينهضون للمقاومة، وكانوا لا يتوقعون منهم المقاومة - فبالرغم من المفاجأة وجدوا أولئك يعترضون طريقهم. فسأل هايدارنيس إفيالتيس عن جنسيتهم، إذ كان يخشى أن يكونوا من الإسبارطيين، فلما علم حقيقتهم استعد للاشتباك معهم. وانهالت سهام الفرس غزيرة كالمطر، فانسحب الفوكيون إلى قمة الجبل، وقد حسبوا أن الهجوم يستهدفهم، وهناك تحصنوا وشرعوا يستعدون لمواجهة الهلاك. ولكن الفرس وإفيالتيس انصرفوا عنهم، مؤثرين التقدم، فأخذوا يحثون الخطى وهم ينحدرون على الدرب. تلقى الإغريق في ثيرموبلاي أول إنذار بالموت القادم مع طلوع الفجر من مجيستياس المتنبئ الذي قرأ طالعهم في ضحايا القربان؛ ولقد جاء الهاربون أيضاً في الليل يحملون أنباء تطويق الفرس جناحهم، وأخيراً كان أن ورد مع الفجر رجال الرصد من التلال. وفي مجلس الحرب انقسم المجتمعون بين من يقول ألا تخلي عن الموقع ومن يقول عكس هذا الرأي. وكانت النتيجة أن انقسم الجيش على نفسه، فانسحب بعضه مشتتاً، بينما عادت بعض الوحدات إلى بلدانها، وثبت بعضها الآخر مناصراً ليونيداس. وهناك من يقول أن ليونيداس هو الذي صرف تلك القوات إنقاذاً لحياتهم، ولكنه آثر الصمود اعتقاداً منه بأنه لا يليق بالإسبارطيين تحت إمرته أن يهجروا الموقع الذي جاؤوا أصلاً لحمايته. ولكني أرى أنه إنما سرح تلك الوحدات حين وجد عناصرها واهنة العزيمة، ولا تريد أن تتحمل نصيبها في مواجهة الخطر، إلا أن شعوره

بالكرامة والشرف أبى عليه أن يهجر هو المكان. والحق أنه فاز بمجد عظيم كان ينتظره حيث ثبت في موقعه، وحفظ لإسبارطة رغدها الذي لولا صموده كان سيضيع؛ وآية ذلك أن عرافة دلفي انبأت الإسبارطيين منذ بداية الحرب بأن مدينتهم محكوم عليها بالفناء إلا أن يقتل ملك إسبارطي [فداء لها]وفيما يلي النبوءة:

اصغوا وعوا ما سيكون مصيركم، يا أهل إسبارطة الشاسعة،

فإما أن ينهب أولاد برسيوس مدينتكم العظيمة ذات الصيت،

أوإن لم يكن ذلك، بكت كل أرض اللاكيديمونيين ملكاً من بيت هيراكليس

[ملكاً جريئاً] لا تقوى الأسود ولا الثيران على كبح جماحه

إن واجهته بقوتها؛ فله قوة زيوس

وإذا ما واجهته وجدته ذا قناة لا تلين، فإما أن يَقتلِ أو يُقتَل.

وأعتقد أن هذه النبوءة والرغبة في كسب المجد العظيم لإسبارطة، على نحو لا يكون لمدينة أخرى سواها هو ما حمل ليونيداس على تسريح تلك القوات؛ ولست أعتقد أن أولئك تخلوا عن المعركة، بدون أمر، لاختلاف في الرأي. وشاهدي على صحة هذا القول حديث ميجيستياس المتنبئ الذي كان يصطحبه الجيش معه - وهو أكارناني، وعلى ما يقال، من عشيرة ميلامبوس، وقد قال نبوءته بالزلزال العظيم الذي سيحل بالقوم بعدما تفحص ضحايا القربان، وتلقى الأمر واضحاً من ليونيداس بترك ثيرموبلاي لينقذه من المصير الذي ينتظر الجيش. ولكنه رفض ترك الساحة، وحمل ابنه الوحيد الذي كان يخدم في صفوف تلك القوات على ترك الموقع والعودة. وهكذا كان أن تخلت القوات المتحالفة عن مواقعها والمر بأمر من ليونيداس؛ وقد غادرت القوات كافة، سوى الثيبانيين و الطيبيين، فهؤلاء ظلوا إلى جانب الإسبارطيين. وكان ليونيداس قد أبقى جماعة طيبة رهائن لديه رغماً عنهم؛ وأما الثيسبانيون فبقوا مع الإسبارطيين طواعية، وسقطوا في الساحة معهم. وكان قائدهم في المعركة

ديموفيلوس بن ديادروميس. وفي الصباح قام أحشويرش بصب السائل المقدس تكريماً للشمس عند شروقها، ثم مكث ينتظر الساعة التي تمتلئ فيها السوق بالناس قبل أن يبدأ التقدم بقواته. وكان ذلك بمشورة من إفيالتيس، ليسلك طريق الهبوط من أعلى المرتفع، الأقصر والمباشرة، وهي طريق مختصرة تفضل طريق الصعود الدائرية الطويلة. ولقد تقدم جيش الفرس ليقوم بهجومه، أما الإغريق بقيادة ليونيداس، فإنهم خرجوا إلى القسم الأعرض ومضوا أبعد كثيراً مما مضوا في الأيام السابقة؛ وكانوا في تلك الأيام يتشبثون بالجدار وينطلقون في هجماتهم من العنق الضيق. أما الآن فإنهم اختاروا القتال خارج المواقع الضيقة. ولقد سقط في القتال الذي نشب الكثير من البرابرة؛ وكان قادة الفصائل يلهبون ظهورهم بالسياط، وهم يلوحون بها ثم تنزل لتصيب من تصيب دون اتفاق، ليحثوا رجالهم على المسير. ولقد هوى العديد منهم في البحر ليغرقوا فيه، وسقط عدد أكبر والجند يدفعون بعضهم بعضاً. وكان عدد القتلى لا يعد ولا يحصى. فقد استنفر الإغريق، وقد علموا أن العدو سائر إليهم عبر الممر الجبلية، والموت محتم لا مفر منه، كل قواهم، فقاتلوا قتال اليائس الشرس. فلما طال أمد المعركة كانت رماحهم قد انكسرت فتابعوا قتال الفرس بالسيوف. وفي احتدام القتال سقط ليونيداس بعد أن قاتل قتالاً مشرفاً وقتل معه الكثير من الإسبارطيين المبرزين– وقد بلغتني أسماؤهم كما تستحق أن تذكر أسماء الجديرين بالتخليد؛ والحق أن ما بلغني من تلك الأسماء ثلاثمائة. وكان بين القتلى الفرس أيضاً عدد من أهل المكانة، ومنهم شقيقا أحشويرش أبروكوميس وهايبرناتيس، ولدا داريوس من فراتجونة بنة أرتانيس، وهو ابن هايستاسبيس وحفيد أرساميس، وأخو داريوس؛ وكانت فراتجونة ابنته الوحيدة، وبالتالي فإن تقديمها لداريوس كان بمثابة منحه كل ما هو في ملكه.

ولقد دار صراع شديد حول جثمان ليونيداس؛ ورد الإغريق الأعداء أربع مرات، وفي المرة الأخيرة أنقذته شجاعتهم. وهكذا استمرت المعركة حتى اقترب

الجند ومعهم إفيالتيس؛ ولما كانت تلك اللحظة، وعلم الإغريق بقدومهم، تغير شكل القتال. فكان أن انسحبوا إلى العنق الضيقة، خلف الجدار، من جديد، وتراصوا إلى بعضهم بعضاً كتلة واحدة- عدا جند طيبة- على التلة الصغيرة عند مدخل الممر، حيث نصب تمثال الأسد الذي أقيم لتخليد ذكرى ليونيداس. وهنا صمد أولئك الرجال حتى سقط آخرهم، وقاتلوا بكل ما ملكوا وباليدين والأسنان حتى تمكن الفرس منهم حين هجموا عليهم، بعدما تعدوا خرائب الجدار، وأطبقوا عليهم من ورائهم وتغلبوا عليهم أخيراً بفضل أسلحتهم التي كانوا يرمونهم بها من بعيد. ولقد جلى يومئذ بين شجعان الإسبارطيين وجند طيبة دينسيس الإسبارطي، فقدم أعظم مثل على الشجاعة. ويروى أن أحد التراخيين قال له قبيل المعركة إن الفرس حين يرمون سهامهم يغطون الشمس بها. ولكن دينسيس قابل ذلك الوصف لقوة جيش فارس بجَنَان ثابت، وعلق بقوله:" قد جاءنا هذا الغريب من تراخيس بأخبار طيبة، فسوف نخوض معركتنا تحت الظلال." وقد نقلت عنه أقوال أخرى من هذا القبيل سوف يتناقلها الناس طويلاً وتخلد ذكراه من بعده. وقد تلاه شقيقان من إسبارطة لينالا أعظم تذكار للشجاعة، وهما الفيوس وماورن ولدا أورسيفانتوس، ومن التيسبانين رجل يدعى ديثرامبوس، وهو ابن هرمتيدس، وفاز بأعظم المجد. ولقد دفن القتلى حيث سقطوا ومعهم من قتل قبل أن يغادر الممر من أولئك الذين سرحهم ليونيداس من المعركة. وفوق هذه المقبرة خطت الكلمات التالية تكريماً لمجموعة المقاتلين:

هنا وقف ذات يوم أربعة الآلاف من بلاد بيلوبز

يواجهون ثلاثة ملايين من الأعداء.

أما الإسبارطيون فقد كانت لهم شاهدة خاصة، كتب عليها:

قل لإسبارطة أنك قرأت: أطعنا الأمر وبإشارة منها بذلنا الأرواح.

وقد وردت على شاهدة قبر مجيستياس العبارات التالية:

هذا ضريح مجيستياس العظيم الذي قتل حين

خرج الميديون من حصون سبرخيوس
المتنبئ الحكيم رأى الموت يطل قبل الواقعة
وسخر منه لينقذ نفسه، لكنه شارك الإسبارطيين مثواهم.

كانت هذه الأعمدة والكتابات قد قامت عليها جماعة العرافات [في معبد ابوللو بدلفي] تكريماً للقتلى، أما النصب على قبر مجيستياس فكان من عمل سيمونيدس بن ليوبريبس، وأقامه بدافع من الصداقة التي يكنها للقتيل. ويروى أنه من بين الثلاثمائة إسبارطي اثنان، أيوريتوس وأرسطوديموس، كانا يعانيان من التهاب العين، وقد أعفاهما ليونيداس من القتال لهذا السبب، فذهبا إلى ألبيني للاستشفاء. وكان لهذين الرجلين أن يعودا، لو شاءا، آمنين إلى إسبارطة، أو أن يشاركا رفاقهم المصير. ولكنهما اختلفا في الرأي وتشاجرا فيما ينبغي عمله؛ ثم إذ بالأنباء ترد عن التفاف الفرس واتخاذ درب الجبل، فطلب إيوريتوس درعه وسلاحه وسأل مرافقه أن يمضي به إلى ساحة المعركة. ولقد صدع المرافق بالأمر، واندفع أيوريتوس إلى قلب المعمعة، وما زال يقاتل الأعداء حتى سقط قتيلاً. أما أريسطوديموس فقد وجد عزيمته تخونه فبقي في ألبيني. ولست أعتقد أن الإسبارطيين كانوا سيغضبون، لو كان الأمر يقتصر عليه وحده– ولو أنه عاد مريضاً إلى إسبارطة، أو عاد الاثنان معاً؛ أما أن يقتل أحد الاثنين، ويتوسل الآخر بمرضه ذريعة، والعذر متاح لكليهما على السواء، لينقذ نفسه، فأمر لا يدع للإسبارطيين إلا أن يغضبوا ويحنقوا على أرسطوديموس هذا.

هناك تفسير آخر لعودة أرسطوديموس حياً إلى إسبارطة، ويذهب أصحاب هذا التفسير إلى أنه كان موفداً برسالة، وقد تلكأ في طريق العودة ليتفادى القتال؛ أما رفيقه في تلك المهمة فأنه أسرع وسقط قتيلاً في المعركة. خلاصة القول إن أرسطوديموس هذا لقي عند عودته التنديد والتشنيع من قومه؛ ولم يجد منهم من يعطيه جذوة ليوقد ناراً أو يشاركه الحديث، وقد عرف بعدئذ بين الناس بـ "الرعديد". ولكنه أعاد الأمور إلى موضعها القديم فيما بعد حين برز

في صفوف المحاربين في معركة بلاطية. وهناك رواية أخرى تقول إنه كان هناك رجل آخر نجا من الثلاثمئة، ويدعى بانتيتس. وتفصيل ذلك أنه كان في مهمة إلى تساليه – ففاتته المعركة. ولما عاد هذا إلى إسبارطة قابله الناس بالتنديد، فلم يقوَ علي احتمال العار وانتحر بأن شنق نفسه. ظل جند طيبة بإمرة ليونيداس مع الجيش لفترة من الزمن، وكانوا يضطرون خلال ذلك لإبداء بعض مظاهر المقاومة للعدو؛ ولكنهم ما إن وجدوا الأمور تميل لصالح فارس حتى انتهزوا فرصة انسحاب ليونيداس إلى التل الصغير، حيث كانت وقفته الأخيرة لينفصلوا عن وحداته فمضوا إلى العدو بأيدٍ ممدودة، وهم يصيحون مذكرين بأنهم كانوا أول من قدم التراب والماء للملك وفي مقدمة المناصرين لقضية فارس، متبرئين من مسؤولية الأذى الذي لحق بجند الملك، وإذا كانت لهم مشاركة في ثيرموبلاي. فإنهم أكرهوا عليها. فلما أيد التساليون أقوالهم عفا عنهم الفرس فسلموا من الأذى. ولكن لئن كان الحظ في جانبهم في هذا فإنه لم يسعفهم في كل أمر؛ فقد قتل الفرس منهم قلة، وهم يقتربون من صفوفهم، ودمغ القسم الآخر بأمر من أحشويرش بعلامة الملك، بدءاً بقائدهم ليونتياديس الذي قتل بعدئذ على أيدي البلاطيين، حين كان يتقدم قوة من أربعمائة من جند طيبة أثناء الاستيلاء على بلاطية. تلكم هي ، إذن ، قصة كفاح الإغريق على أرض ثيرموبلاي ولما انتهت المعركة استدعى أحشويرش ديماراتوس، وطرح عليه بعض الأسئلة: أنت رجل طيب، يا ديماراتوس، وصدق كلماتك شاهد على ذلك. فقد برهنت الأحداث على صدق كل ما قلت. قل لي الآن كم من اللاكيديمونيين هناك؟ وكم منهم بمثل شجاعة أولئك الذين سقطوا في ساحة القتال؟ أم أنهم جميعاً غدوا على هذه الشاكلة؟" وكان أن أجاب ديماراتوس بقوله:" يا مولاي، هناك من اللاكيديمونيين بقدر ما هناك من المدن في تلك البلاد؛ ولكنكم تنشدون جواباً عن سؤال آخر، وإني مجيبكم عن ذلك السؤال: في تلك البلاد هناك مدينة هي إسبارطة، وفيها ثمانية آلاف رجل. وهؤلاء

يماثلون أولئك الذين قاتلوا في تلك المعركة. أما الآخرون في بلاداللاكيديمونيين فلا يضارعون الذين قضوا- ومع ذلك فهم جنود بواسل." قال أحشويرش:" أخبرني إذن، ما أيسر سبيل لهزيمة هؤلاء القوم. فقد كنت ملكاً عليهم ذات يوم، ولا ريب في أنك تعرف مداخل سياستهم ومخارجها." قال ديماراتوس: إن كنتم جادين، يا مولاي، في سؤالكم، فإني لا أملك أن أجيبكم بما أرى أنه أفضل سبيل. ولعلكم توجهون ثلاثمئة سفينة من أسطولكم إلى جزيرة مقابل الساحل تدعى سيثرا، وقد قال فيها أحكم الناس بيننا، الحكيم خيلون، ذات يوم أن الإسبارطيين سيكونون أحسن حالاً لو غمرت الماء هذه الجزيرة وغرقت، إذ لطالما كان هذا الحكيم يتوقع أن يستغلها عدو للانطلاق نحو البلد، كما أعرض عليكم الآن. وهو لم يكن يتوقع هجومكم أنتم، طبعاً، إنما كانت خشيته من كل من تراوده نفسه بالهجوم. والرأي عندي أن تجعلوا من سيثرا قاعدة لسفنكم. ومنها يمكنكم الانطلاق لتنشروا الخوف والرعب في كل أرجاء بلاد اللاكيديمونيين وليس لكم أن تخشوا مساعدة الإغريق الآخرين لهم، فشاغلهم الآن الحرب على أعتاب دارهم، وجيشكم يشغلهم بالغزو. وهكذا يسقط الإغريق في العبودية أولاً، وتبقى بلاد اللاكيدايونيين وحيدة بلا نصير وعاجزة عن المقاومة. أما إذا لم تصادف هذه الخطة هوى لديكم فلكم أن تتوقعوا مزيداً من المتاعب والمشاق؛ واعلموا أن ثمة برزخاً ضيقاً في بلاد البيلوبونيز اجتمعت فيه قوات من تلك البقعة في بلاد الإغريق، وهي تتهيأ لمقاومتكم، ولسوف تشهدون عندئذ من المعارك ما لم تشهدوا مثلها عنفاً وضراوة. أما إذا أخذتم بنصيحتي فسوف تجدون مدن ممر أشموس(ممركورنثه) والبيلوبونيز تسقط في قبضتكم، دون أن تتكلفوا ضربة واحدة."

وكان أخمينيس، أخو أحشويرش وقائد الأسطول، يجلس طوال الوقت مستمعاً لهذا الحوار، يراوده القلق من أن يأخذ برأي ديماراتوس. فقال أخيراً:" أراك، يا مولاي، قد أرسلت نفسك على سجيتها لتتأثر برأي رجل

يحسدكم لنجاحكم، وهو في الأرجح خائن لكم. فهو إغريقي شأنه شأن الإغريق الآخرين وتحكمه نوازعهم التي ألفوها من حسد سواهم إذا أصاب نصيباً من النجاح وكره كل قوة تفوق ما لديهم. ونحن قد فقدنا الآن أربعمائة سفينة، فإذا اجتزأت من الأسطول ثلاثمائة أخرى للالتفاف حول [شبه جزيرة]البيلوبونيز غدا العدو في وضع الند لنا. ونصيحتي لكم أن تبقوا الأسطول وحدة متراصة، ولن تجدوهم يجرؤون على مواجهتنا- فغلبة العدد تكفل لكم هذا الوضع؛ ثم إنه إذا ظل الجيش والأسطول على مقربة واتصال ببعضهما تحقق لكل منهما أن يؤازر الآخر، فإذا ما فصلتم بينهما لن تفيدوا الأسطول بأكثر مما يستطيع هو أن يفيدكم. حسبكم أن تتوخوا سلامة التخطيط فتأمنوا العدو، وإلا ظللتم على تساؤلاتكم: ماذا يدبرون؟ كم عددهم؟ ما المكان الذي سيختارونه للاشتباك؟ إن القوم قادرون على تدبير أمورهم كل القدرة، كما أننا نملك أن نتدبر شؤوننا كما ينبغي التدبير. فإذا جازف الإسبارطيون بمنازلتنا في معركة أخرى واجهوا خسارة محققة ولن يكون في طاقتهم إصلاح الدمار الذي سننزله بهم." رد أحشويرش:" أحسب أنك على حق فيما تقول. ومع ذلك فإن يكن تقدير ديماراتوس دون تقديرك، إلا أنه حدثني حديث ثقة بما يعتقد أنه في صالحي. وإني لذلك لن أسلم برأيك من أن الرجل ينطوي على سوء ويكيد لسياستي؛ فلقد خبرت معدنه وعرفت ولاءه فيما قاله لي في مناسبات سابقة؛ ولدينا، إلى هذا وذاك، الواقعة الثابتة وهي أن المرء يحسد جاره إذا أصابه التوفيق، وإذا سأله نصيحة كتم ما يعتقد أن فيه الفائدة الجلى له- ما لم يكن هذا رجلاً على قدر خارق من الفضيلة، وهو لعمري نادر الوجود. ولكن الأمر في العلاقات بين الدول مختلف كل الاختلاف، فتجد المرء يسر إذا ما أصاب الصديق الغريب توفيق، وتراه يقدم أفضل النصح له عند السؤال. ديماراتوس رجل غريب عنا وهو في ضيافتي؛ وإني لمن الشاكرين، بعد هذا، إن أمسك الناس عن الإساءة إليه في المستقبل."

ولقد مضى أحشويرش بعد هذا الحديث إلى ساحة المعركة ليتفقد جثث الضحايا؛ فلما قيل له إن ليونيداس كان ملكاً على إسبارطة وقائد لواء الإسبارطيين، أمر بقطع رأسه ورفعه على وتد ليراه القاصي والداني. وهذا في اعتقادي أقوى دليل على أن أحشويرش كان يكن لليونيداس، وهو حي، ما لم يكن يحمله لإنسان آخر من الكراهية، وهناك، بعد، أدلة أخرى تؤيد ما ذهبت إليه؛ فلو لم يكن الأمر كذلك لما أقدم على هذا الفعل الشنيع بالتمثيل بجثته؛ فقد جرى الفرس على أن يكرموا الأبطال في الحروب، ومشهود لهم بذلك. ومع ذلك فقد امتثل القوم لأمر أحشويرش.

وأود الآن أن أعود إلى واقعة في حكايتي كنت قد أغفلت الحديث عنها. وتفصيل ذلك أن الإسبارطيين كانوا أول من بلغهم نبأ إعداد أحشويرش لحملة على بلاد الإغريق، فكان أن أرسلوا من يسأل عرافة دلفي النبوءة، فجاءتهم على نحو ما كنت قد فصلت قبل حين. وجاء استقبالهم النبأ غريباً أشد الغرابة: فديماراتوس بن أريسطون كان في منفاه في بلاد الفرس، ولست أحسب أنه كان يومذاك يعطف على الإسبارطيين، كما تفرض طبيعة الأمور أن يظن المرء؛ وإذن فله أن يذهب في الرأي ما يشاء، سواء إن كان حافزه فيما أتى به حسن النية أم شذوذ اللذة. ومهما كان الأمر، فإنه وجد حالما بلغته أنباء الغزو الذي دبره أحشويرش، وهو في سوسة، بأن عليه إخبار الإسبارطيين بما يدبر لهم. ولما كان خطر اكتشاف أمره عظيماً فقد وجد الطريقة الوحيدة المتاحة أمامه لإنفاذ الرسالة بأن يضعها بين قطعتين من الخشب ويغطي الكتابة بطبقة من الشمع، فلا يظهر منها شيء مما كتب، وتفلت من رقابة الحراس. ولما بلغت قطعة الخشب الجهة المقصودة لم يتبين منها أحد شيئاً، إلا جورجو بنة كليومنيس وزوج ليونيداس، كما علمت، فأمعنت النظر فيها ثم قالت للقوم من حولها أنهم واجدون أمراً في قطعة الخشب، إن أزالو الشمع عنها. ولقد فعلوا بما أشارت فظهرت الرسالة ثم أذاعوها على الإغريق الآخرين. تلكم هي، على كل حال، قصة ما حدث.

الكتاب الثامن[1]

أورانيـــــــــا

تضافرت جهود الدول الإغريقية المتحالفة على تجهيز أسطول يشتمل على القطع البحرية التالية: ١٢٧ سفينة من أثينا - يقوم على بعضها رجال من بلاطية حملتهم على الخدمة شجاعتهم ووطنيتهم، بالرغم من جهلهم بشؤون البحر؛ ٤٠ سفينة من كورنثه و ٢٠ من ميجارا ،وتولى الخاليكيدونيون قيادة ٢٠سفينة قدّمتها لهم في الأصل أثينا، و ١٨سفينة من إيجينا؛ و ٧ من أيريتريا؛وجاء السايكونيون بـ ١١سفينة ؛ وقدم اللاكيديمونيون١٠سفن والإبيداوريون ٨ سفن و ٥ من طروزن؛ و سفينتان من ستيرا، وسفينتان حربيتان خمسينية المجاديف؛ ومثلهما اثنتان ثلاثية المجاديف من كسيان. وشارك لوكربوا أوبوس بمجموعة من سبع سفن حربية خمسينية المجاديف.

تلكم هي، إذن، الدول التي أرسلت سفنها إلى أرتيميسيوم، وقد دونت عدد السفن التي قدمتها كل دولة للأسطول، وبلغ عددها ٢٧١ سفينة حربية، عدا الخمسينية. وكان القائد العام لهذا الأسطول إيوربيادس بن إيوركليدس، وقدمته إسبارطة لهذه المهمة؛ إذ أصر الأعضاء الآخرون في هذا التحالف على أن يكون القائد من اللاكيديمونيين، وقالوا يومئذ إنهم يؤثرون انهيار الحملة على أن يكونوا بإمرة الأثينيين. وكان الحديث قد دار في بداية الحملة، حتى قبل الطلب إلى صقلية بالإنضمام إلى الحلف، حول إناطة قيادة الأسطول بأثينا؛ ولكن هذا الرأي لم يلق ترحيباً لدى دول الحلف، فتنازلت أثينا عن مطلبها بالقيادة، طالما أن الأمر يتصل ببقاء الأمة، واستمرارها بالمطالبة بالقيادة ينذر بمعركة حول القيادة، ومن شأنها أن تؤدي قطعاً إلى دمار بلاد الإغريق.

ولا ريب في أنهم كانوا على صواب في هذا التقدير؛ فشر الحرب الأهلية

أعظم من حرب موحدة بقدر ما الحرب أسوأ من السلم. فكان إدراكهم للخطر الذي ينطوي عليه غياب الوحدة جعلهم يتنازلون عن المطالبة بالقيادة وقد ظلوا على نهجهم هذا ما دامت حاجة الإغريق إلى مؤازرتهم قائمة. ويتبدى هذا الموقف من جانبهم جلياً فيما كان منهم لاحقاً، إذ ما إن ردّ الفرس على أعقابهم وخرجوا من البلاد ونقلت الحرب إلى منطقة من أملاك فارس حتى جعلوا من عجرفة باوسانياس ذريعة لانتزا ع القيادة من اللاكيديمونيين.

وجد الإغريق عند وصولهم إلى أرتيميسيوم أسطولاً فارسياً عظيماً يرسو في أفيتاي وجنود الفرس منتشرين في الجوار، ووضح لديهم أن أحوال الفرس غير ما توقعوا. فأنتابهم الذعر لهذا المشهد، وشرعوا يفكرون في التخلي عن أرتيميسيوم والانكفاء إلى أعماق البلاد. ولقد أزعج هذا الخاطر اليوبوئيون فرجوا من إيوربيادس أن يبقى، على الأقل، حتى يتم لهم ترحيل الأطفال والخدم إلى مكان آمن. ولكنه رفض الرجاء، فتوجهوا برجائهم إلى القائد الأثيني ثيميستوكليس، وقدموا له رشوة ثلاثين تالنتاً ليعمل على تدبير بقاء أسطول الإغريق والقتال أمام ساحل يوبويه. وكانت وسيلته إلى ذلك أن قدم لإيوربيادس سدس ما تلقاه من اليوبوئيين على أنها منه، فضمن بذلك موافقته؛ غير أنه كان هناك أحد القادة، وهو أديمانتوس بن أوكايتوس، وكان من كورنثه، فتردد في الموافقة على الخطة، وهدد بسحب سفنه من أرتيميسيوم. فالتفت إليه ثيميستوكليس قائلاً بلهجة القسم : «إنك لن تتركنا دون إنذار، ونحن غير متأهبين! ولسوف نعطيك لتبقى معنا أكثر مما يمكن للملك الفارسي أن يهبك إن تركتنا»؛ ثم اسرع بإرسال ثلاثة تالنتات ـ من الفضة إلى سفينة أديمانتوس. وهكذا رضخ أديمانتوس للرشوة فتحققت لليوبوئيين رغباتهم؛ كذلك كان لثيميستوكليس نصيب من هذه العملية، إذ احتفظ ببقية المبلغ المدفوع لنفسه. وما كان لأحد أن يعلم أنه يحمل المال معه، وقد ذهب الظن بالرجلين اللذين شاركاه فيه أنه ورد من أثينا خصيصاً لذاك الغرض. تلكم هي الظروف التي

أدت إلى اشتباك الإغريق والفرس عند ساحل يوبويه، وحسبنا ما علمنا من الأمر، فلننتقل إلى وصف المعركة ذاتها.

كان وصول الفرس إلى أفيتاي بعد الظهر مباشرة، ورأوا بأعينهم ما سبق أن بلغهم نبأه ـ عنيت تواجد قوة إغريقية صغيرة عند أرتيميسيوم. وللتو اشتد بهم الحماس وأرادوا مداهمة أسطول الإغريق والاستيلاء على سفنه. لكن أصحاب الرأي لم يجدوا حكمة في المضي إلى الهجوم مباشرة؛ ذلك أنه رجح لديهم أن يعمد الإغريق إلى الإنسحاب والفرار تحت جناح الليل من موقعهم، عند رؤية سفن الفرس تتقدم نحوهم، كما رجح عندهم أن ينجحوا في الهرب، فيفشل مسعاهم؛ وذلك أمر لا يتفق وهدف الفرس الذين كانوا عازمين على ألا يدعوا حتى المكلف بإطلاق شارات النار (على حد تعبيرهم) أن ينجو بحياته.

وهكذا وضعوا خططهم لتكفل لهم القضاء على ذلك الأسطول بما حمل، فوجهوا قوة من ٢٠٠ سفينة للإبحار بعيداً عن سكياثوس، لئلا يقعوا تحت رصد العدو، والالتفاف حول يوبويه ودخول مضيق إيوريبوس عن طريق كافرايوس وجرايستوس، آملين بذلك نصب فخ للإغريق، فتكون مجموعة من السفن عند مؤخرة أسطولهم وتقطع عليهم طريق الانسحاب، بينما تتولى المجموعة الثانية الضغط عليهم من المقدمة. وهكذا وضعت لتنفيذ هذه الخطة مئتا سفينة بينما بقي الجسم الرئيس من الأسطول ينتظر إكمال الحلقة، إذ لم يكن في عزمهم القيام بهجوم على الإغريق في ذلك اليوم، إلا حين تبلغهم الإشارة بوصول المجموعة إلى إيوريبوس. وفي غضون ذلك كله جرى تفقد الأسطول الأساس عند أفيتاي، وكان بين بحارة الأسطول الفارسي رجل يدعى سكيلياس، وكان من سكيونه وهو أفضل غواص في عصره، وعرف عنه إنقاذ الكثير من الكنوز التي غرقت مع السفن الفارسية في بيليون لصالح أسياده ـ واحتفظ بالقدر الكبير منها لنفسه. ويبدو أن الرجل ظل ردحاً من الزمن تراوده فكرة الهرب إلى صفوف الإغريق، لولا أن الظروف لم تكن تساعده يومذاك. ولست أعلم على وجه

الدقة كيف استطاع أن يصل إلى جانب الإغريق، وأعجب إن كانت الرواية عن هربه صحيحة؛ إذ يروى أنه هرب حين كانت السفن راسية عند أفيتاي، ومضى غوصاً حتى بلغ أرتيميسيوم - وهي مرحلة تقرب من ثمانين فرلنجاً. وهناك روايات أخرى وفيها من المبالغة الشيء الكثير، كما تروى روايات قلائل صحيحة. أما تلك التي أوردتها الآن فلن تستقيم عندي إلا أن يكون قد حمله إلى أرتيميسيوم قارب. ومهما يكن الأمر، فالواقع أن الرجل رحل وبلغ مقصده، وهنا أخبر القادة الإغريق بما جرى لأسطول فارس وكارثة العاصفة، وأفادهم بأمر مجموعة السفن التي أخذت بالالتفاف حول يوبويه.

ما إن سمع القادة الإغريق بالخطة التي تدبر لأسطولهم حتى التفتوا لمناقشة الوضع الناشئ، وقرروا بعد نقاش طويل البقاء في موقعهم حتى منتصف الليل، ثم الإبحار بعدئذ لمواجهة الفرس الملتفين حول الجزيرة. غير أنهم في الصباح حين لم يجدوا أحداً يعترض طريقهم مع مرور الوقت، آثروا الانتظار إلى أن كان مساء اليوم التالي، ثم مضوا لمهاجمة الجسم الرئيس من أسطول العدو، بهدف امتحان كفاءة الفرس في الملاحة واختبار تكتيكاتهم.

حينما شاهد قادة وبحارة أسطول أحشويرش البحارة الإغريق يتحركون للهجوم بقوتهم الصغيرة اعتقدوا أنهم مجانين ومضوا لقتالهم، وملؤهم الثقة بأن الإيقاع بهم يسير؛ ولم يكن هذا التقدير حقاً مبالغة منهم، بل تقدير يبرره غلبة عدد سفن الفرس وسرعتها على ما لدى الإغريق. وبهذا التفوق المؤكد خرجوا بخطة تكفل لهم تطويق العدو ليسقط في قبضتهم. ولقد أصاب الضيق أولئك الأيونيين الذين أكرهوا على الخدمة في أسطول الفرس، بالرغم من ميلهم إلى الإغريق، حين رأوا أسطولهم يطوق شيئاً فشيئاً من كل جوانبه، وتأكدت قناعتهم بأن أحداً لن يخرج من الوضع حياً؛ أما أولئك الذين سروا بهذا الموقف فقد اشتدت المنافسة بينهم على الفوز بالجائزة التي وعد بها أحشويرش من يأتي بأول سفينة أثينية - ذلك أن الأثينيين كانوا موضع حديث الأسطول الفارسي

كله.

بادرت مجموعة السفن الإغريقية عند أول شارة بالحركة إلى التجمع في حلقة - جاعلين مقدمة السفينة في كل جانب باتجاه البرابرة والمؤخرة متجهة إلى الداخل، ثم أخذت السفن فسحة عند الإشارة الثانية لتوفر مجالاً للمناورة وتوجهت بالمقدمة نحو العدو ونجحت في الاستيلاء على ثلاثين سفينة من سفن الفرس. وكان من بين من وقع في أسر الإغريق فيلاون بن خرسيس وأخو جورجس، ملك سلاميس، وأحد المقدمين في قوات العدو. وكان أول إغريقي يفوز بالاستيلاء على إحدى سفن العدو أثيني يدعى ليكوميديس بن إسخرياس فقلد ميدالية الشجاعة بعد المعركة.

وبعد هذا الفوز، وتوقف القتال مع حلول الظلام، استدار الإغريق وعادوا إلى أرتيميسيوم، بينما عادت القوة الفارسية إلى أفيتاي، وقد أصابتهم صدمة عظيمة للهزيمة التي نزلت بهم. وكان الأغريقي الوحيد الذي فر من جانب الفرس ليلتحق بأبناء قومه أثناء المعركة أنتيدوروس من ليمنوس، ونال من الأثينيين قطعة أرض في سلاميس تقديراً لعمله.

ولقد هبت بعد ذلك عاصفة عاتية من جهة بيليون وكان الوقت آنذاك منتصف الصيف - واستمرت طوال الليل بين رعد وبرق. وأخذت جثث القتلى وحطام السفن تطفو وتصطدم بمقدمة السفن الراسية في أفيتاي، وكانت الرياح العاصفة واصطدام الجثث وحطام السفن المنكوبة بأطراف السفن الراسية يثير الفزع في أفئدة جند الفرس، حتى حسبوا أن ساعتهم قد حانت؛ والحق أن ما عاناه هؤلاء كان كثيراً - إذ ما كادوا يستريحون من عناء الليل بعد العاصفة في بيليون، التي ذهبت بالعديد من سفنهم، حتى واجههم قتال شديد في عرض البحر، ثم أصبحوا الآن تحت وابل من المطر الغامر وهو يصب في أنهار تندفع جارية إلى البحر، بين الرياح والرعد والقصف.

ولقد كانت تلك للفرس في أفيتاي ليلة ليلاء، إلا أنها غدت أشد على الجماعة

التي أبحرت حولة يوبويه، حين داهمتهم، وهم في عرض البحر، وكان مآلهم أسوأ مآل؛ وتفصيل ذلك أنه بينما كانت هذه المجموعة قبالة أغوار يوبويه أخذ المطر ينهمر عليهم مع العواصف التي هبت هوجاء عاتية وأصبحت السفن عاجزة عن السير فأخذت تتأرجح عمياء والرياح تدفعها، فانتهت حطاماً فوق الصخور. ولا ريب أن إرادة الرب كانت تفعل فعلها لكسر أسطول الفرس ليغدو بحجم الإغريقي. ذلكم ما علمنا من أمر كارثة الأغوار.

ولقد سر الفرس في أفيتاي حين أطل فجر اليوم التالي، واستكانوا لا ينشدون مجازفة في ذلك اليوم، فحسبهم ما نالهم من مصائب العاصفة، فآثروا أن تبقى سفنهم في مرساها، والمكوث حيث كانوا، فترة من الوقت يستجمعون فيها قواهم. وكان الإغريق، في غضون ذلك، قد تلقوا تعزيزاً لأسطولهم من ثلاث وخمسين سفينة من أتيكا؛ فوجد الإغريق في هذه المجموعة الجديدة من السفن وما بلغهم من أخبار العاصفة وغرق الأسطول الفارسي وهو يلتف حول يوبويه ما يجعلهم في وضع أفضل ويوفر لهم الإمكانية للانتظار حتى مثل ذلك الوقت من اليوم السابق للإبحار ومهاجمة بعض السفن القليقلية؛ وكان أن تم لهم ذلك بالفعل، ولما حان الليل عادوا إلى أرتيميسيوم.

ولقد شعر قادة الفرس بالهوان وهم يجدون أسطولاً صغيراً مثل هذا يذيقهم الأمرين؛ وزاد في الأمر القلق الذي استبد بهم، حين أخذوا يفكرون فيما ينتظرهم من أحشويرش؛ بعد هذه التجربة. وهكذا أخذوا بالمبادرة في اليوم الثالث، واستعدوا للمواجهة وأسلموا أشرعتهم للريح ظهيرة اليوم. وصادف أن كانت معارك أخرى تدور في ثيرموبلاي، بينما المعارك بين السفن دائرة في البحر، وهدفها جميعاً واحد: الدفاع عن الممر المؤدي إلى قلب بلاد الإغريق، إذ كان الأسطول يقاتل حماية لمضيق إ يوربيوس كما كان الجيش وليونيداس يحاربان لحماية الممر.

كان أسطول أحشويرش قد تقدم الآن في ترتيب قتالي حسن للقيام بهجومه،

بينما ظل الإغريق في أرتيميسيوم على هدوئهم ينتظرون اقترابه. وهنا وضع الفرس سفنهم في تشكيل حدوة الحصان وتقدموا لتطويق عدوهم؛ ولما لاحت سفنهم تقدم الإغريق للاشتباك؛ وهكذا بدأ القتال. وكان الأسطولان في هذا الاشتباك متعادلين في القوى - ولم تكن كثرة عدد السفن في الأسطول الفارسي إلا ألد أعدائه، إذ ما انقطعت تلك السفن تصطدم بعضها بعضاً في إبحارها، فتزيد في فوضى الحركة. ولكن الأسطول بالرغم من ذلك كله قاتل قتالاً عنيداً، وجلّى قادته في المعمعة، لئلا تنزل به الهزيمة وخصمه قوة صغيرة. وكان أن تكبد الإغريق خسائر كبيرة في الأرواح والسفن، إلا أن خسائر الفرس كانت أعظم. وفي النهاية انفض الاشتباك وكانت النتيجة على نحو ما ذكرت. ففي الطرف الفارسي خرج المصريون بأفضل صحيفة، ومن مآثرهم أنهم استولوا على خمس سفن إغريقية ووقع بحارتها في أسرهم. أما الإغريق فكان أبرزهم الأثينيون - وخاصة كلينياس بن ألكبياديس، على ظهر سفينته الخاصة ومعه مئتان من البحارة، على نفقته الخاصة.

وكان الطرفان سعيدين بالفراق، وأبحرا بسفنهما بأقصى ما لديهما من السرعة إلى مراسي الأمان. ثم إنه ما إن انفض الاشتباك حتى أخذ الإغريق في انتشال جثث قتلاهم الطافية وإصلاح السفن المعطوبة؛ ومع ذلك فقد نالهم الكثير من شدة العدو - وبالأخص الأثينيين الذين أصيبت سفنهم بالعطب وساء حالها - فحملهم ذلك على ترك موقعهم والانسحاب إلى منطقة أبعد جنوباً. وهنا خطر ببال ثيميستوكليس أنه لو أمكن فصل المجموعتين الأيونية والكارية عن القوة الفارسية لأصبح بوسع الإغريق التفوق على البقية؛ ولما نضجت الفكرة عنده دعا قادة قطاعاته إلى اجتماع على الشاطئ، حيث كان أهل يوبويه يرعون الأغنام. وهناك قال لهم إنه خرج بفكرة ربما تنجح في حرمان أسطول أحشويرش من أفضل سفنه. وأمسك بعدئذ عن الخوض في الخطة، واكتفى بتوجيههم إلى ذبح ما شاؤوا من الأغنام اليوبوئية، فجندهم أولى بها من الأعداء .

ثم أشار بأن يأمر كل قائد رجاله بإشعال النار على عادتهم؛ ثم احتفظ لنفسه بتحديد ساعة الانسحاب والإشراف على عودتهم آمنين إلى ديارهم. ولقد وافق القادة على مقترحاته؛ والتفتوا لإيقاد النار فوراً، وتحول الرجال إلى قطعان الغنم يعملون فيها ذبحاً.

وجدير بي أن أضيف هنا أن اليوبوئيين لم يبدوا أي اهتمام بنبوءة باكيس، وأعرضوا عنها، ولم يتدبروا أمورهم أمام خطر الحرب، فلا نقلوا حاجياتهم من الجزيرة ولا اختزنوا المؤن، فوجدوا أنفسهم بالتالي في موقف خطير للغاية. وهاكم النبوءة:

حين يضع غريب اللسان على البحر نيراً من البردي

اعملوا على إبعاد قطعانكم عن يوبويه.

ولقد أهمل القوم هذا التحذير فكانت عاقبتهم يومذاك وما تلاه معاناة المتاعب وانتظار وقوعها كل يوم.

وفيما الإغريق منشغلون على نحو ما وصفت وصل الراصد من تراخيس. وكانوا قد كلفوا اثنين من رجالهم لأعمال الرصد وتنسيق الاتصال بين الأسطول والوحدات البرية، فكان في مرصد أرتيميسيوم بولياس، وهو من أنتيكيرا، وكان يمتلك قارباً جعله جاهزاً للإبحار في كل لحظة لإعلام الجيش في ثيرموبلاي بأية نكسة يتعرض لها الأسطول، وأبرونيخوس بن ليسيكليس الأثيني، وسبق له أن قام بمثل هذه المهمة في وحدة ليونيداس، وبإمرته سفينة ذات ثلاثين مجدافاً، جاهزة للتحرك لإعلام أرتيميسيوم بما قد يواجه القوات البرية من المتاعب. وقد وفد أبرونيخوس الآن بنبأ ليونيداس ورجاله؛ وكان من وقع النبأ أن تهيأ الإغريق للانسحاب فوراً دون تأخير، فجاء الكورنثيون في المقدمة، وكان الأثينيون في المؤخرة.

ولقد ركب ثيميستوكليس ورجاله أسرع السفن، وكان ينزل في طريقه في كل موقع فيه ماء، وينقش الرسائل على الصخور ليقرأها الإيونيون، وقد قرؤوها

فعلاً في اليوم التالي، وهي تجري على نحو ما أنا مفصل هنا: «يا رجال أيونيا، إنكم تخطئون حين تحاربون آباءكم وتعينون [الأجنبي] على استعباد الإغريق؛ والأحرى بكم أن تنضموا إلى صفنا؛ وإذا تعذر فعليكم على الأقل بالحياد، وسلوا الكاريين أن يقتدوا بكم. أما إذا كنتم عاجزين عن هذا وذاك، وكان هناك ما يمنعكم من مغادرة هذا المعسكر، فما زالت أمامكم طريق ثالثة: تذكروا في المعركة التالية أن الدم الذي يجري في عروقنا كلينا دم واحد، وأن صراعنا وفارس إنما كان بسببكم - وإذا قاتلتم إلى جانبها فلا تشتدوا في الحرب». ولعل ثيميستوكليس كان يفكر حين ترك هذه الرسالة في احتمالين فإما أن يحمل الأيونيين بهذه الرسالة، إن لم يطلع الملوك عليها، على الانتقال إلى صف الإغريق، وثانياً، أن تدفع الرسالة بأحشويرش، إن بلغته، على سوء الظن بالأيونيين، فيبعدهم عن معارك البحر.

بعد هذا أبحر أحد رجال هيستيايا إلى أفيتاي حاملاً نبأ انسحاب الإغريق من أرتيميسيوم. ولكن الفرس لم يأخذوا به؛ بل عمدوا إلى احتجازه وأرسلوا بعض السفن السريعة ليتبينوا الحقيقة بأنفسهم. فلما تأكد الخبر تحركوا مع مطلع الفجر بكامل الأسطول نحو أرتيميسيوم، وألقوا مراسيهم حتى الظهر، قبل أن يتوجهوا بعد ذلك إلى هيستيايا، فاستولوا على المدينة، ثم اجتاحوا قرى الساحل في كورة هيلوبيا، وهي من أعمال هيستيايا. وفيما كانوا في تلك النواحي وصل رسول من الملك. وكان أحشويرش قبل إيفاد رسوله قد أمر بدفن العشرين ألفاً من جنود جيش فارس الذين سقطوا في ثيرموبلاي، عدا ألف جندي أمر بدفنهم في خنادق ومن فوقهم التراب وأوراق الأشجار لئلا تقع عليهم عين أحد من رجال الأسطول، أما الألف الآخرون فقد ظلت جثثهم مكشوفة في العراء. أما الرسالة التي أذاعها رسول أحشويرش أمام الوحدات فهاكم نصها: «يا رفاق السلاح، إن الملك يجيز لمن شاء أن يغادر وحدته ليرى بأم العين عاقبة المعتوهين الذين حسبوا أن بوسعهم إنزال الهزيمة به». وللتو تدافع الجنود

يريدون الإفادة من منّةِ الملك حتى نفدت القوارب لتحملهم إلى وجهتهم، فعبر الماء كل من استطاع وجال هو في ساحة المعركة ليرى جثث القتلى، ولكن هذه الجثث إنما كانت جثث العبيد وقد حسبها الناظر جثث الإسبارطيين والثيسبيانيين؛ ومع ذلك فإن محاولة أحشويرش السخيفة لإخفاء عد الضحايا في صفوف جيشه لم تنطل على أحد وهو يرى ألف جثة متناثرة على أرض المعركة من جهة ثم يرى أربعة آلاف أخرى مسجاة إلى جانب بعضها بعضاً من جهة أخرى.

وفي اليوم التالي، أمضى الجنود هذا اليوم في استطلاع المكان، عاد البحارة إلى سفنهم الراسية في هيستيايا، ومضى الجيش في زحفه وعلى رأسه أحشويرش. وفي غضون ذلك انضم إلى هذا الزحف بعض الأركاديين الفارين ـ وكان هؤلاء جائعين ويبحثون عن عمل، فاقتيدوا إلى أحشويرش، وجرى استجوابهم عن أحوال الإغريق. وقد تولى هذا الاستجواب أحد الفرس، فأجابه الأركاد بأن الإغريق منشغلون بأعياد أوليمبوس يتابعون المباريات الرياضية وسباق العربات. فلما سأل المستنطق عن الجائزة التي يتنافسون عليها أجابوه بأنها أكليل من أغصان شجر الزيتون. ودفعت هذه الإجابة تريتانتايخميس بن أرطبانوس ليبدي ملاحظة سليمة، وإن ضاق بها أحشويرش وحملته على وصفه بالجبن؛ إذ ما إن سمع أن الجائزة لا تأتي لصاحبها بمال، وإنما تكسبه إكليلاً وحسب، حتى صاح: «يا للسموات، يا ماردونيوس، أي رجال جئت بنا لنحارب ـ فأصحابنا يتنافسون فيما بينهم لا ليفوزوا بجائزة مادية، وإنما لشرف الفوز وحسب!»

وفي غضون ذلك، وبعيد كارثة ثيرموبلاي، أرسل التساليون مندوباً إلى الفوكيين، وقد كانوا دوماً على علاقة سيئة وإياهم، ثم ازدادت سوءاً بعد الضربة التي أنزلوها بهم. وتفصيل ذلك أن التساليين وحلفاءهم قاموا بغزو بلاد الفوكيين، قبل مدة من الحملة الفارسية، ولكنهم انهزموا متكَبدين خسائر فادحة. وكان أهالي فوكاي قد سدت عليهم المنافذ وهم في برناسوس، لولا أن خرج أحد

الايليين ويدعى تلياس، وكان منجماً، بحيلة أتت لهم بالنصر؛ حيث اختار ستمائة من خيرة الرجال وصبغ أجسادهم وأسلحتهم بالبياض، ثم أرسلهم ليهاجموا العدو في الليل، وأمرهم بقتل كل من يصادفهم وهو بغير لونهم. وكان التساليون أول من رآهم فظنوهم أشباحاً، ففزعوا منهم، ثم سرعان ما سرى الفزع بين بقية الجند فتشتت شملهم وتمكن الفوكيون من قتل أربعة آلاف منهم، فحازوا على جثث قتلاهم وأسلحتهم. و بعثوا بنصف ما وقع في أيديهم من الدروع إلى المعبد في آباي والنصف الآخر إلى معبد دلفي، وجعلوا عشر الغنائم نفقة لإقامة التماثيل الضخمة أمام معبد دلفي والتماثيل المشابهة لها أمام معبد آباي.

بعدما تمكن أهالي فوكيس من هزيمة التساليين قاموا أيضاً بإلحاق الضرر بالفرسان و الإغارة عليهم. إذ حفروا خندقاً عميقاً في المر القريب من هيامبوليس، ووضعوا فيه عدداً من الجرار الفارغة، ثم سووا الخندق بساتر خفيف من التراب لإخفاء الفخ، وقبعوا ينتظرون الهجوم. وجرى الفرسان التساليون على ظهور جيادهم، وهم يتوقعون أن يحصدوا الرجال المحاصرين، وفي لحظة سقطت الجياد في فخ الجرار وكسرت قوائمها. وهذا هو سبب العداوة بين الفريقين وقد بعث التساليون إلى أهالي فوكيس رسالة نصها«يا رجال فوكيس لا بد لكم الآن، من الاعتراف بخطئكم، وبأننا لسنا سواسية. ولقد كنا نعتبر، حين نجد من الملائم الانضمام إلى الإغريق، أشد أهمية منكم؛ ولنا اليوم حظوة عظيمة عند الفرس ما يكفي لكلمة منا طردكم من بلادكم، ولنجعل منكم أرقاء تباعون في سوق النخاسة. والآن إننا على استعداد، وأنتم في قبضتنا، لأن ننسى الماضي فنفتح صفحة جديدة؛ فحسبكم أن تدفعوا لنا خمسين تالنتاً ونضمن لكم إبعاد الخطر الذي يتهدد بلادكم».

وجدير بالتنويه هنا أن الفوكيين كانوا وحدهم دون أهل تلك المنطقة من بلاد الإغريق الذين لم ينضموا إلى الفرس؛ وعندي أن السبب في اتخاذهم هذا

الموقف كراهيتهم للتساليين وحسب. فلو أن تساليه ظلت على ولائها للإغريق لانتقل الفوكيون إلى صف الفرس. وعندما سمعوا رسالة التساليين أعلنوا رفضهم دفع أي مبلغ، وردوا بأن الباب مفتوح أمامهم للانضمام إلى الفرس لو شاؤوا، مثل التساليين سواء بسواء؛ ومع ذلك فإنهم ما كانوا ليقبلوا بالانجرار إلى خيانة الإغريق. فثار التساليون لهذا الرد أشد ما تكون عليه الثورة، ومضوا إلى الفرس ليكونوا مرشدين لجيشهم.

ومن تراخيس دخل الجيش الممر الضيق في منطقة دوريس، وهو طريق يكاد لايزيد عرضه عن ثلاثين فرلنج، ويقع بين ماليس وفوكيس.وكانت هذه المنطقة في قديم الزمان تعرف بدرايوبيس، وهي أم مدن الدوريين في البيلوبونيز. ولقد مر بها الفرس دون أن يلحقوا بها أي أذى، وكان سكانها، على كل حال، يبدون الود للداخلين، وقد سعى التساليون لدى الفرس ليحرصوا على سلامتهم ولا يتعرضوا لهم بأذى. ولما غادر الفرس تلك البلاد إلى فوكيس فاتهم أن يدركوهم، إذ استبقوا مقدمهم بهجر أرضهم، فمنهم من لجأ إلى الجبال ـ وكانت قمة جبل برناسوس المعروفة باسم تيثورا، لا تبعد كثيراً عن مدينة نيون، منطقة رحبة، فصعد إليها عدد كبير منهم حاملين معهم كل ما يمكن حمله أو نقله ـ بيما لجأ أغلبهم إلى لوكريوا أوزوليان ونقلوا متاعهم إلى أمفيسا التي تطل على سهل كريسا. و اجتاح الفرس بلاد الفوكيين، وحرص التساليون يومذاك على أن يرشدوهم إلى كل بقعة في تلك الأرض، ولم يقصر جيش فارس في هذا كله أن يشعل النار حيثما مر ويعمل السيف في رقاب كل من صادف في طريقه، وأتى على كل المدن والمعابد حرقاً. ولم يسلم يومذاك شيء وقع عليه في وادي الكيفيسوس، فكان مآل تيثرونيوم وأمفكايا ونيون وبيدياس وترايتس وإلتايا وهياموليس وبارابوتامي وآباي الحرق فانهارت ومعها معبد أبوللوفي آباي الغني بالتحف والزينة والنذور. و كان هناك مزار، مازال قائماً إلى اليوم، وقد نهب الصرح الملحق به وأحرق. وأسر الفرس عدداً من أهالي فوكيس إذ أدركوهم

بالقرب من الجبال، واغتصبوا بعض نسائهم اللواتي تعاقب الجنود عليهن، فمتن في النهاية.

وبعد عبور الجيش منطقة بارابوتاي ،وصل إلى بانوبيس حيث انقسم إلى قسمين ،فرقة منه، وهي الأقوى والأكثر عدداً، بقيادة أحشويرش،اتجهت نحو أثينا، ودخلت بويوتيا عبر أوخومينوس. وانتقل كل أهلها إلى صف العدو، ودخلت مدنهم في حماية المقدونيين الذين أرسلهم الإسكندر ليكون واضحاً لأحشويرش ولاء القوم له. أما الفرقة الأخرى فاتجهت ومعها المرشدون صوب معبد دلفي، وجبل برناسوس على يمينها. وقد عملت هذه الفرقة أيضاً خراباً ودماراً في كل معمورة من أرض الفوكيين، وأحرق رجالها مدن بانوبيس وداوليس وأيوليداي. وكانت هذه الفرقة قد انفصلت عن الجسم الأساسي للجيش، وكلفت بنهب معبد دلفي وحمل ما يحتويه من الكنوز إلى أحشويرش؛ وكما أُخبرت أن أحشويرش كان أدرى بما في هذا المعبد مما يرد إليه باستمرار من تقارير عن محتوياته، وخاصة القيِّم والثمين منها، كالنذور التي قدمها قارون بن ألياتيس.

أثار اقتراب الفرس ضيقاً وغماً بين الناس في دلفي؛ واستبد بهم الفزع مما هو قادم فلجؤوا إلى الإله يسألونه إن كان عليهم إخفاء كنوز النذور المقدمة للآلهة أم الأجدر تهريبها إلى الخارج لئلا تقع في يد الأعداء؛ فأجابهم بطمأنتهم، لأنه قادر على حماية ملكه. وإذ وردت النبوءة على هذا النحو واطمأنت النفوس، التفت أهل دلفي للعمل على إنقاذ أنفسهم من الهلاك المنتظر، فأرسلوا الأطفال والنساء إلى آخيا، ثم التجأ معظم الرجال إلى القمم العالية في برناسوس، وخبؤوا ممتلكاتهم الثقيلة في كهف الكوريكيان، بينما هربت قلة منهم إلى أمفيسا، من نواحي لوكريس. وباتت المدينة يومئذ مهجورة إلا من ستين رجلاً وكاهن المزار.

كان الفرس قد اقتربوا في تلك اللحظات من دلفي وغدا المعبد أمامهم، حين رأى الكاهن، واسمه اكيراتوس، أسلحة ملقاة على الأرض أمام المزار - وهي

أسلحة إلهية لا تمسها يد إنسان، ومع ذلك فقد نقلت من داخل المعبد إلى حيث وجدها. فهرع حاملاً الخبر إلى من بقي في البلد من أهلها. وكان العدو قد اقترب من الموقع في ذلك الحين، ولما بلغ الجند معبد أثينا برونايا صادفتهم أحوال أشد غرابة مما سبق ذكره. وإنها لأعجوبة، على كل حال، أن تتحرك أسلحة الحرب بقدرتها الخاصة وتظهر على الأرض خارج المزار؛ غير أن ما حدث لاحقاً أمر يفوق كل الأعاجيب التي عرفها البشر؛ وآية ذلك أنه بينما كان الفرس يدخلون معبد أثينا برونايا إذ بصاعقة تنزل من السماء فتصيب صخرة من جبل برناسوس وتشطرها إلى شطرين فتتدحرجان وتصيبانهم، فتقتل عدداً كبيراً منهم، ثم سمع الجمع صيحة الحرب تصدر من داخل النصب. ولقد تضافر هذان الأمران ليثيرا الفزع بين جند الفرس، فأسرع هؤلاء بالهرب، ولما وجدهم أهل دلفي يهربون لحقوا بهم وأدركوهم وأنزلوا بهم مذبحة عظيمة، فقتل منهم الكثير، أما من نجا فهرب بجلده إلى بويوتيا. وهناك رواية رواها الناجون من تلك المذبحة، وقد بلغتني، عن معجزة خارقة أخرى وقعت في تلك الأثناء، فقد رأى هؤلاء وهم يهربون عملاقين مدججين بالسلاح، لم تقع لهم عين على كائن بمثل ضخامتهما، فيلاحقانهم وينزلان بهم ضرباً بسيفيهما. ويروي أهل دلفي أن هذين اثنان من أبطال دلفي، أحدهما يدعى فيلاكوس والثاني أوتونوس، وقد احتفرا حفرتين بالقرب من المعبد، وكانا يضطجعان فيهما، فكانت حفرة فيلاكوس على طرف الطريق أعلى معبد برونايا، والأخرى خاصة أوتونوس وتقع بالقرب من كاستاليا، دون قمة الجبل المعروفة باسم هيامبيا. وعهدي بالحجارة التي تساقطت من برناسوس ما تزال في مكانها حول مزار برونايا، حيث حلت بعد اصطدامها بجند الفرس. تلكم هي قصة هرب هؤلاء من الأرض المقدسة في دلفي.

أبحر أسطول الإغريق من مرساه في أرتيميسيوم بناء على طلب الأثينيين وألقى مراسيه في سلاميس. وقد قصد الأثينيون من ذلك إتاحة الفرصة لنقل

نسائهم وأطفالهم من أتيكا، ومناقشة ما ينبغي عليهم عمله تالياً - كما تفرض أحوالهم وانهيار آمالهم. فقد توقعوا من جيش البيلوبونيز أن يتجمع بكل طاقته في بويوتيا لوقف زحف الفرس، ولكن شيئاً من هذه التوقعات لم يتحقق الآن؛ وتبين لهم أن البيلوبونيز لا يعنون بأمر سوى سلامتهم وحدهم وتدعيم منطقة ممر أشموس(ممركورنثه) لحماية أنفسهم، أما بقية الإغريق فقد كان لهم أن يجازفوا ويروا كيف تتطور الأحداث معهم. وكان هذا النبأ هو الذي أدى إلى طلب رسو الأسطول في سلاميس.

ولذلك وجدنا الأثينيون يعودون إلى مرافئهم، بينما ألقى بقية الأسطول مراسيه في سلاميس، ثم إذا بهم يوجهون الدعوة لكل من في المدينة والريف بنقل الأطفال وأفراد أسرهم كافة إلى أماكن أمينة، وقد نقل معظم هؤلاء السكان إلى ترويزن وبعضهم إلى إيجينا وبعض آخر إلى سلاميس، وكان ذلك بأقصى السرعة الممكنة، ومرد ذلك في بعضه إلى انصياعهم لنبوءة العرافة، إلا أن سبباً أقوى حملهم على الإسراع بترحيل الأسر. وتفصيل ذلك أن الأثينيين يعتقدون أن ثمة أفعى عظيمة في المعبد تحمي الأكروبول، وقد حملهم إيمانهم بوجود هذه الأفعى على تقديم النذور لها كل شهر بشكل قالب ضخم من العسل، وألف القوم هناك على أن يلتهم هذا القالب بعد حين، ثم إذا به الآن سليم لم يمس. فأخبرتهم الكاهنة بالواقعة فخلصوا إلى أن الآلهة قد هجرت الأكروبول، فغدوا أشد تلهفاً لإخلاء المدينة. ولما تم للقوم نقل المتاع والحاجيات انضموا إلى الأسطول في مرساه.

وكانت هناك بعد سفن إغريقية أخرى، طلب إليها التجمع في بوجون، وهو مرفأ ترويزن، وانضمت إلى الأسطول حين وردت الأنباء بمغادرة قطعه أرتيميسيوم ورسوها في سلاميس. وأصبح الأسطول بانضمام السفن من المدن الأخرى، أضخم مما كان عليه في معركة أرتيميسيوم، وهو ما زال بإمرة إيوربيادس بن إيوركليدس الإسبارطي، لكنه من غير البيت المالك، وكانت أثينا

هي التي تبرعت بأكبر عدد من السفن وأسرعها وتألف الأسطول من ١٦ سفينة من اللاكيديمونيين من الكورنثيين، ونفس العدد الذي كانوا قد أسهموا به يوم أرتيميسيوم، و١٥ من ترويزن، و٣ من هيرميونه. وجميع سكان هذه المدن من الدوريين والمقدونيين، عدا أهل هيرميونه، وكانوا قد هاجروا إلى موطنهم الجديد من أيرينيوس وبندوس ودرايوبيس. أما أهل هيرميونه فهم من الأصل الدرايوبيس وطردهم هرقل والماليان من البلد المعروف الآن باسم دوريس.

إن هذه القطع جميعها وردت من البيلوبونيز؛ أما تلك التي وردت من غير تلك البلدان فهي، أولاً، ١٨٠ سفينة من أثينا، وتشكل نصف الأسطول، وكان الأثينيون يتولون الأعمال عليها، إذ لم يشاركهم فيها أهل بلاتيا يوم سلاميس، لأنهم نزلوا في بويوتيا في أثناء الانسحاب من أرتيميسيوم، حين كان الأسطول راسياً عند خالكيس، وانشغلوا يومئذ بنقل الحاجيات والمتاع والأسر إلى المناطق الآمنة، فبقوا في تلك المنطقة بعد ما غادرهم الأسطول. وكان الأثينيون يدعون في قديم الزمان بالكرناي، يوم كان ما يعرف اليوم ببلاد الإغريق مأهولاً بالبلاسجة، والأثينيون الكرناي منهم، وعرفوا في عهد كيكروبس بعدئذ بالكيكروبيداي. ثم استبدلوا اسمهم، في عهد إريخثيوث، واصبحوا يعرفون بالأثينيين، فلما تولى أيون بن أكسيثوس قيادة جيوشهم أصبحوا يعرفون به، ويشيرون إلى أنفسهم بالأيونيين.

وكان للميجاريين مثل عدد السفن التي كانت لهم يوم أرتيميسيوم؛ و ٧ أخرى من الأمبراكيين، و ٣ لليوكاديين وهم أصلاً دوريون من كورنثه.أما بالنسبة إلى سكان الجزر فقد قدم الإيجنتيون ٣٠ سفينة. وكان لديهم سفن عاملة أخرى، إلاأنها كانت مخصصة لحراسة جزيرتهم، أما السفن الممتازة وتعدادها ثلاثون فهي التي خاضت المعارك في سلاميس. والأيجيان دوريون من إبيداوروس، وكانت جزيرتهم تعرف باسم أويئونة. وقدم الخاليكيدونيون ٢٠سفينة، وكان هناك مثل عددها في أرتيميسيوم، وسبع سفن للأيرتريين، وهذا العدد ثابت دون زيادة

أو نقصان منذ أن كانت إسهاماتهم في البداية. وهذان الشعبان من الإيونيين. وقد قدم الكيوسيون (وهم من أيوني أثينا) من السفن مثل ما قدموا في بدايتهم، وبعثت ناكسوس بأربع سفن. وكانت مجموعة ناكسوس قد أرسلت، شأن السفن التي قدمتها الجزر الأخرى، لتنضم إلى الفرس، لكن بحارتها خالفوا الأوامر وانضموا إلى الاغريق بتحريض من ديموكريتوس، وكان رجلاً ذا مكانة مرموقة، وقد تولى قيادة سفينة ثلاثية المجاديف.

والناكسوسيون أيونيون يتصلون بالأثينيين بالدم وقدَّم الستيريون عدداً من السفن يماثل ما كان لهم في أرتيميسيوم، وقدمت كينثوس سفينة واحدة وسفينة خمسينية. والستيريان والكينثيان من الدريوبس. كذلك شارك السيريفوسيون والسينيفوسيون والميلوسيون في هذا المجهود،وسكان هذه الجزر وحدهم لم يخضعوا لفارس. وكل هؤلاء الشعوب يقطنون في هذا الجانب من نهر أخيرون وبلاد الثيسبروت،المجاورة للأمبراكيين والليوكاديين؛ وهذه أبعد البلاد فلم تشارك في الأسطول. وليس هناك بعد هذه البلاد إلا طائفة واحدة هي الكروتون، ومدت يد العون للإغريق في ساعة الخطر، بالرغم من بعد موقعها، فأرسل هؤلاء القوم سفينة واحدة، وقائدها فايلوس وهو حائز على ثلاث بطولات في الألعاب البيثانية. والكروتونيون ينتسبون إلى الأخيين. وجميع هذه القطع ذات مجاذيف ثلاثة، عدا سفن الميليانيين والسفينيانيين والسيريفيانيين فكانت خمسينية. وقد أسهم الميليانيون ونسبهم إلى اللاكيديمونيين بسفينتين وأرسل كل من السفينيانيين والسيريفيانيين، وهم أيونيون من أثينا، سفينتين. وقد بلغ عدد السفن الحربية، عدا الخمسينية، ٣٧٨ سفينة.

ولما التقى قادة القطع التي ذكرتها في سلاميس عقدوا مجلس حرب للتداول في الوضع، وطلب فيه إيوربيادس إلى كل من يريد الحديث لعرض المقترحات لاختيار أفضل موقع في دائرة تواجدهم للاشتباك وأسطول العدو - وقد استبعدت أتيكا من الخيارات، لخروجها من الحسبان. وجنح المؤتمرون في هذا

المجلس إلى الإبحار إلى منطقة ممر أشموس (ممركورنثه) والقتال هناك دون المنطقة البيلوبونيزية، آخذين في اعتبارهم أنهم سيجدون أنفسهم محاصرين في جزيرة، إذا تغلب الفرس عليهم في سلاميس، ولن يكون لهم أن يتوقعوا أن تصلهم نجدة، بينما يمكنهم اللجوء إلى قومهم، حين تنزل بهم الهزيمة. وكان هذا رأي القادة البيلوبونيز. وفيما كان الجدل دائراً على هذا النحو، وصل رجل من أثينا حاملاً خبر دخول الفرس أتيكا وإحراقهم البلاد كلها. وكان هذا من عمل الفرقة التي تأتمر بإمرة أحشويرش واستولت على الدرب في بويوتيا؛ كذلك قام الجند بإشعال الحرائق في ثيسبياي بعد هرب سكانها إلى البيلوبونيز، وفعلوا مثل ذلك ببلاتيا، ثم دخلوا أتيكا، وأنزلوا بها خراباً عظيماً. وكان أهل طيبة أخبروهم بأن ثيسبياي وبلاتيا رفضتا الخضوع لهيمنة فارس؛ فنزل هذا الخراب والدمار انتقاماً منهما. ولقد استغرق زحف جيش فارس من هليسبونت إلى أتيكا ثلاثة شهور، واستغرقوا في عبور المضيق شهراً، حتى وصلوا أتيكا، وبانكاليايديس يترأس مجلس التسعة.

ولقد وجد الفرس أثينا مدينة مهجورة، إلا من بعض المقيمين في معبد أثينا بولياس ـ وكانوا قوماً من الفقراء أقاموا معسكرهم على الأكروبول ليواجهوا الغزاة بالعصي وألواح الخشب. وما حال دونهم واللجوء إلى سلاميس إلا فقرهم واعتقادهم بأنهم اكتشفوا المعنى الحقيقي لنبوءة العرافة التي تقول إن الغزاة «لن يتمكنوا من اختراق سور الخشب». وما كان السور الخشب ليعني عندهم السفن، وإنما المعسكر، وهو المنقذ.

واحتل الفرس في زحفهم التل المسمى عند الإغريق بالآريوباجوس، وهو مقابل الأكروبول، وبذلك بدأ الحصار. وكان نهجهم في هذا إطلاق السهام التي تحمل خرقاً ملتهبة على المعسكر. ولقد خذل الأثينيين سورهم الخشبي وما أنجاهم، ومع ذلك فقد ظلوا يعاندون وسط خطر الموت المحقق ولم يقبلوا حتى بالإصغاء لعروض الهدنة التي قدمها لهم البسيستراد. بل ولقد توسلوا بكل

ملكات العقل للدفاع عن أنفسهم في هذا الصراع؛ وكان من بين وسائلهم دحرجة الصخور على العدو وهو يقترب من أبواب حصنهم مما أعجز أحشويرش وهو لا يملك معهم حيلة. غير أن الفرس استطاعوا في النهاية الوصول إلى حل لهذه المشكلة، إذ اكتشفوا طريقاً للوصول إلى الأكروبول، كما ذهبت النبوءة، حين قالت العرافة إن المنطقة الأثينية كلها من بلاد الإغريق لا بد ساقطة في قبضة الفرس. فقد كان ثمة موقع أمام الأكروبول، وخلف الطريق المؤدي إلى الأبواب، حيث لا يمكن لإنسان تسلقه لشدة انحداره، فلم يكن هناك ما يدعو إلى حراسته وهنا بالقرب من مقام أجلاوروس بنة كيركروبس استطاعت مجموعة من الجند النفاذ إلى الموقع بتسلق المنحدر. فلما رآهم الأثينيون ذهلوا للمفاجأة، فقفز بعضهم من أعلى السور ولقوا حتفهم، ولجأ الآخرون إلى حرم المعبد واعتصموا داخله؛ ولكن طلائع الفرس لم تأبه بهم فمضى الجنود مباشرة لاقتحام أبوابه، ثم أخذوا يعملون في أولئك اللاجئين قتلاً ولم يبقوا على أحد، فلما تم لهم ذلك قاموا بتجريد المعبد مما فيه من كنوز وأحرقوا كل ما على الأكروبول.

وبات أحشويرش يومئذ السيد المطلق في أثينا، وإذا كان ذلك وجه عاملاً إلى سوسة ليحمل إلى أرطبانوس أنباء انتصاره. وفي اليوم التالي استدعى المنفيين الأثينيين ليمثلوا في حضرته، وكان هؤلاء يخدمون في صفوف جيش فارس، فأمرهم بالصعود إلى الأكروبول وتقديم القرابين على مألوف الناس في أثينا؛ ولعل ما حدا به إلى ذلك حلم رآه أو خاطر عرض له، أو لعله تأنيب الضمير لإحراقه المعبد. ولقد صدع المنفيون الأثينيون بالأمر وقاموا بما وجههم إليه.

وإني إذ أذكر هذه التفاصيل فلسبب هو: أن هناك في بقعة معينة مقدسة تتصل بإرخثيوس المعروف بـ «ابن الأرض»، شجرة زيتون ونبع ماء مالحة، ويقول الأثينيون إن (إله البحر) بوسيدون وأثينا وضعاهما حيث هما، علامتين على امتلاكهما الأرض. وقد أتت النار على شجرة الزيتون وحرم المعبد في تلك

الواقعة؛ ولكن لما خرج الأثينيون الذين أمرهم الملك بتقديم الأضاحي إلى تلك البقعة المقدسة رأوا سلخة جديدة بطول أربعين سنتمتراً قد نبتت من جذع الشجرة الميتة. فأخبروا الملك بما شاهدوا.

وكانت أنباء موقعة أكروبول أثينا قد سرت في غضون ذلك إلى سلاميس، وكان لها الوقع العظيم عند القوم هناك، فاندفع بعض قادة وحدات الأسطول إلى سفنهم وبدأوا برفع الأشرعة، دون انتظار لمناقشة الوضع، واستعدوا للهرب. ولكن بعضهم آثر البقاء في الموقع، وكان قرارهم الصمود والدفاع عن ممر أشموس (ممركورنثه). وفي الليل، وبعد عودة القادة إلى سفنهم إثر انتهاء المؤتمر، سعى رجل من أثينا يدعى منيسيفيلوس إلى ثيميستوكليس على ظهر سفينته وسأله عن الخطة التي اعتمدها أولئك القادة. فلما علم أنهم عزموا على الرحيل إلى ممر أشموس (ممركورنثه) والقتال هناك دفاعاً عن البيلوبونيز، صاح الرجل: «حذار! حذار». فمتى غادر الأسطول سلاميس لن يبقى هناك بلد واحد تدافعون عنه، وإنما ستجدون كلاً يمضي إلى بلده؛ ولن يكون بمقدور إيوريبياديس ولا سواه أن يمنع تفكك قواتنا. إن هذه الخطة لخرقاء، ولسوف تؤدي إلى خراب بلاد الإغريق. فاصغ لما أقول: اجهد في إبطال القرار الذي خرج به المؤتمر ـ ولعلك تفلح فتحمل إيوريبياديس على غير هذا الرأي والبقاء في سلاميس».

ولقد كان لهذا الاقتراح أعظم التأثير على ثيميستوكليس فأخذ به، ومن ثم مضى دون أن يتفوه بكلمة واحدة إلى سفينة القائد العام وقال له هناك إن لديه موضوعاً بالغ الأهمية يتصل بالإغريق ويريد أن يتداول وإياه فيه. فدعاه إيوربيادس للصعود إلى ظهر السفينة. وكرر ثيميستوكليس، على مسامعه الحجج التي ساقها منيسيفيلوس وكأنما هي من عنده، مضيفاً إليها حججاً عديدة أخرى من عنده؛ وما زال بصاحبه يبسط أمامه الرأي بعد الآخر والحجة تلو الحجة، بلهجة مفعمة بالحماس، حتى أقنعه بالرأي الذي جاء به؛ ولم يكن

هناك سوى النزول إلى الشاطئ ودعوة القادة الآخرين إلى مؤتمر للتداول في الأمر. ولقد التأم مجلس القادة، وعندئذ بادر ثيميستوكليس بالكلام، قبل أن ينطق إيوربيادس ويعرض سبب دعوته إلى هذا الاجتماع، يحمله على ذلك شدة الحماس. فقاطعه أديمانتوس بن أوكايتوس، قائد مجموعة سفن كورنثه، قائلاً: «إن من يبدأ في المباريات قبل الشارة، يا ثيميستوكليس، يجلد."فرد عليه: «حقاً! ولكن من يتأخر لا ينال جائزة». وكان في حديثه مع إيوربيادس قد نأى عن الخوض في الحجج القديمة عن خطر تفكك الوحدات بعد مغادرة سلاميس، إذ لم يكن مما يليق اتهام أحد من قادة أسطول التحالف في وجهه بالتسبب بالمكروه. فساق حديثه على نحو مختلف في هذه المناسبة، فخاطب المجتمعين بقوله. «إن إنقاذ بلاد الإغريق في أيديكم، إن أخذتم بنصيحتي وجابهتم أسطول العدو هنا في سلاميس، عوضاً عن الانسحاب إلى ممر أشموس(ممر كورثنه)، كما يقترح بعضهم الآخر. واسمحوا لي أن أعرض أمامكم الخطتين، ولكم من ثم أن تقارنوا بينهما، وتروا أيهما أجدى. خذوا ممر أشموس (ممر كورثنه) أولاً: إذا قاتلتم هناك، كان القتال في البحر الواسع، وهو أمر في غير صالحنا، آخذين بعين الاعتبار قلة عدد السفن لدينا وبطئها. وحتى لو جرت الأمور الأخرى على أحسن وجه لصالحنا، فسوف تخسرون سلاميس وميجارا وايجينا. وبعد، فإن أسطول العدو إن مضى جنوباً وجد جيش البر في أثره، وستقع عليكم اللائمة في اجتذابه إلى البيلوبونيز، وعليكم تقع جريرة تعريض بلاد الإغريق للخطر. والآن لنلتفت إلى خطتي: ولسوف تأتي هذه الخطة، إن أخذتم بها، بالفوائد التالية: أولاً إننا سوف نقاتل في مساحة ضيقة، وهناك سيكون لنا الفوز بسبب قلة سفننا، إذا سارت الأمور على نحو ما نتوقع، ولم نسرف في التوقعات. فالقتال في منطقة محدودة أمر يلائمنا، والقتال في البحر الفسيح أفضل للعدو.

ثانياً: نأمن سلامة سلاميس، حيث آوينا نساءنا وأطفالنا؛ وثالثاً ـ وهي أهم

نقطة في اعتباركم - إنكم إذ تظلون في مواقعكم، هنا، ستقاتلون دفاعاً عن البيلوبونيز كما بانسحابكم إلى ممر أشموس(ممر كورنثه) - كما أنكم لن تجازفوا، إذا كانت لديكم الحصافة وأخذتم بنصيحتي، باجتذاب جيش الفرس إلى البيلوبونيز. فإذا كسرناهم في البحر، وهذا ما أتوقع، فلن يتمكنوا من التقدم لمهاجمتكم في أشموس(ممر كورنثه) ، بل ولن يكون لهم أن يتقدموا إلى أبعد من أتيكا؛ وإنما سيكون من شأنهم الانسحاب عشوائياً، ونحفظ نحن ميجارا وايجينا وسلاميس - حيث تنبأت عرافة من قبل بالنصر لنا. إن المرء إن أحسن التخطيط وراعى البداهة ينتهي أمره عادة بالنجاح، وإلا وجد الإله غير مبال بخطط البشر».

ولقد تعرض ثيميستوكليس للهجوم من أديمانتوس الكورنثي، قائلاً إن عليه أن يمسك لسانه لأنه رجل بلا بلد، وجهد ليحول دون إيوربيادس وطرح ما يعرضه رجل لا يزيد عن مجرد لاجئ للتصويت. فعلا صوته وهو يقول: ليتدبر ثيميستوكليس لنفسه وطناً قبل أن يتبرع بالنصائح. ومقصد القول من هذا أن أثينا سقطت بيد الفرس (وبات ثيميستوكليس بلا وطن). وجاء رده هذه المرة غير مترفق، فأخذ يقرع إديمانتوس والكورنث ثم أسرف في التقريع، قائلاً بجلاء إنه من بلد له مئتا سفينة تسهم في المجهود الحربي، وهي، مدينة وبلداً، تفوق بلدانهم جميعاً قوة واقتداراً - إذ لم يكن هناك دولة واحدة من دول الإغريق بقادرة على ردهم، إن شاؤوا مهاجمتها.

ولما انتهى من مقالته التفت إلى إيوربيادس وخاطبه بحماس أعظم: «أما أنت، فإذا بقيت هنا لتبرهن على رجولتك - فهذا شأنك ؛ فامض وسيكون خراب بلاد الإغريق على يديك. إن الأسطول هو الذي سيقرر مصير الحرب. ورجائي أن تأخذ بنصيحتي؛ وإذا أعرضت عنها فسوف نحمل أسرنا ونسلم الشراع إلى سيريس بإيطاليا - فهي لنا منذ عهد بعيد، ولطالما جاءت النبوءات تحض الأثينيين وتقول إن مآلهم إلى سكناها في يوم من الأيام. فأخبروني عن حالكم

بدون أسطول أثينا؟ ولسوف تذكرون كلماتي يوم تفتقدونه».

ولقد كانت تلك المقالة كافية لتحمل إيوربيادس على تغيير رأيه؛ وأحسب أن السبب الأساس في هذا التحول وخشيته من أن يخسر دعم الأثينيين إن انسحب من أشموس(ممر كورثنه)؛ فبدون السفن الأثينية لن تكون لديه القوة الكافية لخوض المعارك. وعلى هذا اتخذ القرار بالبقاء حيث هم وحسم المعركة في سلاميس.

بعد تلك المناوشات الكلامية، وعندما حزم إيوربيادس أمره، تهيأ الأسطول للقتال في ذلك الموقع. وفي الفجر، ومع مطلع الشمس وقعت هزة أرضية شعر بها كل من كان على اليابسة وفي عرض البحر على حد سواء، وعزمت أمة الإغريق ان ترفع ضراعتها إلى الآلهة والاستنجاد بأبناء إياكوس ليقاتلوا إلى جانبها؛ثم كان ما عزموا عليه فأخذوا يبتهلون إلى الآلهة ويضرعون إلى أجاكس(أجاز) وتيلامون في سلاميس، ثم وجهوا سفينة إلى إيجينا لإحضار إياكوس وبقية الإياكوسيين.

هناك حكاية أشاعها ديكايوس بن ثيوكيدس، وكان لاجئاً من أثينا، ونال مكانة عند الفرس، وتقول الرواية إنه فيما كان يتريض وديماراتوس اللاكيديموني في سهل ثريا، بعيد إخلاء أتيكا، وجند الفرس يروعون الأرياف وينشرون فيها الخراب والدمار، وإذ بغمامة غبار هائل كتلك التي قد يثيرها جيش عرمرم من ثلاثين ألفاً ، تعصف قادمة من اتجاه إليوسيس، فثار عجبهما لهذا المشهد، وتساءلا أي جيش هذا الذي أثار تلك الزوبعة، فسمعا عندئذ أنشودة «أياكخوس» التي تنشد في طقوس مدارس الأسرار الديونيسية. ولكن ديمارتوس، وكان يجهل الطقوس التي يأخذ بها أهل اليوسيس، أراد من صاحبه أن يدله على تلك الأصوات وأصحابها. فأجابه ديكايوس: «لا ريب يا مولاي أن كارثة ستنزل بجيش الملك. فاعلم أن أتيكا قد خلت من الناس، فقد غادرها كل أهلها، ولم يبق فيها رجل واحد، وإذن فهذا الصوت الذي سمعت لا

شك صوت رباني آت من اليوسيس لنجدة الأثينيين وأصدقائهم، فإذا نزل في البيلوبونيز كان ذلك نذيراً بكارثة ستنزل بالملك وجيشه، أما إذا تحرك نحو السفن في سلاميس فمعنى ذلك أن أحشويرش خاسر أسطوله.

ومن المألوف عند الأثينيين أن يقيموا احتفالاً كل عام إكراماً للأم (ديميتر) والعذراء (بريسفونه)، وفيه يتلقى الراغب، من أثينا وسواها، أسرار الديانة؛ والصوت الذي سمعت هو أنشودة «أياكخوس» التي تنشد دائماً في ذلك الاحتفال. قال ديماراتوس: «إياك أن تحدث في هذا أحداً. فلو بلغ حديثك أذني الملك لقطع رأسك، ولن يكون بوسعي أو أي كائن في العالم إنقاذك من بين يديه. فأمسك لسانك ـ وللآلهة أن تتدبر جيش الملك». وكانت عاصفة الغبار تتعالى في الجو، والحديث دائر بين الرجلين، ثم إذا بها تتجه نحو سلاميس حيث يرابط أسطول الإغريق. وأدرك الرجلان من هذا المشهد أن قوة أحشويرش في البحر مصيرها الدمار. تلكم هي رواية ديكايوس، وكان يسأل ديماراتوس وآخرين تأييدها.

وكان البحارة الفرس بعد ماشاهدوا الإسبارطين أمواتاً في ثيرموبلاي وعبروا المضيق من تراخيس إلى هيستيايا انتظروا ثلاثة أيام ثم أبحروا عبر مضيق الإريبوس، وبعد أيام ثلاثة أخرى وصلوا إلى فاليرون. وفي تقديري أن قوات الفرس كانت على حالها، في البر والبحر، حين دخلت أتيكا، كما كان حالها يوم سيبياس وثيرموبلاي، فأحسب تلك القوات كانت تعوض عن الخسائر التي تكبدتها في العاصفة، وثيرموبلاي وأرتيميسيوم، بما وصلها من التعزيزات لاحقاً.فقد انضم إليها جنود الماليانيون والدوريون واللوكريانيون والبوتويونيون بكامل العدة والعتاد، عدا الثيسبيانين والبلاتيانين، فضلاً عن الكاريتانيين والأندريانيين والتينيانيين والأقوام في الجزر كافة، إلا الخمسة التي ذكرتها آنفاً. فقد كانت الأقوام تنضم إلى أحشويرش كلما تقدم في بلاد الإغريق وتواكب مسيره. ولقد توغلت هذه القوات في البلاد إلى أن بلغت أتيكا، إلا

الباريانيون فإنهم تخلفوا عن المسير في كيثنوس ليتتبعوا مجريات الحرب.

وأما الأسطول فقد ألقى مراسيه، كما سبق القول، في فاليرون. وهنا نزل أحشويرش ليتحادث وكبار قادته ويستمع إلى آرائهم؛ فلما جلس استدعى إليه طغاة الدول وقادة الألوية، فجلس هؤلاء كل حسب مكانته كما حددها الملك ـ فكان ملك صيدا الأول في المجلس يليه ملك صور. فلما اكتمل العقد على هذا النحو والتراتب، وجه ماردونيوس ليسأل كّلاً منهم رأيه في خوض معركة في البحر، فمضى يعرض السؤال مبتدئاً بملك صيدا، ولقد جاءت الإجابات موحدة، مجمعة على منازلة أسطول الإغريق؛ إلا أرتيميسيا فانفردت بالرأي مخالفة الآخرين، فقالت له أن «اسمع يا ماردونيوس، وأخبر الملك بردي على السؤال ـ أنا من لم يفقني أحد شجاعة وإقداماً تشهد لي ساحات المعارك في يوبويه أقول له: يا مولاي إن لي من التاريخ ما يبيح لي أن أقدم النصح إليكم، وأشير إلى الطريق الواجب اتباعها، في رأيي، لتبلغوا ما تصبون إليه؛ امسكوا سفنكم ولا تقاتلوا في البحر، فالإغريق يتفوقون على رجالكم وأكثر منهم خبرة في هذا الميدان، كما يتفوق الرجال على النساء. وبعد مالذي يحملكم على المجازفة بعدما خبرتم الحرب في البحر؟ أفليست بقية بلاد الإغريق في قبضتكم الآن؟ إنكم لن تجدوا الآن من يقاومكم ـ ولقد نال من قاومكم جزاءه. ولسوف أخبركم كيف تجري الأمور من الآن فصاعداً مع العدو إذا أبقيتم الأسطول حيث هو، إلا أن تكونوا مستعجلين النزال في البحر ـ إنكم بالغون هدفكم، سواء بقيتم حيث أنتم أم تابعتم تقدمكم في البيلوبونيز؛ فلن يقوى الإغريق، في كلتا الحالتين، على الصمود طويلاً أمامكم؛ ولسوف تفرضون عليهم تفكيك قواتهم في القريب العاجل، ثم ستجدون معسكرهم ينهار وينفض الجمع عن حلفهم، فلقد بلغني أن الجزيرة حيث يتواجدون فرغت منها المؤن؛ ولا يحتمل أن تظل قوات البيلوبونيز على ثقتها بالنفس إن مضيتم بجيشكم إلى بلدانهم ـ وليس من المرجح، بعد، أن يتكلفوا القتال دفاعاً عن أثينا.

أما إذا اندفعتم للمنازلة في البحر فإني أجزع أن تنال هزيمة الأسطول من الجيش أيضاً. وإني لأتوسل برحابة صدركم، يا مولاي، لأعرض، بعد، نقطة أخرى جديرة بالاعتبار وهي أن الملوك الصالحين يقوم على خدمتهم عادة أعوان فاسدون، كما يقوم على خدمة الملوك الفاسدين أعوان أكفاء. إذن، أنتم أعظم ملوك الأرض قاطبة يتولاكم أعوان فاسدون، وما هؤلاء المصريون والقبارصة والقليقليون والبامفيليون، الذين يفترض بهم أن يكونوا حلفاء لكم، إلا قوم بلا فائدة!».

ولقد ضاق أصحاب أرتيميسيا بما سمعوا منها وجزعوا أن ينزل أحشويرش بها العقاب لمحاولتها ثنيه عن عزمه على خوض المعركة؛ أما أولئك الذين يضيقون بما لها من مكانة عنده إذ يحلها في منزلة عظيمة بين كبار أهل النفوذ في الجيش، فقد ابتهجوا إذ لاح الخراب الذي سينزل بها. غير أنه لما وردت الإجابات الأخرى ونقلت إلى الملك كان لإجابتها أحسن الوقع لديه؛ فلطالما كان يكن لها أعظم الإعجاب لما تتمتع به من خصال، إلا أنه ازداد الآن تقديراً (لبعد نظرها). ومع ذلك فإنه توجه إلى الأخذ برأي الأغلبية، ذلك أنه كان يعتقد أن رجاله إنما تقاعسوا عن القيام بواجبهم في المعارك عند يوبويه بسبب غيابه عن الساحة - بينما حرص الآن على أن يرتب لرصد القتال بنفسه.

كان الأمر الذي أصدره الملك الآن هو النزول إلى البحر، وتنفيذاً لأمره مضى الأسطول نحو سلاميس؛ وهناك أخذت السفن مواقعها المحددة دون إعاقة من اليونانيين. وكان النهار قد أفل والظلام أخذ يرخي سدوله، فلم يكن هناك من النور ما يسمح بالهجوم في ذلك الوقت، فأخذ قادة الأسطول يعدون العدة للمعركة في اليوم التالي.

وكان الإغريق يومئذ في توجس شديد، وخاصة أولئك الذين قدموا من البيلوبونيز؛ والسبب في ذلك أنهم كانوا يعتبرون القتال في سلاميس دفاعاً عن المنطقة الأثينية، وهم يعلمون علم اليقين أنه إن حاقت بهم الهزيمة وقعوا بلا ريب

في الحصار، بينما بلدهم بلا حول ولا قوة، وكان جيش فارس يتقدم زاحفاً في تلك الليلة نحو البيلوبونيز. ومع ذلك فإن الإغريق لم يدعوا وسيلة تفتق عنها العقل إلا ولجؤوا إليها للحيلولة دون اقتحام الفرس منطقة ممر أشموس(ممر كورثنه). فحين وردت الأنباء عن سحق قوة ليونيداس في ثيرموبلاي، قام الإغريق بتعبئة قوة من الإغريق كافة وسيروها على عجل إلى ممر أشموس(ممر كورثنه)؛ وهناك احتلت مواقعها بإمرة كليومبروتوس بن أناكساندرياس وشقيق ليونيداس. وكان أول ما قامت به هذه الوحدة تخريب طريق سكيرونيا وسده، ثم أخذت في تشييد سور في عرض ممر أشموس (ممر كورثنه)، وفق قرار المجلس. ولقد أنجز هذا العمل سريعاً بفضل ذلك الحشد الهائل من البشر والذي بلغ عدة آلاف انخرطوا فيه جميعاً، مستخدمين في بنائه الحجارة والقرميد والخشب وأكياس الرمل، وكان العمال في هذا المشروع يعملون بدأب ويصلون الليل بالنهار وهم قائمون على هذا المشروع. وكانت الأقوام التي شاركت فيه بكل طاقتها اللاكيديمونيون الإسبارطيون والأركاديون والإيليون والكورنثين والسيكيون والأبيداوريون والفلياسيون والطرويزيون والهيرميون،وكل هؤلاء قدموا مساعدتهم شاعرين بمدى الخطورة التي تتعرض لها بلاد اليونان؛ وأما سواهم من الجماعات البيلوبونيز فظلوا لاهين، وإن تكن الاحتفالات الأوليمبية والكارينية قد انتهت في ذلك الحين.

يقيم على أرض البيلوبونيز سبعة أقوام مختلفة الأصول، اثنان منهما، وهما الأركاديون والكا ينوريون، من أهل البلاد الأصليين، بينا، الآخيون، كانوا يقيمون بها على الدوام، ولكنهم من الأقوام المهاجرة، وانتقلوا إليها من موطنهم الأصلي، والأقوام الأربعة الأخرى وهم الدوريون والأيتوليون والدريوبيون والليمنيون، مهاجرون أيضاً. يتبع الدوريين عدد من المدن المشهورة وللأيتوليين مدينة واحدة هي إليس؛ أما الهيرميون والأسيون الذين يقيمون بالقرب من كارداميل في لاكونيا والليمنيون فتتبع لهم كل بلدات الباروريات.

يبدو أن الكاينوريين هم الأيونيون الوحيدون في هذه البقاع من أرض الإغريق، ومع مرور الزمن أصبحوا دوريين تحت حكومة آرجوس. وقد ظلت كل مدن هؤلاء الأقوام السبعة، عدا من ذكرت، على الحياد في الحرب، أو بصريح العبارة، كانت في واقع الحال، إلى صف الفرس.

تابع الإغريق المقيمون في ممرأشموس(ممر كورثنه)، مهمة تحصين منطقتهم، إذ كانوا على قناعة بأن حياتهم باتت الآن موضع الرهان، ودونما أمل بفوز يعتد به في البحر. وجاءت أنباء أعمالهم لتثير مع ذلك قلقاً في سلاميس، لأن النتيجة المستخلصة من تلك الأنباء أن الخطر لا يقتصر على الفرد وحده، وإنما يمتد ليشمل كل البيلوبونيز. فأخذ الناس يتهامسون في بداية الأمر منتقدين ما أقدم عليه إيوبيادس من حماقة هائلة، ثم غدا الهمس كلاماً واضحاً ينم عن الضيق الصريح، فدعا القوم إلى اجتماع جديد. وعاد المجتمعون إلى بعث الجدل القديم، فذهب فريق إلى القول بأنه من العقم القتال من أجل بلد سقط أصلاً في قبضة العدو، ودعوا إلى توجيه الأسطول إلى البحر والمجازفة بعمل ما دفاعاً عن البيلوبونيز، بينما ظل الأثنيون والإيجيون والميجاريون يدفعون بضرورة التشبث بموقعهم وخوض المعركة عند سلاميس.

ولما شعر ثيميستوكليس أن البيلوبونيزيين سيتغلبون عليه في كسب التأييد، انسل بهدوء خارجاً من الاجتماع، وأرسل رجلاً إلى أسطول الفرس، مزوداً بتعليمات عما ينبغي أن يقول حين يبلغ مقصده. وكان هذا الرجل، ويدعى سيكينوس، أحد الرقيق عند ثيميستوكليس، وقام بخدمة أولاده؛ وقد اعتقه يوم كان الثيسبيانيون يدعون الناس ليقيموا مواطنين عندهم، فأرسله إليهم، وغدا هناك رجلاً على قدر من الثراء. ولما بلغ سيكينوس هذا طرف الفرس سعى إلى قادتهم، وقال لهم إنه «موفد سراً من القائد الأثيني وهو يحمل أطيب المشاعر نحو ملككم ويتمنى النصر للفرس. وقد طلب إليَّ أن أخبركم بأن الإغريق في حال من الخوف ويعدُّون للتسرب والهرب. وحسبكم أن تحولوا دونهم والانزلاق

من قبضتكم وستجدون أمامكم في هذه اللحظة فرصة لتحقيق فوز باهر لا مثيل له. فالجمع هنا متناحرون كل يحمل خنجراً ويتحين الفرصة لضرب صاحبه - ولن تجدوا منهم مقاومة، بل سترون أنصاراً للفرس بينهم يقاتلون البقية».

قال سيكينوس مقاله وأسرع عائداً من حيث أتى. وصدق الفرس ما أبلغهم به الرجل، فمضوا وأنزلوا قوة كبيرة في جزيرة بسايتاليا الصغيرة، وتقع بين سلاميس والشاطئ، و زهاء منتصف الليل وجهوا جناحهم الأيمن في حركة التفاف تستهدف سلاميس، بينما كانت سفنهم قبالة سيوس وسينوسورا تتقدم وتسد القنال كله حتى مونيخيا. وكان هدف هذه التحركات - للمفارقة المضحكة المبكية - حصار الإغريق في سلاميس والثأر للخسائر التي تكبدها الفرس في أرتيميسيوم. فنزلت قواتهم في بسايتاليا. وكان السبب في نزولها فيها وقوعها في طريق المعركة المنتظرة، فتكون المحطة التي تحمل إليها الرجال والسفن المعطوبة، ويمكن أن تنقذ أو تدمر حسب الطرف الذي يبلغها، إن كان من الأصدقاء أم الأعداء. وقد جرت هذه التحركات في سرية مطلقة للحيلولة دون معرفة العدو بما كان يعد، واستغرقت الليل بطوله، فلم يتح للرجال فرصة للنوم.

إنني لا أملك الإنكار بأن في النبوءات صدقاً، ولست أود تكذيبها حين تبلغنا بعبارات واضحة جلية لا التباس فيها، مثل هذه النبوءة:

حين يصلون بسفنهم شاطئ أرتميس المقدسة ذات السيف
من كينسورا، قلوبهم تتفجر بأمل سقوط أثينا الجميلة
ينزل الحق كالرب فيقضي على السفه ولد التيه والغرور.
ويختلط البرونز القاسي بالبرونز الصلب، ويجعل (إله الحرب)
مارس البحر خضيباً أحمر، ويأتي زيوس
الشاهد على كل الوقائع بلاد الإغريق بالنصر يوم الحرية.

ذلك أنني حين أذكر نبوءة باكيس هذه وما تتمتع به من الوضوح لا أقوى على معارضة النبوءات ولا أقوى على قبول نقدها من الآخرين.

ولقد ظل القادة الإغريق في سلاميس على حالهم من الجدل والمناكفة فيما كانت الأمور تجري على نحو ما تقدم. فما كانوا يدرون أن سفن العدو قد اتخذت مواقعها وأصبحت تسد عليهم الآن منافذ الهرب من طرفي القناة، وهم يحسبون أنها ما تزال في مواقعها التي عرفوها في النهار. وفي تلك الأثناء والجدل دائر في ذروته وصل من إيجينا أريستيديس بن ليسيماخوس، وكان منفياً من أثينا، وكنت كلما ازددت معرفة بأخبار هذا الرجل أزداد إيماناً أيضاً بأنه أفضل وأعدل من أنجبتهم أثينا. ولما حل الرجل بسلاميس مضى إلى حيث كان مؤتمر القادة وأخذ ينادي من الخارج ثيميستوكليس، ولم يكن هذا من أصحابه، بل الحق أنه كان عدواً لدوداً له؛ ولكن أريستيديس، حين نظر إلى خطورة الوضع، تناسى هذه العداوة وما كان بينهما من مشاجرات وسعى للتفاهم معه، وكان مبعث قلقه اهتمام القادة البيلوبونيز بالانسحاب من ممر أشموس(ممركورنثه)؛ ولذلك فإنه بادر ثيميستوكليس، حين خرج إليه من بين المجتمعين، بالقول: «إننا اليوم غريمان أكثر مما كنا عليه في أي يوم مضى، فلنر أياً منا يبز الآخر في خدمة بلدنا. فلأقل لك أولاً آن للبيلوبونيز أن يتحدثوا عن الانسحاب من سلاميس ما شاء لهم الحديث، فلن يجديهم التطويل أو التقصير. فما أحدثك فيه أمر رأيته بأم عيني، والقول القاطع هو أن الجماعة لا يستطيعون الخروج من هنا، مهما تمنى الكورنثيون أو إيوربيادس الخروج، لأن أسطولنا أمسى مطوقاً الآن. وما عليك سوى أن تعود إليهم وتخبرهم بما رأيت» !

رد ثيميستوكليس بقوله: «نعم الخبر ونعم النصيحة. فما بلغني الآن هو أقصى ما كنت أتمنى - وها أنتذا تأتيني شاهداً على حقيقة الوضع. وأنا الذي حملت العدو على هذه الحركة؛ والسبب في ذلك أن قومنا لا يقبلون القتال هنا بطيب خاطر، فكان من الضرورة أن يحملوا عليه حملاً، شاؤوا أم أبوا. والأجدى الآن أن تدخل عليهم بالنبأ، فلو دخلت أنا لما صدقوني. فرجائي إليك أن تدخل

وتعلم الجماعة بحقيقة الأمر؛ فإن صدقوك فحسن، وإن كذبوك فلن يغير الأمر من حالهم شيئاً، لأن أسطولنا بات الآن مطوقاً. فإذا كنا، كما تقول مطوقين، فالهرب مستحيل علينا».

وهكذا دخل أريستيديس على القوم وعرض أمامهم ما شاهد بعينيه، فأخبرهم بأنه قدم من إيجينا وعانى الأمرين حتى تمكن من التسلل موارية والهرب من أسطول العدو الذي أحكم حصاره على القوة الإغريقية بكاملها. وأشار إليهم بالاستعداد فوراً، في ضوء هذه المعطيات، لصد الهجوم. ولما انتهى من مقالته غادر الاجتماع، فنشأ عندئذ جدل جديد بين المجتمعين، بسبب إعراض معظم القادة عن الأخذ بما قاله أريستيديس. ولكن فيما كان أولئك القادة على حالهم من الشك فرت من أسطول الفرس سفينة حربية تينيانية يقودها باناتيوس بن سيسومينيس فأخبرهم هذا بالحقيقة كاملة ولقد دُوِّن اسم التينيانيين بسبب هذه الخدمة على قاعدة المنصب الثلاثي القوائم عند دلفي بين الدول التي شاركت في دحر الغزاة. ومع انضمام هذه السفينة إلى الإغريق في سلاميس والسفينة الليمنية التي سبق أن انضمت إليهم في أرتيميسيوم، ارتفع عدد سفن الأسطول إلى ٣٨٠ سفينة. وكان عددها قبل ذلك دونه باثنتين.

أخذ الإغريق في النهاية، بعد ما أقنعتهم رواية التينيانيين، يعدون العدة لخوض المعركة. وفي الصباح جمع حشد المقاتلين ليلقي فيهم ثيميستوكليس أروع خطاب. وكان زبدة مقاله مقارنة بين الطبيعة البشرية في رفعتها وانحطاطها ومصائر الإنسان في عظمته وحقارته ودعوته المحاربين لاختيار الأفضل. ولما أنهى كلمته أمر الرجال بالصعود إلى السفن. فانصاعوا لأمره؛ وفيما كان المقاتلون يصعدون إلى مراكبهم إذ بالسفينة التي كلفت بجلب أبناء إياكوس تعود وتلتحق بالأسطول.

هنا كان الأسطول كله يشق عباب البحر، وما هي إلا لحظات حتى كان أسطول الفرس يطبق عليه. فأخذ الإغريق يحاولون تبين الطريق وشرعوا في

العودة من حيث أتوا، وكادوا في عجلتهم أن يصطدموا باليابسة؛ وإذا بأميناس الباليني، وكان يقود سفينة أثينية يمضي مباشرة إلى سفينة معادية ويصطدم بها. فلما شاهد الإغريق اصطدام السفينتين، أسرعت باقي سفن أسطولهم لنجدة أميناس، وبدأت معركة ضارية لم تسلم من المشاركة فيها سفينة. تلكم هي رواية أميناس عن مبدأ المعركة، أما الإيجيان فيزعمون أن أول سفينة دخلت المعركة كانت تلك التي حملت أولاد أياكوس من إيجينا. وهناك اعتقاد شائع أن شبح امرأة ظهرت للبحارة وصاحت بهم مستهزئة بأعلى صوت ليسمعه القاصي والداني: «يا أغرب الرجال، إلى أين الهرب؟»

ولقد وجدت مجموعة السفن الأثينية نفسها وجهاً لوجه أمام الفينيقيين، وكانوا يشكلون ميسرة الأسطول الفارسي، في أقصى الحد الغربي، عند إليوسيس؛ واللاكيديمونيين في مواجهة سفن الأيونيين المتوضعة عند بيرايوس، أو في أقصى الحد الشرقي. وكانت قلة من الإيونيين قد تذكروا نداء ثيميستوكليس وصمدوا في القتال، أما الغالبية فقد نسوا النداء، ولو شئت لذكرت القائمة الطويلة بأسماء القادة في أسطول العدو الذين تمكنوا من أسر السفن الإغريقية، ولكنني سأقتصر هنا على ذكر ثيوميستور بن أندروداماس وفيلاكوس بن هايستيايوس، وكلاهما من ساموس؛ وما يجعلني أقتصر على ذكر هذين هو أن ثيوميستور نال من الفرس حكم ساموس مكافأة على خدماته لهم، وغدا فيلاكوس من المستفيدين من الملك ونال لذلك ضيعة واسعة. ويسمى المستفيد من عطايا الملك بالفارسية «أورسانجا».

ولقد صادف هذين القائدين، كما سلف القول، بعض النجاح؛ إلا أن الجزء الأعظم من الأسطول الفارسي مني بخسائر فادحة في هذه المعركة، وغنم الأثينيون والإيجيون العديد من سفنه. وكان ذلك أمراً محتماً بسبب تماسك أسطول الإغريق وقتاله في وحدة متراصة بينما كان الفرس قد تفكك أسطولهم وفقد وحدته وخطة العمل. ومع ذلك فقد قاتلوا قتالاً مشهوداً في ذلك اليوم،

وبأفضل مما كان عليه بلاؤهم في يوبويه، وبذل كل فرد أقصى جهده في القتال خوفاً من أحشويرش، وهو يحسب أن عين الملك ترصده.

ولست أستطيع أن أروي الدور التي اضطلعت به كتائب الإغريق أو الأقوام الأجنبية الأخرى في أسطول الفرس بالتفصيل الدقيق؛ ولكن لا بد من التنويه بما أتت به أرتيميسيا في المعركة، وزاد من مكانتها عند أحشويرش. فبعدما فقد الأسطول الفارسي كل تماسكه وشاعت فيه الفوضى، وجدت أرتيميسيا سفينة خمسينية أثينية تطاردها، وقد استحال عليها الإفلات منها لقربها من سفن معادية وأخرى صديقة أمامها. وتفتق ذهنها، وهي في هذا الوضع الحرج، عن خطة أفادت منها فائدة عظيمة: وتفصيل ذلك أنها اندفعت بسفينتها بأقصى سرعتها إلى الأمام، والسفينة الأثينية في أعقابها، واصطدمت بسفينة صديقة، وعلى ظهرها ملك كالينيدا داماسيتيموس، ولست أملك القول إن كانت قد تعمدت الاصطدام بهذه السفينة بسبب شجار كان لها وهذا الرجل أثناء تواجد الأسطول في الهليسبونت، أم أن الأمر كان مصادفة، حين وجدت هذه السفينة تعترضها؛ ولكن ما حدث، في مطلق الأحوال، هو أنها صدمت السفينة وأغرقتها، وكان من حسن حظها أنها جنت من تلك الواقعة فائدتين؛ ذلك أن قبطان السفينة الأثينية اعتقد، حين وجدها تصدم سفينة معادية، أنها إغريقية أو هاربة تحارب في صف الإغريق؛ وكان أن تخلى عن مطاردتها والتفت إلى غير تلك الجهة ليحارب في موقع آخر. فكانت هذه مصادفة الحظ التي أتاحت لها فرصة النجاة؛ أما الفائدة الأخرى التي تحققت بفضل هذه الصدفة أن هذه العملية عينها التي أودت بحياة الملك رفعت من مكانتها لدى أحشويرش أيضاً. فتذهب الرواية إلى أن أحشويرش كان يراقب المعركة فشاهد الواقعة فقال أحد المرافقين: «أترون، يا مولاي، كيف تقاتل أرتيميسيا؟ لقد أغرقت لتوها سفينة معادية». فسأل أحشويرش حاشيته إن كانت تلك أرتيميسيا فعلاً. فأكدوا له ذلك جازمين لمعرفتهم بشارتها، وقدروا، طبعاً، أن السفينة التي أغرقتها من سفن

العدو. وكانت تلك مصادفة موفقة من كل ناحية - وليس أقل ما فيها أنه لم ينج أحد من بحارة السفينة الكاليندية ليشير إليها بالاتهام. وكان تعليق أحشويرش على ما بلغه من نبأ أرتيميسيا:« قد أصبح رجالي نساء، ونسائي غدون رجالاً».

وكان من بين من سقط في هذا الصراع أريابيجبنيس بن داريوس وأخو أحشويرش، وجمع من مشاهير رجال فارس وميديا والأقوام المتحالفة معها. ولقد تكبد الإغريق عدداً من الضحايا، إلا أنهم لم يكونوا كثرة، لأن أغلبهم يحسنون السباحة، فكان أولئك الذين تصاب سفنهم وهم سالمون يسبحون قاصدين سلاميس. أما من كان يصاب من صف الأعداء ولا يعرف العوم، وهم الغالبية، فكان مصيرهم الغرق. على أن أعظم الخراب إنما نزل حين دارت السفن وهي تقاتل على أعقابها لتنسحب من الاشتباك، ذلك أن السفن الخلفية جهدت لتسترعي انتباه الملك إلى شجاعة رجالها بالسعي إلى المقدمة فإذا بها تتصادم وتلك المنسحبة. وفي غمرة الفوضى التي عمت جاء بعض الفينيقين ممن فقدوا سفنهم إلى أحشويرش محاولين تبرير خسارتهم بخيانة الأيونيين. ولكن ما حدث هو أن الموت كان من نصيبهم هم بدلاً من الأيونيين، جزاء سوء تصرفهم. ذلك أنهم بينما كانوا يبسطون قضيتهم أمام الملك وإذ بسفينة من سفن ساموتراقية تصطدم بأخرى أثينية، فإذا بسفينة إيجينية تطبق على الساموتراقية وتغرقها، ويادر بحارة هذه السفينة برمي بحارة الأولى بالرماح، ويجلونهم عن ظهر السفينة، فتسقط في أيدي المهاجمين. وقد أنقذت هذه البطولة الأيونيين من غضب الملك؛ إذ التفت أحشويرش إلى الفينيقيين، وقد رأى سفينة أيونية تبلي هذا البلاء الحسن في المعركة، وهو أبداً مستعد ليصب جام غضبه على كل من يبدر منه خطأ، ويأمر بقطع رؤوسهم، عقاباً لهم على رمي من يفوقون في ساحات القتال بالجبن.

وظل أحشويرش يتابع سير المعركة من موقعه عند قاعدة جبل أيجاليوس على الطرف الآخر من الخليج، مقابل سلاميس، وكان كلما رأى أحد قادته يقاتل

بشجاعة وعلو همة سأل عن اسمه وأمر الكتاب لديه بتسجيله واسم والده وبلده. وكان لأريارمنيس الفارسي، وهو صديق للأيونيين وحضر المعركة، نصيب في عقاب الفينيقيين.

وقامت المجموعة الإيجينية، حين بدأت مطاردة الفرس، وهم يحاولون العودة إلى فاليروم، بعمل جليل، وكانت هذه المجموعة تكمن لتطبق عليهم في المضائق. وتفصيل ذلك أن الفوضى كانت تعم صفوف الفرس بما لا رجاء له، وفي إثرها سفن الإغريق تتعقبها، وكان الأثينيون يتصيدون كل سفينة تبدي مقاومة أوأي سفينة تفلت من بين أيديهم ،فإن الإيجيبين يعترضونها ويهاجمونها. وصادف أن اقترب ثيميستوكليس أثناء مطاردته إحدى السفن المعادية من سفينة بقيادة بوليكريتوس بن كريوس الإيجيني. وكان بوليكريتوس قد اصطدم لتوه بسفينة صيداوية، وهي ذات السفينة التي استولت عليها سفينة الخفر الإيجينية مقابل سيكاثوس، وكان على ظهرها، كما سلف القول بايثياس الذي حرص الصيداويون على بقائه معهم إعجاباً بشجاعته التي أبداها حين رفض الاستسلام بالرغم من أنه كان مثخناً بالجراح. فلما تم الاستيلاء على السفينة وهو على ظهرها ومعه طاقم من الفرس، عاد سليماً إلى إيجينا. وتفصيل ذلك أن بوليكريتوس حين رأى السفينة الأثينية، ولاحظ علم القيادة مرفوعاً فوقها، صاح منادياً ثيميستوكليس وسأله معاتباً ساخراً إن كان ما يزال على ظنه بأن أهل إيجينا يصادقون الفرس. وأما سفن الفرس التي نجت من الدمار وتمكنت من العودة إلى فاليروم فأضحت في حماية الجيش.

والمسلَّم به أن أهل إيجينا قدموا أعظم مثل للشجاعة والقتال في سلاميس، يليهم في ذلك أهل أثينا، ومن الأفراد برّز بوليكريتوس الإيجيني والأثينيان إيومينيس الأناجيري أمينياس البالليني. وكان أمينياس هذا هو الذي طارد أرتيميسيا، ولو علم أنها كانت على ظهر السفينة لما توقف عن مطاردتها حتى تقع في أسره، أو ينتهي هو أسيرها؛ والسر في ذلك أن الأثينيين كانوا يكرهون

أن تشهر امرأة السلاح في وجههم، وقد تلقى قادة السفن أوامر محددة بشأنها، ووضعوا جائزة تبلغ عشرة آلاف دراخما لمن يقبض علها حية. ولكن المرأة تمكنت من الإفلات من مطارديها، على كل حال؛ كما تمكنت سفن أخرى من الهرب، وهي ترسو الآن في فاليروم.

ويقول الأثينيون أن أديمانتوس الكورنثي هرب مذعوراً منذ بداية المعركة ولما رأى قادة السفن الأخرى قائدهم هارباً لحقوا بإثره؛ ولكنهم حينما بلغوا تلك المنطقة مقابل شاطئ سلاميس، حيث يقوم معبد أثينا السيراكية، صادفهم قارب غريب. وكان الأمر كله غامضاً أشد الغموض إذ لم يعلموا من الذي بعثه إليهم ، وماكان الكورنثيون يعلمون بتطورات الأمور والأسطول حين صادفوا هذا القارب. ولكن الأمور اللاحقة حملتهم على الاستنتاج بأن للآلهة يداً لا ريب في هذا الأمر؛ إذ بينما كان القارب يمر قريباً منهم أخذ ركابه في الصياح. «يا أديمانتوس، اعلم أن الآلهة استجابت لصلوات الإغريق، فقد انتصرت البلاد، بينما أنت غارق في الخيانة بفرارك بسفنك من المعركة». ولم يصدق أديمانتوس ما قاله هؤلاء القوم. فردوا عليه بأن له أن يأخذهم رهائن ليعود ويتحقق من الأمر. فإذا وجد أن الإغريق لم يكسبوا المعركة حقاً، كان له أن يقتلهم. وما كان منه سوى أن عاد وبقية سفن المجموعة إلى الأسطول، بعد أن انتهت العمليات الحربية. وهذه قصة الأثينيين، كما سلف القول؛ أما الكورنث فينكرونها، ويقولون إن سفنهم، على عكس ما تذهب الرواية، قد أبلت أحسن بلاء ـ ولبقية أمم إغريق شهادات حسنة في مآثر الكورنثيين.

ولقد أدى أريستيديس بن ليسيماخوس الأثيني خدمة جليلة، وكنت قد نوهت بخصاله الرفيعة سابقاً. وتفصيل ذلك أنه حمل معه عدداً من جند الأثينيين، وكانوا قد عينوا لحراسة شاطئ سلاميس، ونقلهم من هناك إلى بسايتاليا، حيث قتل كل من حط في تلك البقعة من جند الفرس. وما إن انتهت المعركة حتى قام الإغريق بسحب السفن المعطوبة التي كانت تطفو على سطح الماء إلى سلاميس،

ثم أخذوا يعدون لاستئناف القتال، متوقعين من أحشويرش أن يزج، بعد، ما بقي لديه من سفن سليمة في هجوم جديد. وكانت الرياح القادمة من الغرب قد دفعت بالسفن الكثيرة المعطوبة والمحطمة إلى بقعة من شاطئ أتيكا تعرف بكولياس، وبذلك تحققت نبوءات باكيس وموسايوس في هذه المعركة ونبوءة أخرى قالها عرّاف من أثينا يدعى ليسيستراتوس قبل سنين: «لسوف تطهو الكوليانيات طعامهن بالمجاديف». وكانت هذه نبوءة نسيها الإغريق يومئذ ثم صدقت وتحققت، على كل حال، بعد أن رحل أحشويرش.

خشي أحشويرش، حين أدرك مدى الكارثة التي حلت، أن يلتفت الإغريق إلى الهليسبونت، إن بمبادرة منهم أو بإيحاء من الإيونيين، ويقومون بتدمير الجسور هناك. وهكذا أعد العدة للهرب، وعمد في الوقت ذاته إلى إنشاء طريق في الماء باتجاه سلاميس، تمويهاً على الإغريق وقواته معاً، مستخدماً في ذلك بعض القوارب التجارية الفينيقية، فكانت جسراً ومكسراً للمياه في آن واحد. كذلك اتخذ استعدادات أخرى أراد بها الإيحاء بأنه يجهز لاستئناف المعركة في البحر من جديد. وكان مشهد هذا النشاط قد جعل الجميع على الطرفين على ثقة من أنه يوطن نفسه للبقاء في البلاد ومتابعة الحرب بكل ما لديه من حيوية ونشاط؛ ولكن بين هؤلاء جميعاً كان ثمة استثناء، هو ماردونيوس العارف بعقل مولاه وأساليبه، فلم يخدع بما رأى. وفيما الأمور تجري على هذا النحو بعث أحشويرش برسول إلى فارس يعلم القوم بالهزيمة التي مني بها.

الحق أنه ليس هناك من البشر من يفوق عمال البريد الفرس في سرعة الترحال. فالبريد من ابتكارهم ومذهبهم في ذلك أنهم يقيمون عمالهم في محطات على الطريق وعددهم بعدد الأيام التي تستغرقها المهمة - ولكل يوم من أيام الرحلة رجل وجواد. وعامل البريد يجهد كل الجهد ولا يتوقف لأي أمر حتى يبلغ نهاية المرحلة المعهودة إليه بأسرع ما يستطيع - ولا يثنيه ثلج أو مطر، ولا ليل أونهار . ويقوم العامل الأول بتسليم البريد إلى الثاني عند وصوله إلى

محطته، والثاني ينقل ما لديه إلى العامل في المحطة الثالثة، مثلما هو الأمر في سباق المشاعل عند الإغريق في عيد هيفيستوس. والعبارة الفارسية لهذا النوع من البريد هو «أجاريون».

ولقد أشاعت في سوسه رسالة أحشويرش الأولى عن الاستيلاء على أثينا إحساساً عارماً بالابتهاج بين الفرس الذين لم يرافقوا الحملة، حتى إنهم أخذوا ينثرون عقود الورود ويحرقون البخور، ويستغرقون في ضروب الفرح والبهجة؛ ثم أتت الرسالة الثانية بعدها فأنهت كل ذلك، وأصبحت المدينة في غم شديد، ولم يعد فيها رجل لم يمزق ثيابه وأسال الدمع وأخذ في العويل حزناً وشقاء، والكل يلقي اللوم على ماردونيوس في هذه الكارثة. ولم يكن السبب في هذا الغم والضيق خسارة السفن،وإنما القلق على سلامة الملك. ولقد ظل الفرس على هذه الحال حتى عاد أحشويرش إلى بلده.

وكان جلياً لماردونيوس أن أحشويرش قد أزعجته كثيراً الهزيمة في سلاميس، وقدر أنه قد عقد العزم على الانسحاب من أثينا. فرأى أن أفضل ما يمكن له العمل في هذه الظروف، وعقابه لإقناعه الملك على القيام بهذه الحملة مؤكد، أن يستأنف القتال، فإما أن يخضع الإغريق وإما أن يموت ميتة مشرفة في سبيل قضية عظيمة ـ وإن كان يتوقع الاحتمال الأول. وهكذا تقدم الرجل من أحشويرش باقتراح، فقال له: «أرجوكم يا مولاي ألا تضيقوا بما كان من الأحداث مؤخراً! فما قيمة بضعة ألواح من الخشب؟ والمعركة القادمة لن تحسم بها، وإنما بالرجال والخيل. ولن يجرؤ أحد من هؤلاء الذين يتخيلون الآن أن الأمر قد حسم، أن يترك سفينته ليواجهكم، ولا الإغريق في البر ـ فمن سولت له نفسه أن يقف في مواجهتكم دفع الثمن. لذلك فإني أقترح عليكم مهاجمة أرض البيلوبونيز فوراً. أو أن لكم أن تتمهلوا، إن شئتم،وفي مطلق الأحوال لا تقنطوا؛ فالإغريق لن يجدوا أمامهم مجالاً للهرب من مصيرهم المحتم وهو الخضوع لكم. ولسوف يدفعون الثمن غالياً لما اقترفوه بحقكم في الماضي والحاضر. تلكم هي

السياسة الأحكم لكم؛ وإذا شئتم غير هذا فلدي خطة أخرى أعرضها عليكم، إن كنتم عازمين على سحب الجيش من بلاد الإغريق. وإني لأضرع إليكم يا مولاي ألا تدعوا للإغريق فرصة للسخرية بنا. وما واجهنا من النكسات لم نكن نحن السبب فيها ـ فليس بوسعكم أن تقولوا إننا كنا، نحن الفرس، نقاتل قتال الجبناء. وما يضيرنا إن جلب المصريون والفينيقيون والقبارصة والقليقليون العار لأنفسهم؟ فليس لفارس أي دخل فيما يسبب قوم لأنفسهم. لا! إننا لسنا المعنيين فيما أصاب هؤلاء من العار. فأعيروني أذنكم لأعرض لكم ما أنا بصدده؛ إذا كنتم قد عزمتم يا مولاي على عدم البقاء في هذه البلاد فامضوا عائدين إلى الوطن، كما تشاؤون، ومعكم الجزء الأعظم من الجيش، ولسوف أؤدي أنا من جهتي ما يمليه عليّ الواجب، بثلاثمائة ألف جندي مدرب، لنسلم لكم الإغريق مكبلين بالأغلال».

ولقد استقبل أحشويرش العرض استقبالاً حسناً، وهو في حالة من المحنة، فسر به أعظم سرور، وقال لماردونيوس بأنه سوف ينظر في الاقتراحين، ثم يخبره بأيهما سيأخذ وهكذا فقد دعا قادته إلى اجتماع للتداول؛ ثم خطر بباله أثناء الاجتماع أن يدعو أرتيميسيا للمشاركة في النقاش الدائر، مستذكراً أنها كانت وحدها التي وفرت له في مناسبة سابقة النصح السديد. فلما حضرت، صرف أحشويرش مستشاريه الفرس والحرس، وخاطبها بهذه الكلمات:

«إن ماردونيوس يلح عليّ بالبقاء في بلاد الإغريق والهجوم على البيلوبونيز وجيشي وجندي الفرس، حسبما يقول، لا ضلع لهم فيما لحق بنا من النكسات مؤخراً، وهم متلهفون لإثبات كفاءتهم. وكانت مشورته بناء على ذلك إما القيام بهذه الحملة وإما أن أترك له اختيار ٣٠٠ ألف جندي من الجيش ويقود هو الحملة، بينما أعود أنا مع بقية القوات. وقد وعد بأن يضع بين يدي بلاد الإغريق، إذا توفرت له هذه القوة. وكنت قد أسديت إليّ نصيحة حسنة يوم

حاولت أن تثنيني عن المجازفة بخوض المعركة التي كانت لنا في البحر؛ ولذلك فإني أسألك النصح اليوم فيما ينبغي أن يكون القرار، فأي الطريقين يجدر بي أن أسلك؟».

فأجابت أرتيميسيا: «ليس من اليسير يا مولاي أن أشير إليك بمشورة؛ أما وأن الأمور كما خبرتم وتعلمون فالرأي عندي أن تغادروا هذه البلاد، وتدعوا ماردونيوس والقوة التي طلب إمداده بها، إذا كان هذا ما يبغيه، وهو صادق النية بإنجاز ما يعد. فإن وفق فيما اعتزم وكان له النصر، كان ذلك مأثرة لك، يا مولاي، فأنت صاحب الفضل، وما تم فهو من صنع عبيدك. ولو ساءت حاله فلن يضيرك من أمره شيء، طالما أنك في وضع أمين ولا خطر يمس بيتك.

وما دمت أنت وجيشك في أمان فلسوف يضطر الإغريق للهرب مرة بعد أخرى للبقاء على قيد الحياة والحفاظ على الأرض، متكبدين المصاعب ومحتملين الآلام؛ ولكن مَنْ مِنَ الناس يعنيه إن ساءت حال ماردونيوس؟ فما هو إلا عبد من عبيدك، ولن يصيب الإغريق إلا نصراً هزيلاً إن تمكنوا منه وقتلوه. أما أنت فتعود إلى وطنك، وقد بلغت هدف حملتك ـ فأنت الذي أحرق أثينا».

ولقد ارتاح أحشويرش لنصيحة أرتيميسيا أشد الارتياح، لأنها كانت تعبر عما يدور في أعماقه. وعندي أن أحشويرش ما كان سيبقى في بلاد الإغريق، ولو اجتمع عليه كل مستشاريه، رجالاً ونساء، فالرجل كان في فزع شديد، بما لا يسمح له بالتفكير بالبقاء هناك. ولذلك فإنه هنأ أرتيميسيا على صواب رأيها، ثم أرسلها وأولاده إلى إفسوس، مع بعض أولاده غير الشرعيين الذين اصطحبوه في هذه الحملة. ولرعاية هؤلاء الأطفال بعث معهم كبير الخصيان لديه، ويدعى هرموتيموس البيداي. والبيداسيون يقطنون المنطقة الواقعة شمال هاليكارناسوس ، ولا نعلم عن أحد كان أشد منه في الانتقام ممن تسبب في علته. فقد بيع هذا كأسير حرب، واشتراه رجل من خيوس يدعى بانيوبيوس، وكانت تجارته خصي من يقع عليهم من الفتيان الجميلين، فيبيعهم في أسواق

الرقيق في سارديس أو إفسوس بأعلى الأسعار - ذلك أنه من الحقائق المعروفة أن الخصيان الأجانب يحظون بتقدير عظيم لأمانتهم على كل وجه. وكان من بين الفتيان الكثيرين الذين قام بإخصائهم بانيونيوس هيرموتيموس هذا. وبالرغم من هذا المصاب كان لهيرموتيموس نصيب من الحظ، إذ صدف أن جاء من ينقله من ساردیس ويرسله بين الهدايا إلى الملك أحشويرش فحظي عنده مع مرور الوقت بمكانة لم يبلغها خصي من قبل. وقد صدف أن ذهب هيرموتيموس، يوم كان أحشويرش في ساردیس، عند بدء الزحف على أثينا، إلى أتارنيوس، وهو مرفأ من أعمال مايسيا، في خيوس؛ وصادف بانيونيوس هناك، وأخذ الاثنان يتجاذبان الحديث، ثم طال اللقاء وكان ودياً على ما يبدو، فحدث فيه هيرموتيموس صاحبه عن ذكرياته السعيدة يوم كان مملوكاً له، وقطع له وعداً بأن يكافئه على ما عرف منه، وطلب إليه أن يأتي بأهله إلى ساردیس ليقيم وإياهم هناك، فسر الرجل لهذا الوعد، وأتى بزوجه وأولاده إلى ساردیس، كما كان الاتفاق بينهما. فلما أتى واستقر هناك، واطمأن هيرموتيموس إلى أن بانيونيوس وأسرته باتوا في قبضته، بادره بالقول: «ليس هناك من إنسان مثلك يكسب قوته من عمل حقير يندى له الجبين عاراً. فأي ضرر نالك أو أياً من أهلك، مني أو أي امرئ يتصل بي، لتحط مني فتلغي وجودي رجلاً ككل الرجال؟ ولا ريب أنك كنت تأمل بألا تدري الآلهة بما تقترف من أعمال وحشية؛ ولكن للآلهة عدالتها، وقد شاءت أن تسلمك لي جزاء جريمتك، فلا تشكو من الانتقام الذي سأنزله بك الآن». فلما انتهى هيرموتيموس من مقالته أرسل في طلب أبناء بانيونيوس، وكانوا أربعة، وأكرهه على إخصائهم، ثم أكره الصبيان على خصي أبيهم. وهكذا كان أن جاء عقاب بانيونيوس على يدي هيرموتيموس.

أرسل أحشويرش، بعد أن عهد إلى أرتيميسيا بمهمة نقل أولاده غير الشرعيين إلى إفسوس، في طلب ماردونيوس، ووجهه إلى اختيار من يراه مناسباً من الجند ليكونوا في عداد القوات التي طلبها، والحرص على أن تكون

أفعاله مطابقة لأقواله. ومر ذلك اليوم دون ما يستحق الذكر؛ أما في الليل فقد صدرت أوامر الملك، وعليه تحركت السفن متسللة من فاليروم، وكل قائد سفينة يحرص على الإسراع إلى الهليسبونت لحراسة الجسور التي سيستخدمها أحشويرش عند عودته. ولما وصلت السفن إلى منطقة مقابل زوستر، حيث تبرز أرض صخرية عند الشاطئ، حسب الفرس ما رأوه من الصخور سفناً معادية، فابتعدوا عن بعضهم بعضاً؛ ولكنهم عادوا إلى رص السفن، بعد حين، لما تبين لهم خطأهم، وتابعوا الرحلة مجتمعين.

وفي فجر اليوم التالي نظر الإغريق إلى المشهد، فلما وجدوا جيش الفرس ثابتاً في مواقعه، تهيأ لهم أن الأسطول مازال راسياً في فاليروم، فأخذوا يعدون أنفسهم للدفاع، توقعاً لهجوم جديد من البحر. ولكن ما إن بلغهم نبأ رحيل الأسطول حتى اندفعوا لمطاردته، ووصلوا في هذه المطاردة إلى أندروس، دون أن تقع أنظارهم على أي من سفن الفرس. وهناك في أندروس عقد الإغريق اجتماعاً، واقترح فيه ثيميستوكليس متابعة التقدم عبر الجزر، إلى الهليسبونت وتدمير الجسور القائمة هناك. ولكن إيوربيادس عارض الاقتراح الذي رأى فيه أسوأ عمل يقوم به الإغريق. فذهب إلى أنه إذا انقطعت سبل العودة بأحشويرش فسوف يضطر للبقاء في بلاد الإغريق، وليس يتوقع منه عندئذ التزام الهدوء، وإلا فقد فرصة الانتصار والعودة إلى وطنه، ثم جوع جنوده؛ بينما إذا عاود التحرك والهجوم والتصرف بنشاط فقد تنحاز إليه أوروبا كلها شيئاً فشيئاً؛ ذلك أن البلدان والأقوام سيواجهون، الواحد بعد الآخر أحد أمرين فإما الهزيمة في ساحة القتال وإما الاستسلام. ثم إن الوقت سيصادف موسم الحصاد، مما يوفر لقواته الغلال اللازمة لمتابعة الحركة. وذهب صاحب هذا الرأي إلى أنه ما دام أحشويرش قد عزم بعد هزيمته في سلاميس على ألا يبقى في بلاد الإغريق فالأجدر أن يفسح له المجال ليهرب إلى بلاده؛ وخلص إيوربيادس بعدئذ إلى القول إن المجال يصبح متاحاً عندئذ لنقل الحرب إلى آسيا.

ولقد نال رأيه تأييد القادة البيلوبونيز الآخرين. ولما وجد ثيميستوكليس أن الأغلبية تعارض رأيه عدل عن موقفه وانتقل فجأة ليخاطب الأثينيين ـ وكانوا أكثر الحلفاء ضيقاً لهرب العدو، وأشدهم تلهفاً للمضي إلى الهليسبونت، دونما مؤازرة، في حال أعرض الآخرون عن الانضمام إليهم في الحملة. فبدأ ثيميستوكليس خطابه بقوله: «إني أعلم كل العلم بسابق الخبرة، وأكثر مما أخبرني به آخرون، أن المهزوم المغموم غالباً ما يكفّر عن أخطائه السابقة وهزيمته في تأكيد شأنه فيصلح من حاله. ولقد أسعفنا الحظ بأن أنقذنا أنفسنا وبلادنا حين صددنا عنا شر قوة ضخمة بدت، كالسحابة، تعكر البحر بالظلام. وهذه القوة في سبيلها الآن إلى الهرب ـ فلتمض. فالحق أننا لم نكن نحن من قام بهذه المأثرة، وإنما هي الآلهة والأبطال، حين ضاقوا أن يجدوا رجلاً واحداً يزين له التيه وغرور الكفرة أن يكون ملك آسيا وأوروبا أيضاً ـ رجلاً لا يعرف الفارق بين القدسي والدنس، فيحرق تماثيل الآلهة ويعمل فيها تدميراً، ويجرؤ على البحر بجلده وتكبيله بالأصفاد. إن أحوالنا في خير، الآن؛ فلنبق حيث نحن، في بلادنا، ولنلتفت إلى شؤوننا ونرعى أسرنا. فها قد غادر الفرس ـ هربوا بلا رجعة؛ فعودوا إلى بيوتكم وأصلحوا ما خرب منها، واعملوا في حرث أرضكم وبذارها. ولندع زيارة الهليسبونت وأيونيا للربيع القادم».

وقد قصد ثيميستوكليس من هذه الخطبة أن يضع أساساً لمطالبة أحشويرش بأمر قد تتطلبه الأحوال في المستقبل ـ وقد حدث ـ حين تسوء به الأحوال مع الأثينيين. ولقد كان الأثينيون على استعداد للقبول بنصيحته، بصرف النظر عن أغراضه الخفية؛ فلئن كانوا يرون فيه دهاء فقد جاء برهانه الآن على أنه رجل دهاء ومقدرة معاً، ولذلك باتوا يقتدون به في كل أمر.

ولما تم لثيميستوكليس إقناع الجمع بمقترحه، أسرع بإرسال رسالة إلى أحشويرش، حملها لجماعة من أهل الثقة، وهو يعلم أنهم لن يفشوا سراً، ولو

بالتعذيب. وكان من بين هؤلاء خادمه القديم سيسينوس الذي استخدمه في مناسبة سابقة. فسافرت هذه الجماعة كما شاء لها فعبرت إلى أتيكا، حيث اتخذ أحشويرش مقره، فمضى سيسينوس لينقل إليه الرسالة، بينما كان رفاقه ينتظرون بجانب القارب الذي حملهم. فلما حضر إليه خاطبه بالعبارات التالية: «قد جئتكم موفداً من ثيميستوكليس بن نيوكلس، وقائد الأسطول الأثيني، وأعظم قادة الدول المتحالفة، مكلفاً منه بأن أخبرك بأنه ثيميستوكليس الأثيني، قد حال دون الإغريق وملاحقة أسطولك وتدمير الجسور على الهليسبونت، وهو ما كانوا يسعون إليه، لولا تدخله في الأمر، وذلك خدمة لمصالحك. ولك من الآن أن تمضي بجيشك إلى بلادك دونما خشية من خطر.

ولقد عادت هذه الجماعة إلى أندروس بعد إبلاغ أحشويرش الرسالة؛ وأما الإغريق فإنهم التفتوا إلى المدينة يريدون الاستيلاء عليها. بعدما قرروا التخلي عن متابعة أسطول احشويرش وتدمير الجسور عند الهليسبونت . وكان الأندروسيين أول من رفض طلب ثيميستوكليس المال من أهالي الجزر، وكان قد سبق أن هددهم بأن لا حيلة لهم مع أثينا سوى دفع المطلوب، لأنهم مؤيدون من إلهين من أقوى الآلهة، أحدهما يدعى «الإقناع » والثاني «الإكراه»؛ فكان جواب الاندروس أن أثينا محظوظة لرعايتها من إلهين فعالين كهذين وفرا لها كما هو واضح ما تحقق لها من الثراء والعظمة؛ ولكن لسوء الحظ فإنهم، في أرضهم الصغيرة والفقيرة، تحت إلهين تالفين يرفضان ترك الجزيرة ويصران على البقاء فيها؛ وهذان الإلهان هما «الفقر» و«العجز». وإذن لن يكون بوسع الأثينيين، اعتماداً علي هذين الإلهين، أن يتوقعوا مالاً منهم؛ إذ لن يكون بمقدور أثينا بالغاً ما بلغت من القوة أن تحمل الأندروسيين على قلب «العجز» إلى «مقدرة». وكانت هذه الإجابة، ورفض دفع المال، السبب في الحصار الذي فرض على المدينة.

وكان ثيميستوكليس، الجشع أبداً، قد أرسل في تلك الأثناء يطلب المال من سكان الجزر الأخرى؛ ورسله في تلك المهمات هم أنفسهم الذين أرسلوا إلى

الأندروسيين واستخدموا في مخاطبتهم نفس الألفاظ ، وقد اعتاد أن يدعم مطالبته بالتهديد بالحصار بأسطول الإغريق، إن قصرت دولة عن الدفع، حتى تستسلم. فتحقق له أن يجمع بهذه الوسيلة مبالغ طائلة من المال من أهل كاريستوس وباروس، دفعهم إلى بذل المال الخوف من أن ينالهم الحصار كما نال الاندروسيين بسبب تأييدهم للفرس، والصيت البالغ الذي ناله ثيميستوكليس بين القادة الإغريق. ولست أملك القول إن كان هناك غير هاتين الجزيرتين من دفع له مالاً - وإن كان يرجح ذلك. ولكن الكاريونيين لم يفيدوا من انصياعهم للطلب، أما الباريونيون فقد وفروا على أنفسهم زيارة الأسطول بامتثالهم وهكذا كان ثيميستوكليس يبتز المال من أهالي الجزر، بينما هو مقيم في أندروس. وبينما كان القادة الآخرون جاهلين بما يجري.

وكان جيش الملك أحشويرش قد بدأ انسحابه بعد أيام قلائل من معركة سلاميس، فدخل بويوتيا سالكا الطريق نفسها التي سلكها في أثناء زحفه. ولقد رغب ماردونيوس أن يرافق الملك بعض الطريق، بعدما أرجأ موعد الهجوم على البيلوبونيز إلى الربيع التالي، لأن الشتاء في تساليه لم يكن مواتياً للحركة. ولما وصل إلى تلك المنطقة قام بانتقاء القوات التي ستكون بإمرته، وهي: فوج الخالدين الفرس، عدا قائدهم هايدارنيس الذي قيل إنه لم يشأ الافتراق عن الملك؛ ثم حملة الرماح الفرس، ولواء الفرسان، وهم ألف من النخبة وأخيراً أفواج الميديين والساكاي والبكتيريين والهنود، من الفرسان والمشاة معاً وقد جندهم لديه بكامل عددهم؛ ومن جنود الأمم الأخرى اختار قلة، معتمداً في اختياره على مظهرهم أو لمعرفته بأدائهم في المعارك، حتى بلغ مجموع قواته الثلاثمائة ألف، بما فيهم الفرسان وكان الفرس بقلائدهم وأساور الذراعين قوام هذا الجيش، يليهم الميديون، وإن لم يكونوا في الواقع أقل عدداً، إنما دونهم شجاعة.

وفيما كان أحشويرش في تساليه وماردونيوس منهمكاً في اختيار عناصر

جيشه، تلقى اللاكيديمونيون رسالة من عرافة دلفي تحثهم على مطالبة أحشويرش بدية ليونيداس، وقبول أي مبلغ يدفعه. فأرسل الإسبارطيون للتو موفداً إلى أحشويرش، فوصل في الوقت الذي كان يتأهب فيه جيش الفرس لمغادرة تساليه. ومثل الرجل أمام الملك، فقال مخاطباً إياه: «يا ملك الميديين إن اللاكيديمونيون وبيت هيرقل في إسبارطة يطالبون بالتعويض عن دم ليونيداس، لأنك قتلته، وهو يحارب دفاعاً عن أرض الإغريق. فضحك أحشويرش، وصمت حيناً من الوقت، ثم قال، مشيراً إلى ماردونيوس الذي كان واقفاً بجانبه: «سينالون كل ما يستحقون من ماردونيوس».

وفي تلك الآونة غادر أحشويرش تاركاً ماردونيوس في تساليه، واندفع بحشده وبكل ما استطاع من السرعة إلى الهليسبونت، وما زال على هذا المسير خمسة وأربعين يوماً حتى بلغ نقطة العبور، وفي أثناء ذلك تعرض جيشه للأذى والتعب. فكان الجند يتدبرون طعامهم وشرابهم مما تتيحه لهم تلك الأرض، كانوا يأكلون الحشائش حين يفتقدون الحبوب، بل إنهم أكلوا في طريقهم لحاء الأشجار والأوراق البرية والمثمرة لا يفرقون بينها، المهم أن يطعموا أنفسهم بأي طريقة وكانوا يبذلون في سبيل الطعام كل شيء. كذلك أصبحوا في حالتهم تلك عرضة للطاعون والزحار، فمات كثيرون منهم ، ومرض منهم عديدون، فخلفهم رفاقهم وراءهم حيثما حلوا في المدن، ليعنى بهم الناس ويرعونهم في مرضهم - في تساليه وسيريس وبايونيا ومقدونيا.

وكان أحشويرش قد ترك في سيريس، عند زحفه على بلاد الإغريق، عربة زيوس المقدسة، ولم يتمكن الآن من استعادتها، لأن البايونيين أعطوها للتراقيين، ولما طالبهم أحشويرش بإعادتها زعموا أن التراقيين المقيمين عند منبع نهر ستريمون، استولوا على جيادها في أثناء الرعي. وهنا ارتكب أحد زعماء التراقيين، وهو ملك كرستونيا وبيسالتيا، فعلة رهيبة جديرة بالإشارة، وتجلت في رفضه الخضوع لأحشويرش ولجوئه إلى جبال الردودوب في عمق البلاد، وحظر

على أولاده المشاركة في الحملة على الإغريق. غير أنهم لم يأخذوا بهذا الحظر فانضموا إلى جيش فارس، إما رعونة منهم وجنوحاً لمخالفة أبيهم وإما رغبة في المشاركة في الحرب. ولقد عاد الأبناء الستة جميعهم سالمين، فعاقبهم الأب بأن سمل أعينهم، فكان ذلك جزاء ما فعلوا.

ولم يضع الفرس الوقت حين بلغوا الممر فوق الهليسبونت، بعد تراقيا، فأسرعوا بالعبور إلى أبيدوس، وكان عبورهم بالسفن، إذ وجدوا الجسور على غير حالها القديم، بعد أن مزقتها العواصف. ولكن الطعام كان أكثر وفرة في أبيدوس مما عرفوه في أثناء المسير، فأقبل الجند على الأكل والشرب حتى مات الكثير ممن بقي من الجيش. وأما البقية فسارت مع أحشويرش إلى سارديس فوصلوها سالمين.

وتقول رواية أخرى تختلف عن تلك التي سلف ذكرها، أن أحشويرش سار بجيشه على طريق البر، بعد انسحابه من أثينا، ولم يتجاوز أيون الواقعة على نهر الستريمون، حيث سلم قيادة الجيش إلى هايدارنيس ليتابع المسير إلى الهليسبونت، بينما عبر هو إلى آسيا، على ظهر سفينة فينيقية. وفيما السفينة مبحرة صادفتها عاصفة قوية كانت تهب من ثغر الستريمون، والبحر مضطرب الأمواج، فبات الملك والفرس الذين كانوا يرافقونه، في خطر شديد؛ فصاح أحشويرش، وهو في هلع شديد، منادياً القبطان، وسأله إن كان بالإمكان النجاة من هذه العاصفة. فأجاب القبطان « لا يا مولاي، إلا إن تخلصنا من هؤلاء المسافرين». فصاح أحشويرش بالجمع: « يا رجال فارس، قد حانت اللحظة ليبرهن كل واحد منكم على اهتمامه بالملك؛ إذ يبدو أن سلامتي الآن بين أيديكم». فأحنى كرام الفرس رؤوسهم، ثم مضوا، دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة، وألقوا بأنفسهم في البحر؛ وتابعت السفينة طريقها، بعد أن خف حملها، إلى أن وصلت بسلام إلى الشاطئ الآسيوي. فلما ألقت السفينة مراسيها، ونزل القوم على الشاطئ، قدم أحشويرش للقبطان تاجاً من الذهب، مكافأة له على

بلوغه بر السلامة، ثم قطع رأسه عقاباً له على تسببه في موت جماعته من الفرس. ولست أجد في هذه الرواية الثانية عن عودة أحشويرش ما يحملني على تصديقها - وخاصة بما يتصل بحادثة الفرس. فلو صدق ما روي عن مقالة القبطان لأحشويرش لما كان ليراود أي امرئ الشك بأنه كان سيأمر بنزول حاشيته من الفرس، وجميعهم من النبلاء، إلى أسفل السفينة، وإلقاء ما يماثلهم عدداً من المجدفين في البحر بدلاً عنهم، وهم مجرد جماعة من الفينيقيين: ولكن في الحقيقة أن أحشويرش، كما سبق القول، عاد وجيشه بطريق البر. وشاهدي على ذلك ما عرف عنه أنه مر في طريق عودته بأبديرا، وعقد حلفاً مع أهلها، وأهداهم سيفاً ذهبياً ورباط رأس موشى بالذهب. ويروي أهل أبديرا (ولست أصدق روايتهم) أن أحشويرش لم يجد بلداً يأمن إليه إلا بلدهم،بدليل أنه خلع عنه سرواله، لأول مرة، منذ انسحابه من أثينا. ومن المعروف، أن أبديرا هي أقرب إلى الهليسبونت من إيون، و الستريمون، حيث استقل منها السفينة في عودته، حسب الرواية الأخرى.

سعى الإغريق جاهدين في غضون ذلك للاستيلاء على أندروس فباءت جهودهم بالفشل، فاتجهوا إلى كاريستوس واحتلوها، ثم تحولوا بعد ذلك إلى سلاميس. وكان أول ما قاموا به عند وصولهم إليها اختيار الهدايا التي يقدمونها شكراً للآلهة؛ وقد قدموا الكثير من الهدايا، وكان أهمها، ثلاث سفن خمسينية فينيقية، إحداها في ممر أشموس(ممر كورثنه)(وعهدي بها سليمة على حالها). والأخرى في سينيوم، والثالثة مقدمة لأجاكس، في سلاميس ذاتها. ثم انتقل القوم إلى اقتسام الغنائم، فأرسلوا «أولى الثمار» نذراً إلى دلفي، وقد اقتطعوها قبل القسمة؛ ومن هذا النذر صاغوا تمثالاً يبلغ ارتفاعه ثمانية عشر قدماً، ويحمل بيده مقدمة سفينة، وهو إلى جانب تمثال ذهبي للإسكندر المقدوني.

ولما أرسلوا نذور الشكر إلى دلفي سأل الإغريق الإله، باسم البلاد عامة، إن

كانت هداياهم قد حظيت بالقبول والرضى. فكان الجواب أن الرب راض بما قدمه كل واحد منهم، سوى تقدمة الإيجيين؛ فطالبهم بحصة من الجائزة التي نالوها لبلائهم في سلاميس. واستجاب هؤلاء بأن قدموا النجوم الذهبية الثلاث على صارية من البرونز ـ وتشاهد هذه التقدمة في الزاوية بالقرب من الدن الذي قدمه قارون للمعبد.

ولقد أسلم الإغريق ـ بعد أن أنجزوا تقسيم الغنائم فيما بينهم ـ أشرعتهم للريح قاصدين ممر أشموس ممر كورثنه)، حيث كانوا يعتزمون منح جائزة الشجاعة للرجل الذي يراه القوم الأجدر بها لبلائه طوال الحملة. والتقى القادة عند مذبح بوسيدون لاختيار الرجلين اللذين يستحقان الجائزتين الأولى والثانية؛ فكان كل منهم يعتقد بأنه قد فاق الآخرين بشجاعته، فأخذ كل واحد منهم يضع اسمه في مقدمة الأسماء ـ وإن اتفقوا جميعهم في الرأي على وضع ثيميستوكليس في المقام الثاني. ولكن لم يفز أحدبالمرتبة الأولى، بينما تبوأ ثيميستوكليس المرتبة الثانية بيسر دون منازع. وبذلك حالت الغيرة دون فوز أحد بالجائزة الأولى، وعاد القادة جميعهم إلى أوطانهم؛ وكان ثيميستوكليس، مع ذلك، الاسم الذي يتردد على ألسنة الحاضرين، وعلا صيته بين الجميع باعتباره أقدر الرجال في جميع أنحاء بلاد الإغريق.

وبعدما أنتهت أعمال التصويت وتعذر حصول واحد من الأبطال الذين خاضوا المعارك في سلاميس على المرتبة الأولى ذهب ثيميستوكليس إلى اللاكيديمونيون آملاً بأن يحظى بالتكريم عندهم. ولقد رحب به القوم أعظم ترحيب وأحاطوه بأجلى آيات الاحترام. ومع ذلك فقد كان الفوز بجائزة الشجاعة، وهي إكليل من أغصان شجر الزيتون، من نصيب إيوربيادس، كما منح ثيميستوكليس إكليلاً آخر مشابهاً له، تقديراً لحكمته ودهائه. كذلك أهداه القوم أعظم عربة في إسبارطة، وأثنوا عليه وأطنبوا في مدحه، وأحاطوه عند مغادرته البلاد بكوكبة من ثلاثمائة من الذين يطلق عليهم الإسبارطيون اسم

«الفرسان النبلاء»، فرافقوه حتى الحدود. وكان ثيميستوكليس الوحيد ممن عرفنا الذي حظي بتكريم المرافقة من الإسبارطيين.

ولما عاد إلى أثينا تهجم عليه شخص يدعى ثيموديموس، وهو من آفيدناي، وكان ألد أعداء لثيميستوكليس . ولقد طغت عليه الغيرة ففقد الصواب وأخذ يندد به لزيارته إسبارطة، فذهب إلى أن ما حظي به من آيات الشرف والتكريم لم يكن لفضيلة يتمتع بها، وإنما كسبه بسبب مكانة أثينا. ولما عاد وكرر هذه العبارات مرة بعد مرة، رد عليه ثيميستوكليس في النهاية: «ما كنت لألقى هذا التكريم لو كنت من [جزيرة] البلبين - ولا كنت ستحظى بهذا الشرف، وإن تكن أثينياً».

كان أرطبازوس بن فرناسيس قائداً مرموقاً بين القادة الفرس، ثم ذاع صيته بعد بلائه في معركة بلاتيا، وقد واكب مسيرة أحشويرش، ومعه ٦٠ ألف رجل ممن انتقاهم ماردونيوس، حتى نقطة عبور الهليسبونت وما إن عاد الملك إلى آسيا حتى قفل أرطبازوس عائداً؛ وحين وصوله إلى ضواحي بيلينة أدرك أن ماردونيوس ذهب إلى تساليه ليقضي الشتاء هناك ، لذا لم يجد ما يستعجل انضمامه إلى بقية الجيش، ورأى أن الواجب يحتم عليه إخضاع بوتيدايه، وكانت قد اشتعلت فيها الثورة. وتفصيل الأمر أن أهالي بوتيدايه تخلصوا من نير الفرس عن أعناقهم، شأنهم شأن سكان شبه جزيرة البالينة، بمجرد رؤيتهم لأحشويرش وهو يتجه شرقاً ومعرفتهم بفرار الأسطول الفارسي من سلاميس.

وهكذا بدأ أرطبازوس الحصار، وعمد إلى حصار أولينثوس، في الوقت ذاته، تحسباً من عصيان فيها مثل الذي نشب في بوتيدايه - وكانت أولينثوس محكومة من البوتويين بعد أن طردهم المقدونيون من الأرض الواقعة عند خليج ثيرمه. ولقد سقطت البلدة في يدي أرطبازوس فأمر بذبح أهلها ورمى بجثثهم في البحيرة، وعهد بحكمها إلى الخاليكيدونيين، وعين حاكماً عليها كريزوبولوس الطورني. وهذا هو السبب في حيازة الخاليكيدونيين لأولينثوس. ثم إتجه

أرطبازوس إلى بوتيدايه وبينما كان يحكم عليها الحصار اتفق وتيموكسينوس، وكان قائد قوات السكيونيين، على تسليم البلد. ولست أدري كيف كان مبدأ هذا الاتفاق، إذ لم تبلغنا أخباره؛ وكما يقال إن تيموكسينوس رغب بإرسال رسالة إلى أرطبازوس كما رغب أرطبازوس بإرسال رسالة إلى تيموكسينوس ويروى أن الرسالة كانت مكتوبة على قطعة ورق ملفوفة على رأ س سهم، ثم تستر الورقة بالريش، ثم ترسل برمي السهم إلى الجهة المرسلة إليها. وظلت المراسلة دائرة بين الرجلين، ولكن بعد مدة تم اكتشاف خيانة تيموكسينوس، حيث أصاب السهم الذي رمى به أرطبازوس كتف رجل من البوتيدائيين، بدلاً من أن يسقط في المكان المحدد له. ولقد اجتمع جمع حول المصاب، كما يحدث في الحروب عادة، وقام أحدهم بانتزا ع السهم من موضعه، فاكتشفت الرسالة ونقلت إلى القادة في الميدان ـ وكان منهم من أهل البلاد وآخرون من المدن الأخرى الموالية لها في شبه الجزيرة. فلما قرأوا الرسالة وعرفوا المتواطئ، قرروا طي الموضوع والسكوت عن خيانته لئلا يوصم أهل سكيونة بالخيانة فيلصق بهم العار مدى الدهر،وبهذه الطريقة عُرف الخائن.

بعد حصار ثلاثة شهور ، والبحر كان في مد وجزر بطيء على نحو غير مألوف، وظل على هذه الحال مدة طويلة من الزمن. وعندما رأى الفرس أن مياه البحر ضحلة قرروا الخوض فيها للوصول إلى باليني. ولكن ما إن قطعوا خمسي المسافة ولم يتبق سوى ثلاثة أخماس المسافة إلى باليني أدركهم طوفان غامر عالي الموج، ويقول بعضهم إنه لم يدرك أحد من الناس في زمانه مثل هذا الموج، مع أن ارتفا ع الأمواج من الأحوال الشاذة في هذه المناطق ومن لم يستطع العوم غرق في البحر ومن نجا من الفرس من الغرق قُتل على أيدي البوتيدائيين. وقد لاحظ أهالي بوتيدايه هذا الطوفان و الكارثة التي نزلت بالفرس ووجدوا أن عدد الموتى في هذه الواقعة مماثل لعدد الذين قاموا في الماضي بتدنيس مزار بوسيدون وتمثاله، وهو الذي ينتصب الآن في ظاهر البلد.

وفي ظني أن تفسيرهم لهذه الواقعة صحيح. وقد انسحب أرطبازوس بعدئذ وبقية رجاله ومضى لينضم إلى ماردونيوس في تساليه.

وأما السفن التي نجت من أسطول أحشويرش وفرت من سلاميس،فقد حملت الملك وجيشه عبر المضيق من شبه جزيرة الخيرسونيس إلى أبيدوس، ثم ألقت مراسيها في كايمه لتقضي فصل الشتاء. ومع أول إطلالة الربيع في العام التالي احتشد الأسطول في ساموس، وانضم إلى بقية السفن التي أمضت الشتاء هناك. وكان الرجال المحاربون على ظهر الأسطول إما من الفرس وإما من الميديين؛ وقد تولى قيادة الأسطول يومذاك ماردونيتس بن باجيوس وأرتاينتيس بن أرطاخايوس ومعهما إيثاميتريس، وهو ابن شقيق أرتاينتيس، وقد اختاره عمه لهذا المنصب. ولم يحاول القادة التوغل بعيداً غرباً، بعدما تلقى الأسطول الضربة القوية تلك؛ والحق أن أحداً لم يحاول حملهم على هذا أيضاً ـ فظلوا في ساموس خشية اندلاع ثورة في بلاد الإيونيين، فأقام الأسطول هناك ليتدخل في حال نشوء طارئ يستدعي التدخل. وكان عدد قطع الأسطول، بما فيها المجموعة الإيونية، ٣٦٠ سفينة حربية. وما كان يخطر لهم ببال أن يقوم الإغريق بحملة على بلاد الإيونيين؛ ذلك أن الاتجاه السائد بين الفرس نحا إلى أن الإغريق سيقتصرون على الدفاع عن بلادهم، وقد عزز لديهم هذه القناعة أن الإغريق أعرضوا عن متابعة أسطولهم في أثناء هربه من سلاميس. والحق أن الفرس أصبحوا يومئذ زاهدين في متابعة العمليات البحرية كلية، وإن كانوا ظلوا على اعتقادهم بأن ماردونيوس كفيل وجيشه بتحقيق النصر بيسر على الإغريق. وكان أن أبقوا أسطولهم في مراسيه، في ساموس، وانشغلوا بوضع خطط لكل حالة تخطر بالبال لمطاردة العدو، وهم خلال ذلك ينتظرون ورود الأخبار من ماردونيوس.

وكان لقدوم الربيع ووجود ماردونيوس في تساليه أن يشجعا الإغريق على استئناف نشاطهم من جديد. فأسرع أسطولهم، وكان يتألف من ١١٠ سفن

حربية، بقيادة ليوتخيديس، حتى قبل حشد الجيش، فمضى إلى إيجينا. وليوتخيديس هذا كان جنرالا وأدميرالا وهو ينتمي إلى البيت المالك في إسبارطة، ويرجع نسبه إلى هرقل، بانتسابه إلى ميناريس بن أجيسيلاوس بن هيبوكراتيديس بن ليوتخيديس بن وانكسيلاوس، وأرخيداموس بن أناكاندريس بن ثيوبومبوس، نيكاندر بن خاريلاوس بن أيونوموس بن بوليديكتيس بن بريتانيس بن أيوريفون بن بروكليس بن أريستوديموس بن أريستوماخوس بن كليودايوس بن هايلوس بن هرقل.وليوتخيديس يعتبر أصغر ملوك الأسرة وكل أسلافه كانوا ملوكاً على إسبارطة، عدا الأول والثاني. وكان على رأس مجموعة السفن الأثينية أكسنثيبوس بن أريفرون.

وبعد وصول الأسطول إلى إيجينا، ورد إلى قيادة الإغريق سفراء من إيونيا، من بينهم هيرودوتوس بن باسيليديس، طالبين إمداد يد العون. وكان هؤلاء هم أنفسهم السفراء الذين سبق أن قاموا بزيارة إسبارطة، قبل وقت غير بعيد، يسألونهم تحريرهم بلادهم. وكانت هذه السفارة أصلاً من سبعة أعضاء، وهؤلاء تآمروا فيما بينهم على اغتيال طاغية خيوس، سراتيس؛ لكن المؤامرة فشلت حين فضح أحد المتآمرين السر، فهرب الستة الآخرون ولجؤوا إلى إسبارطة؛ ثم رحلوا بعدئذ إلى إيجينا يطلبون توجيه حملة إلى أيونيا. ولقد بذلوا جهداً عظيماً في حمل الإغريق على التقدم حتى ديلوس، وكان السبب في هذا التردد قلة خبرة الإغريق بالبلاد التي تقع وراء هذا الحد، واعتقادهم بأن الفرس منتشرون في كل مكان، والبقاع حافلة بمختلف الأخطار. أما ساموس ذاتها فكانوا يظنون أنها بعيدةتقع خلف أعمدة هرقل. وكانت نتيجة ذلك أن خشي الإغريق الإبحار شرق جزيرة ديلوس، بالرغم من أن الفرس كانوا يخافون من المخاطرة بالخوض في البحر غرب ديلوس. فكان الخوف، هو الحارس على المنطقة والفاصل بين الشرق والغرب.

وكان ماردونيوس ما يزال يمضي فصل الشتاء في تساليه، و من هناك وجّه

رجلاً من الكاريين من بلدة أوروبوس، يدعى ميس، للجولة في المعابد واستشارة العرافين والعرافات. ولست أعرف على وجه اليقين ما كان يود معرفته حين أصدر أمره هذا، إذ ليس في الوثائق ما يشير إلى غرضه؛ وأحسب أنه كان ينشد تحصيل معلومات والمشورة في أمر كان يشغله في ذلك الحين، وليس لأي غرض آخر.

والمعروف في هذا الأمر أن ميس زار ليباديا، وهناك دفع مبلغاً لرجل ليسمح له بدخول كهف تروفونيوس ومعبد العرافة في آباي بفوسيس؛ كما زار طيبة واستشار عرافة أبوللو الأسمينيوزي (حيث تقدم القرابين عند سؤال العرافة)، كما دفع مبلغاً من المال لأحدهم مقابل قضاء الليل في معبد أمفياراوس، ولم يكن هذا من أهل طيبة؛ ذلك أنه حُرِّم على هؤلاء القوم سؤال هذه العرافة، لأمر وقع ذات يوم، حين قدم أمفياراؤس، عبر الكاهنة، لأهل طيبة أحد خيارين ـ فإما أن يقبلوا به نبياً يكشف لهم عن أحوال المستقبل أو صديقاً يعينهم في الحرب. فكان خيارهم أن يكون الصديق يعينهم في الحرب. ولذلك لا نجد أحداً من أهل طيبة يمضي الليل في معبده.

ولقد وقع أمر يحدد أهل طيبة زمانه في تلك الفترة، وهو أمر خارق مثير للعجب: وتفصيله ذلك أن ميس الأوربوسي زار في أثناء جولته مراكز العرافة معبد أبوللو في ناحية بوتويوم(بتويو)، وهو يخص طيبة، ويقع بالقرب من أكرايفيا، على التل المشرف على بحيرة كوبايس. فدخل ميس هذا المعبد بصحبة ثلاثة رجال من أهل طيبة، وطلب منهم تدوين كل ما يصدر عن الإله. وما كاد ينتهي ميس من سؤاله، حتى أخذ المتنبئ الذي كان الإله ينطق بلسانه، يصدّر نبوءته ـ إنما بلغة غريبة. فدهش المرافقون الثلاثة عند سماعهم تلك اللغة الغريبة، بدلاً من الإغريقية، وضاقت بهم الحيلة لذلك، لكن ميس لم يبدد الوقت فاختطف اللوح الذي أتوا به لتدوين النبوءة، وأخبرهم بأن النبوءة تجري بالكاريه، وأخذ في تدوين ما يتلى عليه، وأسرع عائداً بالنبوءة إلى تساليه. ولما قرأ ماردونيوس

ما ورد في النبوءة، أرسل الإسكندر بن أمينتاس في سفارة إلى أثينا. وكان اختياره الإسكندر، وهو مقدوني، يعود إلى سببين، الأول صلته بالفرس بطريق المصاهرة - إذ كانت أخته جيجايا زوج بوباريس الفارسي، وأنجبت منه ولداً سمِّي أمينتاس، تيمناً بجده لأمه، وكان مقيماً في آسيا، حيث ولاه الملك مدينة ألاباندا الفريجية المهمة، معفاة من الضريبة؛ والثاني لعلمه أن للرجل علاقة رسمية وودية بأثينا، تؤيدها الأفعال. وبناء على ذلك قدر ماردونيوس بأن في إيفاد الإسكندر رسولاً كسباً لأثينا إلى صف الفرس،و إدراكاً منه لكثرة عدد الأثينيين وشجاعتهم، لمعرفته بأنه كانت لهم اليد الطولى في هزيمة الأسطول الفارسي، وتمنى أن يعقد حلفاً مع أثينا، فيكفل لأسطوله السيطرة في البحر - وهذا تقدير لا يجافي الواقع - وهو مطمئن إلى تفوقه في البر، فيكون إلحاق الهزيمة بالإغريق في متناول يده. ولعل هذا التحالف مع أثينا هو ما نصحت به النبوءات، وامتثالاً لإشارتها أوفد الإسكندر في تلك المهمة إليها.

كان الإسكندر هذا من الجيل السابع من أحفاد بريديكاس الذي فاز بالسيادة بين المقدونيين على نحو ما أنا مفصل هنا: كانوا ثلاثة إخوة وهم جاونيس، أيروبوس، بريديكاس، متحدرون من تيمينوس، طردوا من أرجوس فلجؤوا إلى إيلليريا. ثم انتقلوا بعدئذ إلى مقدونيا، ونزلوا في بلدة ليبايا، وهناك عملوا في خدمة الملك. فكان أحدهم سائساً للخيل والثاني عني بالثيران، والثالث وهو بريديكاس، الأصغر بين الإخوة الثلاثة، أصبح راعياً للأغنام والماعز. ولم يكن الفقر يقتصر في تلك الأيام على بسطاء الناس وحسب، بل وكانت الأسر الحاكمة أيضاً تعاني رقة الحال؛ وفي ليبايا كان الطهو من أعمال زوج الملك. وقد لاحظت أنها كلما خبزت خبزها للفتى بيرديكاس تضاعف حجمه وزاد عن المألوف. ولقد أمسكت عن الخوض في هذا الأمر مع أحد حيناً، فلما تكرَّرت هذه الواقعة أخبرت زوجها بما عرض لها. فلاح للملك أن هذه إشارة من السماء إلى حدث عظيم وشيك.

فاستدعى إليه الخدم الثلاثة وأمرهم بمغادرة البلد. فرد الفتيان بأن لهم أجوراً بذمته، وسيغادرون حالما يتلقونها. وكانت الشمس تدخل يومذاك من فتحة المدفأة في البيت، ولما ورد ذكر الأجور بدا خرابه ماثلاً أمامه، فصاح: «سوف أعطيكم أجوركم كما تستحقون - وإليكم هي -» وأشار إلى الشمس. وللتو صمت الشقيقان الأكبر، جاونيس وأيروبوس، أما الفتى الصغير، فقد رسم حول الدائرة التي خطتها أشعة الشمس على الأرض بسكين كانت بيده، وقال: «أيها الملك قد قبلنا ما تقدمه لنا. ومضى وجمع أشعة الشمس ثلاث مرات في ردائه، ثم غادر البلدة مع أخويه.

لما زحل الأخوة وغادروا البلد، ذكر أحد أفراد حاشية الملك ما فعله الفتى، وألمح إلى أنه كانت له مراميه حين قبل بالأجر الذي قدم له. فثار غضب الملك وأمر رجاله بإدراك الأشقاء الثلاثة وقتلهم.

ويوجد في مقدونيا نهر يقدّم له أحفاد أولئك الثلاثة القرابين، عرفاناً بالجميل لنقذهم - ذلك أنه بعدما تم لأبناء تيمينوس عبور النهر، ارتفعت المياه عالياً فجأة حتى عجز مطاردوهم عن العبور في إثرهم. فلما اطمأن الأخوة إلى حالهم على الضفة الأخرى، مضوا إلى بقعة أخرى من مقدونيا، واستقروا بالقرب من مكان يدعى حدائق ميداس، وهو ابن جورديياس، حيث تنتشر الورود وتتفتح عن ستين بتلة ويعبق الجو بأريجها كما ليس في العالم ورود تأتي بمثل عطرها. وفي هذه الحدائق، كما يروي المقدونيون، قبض على سيلونس. ويخيم فوق هذه الحدائق جبل بيرميوم، وقمته صقيع، لا يقوى إنسان على ارتقائها، ولذلك اتخذ الأخوة الثلاثة من سفوحه منطلقاً لغزو المناطق المجاورة، حتى استولوا على بقية أرجاء مقدونيا. ومن بيرديكاس صاحب هذه القصة ينحدر الإسكندر بن أمينتاس بن ألكيتاس بن أيروبوس،بن فيليب،بن أرجايوس،بن بيرديكاس، وهو أول من تولى ملكاً.

ولما وصل الإسكندر إلى أثينا سفيراً لماردونيوس قال للقوم : «يا رجال أثينا، قد جئتكم برسالة من ماردونيوس، وهاكم نصها: لقد بلغتني رسالة من

الملك يقول فيها التالي: «إني لراض بنسيان ما سببته أثينا من الجراح. فعليك يا ماردونيوس، والحال هكذا، أن تعيد للأثينيين أرضهم أولاً؛ وأعطهم، ثانياً، أي منطقة أخرى يبتغونها، ولهم، بعد، حق الحكم الذاتي. فإذا قبلوا بالمصالحة عليك أن تجدد لهم المعابد التي أحرقتها». تلكم هي أوامر الملك، وعليَّ الطاعة إلا إذا وضعتم العراقيل في طريقي. فناشدتكم أن تجيبوني مالذي حملكم، إذن، على الجنون وحمل السلاح في وجه الملك؟ إنكم لن تفلحوا في هزيمته ولا أنتم في حال يسمح لكم بالصمود طويلاً. فلقد رأيتم جيشه وضخامته، وخبرتم أفعاله؛ ثم إنكم تعلمون مبلغ قوة الجيش الذي أتولى الآن قيادته. ولو قدر لكم أن تلحقوا بنا هزيمة - وإذا كانت لديكم ذرة من العقل لما زين لكم الخاطر مثل هذا الأمل - فسوف تأتي جيوش أخرى أقوى وأشد بأساً لقهركم. وإذن، أقلعوا عن محاولة الوقوف كأنكم أنداد للملك، فثمن ذلك ضياع بلدكم واستدعاء الخطر المقيم على حياتكم. فتصالحوا وإياه، بدلاً من السعي إلى المواجهة - ودونكم أفضل فرصة ممكنة لتحقيق هذا الصلح، الآن وأحشويرش على هذا الميل، وادخلوا وإيانا في حلف لا يشوبه خداع أو ضلال، فتكون لكم حريتكم مصانة لا ينال منها شيء».

«تلكم هي الرسالة التي حملني إياها ماردونيوس لأنقلها إليكم. ودعوني أتحدث إليكم الآن بالأصالة عن نفسي. إنني لست بحاجة للإشارة إلى ما أحمله لكم من نوايا طيبة - فلكم من هذا شواهد؛ إنما حسبي أن أزيد توسلاتي الصادقة بالامتثال لما يطلب ماردونيوس. فالواضح لدي أنكم لن تتمكنوا من الاستمرار في صراعكم مع أحشويرش إلى الأبد - ولو كنت أعتقد غير ذلك لما جئت إلى أثينا في هذه المهمة. ولكن الواقع هو أن لأحشويرش قوة تفوق طاقة البشر، وذراعه طويلة تستطيع أن تمتد بعيداً. وإذن إذا لم تعقدوا معه سلاماً فوراً، وهو يعرض عليكم شروطاً ممتازة لهذا الاتفاق، فإني لأشعر بالجزع حين أرى مبلغ الخطر الذي يحدق بكم أكثر من أي من دول الحلف، فأنتم في درب

الخطر. فأنتم وحدكم الذين ستظلون في معاناتكم، لأن بلدكم ستكون في هذه المعمعة أشبه بالمنطقة العازلة. فناشدتكم أن تقبلوا بما يعرض عليكم؛ فليس بالأمر الذي يستهان به، قطعاً، أن يقع عليكم اختيار الملك العظيم دون أمم الإغريق كلها للمصالحة، ويقبل بتناسي الماضي ويغدو صديقاً لكم».

ولقد أثارت أخبار زيارة الإسكندر ومحاولة عقد حلف بين فارس وأثينا ضجة في إسبارطة. فقرر الإسبارطيون، وفي خاطرهم النبوءة بأن الدوريين سيطردون من البيلوبونيز ذات يوم على يد الفرس والأثينيين، والجزع من قيام ذلك الحلف، أن يوفدوا سفراءهم على عجل إلى أثينا. وصادف أن كان موعد لقاء الإسكندر وسفراء إسبارطة في وقت واحد؛ ذلك أن الأثينيين قصدوا أن يطيلوا في مباحثاتهم والإسكندر، إدراكاً منهم بأن نبأ وصول موفد من فارس للتفاوض في أمر السلام لا بد أن يبلغ الإسبارطيين، ولا ريب بأن هؤلاء لن يتأخروا في إيفاد سفارة إليهم، فتعمدوا إطالة المباحثات ليتيحوا للإسبارطيين فرصة الحضور لسماع آرائهم.

وهكذا، ما إن أنهى الإسكندر كلمته، حتى أخذ موفدوهم دورهم في الكلام: «قد أوفدنا الإسبارطيون راجين ألا تعرّضوا بلاد الإغريق للخطر فتنأون عن السياسة التي انتهجتموها إلى اليوم، وألا تصيخوا بآذانكم لعروض الفرس. فالتنكر للمواثيق عار لا يليق بشرف أي إغريقي؛ وهو أمر أسوأ في حالكم لعدة أسباب. فأنتم أولاً الذين أشعلتم هذه الحرب ـ ولم تأخذوا يومئذ بأمانينا في حساباتكم. فقد بدأت حرباً لصون أراضيكم، ليس إلا ـ وها هي الآن كل بلاد الإغريق مسرح لها. وبعد، فإنه لأمر غير مقبول أن يكون الأثينيون السبب في استعباد كل الإغريق، بعد أن كان عهد الناس بهم حملة التحرير إلى بلادهم. إننا لنقدر ما تعانون من المصاعب ـ مثل التلف الذي أصاب محاصيلكم في موسمين متتالين، ثم خراب بيوتكم وممتلكاتكم على مدى هذا الزمن؛ ونقدم لكم، على سبيل التعويض، باسم إسبارطة وحلفائها، المؤازرة خاصة بالنساء

وسواهن من غير المقاتلين في الأسر ما دامت الحرب دائرة. ولا يخدعنكم الإسكندر وعباراته العذبة وهو يقدم لكم عروض ماردونيوس؛ فهو إنما ينفذ ما يطلب منه القيام به - طاغية يوافق طاغية. ولكن مثل هذا المسلك لا يمكن أن يخفي عليكم ما وراءه، على الأقل، إن أخذتم بالحكمة؛ فلا ريب أنكم تعلمون أنه لا يمكن الثقة بالغرباء أو الاطمئنان إليهم».

فرد الأثينيون على الإسكندر : « إننا نعلم، كما تعلم أنت، أن الفرس يفوقوننا قوة أضعافاً مضاعفة؛ وهذه حقيقة واضحة لا حاجة لك أن تشغل نفسك بها. ومع ذلك فاعلم أن شغفنا بالحرية عظيم ويجعلنا نبذل ما وسعنا دفاعاً عن أنفسنا. أما مصالحة فارس فليس يجدي فيها محاولة إقناعنا بالأخذ بها، فقد قرّ قرارنا ولن نرضى بها أبداً. والآن، ليعلم ماردونيوس أننا نحن الأثينيين لن نصالح أحشويرش ما دامت الشمس تجري في مجراها. بل إننا سوف نتصدى له بلا هوادة، واثقين من عون الآلهة والأبطال الذين يكنُّ لهم الاحتقار، وهو الذي أحرق معابدهم وتماثيلهم. وإن غادرتنا اليوم فلا تعد إليها وأنت تحمل مثل هذا العرض ولا يخطرن لك ببال أنك تسدي إلينا جميلاً حين تطلب إلينا انتهاج مثل هذا النهج الشائن - ذلك أنه سيكون من دواعي الأسى أن تلقى من الأثينيين ما يسوءك، وأنت صديقنا وصاحب الجميل».

حسبنا ما روينا من رد الأثينيين على الإسكندر. أما جوابهم للأسبارطيين فكان التالي: «إنه لأمر تفرضه الطبيعة إن خشي اللاكيديمونيون احتمال المصالحة وفارس؛ ومع ذلك فإن هذه الخشية تنم عن ضعف تقدير لما تتحلى به أثينا من الروح. فاعلموا إذن أن ليس في العالم ما يكفي من الذهب أو الأرض لنرتضي لأنفسنا الانضمام إلى صف العدو المشترك واستعباد بلاد الإغريق. وما يحملنا على ذلك أسباب عديدة، ولو شئنا الانحياز للعدو وقبلنا بالعبودية: وأول الأسباب وأهمها هو إحراق المعابد وتماثيل آلهتنا - وقد تحولت الآن إلى خرائب ورماد. وإنه لواجب علينا، ولا محيص عنه، أن ننتقم ممن قام بانتهاك

المقدسات وتدنيسها بكل ما أوتينا من عزم وقوة ـ والواجب ينأى بنا عن أن نصافح اليد التي أتت بهذا الإثم. وهناك أمة الإغريق ـ هذا الجامع من الدم واللغة والمعابد والطقوس وعاداتنا المشتركة؛ فإن خانت أثينا هذا كله لما كانت جديرة بثناء. فاعلموا، إذن، إن كنتم لا تعلمون أننا لن نعقد صلحاً وأحشويرش ما دام هناك أثيني واحد على قيد الحياة. على أننا تأثرنا لما أبديتم من اللطف والغيرة، وعرضكم النجدة لأسرنا في وقت المحنة هذه. وهذا نهاية الكرم؛ ولكننا نؤثر مع ذلك أن نتابع حياتنا على أفضل وجه دون إثقال عليكم. وها قد علمتم بما قرَّ عليه العزم فامضوا بجيشكم بأسرع ما يمكنكم من الوقت؛ فإن لم يجانبنا الصواب سنرى العدو يغزو أتيكا دون أن يمضي وقت طويل، بل إنه لسوف ينفذ أمره حالما يبلغه ردنا برفض مطالبه. وإذن فالأجدر أن نلاقيه في بويوتيا، قبل أن يتمكن من البروز لنا في أتيكا. ما إن قدمت أثنيا ردها حتى غادرها موفدو إسبارطة عائدين إلى بلدهم.

الكتاب التاسع[1]

كاالليوبي

خرج ماردونيوس، حالما عاد الإسكندر برد الأثينيين، وأسرع بالزحف إليهم من تساليه، وهو يجند الأقوام التي يمر بها في زحفه. وكانت الأسر البارزة في تساليه ثابتة على موقفها المعهود، بل زادت في الإلحاح على الفرس بالهجوم على أثينا، بقوة أعظم مما حُشد لها من قبل، حتى إن تأييدهم للفرس دفع ثوراكس اللاريسي لأن يخرج ليرافق أحشويرش أثناء انسحابه إلى آسيا؛وها هو الآن يحث ماردونيوس على الهجوم على بلاد الإغريق. أما في بويوتيا فقد سعى أهل طيبة لإقناع ماردونيوس ليعسكر بقواته عندهم، ويزينون له الإقامة في أرضهم التي لا تفضلها أرض أخرى وتقدم له كل عوامل الراحة، حسب قولهم، وأشاروا إليه ألا يمضي في مسيره أبعد من بلادهم، وأن يجعل من بويوتيا قاعدة له، ويعمل على أخذ بلاد الإغريق سلماً، بدون حرب. إذ إنه لن تستطيع أية قوة في العالم التغلب على الإغريق إن ظلوا على حالهم من الوحدة والتماسك. قالوا له أيضاً"إنك إن أخذت بنصيحتنا سَهُل عليك اكتسابهم إلى صفك وابعث إلى أهل المكانة فيهم بالهدايا، في مختلف الدول، فتضمن بذلك زرع الشقاق بينهم. وما بعد ذلك فالأمر يسير وستصبح بلاد الإغريق في متناول يديك بفضل ما ستلقاه من مؤازرة أصدقائك، فيغلب أمرك على المناوئين."

تلكم هي نصيحة أهل طيبة، إلا أن ماردونيوس لم يأخذ بها. فقد طغت رغبته باجتياح أثينا من جديد، بسبب من العناد والمكابرة، وهما متأصلان فيه ولرغبته بأن يخبر الملك في سارديس بأنه سيد المنطقة هناك وذلك عن طريق استخدام إشارات النار عبر الجزر. غير أنه لم يصادف أحداً من الأثينيين في طريقه حين دخل بلدهم ذلك أنهم قد أخلوها، إذ انسحب بعضهم إلى سفنهم، بينما اتجه

السواد الأعظم منهم إلى سلاميس - وما وجد في قبضته إلا مدينة مهجورة. ويكون بذلك قد مرت عشرة شهور على دخول الملك مدينة أثينا في حملته عليها. ولما استولى ماردونيوس على أثينا أوفد إلى سلاميس سفيراً يدعى مورخيديس، وكان من إغريق الهليسبونت، يجدد للأثينيين شروطه التي حملها إليهم الإسكندر من قبل. ولم يكن سبب هذه السفارة جهل ماردونيوس بما يضمر له الأثينيون من البغضاء؛ إنما حمله على ذلك أمل بأن يكونوا قدغيروا رأيهم حين رأوا أتيكا كلها تسقط في يده، فيقلعون عن المكابرة والعناد. وعلى هذا الأساس أوفد مورخيديس في هذه السفارة إلى سلاميس. وهناك سلم مجلس الأثينيين رسالة ماردونيوس. وكان في هذا المجلس رجل يدعى ليكيديس؛ فدعا هذا للتسليم بالشروط التي عرضها مورخيديس، باعتبارها أفضل ما يمكن للمجلس أن يطلع به، وإحالتها إلى اجتماع الشعب العام لإقرارها. ذلكم هو الرأي الذي خرج به ليكيديس. وسواء حمله على هذا القول رشوة تلقاها من ماردونيوس، أو كان مخلصاً في الرأي يعبر عما يجول في فكره، فإن أعضاء المجلس الآخرين والأثينيين في الخارج ساءهم ما سمعوا منه، وثارت حفيظتهم عليه، حتى بلغ بهم الغضب مبلغاً جعلهم يهاجمونه بالحجارة فقتل الرجل رجماً. غير أنهم سمحوا لمورخيديس، بالمقابل، بالمغادرة دون أن يلحقوا به أذى. ولقد بلغ الهياج بالأثينيات، حين بلغهن النبأ، أن تنادين دون علم أزواجهن، وحملت كل واحدة جارتها على المسير وسط الحشد العظيم، حتى بلغن بيت ليكيديس، فطوقنه، وحاصرن زوجه وأطفاله ورجموهن بالحجارة حتى الموت.

أما الظروف التي حملت الأثينيين على اللجوء إلى سلاميس، فهي أن القوم ظلوا مقيمين على أرضهم في أتيكا،آملين أن تصلهم نجدة قريبة من البيلوبونيز؛ غير أنه قد تبين لهم أن حلفاءهم مازالوا ملازمين أمكنتهم ولا يعتزمون التحرك نحوهم،بينما بلغهم الخبر بأن الفرس قد وصلوا إلى أرض بويوتيا،فاضطروا إلى المسير إلى سلاميس، حاملين معهم متاعهم وآخذين معهم ماشيتهم، بعد أن

أرسلوا إلى اللاكيديمونيين يلومون أهل إسبارطة لتركهم الأعداء يغزون أتيكا، بدلاً من الزحف ومهاجمة الأعداء في بويوتيا، مذكرين،لهم، بعروض الفرس بالمكافأة، لكسبهم إلى صفهم، محذرين بأنهم سيلجؤون للعرافة لطلب النصيحة فيما يجب عمله لإنقاذ أنفسهم من هذا الوضع. والحق أن هذا الأمر قد حدث واللاكيديمونيون منصرفون يومئذ إلى عيد هايكنثيا، ولم يكن ليخطر لهم ببال إلا أن يقوموا بالصلاة والتضرع للآلهة، وكانوا منشغلين، مع ذلك، ببناء سورهم على امتداد ممر أشموس (ممركورثنه)، وكان العمل فيه قد تقدم، وشرعوا في تشييد الشرفات والكوات للرماة في مراتبها العليا. ولما وصل وفد الأثينيين، يرافقه سفراء ميجارا وبلاتيا، قاصدين، بلاد اللاكيديمونيين، مثلوا أمام مجلس المشرفين أو النقباء (الإيفور)،وقالوا لهم: "لقد أوفدنا الأثينيون لنبين لكم - إن ملك الميديين (الفرس) يعرض علينا أن يعيد لنا أرضنا وحلفاً شريفاً معه، لا تشوبه شائبة، ولا يعتوره خداع أو غش. وهو على استعداد لأن يقدم لنا كذلك بلداً آخر، وينتظر منا أن نحدد له اسمه ليكون هديته لنا. ولكننا بسبب من تقديسنا لزيوس، إله الإغريق، ولاعتقادنا أنه من العار خيانة بلاد الإغريق، رفضنا العرض؛ مع أننا قد خُذلنا وتخلى عنا الإغريق الآخرون، وبالرغم من إدراكنا بأن لنا في السلم مع الفرس فائدة أعظم من إطالة هذه الحرب وإياهم. ومع ذلك فإننا لن نقبل، إذا كان لنا في الأمر خيار، بشروطهم. وهكذا تروننا ننأى في تعاملنا والإغريق عن مسالك الدناءة والغش؛ بينما أنتم، يا من تخشون الآن أن نعقد والعدو صلحاً، وقد خبرتم معدننا وتأكد لكم أننا لن نكون خونة لبلادنا - وبعدما شيدتم سوركم حول ممر اشموس(ممركورثنه)، وكاد يتم لكم إنجازه - تعرضون عنا وتهملون أمرنا. لقد تعاهدتم وإيانا على المضي للقاء الجيش الفارسي في بويوتيا، فإذا آن أوان الجد كان منكم أمر آخر، وأبديتم عدم الرغبة فيما كانت جموع البرابرة تتقدم في أتيكا. ولذلك وجدتم الأثينيين غاضبين منكم؛ ولهم كل الحق في أن يغضبوا ويحنقوا - فقد جانبتم الحق، ولم

تؤدوا ما كان عليه الاتفاق؛ ولذا فهم يناشدونكم الإسراع بتوجيه جيشكم إليهم لنتمكن ولو من مواجهة ماردونيوس في أتيكا قبل أن يستفحل الأمر. أما الآن وقد فقدنا بويوتيا، تبقى ثيريا أفضل مكان للقتال في بلادنا."

ولما انتهى الوفد من الحديث، والمجلس مصغ إليه ، أرجأ الحضور الرد إلى اليوم التالي، فلما كان الغد أرجؤوا ردهم إلى ما بعده، فإلى يوم آخر، ودام التأجيل هكذا من يوم إلى آخر طوال أسبوعين؛ والبيلوبونيز على انشغالهم وكدهم في بناء السور حتى كاد يكتمل. ولست أستطيع أن أعلل مسلك اللاكيديمونيين الذين أبدوا قلقهم عند مجيء الإسكندر إلى أثينا خوفاً من انضمام الأثينيين إلى الميديين حين لم يكن لهم السور عند ممر أشموس (ممركورنثه)، ثم أصبحوا الآن غير معنيين بالأثينيين سواء انضموا إلى الفرس أم لم ينضموا إليهم، بعدما قام السور فلم يعودوا بحاجة لهم الآن. ولكن السفراء نالوا الرد في نهاية المطاف، فسارت القوات من إسبارطة، في الظروف التي أنا مفصلها ههنا. فلقد صادف أن حضر اللقاء الأخير بمجلس الإيفور بعد يوم من حديث لهم مع أحد مواطني تيجيا يدعى خيلؤس، وكان أكثر الأجانب المقيمين في إسبارطة نفوذاً ، فحين علم بسفارة الأثينيين، خاطب المجلس قائلاً: "هاكم، الموقف، أيها المجلس، على حقيقته! إذا لم نكسب الأثينيين، واختاروا أن يتحالفوا مع البرابرة، فإن سورنا عند ممر اشموس(ممركورنثه) سيكون فيه من [الفجوات] ما يسمح للفرس باختراق البيلوبونيز. فأجيبوهم قبل أن يتبدل خاطرهم، ويكون خراب بلاد الإغريق."

تلكم كانت نصيحة خيلؤس، وقد أخذها المجلس بعين الاعتبار عند اتخاذ القرار،وأمر في تلك الليلة قوة من خمسة آلاف من الإسبارطيين، يصاحب كل واحد منهم سبعة من الأرقاء، وجعلوا على رأس الحملة باوسانياس بن كليومبروتوس وقد أعد هذا الجمع دون أن يخبر الإسبارطيون السفراء بما يحدث. وجدير بالذكر أن ملك إسبارطة الفعلي كان يومذاك بليستراخوس بن

ليونيداس، وقد تولى الحكم وهو طفل ولذا أصبح باوسانياس ابن عمه، والوصي عليه: أما باوسانياس، وهو كليومبرتوس بن أنا كساندريداس؛ فقد توفي بعيد عودة الجنود من ممر أشموس (ممركورثنه)، حيث كانوا مجندين في بناء السور وكان سبب عودته ما حدث من أعجوبة؛ إذ بينما كان يقدم قرباناً طلباً لنصح الآلهة إن كانت تشير عليه بالزحف على الفرس أم لا، فإذا بالنهار ينقلب إلى ليل فجأة وتغيب الشمس بعدما كانت في منتصف السماء . وكان في صحبته واحد من أهل بيته يدعى إيور يناكس بن دوريوس ليكون المساعد للجيش.

خرج الجيش، بقوات باوسانياس، من إسبارطة بينما كان السفراء يومئذ أمام مجلس النقباء (المشرفين) ، وهم لا يعلمون شيئاً من أمر مسيرة الجنود، ويتهيأون لمغادرة المدينة فور انتهاء المقابلة، ليعود كل منهم إلى بلده. وقد خاطب الوفد المجلس بالعبارات التالية: "اعلموا أيها اللاكيديمونيين أنكم إن ارتضيتم البقاء في بلدكم ، لتستمتعوا بعيد هايكينثيا، غير مبالين بمحنة حلفائكم الأثينيين، وقد أخطأتم بتصرفكم هذا تجاههم، وهم بلا حليف يشد أزرهم، سيعقدون صلحاً مع الفرس، بأفضل الشروط الممكنة. ولسوف تجدوننا حالما يتم الاتفاق نسير، وقد أصبحنا حلفاء الملك، حيثما يشاء لنا البرابرة أن نتوجه تحت قيادتهم. ثم لسوف تدركون بعد فوات الأوان عواقب هذا الأمر." فلما انتهى سفراء الأثينيين من خطبتهم، رد عليهم المجلس بما يلي: "لا ريب أن قواتنا قد بلغت في مسيرتها لمواجهة الغرباء ناحية أوريستيوم." وجدير بالذكر أن الإسبارطيين يقولون "الغرباء" عند الإشارة إلى "البرابرة". وهنا سألهم السفراء، وكانوا ما يزالون يجهلون حقيقة التطورات منذ مجيئهم، مستفسرين عن مقصدهم، فدهشوا حين علموا بحقيقة الأمر، وأسرعوا للحاق بالجيش الإسبارطي. وفيما كان السفراء يهرعون للقاء القوات الزاحفة، وجدنا إسبارطة قد هيأت خمسة آلاف جندي آخرين مدججين بالسلاح، وهم من صفوة القوات من المدن الأخرى، للمسير من إسبارطة بصحبة السفراء.

وهكذا أخذت تلك القوات تتسابق في الزحف إلى منطقة ممر أشموس(ممركورثنه). أما الآرجوس، وكانوا قد تعهدوا لماردونيوس باعتراض الإسبارطيين ومنعهم من اختراق حدودهم، فقد بعثوا بأسرع مراسل لديهم، حاملاً إلى ماردونيوس رسالة، فتسلمها وقد وصل لتوه من أثينا: "اعلم يا ماردونيوس أن الآرجوس قد أوفدوني لأخبركم بأن قوة ضاربة من اللاكيديمونيين في طريقها إليكم؛ ولا قبل لكم بردها. فاعملوا ما ترونه في ضوء ما علمتم." فلما بلغ الرسول رسالته قفل عائداً أدراجه إلى بلده. وأما ماردونيوس فإنه لم يعد ميالا بعد سماعه الرسالة للبقاء في أتيكا. فهو إن استمر في المرابطة في تلك البلاد فلرغبة منه بأن يتبين أي طريق سيسلكها الأثينيون، وإذا أبقى البلاد على حالها ولم يمسها بأذى، فأملاً منه بالوصول وأهلها إلى تفاهم. أما وقد عجز عن كسبهم إلى صفه، وبات الأمر واضحاً لديه، فقد وجد أن يسرع بالانسحاب، قبل وصول قوات باوسانياس إلى ممر أشموس(ممركورثنه). فقام قبل رحيله بإحراق أثينا، ولم يبق فيها حجراً على حجر، فصارت أسوارها ودورها ومعابدها وكل ما فيها أثراً بعد عين. وقد حمله على التخلي عن أتيكا، بعد، أنه وجد أرضها لا تصلح لحركة الفرسان، ولا منفذ له عند الهزيمة سوى أخدود ضيق يمكن لحفنة من الرجال أن يغلقوه عليه؛ فما رأى أمامه عندئذ سوى الانسحاب إلى طيبة، حيث يستطيع القتال في بلد الفروسية، ويستطيع الاطمئنان إلى أنه يقاتل في أرض صديقة، ومستنداً إلى مدينة صديقة بالجوار. ولقد كان على الطريق حين بلغه نبأ وصول وحدة إسبارطية من ألف رجل، غير تلك القوات التي يقودها باوسانياس، إلى نواحي ميجارا. وإذ لاح له عندئذ أنه يستطيع القضاء على هذه القوة، بادئ ذي بدء، حول مسيره فجأة، وتوجه إلى ميجارا، بينما تابع فرسانه زحفهم لاكتساح البلدات في الجوار. وكانت تلك أبعد منطقة يبلغها جيش فارسي غرباً، في أوروبا.

في غضون ذلك، كانت الأنباء تتوارد عن حشد قوات من الإغريق في منطقة ممر أشموس(ممركورثنه)، فاضطر للانسحاب ومغادرة أتيكا عن طريق ديكيليا. وكان أصحاب الشأن من البويوتيين قد بعثوا يستقدمون بعض الجيران من الأسوبيان، وقام هؤلاء بدور المرشدين للجيش، وهم الذين قادوه أولاً إلى سفينداله، ومن ثم إلى تانجارا، حيث عسكر ماردونيوس للراحة تلك الليلة؛ وقد قصد في اليوم التالي سكولس، فدخل بذلك أرض طيبة. فلما صار في تلك الأرض أخذ في قطع الأشجار فيها، بالرغم من أن أهل طيبة كانوا يناصرون الميديين (الفرس)؛ ولم يكن ذلك بسبب من عدائه لهم، وإنما لمقتضيات الحال وحاجته لها في بناء الاستحكامات لحماية قواته، ولتكون تلك المنطقة ملجأ له إذا ما اشتد القتال واضطر جيشه للهرب، إذا دارت المعركة على غير ما يشتهي. وكان جيشه منتشراً عند أسوبوس، ما بين إيرتريه على نهر هيسياي حتى أرض بلاتيا. غير أن السور لم يكن ليبلغ هذا المبلغ من الطول وإنما قصد أن يكون مربعاً طول ضلعه عشرة فرلنجات وحسب. وفيما كان البرابرة منهمكين في عملهم هذا جاءهم أحد مواطني طيبة، ويدعى اتيجينوس بن فرينون، داعياً ماردونيوس وخمسين من نبلاء الفرس، إلى وليمة فاخرة على شرفهم، في طيبة. ولقد لبى ماردونيوس الدعوة وحضرها معه المدعوّن كافة. وما تلا ذلك أخبرني به ثيرساندر الأورخميني، وكان من أبرز أعيان بلده، وقد حضر المأدبة بين المدعوين، ومنهم خمسون من أهل طيبة؛ وعلمت منه أنه لم يكن بين المدعوين من أهل البلاد والفرس فاصل، فجلسوا على الأرائك إلى جانب بعضهم بعضاً وقال أيضاً إن الفارسي الذي يشارك ثيرساندر التفت إليه بعد الانتهاء من الطعام، ومع دوران الشراب، فخاطبه بلسان الإغريق يسأله من أي مدينة هو. فلما أجابه بأنه من أهل اورخومينوس، قال له: قد شاركتني الطعام، وصببنا الشراب معاً، وإنه ليشق عليّ بعد هذا أن أغادرك دون أن أمهر هذه الصداقة بعلامة الثقة ـ فأصارحك بما يدور في فكري، فيكون لك تحذير مما هو آت، فتتدبر

أمرك وتلتمس الحذر وتأمن على نفسك. أترى هؤلاء الفرس الذين يجلسون معك، والجيش الذي يعسكر الآن عند ضفة النهر؟ إذن فاعلم أنه لن يكون إلا حين لترى قلة منهم قد نجوا مما ينتظرهم." وفيما كان الرجل يصغي لحديث صاحبه لمح دموعاً تنهمر من عينيه، فقال له وقد استولى عليه العجب: "أما كان يجدر بك أن تخبر ماردونيوس ورفاقه النبلاء من الفرس بما حدثتني به؟" فقاطعه الرجل: "يا صاحبي، ليس للإنسان أن يبدل فيما شاءه الإله. إن البشر لا يأخذون بالنذر مهما تكن عليه من الصدق. وكثيرون منا نحن الفرس يدركون الخطر الذي يتهددنا، لكن الضرورة تفرض علينا الانصياع لأمر قائدنا. والحق أن أعظم البلية أن من يملك المعرفة فاقد الحيلة في أمره." هذا ما أنبأني به ثيرساندر الأورخميني، وزاد بأنه نقل خبر ما دار بينه ومحدثه إلى جمع من أهل الشأن في البلد، قبل معركة بلاتيا.

فيما كان ماردونيوس في بويوتيا، فإن جميع الإغريق من المشايعين للفرس في ذلك الجزء من البلاد بعثوا قوات ترفد جيش ماردونيوس، وشاركوا في عدوانه على أثينا ـ ماعدا الفوكائيين.على الرغم من أنهم كانوا في السابق يبدون أشد الحرص على مصالح الفرس،ولكنهم كانوا مكرهين على ذلك، إلا أنه بعدما تجمعت القوات الفارسية في أرض طيبة. وبعد أيام قلائل من وصول الجيش الفارسي قدمت قوة قوامها ألف رجل من المشاة الفوكائيين المسلحين تسليحاً ثقيلاً بقيادة هيرموكيديس، وكان أحد الرجال المعروفين في قومه، وانضمت إلى قوات الفرس، واتخذت موقعها بعيداً عن بقية الجيش. وكان ذلك بأمر من ماردونيوس. وما إن نفذ الأمر حتى ظهرت قوة من الخيالة الفرس بكامل عتادها وللتو سرت شائعة بين القوات الإغريقية الموجودة في الجيش الفارسي عن اعتزام ماردونيوس مهاجمة الفوكائيين والقضاء عليهم، حتى وصلت إلى الفوكائيين. فخرج إليهم قائدهم هيرموكيديس ونادى بالقتال، وقال مخاطباً جنوده "أيها الرجال، أيها المواطنون، يا أبناء بلدي! لابد وأنكم ترون أن هؤلاء

الرجال يدبرون لنا مقتلة. وإني أرى أن هذا التدبير لفرية طلع بها التساليون. فإلى القتال! وأظهروا معدنكم! إنه لأجدر بنا أن نموت، ونحن ندافع عن أنفسنا، من أن نستسلم للذبح. فإن قتلنا لم ينسب إلينا، على الأقل، عار الاستكانة. ولنر هؤلاء أن من يريدون قتلهم رجال إغريق، وأنهم هم البرابرة الهمج."

طوق الخيالة الفرس الفرسان الفوكائيين وأسلحتهم موجهة إليهم. ولقد تطايرت عدة رماح. إلا أن الفوكائيين ثبتوا ورصوا صفوفهم، ولكن الفرس لم يواصلوا القتال وانسحبوا من مواقعهم ويحتمل أن ما حدث كان سببه التساليون الذين أوقعوا بين الفرس والفوكائيين ،، وأن الفرس تراجعوا حين وجدوا الفوكائيين يتأهبون للمقاومة وربما يتعرضون للهلاك والقتل فتكون النتيجة وخيمة، فجزعوا من أن يلتفتوا إليهم، فيكون نصيبهم ما يكرهون،لذا انسحب الفرس بأمر من ماردونيوس. أو لعل ماردونيوس هو الذي دبر هذا الأمر ليختبر شجاعة الفوكائيين. ومهما تكن الحقيقة، فإن ما حدث بعدئذ هو أن ماردونيوس بعث، بعد تراجع الفرسان، وفك الاشتباك، يطمئن الفوكائيين، فقال لهم: "قد برهنتم على شجاعتكم، ودحضتم ما كان يبلغني عنكم. وواجبكم اليوم أن تكونوا القدوة التي يحتذى بها وأما مغانم الحرب فنصيبكم منها لن يزيد عن نصيبي أو نصيب الملك." وهكذا كانت نهاية تلك الحادثة.

كان اللاكيديمونيين قد توقفوا عند ممر أشموس(ممركورثنه)، وهناك أقاموا معسكرهم. أما البيلوبونيزيون الآخرون الذين آثروا تلبية الواجب، فإن بعضهم لم يحسم أمره، إلا بعد أن رأى الإسبارطيين وهم يزحفون إلى أرض المعركة، وبعضهم الآخر حمله على ذلك إحساسهم بالخزي لتخلفهم عن هؤلاء، وعدم مشاركتهم في الحملة وكان أن غادرت جميع قوات البيلوبونيزيين ممر أشموس(ممركورثنه)، بعد أن قدمت القرابين ونالت شارة الفأل الحسن؛ ولما بلغت إليوسيس قدمت إيضاً القرابين ونالت بشائر الخير. ومن هناك تابعت هذه القوات تقدمها، ومعها الأثينيون، وقد قدموا عبر البر، من سلاميس. وفي

إيرتريه، بلغهم أن البرابرة (الفرس) مرابطون عند أسوبوس. فعمدوا عندئذ إلى احتلال سفوح جبل كيثارون، قبالة العدو. ولقد وجد ماردونيوس أن الإغريق لن ينزلوا إلى السهل، فأرسل فرسانه بقيادة ماسيستيوس، أو ماكيستيوس، كما يسميه الإغريق، ليقاتلهم في مواقعهم، وكان ماسيستيوس هذا من مقدمي الفرس وعرف بفرسه ذات اللجام المصنوع من الذهب وسواه من أشكال الزينة. ولقد تقدمت الفرسان للهجوم، في سرايا متلاحقة على مواقع الإغريق، مكبدة الإغريق في كل هجوم خسائر فادحة، مع تهديدهم واستفزازهم بوصفهم بأنهم نساء. وصادف أن الميجاريين كانوا الأكثر تعرضاً لضربات الخيالة الفرس،وأصبحوا تحت ضغط شديد، فأرسلوا إلى قادة التحالف، يخبرونهم بحالتهم الصعبة قائلين لهم: "إننا يا رفاق السلاح عاجزون عن الاستمرار، دون مؤازرتكم، إن في صد الفرسان الفرس وإن في الاحتفاظ بمواقعنا. وبالرغم من خسائرنا الفادحة ما زلنا صامدين، نقاوم متشبثين بموقعنا، مستبسلين في القتال، ولكن هذا الصمود لن يطول ما لم تهبوا لنجدتنا، ولسوف نخلي موقعنا بعد هذا." فقام باوسانياس عند تلقيه الرسالة بطلب المتطوعين لنجدة الميجاريين، فلم يستجب لندائه سوى الأثينيين؛ فشكلوا قوة من ثلاثمئة من نخبة المقاتلين، وعلى رأسهم أوليمبودوروس بن لامبون، وكان هؤلاء الوحيدين الذين قبلوا بإنجادهم، فمضوا في الزحف، ومعهم رماة السهام، إلى مواقع الخطر، ليقاتلوا نيابة عن القوات الإغريقية كافة في إريترية. وهناك دار القتال فترة، حتى أصيب حصان ماسيستيوس في جنبه، أثناء هجوم فرسان الفرس، على موقع الإغريق؛ وكان يتقدم الجميع في هذا الهجوم، إلى أن كانت إصابته واشتد عليه الألم مما جعله يشب ويرمي بفارسه عن ظهره. وكان أن انقض عليه الأثينيون، فأمسكوا بالحصان وقتلوا ماسيستيوس - ولم يكن الأمر يخلو من الصعوبة. فقد أبدى الرجل كل ضراوة في الدفاع عن نفسه، وقاتل مهاجميه قتال البواسل. والحق أن مهاجميه هؤلاء لم يتمكنوا منه عند وقوعه بسبب الدرع الذي كان يرتديه،

وهو مصنوع من صفائح الذهب، تحت ثوب من الصفيح الأحمر. ولقد ظل أولئك المهاجمون ينهالون بالضرب على درعه، دون جدوى، فرأى أحد الجنود هذا المشهد، وضعف حيلة المهاجمين فصوّب سهماً إلى إحدى عينيه، فسقط قتيلاً. وكان ذلك كله والفرسان منشغلون عن قائدهم، فلم ينتبهوا إلى سقوطه أو موته، إلا حين تهيأوا لشن هجوم جديد، وسعوا إليه ليحظوا بموافقته.

لم يضع الفرسان وقتاً، فبادروا للهجوم، حين أدركوا ما حدث، وأرادوا استعادة جثمان قائدهم، على الأقل. فلما رأى الأثينيون الفرس يستعدون لشن هجوم كاسح عليهم، صاحوا بالجيش يستنجدونه؛ وبينما المشاة ما زالوا يجدون في الطريق لمؤازرة رفاقهم، كان القتال مستمراً حول جثة ماسيستيوس. ولكن القوة الأثينية وجدت نفسها، في النهاية، قد غلبت على أمرها وانكسرت شوكتها، فسلمت الجثة كارهة، قبل أن تصل التعزيزات. فلما انضمت إليها القوات الأخرى بكامل قوتها، فقد فرسان العدو القدرة على الحفاظ على موقعهم. وكذلك فشلوا في الاحتفاظ بالجثة أيضاً، علاوة على خسارتهم للعديد من الرجال أثناء محاولتهم الاحتفاظ بها. فاضطروا للتراجع نحو ربع ميل أو نحو ذلك لدراسة وضعهم بعدما فقدوا قائدهم، فقرروا في النهاية إبلاغ ماردونيوس بتطورات الوضع. ولدى وصولهم إلى القيادة العامة حاملين معهم الأنباء، أظهر ماردونيوس والجيش بأكمله أعظم الحزن والأسى لمقتل ماسيستيوس، فقد كانت له مكانة سامية لدى الملك ورعيته لا يدانيها قائد آخر في جيش فارس، سوى ماردونيوس، فحلقوا شعرهم وقصوا أعراف جيادهم وبغالهم، وأخذوا بالعويل والنحيب حتى ضجت بويوتيا كلها بأصواتهم.

وفيما كان الفرس يعربون عن احترامهم لماسيستيوس على النحو المعهود فيهم، كانت معنويات الإغريق قد ارتفعت، بعد أن تم لهم كسر هجوم الفرسان الفرس وردهم على أعقابهم. فقاموا بوضع جثمان ماسيستيوس على عربة سارت على طول خطوط القتال، ليستعرضها المحاربون. والحق أنها كانت

جديرة بالمشاهدة فقد كان رجلاً فارع الطول وسيماً بهي الطلعة، فلا عجب إن أخذ الرجال يتركون مواقعهم لإلقاء نظرة عليه. هنا قرر الإغريق ترك المرتفعات والنزول إلى بلاطية، حيث الموقع أفضل لهم من البرية حول إريتريه، لتوفر المياه فيها ويقع معسكرهم الجديدبالقرب من نبع يدعى "جارجافيا". ثم بدأوا زحفهم، وتقدموا على طول منحدرات جبل كيثارون، من ناحية نهر هيسياي، وكان الجيش قد بلغ منطقة بلاتيا، وتوقفت جمهرة كتائب المدن المتحالفة قريباً من النبع. ومستقر البطل اندروكراتيس المقدس، في أرض منبسطة تخللتها بعض الهضاب هنا وهناك. ولقد نشأ خلاف حاد، أثناء تعيين مواقع الكتائب، عند خط القتال، وكان طرفاه قوات تيجيا والوحدات القادمة من أثينا، وسببه ادعاء كل منهما الحق في قيادة أحد الجناحين، وقد دعما ادعائهما بأمثلة عن خدمتهما المتميزة سواء في الماضي أم في الأحداث الحالية. وأخذ التيجيون يحتجون بقولهم: "لطالما كان لنا شرف السيطرة على هذا الموقع وليس لأحد من المتحالفين، ومازال في أيدينا منذ القدم وفي كل حملات البيلوبونيز بل منذ أن حاول الهيراكليد العودة بالقوة إلى البيلوبونيز بعد موت إيوريستيوس. دعونا نذكركم كيف حدث ذلك، وكيف كسبنا هذا الامتياز في تلك المناسبة: فعندما زحفنا برفقة الآخيين والأيونيين الذين كانوا يحتلون البيلوبونيز في ذلك الوقت، إلى ممر أشموس(ممركورنثه) لصد الغزاة، أعلن هيلوس أنه ليس من الضروري أن يجازف الجيشان بأرواح جنودهم في قتال شامل؛ واقترح أنه يكفي أن يختار جيش البيلوبونيز أحد أبطاله ليلاقيه في معركة فردية وفق شروط يتفق عليها فقبل البيلوبونيزيون العرض، وتعهدوا، إذا ما فاز هيلوس، أن يسمحوا لأسرة هيراكليد أن تحتفظ بحقوقها المعتادة منذ قديم الزمن، أما إذا انهزم فيتوجب عليهم الانسحاب بجيشهم، وألا يعودوا للاعتداء على البيلوبونيز طوال مائة سنة. وكان الرجل الذي وقع عليه الاختيار ليمثل الجيوش المتحالفة هو قائدنا وملكنا إخيموس بن إيروبوس بن فيجيوس، وكان قد تطوع، بدوره

للقيام بهذه المهمة؛ فاشتبك مع هيلوس وقتله، وتقديراً لهذا العمل، نلنا امتيازات مهمة بين البيلوبونيز، في ذلك الوقت، وما زلنا نتمتع بها إلى اليوم، وأبرزها حق قيادة أحد الجناحين في كل حملة تشنها جيوش البيلوبونيز. وبالطبع فإننا لا نضع أنفسنا في مواجهتكم، أنتم يا جنود إسبارطة، بل إننا لنمنحكم طواعية حق اختيار الجناح الذي تفضلونه؛ غير أننا على وفق حق الأقدمية نطالب بامتياز قيادة الجناح الآخر. إن لنا حقاً في موقع الشرف، بصرف النظر عن المآثر التي أتينا على ذكرها، يفوق ما للأثينيين - ولتذكروا، على سبيل المثال، الحروب المجيدة التي خضناها ضد إسبارطة نفسها، دون أن نذكر المدن الأخرى. ولهذا فإن الامتياز هذا يعود لنا وليس لهم. فهؤلاء القوم لا يملكون دليلاً ليأتونا به عن مآثر يمكن أن تقارن بمآثرنا إن قديماً أم حديثاً."

كان الجواب الذي بلغهم من الأثينيين: "إننا لمدركون تماماً أننا مجتمعون هنا لنقاتل البرابرة، وليس لإلقاء الخطب. ومع ذلك، وبما أن التيجيين قد أخذوا بالمفاخرة بشجاعتهم ومنافستنا، نحن الذين عرفنا بالشجاعة وأعمال البطولة عبر تاريخنا الطويل، فلن نمسك عن الإشارة إلى الأسس التي نستند إليها في ادعائنا بالصدارة على الأركاديين، واعتباره إرثنا الذي نفخر به، نحن الذين لطالما ميزنا أنفسنا على الدوام. أولاً، حين رفض الإغريق جميعاً توفير ملجأ لعشيرة الهيراكليد الذين يفتخر التيجيون بقتل زعيمهم في ممر أشموس(ممركورنثه)، وكانوا قد طلبوا من الإغريق المساعدة، أملاً منهم بالنجاة من العبودية للميسينيين فاستقبلناهم بيننا، وتمكنا بمساعدتهم من إسقاط ايريسثيوس المستبد، وخوض حملة مظفرة على سادة البيلوبونيز. ثانياً، عندما تركت جثث قتلى الآرجوس في العراء بعد هجومهم على طيبة وحاكمها بولينيسيس، فزحفنا لمواجهة الكادميين، واستعدنا الجثث، وقدمنا لهم مدفناً في أرضنا في إليوسيس. وثمة مأثرة تذكر بين مآثرنا وهي هجومنا على

الأمازونيات في حوض نهر ثيرمودون، بعد عدوانهم على أتيكا، وإبان الحوادث في طروادة - لم يكن رجالنا، بأي حال من الأحوال، دون سواهم. ولكن ما من فائدة ترجى من استعادة التاريخ القديم هذا؛ فمن اليسير لأمة عرفت بالشجاعة في ماضيها أن تغدو واهنة العزيمة، وأن تتحول أمة من الجبناء في الماضي لتصبح الآن أمة من الشجعان. ولهذا كفانا حديثاً عن إنجازاتنا الماضية. ولنفترض أنه لم تكن لنا سوى مأثرة واحدة هي معركة الماراثون - وإن كانت لنا في الواقع مآثر كثيرة لا تقل عن مآثر الإغريق الآخرين، ولم نكن دونهم فيها نبلاً وشهامة - وحتى إن لم يكن لنا سواها فإننا جديرون بهذا الامتياز، بل والعديد من الامتيازات الأخرى فوق هذا. فقد وقفنا بمفردنا في تلك الحرب، وحاربنا الفرس بمفردنا؛ بل خضنا مغامرة خطرة. إلا أننا تمكنا من هزيمة العدو، وقهرنا في ذلك اليوم ستاً وأربعين أمة! أفلا يكفي هذا الإنجاز حتى يكون لنا الحق في الحصول على هذا المنصب الذي نطالب به؟ ولكن بالرغم من ذلك، أيها اللاكيديمونيون، فإن التنازع على المناصب في وقت كهذا لأمر غير لائق، لذا فإننا مستعدون لأن نمتثل لأوامركم، ونتخذ مواقعنا في أي مكان من الصف ونواجه أي أمة تحددونها. ومهما يكن ذلك المكان، فسنحارب مثل الرجال الشجعان. حسبكم أن تصدروا الأمر وستجدوننا نطيعه فوراً".

لدى سماعهم هذا الجواب تعالت صيحات الرجال اللاكيديمونيين، كأنها صيحة رجل واحد، تعبر عن استحسانهم للأثينيين، وأنهم أفضل الرجال ويستحقون موقع الشرف أكثر من الأركاديين. وهكذا حصل الأثينيون على هذا الشرف على حساب التيجيين. وبعد أن تمت تسوية هذه المسألة، كان الجيش الإغريقي، الذي تألف بجزء منه من القوات الإغريقية التي قدمت أولاً إلى بلاتيا والتعزيزات الأخرى التي انضمت إليها لاحقاً، قد اصطف في ترتيب القتال كما يلي: الجناح الأيمن ويتألف من عشرة آلاف من اللاكيديمونيين ،منهم خمسة آلاف من الإسبارطيين يعمل على خدمتهم خمسة وثلاثون ألفاً من العبيد

المسلحين بالأسلحة الخفيفة - سبعة أرقاء لكل رجل - وقد أعطى الإسبارطيون الموقع المجاور لهم في الصف إلى التيج، وذلك لشجاعتهم ومكانتهم المرموقة، وهؤلاء جميعاً كانوا مدججين بالسلاح وتعدادهم ألف وخمسمائة رجل. ثم تلاهم في الترتيب الكورنثيون وعددهم خمسة آلاف رجل، وقد حصلوا على إذن من باوسانياس لاصطحاب ثلاثمائة رجل من ناحية بوتيدايه في بالينة، ليكونوا إلى جانبهم. ثم تلاهم ستمائة جندي أركادي من أورخمينوس ، وثلاثة آلاف من السيكيون، وثمانمائة من الابيداروسيين، وألف من الترويزونيين، ومئتان من الليبرانيين، وأربعمائة من الميسنانيين واليترينثيين وألف من الفيلياسيين، وثلاثمائة من الهيرمونيانيين، وستمائة من الإرتيريين والستريين، وأربعمائة من الخاليكيدونيين، وخمسمائة من الأمبراكيوتيين، ويأتي من بعد هؤلاء ثمانمئة من الليوكاديون والإمبراكيتوريون، ومئتا بالينى من سيفالينيا ،وخمسمئة من إيجينا ،وثلاثة آلاف من ميجارا ،وستمئة من البلاتيين وستمائة من بلاتيا وأخيراً جاء الأثينيون وعددهم ثمانية آلاف، وقد تولوا الجناح الأيسر للجيش بقيادة أرستيديس بن ليسيماخوس. وكان مجموع هذه القوات باستثناء العبيد السبعة الذين يقومون على رعاية كل إسبارطي من المشاة، ثمان وثلاثين ألف وسبعمائة رجل. علاوة على كتيبة المشاة المدججة بالأسلحة الثقيلة، كانت هناك قوة إضافية خفيفة التسليح تتألف من خمسة وثلاثين ألفاً من العبيد اصطفوا مع الإسبارطيين، يرعى سبعة منهم واحداً من الإسبارطيين المدججين بالسلاح. كذلك كان هناك أربعة وثلاثون ألفاً وخمسمائة آخرون يتبعون اللاكيديمونيين وبقية الإغريق، بمعدل مساعد واحد لكل جندي مسلح. وهكذا بلغ عدد الجنود الإضافيين ستةً وتسعين ألفاً وخمسمائة. فيكون عدد القوات الكلية للجيش الإغريقي في بلاتيا أقل من مائة وعشرة آلاف بألف وثمانمائة جندي، وقد سد هذا النقص الثيبيانيون الناجون، والذين بلغ عددهم ألفاً وثمانمئة رجل، وقد انضموا إلى الإغريق لكن كان ينقصهم السلاح.

وهذه هي قوة وتنظيم الجيش الإغريقي عندما اتخذ مواقعه عند نهر أسوبوس. أما جيش البرابرة بقيادة ماردوينوس، فبعد أن انتهى حدادهم على ماسيستيوس، وعلموا أن الإغريق أصبحوا في بلاتيا، تحركوا هم أيضاً باتجاه نهر أسوبوس الذي يجري في تلك البقاع. ولدى وصولهم رتب ماردونيوس جيشه على النسق التالي : الفرس في مواجهة اللاكيديمونيين؛ ولما كان الفرس يفوقون الإغريق عدداً، فقد جعلهم ماردونيوس في صفوف أكثر من المألوف، كذلك جعل خطوطهم طويلة بحيث يواجهون التيجيين أيضاً؛ وهنا حرص على انتقاء أفضل القوات لمواجهة اللاكيديمونيين، بينما جعل القوات الأضعف لتواجه التيجيين. و هذا التدبير الوقائي قد تم اتخاذه وفق اقتراح الطيبيين ونصيحتهم. وعلى ميمنة الفرس وضع ماردونيوس القوات الميدية في مواجهة الكورنثيين والبوتيدائيين والأورخمينوسيين والسيكيونيين وواجه الباكتيريون الإبيداروسيين والترويزونيين واللبرانيين والتيرينثيين والفيلياسيين وكان الهنود في مواجهة الهيرمونيانيين والإرتيريين والستريين والخاليكيدونيين وقابل الساكائيين قوات الأمبراكيوتيين الأناكتوريانيين والليوكاديين والباليئيين والإيجنتيين وأخيراً وضع ماردونيوس البويوتيئيين واللوكريانيين والماليانيين والتساليين إضافة إلى الألف رجل من الفوكيانيين في مواجهة القوات الأثينية والبلاتيه والميجارية. والجدير بالذكر أن الفوكيانيين لم ينضموا إلى الفرس؛ بل قام بعضهم بتنظيم أنفسهم في مجموعات بالقرب من جبل برناسوس، ومن هناك أخذوا بشن حملاتهم التي أدت إلى إقلاق ماردونيوس والإغريق الذين وقفوا بجانبه، وبذلك قدموا خدمة جليلة للقضية الإغريقية.كما قام ماردونيوس بوضع المقدونيين وعدد من القبائل الساكنة حول تساليه في مواجهة القوات الأثينية.

لقد اقتصرت هنا على ذكر أكثر قوات الشعوب والتي كانت مع ماردونيوس في هذه الموقعة؛ ولكن تواجدت معه بعض القوات التي تنتمي إلى شعوب مختلفة

ومنهم الفريجيون والتراقيون والميسيانيون والبايونيون بالإضافة إلى الأثيوبيين والمصريين، وهؤلاء ينتمون إلى الهرموتيبيين والكلاسيريين وهم وحدهم الرجال المقاتلون في مصر، وسلاحهم السيف. وكانوا يخدمون في أسطول أحشويرش في السابق، لكن ماردونيوس أنزلهم إلى الشاطئ قبل مغادرة فاليروم. ولم يكن هناك أي قوات مصرية في قوات المشاة الذين سار بهم أحشويرش إلى أثينا. وكان عدد القوات المتبربرة التي خدمت في جيش ماردونيوس قد بلغت الثلاثمئة ألف كما سبق القول؛ إلا أننا لا نعرف عدد الإغريق الذين كانوا في خدمته، إذ لم يجر إحصاء لهم قط. ولكني أعتقد شخصياً أنهم كانوا يبلغون الخمسمئة ألف. وكانت جميع القوات التي كنت قد أتيت على ذكرها وتم تنظيمها في صفوف القتال من جنود المشاة؛ وكان الفرسان يؤلفون وحدة مستقلة.

بعد أن انتهى ماردونيوس من تنظيم جيشه، واتخذت القوات مواقعها، باشر الجيشان في اليوم التالي بتقديم القرابين. وكان تيسامينوس بن أنطيوخوس عراف الجيش الإغريقي هو الذي قدّم القرابين للإغريق. وهو مواطن من إليان وينتمي إلى أسرة كليتياد المتفرعة من إيامـيدي، لكن اللاكيديمونيين تبنوه وجعلوه واحداً منهم، وذلك بسبب الظروف التالية: فقد ذهب تيامينوس إلى دلفي لاستشارة العرافة في عدم حصوله على أبناء، فأجابته العرافة أنه مقدر له أن يفوز في أعظم خمس مباريات. وبسبب عدم فهمه لمغزى النبوءة أخذ يتدرب على الألعاب الرياضية معتقداً أنها ذلك النوع من المباريات الذي عنته العرافة، وكاد بالفعل أن يفوز على هيرونيموس الأندروسي في مباريات الخماسي الأولمبية لولا فشله في الفوز في مباراة واحدة. إلا أن اللاكيديمونيين أدركوا أن كلمة "مباراة" التي أشارت إليها النبوءة لم تكن تعني الرياضة وإنما الحرب، وقد حاولوا استمالته للمشاركة مع ملوك الهيراكليد في قيادة الحملات. فلما رأى شدة لهفة الإسبارطيين على نيل دعمه، عمل على رفع ثمنه نتيجة لذلك، مبيناً أنه سيقوم بما يطلبون منه، مقابل منحة شهادة المواطنة في إسبارطة، مع كامل الحقوق

المدنيـة، وإلا فـهو زاهد بكل عروضـهم. فـأثار هذا المطلب سـخط الإسـبـارطيين وكفّوا عن طلب خدمـاته؛ إلا أنهم بعـد ذلك، وتحت وطـأة خطر الغزو الفـارسي عادوا يسعون إلى خدماته، ووافقوا على شروطه. إلا أن تيسامينوس حينما وجد أنهم قد وافقوا على شروطه، أعلن أنه لم يعد قانعاً بالشروط الأصلية، بل يجب عليهم جعل أخيه هاجياس أيضـاً مـواطناً في إسـبارطة يتمـتع بذات الحقـوق. وتيسامينوس بمطلبه يشابه ميلامبوس - إذا كان للمرء أن يقارن طلب المواطنة بالعرش. إذ طلب ميلامبوس بنصف المملكة يوم أحضره الآرجوسيون من بيلوس ليعالج نسـاءهـم ويشـفيهن من مرض الجنون الذي أصـابهن. ولكن الآرجـوسـيين شق عليهم دفع هذا الثمن الباهظ، فأشاحوا عنه. ولكن عندما تفشى المرض بين النسـاء وجدوا أنفسهم مكرهين على القبول بشروطه، فسلموا بمطالبه. فلما رأى ذلك ازداد في المطالب، واشترط أن يعطي أخوه بياس ثلث المملكة إضافة إلى ما طلبه هو. ولقد اضطر الآرجوسـيون الذين كانوا في ضـيق وغم شديدين للقبـول بهذا الشرط أيضاً. كذلك كان الأمر مع الإسبارطيين - فقد كانوا بحـاجة مـاسة لتيسامينوس فسلموا لـه بكل ما طلب. وكانت النتيجـة أنه بعد أن أصبح مواطناً إسبـارطياً، أعـان الإسـبـارطيين بفوزه بخـمس مبـاريات على درجـة كبيـرة من الأهميةمع العلم أن تيسـامينوس وأخـاه الوحيدان بين الأجانب اللذان استطاعا الحـصـول على المواطنة الإسـبـارطيـة والحـروب التي أعـانهم فـيـهـا هـي: الأولى، معركة بلاطيـة والثانية، معـركة تيجيا ضـد التيـجيين والآرجـوسـيين والثـالثه، المعركة التي جرت في ديبابيس ضـد الأركاديين باستثناء مانتينا. والرابعة، ضد الميسـيينيين في ممر أشـمـوس(ممر كـورثه). والخـامـسـة كانت ضـد الأثينيين والآرجـوسـيين في تاناجـرا وهـي آخـر المعـارك وقـد أحـضـر الإسـبـارطيـون تيسـامينوس هـذا إلى منطقة بلاتيا ليكون عرّافـاً في خدمـة الإغريق وقد جـاءت البشائر بالخير إذا مـا اعتمد الإغريق على الدفـاع، بينما لم تعد بالخير لهـم إن هـم بدأوا المعركة أو أنهـم عبروا نهر أسـوبوس.

كذلك كان الحال مع ماردونيوس، فكانت النبوءة تبشره بالخير إن هو لم يبدأ المعركة و تنذره بالشر إن غلب عليه تلهفه وقام بالهجوم. وقد توسل هذا بالطقوس التي يعتمدها الإغريق في تقديم القرابين لينال البشائر ويطمئن للطالع، وكان عرافه يدعى هيجيستسراتوس الإلليني، وهو أشهر أفراد عشيرة التيلياد. وقد سبق أن اعتقله الإسبارطيون لإلحاقه الضرر بهم أكثر من مرّة، وزجوا به في السجن، وحكموا عليه بالموت. ولما أدرك أن حياته لن تنتهي بالموت فحسب، بل سيعاني من التعذيب أيضاً قبل أن يموت. فأتى عندئذ بضرب من الشجاعة لا يملك المرء إلا أن يعطيه حقه من الوصف. وكان مطروحاً على الأرض وقد وضعت إحدى قدميه في أداة التعذيب ـ فاستطاع الحصول على سكين تم تهريبها له بطريقة ما، واستطاع بذلك أن يجد وسيلة للهرب، وكان ذلك آية من آيات الشجاعة، إذ عمد إلى بتر جزء من قدمه بعد أن قدر بدقة مقدار ما يجب التخلص منه حتى يتمكن من تحرير نفسه. ثم قام بفتح ثغرة في الجدار، وتسلل هارباً من السجن المحروس إلى تيجيا، وكان يسير في الليل، وينام في النهار في الغابات مختفياً عن العيون. ولقد خرج اللاكيديمونيون في قوة كبيرة للبحث عنه، لكنه تمكن من الفرار منهم ووصل إلى تيجيا بعد ثلاث ليال من مغادرته السجن. ولقد دهش حراسه لجرأته، حين شاهدوا نصف قدمه مرمية بالقرب من أداة التعذيب، دون أن يعثروا عليه. وهكذا استطاع هيجيستستراتوس الفرار من أيدي معتقليه. ونجح بالوصول إلى تيجيا، وكانت يومئذ على خلاف مع إسبارطة. وعندما التأمت جراحه اصطنع لنفسه قدماً خشبية، وأخذ يجاهر علناً بعدائه للإسبارطيين. ولقد أورده هذا العداء موارد التهلكة، في نهاية المطاف، إذ تمكنوا منه بعد معركة بلاطية، وهو يؤدي وظائف العراف في زاكينثوس، فقتلوه. أما في هذه المناسبة، فإن الرجل كان في صحبة ماردونيوس عند نهر أسوبوس؛ ولم يكن مرتبه بالقليل، فأقبل على أداء الطقوس بحماس عظيم ـ يحفزه على ذلك كراهيته للإسبارطيين من ناحية وارتزاقه من

ناحية أخرى.

في هذا الوقت، كانت قوات الإغريق تتزايد باستمرار وتدفق الرجال لا ينقطع، يضاف إلى هذا سوء النذر للفرس وحلفائهم من الإغريق (وكان لديهم عرافهم الخاص هيبوماخوس اللوكادي) إذا ما بادروا بالهجوم، فأشار أحد رجال طيبة ويدعى تيماجنيدس بن هربيس على ماردونيوس بمراقبة الممرات عند جبل كيثيرون، فتمكن من قتل العدد الكبير من الرجال الذي كانوا يتدفقون يومياً عبر هذه الممرات، للانضمام إلى الجيش الإغريقي. وقد عرض الرجل اقتراحه بعد ثمانية أيام من اتخاذ الجيشين مواقعهما في ساحة القتال في مواجهة بعضهما بعضاً. فوقعت الفكرة عند ماردونيوس وقعاً حسناً، فأرسل فرسانه في ذلك المساء إلى الممر في أعلى جبل كيثيرون والذي يقود إلى بلاتيا - أي الممر الذي يطلق عليه البويوتيون اسم "الرؤوس الثلاثة"، على الرغم من أن الأثينيين يسمونه "رؤوس البلوط". ولم تذهب هذه الحركة سدى؛ فقد تمكنوا من الإمساك بقافلة من مائة بغل تحمل المؤن للجيش قادمة من ناحية البيلوبونيز، بينما كانت للتو داخلة سهل بلاطية. فلم يظهر الخيالة الفرس أية رحمة، بل عملوا قتلاً في الدواب والرجال دونما تمييز، حتى بلغ بهم الإنهاك منتهاه، فتوقفوا عن الإجهاز على البقية وعادوا بهم إلى ماردونيوس.

مضى يومان آخران دون وقوع أي اشتباك بين الفريقين. إذ لم يكن أي من الطرفين على استعداد للبدء بالمعركة الشاملة. وكان الفرس قد استفزوا القوات الإغريقية ليدفعوها للقيام بالهجوم، وذلك بالتقدم مباشرة إلى النهر لكن لم يتجرأ أي منهم على عبوره فعلاً. ومع ذلك، فإن فرسان ماردونيوس ألحقوا الأذى بالقوات الإغريقية بالهجوم عليهم على نحو متكرر، وكان ذلك لأن رجال طيبة - أصدقاء الفرس الأوفياء الذين كانوا يرغبون في الحرب بشدة، قاموا المرة تلو الأخرى بإرشاد الفرسان وقيادتهم للاقتراب من الإغريق ليصبحوا في متناول أسلحتهم، وكان هذا حينما تولى الفرس والميديون زمام الأمور وبدأوا

باستعراض قوتهم.

إبان الأيام العشرة هذه لم يحدث سوى تلك المناوشات والحوادث . ولبث الجيشان قبالة بعضهما بعضاً دون أن يقوما بأي تحرك، وكانت القوات الإغريقية تتزايد أعدادها باستمرار طوال تلك الفترة. وفي اليوم الحادي عشر ضاق ماردونيوس ذرعاً بحالة الركود تلك التي طالت، فقام بالتشاور مع أرطبازوس بن فارناسيس ـ الذي يوليه أحشويرش أعلى اعتبار. وفي النقاش الذي دار بينهما ألح أرطبازوس على أن أفضل ما يمكن القيام به أن يهجروا موقعهم الحالي فوراً، وينقلوا الجيش بأكمله إلى تحصيناتهم في طيبة، حيث تتوفر لديهم كميات كبيرة من الذهب المسكوك على شكل نقود وغير المسكوك، بالإضافة إلى الكثير من الفضة وأواني الشراب، والتي ستمكنهم من تحقيق هدفهم بسهولة في السيطرة على بلاد الإغريق دون قتال. وذلك بإغداق الهدايا على الإغريق ـ وبالأخص المتنفذين منهم في مختلف المدن. وأن هذا من شأنه أن يحملهم قريباً على التخلي عن حريتهم. لذلك فمن الخطأ المخاطرة بخوض معركة أخرى. وكان هذا الرأي متفقاً مع ما سبق للطيبيين أن اقترحوه، وهذا ما جعلهم يعتقدون أن أرطبازوس يتمتع بحكمة لا مثيل لها. إلا أن ماردونيوس لم يوافق على هذه المقترحات مطلقاً، واستخدم لغة أكثر تصلباً بكثير، ورأى أنه لما كان الجيش الفارسي أقوى من الجيش الإغريقي فإن السياسة المناسبة الواجب اتباعها هي الإسراع في الهجوم وخوض المعركة، وعدم السماح لقوات الإغريق بالتزايد أكثر من ذلك؛ أما بالنسبة إلى هيجيسيستراتوس وقرابينه فالأفضل تجاهلهما ـ وإسقاطهما من الاعتبار بالتأكيد ـ وخوض المعركة وفق الطريقة الفارسية التقليدية. فتم تنفيذ ما اقترحه ماردونيوس دون أية معارضة، ذلك أن أحشويرش كان قد سلم القيادة لماردونيوس وليس لأرطبازوس. فأرسل في طلب قادة الفرق التابعة له والقادة الإغريق الذين كانوا في صفوف قواته، وسألهم إذا كانوا على معرفة بنبوءة تقول بدمار القوات الفارسية في بلاد الإغريق. فلم

يتفوه أي منهم ولو بكلمة واحدة؛ إذ إن بعضهم لم يكن على علم بالنبوءات، في حين أن من يعرفها فضل ألا يذكرها. فخاطبهم ماردونيوس قائلاً: "إما أنكم لستم على اطلاع على هذه النبوءات، أو أنكم تخشون التحدث عنها. حسنٌ، إنني أعلم إحداها، وسأرويها لكم. فالنبوءة تقول بأن الفرس سيأتون إلى بلاد الإغريق ويقومون بنهب معبد دلفي، فيهلكون ولا يبقى منهم سوى رجل واحد. ولما كنا نعرف ذلك فإننا سنتحاشى المعبد ولن نقوم بأي محاولة لنهبه ـ وهكذا نتجنب الهلاك. ولذلك بإمكانكم جميعاً، يا من تتمنون الخير لبلدكم، أن تبتهجوا لهذا وأن تكونوا على يقين تام بأنكم ستهزمون الإغريق." ثم أصدر أوامره للإعداد للحرب في اليوم التالي.

فالنبوءة التي تحدث عنها ماردونيوس، تشير في الواقع إلى الليديين وجيش إنخليس؛ و لكن ثمة أشعاراً لباكيس تشير في الحقيقة إلى هذه المعركة:

عند الثيرمودون والأسوبوس، حيث الحشائش ناعمة الملمس

يجتمع حشد الإغريق وتتحدث ألسن بلغات غريبة

ويهوي الجمع الغفير من الميديين المسلحين بالسيف حينما يأتي يوم النهاية.

وهذه الأشعار وأشعار أخرى مشابهة نظمها موسايوس إنما كانت تشير إلى الفرس. ونهر الثيرمودون يجري ما بين تاناجرا وجلياس.

بعد أن أنهى ماردونيوس حديثه حول النبوءة، وشجع قادته بالكلمات ذكرتها سابقاً، حل الظلام بعد ذلك واتخذ الحراس أماكنهم. ولما ران السكون على الجيشين، وبدا أن الجميع نيام، قام الإسكندر بن أمينتاس ملك المقدونيين وقائدهم، فامتطى فرسه وتوجه إلى نقطة حراسة القوات الأثينية وطلب السماح له بالتحدث إلى القادة المسؤولين. ولقد بقي معظم الحراس في مواقعهم في حين هرع بعضهم لإعلام قادتهم بأن رجلاً يمتطي جواداً قدم من الجيش الفارسي، ولم يقل سوى أنه يريد التحدث إلى الضباط المسؤولين الذين ذكر أسماءهم. فقام الأثينيون، على الفور، بمرافقة الحرس إلى موقعهم، والتقوا بالإسكندر

الذي خاطبهم قائلاً: "يا رجال أثينا، إنني أعول على شرفكم في أن تحافظوا على السر الذي سأطلعكم عليه، فلا تنقلوه إلى أي إنسان سوى باوسانياس، وإلا سيكون في ذلك دماري. وما كنت لأخاطر بالمجيء إلى هنا لولا حرصي على تحقيق ما فيه خير بلاد الإغريق - إذ إنني أتحدر منهم، ولا أرغب في رؤية بلاد الإغريق تستبدل حريتها بالعبودية. فأعيروني سمعكم: إن ماردونيوس وجيشه لم يحصلا على دلائل تبشر بالخير من قرابينهم، ولولا ذلك لكنتم تخوضون الحرب معهم منذ أمد طويل. لكن ماردونيوس قرر تجاهل هذه الأمور والهجوم عليكم في الفجر، لأنه، على ما أعتقد، يتلهف لمنع وصول تعزيزات أخرى لكم. فلتكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهته. أما إذا ما قرر تأجيل الهجوم فإن نصيحتي لكم أن تلازموا مواقعكم؛ إذ إن ما لديه من إمدادات لا يكفي سوى لبضعة أيام. وإذا ما استطعتم إنهاء الحرب لصالحكم فلتذكروني ولتقوموا بما يمكنني من استعادة حريتي، فمن أجل بلاد الإغريق جازفت بالمخاطرة بحياتي، لأطلعكم على ما يخبئه ماردونيوس لكم وأنقذكم من هجوم مفاجئ من قبل البرابرة. إنني الإسكندر ملك مقدونيا." بعد ذلك قفل الإسكندر عائداً إلى المعسكر وتابع المهام الموكلة إليه.

سارع القادة الأثينيون للقاء باوسانياس المتواجد على رأس الجناح الأيمن للجيش الإغريقي وقاموا بإخباره بما سمعوه للتو. فارتاع مما سمعه وقال لهم: "بما أننا سنكون في حالة حرب عند الفجر، فالأجدر بكم أيها الأثينيون أن تتخذوا مواقعكم في مواجهة الفرس، بينما نقوم نحن بمواجهة البويوتيين والإغريق الآخرين الذين يقفون أمامكم الآن. فلقد خبرتم في معركة ماراثون أساليب الفرس في القتال - في حين أننا لا نعلم عنها شيئاً. ولم يسبق لأي إسبارطي أن اشترك في معركة ضد القوات الفارسية - لكننا خبرنا جميعاً الأساليب القتالية للبويوتيين والتساليين. لذا أطلب إليكم أن تتحركوا على الفور وتستلموا الجناح الأيمن، وأن نأخذ نحن موقعكم في الجناح الأيسر." فأجاب

الأثينيون: "لقد خطر لنا منذ فترة - حينما وجدنا أن قطاعكم سيجابه الفرس - أن نقترح عليكم ما اقترحتموه الآن؛ لكننا خشينا إيذاء مشاعركم. وعلى أي حال، بما أنك ذكرته، فلقد قبلنا به، ولسوف نقوم بتحقيق ما طلبته منا."

بعدما حسمت المسألة بما يرضي الطرفين، ومع انبلاج أول خيوط الفجر، قامت كتائب الأثينيين والإسبارطيين بتبادل مواقعهم. لكن البويوتئيين اكتشفوا هذه التحركات وأعلموا ماردونيوس بها، فأمر بنقل القوات الفارسية على الفور إلى الجناح الآخر، بحيث تبقى في مواجهة الإسبارطيين. فقام باوسانياس - حينما وجد أن تحركه قد انكشف - بالعودة بقواته إلى الجناح الأيمن. لكن ماردونيوس حذا حذوه، بحيث أصبح الفرس والإسبارطيون للمرة الثانية في مواجهة بعضهما بعضاً كما كانوا في موقعهم الأول. عندئذ أرسل ماردونيوس رسولاً إلى الإسبارطيين محملاً برسالة مفادها: "يا رجال اللاكيديمونيين، يبدو أن جميع الرجال المتواجدين هنا يقدرون شجاعتكم عالياً. والكل معجب بكم لأنكم لا تتقهقرون في أية معركة ولا تتركون مواقعكم إطلاقاً؛ بل تثبتون فيها، كما يقال، حتى الموت - سواء كان موت أعدائكم أم موتكم أنتم. ولكن اتضح أن ذلك كله ليس له نصيب من الصحة؛ فها أنتم الآن تفرون بعيداً وتتخلون عن مواقعكم، والمعركة لم تبدأ بعد، حتى ولم يتم إطلاق رمح واحد، وتسلمون الموقع الخطر للأثينيين، وتختارون أن تواجهوا رجالاً ليسوا سوى عبيد لنا. إن هذا، بأي حال من الأحوال، ليس من أفعال الرجال الشجعان؛ وفي الحقيقة إننا قد خدعنا بكم كثيراً، وما تتمتعون به من شهرة حملتنا على الاعتقاد بأنكم ستتحدوننا، وذلك في تلهفكم لجعل أنفسكم أنداداً للفرس فحسب. ومن الجائز أننا كنا سنقبل التحدي لو أنكم وجهتموه إلينا، إلا أن ذلك لم يحصل. بل عوضاً عنه وجدناكم تنسلون بعيداً عنا. حسن إذن، لما كنتم عازفين عن تحدينا، فسنقوم نحن بتوجيه التحدي لكم: لم لا نجعل القتال بين أعداد متماثلة من كلا الطرفين، وأن يكون بينكم وبيننا؛ أنتم (الذين يفترض أنكم أشجع الرجال)

باعتباركم أبطال الإغريق، ونحن باعتبارنا أبطال آسيا؟ وإذا ما شاء البقية أن يجربوا، فليكن بعد أن ينتهي القتال فيما بيننا. وإلا فلنسوي الأمر بيننا، ولتعتبر المنتصر هو المنتصر في المعركة عن الجيش كله."

انتظر الرسول فترة من الزمن، بعد ما سلم هذه الرسالة للإسبارطيين؛ ولما لم يحصل على أي جواب، عاد أدراجه وأخبر ماردونيوس بما جرى، ففرح كثيراً وغمرته البهجة للنصر الفارغ الذي حققه مما دفعه إلى إصدار الأوامر للخيالة الفرس بالهجوم على الإغريق. كان الخيالة البرابرة يستخدمون القوس والرمح القصير، لذلك لم يكن من السهولة الالتحام بهم في قتال قريب. وما إن أصبحوا على مقربة من الإغريق حتى أمطروهم بوابل من السهام والرماح، وأنزلوا بهم إصابات شديدة، دون أن يلحق بهم أي أذى لتجنبهم القتال القريب. وفي الوقت ذاته، عملوا على إغلاق وتلويث مياه نبع جارجافيا الذي كانت القوات الإغريقية تشرب منه. والواقع أن اللاكيديمونيين وحدهم كانوا بالقرب من النبع، بينما بقية القوات كانت تبعد عنه مسافة أكبر، حسب موقعها من خط القتال، لكنهم جميعاً كانوا قريبين من نهر أسوبوس. إلا أن قذائف الخيالة الفرس التي انهالت عليهم منعتهم من الاستفادة من مياه النهر وأرغمتهم على اللجوء إلى النبع للحصول على الماء. ولقد دفعت هذه الظروف قادة الكتائب الإغريقية إلى التوجه إلى باوسانياس في الجناح الأيمن للتشاور بغية التوصل إلى حل لهذه المعضلات وغيرها. فعلاوة على تلك المشكلات التي أتينا على ذكرها والتي كانت شديدة التأثير، كان من شأن المعضلات الأخرى أن تزيد من بلواهم؛ فالطعام قد أخذ بالتناقص، والخدم الذين أرسلوا لجلب المؤن من البيلوبونيز اعترض طريقهم خيالة الفرس فلم يتمكنوا من العودة إليهم بالمؤن. وفي أثناء الاجتماع توصلوا إلى الاتفاق على تغيير مواقعهم والانتقال إلى الجزيرة، إذا ما مضى اليوم دون الاشتباك في معركة شاملة.

والجزيرة هي قطعة من الأرض تقع أمام بلاتيا و تبعد أكثر من عشرة

فرلنجات عن أسوبوس وجارجافيا حيث يعسكر الجيش الآن. وهذا المكان عبارة عن الجزيرة على اليابسة؛ إذ يوجد نهر يتفرع إلى قناتين بالقرب من منبعه في جبل كيثيرون، وفي السهل أسفل الجبل يتدفق في أقنية تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة ثلاثة فرلنجات، وفي مكان يقع ما وراء الجزيرة يلتقون ثانية ليشكلوا مجرى نهر واحد. واسم هذا النهر أويروي ويعرف محلياً باسم "ابنة أسوبوس"، وكان وراء اختيارهم للجزيرة موقعاً جديداً لقواتهم سببان: أولاً، توفر مصادر المياه الغزيرة. ثانياً، حمايتهم من خياله الفرس الذين لن يتمكنوا من إيذائهم. وكانت الخطة أن يقوموا بالتحرك ليلاً، أثناء نوبة الحراسة الثانية، للحيلولة دون انكشاف أمرهم لأعين العدو التي تترصدهم، وبذلك يتفادون المشكلات التي يمكن أن تصيبهم من فرسانه. علاوة على ذلك، اتفقوا على أنهم حالما يصلوا أرض الجزيرة الواقعة بين قناتي أويري الذي يتدفق منحدراً من منبعه في جبل كيثيرون، عليهم إرسال نصف الجيش أثناء الليل إلى الهضاب للإفراج عن قوافل الإمدادات التي توقفت هناك نتيجة هجمات خيالة الفرس.

بعد ما توصلوا لهذه القرارات، استمروا في تحملهم العناء الشديد طوال اليوم من هجمات خيالة الفرس ولم يحظوا بأي فترة من الراحة. وأخيراً، وفي المساء توقفت تلك الهجمات، وبعد أن حل الظلام وفي الوقت المتفق عليه للمغادرة، قام القسم الأعظم من القوات الإغريقية بالانتقال، لكن لم يكن في نيتهم التوجه إلى الجزيرة، وفق الخطة، بل على العكس تماماً، إذ ما إن تحركوا حتى فروا إلى بلاتيا، وهم سعداء جداً لنجاتهم من خيالة الفرس. وهناك توقفوا أمام معبد هيرا، الموجود خارج المدينة، على مسافة خمسة عشر فرلنجاً عن جارجافيا.

عندما رأى باوسانياس القوات تتحرك تاركة مواقعها الأصلية، أعطى أوامره لجنوده للرحيل عن المعسكر واللحاق بهم، اعتقاداً منه بأن من غادروا كانوا ذاهبين إلى الموقع المتفق عليه. ولقد أطاع جميع القادة أوامره سوى

أمومفياريتوس بن بولياداس قائد فوج البيتانت. لأنه رفض أن يهرب من وجه "الغرباء" لئلا يلحق العار ببلده، ولما لم يكن موجوداً في الاجتماع، ولا يعرف شيئاً عن مقرراته، فقد عبر عن دهشته البالغة وهو يرى هذه التحركات غير المتوقعة. ولقد جعل هذا باوسانياس وإيوريانكس ساخطين أشد السخط لرفضه الانصياع للأوامر. ومع ذلك، شعروا أن الأمر سيزداد سوءاً إذا ما ترك فوج بيتانت يجابه مصيره لوحده بسبب عناد قائده. إذ من المرجح بأن مصيره ورجاله سيكون الموت حين ينفذ بقية الجيش ما تم الاتفاق عليه. وهذا ما دفع إلى إبطال الأمر بالتحرك، وبذل باوسانياس وإيوريانكس كل ما في وسعهما لإقناع أمومفاريتوس بأنه على خطأ. وفي غضون ذلك، لم يتحرك الأثينيون من أماكنهم قيد أنملة، وذلك لمعرفتهم بعادة الإسبارطيين في إظهار عكس ما يبطنون. بل قاموا بإرسال رجل على صهوة جواد ليستكشف ما إذا كان الإسبارطيون ينوون الذهاب أم لا؟ وليستعلم من باوسانياس عن وجود أوامر جديدة. فوجد اللاكيديمونيين ما زالوا في موقعهم القديم، وهم يتجادلون بعنف؛ ذلك أنهم فشلوا في إقناع أمومفتاريتوس بأن بقاءه في مكانه بعد انسحاب الآخرين إنما يعرض حياة رجاله للخطر. وقد بدأوا الشجار لحظة وصول الموفد الأثيني. وفيما هم يتشاجرون بعنف، التقط أمومفتاريتوس حجراً بكلتا يديه ووضعه عند قدمي باوسانياس وهتف قائلاً: "تلك هي حصاة اقتراعي - وإنني أصوت ضد الفرار من وجه الأغراب!" فرد عليه باوسانياس بأنه أحمق ومجنون؛ ولما طرح الأثيني سؤاله، قال له أن يخبر الأثينيين بما يجري في صفوف الإسبارطيين، مضيفاً بأن على الأثينيين التقدم باتجاههم، وأن يسيروا على هدي الإسبارطيين في تحركهم. وهكذا عاد الرسول، وتابع الإسبارطيون خصامهم حتى فجر اليوم التالي.

ولما كان باوسانياس يعتقد بأن أمومفتاريتوس لن يبقى في الخلف إذا ما

انسحبت جميع قوات اللاكيديمونيين، وقد أصاب في ذلك، وهو ما أثبتته الأحداث. فإنه مع انبلاج نور الفجر، أصدر أوامره بالتراجع وزحف برجاله بعيداً مخلفاً وراءه البيتانت، وساروا عبر الهضاب وكان التيجيون برفقتهم وتبعهم الأثينيون بانتظام، إلا أنهم سلكوا طريقاً مختلفاً، ففي حين التزم الإسبارطيون بالمسالك في المرتفعات وسفوح جبل كيثيرون خوفاً من هجوم الخيالة الفرس، فإن الإثينيين اتخذوا الطريق الأسفل عبر السهول.

لم يصدق أومفاريتوس، أول الأمر، أن باوسانياس سيقدم على التخلي عنه، حينما ألح على ضرورة التمسك بمواقعهم؛ لكن بعد أن ابتعد باوسانياس ورجاله لم تعد لديه أية شكوك حيال الأمر؛ لقد تم التخلي عنه فعلاً. فأعطى الأوامر لفوجه بالمسير، وتبع بقية القوات الإسبارطية التي توقفت على بعد قرابة خمسة فرلنجات بالقرب من نهر مولويس و في مكان يدعى أرجيوبيوس، حيث يوجد معبد الربة ديميتر (كيريس) الإليوسية. وما دعاهم للتوقف أنهم شاؤوا إتاحة الفرصة لأومفاريتوس وفوجه للحاق بهم إذا ما أرادوا ذلك، أو نجدتهم إذا ما قرروا عدم التخلي عن مواقعهم. وما إن انضم أومفاريتوس إلى بقية القوات حتى بدأت هجمات الخيالة الفرس تزعجهم من جديد، ذلك أنهم كانوا عازمين على متابعة أساليبهم القديمة في إرهاق الإغريق بهجماتهم المتكررة، ولما وجدوهم قد غادروا الموقع الذي كانوا يحتلونه في الأيام القليلة الماضية، انطلقوا وراءهم، وحين اقتربوا من تلك الأرتال الطويلة للجنود المتراجعين هاجموهم بعنف.

عندما علم ماردونيوس أن الإغريق قد انسلوا تحت جناح الليل، ورأى بأم عينه أنه ما من أحد قد بقي في الموقع الذي كانوا يحتلونه، أرسل في طلب ثوراكس حاكم لاريسا وأخويه إوريبيلوس وثراسيديوس وخاطبهم قائلاً: "حسن، يا أبناء أليواس، ما قولكم الآن وقد رأيتم المكان مهجوراً؟ يا جيران اللاكيديمونيين، يا من اعتمدتم على الدوام أن تصفوهم بأنهم محاربون عظماء،

لا يهابون ولا يفرون! ولقد شاهدتموهم، بالأمس، وهم يحاولون مغادرة مواقعهم على خط القتال، أما الآن فمن الجلي أنهم قد لاذوا بالفرار تحت جنح الظلام، والحقيقة أنهم لما وجدوا أنفسهم في مواجهة قوات باسلة شديدة البأس، ظهروا على حقيقتهم أدعياء لا يتمتعون بأي صفة من الصفات التي تقال عنهم، وأن سمعتهم إنما اكتسبوها بين الإغريق ـ وهؤلاء لا يتمتعون بهذه الصفات كذلك. بإمكاني أن أجد لك العذر لمديحك هؤلاء الرجال: ذلك أنك لا تعلم شيئاً عن الفرس، بينما تلم ببعض ما قام به الإسبارطيون؛ لكن دهشتي كانت كبيرة من خوف أرطبازوس من اللاكيديمونيين، حينما سمح لخوفه بأن يوحي له بطرح هذا الاقتراح الشائن بالانسحاب الشامل واللجوء إلى تحصينات طيبة لنحتمي بها. ولسوف أحرص أشد الحرص على أن تبلغ تلك المقترحات مسامع الملك ـ إلا أنني سأهتم بهذا الأمر لاحقاً. فمهمتنا العاجلة هي ألا نسمح للإغريق أن ينجوا بفعلتهم: يجب اللحاق بهم ومعاقبتهم على الأذى الذي ألحقوه بنا."

وبعد أن قال هذا، أصدر أوامره بالتقدم، لملاقاة الإغريق. فعبر رجاله أسوبوس وضاعفوا سرعتهم للحاق بالقوات الإغريقية التي كان من المفترض بأنها تسير بأقصى سرعتها. وفي الواقع أن ماردونيوس كان يسعى وراء الإسبارطيين والتيجيين فحسب، ذلك أن الأثينيين سلكوا طريقاً مختلفة عبر السهول، فحجبتهم الهضاب عن أعين الفرس.

لما رأى قادة الفرق الأخرى في جيش ماردونيوس الوحدات الفارسية تبدأ في مطاردة الجيش الإغريقي، أعطوا أوامرهم على الفور لرفع الأعلام، وانضمت جميع القوات التابعة لهم في المطاردة بأقصى سرعة ممكنة. وهكذا اندفعوا إلى الأمام على نحو فوضوي، دون أن يحاولوا الحفاظ على النظام والانضباط العسكري، فمضوا وقد علت أصواتهم، وهم ينوون ابتلاع الفارين.

وفي غضون ذلك، أرسل باوسانياس أحد فرسانه إلى الأثينيين يطلب مساعدتهم لرد هجوم فرسان العدو، وحمله الرسالة التالية: "يا رجال أثينا، لقد

آن أوان الكفاح العظيم، هذا الكفاح الذي سيقرر حرية أو عبودية بلاد الإغريق؛ ومع ذلك فلقد فر أصدقاؤنا الليلة الماضية وغادروا ساحة القتال، وخانونا. لذلك فإن واجبنا أصبح جلياً: علينا الدفاع عن أنفسنا وحماية بعضنا بعضاً قدر المستطاع. فلو كنتم أنتم من تعرض لهجوم الفرسان لكان لزاماً علينا أن نأتي لمساعدتكم، برفقة التيجيين الأوفياء مثلنا للقضية الإغريقية. ولكن لما كان عبء الهجوم كله واقعاً علينا وليس عليكم، فمن واجبكم مساندتنا. أما إذا كان ثمة ما يحول دون قدومكم إلينا، فلترسلوا لنا رماة السهام، وسنكون لكم من الشاكرين. وإننا لنقر بأنه ما من أحد، طوال الحرب، قد ماثلكم في الحماس؛ ولهذا فإنني على يقين بأنكم لن ترفضوا مطلبنا هذا".

ما إن تلقى الأثينيون الرسالة حتى هبوا لنجدة الإسبارطيين، الذين كانوا بحاجة إلى الحصول على كل مساعدة ممكنة؛ لكن ما إن بدأوا بالتحرك حتى هاجمتهم القوات الإغريقية المتحالفة مع الفرس والتي كانت في مواجهتهم في ساحة القتال. وكان الهجوم عنيفاً، فاستحال على الأثينيين إرسال النجدات للإسبارطيين وهذا ترك اللاكيديمونيين والتيجيين - الذين لا يمكن لأي أمر أن يغريهم على ترك مواقعهم - ليقاتلوا جحافل قوات ماردونيوس، وقد بلغ عدد جنود اللاكيديمونيين خمسين ألفاً بما فيهم العناصر المساعدة، بينما بلغ عدد التيجيين ثلاثة آلاف.

وللمرة الثانية، قام الإسبارطيون بتقديم القرابين لتنبئهم عما إذا كان الاشتباك الوشيك مع ماردونيوس ورجاله يعد بالنصر. إلا أن النتائج لم تكن إيجابية؛ ولقد قتل العديد من رجالهم، وجرح منهم عدد أكبر، ذلك أن الفرس جعلوا من تروسهم حاجزاً وفر لهم الحماية، ومكنهم من إطلاق أعداد هائلة من السهام، مما جعل الإسبارطيين في شدة وضيق عظمين؛ ومما زاد في معاناتهم نتائج القرابين التي لم تبشر بالفلاح، فالتفت باوسانياس بوجهه نحو معبد هيرا وهو يبتهل طالباً مساعدتها ومتوسلاً إليها أن تمن على الإغريق بالانتصار.

وفيما كانت كلمات الأدعية ما تزال على شفتيه انطلق التيجيون إلى الأمام وقادوا الهجوم، وبعد لحظة أخذت القرابين تعد بالنصر، وهذا ما دفع الإسبارطيين إلى أن يتحركوا أيضاً إلى الأمام ويهجموا على الأعداء الذين توقفوا عن إطلاق السهام واستعدوا لملاقاتهم وجهاً لوجه.

جرى الصراع، بادئ ذي بدء، عند حاجز التروس؛ ثم بعد أن أنزلت التروس، التحم الطرفان في قتال شديد دام طويلاً، جرى بالقرب من معبد ديميتر. وقد اشتبك الفريقان بالأيدي وتمكن البرابرة من الاستيلاء على رماح الإغريق وكسرها؛ ذلك أن الفرس لم يكونوا أقل من الإغريق في الجرأة والروح القتالية: لكنهم كانوا بلا دروع تحميهم، ويفتقرون إلى التدريب، ودون الإغريق مهارة في استخدام السلاح. ولقد اندفعوا إلى الأمام وهاجموا الإسبارطيين فرادى أحياناً، وأحياناً في مجموعات قد تصل إلى عشرة رجال، وربما أقل أو أكثر، لكنهم لم يصمدوا أمام الإغريق فقضي عليهم.

ضغط الأعداء بقوة على الإغريق، ودارت معركة عنيفة حيث كان ماردونيوس يباشر القتال بنفسه على صهوة حصانه الأبيض يحيط به حراسه الألف وهم خيرة رجال الفرس وأشجعهم. وطوال بقاء ماردونيوس على قيد الحياة، صمدت هذه الجماعة وتمكنت من صد جميع الهجمات. واستمر أفرادها في القتال والدفاع عن أنفسهم فقتلوا العديد من اللاكيديمونيين. ولكن ما إن سقط ماردونيوس قتيلاً وأبيد حراسه وهم زهرة الجيش، حتى تعرضت بقية القوات إلى هزيمة قاسية على يد اللاكيديمونيين فلاذوا بالفرار. وفي اعتقادي أن السبب الرئيس في انكسارهم عدم ارتدائهم للدروع مما ألحق بهم أشد الأذى، في حين أن خصومهم كانوا مدججين بالسلاح والدروع.

لقد تحققت النبوءة، وثأر الإسبارطيون لمقتل ليونيداس بقتل ماردونيوس - كذلك فإن باوسانياس بن كليومبرتوس بن أناكساندريدس (لن أذكر سلسلة نسبه فأجداده هم أجداد ليونيداس أيضاً) قد حقق نصراً مجيداً فاق كل ما

نعرفه من انتصارات. وقد قتل ماردونيوس على يد أيمنيستوس وهو رجل ذائع الصيت في إسبارطة، التحق بالجيش الإغريقي بعد خروجهم من إسبارطةوقد قتل أيمنيستوس مع ثلاثمائة من رجاله على أيدي المسنيين في موقعة بالقرب من ستينيكليروس.

ما إن كسر اللاكيديمونيين شوكة الفرس حتى لاذ الفرس بالفرار وقد عمت الفوضى صفوفهم، والتجؤوا للتحصينات الخشبية التي شيدوها في منطقة طيبة. وما أثار لدي أعظم الدهشة، أنه بالرغم من وقوع المعركة قرب معبد ديميتر(كيريس)، فلقد خلت الأراضي التي تشكل الحرم المقدس للمعبد من جثث الجنود الفرس، في حين تكدست جثثهم على الأرض المحيطة بالمعبر والتي ليست ضمن حرمه المقدس. وإنني أرى - إذا كان للمرء أن يفكر في الأمور المقدسة - أن الربةجعلتهم بعيداً، لأنهم كانوا قد أحرقوا مقامها في إيليوسيس.

من المعروف أن أرطبازوس بن فرناسيس قد عارض ومنذ البداية، قرار أحشويرش بترك ماردونيوس وحيداً في بلاد الإغريق، وبذل ما بوسعه للحيلولة دون ذلك لكنه فشل. ولقد حاول أن يثني ماردونيوس عن خوض المعركة، فلم يتمكن من ذلك. ولم يكن راضياً عن تصرفات ماردونيوس، لذا فقام بتكوين قوة تأتمر بأمره قوامها أربعون ألف رجل؛ ولما كان على دراية تامة بما ستؤول إليه المعركة، فما إن بدأ الجيشان بالاقتتال، حتى قاد جنوده إلى الأمام بانتظام، وأعطاهم الأوامر ليتبعوه جميعاً وفق السرعة التي يحددها. وبعد أن أصدر أوامره هذه، تظاهر بأنه يقودهم إلى المعركة. إلا أنه عندما رأى الفرس يلوذون بالفرار، التف بقواته وقام بالانسحاب؛ ولم يلجأ إلى التحصينات في طيبة، بل قاد قواته إلى فوكيس مباشرة، ليتمكن من الوصول إلى الهليسبونت دونما تأخير.

أما الإغريق الموالون للملك فلم يثبتوا في المعركة، بل إن بعضهم لم يقاتل ما عدا البوييوتيين، الذين كان لهم تاريخ طويل من الصراع مع الأثنيين؛ أما

الطيبيون الملحقون بالميديين فقد أظهروا الكثير من الاندفاع والشجاعة، وقاتلوا بضراوة حتى أن ثلاثمائة من أشجع رجالهم قد سقطوا في ساحة المعركة على يد الأثينيين. لكن، في آخر المطاف، نزلت بهم هزيمة نكراء وفروا إلا أنهم لم يسيروا مع الفرس الهاربين، أو حشود حلفائهم الذين لم يشتركوا في المعركة وفروا دون أن يطلقوا سهماً واحداً - وإنما توجهوا إلى مدينة طيبة. ،

من الواضح أن ما جرى إنما يقع على عاتق الفرس البرابرة: إذ فر بقية جيش ماردونيوس لأنهم رأوا الفرس يتراجعون قبل أن يشتبكوا مع العدو. وانفرد الفرسان بكونهم الجزء الوحيد من جيش ماردونيوس الذي لم يُمنَ بهزيمة كبرى - وعلى الأخص فرسان البويوتيين: ولقد أدوا خدمات جليلة للاجئين من المشاة، إذ تقدموا نحو العدو، وقد أصبحوا على مقربة منه، فحموا اللاجئين بأن فصلوا بينهم وبين الإغريق.

إلا أن المنتصرين تابعوا مطاردتهم لفلول جيش الملك وأفنوهم. وإبان ذلك، وصلت أخبار المعركة وانتصارات باوسانياس، إلى الإغريق المعسكرين بالقرب من معبد هيرا ولم يكونوا بعد قد دخلوا المعركة. وما إن علموا الأمر حتى اندفعوا في هرج ومرج، فسلك الكورنثيون الطريق العليا عبر سفوح كيثيرون والهضاب، والتي توصل مباشرة إلى معبد ديميتر(كيريس)، بينما سلك الميجاريون والفيلياسيون الطريق المنخفض عبر السهل. وكان الأخيران على وشك الاشتباك مع العدو عندما لمحهما فرسان طيبة، وهم على مبعدة، ولما لاحظوا حالة الفوضى التي كانوا عليها، أرسلوا لمحاربتهم سرية من الخيالة بإمرة القائد أسوبودورس بن تيماندر الذي أبلى بلاء حسناً في هجومه، حتى أنه قتل منهم ستمائة رجل ولاحق البقية حتى أجبرهم على اللجوء إلى كيثيرون. وهكذا سقط أولئك الرجال أشنع سقوط.

كان الفرس والحشود المرافقة لهم الذين اتخذوا من التحصينات الخشبية ملجأ لهم، قد صعدوا إلى الأبراج قبل وصول اللاكيديمونيين، وقاموا على الفور

بتعزيز تحصيناتهم ما أمكنهم، ولما وصل اللاكيديمونيون وقع قتال عنيف عند الاستحكامات. وطوال الوقت الذي كان فيه الأثينيون بعيدين، تمكن البرابرة من صد الهجمات، فانتهت المعركة لصالحهم، فاللاكيديمونيون تنقصهم المهارة في الهجوم على الأماكن المسورة. ولكن عندما وصل الأثينيون ازداد الهجوم شراسة وعنفاً، وتعرض السور إلى هجوم أشد استمر طويلاً، حتى تمكنوا، أخيراً، بشجاعتهم ودأبهم من الوصول إلى أعلى السور، وفتحوا فيه ثغرة مكنتهم من الاستيلاء عليه. وكان التيجيون أول من دخل، فعملوا على نهب خيمة ماردونيوس، فغنموا الكثير وكان من بين الغنائم مزود أحصنته وهو من البرونز وآية من آيات الفن. فوهبوه إلى معبد أثينا آليا، بينما وضعت بقية الغنائم في المخزن الذي يحتفظ به الإغريق بكل ما يقومون بالاستيلاء عليه من غنائم الحرب وفور انهيار السور فقد الفرس التماسك في قواتهم؛ ونسي الجنود الأصول والتقاليد العسكرية، وعمت الفوضى واحتشد الآلاف في هذا المكان الضيق، وهم في رعب شديد، فكانوا فريسة سهلة للإغريق ولم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف رجل من قوات قوامها ثلاثمائة ألف رجل (باستثناء أربعين ألفاً انسحبوا مع أرطبازوس). وقد بلغت الخسائر بين صفوف الإسبارطيين واحداً وتسعين قتيلاً، بينما كانت خسائر التيجيين ستة عشر والأثينيين اثنين وخمسين قتيلاً.

وفيما يتعلق بالبرابرة كانت فرق المشاة أكثر استبسالاً في القتال؛ أما من بين فرق الخيالة فقد كان الساكاي هم الأفضل؛ ويقال إن ماردونيوس لم يكن يقلُّ استبسالاً عن أي من المقاتلين الآخرين. أما من الجانب الإغريقي فقد برز التيجيون والأثينيون وفاق اللاكيديمونيون الجميع. على الرغم من أن الثلاثة كانوا من أصحاب الصبر والثبات، ولكن المهمة الأصعب كانت ملقاة على عاتق اللاكيديمونيين، إذ كانوا يواجهون أفضل وحدات العدو وتغلبوا عليهم. وأحسب أن أريستاديموس كان أشجعهم - وهو رجل لحق به العار حين نجا وحده دون رفاقه الثلاثمائة الذين قتلوا في ثيرموبلاي، وتلاه الإسبارطيون الثلاثة وهم

فيلوكيون وبوسيدونيوس وأومفاريتوس، الذين حازوا أرفع ألقاب الشرف. لكن حين جرى الخوض، بعد الحرب، فيمن كان الأبرز بين المقاتلين رأى الإسبارطيون أن أريستاديموس إنما قام بمآثره العظيمة ليستعيد شرفه الضائع، متقدماً الصفوف بغضب الرجل المجنون، مدفوعاً برغبته في أن يقتل أمام أعين رفاقه؛ أما بوسيدونيوس، فعلى النقيض من ذلك، إذ حارب بشجاعة دون رغبة في أن يقتل، فحق له أن ينال لقب الامتياز. بالطبع، لربما كانت الغيرة هي التي دفعتهم لقول هذا؛ على أية حال، فإن جميع الرجال الذين أتيت على ذكرهم قد لاقوا تكريماً شعبياً، سوى أريستاديموس - فلم يحظ بأي نصيب من التكريم، لأنه إنما جازف بحياته للسبب الذي ذُكر إذن، كان هؤلاء هم الذين كسبوا لأنفسهم المجد في بلاتيا؛ ومن جهة ثانية كان كاليكراتيس قد قتل قبل احتدام القتال - وكان هذا أكثر الرجال وسامة في جيش الإغريق كله، ليس بين اللاكيديمونيين وحدهم وإنما بين الإغريق جميعاً، وبينما كان باوسانياس يقدم القرابين، جلس كاليكارتيس في مكانه، فأصيب بسهم في جنبه. ولما احتدم القتال بين الجيشين، حملوه خارج خط القتال، ومات حزيناً. وقد قال لأرمنتيوس البلاتي: "لست آسفاً على أن أموت في سبيل بلدي؛ إلا أن ما يثير فيَّ الأسى أنني لم أستخدم ذراعي، أو قمت بما يجدر بي، وما كنت أتمنى أن أقوم به".

يقال إن سوفانيس بن إيوتخيدس كان الأبرز بين الأثينيين، وهو من أقليم ديكليا، ففي الزمن القديم، قام أبناء هذا الأقليم بمأثرة قدرها الأثينيون عالياً، فعندما قام أبناء تينداريوس بغزو أتيكا على رأس جيش ضخم لاستعادة هيلين، وعجزوا عن العثور على مخبئها أحالوا القرية ركاماً وعسفوا بأهلها، فلما ضاق أهل ديكليا (ويقول بعضهم إنه ديكلوس ذاته) من طغيان ثيسيوس وعسفه وانتابهم الجزع على سلامة المنطقة الأثينية، كشفوا الأمر كله للغزاة وقادوهم إلى أفيدناي، حيث رضي تيتاكوس وهو من أهل المنطقة بالتعامل معهم. ولقد منح الإسبارطيون الديكلانيين، لقاء هذه الخدمة، حرية مدينتهم وخصوهم

بمناصب معينة ـ وهكذا بعد مضي سنوات على هذه الحوادث، وإبان الحرب بين إسبارطة وأثينا، لم يتعرض الإسبارطيون لديكليا بأذى أثناء إغاراتهم على أتيكا.

كانت تلك هي القرية التي ينتمي إليها سوفانيس،ومن القصص التي تروي شجاعته في معركة بلاطية: أنه كان يحمل مرساة حديدية شدها بإحكام إلى درعه بنطاق، فإذا اقترب من العدو رمى بالمرساة فلا يستطيع الحراك من مكانه عند هجوم العدو عليه. ومن ثم وبعد أن يتراجع العدو يعمد إلى فك المرساة عنه ويمضي إلى مطاردتهم، وقيل أيضاً إن المرساة ليست مرساة حقيقية، وإنما هي أداة تشبه المرساة كان يشدها إلى درعه، ويجعلها تدور على الدوام.

ومن مآثر سوفانيس التي اشتهر بها، أثناء حصار الأثينيين لإيجينا، تحديه لإيوريباتيس الأرجوسي الفائز في مباريات الخماسي وتمكن من قتله. وقد قدر لسوفانيس أن يلقى حتفه في معركة مع الأيدون على مناجم الذهب في داتوم، وهناك قام بخدمات جليلة بوصفه القائد الأثيني المشارك مع لياجروس بن جلاوكوس.

بعد الهزيمة النكراء التي تعرض لها الفرس في بلاطية، تمكنت امرأة من الفرار من الفرس إلى صفوف الإغريق. وكانت هذه محظية فرنداتيس بن تياسبيس؛ فلما علمت أن الفرس قد هزموا وأن الإغريق قد انتصروا في الحرب، ارتدت أفضل ما لديها هي ووصيفاتها، وغطت نفسها بمختلف الحلي الذهبية، وما إن نزلت من عربتها المغلقة حتى اتجهت نحو الإسبارطيين وسط القتل والذبح. وعندما رأت باوسانياس يصدر الأوامر؛ ، كما رأته يدير جميع العمليات ميزته من غيره. فهتفت وهي تمسك بركبتيه: "ناشدتك يا ملك إسبارطة أن تنقذني من العبودية التي تنتظر أسرى الحرب! إنني مدينة لك منذ الآن لخدمة كنت قد أسديتها لي ـ ألا وهي قتلك هؤلاء الرجال، الذين لا يحترمون آلهة ولا يقدرون ملائكة. إنني من أهالي كوس، وابنة هيجيتوريداس بن أنتاجوراس،

وقد كنت أسيرة لواحد من الفرس الذي أبقاني مرغمة لديه".

فأجابها باوسانياس: "اطمئني، وليهدأ روعك! فأنت آمنة، بعد ما توسلت إلي، إذا كنت حقاً ابنة هيجيتوريداس الكوسي، فبيننا صلات وصداقة، ليست لي مثلها مع أي شخص آخر في هذه المناطق". وبعد أن قال هذه الكلمات عهد برعايتها إلى بعض المشرفين أو النقباء(إيفور) الذين صادف تواجدهم هناك، ثم أرسلها إلى إيجينا حسب رغبتها.

بعيد الزيارة التي قامت بها هذه المرأة، وصلت القوات من مانتينيا إلى ساحة المعركة - بعد فوات الأوان. ولقد استولى عليهم السخط والغم حين وجدوا أن المعركة انتهت، وأعلنوا أنهم يستحقون العقاب لتأخرهم. ولما أخبرهم أحد الأشخاص بأن الفرقة الفارسية قد فرت مع أرطبازوس، صاحوا يدعون إلى متابعتهم ومطاردتهم إلى تساليه، لكن الإسبارطيين لم يسمحوا لهم بذلك، فقفلوا عائدين إلى أوطانهم. وهناك حكم على بعض قادتهم بالنفي. ثم وصلت قوات من إلين - فلم يجدوا أمامهم سوى العودة إلى الوطن، وبدورهم حكم على بعض قادتهم بالنفي أيضاً. لكن كفانا حديثاً عن هذه الأمم.

كان من بين من شارك في صفوف الإيجنتيين، في بلاتيا، رجل يدعى لامبون بن بيثياس. وهو رجل مرموق في بلده، ولقد قصد هذا الرجل باوسانياس ليحثه على القيام بأمر مشين، وخاطبه حين دخل عليه، بقوله: "يا بن كليومبروتوس، إن في الأعمال التي أديتموها نبلاً يفوق كل توقع، لقد اصطفاك الإله لإنقاذ بلاد الإغريق، وليكون لك مجد لم يبلغه أحد ممن نعرفهم من الإغريق. ولتتوج هذا كله، فيجب عليك أن تقوم بعمل، ليعلو به صيتك و هو أن تجعل الغرباء يحسبون خطواتهم مستقبلاً قبل أن يجرؤوا على إهانة الإغريق أو إيذائهم. فعندما قتل ليونيداس في ثيرموبيلاي قام أحشويرش وماردونيوس بقطع رأسه ووضعه على رأس رمح؛ فخذ بثأرك وعاملهم بالمثل، ولن يمتدحك كل إسبارطي وحسب، وإنما كل رجل في بلاد الإغريق. فضع جثة ماردونيوس على الخازوق، وبذلك تكون قد

ثأرت لعمك".

كان لامبون قد اعتقد صادقاً أن هذا الاقتراح سيكون مقبولاً؛ إلا أن باوسانياس رد قائلاً: "إنني شاكر لك، يا صديقي الإيجنتي، لطيب نواياك واهتمامك بصالحي؛ إلا أنك أخطأت التقدير، فلقد مدحتني وبلدي، إلى عنان السماء ، ثم بددت المديح هباء، باقتراحك أن أقدم على التمثيل بجثة رجل ميت، ويقولك إن شهرتي ستتنامى إذا ما قمت بعمل شنيع بالنسبة إلى البرابرة فكيف بالإغريق، - وهو عندنا مثير للاشمئزاز، كائناً من يكون الذي أتى به. ذلك أمر لا أحرص فيه على إرضاء الإيجنتيين، أو أي شخص آخر يوافق على عمل همجي كهذا. بل يكفيني إرضاء الإسبارطيين بالوقار والاحتشام قولاً وفعلاً. أما بالنسبة إلى ليونيداس الذي تريد مني الثأر له، فإن الثأر قد تحقق وزاد - فأعداد القتلى الهائل هنا ثمن كاف ليس لليونيداس فحسب، بل لجميع من قتل في ثيرموبيلاي أيضاً، فلا تعد إلي باقتراح كهذا مرة أخرى، ولتكن شاكراً لسماحي بأن تخرج دون عقاب". وخرج لامبون دون أن يتفوه بأي كلمة.

أصدر باوسانياس بأن يقوم عبيد إسبارطة بجمع كل ما هو ثمين مما غنموه في هذه المعركة، وألا يقوم غيرهم بذلك. فقام العبيد بتفتيش المعسكر بأكمله، فوجدوا العديد من الخيام الغنية بالأثاث المصنوع من الذهب والفضة. وجردوا جثث الموتى من الخلاخل والسلاسل والسيوف المعقوفة ذات المقابض الذهبية، ناهيك عن الملابس المطرزة والتي بدت غير ذات أهمية إذا ما قورنت مع تلك الكنوز التي غنموها. وقد أعلم العبيد مرؤوسيهم بكل ما عثروا عليه وما كان بوسعهم إخفاءه - وكان كثيراً جداً؛ إلا أنهم سرقوا الكثير وعملوا على بيعه لاحقاً إلى الإيجنتيين الذين اشتروا الذهب بسعر النحاس (الذي اعتقد العبيد بأنه السعر الحقيقي للذهب) فكان ذلك - أصل ثرائهم اللاحق.

بعد أن تم جرد جميع الغنائم، وضع عشرها جانباً ليقدم إلى إله معبد دلفي، ومنه صنع النصب الذهبي الثلاثي القوائم الواقع بجانب المذبح والقائم على

الأفعى البرونزية ذات الرؤوس الثلاثة. كذلك كان للآلهة في أولمبيا وممر اشموس(ممركورثنه) نصيب من المغانم، ومنها صنع تمثال للإله زيوس من البرونز، بلغ ارتفاعه خمسة عشر قدماً، و تمثال لبوسيدون بلغ ارتفاعه تسعة أقدام ونيف. أما بقية الغنائم ـ من نساء الفرس والدواب والذهب والفضة ..... الخ فقد تم اقتسامها بين الجنود، وحصل كل رجل على نصيبه. ولا يوجد سجل لجوائز خاصة بالذين برزوا في المعركة، وإن كنت أعتقد بأنه كانت هناك جوائز من هذا القبيل وكان نصيب باوسانياس العشر من كل شيء ـ نساء وخيولاً ونقوداً وغير ذلك.

ويقال إن أحشويرش كان قد ترك خيمته الحربية في عهدة ماردونيوس، لدى انسحابه من بلاد الإغريق. فلما وقعت عينا باوسانياس على هذه الخيمة، بستائرها المطرزة ذات الألوان المختلفة وزخارفها الرائعة المطرزة بالذهب والفضة، قام باستدعاء الخبازين والطهاة العاملين لدى ماردونيوس وطلب منهم إعداد وجبة طعام كالتي اعتادوا إعدادها لسيدهم السابق. فأطاعوا الأمر، ولما رأى باوسانياس الأرائك الذهبية والفضية الجميلة والموائد الذهبية والفضية، وقد أعد كل شيء للوليمة بفخامة لا عهد له بمثلها، لم يكن ليصدق عينيه لجمال الأشياء الموضوعة أمامه، ومن باب المزاح أمر خدمه بتحضير وجبة عشاء إسبارطية عادية.كان الفرق بين الوجبتين مدهشاً بالفعل، ولما غدت الوجبتان جاهزتين، ضحك باوسانياس وأرسل في طلب قادة الإغريق. وعند وصولهم دعاهم لإلقاء نظره على المائدتين وقال: "يا رجال الإغريق لقد استدعيتكم إلى هذا المكان لتروا مبلغ حماقة الفرس، الذين يعيشون في مثل هذا النمط من الحياة، ثم قدموا إلى بلاد الإغريق ليسرقونا نحن الفقراء".

ولقد ظل الناس في بلاتيا زمناً طويلة من الزمن يعثرون على صناديق مملوءة بالذهب والفضة وكنوز أخرى. كذلك ظهر شيء آخر مثير للاهتمام: فعندما أصبحت جثث قتلى الفرس هياكل عظمية، قام أهل بلاتيا بجمع هذه الهياكل

وعثروا من ضمنها على جمجمة خالية من أي مفصل، فكان العظم قطعة واحدة متصلة الأجزاء؛ كذلك عثر على فك الأسنان الأمامية والخلفية فيه ، مرتبطة بعضها ببعض، كما صادفوا هيكلاً عظمياً لرجل يزيد طوله على سبعة أقدام.

ولقد اختفت جثة ماردونيوس في اليوم التالي للمعركة، ولست أملك القول عن ثقة كيف اختفت. ولكني سمعت أن أناساً كثيرين من مختلف الأقوام اتفقوا على دفنه، وأن عدداً منهم كانوا قد تلقوا مكافآت مجزية على هذا العمل، إن الروايات كثيرة لكنها لا تشبع فضولاً، وما زلت أبحث عن يقين في أمر الجثة ودفنها. وقد بلغتني رواية ذهبت إلى أن رجلاً من إفسوس يدعى ديونيسوفانيس هو الذي قام بالدفن.

بعد اقتسام الغنائم باشر الإغريق في دفن موتاهم، في مدافن منفصلة، حسب الفرقة التي كانوا ينتمون إليها. وقد حفر اللاكيديمونيون ثلاثة مدافن ـ مدف أو للشباب ومن بينهم بوسيدونيوس وأمومفاريتوس وفيلوكيون وكاليكراتيس، وآخر لبقية الإسبارطيين، وثالث للعبيد. أما التيجيون فقد دفنوا موتاهم في قبر جماعي، كذلك دفن الأثينيون والميجاريون، والفلياسيون قتلاهم في قبور مشتركة.

وكما علمتُ أن ثمة قبوراً أخرى، غير هذه المدافن الحقيقية، وهي نصب في الواقع، تشاهد في بلاتيا، وأقيمت للمباهاة وحسب، فهي نصب خاوية وقد عملت على تشييدها الدول تحت وطأة الإحساس بالخزي والعار لأنها لم تشارك في المعركة، فأرادت أن تترك انطباعاً حسناً لدى الأجيال اللاحقة بإنشاء هذه النصب. وهناك ضريح يحمل اسم الإيجنتين، قيل لي إنه تم تشييده بعد عشر سنوات، على يدي كليانيس بن أوتوديكوس البلاتي بطلب من الإيجنتيين.

بعد إتمام الدفن، عقد مؤتمر تقرر فيه الهجوم على الطيبيين مع المطالبة بتسليم المتعاونين مع الفرس، وبالأخص القائدين تيماجينيداس وألتاجينوس. فإذا رفض الطيبيون تسليم هذين الرجلين فسيحاصرون المدينة حتى تسقط في

أيديهم. وهكذا بدأ حصار طيبة، في اليوم الحادي عشر من انتهاء الحرب بعد رفض الطيبيين تسليم الرجلين، وهاجم المحاصرون أسوار المدينة وأنزلوا الدمار بالريف، واستمر الحال على هذا المنوال طوال عشرين يوماً. ثم تقدم تيماجينيداس باقتراح لأبناء مدينته: "إن الإغريق مصممون على الاستمرار في الحصار ولن ينتهي حتى يتم لهم الاستيلاء على المدينة أو تقوموا بتسليمنا.والرأي عندي أنه لاينبغي لبويوتيا أن تعاني أكثر من هذا إن كنا نحن السبب. فإذا كان المال هو ما يسعون إليه حقاً، والمطالبة بتسليمنا مجرد ذريعة فحسب، فلنعطهم المال من الأموال العامة ـ ذلك أننا قد انضممنا إلى الفرس بموافقة الشعب؛ وإذا كان الأمر غير ذلك، وكنا نحن من يريدون، فسنسلم أنفسنا لنجيب عن اتهاماتهم في المحاكمة".

رأى أهالي طيبة أن هذا العرض صائب وملائم جداً، فقاموا على الفور بتوجيه رسالة إلى باوسانياس تفيد باستعدادهم لتسليم الرجال. ولكن ما إن صدرت الموافقة على الشروط حتى لاذ ألطاجينوس بالفرار، في حين قبض على أولاده وسلموا إلى باوسانياس الذي رفض إدانتهم إذ وجدهم مجرد صبية لا يمكن اعتبارهم مسؤولين عما اقترفه أبوهم.

أما الرجال الآخرون الذين سلمهم الطيبيون فقد توقعوا الحصول على فرصة للدفاع عن أنفسهم، والحصول على البراءة عن طريق الرشوة، إلا أن باوسانياس، كانت لديه فكرة جيدة عما يدور في خلدهم، ما إن وقعوا بين يديه حتى عمل على تسريح القوات المتحالفة، واصطحب الرجال إلى كورنثه، ونفذ فيهم حكم الإعدام. وحسبنا ما علمنا عن أحداث بلاتيا وطيبة.

أما أرطبازوس بن فرناسيس فقد قطع مسافة لا بأس بها بعد فراره من بلاتيا. وفي تساليه وجد حسن الاستقبال وكرم الضيافة، وسئل عن بقية الجيش الفارسي، إذ لم تكن قد بلغتهم، بعد، أخباره. ولما كان يدرك تمام الإدراك أنه إن

قال الحقيقة عرض نفسه ورجاله لخطر كبير،كما فعل في السابق مع الفوكيائيين الذين أخفى عنهم كل الأسرار ،لذا لم يقدم شيئاً في رده على أسئلة التساليين وإنما: "إنني، كما ترون، في طريقي إلى تراقيا، وعلى عجلة من أمري؛ إذ لدي أوامر بأن آخذ هذا الفصيل في مهمة خاصة، وماردونيوس ورجاله سيلحقون بنا، ويمكن أن يكونوا بيننا في أية لحظة؛ ولدى قدومه احرصوا على معاملته بالودّ نفسه الذي أظهرتموه لي ولن تندموا على ذلك". ثم تابع سيره إلى تراقيا مباشرة سالكاً الطريق البري عبر تساليه ومقدونيا - ذلك أنه كان في الواقع على عجلة من أمره. ثم وصل بيزنطة بعد أن تكبد في سبيل ذلك خسائر فادحة؛ فقد قتل العديد من رجاله في الطريق على يد التراقيين، وانهار العديد منهم من الجوع والإرهاق. ومن بيزنطة ركب البحر في قارب وبلغ آسيا.

لقدانهزم الفرس مرتين في يوم واحد ،الهزيمة الأولى في بلاطية والهزيمة الثانية في ميكالي   إيونيا. بينما كان الأسطول الإغريقي بقيادة ليوتيخيديس الإسبارطي لا يزال راسياً في ديلوس، وصل ثلاثة سفراء من ساموس، هم لامبون بن ثراسيكليس وأثيناجوراس بن أرخيستراتيدس وهيجيسيستراتوس بن أرسطوجوراس. كان الساموسيون قد أرسلوهم سراً، وأخفوا أمر مغادرتهم عن كل من الفرس وحاكمهم الطاغية ثيومتروس بن أندروداماس الذي كان الفرس قد عينوه حاكماً لساموس. ولما مثل السفراء أمام قادة الأسطول الإغريقي، تولى هيجيسيستراتوس الحديث وأخذ في استثارتهم مستخدماً شتى أنواع الحجج فقال: "إن الإيونيين لا ينتظرون سوى ظهور أسطول الإغريق ليعلنوا ثورتهم على الفرس وأن الفرس لن يقاوموكم إذا ما قدمتم؛ أما إذا قاوموكم، فسيكون ذلك أفضل منة تنزل عليكم". وناشدهم باسم آلهة الإغريق التدخل لإنقاذ الأيونيين، قرابتهم في الدم، من العبودية التي يرسفون في أغلالها، وطرد البرابرة. وقال "ذلكم يسير عليكم فسفن الفرس ليست بالجودة التي تظنون، ولا تضاهي سفنكم". ثم أضاف: "أما إذا كانت تراودكم الشكوك

في أمرنا وتخشون منا الخداع والخيانة، فاعلموا أننا نضع أنفسنا رهائن بين أيديكم فنبحر معكم ولا نبتعد عنكم".

ولما استمر هذا الغريب القادم من ساموس يتضرع للآلهةويسألها النصر، سأله ليوتيخيدس: "ما اسمك أيها الساموسي الغريب؟ و أراد بسؤاله أن يتبين من اسمه بشارة إلهية، أو لعل سؤاله كان من الصدفة المحضة، أو إلهاماً من الرب. فقال الغريب إن اسمه: هيجيسيستراتوس" (قائد الجيش)وأراد الرجل أن يستمر في الحديث لولا أن أشار إليه ليوتيخيديس أن يصمت وقال له: "قد قبلنا أيها الساموسي بما تعرض، ونحن ملبون النجدة. فاسمك موافق للبشارة. ولكن عليك أن تقسم لنا قبل أن تبحر وصديقاك، بأن أهل ساموس سيوفرون لنا دعمهم كاملاً."

ما كادت هذه الكلمات تخرج من فم صاحبها،حتى أقسم الساموسيون في الحال، وأعلنو عهود الولاء ، ثم أبحر اثنان من السفراء عائدين إلى وطنهما، دون تأخير؛ أما هيجيسيستراتوس، فقد استبقاه ليوتيخيديس ليصطحبه على ظهر سفينته مع الأسطول. ذلك أنه اعتبر اسمه بشير خير ولقد بقي الإغريق في موقعهم طوال اليوم، وفي اليوم التالي قدموا قرابينهم المعتادة. والتي وعدت بالخير. وكان عرافهم المدعو ديفونوس بن إفينوس(إيوينيوس) وهو من أبوللونيا الواقعة على الخليج الأيوني.

وقد حدث شيء غريب لوالد هذا الرجل ،وقصة ذلك أنه كان في أبوللونيا قطيع من الغنم له قدسية عند الشمس؛ وكانت هذه الأغنام ترعى في النهار على ضفاف نهر ينبع من جبل لكمون، ويعبر أراضي أبوللونيا ثم يصب في البحر عند ميناء أوريكوس،و في الليل يقوم على رعاية الأغنام وحراستها رجل من الأثرياء والمكانة الرفيعة، وتدوم مهمته عاماً كاملاً،وكان أهالي أبوللونيا يجلون هذه الأغنام أشد الإجلال بسبب نبوءة ظهرت لهم.أما المكان الذي تأوي إليه هذه الأغنام في الليل فهو كهف يبعد عن المدينة مسافة كبيرة، وقد تولى

إفينوس(إيوينيوس) مهمة الحراسة بعد أن وقع عليه الاختيار. وفي إحدى الليالي نام أثناء قيامه بواجبه، فدخلت بعض الذئاب وقتلت ستين خروفاً. ولما استيقظ ورأى ما حدث، بقي إفينوس(إيوينيوس) صامتاً ولم يكشف الأمر لأحد، فقد عزم على شراء بعض الأغنام ليعوض عن النقص في عدد القطيع؛ غير أن الأهالي علموا بالحادثة؛ وعلى الفور أتوا بالمتهم ليمثل أمام المحكمة وحكم عليه بسمل عينيه، لأنهم أدانوه بالنوم أثناء قيامه بالواجب. ونفذ الحكم، وبعد ذلك مباشرة لم تعد الأغنام المقدسة تلد الحملان، ولم تعد الأرض تنتج محاصيلها المعتادة. فقاموا باستشارة الكهنة في كل من دودونا ودلفي، وكان الجواب ، أن السبب يعود إلى الظلم الذي لحق بإيوينييوس راعي الأغنام المقدسة، حين حرم من البصر؛ إذ أن الآلهة هي التي حرضت الذئاب لمهاجمة الأغنام، وسيستمرون في معاقبة أهالي أبوللونيا لما اقترفوه بحق إفينوس(إيوينيوس) حتى يكفروا عن ذنبهم هذا بإعطائه ما يشاء. ثم يهدونه المزيد، ليرى فيه العدد الغفير من الناس أنه من المحظوظين.

قام الأهالي بكتمان أمر النبوءة، وكُلف عدد من المواطنين بالذهاب إلى إفينوس(إيوينيوس) والحديث معه حول ما تم الاتفاق عليه في أمر ه، وكان ذلك على نحو ما أنا مفصل فيه هنا: فلقد دخلوا عليه، وهو جالس متكئ على الأرائك، وجلسوا بجانبه. وأخذوا يتجاذبون وإياه أطراف الحديث وأظهروا التعاطف معه لسوء طالعه. وهكذا بعد أن اجتذبوه بحديثهم، سألوه عما يختار لو عرض عليه أهل المدينة تعويضاً عما أحاق به. ولما كان يجهل أمر النبوءة، قال إنه سيطلب، إن كان له أن يختار، أراضي معينة، من ممتلكات عدد من الأشخاص، وأورد أسماء أصحابها، وهو يعلم أنهم يمتلكون أفضل الأراضي، كذلك بيتاً معيناً، كان يعلم كذلك أنه الأفضل في المدينة، فإنه يعتبر هذا تعويضاً مناسباً، ولن يكون في قلبه غل بعد هذا، فقالوا له: "إذن، اعلم يا إفينوس(إيوينيوس)، أن مواطني أبوللونيا سيمنحونك ما طلبته، تعويضاً عن

بصرك المفقود، كما أشارت العرافة". ولما علم بالقصة كاملة، انتابه الغضب لما اعتبره خديعة وتدليساً عليه. إلا أن أهالي المدينة قاموا بشراء المنزل والأراضي من أصحابها، وقدموها له؛ وبعيد ذلك امتلك موهبة التنبؤ، فطبقت شهرته الآفاق منذ ذلك اليوم.

أما ديفونوس ولد إفينوس(إيوينيوس) هذا فقد اصطحبه الكورنثيون معهم ليكون عرافاً لأسطولهم. ويقال أيضاً عن ديفونوس قصة أخرى لم يكن ولداً لإفينوس(إيوينيوس)، ولا يمت له بصلة، و إنما انتحل هذا الاسم تيسيراً لأمره، فأتاحت له هذه النسبة العمل في أرجاء مختلفة من بلاد الإغريق.

حالما أخذ طقس تقديم القرابين بعد بالخير. أبحر الأسطول الإغريقي من ديلوس في طريقة إلى ساموس. ولدى وصولهم بالقرب من كالمي على ساحل ساموس، ألقوا مراسيهم هناك قريباً من معبد زيوس، وأخذوا يعدون للاشتباك مع الفرس في عرض البحر. إلا أن الفرس عندما بلغهم خبر قدومهم، صرفوا الفينيقيين، وغادروا المكان على عجل باتجاه الساحل الآسيوي؛ وخلصوا إلى أنه لا قبل لهم بأسطول الإغريق، وقرروا تفادي الاشتباك معه. وكان سبب لجوئهم إلى البر، ليكونوا في حماية قواتهم البرية في ميكالي، وهي تلك القوات التي خلفها أحشويرش وراءه، لحماية أيونيا، وعددها ستون ألف رجل، وعلى رأسها تيجرانيس، وكان أطول الرجال في جيش الفرس وأشدهم وسامة. وكانت خطتهم تقوم على سحب السفن إلى الشاطئ تحت حماية قواتهم، وإحاطتها بالمنشآت الدفاعية، ليلجؤوا إليها عند الضرورة.

ثم أبحر القادة الفرس بعد أن توصلوا إلى قرارهم هذا، ومروا بمعبد أيومينيدس ثم تابعوا طريقهم إلى سكولوبوسيس وجايسون الواقعتين في أراضي ميكالي، حيث معبد ديميتر الإليوسية. وهو معبد بناه فيليستوس بن باسيكليس، عندما رافق نيليوس بن كودروس في حملته لتأسيس ملطية. وهناك قاموا بسحب السفن إلى الشاطئ وشيدوا حولها. على عجل، سوراً من الحجر

والخشب. وقاموا بقطع أشجار الفاكهة الموجودة في الجوار، وزادوا من أطواق الحماية من الأوتاد الحادة، وهكذا أصبحوا مستعدين للدخول في المعركة أو الصمود، إن فرض عليهم الحصار.

اغتاظ الإغريق كثيراً عندما اكتشفوا أن البرابرة قد خدعوهم بمغادرتهم المكان واتجاههم نحو البر، وأصبحوا في حيرة لا يدرون إن كان عليهم العودة إلى الوطن أو الإبحار إلى الهليسبونت. إلا أنهم أخيراً، أسقطوا الخيارين، ومضوا نحو الساحل الآسيوي. واستعدوا لحرب بحرية وأعدوا الجسور المتحركة لعبور جنود البحرية، وكل ما هو ضروري للمعركة، وهكذا أبحروا باتجاه ميكالي، إلا أنهم عندما وصلوا إلى موقع الفرس، لم يجدوا أي سفينة من سفن العدو قادمة لمواجهتهم؛ بل كان ما واجهوه العكس من ذلك، إذ وجدوا السفن المعادية قد سحبت جميعها إلى الشاطئ وهي تقف الآن ضمن الحاجز، ويقربها قوة من المشاة تم نشرها على طول الساحل، وفي ضوء هذه الظروف اقترب ليوتيخيديس قدر المستطاع من الساحل، وصاح مخاطباً الأيونيين: "يا رجال أيونيا، ليصغ إلى ما سأقوله كل من يسمعني منكم، ذلك أن الفرس لن يفهموا كلمة مما سأقوله، فليذكر كل منكم ، مع بداية الحرب، الحرية ـ واذكروا كلمة السر هيرا .هذا كلام ليعلم به الحاضر الغائب".

كان ليوتيخيدس يحمل في هذا كله المخطط ذاته الذي راود خاطر ثيموستوكليس، وهو في أرتميسيوم. فإما أن البرابرة لن يعلموا بما قاله، وأن الأيونيين سيقتنعون ويثورون، ولن يغير الأمر شيئاً إن علم الفرس بفحوى ندائه؛ ذلك أن الأمر سينتهي بزعزعة ثقتهم بالجنود الإغريق العاملين في قواتهم.

بعد توجيه هذا النداء سارعت السفن الإغريقية لتلقي مراسيها واتخذت القوات مواقعها على الساحل. وكان أول عمل قام به الفرس لدى رؤيتهم الإغريق، وهم يعدون للقتال، نزع سلاح الساموس الذين يشكون بإخلاصهم لهم وتعاطفهم مع الإغريق؛ إذ حدث مؤخراً أن ألقى رجال أحشويرش القبض على

عدد من الأثينيين، وهم في أتيكا، ونقلوا من ثم على ظهر السفن الفارسية، أسرى لديهم، فقام الساموسيون بتحريرهم وإرسالهم إلى أثينا وتزويدهم بالمؤونة لرحلتهم. فكان إنقاذهم لخمسمائة من أعداء أحشويرش هو مبعث الشك في أمرهم. ثم أمرت القيادة الفارسية الميليسيان بحراسة الممرات المؤدية إلى مرتفعات ميكالي ـ وكان سبب ذلك في الظاهر أن الميليسيان يألفون هذه المنطقة من البلاد، أما في الواقع فكان لإبعادهم عن الطريق. والآن وبعد أن أخذوا احتياطاتهم من الأيونيين الذين كانوا يعتقدون بأنهم سيسببون لهم المتاعب حالما تسنح لهم الفرصة، باشروا بالقيام بترتيباتهم ـ مشكلين خطاً دفاعياً من التروس المتراصة فكانت حاجزاً أمام العدو.

أما الإغريق من جهتهم فقد تقدموا لمواجهة البرابرة فور انتهائهم من تحضيراتهم. وانتشرت في أثناء زحفهم، شائعة بين صفوف الجنود تقول إن الإغريق هزموا ماردونيوس في بويوتيه. وهناك العديد من البراهين التي تثبت تدخل الآلهة في شؤون البشر ـ وإلا كيف صادف أن تبلغ جيش الإغريق في بلاتيا شائعة من هذا القبيل لتنعش فيه الآمال وتمده بقدر أعظم من الشجاعة. في اليوم ذاته الذي كان الفرس على وشك أن يهزموا في ميكالي، مما منح الرجال المزيد من القوة لخوض المعركة القادمة، وتصميم شديد للمخاطرة بأرواحهم في سبيل بلادهم.

يالها من مصادفة غريبة أن تجري وقائع كلتا المعركتين بالقرب من منطقة معبد ديميتر الإليوسية ـ ذلك أن القتال في بلاطية، وكما سبق القول، قد وقع في جوار معبد ديميتر،وقد حدث الأمر نفسه في ميكالي. علاوة على ذلك، فإن الإشاعة بخصوص رجال باوسانياس ونصرهم في بلاتيا كانت صادقة تماماً؛ ذلك أن تلك المعركة قد دارت رحاها في الصباح الباكر، لكن الأحداث في ميكالي لم تقع حتى المساء؛ وتم إثبات هذا التزامن ـ في اليوم ذاته من الشهر ذاته ـ عند تقديرهما بعد فترة قصيرة من الزمن. وقبل وصول أنباء بلاطية

إليهم، امتلأت قلوب الإغريق بالخوف، ولم يكن ذلك الخوف على سلامتهم، وإنما على بلاد الإغريق نفسها ومصيرها بين يدي ماردونيوس، ولكن حالما وصلتهم الأنباء، شنوا هجومهم بعزيمة أشد وسرعة أكبر. وهكذا اندفع الإغريق والبرابرة للالتحام في القتال؛ إذ كان الهليسبونت والجزر الغنيمة التي يتقاتلان عليها.

أخذت القوات الأثينية وتلك المجاورة لها، والتي كانت تشكل نصف مجموع القوات، تتقدم على طول الشاطئ وعبر الأراضي المنبطسة، لكن اللاكيديمونيين والقوات المجاورة لهم سلكوا طريق النهر والتلال العالية. ونتيجة لذلك كان الأثينيون مشتبكين مع العدو، بينما اللاكيديمونيون ما زالوا في طريقهم لملاقاته. وقد أفلح الفرس بصد الهجمات طوال الفترة التي ظل فيها خط الدفاع الذي أقاموه من التروس صامداً، دون أن يلحق بهم الأذى؛ ولكن لما كان الأثينيون وحلفاؤهم يريدون أن يكون النصر لهم وحدهم دون مشاركة اللاكيديمونيين فيه، أخذوا يطلقون الصيحات ليثيروا الحماس في نفوس بعضهم بعضاً، ثم انقضوا عليهم بضراوة، فإذا بالأمور تنقلب، منذ تلك اللحظة، رأساً على عقب، فاندفعوا محدثين ثغرة في خط التروس وقاموا بهجوم شامل ضد العدو. وبالفعل استطاع الفرس ولفترة من الزمن الصمود في وجه الهجوم، لكنهم أرغموا في النهاية على التراجع إلى متاريسهم. وشق الأثينيون والكورثنيون والسيكيونيون والترويزونيون (وكان هذا ترتيبهم في صفوف القتال) طريقهم عنوة إلى الداخل في أعقاب العدووحالما سقطت المتاريس، لم يعد العدو يبدي أي مقاومة حقيقية؛ فقد فرَّ الجنود، ما عدا الجنود الفرس. الذين استمروا يحاربون الإغريق في جماعات متفرقة، بينما كان الإغريق مستمرين في التدفق عبر الثغرة التي أحدثوها في المتاريس. ولقد تمكن اثنان من كبار القادة الفرس من الهرب وهما أرتاينتيس وإثامتريس؛ وقتل كل من ماردونتيس، وقائد الجيش تيجرانيس، ووصل اللاكيديمونيون وبقية الفرق بينما كانت القوة الفارسية لا تزال على صمودها، فاشتركوا في القتال، وكانت خسائر الإغريق فادحة، وبشكل خاص

بين صفوف السيكيونيين الذين قتل قائدهم بريلاوس. أما الساموسيون الذين كانوا في صفوف جيش الفرس، فقد نزع سلاحهم، ولما رأوا أن نتائج المعركة ليست في مصلحة الفرس، بذلوا كل جهد لمساندة الإغريق، وتبعهم بقية الأيونيين فتخلوا عن سادتهم الفرس وانقلبوا عليهم. وكان قد سبق لي أن ذكرت أن الميليسيان قد تلقوا الأوامر بمراقبة مسالك المرتفعات احتياطاً، ليقودوهم إلى المسالك العليا لميكالي إذا ما نزلت كارثة بالفرس كالتي وقعت؛ والسبب الآخر وراء هذا الإجراء هو منعهم من إثارة مشاكل من الجيش الفارسي. على أي حال، فإنهم عملوا على تضليلهم وقادوهم إلى ممرات أعادتهم إلى أعدائهم، وأخيراً، انضموا إلى الإغريق وأمعنوا قتلاً وذبحاً في الفرس فأصبحوا بذلك ألد أعدائهم. وهكذا شهد هذا اليوم ثورة الأيونيين الثانية ضد هيمنة الفرس.

كانت قوات أثينا هي الأبرز في المعركة، وكان المصارع هيرموليكوس بن إيوثينس البطل الذي، قُتل بعد ذلك بسنوات، في حرب بين الأثينيين و الكاريين، في معركة كيرنوس الواقعة في المنطقة الكارية، ودفن في جرايستوس. ثم تلا الأثنيين في حسن الأداء، الكورنثيون والترويزون والسيكيونيون.

بعدما انتهى الإغريق من العدو، وتم لهم إفناء القسم الأعظم من قواتهم إن في ساحة المعركة وإن في أعمال المطاردة وتصفية جيوب المقاومة، التفتوا إلى السفن المعادية فأشعلوا فيها النيران وأحرقوا هياكلها، بعد أن أتموا نقل كل غنيمة ذات ثمن، ومن ذلك عدد من الصناديق المتلئة بالفضة والذهب. فلما تم ذلك كله ركبوا سفنهم وأبحروا إلى ساموس، حيث عقدوا، عند وصولهم، مؤتمراً للتداول في مستقبل أيونيا. وكان الغرض منه تهجير الأيونيين وتوطينهم في منطقة من بلاد الإغريق لهم فيها نفوذ وترك أيونيا ذاتها للفرس، إذ لم يكن ليخطر لهم أن يظلوا في يقظة ليرقبوا حدودها ويتولوها بالحماية أبد الدهر؛ وفي الوقت الذي لم يكن يساورهم الشك بأن الفرس لا بد قادمون للاقتصاص من الأيونيين لثورتهم، ما لم تتوفر مثل هذه اليقظة الدائمة والحرص الدائم.

وعلى هذا الأساس عرض زعماء البيلوبونيز طرد أولئك المتعاونين مع الفرس من الإغريق، وتوطين الأيونيين في مراكز تجارتهم؛ إلا أن الأثينيين عارضوا هذا الاقتراح أشد المعارضة؛ ذلك أنهم لم يكونوا يميلون لتفريغ أيونيا من سكانها؛ فضلاً عن اعتقادهم بأن ليس للبيلوبونيزيين حق في مناقشة مستقبل الاستيطان (التوسع) الأثيني. وكانوا واضحين في معارضتهم، وقد عبروا عنه بفصاحة وبيان وحيوية؛ فوافق البيلوبونيزيون. وهكذا أدخلوا في عضوية الاتحاد الساموسيين والخيونيين والليسبانيين والأقوام من الجزر الأخرى، والتي قاتلت في سبيل بلاد الإغريق ضد الأجنبي؛ وكانت هناك عهود ومواثيق والتزام بين هذه الطوائف بالإخلاص والوفاء للرسالة المشتركة. ولقد أبحر الأسطول، بعد هذا، إلى الهليسبونت، لتدمير الجسور، وهم يظنون أنها ما تزال في مواضعها.

أما الأعداد القليلة المتبقية من القوة الفارسية والتي التجأت إلى هضاب ميكالي، فقد شقت طريقها إلى سارديس. وفي أثناء مسيرهم تحدث ماسيستيس بن داريوس الذي كان شاهداً على الكارثة إلى القائد أرتيانتيس، في أثناء المسير، وندد بهووصف قيادته بأنها أسوأ من قيادة امرأة. وأن ليس هناك عقوبة يمكن أن يكفر بهاعن الضرر العظيم الذي ألحقه ببيت الملك. وتعتبر عند الفرس مقالة أن الرجل أسوأ من امرأة أكبر الإهانات. وهكذا ما إن سمع أرتيانتيس هذه المقولة حتى استل خنجره غاضباً، وهم أن يطعن ماسيستيس، لولا أن المدعو إكسيناجوراس بن براكسيلاؤس وهو في الأصل من هاليكارناسيوس، الذي كان يقف أثناء الحديث، خلف أرتيانتيس، فلما رآه يهم بالهجوم على ماسيستيس، أمسك به من وسطه على الفور وطرحه أرضاً، وبذلك أتاح الوقت الكافي لحارس ماسيستيس ليقوم بالدفاع عن صاحبه ومساعدته. ولم يحظ هذا العمل باستحسان ماسيستيس فحسب، بل أحشويرش كذلك، لأنه أنقذ حياة أخيه، فكافأه الملك بأن ولاه على قليقلية. تلكم هي الواقعة الوحيدة التي جرت في أثناء المسير. ولقد وصل الجيش في نهاية الأمر إلى ساردييس،

وكانت مقر الملك منذ الانسحاب من أثينا بعد هزيمة سلاميس.

أثناء إقامة أحشويرش في ساردیس وقع في هوى زوج ماسيستيس التي كانت مقيمة هناك، في ذلك الحين،فأرسل إليها العديد من الرسائل ولم ينجح في إقامة الاتصال بها. ومع ذلك لم يكن راغباً في اللجوء إلى الإكراه احتراماً لأخيه. وكانت المرأة تعي ذلك تماماً، ولا بد أن معرفتها بأن أحشويرش لن يجرؤ على إرغامها على ذلك قد ساعدها على الصمود في وجهه. ولهذا تخلى أحشويرش عن طرقه الأخرى في التقرب، ودبر زيجة بين ابنة أخيه من هذه المرأة وابنه داريوس، معتقداً بأنه بهذه الطريقة سيتمكن من الحصول عليها. ولقد تمت الخطوبة بكل الطقوس المعهودة وغادر أحشويرش مدينة ساردیس عائداً إلى سوسة. وفي سوسة عمل على استقبال الفتاة - وكان اسمها أرتاينتا - واستضافها في بيته على اعتبار أنها عروس ابنه، ومع مرور الوقت نسي الملك الأم وحول عواطفه نحوالبنت - التي أصبحت الآن زوجاً لابنه داريوس. وقد بادلته أرتاينتا العاطفة. ولكن ومع مرور الزمن، تم اكتشاف العلاقة بينهما وتفصيل ذلك أن زوج الملك أميستريس أهدته ذات يوم ثوباً طويلاً غني الألوان، بديع الصنعة، حاكته بنفسها له . فسُرَّ أحشويرش به كثيراً وارتداه ثم ذهب لزيارة أرتاينتا، وقد بذلت كل ما بوسعها لإسعاده في ذلك اليوم، وبلغ من سروره بها أن سألها أن تطلب ما تشاء مكافأة على صنيعها، وأنه سيعمل على تلبية كل طلباتها. فقالت أرتاينتا التي كان مقدراً لها أن تنتهي وأسرتها نهاية مأساوية: "هل الملك جاد في قوله أنه محقق لي كل ما أطلب؟" فقطع لها وعداً بذلك، لكن لم تكن لديه أية فكرة عما ستطلبه. ولقد طالبت بجرأة بالثوب الذي يرتديه فحاول ما استطاع التخلص من إعطائها إياه لخشيته من أميستريس التي كانت تراودها في أمره شكوك، وكان يخشى أن تتأكد شكوكها به حين يتخلى عن ردائه. فعرض عليها مدناً ومقادير عظيمة من الذهب وجيشاً - وهو هدية فارسية بمعنى الكلمة - يخضع لإمرتها وحدها؛ ولكن ذلك كله ما كان

ليجدي شيئاً، إذ لم ترغب بشيء سوى الثوب، فقدمه لها، فارتدته وأخذت تتباهى به.

وسرعان ما اكتشفت أميستريس أن الثوب أصبح لدى أرتاينتا، إلا أنها لم تنتقم منها ولم تغضب منها. بل اعتقدت أن والدة الفتاة زوج ماسيستيس هي المسؤولة عن المشكلة كلها، وعليه مضت في التخطيط للقضاء عليها. ولهذا انتظرت حتى حان اليوم الذي يقيم فيه الملك العشاء الملكي - وهو احتفال يجرى مرة في العام في عيد ميلاد الملك. ويسمى في لغة الفرس "تيكتا"، وتعني في لغة الإغريق بلوغ الكمال بالشيء. وهذه هي المناسبة الوحيدة في السنة التي يظهر فيها الملك أمام الفرس ويقوم بدهن شعره بالزيت. ولما كان يوم العشاء، طلبت أميستريس من أحشويرش أن يقدم لها زوج ماسيستيس هدية. ولما كان يعلم سبب طلبها هذا، فقد ذعر ليس بسبب أن يسلم زوج أخيه ولكن لعلمه بأنها بريئة.

أصرت أميستريس على تسلُّم هديتها المطلوبة - وزاد من صعوبة الأمر أن قوانين العشاء تقضي بألا يرفض لأحد طلباً؛ وهكذا أسقط في يد أحشويرش، ووافق على تقديم الهدية. وبعد أن أعلن أن لزوجه أن تفعل بالمرأة ما تشاء، أرسل في طلب أخيه وقال له: "إنك يا ماسيستيس أخي وابن داريوس، ثم إنك فوق هذا رجل طيب السريرة، فدعك من زوجك هذه، ولك ابنتي عوضاً عنها، فخذها زوجاً لك، واترك تلك، فإنني لا أوافق على بقائك معها".

ورد ماسيستيس مذهولاً: "مولاي إنه لاقتراح غريب بالفعل! فما الفائدة في أن تقول لي أن أتخلص من زوجي وهي أم لأبناء يافعين وبنت - زوجتها إلى ابنك - وهي، فوق هذا، كل ما أرغب به؟ أما أن أتزوج بابنتك، فلا يا سيدي؛ إني لن آخذ بأي من الرغبتين بالرغم من أنني فخور لاعتقادك بأنني جدير بابنتك".

غضب أحشويرش وثار لهذا الجواب. وصاح "حسن، سأخبرك أي ذنب أتيت بحق نفسك؛ فلن أمنحك فرصة الزواج من ابنتي بعد الآن - ولن تعيش يوماً آخر

مع زوجك تلك. ولربما علمك هذا ألا ترفض أنعاماً يقدم لك".

فرد ماسيستيس: "مولاي، إنك لم تقتلني بعد! ثم غادر الغرفة دون أن ينطق بكلمة أخرى.بينما كان أحشويرش يتحدث إلى أخيه، أرسلت أميستريس في طلب بعض جنود الحرس الملكي ليتولوا تقطيع أوصال زوج ماسيستيس فقاموا بقطع ثدييها وأذنيها وجدع أنفها وشرم شفتيها وألقي بها للكلاب؛ ثم انتزع لسانها، وأرسلت إلى بيتها بهذه الحالة. أما ماسيستيس الذي لم يكن يدري شيئاً عما حدث، وإن كان يتوقع شراً ما، فقد أسرع عائداً إلى بيته؛ ولما رأى ما تعرضت له زوجه من أذى رهيب، اجتمع على الفور مع أبنائه للتداول في الأمر، ثم اتجه وأولاده وبعض الأصدقاء المقربين إلى باكتريا، بهدف إشعال ثورة في الولاية، وبقيامه بذلك يكون قد عمل على إيذاء الملك أذية بالغة. وأعتقد أنه ربما نجح في ذلك لو توفر له الوقت للوصول إلى الباكتيريين والساكاي فقد كان الرجل محبوباً منهما، وهو علاوة على ذلك حاكم باكتريا. إلاأن أحشويرش اكتشف أمره، فأرسل قوة مسلحة في أعقابه، تمكنت منه في الطريق وقتلته ومعه أولاده ومناصروه جميعاً. وهكذا انتهت قصة حب أحشويرش بمقتل ماسيستيس.

أما الإغريق الذين أبحروا من ميكالي، وهم يقصدون جنوب الهليسبونت، فإنهم بعد أن أعاقتهم عواصف هوجاء لفترة من الزمن، استطاعوا الوصول إلى أبيدوس فوجدوا الجسور مدمرة ـ بخلاف ما كانوا يتوقعون ـ ومعلوم أن الرحلة إنما كانت بهدف تدمير هذه الجسور. ورأى ليوتيخيديس والبيلوبونيزيون أن أفضل ما يمكن عمله، في تلك الظروف، العودة إلى بلاد الإغريق، لكن الأثينيين بقيادة أكسانثيبوس أصروا على البقاء ومهاجمة شبه جزيرة الخيرسونيس. وبعد رحيل البيلوبونيزيين قاموا بالعبور إلى أبيدوس وحاصروا سيستوس التي كانت عبارة عن قلعة حصينة تعد أكثر الأماكن تحصيناً في المنطقة، وما إن شاعت أنباء وصول الإغريق إلى الهليسبونت حتى تدفق الناس من المدن المجاورة، مثل أويبازوس الفارسي الذي قدم من مدينة كارديا والذي يحتفظ

بالحبال التي استخدمت في بناء الجسور.

كان أهالي المدينة الإيديون الأصليون هم الذين يعملون على حمايتها ومعهم بعض الفرس وعدد كبير من الحلفاء والأشياع. وكانت المنطقة بأكملها تحت حكم أرتايكتيس، وهو أحد صغار الولاة الفرس، وعرف بالمكر والفساد، وعندما كان أحشويرش يزحف بجيوشه على أثينا، تمكن بالخديعة من الاستيلاء على كنوز بروتسيلاؤس بن إفيكيلوس في إيليوس في شبه جزيرة الخيرسونيس حيث يوجد ضريح بروتسيلاؤس تحيط به حديقة مباركة، ، وفي ذلك المكان الكثير من الأشياء الثمينة من كؤوس ذهبية وفضية وأدوات نحاسية وأثواب وأشياء أخرى كانت قد قدمت قرباناً، فاستولى عليها أرتايكتيس كلها،بعد أن حصل على موافقة الملك إذ قال له: "يامولاي، في هذا الإقليم بيت لإغريقي قتل جزاء وفاقاً لهجومه على بلدكم، فاعطني بيته ـ وسيكون ذلك درساً لسواه، لئلا تسول لهم أنفسهم أن يعيدوا سيرته ويعتدوا على بلادكم". وبتلك الكلمات استطاع إقناع أحشويرش أن يمنحه بيت ذاك الرجل، إذ لم يكن الملك يشك بمآربه. وكان أرتايكتيس محقاً نوعاً ما في قوله أن بروتسيلاؤس شن حرباً على بلاد الملك، ذلك أن الفرس يعتبرون آسيا بأكملها ملكاً لهم ولملكهم. وهكذا فقد استجاب الملك للطلب، فقام أرتايكتيس بنقل الكنوز إلى سيستوس، وحوّل الأرض المقدسة إلى حقول ذرة ومراع للماشية؛ والأكثر من هذا ما عرف عنه من مضاجعة النساء في الحرم كلما زار إيليوس.

وعندما حاصر الأثينيون مدينة سيستوس كان أرتايكتيس هذا في داخلها، ولم يكن مستعداً للحصار، ولم يكن يتوقع وصول جيش إغريقي إليها، وبذلك أُخذ على حين غرة. ولما طال أمد الحصار وجاء فصل الخريف، أخذ صبر الأثينيين ينفد لغيبتهم الطويلة عن الوطن وفشلهم في الاستيلاء على الموقع، فأخذوا يلحون على قادتهم لوقف الحصار، إلا أن قادتهم رفضوا الطلب. فإما أن تسقط المدينة أو تستدعيهم الحكومة للعودة إلى أثينا. وهكذا أكرهت القوات على احتمال المصاعب والمشاق. أما في داخل المدينة فكان أهلها يعانون الأمرين

جراء الحصار حتى أنهم اضطروا لأكل الأربطة الجلدية لأسرتهم. ولما نفدت هي الأخرى، عمل الفرس ومعهم الحاكم أويبازوس إلى الهرب تحت جنح الليل، فتسلقوا السور في الجهة الخلفية للمدينة حيث يضعف وجود قوات العدو؛ وفي اليوم التالي أشار أهالي الخيرسونيس للأثينيين من الحصن ليعلموهم بما حدث، وفتحوا لهم الأبواب. وإثر ذلك سار القسم الأعظم من القوات الأثينية للحاق بالفارين، بينما استولى البقية على المدينة.

تمكن أويبازوس من الاستيلاء على تراقيا؛ إلا أن الأبسينثيين التراقيين ألقوا القبض عليه هناك وقدموه قرباناً للبليستروس. أما الرجال الذين كانوا برفقته فقد قتلوا بطريقة أخرى. وكان مرافقو أرتايكتيس وهم قلة قد غادروا المدينة في وقت لاحق، فتمكن مطاردوهم من اللحاق بهم وقبضوا عليهم في مكان لا يبعد كثيراً من إيجوسبوتامي. فحاربوهم واستبسلوا في القتال لكن في النهاية قتل بعضهم وأسر بعضهم الآخر، وتم تقييدهم وأخذهم إلى سيستوس، وكان من بينهم أرتايكتيس وابنه.

وهناك قصة شائعة عند أهالي الخيرسونيس تقول إن أحد حراس المسجونين كان يقوم بشواء سمك مملح عندما بدأ السمك يقفز ويقاوم فوق الفحم وكأنه قد اصطيد للتو. فتجمهر الجميع لرؤية هذا المشهد غير العادي، لكن أرتايكتيس استدعى الحارس الذي كان يشوي السمك وقال له: "لا تجزع أيها الأثيني الغريب، فهذه المعجزة لا علاقة لك بها، فهي تنطبق عليّ؛ إن بروتسيلاؤس الإليوسي يقول لي إنه على الرغم من كونه ميتاً مثل السمك المجفف، إلا أن لديه قوة يستمدها من الآلهة ليعاقب الرجل الذي يسئ إليه. والآن، إنني على استعداد لأدفع لك مائة تالنت تعويضاً عن الكنز الذي أخذته من الضريح، وأن أدفع للأثينيين مئتين مقابل أن يبقوا على حياتي وحياة أبنائي".

كان هذا عرض أرتايكتيس لشراء حياته وحياة أبنائه إلا أن القائد الأثيني أكسنثيوس رفضه، ودعا أهالي إليوس ليثأروا لبروتسيلاؤس وطالبوا بقتله،

وعلاوة على ذلك، كان أكسنثيوس متعاطفاً معهم. وهكذا اقتادوه إلى التل الذي يعلو مدينة ماديتوس. وهناك قاموا بتسميره على لوح خشبي وتركوه مصلوباً هناك. أما ابنه فكان قد رجم حتى الموت أمام عينيه. فلما كان هذا، أبحر الأسطول إلى بلاد الإغريق وعلى متن سفنه مختلف الأشياء، ومن بينها حبال الجسور التي دعا الأثينيون لأن تقدم قرابين في معابدهم. تلكم أحداث السنة، وبها تمت.

كان لأرتايكتيس الذي مات مصلوباً سلف يدعى أرتيمباريس، وهو من قدم للفرس عرضاً، كانوا قد قبلوه على الفور وحملوه إلى قورش ليقره. وقالوا: "بما أن زيوس كان قد أطاح بأستياجيس وأعطى السلطة للفرس، وخصك بها يا قورش! هلم الآن، ودعنا نترك أرضنا القاحلة والصغيرة هذه. ولنمض إلى أرض أخرى أفضل منها. فهناك الكثير من الأراضي التي بإمكاننا الاختيار من بينها، بعضها قريب وبعضها الآخر بعيد؛ فإذا استطعنا الاستيلاء على واحدة منها فسوف تشخص إلينا ،عندئذ، الأبصار، ويكون لنا مجد أعظم. فهذا شأن الأمم العظيمة؛ هل هناك فرصة أفضل من هذه الفرصة المتاحة لنا الآن لنغدو سادة العديد من الأمم، وأصحاب آسيا كلها؟"

لكن قورش لم يأخذ هذا الرأي على محمل الجد، ورد على أصحاب هذه الدعوة أن لهم أن يبادروا بالعمل، وفق هذه الدعوة، إن شاؤوا؛ لكنه أضاف، منذراً، بأنهم إن تقاعسوا فلن يكون لهم أن يستمروا في حكم الناس، وإنما عليهم أن يعدوا أنفسهم لأن يكونوا من المحكومين. "فالأرض الرخوة تأتي ببَشَر، الرخاوة من شيمهم. واعلموا أن الأرض التي تنبت أشجار الفاكهة الحلوة لا تخرج رجالاً ذوي شدة وبأس". فلما سمع القوم ما قاله قورش، استأذنوا بالخروج، وهم في غير حالهم التي كانوا عليها عند الدخول، وقد رسخ لديهم أن لقورش من الحكمة ما يفوقهم جميعاً؛ وأصبحوا يؤثرون أن يكونوا حكاماً في أرض مقفرة على أن يفلحوا الأرض الخصبة، وهم عبيد في خدمة الأسياد.

الحواشي*

الكتاب الأول

(١) يَسْتَهِلُّ هيرودوت كتابه الأول بالأسطورة بغرض التمهيد للموضوع الأساس لمؤلَّفِهِ بمجمله وهو (توسع الإمبراطورية الفارسية في القرن السادس ق.م. وذكر حروبها) فيحكي لنا أربع قصص أسطورية لأربع فتيات هن (آيو) الإغريقية، و(أوربا) الفينيقية، و(ميديا) الكولخية (من منطقة البحر الأسود) ، و(هيلين) الإسبارطية. فبينما ارتبطت هذه الأخيرة بطروادة، صارت (آيو) رمزاً للآلهة المصرية إيزيس، وقلّدت (أوربا) اسمها لقارة أوروبا، وأهدت (ميديا) اسمها لبلاد ميديا (في شمال إيران) . وكأن هيرودوت أراد بذلك أن يحدد لنا النطاق الجغرافي لموضوع بحثه التاريخي. ثم ينتقل بنا هيرودوت من الأسطورة إلى التاريخ فيحدثنا عن مملكة ليديا، ذلك الإقليم الواقع على الشاطئ الغربي لآسيه الصغرى والذي اشتهر بالخصب ووفرة المعادن لاسيما الذهب، فيذكر ظهور تلك المملكة وتاريخ ملوكها.

ثم يركز على ملكها كرويسوس (٥٦٠-٥٤٦ ق.م) . و يمهد للحديث عن الملك الفارسي قورش الكبير (٥٥٧ - ٥٣٠ ق.م) بإعطاء وصف تاريخي لمملكة ميديا وحكم استاجيس الميدي (جد قورش من جهة الأم) والذي أطاح به قورش فيما بعد. ثم يعرض وصفاً لأعراق الفرس وأجناسهم و يعقبه بوصف للشعوب التي كانت تسكن شرق اليونان من الأيونيين والدوريين والأيوليين باعتبارها المناطق المجاورة للإمبراطورية الفارسية آنذاك بعد هزيمة كرويسوس عام ٥٤٥

---

* هذه الحواشي من إعداد الدكتور أحمد السقاف.

ق.م وسقوط مملكته في أيدي الفرس.

(٢) البرابرة : لفظ يستعمله الإغريق للدلالة على غيرهم من الشعوب التي لا تتكلم بلسانهم والمقصود هنا الفرس على وجه التحديد.

(٣) الهلاَّس hellas اسم قديم أطلقه اليونان على بلادهم أما اسم (الإغريق) فهو مما أطلقه عليهم الرومان في وقت لاحق.

(٤) الأمير الطروادي الذي ، وفق إلياذة هوميروس، خطف (هيلينا) زوجة الملك مينا لاوس (ملك إسبارطة) .

(٥) أنظر الخريطة رقم (٤)

(٦) الكيميريون Cimmerians : سماهم اليونانيون kimmerioi وأطلق عليهم الآشوريون gimmirra وكانوا غزاة رُحَّل قدموا من جنوب روسيا في القرن السابع ق.م . وَشَنُّوا غارات على ممالك آسيه الصغرى.

(٧) أرخيلو خوسى شاعر إغريقي هَجَّاء عاش في القرن السابع ق.م.

(٨) دلفي : مدينة يونانية قديمة كان بها أهم معبد لأبوللو وكانت أهم مركز ديني لديهم.

(٩) أرتيريا مدينة يونانية سيأتي ذكرها في الكتاب السادس.

(١٠) ماراثون : سهل في مقاطعة أتيكا يقع شمال شرق أثينا انتصر فيه اليونانيون على الفرس عام ٤٩٠ق.م.

(١١) نسبة إلى Acarnania في غرب اليونان بين خليج اكتيوم وخليج كورنثة انظر الخريطة رقم (٧).

(١٢) اللاكيديمونيون : سكان إقليم لاكونيا باليونان جنوبي البيلوبونيز وتضم مدينة إسبرطه التى أسسها الدوريون في القرن الثاني عشر

ق.م. انظر ما أورده هيرودوت عن تاريخهم في الكتاب السادس.

(١٣) انظر الخريطة رقم (٤) وكذا الخريطة رقم (٨).

(١٤) سولون solon (٥٩٤ – ٥٧٢ ق.م.) حاكم أثينا القديمة قام بإصلاحات وسنّ تشريعات وترك بعض الأشعار.

(١٥) تذكر المصادر التاريخية البابلية أن قورش في أثناء تدميره لساريديس قام بقتل كرويسوس.

(١٦) انظر الخريطة رقم (٨) .

(١٧) (٥٨٥ – ٥٥٠ ق.م).

(١٨) البانيونيوم : سيتحدث عنه المؤلف بالتفصيل . انظر صفحة (١٠٠).

(١٩) أنظر الخريطة رقم (٢).

(٢٠) cyme انظر الخريطة رقم (٢).

(٢١) phocis سكان منطقة في شمال خليج كورنث بوسط اليونان شكلوا مجموعة من الدول المدينية خاضت حروباً فيما بينها على فترتين : (٥٩٠ – ٤٤٨ ق.م) و(٣٥٥–٣٤٦ ق.م.).

(٢٢) وصفه لبابل ومعابدها وأسوارها فيه الكثير من الدقّة التي تثبت المشاهدة بالعيان لكن التنقيبات الأثرية لم تكشف حتى الآن عن المدينة بالحجم الذي وصفه هيرودوت.

(٢٣) لعل الاسم محرّفٌ عن الاسم الآشوري «سمورمات» التي كانت وصية على ولدها (أداد ميزاري) الثالث من زوجها شمش أداد الخامس في القرن التاسع ق.م. أما نيتو كريس فلا وجود لها وهناك في مصر الفرعونية ملكة بهذا الاسم أوردها هيرودوت في الكتاب الثاني من مؤلّفه هذا.

الكتاب الثاني

(١) يخصص هيرودوت هذا الكتاب للحديث عن مصر وقد أراد بهذا أن يمهد للحديث عن حملة قمبيز على مصر التي يتناولها في الكتاب الثالث، فيصف طبيعة مصر ومناخها وسكانها وأجناسهم ثم يتحدث عن النيل ومنابعه ومصباته وفيضانه ثم يعرض لتقاليد المصريين وعقائدهم وتاريخ ملوكهم والتحنيط عندهم، ثم يصف الأهرامات وقصر التيه «اللابيرنت» وغير ذلك مما يتصل بأوضاع مصر إبان الحكم الفارسي لها في القرن السادس ق.م. كما يتناول الجالية الإغريقية في مصر ومعبدها آمون في واحة سيوه. وقد نقل هذا الكتاب برمته الى العربية كلٌّ من د. وهيب كامل في كتابه «هيرودوت في مصر» الذي نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٤٦م، وكذا د . محمد صقر خفاجه في كتابه «هيرودوت يتحدث عن مصر» بتحقيق د. أحمد بدوي وقد اعتمدت الكتاب الإخير في كتابة بعض حواشي هذا الكتاب الثاني لهيرودوت ومن أراد التوسع فليرجع إلى الكتابين المذكورين وكذا كتاب (القاموس الجغرافي للبلاد المصرية) لمحمد رمزي.

(٢) يستهل هيردوت كتابه الثاني هذا كما فعل في الكتاب الأول بذكر حكاية أقرب إلى الأسطورة تتحدث عن قصة التنافس على الأقدمية والعراقة بين المصريين والفريجيين (شعب من أصل هندي – أوروبي استوطن ما يعرف حاليا بتركيا الوسطى).

(٣) مدينة الشمس واحدة من أقدم المدن المصرية يبعد موقعها قرابة ١٠كم

شمال شرق القاهرة وكانت مركز عبادة الإله «رع».

(٤) في غرب اليونان. انظر الخريطة رقم (٧).

(٥) كيركاسوس : مدينة قديمة كانت تقع في رأس الدلتا.

(٦) cilicia كيليكيا تقع في جنوب شرقي آسية الصغرى . أنظر الخريطة رقم (٤).

(٧) البلسيوم وكانوبس هما فرعان من فروع النيل يعرف الأول بالفرع البيلوزي والثاني بالكانوبي. انظر لمزيد من التوسع (هيردوت يتحدث عن مصر / خفاجه – بدوي صفحة ٩٢).

(٨) الفرع السِّبنيِّتي . انظر المرجع أعلاه.

(٩) ألفنيتينا : موقع جنوب أسوان . أنظر الخريطة رقم (٤).

(١٠) سايس : صا الحجر.

(١١) سايني / سويني : أسوان.

(١٢) تاخمسو : جنوبي أسوان ولعلّها «جيرات» وقد غمرتها مياه السد العالي.

(١٣) مروى : عاصمة مملكة النوبه.

(١٤) ماريه الى الغرب من بحيرة مريوط.

(١٥) الفارُّون : ليبيون عملوا حراساً لملوك مصر وكونوا سلالة معروفة بها فقدوا نفوذهم أيام «ايسمانيك» فهربوا فسماهم هيرودوت بهذه التسمية.

(١٦) crene قورنيه وهي الموضع الحالي (شمات) بمنطقة برقة بشمال ليبيا وتبعد عن البحر نحو ١٦كم. سيتحدث عنها هيرودوت لاحقاً.

انظر لمزيد من المعلومات كتاب (الاغريق في برقه) لفرانسو شامو ترجمة وتحقيق د. محمد الوافي.

(١٧) من القبائل الليبية التي كانت تسكن منطقة خليج سرت. انظر الخريطة رقم (٩).

(١٨) الكلتيون : كانوا يسكنون في غرب البرتغال أما الكينيسيون فكانوا في أقصى غرب إسبانيا.

(١٩) وردت في النص الإنجليزي لكتاب هيرودوت الذي ترجمه عن الاغريقية روبن ووترفيلد (منشورات اوكسفورد) صفحة (١٠٩) وكذا في كتاب (هيردوت يتحدث عن مصر، صفحة ١١٧-١١٨) العبارة التالية: (والنساء يَبُلْنَ واقفات أما الرجال فيقعدون القرفصاء). ولاشك أن ما ذكره غير صحيح.

(٢٠) المقدسة هي الفصحى وتكتب على الحجر والعامة وتكتب في القراطيس وتسمى الديمقوطيقية.

(٢١) Atharbechis ذكرها علي باشا مبارك في الخُطط التوفيقية بأنها محلة قديمة موضعها ما يعرف اليوم بـ«شبين الكوم» انظر القاموس الجغرافي / محمد رمزي ص١٠.

(٢٢) نسبة إلى بلدة منديس ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان بأنها من قرى الصعيد غربي النيل أما (هيردوت / خفاجة - بدوي ص١٣٥) فاعتبرها ما يعرف اليوم بـ«أشمون طناح».

(٢٣) ميلامبوس أقدم وأشهر كهان الإغريق ومتنبئيها.

(٢٤) الكابيريه : آلهة الخصب الذي كان الإغريق يطلقون عليهم اسم

الآلهة العظام وكانت جزيرة سمو تراقية مركزاً لهم.

(٢٥) سمو تراقية : سامو تراكي جزيرة مقابل ساحل تركيا عند خليج ساروس (أنظر أطلس العالم خريطة رقم ٣٠ - ٢ب).

(٢٦) البلاسجة : أقدم الشعوب التي سكنت أرض اليونان قبل أن يغزوها الهلينيون.

وكان البلاسجة يسكنون في كل المناطق الواقعة شمال بحر إيجه.

(٢٧) دودونا: مدينة في شمال غرب بلاد الإغريق (ألبانيا حالياً) انظر الخريطة رقم (٧) .

(٢٨) ولد هيرودوت عام ٤٨٤ ق.م. وهو بذلك يجعلهما عاشا في القرن التاسع ق.م. لكن الشواهد الأثرية تضع هوميروس في النصف الثاني من القرن الثامن ق.م. أما هسيوديوس فالمرجح أنه عاش بعد هوميروس في القرن السابع ق.م. (انظر معجم المصطلحات الأثرية لمحمد كامل صدقي).

(٢٩) بوتو أو بوطو هي ما يعرف حالياً بـ«تل الفراعين» أما هيلبوبوليس فقد سبق ذكرها انظر (٢-٣).

(٣٠) هرمس وهي مايعرف اليوم بـ «أشمونين» (انظر هيردوت يتحدث / خفاجة - بدوي صفحة ١٧٢).

(٣١) من الجدير بالملاحظة أن هيرودوت حدد بكل وضوح أنه لم ير هذا الطائر الخرافي وقد ورد ذكره في الأساطير المصرية التي ذكرت أنه بعد أن يُعَمَّر نحو خمسة قرون أو ستة يحرق نفسه ثم ينبعث من رماده وهو في ريعان الشباب . (انظر معجم المصطلحات الأثرية

لمحمد كامل صدقي ص٣٠٣).

(٣٢) يقصد أوزوريس الذي تصوره الأسطورة المصرية رمزاً للخير والوفاء وتذكر موته وهو في ريعان الشباب .

(٣٣) CHEMMIS خِميِّز هي على وفق ما ذكره أحمد بدوي (هردوت يتحدث) ص٢٠١ أخميم الحالية وتقع الى الشمال الشرقي من مدينة سوهاج.

(٣٤) جورجون (ميدوزا) ورد ذكرها في الأساطير اليونانية كعفريته أساءت إلى الآلهة أثينا فحولت الآلهة شعرها إلى ثعابين كل من ينظر إليها يتحول إلى حجر. قطع برسيوس رأسها فنبت من عنقها الجواد الإسطوري ذو الجناحين المعروف ببيجاسوس PEGASUS.

(٣٥) أي سكان الدلتا .

(٣٦) نوكراتيس أو نوقراطيس : محطة تجارية إغريقية على الفرع الكانوبي للنيل في غربي الدلتا ولعل في اسم (نقراش) الحالية وجه تقارب لفظي مما يجعل موقعها هو موقع المد ينة القديمة.

(٣٧) سبق ذكرها انظر (٢-٥).

(٣٨) مدينتان بالدلتا بالقرب من نوقراطيس.

(٣٩) نيتوكريس البابلية ذكرها المؤلف في الكتاب الأول (١-٢٣) أما تسميّتها المصرية فيعتقد بعض الباحثين أنها من الأسرة السادسة (٢٣٠٠ ق.م.).

(٤٠) يعتقد بأنه إما سنوسره الأول أو سنوسرة الثالث من الأسرة الثانية عشر (١٨٠٠ ق.م).

(٤١) من القبائل التي كانت تسكن جنوب روسيا وأما ما نسبه هيرودوت إلى سنوسرة من فتوحات وصلت إلى جنوب روسيا فضرب من ضروب القصص الأسطوري الذ ي تحاط به الشخصية التاريخية البارزة كمثل غزوات الملك الحميري شمر يهرعش التي شملت سمرقند والتبت والصين (انظر على سبيل المثال كتاب التيجان في ملوك حمير أو شرح قصيدة نشوان الحميري).

(٤٢) نهر الفاسيس : شرقي البحر الأسود (أنظر الخريطة رقم (٢).

(٤٣) ممنون MEMNON ابن ملك أثيوبيا وبطلاً من الدرجة الثانية عند هوميروس فبعد موت المقاتل الطروادي هيكتور قام ممنون بمساعدة خاله بريام آخر ملوك طروادة لكن تم في النهاية قتل ممنون على يد أخيلوس.

(٤٤) دفين: تقع حالياً شمال غرب القنطرة (انظر خريطة رقم ١١ ، أطلس العالم).

(٤٥) فرعون هو لقب وليس اسماً لعلمٍ ومعناه «البيت العظيم» وما ينقله هيرودوت عن الكهنة لا يتجاوز القصص الشعبي.

(٤٦) بروتيوس هنا هو الشخصية التي ذكرها هوميروس في إلياذته ويبدو واضحاً أنَّ كهنة مصر عندما سألهم هيرودوت كانوا على دراية بأبطال هوميروس فأفادوه بقصة هيلين.

(٤٧) الملحمة القبرصية تنسب إلى شاعر قبرصي عاش في القرن الثامن ق.م.

(٤٨) المقصود الموضع الذي بُنيت عليه الأهرامات.

(٤٩) خفرع كان ابناً لخوفو وليس أخاه.

(٥٠) هو حجر الجرانيت والمقصود بالأثيوبي أي من منطقة النوبة.

(٥١) منقرع من أحفاد خوفو وليس ابناً مباشراً له.

(٥٢) أيسوب AESOP شخصية إغريقية على الأرجح خرافية نسب إليها وضع حكايات على ألسنة الحيوان.

(٥٣) أنيسيس من ملوك الأسرة (٢٣) (٨١٨ – ٧١٥ ق.م.) أما المدينة التي تحمل الاسم نفسه فيعتقد أنها كانت تقع شمال غرب القنطرة (انظر هيرودوت يتحدث / خفاجة – بدوي صفحة ٢٦٦).

(٥٤) شباكو الأثيوبي غزا مصر عام ٧١٦ ق.م واستمر حكمه حتى عام ٧٠٢ ق.م.

(٥٥) هيكتايوس HACHAEUS مؤرخ عرف بالملطي نسبة إلى موطنه ملطية في آسية الصغرى. اشترك في الثورة الأيونية (٥٠٠ – ٤٩٤ ق.م) وزار بلدانا عدة من بينها مصر، من مؤلفاته كتاب (حول الأرض) و(الأنساب) وقد نقل عنه هيرودوت كثيرا لكنه كثيرا ما يخالف رأيه وينتقده.

(٥٦) تيفون TYPHON ابن جايا تصوره الأساطير اليونانية في شكل تنين ضخم له أجنحة وفمه ينفث النار.

(٥٧) بان هو إله الغابات والمراعي في الأساطير الإغريقية.

(٥٨) تعددت الروايات في تحديد مكان مولد ونشأة ديونيسوس فبالإضافة إلى أثيوبيا هناك تراقيا وآسية الصغرى والهند.

(٥٩) اللابيرنت LABYRINTH أو قصر التيه ذو الممرات المتعددة . لقد

أظهرت الدراسات الأثرية حقيقة هذا المبنى الأسطوري وهو أنه عبارة عن معبد جنائزي من الحجر الجيري بني بقرب أمنمحات الثالث (١٨٤٢-١٧٩٧ق.م) (انظر معجم المصطلحات الأثرية ، محمد كامل صدقي). قلت وهذا هو قصر التيه المصري وهناك في الأساطير اليونانية قَصْرُ تيهٍ آخر بناه ديدالوس للملك مينوس ملك كريت ليجعل منه سجناً للوحش المسمى المينطور.

(٦٠) بحيرة موريس : بحيرة طبيعية يغذيها ماء النيل وهي أصغر بكثير مما ذكر هيردوت وتسمى اليوم «بركة قارون» وتقع في أقليم الفيوم. والمرجح أن موريس هو أمنمحات الثالث وليس أمنحوتب .

(٦١) عاش في القرن السابع ق.م.

(٦٢) انظر الخريطة رقم (٤).

(٦٣) انظر (٢-٥٦).

(٦٤) AZOTUS أسدود / أشدود مدينة على الساحل ورد ذكرها في التوراة ولعلها تقع بالقرب من عسقلان.

(٦٥) مجدو : مدينة قديمة كانت تقع على الجانب الشمالي من سلسلة جبال الكرمل بفلسطين (معجم المصطلحات الأثرية) محمد كامل صدقي، صفحة ٢٤٥).

(٦٦) هو إبسماتيك الثاني (٥٩٥ – ٥٨٩ ق.م)

(٦٧) ELEA دولة مدينية أغريقية قديمة في شمال غرب جزيرة البيلوبونيز عاصمتها إيليس . اشتهرت بالألعاب الأولمبية التي كانت تقام فيها.

(٦٨) قورينه. سبق ذكرها.

(٦٩) نصف ناتو : في شرقي الدلتا.

(٧٠) كل هذه المواضع فيما عدا طيبة كانت تقع في الدلتا (لمزيد من التوسع ، أنظر هردوت يتحدث/ خفاجة - بدوي، صفحة ٢٩٨).

(٧١) كورنث ، إحدى الدول المدينية اليونانية استعمرها الرومان عام ٤٤ ق.م . تقع على خليج يحمل اسمها على البحر الأيوني. انظر خريطة رقم (٥).

(٧٢) سايس هي صا الحجر وقد سبق ذكرها أما سيوف فكانت تقع بالقرب منها على وفق ما ورد في الخِطط التوفيقيه (انظر القاموس الجغرافي للبلاد المصرية لمحمد رمزي صفحة ٢٩٠).

(٧٣) امتدت فترة حكم أمازيس من عام ٥٧٠ حتى عام ٥٢٦ ق.م وكان معجباً بالإغريق وببلادهم كما يتضح مما ذكره هيرودوت.

(٧٤) هذا القول يصطدم بحقيقة أن حكم سولون (٥٩٤ - ٥٧٢ ق.م) وظهور تشريعاته كان قبل تولي أمازيس للحكم في مصر مما يوحي، اذا ما تذكرنا إعجاب أمازيس بالإغريق، بأن الأمر كان معكوساً وأنه كان ناقلاً لا منقولاً عنه مالم يكن ذلك التشريع كان معروفاً في مصر من قبل عصر أمازيس وهنا يستقيم الناقل لا المنقول عنه.

الكتاب الثالث

(١) يكرّس هيرودوت بداية هذا الكتاب للحديث عن فترة حكم قمبيز (٥٣٠-٥٢١ ق.م) ويمهد لذلك بشرح الأسباب التي دفعت الفرس لغزو

مصر. ولاشك أن قمبيز قد شارك أباه قورش في التخطيط والإعداد لذلك الغزو فهو ابنه الأكبر الذي حمل لقب ملك بابل في عهد أبيه بينما كان أخوه بارديا حاكما للجزء الشرقي من إيران. ثم يشرع هيرودوت في وصف الحملة على مصر ونجاح قمبيز في هزيمة أمازيس ملك مصر في معركة الفرما ودخول العاصمة المصرية ممفيس وذلك في عام ٥٢٥ ق.م. ثم يصف لنا هيرودوت الحملات الثلاث التي شنها قمبيز على كل من القرطاجيين والأثيوبيين والآمونيين وباءت جميعها بالفشل. فلم يستطع هزيمة القرطاجيين لتقاعس الفينيقيين. وهم العمود الفقري لقوته البحرية، عن مشاركته في محاربة أبناء جلدتهم القرطاجيين وكانت العواصف الرملية سبباً في فشل حملته على الآمونيين كما عاد من أثيوبيا بعد أن منّى نفسه بالذهب والمال راضياً بغنيمة الإياب وانعكس ذلك الفشل في سوء معاملته للمصريين أسَراً حاكمة ومحكومين. ثم يقحمنا هيرودوت في شرح للحرب الساموسية - اللاكيميديونيه، يعود بعده لوصف فترة التحول من حكم قمبيز الى حكم دارا الأول ومن ثمَّ يقدم لنا مسحاً شاملا لملكة دارا ثم يبدأ موضوع بحث مفصل مطول يستغرق بالإضافة الى ما شمله هذا الكتاب، الكتب الثلاثة التي تليه أي حتى بداية الكتاب السابع وذلك هو فترة حكم دارا الأول (٥٢١ - ٤٨٦ ق.م)

(٢) الأيوليون : إحدى القبائل الأربع الرئيسة التي تكون شعب الإغريق بالإضافة إلى الأيونيين والدوريين والآخيين ، سكن الأيوليون في AEOLIS أيوليس على الساحل الشمالي الغربي من آسية الصغرى.

(٣) كوريس : لا يوجد نهر بهذا الاسم.

(٤) أنظر (٢ – ٢٤).

(٥) نسبة إلى جزيرة ليسبوس في بحر إيجه ، انظر الخريطة رقم (٢).

(٦) كارباثوس : جزيرة في بحر إيجه بين كريت ورودس ، انظر الخريطة رقم (٢) .

(٧) الميسينيون : نسبة إلى مسينيا منطقة في شبه جزيرة البيلوبونيز تقع في الجنوب الغربي منها.

(٨) في الشمال الغربي من اليونان. انظر الخريطة رقم (٢).

(٩) نسبة إلى جزيرة باروس في بحر إيجه. انظر الخريطة رقم (٢).

(١٠) جرت هذه الأحداث في الفترة ٥٢٤ – ٥١٩ ق.م ولعل سبب هذه الحروب بين الإيجيين والساموسيين التنافس على احتكار أسواق مصر وليبيا.

(١١) ميجاري: نسبة إلى ميجارا مدينة يونانية تقع غرب أثينا شكلت في الفترة من القرن الثامن إلى القرن السادس ق.م. دولة مدينية بحرية مهمة أنشأت عدداً من المستعمرات من أهمها بيزنطة.

(١٢) أكبتانا هي عاصمة الميديين (حاليا همدان).

(١٣) الأوليجركية : حكم الأقلية.

(١٤) هنا يتضح من المعلومات المفصلة التي يقدمها هيرودوت بخصوص قصة السبعة أنه كان قد تلقى تلك المعلومات عن مصادر لها علاقة مباشرة بأحد السبعة وفي نقش دارا من بهيستون نجد هناك خمسة أسماء من أسماء السبعة تتفق مع ما أورده هيرودوت. وبوجه عام فإن

معلومات هيرودوت خصوصاً ما يتعلق بتفاصيل الحياة اليومية للأسرة المالكة ترجح حصوله عليها من أحفاد الطبيب الإغريقي ديموسيد الطبيب الخاص بالملك دارا.

(١٥) هذه المعلومات والقوائم التي يذكرها هيرودوت لا يمكن أن تكون مستقاه من السماع بل لابد أنه اطلع عليها من مصدر اغريقي سابق لعصره أو من مصدر مباشر معاصر له ثم أجرى عليها بعض التعديلات لتتناسب والمتغيرات التي تحدث من جراء الفارق الزمني واختلاف الأحوال الاقتصادية من عصرإلى آخر.

الكتاب الرابع

(١) يتناول هيرودوت في هذا الكتاب غزو دارا الأول لبلاد السكيث فيصف في البداية شعب السكيث وعاداته ثم يعدّد قبائله ثم يتحدث عن القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا ويعدد سكانها ثم يعود مرة أخرى للحديث عن السكيث وعاداتهم ثم يذكر تفاصيل حملة دارا على بلاد السكيث ويصف المعارك بين الفرس والسكيث،و يطرق موضوعاً جديداً حول قصة الإغريق سكان جزيرة ثيرا وهجرتهم إلى قورينه (شمات) في منطقة برقه بليبيا ويتحدث بالتفصيل عن ليبيا وطبيعتها وبلدانها وقبائلها وعاداتهم.

(٢) السكيث : قبائل غزاة قدموا في الأصل من جنوب روسيا وأقاموا بآسيه الصغرى منذ القرن السابع ق.م وصفهم هيرودوت وصفاً مسهباً اتسم بالدقة.

(٣) سبق ذكرهم ا نظر (١-٦)
(٤) هو مضيق جبل طارق.
(٥) أنظر الخريطة رقم (١) .
(٦) سبق ذكرها انظر (٢-٦٧).
(٧) نسبة إلى الفتاة (أوروبا) من مدينة صور الفينيقية التي أعطت اسمها للقارة على وفق الأسطورة . أنظر (١-١)
(٨) الهيلسبونت هو مضيق الدردنيل.
(٩) انظر الخريطة رقم (١).
(١٠) (٥٨٠-٥٠٠) عالم رياضيات وفيلسوف أسهم في تطور علم الهندسة.
(١١) الأمازونيات في الأسطورة اليونانية عبارة عن عصابة من النساء المحاربات.
(١٢) انظر الخريطة رقم (٤).

الكتاب الخامس

(١) يتناول هيرودوت في هذا الكتاب والذي يليه حملة دارا على أوروبا فيبدأ بوصف الدردنيل وبلاد تراقيه THRACIA والسيجناي على نهر الدانوب ثم مقدونيا ثم أيونيا ويتحدث عن الثورة الأيونية عام ٤٩٩ق.م. ثم عن تحرر أثينا من حكم الطغاة ثم ينتقل إلى موضوع الكتابة عند الإغريق واستخدامهم للأبجدية الفينيقية في أول الأمر (صفحة ٣٩٤ - ٣٩٥) ثم يذكر تاريخ أثينا (صفحة ٣٩٧ - ٤١٥) ثم مشاركتها

الأيونيين في محاربة الفرس وحرق ساردس عام ٤٩٧ ق.م ثم قيام الجيش الفارسي بمطاردة الأيونيين والأثينيين وإلحاق الهزيمة بهم فَيُعْرِض الأثينيون بعد ذلك عن مساندة الأيونيين ثم يشير (صفحة ٤٢٠ – ٤٢٢) إلى ثورة قبرص على الفرس وطلبها المساعدة من الأيونيين و تمكن الفرس بوساطة الفينقيين من إخماد تلك الثورة.

(٢) سبق ذكره، انظر ٢–٥٥

(٣) أفسوس : من المدن الأيونية وتقع على الشاطئ الغربي لبلاد ليديا بالقرب من مصب نهر كايجستر من أهم آثارها إستاد كبير ومعبد أرطاميس (لمزيد من التوسع انظر الموسوعة الأثرية العالمية ص٩١).

الكتاب السادس

(١) يواصل هيرودوت حديثه الذي بدأه في الكتاب الخامس عن حملة دارا الأوروبية فيشير (صفحة ٤٢٧–٤٢٨) إلى انضمام هيستيايوس طاغية ملطية للثورة ضد الفرس ثم يذكر هزيمة الأيونيين في لادي واستيلاء الفرس (صفحة ٤٣٧) ثم اخضاع إرتريا على يد ماردونيوس (صهر الملك دارا) عام ٤٩٠ ق.م. (صفحة ٤٩٠) و موقعة ماراثون التي انتصر فيها اليونانيون عام ٤٩٠ق.م ثم يذكر الحرب الإيجينيه – الأثينيه عام ٤٨٧ ق.م والتي انتهت بانتصار الأثينيين. و يعود إلى تفاصيل معركة ماراثون (صفحة ٤٦٨ – ٤٧٤).

(٢) هذا التحالف الفينيقي – الفارسي القوي لم يكن وليد الصدفة بل نتيجة مصالح اقتصادية وأسبابٍ منطقية فمن مصلحة الفينيقيين

القضاء على النشاط التجاري اليوناني عامة والأيوني خاصة مما يدعم النشاط التجاري الفينيقي كما أن من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الفرس عدم قيام قوة اقتصادية عظمى خارجة عن سيطرتهم قد يتعاظم أمرها وتبلغ أطماعها السياسية مبلغاً يهدد وجود الدولة الفارسية ذاتها. وهذا ما حدث لاحقاً في عهد الإسكندر الأكبر المقدوني.

(٣) كليومنس الأول صار ملكاً على أسبارطة بعد عام ٥١٨ق.م ومات عام ٤٨٩ ق.م وفي رواية أخرى عام ٤٩٠ ق.م. وهو عام معركة الماراثون.

الكتاب السابع

(١) يبدأ الكتاب السابع بذكر ردود فعل دارا ملك الفرس إزاء هزيمة الماراثون وتجهيزاته لإرسال حملة كبيرة إلى اليونان لكن دارا يموت عام ٤٨٦ ق.م فيخلفه ابنه احشويرش وتقوم ثورتان في مصر وبابل عام ٤٨٠ق.م . تعرقل خطة الانتقام من اليونان إزاء معركة الماراثون وحريق سارديس.

بعدها يصف (صفحة ٤٩٩-٥٠٢) عمليات التجهيز والبناء لقناة جبل آتوس. ثم وصف لسير الجيوش، واستعدادات الإغريق وانتخاب إسبارطة بما لها من قوة عسكرية لتتزعم حلفاً دفاعياً ضم نحو إحدى وثلاثين مدينة إغريقية في مؤتمر كورنثه عام ٤٨١ ق.م (صفحة ٥٤١-٥٤٤). ثم يذكر توجه أصحاب الحلف إلى جيلون حاكم صقليه ليطلبوا منه الانضمام إليهم (صفحة ٥٤٥-٥٤٩)،و موقف الكريتيون واستطراده حول تاريخ

كريت (ص٥٥٣).

(٢) ولد احشويرش في عام ٥١٨ ق.م ولعله كان آخر ذلك الطراز من ملوك الدولة الأخمينية الذين قادوا الجيوش بأنفسهم وخاضوا المعارك لكن حملاته على اليونانيين لم تتكلل بالنجاح رغم مهاجمته أثينا وإحراقها فأسطوله البحري تلقى هزيمة قاسية في معركة سيلاميس في عام ٤٨٠ ق.م أعقبتها هزيمة جيشه البريّ في معركة بلاطيه في عام ٤٧٩ق.م فانكفأ أحشويرش على مملكته وركز على بناء المعابد والمدن وقد امتدت فترة حكمه قرابة نصف قرن أي حتى عام ٤٦٥ ق.م.

(٣) لاشك أن هذا الرقم مبالغ فيه.

(٤) ديدالوس وقصر التيه المذكور في الأساطير اليونانية قد سبقت منا الإشارة إليه انظر (٢-٥٩).

الكتاب الثامن

(١) يبدأ الكتاب الثامن ومن دون تمهيد بوصف المواجهات البحرية بين الفرس واليونان عند رأس أرتمسيوم في أقصى الشمال الشرقي لجزيرة بيوبيا (انظر الخريطة رقم ١٠) وفي تلك المعركة البحرية أظهر تميستوكليس القائد الإغريقي كفاءة عالية وفي الوقت نفسه كانت هناك معركة حامية الوطيس تجري بين الجانبين اليوناني والفارسي في ترمو بلاي ثم يأتي وصف التوغل الفارسي داخل بيوبيا وتصدي اليونانيين لهم عند دلفي ، بعدها يتناول معركة سلاميس التي خسرها الفرس وقرر احشويرش على إثرها العودة إلى آسية الصغرى عبر مضيق الدردنيل.

الكتاب التاسع

(١) يركز هيرودوت في هذا الكتاب على بسط تفاصيل معركتي بلاطية وموكالي في عام ٤٧٩ق.م بين الفرس واليونانيين. إذ إنه حتى ربيع ذلك العام لم تكن هناك مؤشرات واضحة على أن الإغريق سيتمكنون من طرد الفرس من أوروبا، يعرض هيروديت في البداية قيام القائد الفارسي ماردونيوس باحتلال أثينا. ثم زحف الإسبارطيين نحوها ثم انسحاب ماردونيوس منها والاتجاه شمالا عند بلاطية ثم يُفَصِّل سير المعركة بين الجانبين وتمكن الإغريق من إلحاق الهزيمة بالفرس وقتل قائدهم ماردونيوس وانسحاب الجيش الفارسي وعودته إلى بلاده كما يتناول معركة موكالي فيشير إلى وضع الأيونيين تحت سيطرة الفرس في ظل وجود الأسطول الفارسي عند جزيرة ساموس. ويبين هيرودوت أنه كان لدى الأثينيين رغبة في تحرير أيونيه من أيدي الفرس ويعرض بالتفصيل تحرك الأسطول اليوناني من أثينا وتوجهه نحو ساموس ثم انسحاب الأسطول الفارسي إلى الشاطئ المقابل لسفح جبل موكالي حيث تدور المعركة بين الأسطولين وتنتهي بعد مركة حامية شارك فيها الأيونيون بتدمير سفن الفرس وهزيمتهم وطرد حكامهم من المدن الأيونية كافة .

أهم المصادر التي اعتمدت في كتابة الحواشي:

١- د. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، دار النهضة العربية.

٢- د. عاصم أحمد حسين، المدخل إلى تاريخ وحضارة اليونان ، مكتبة نهضة الشرق.

٣- د. حسين الشيخ، اليونان ، دار المعرفة الجامعية.

٤- د. سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي، تاريخ الشرق الأدنى القديم.

٥- فرانسو شامو، الإغريق في برقة، ترجمة د. محمد عبد الكريم الوافي.

٦- د. رجب عبد الحميد الأثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم ، جامعة بنغازي .

٧- فرانسو ديكريه / قرطاجه / دار الأهالي.

٨- رائف العابد / دراسات في تاريخ الإغريق.

٩- أ.هـ.م جونز، مدن بلاد الشام.

١٠- د. محمد صقر خفاجه، هيردوت يتحدث عن مصر.

١١- محمد رمزي ، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية.

١٢- نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث.

١٣- محمد كامل صدقي / معجم المصطلحات الأثرية، جامعة الملك سعود، الرياض

١٣- The Cambridge History of Iran, The Median and Achaemenian Periods

كشاف الأعلام

أ

ب

ش

ص

ط

ف

ل

م

ن

كشاف الأماكن

آ

ج

د

ز

س

ش

ص

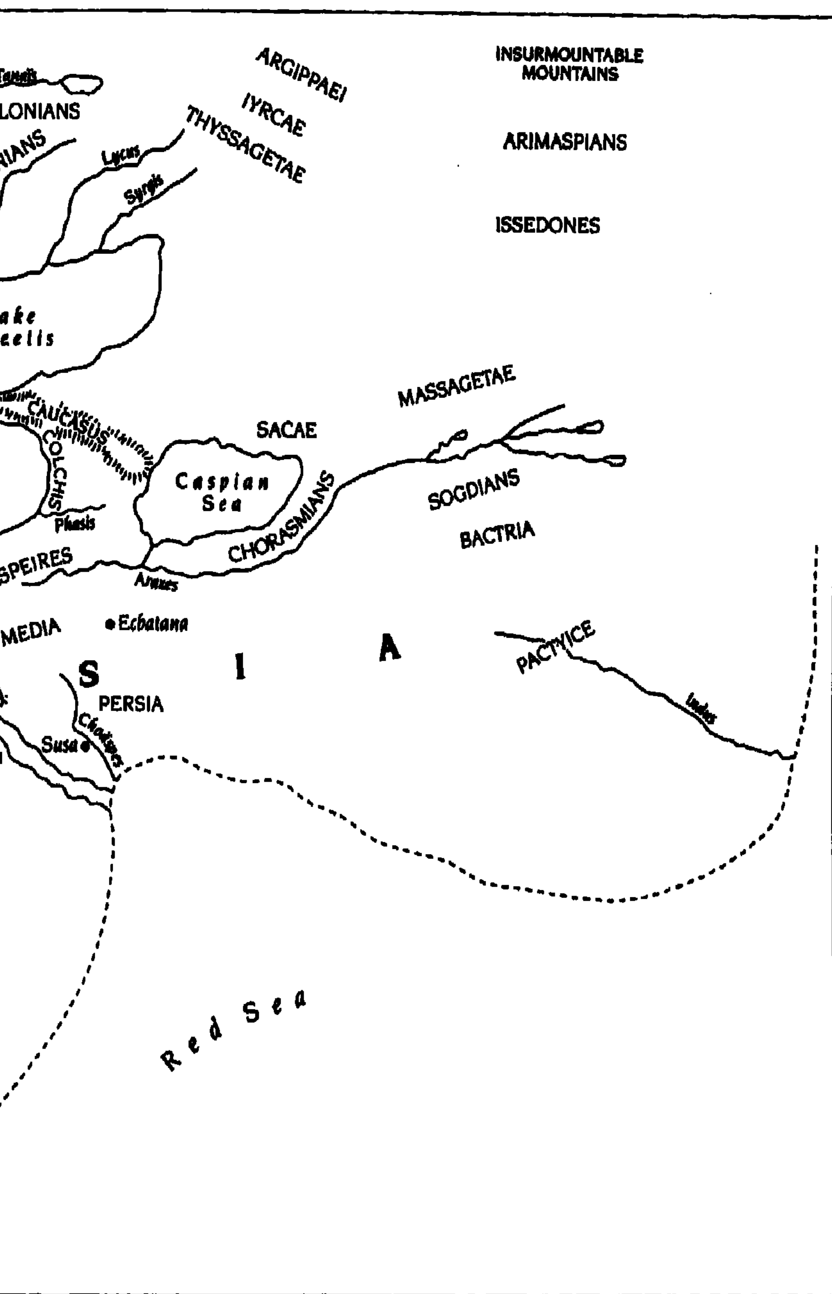
ط

م

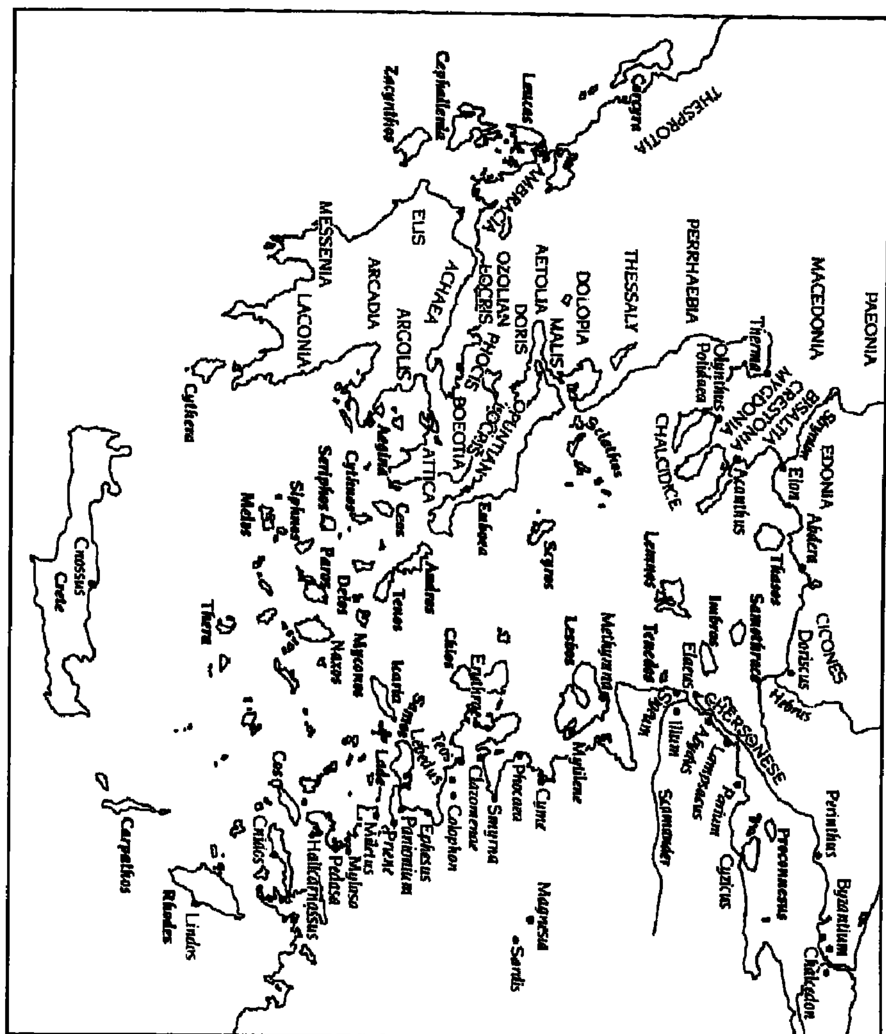
ن

هـ

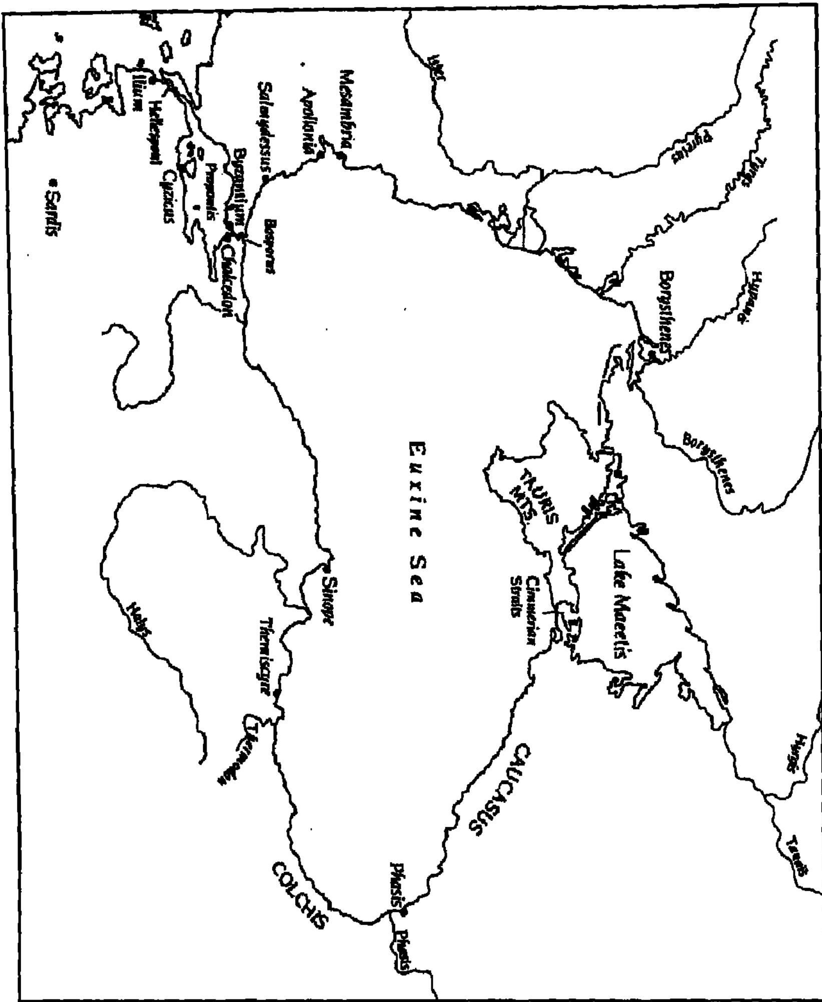
ملحق الخرائط


ARGIPPAEI
INSURMOUNTABLE MOUNTAINS
IYRCAE
THYSSAGETAE
ARIMASPIANS
ISSEDONES
Lycus
Syrgis
MASSAGETAE
CAUCASUS
SACAE
COLCHIS
Caspian Sea
SOGDIANS
Phasis
CHORASMIANS
BACTRIA
Araxes
MEDIA
Echbatana
S
I
A
PACTYICE
PERSIA
Susa
Choaspes
Red Sea

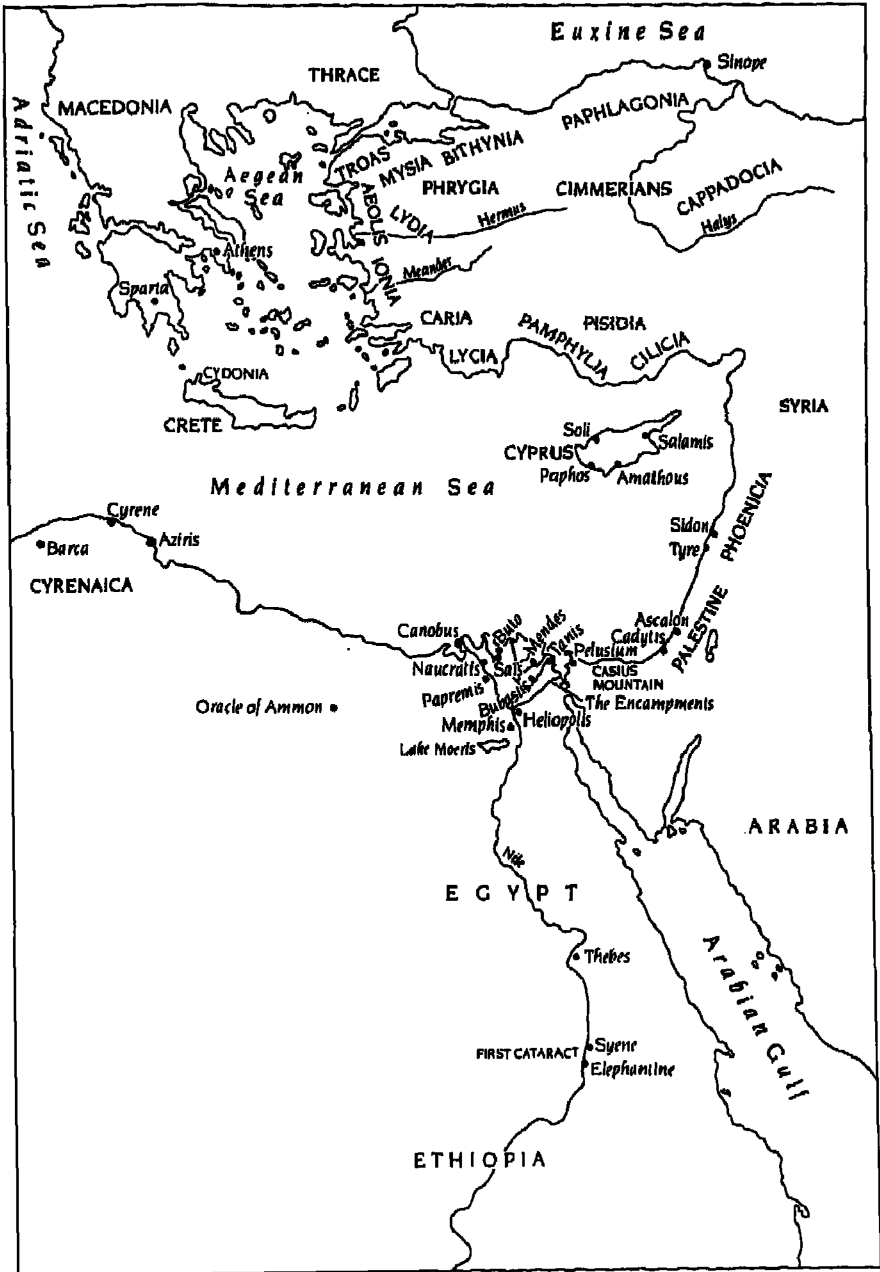
خريطة رقم (١)



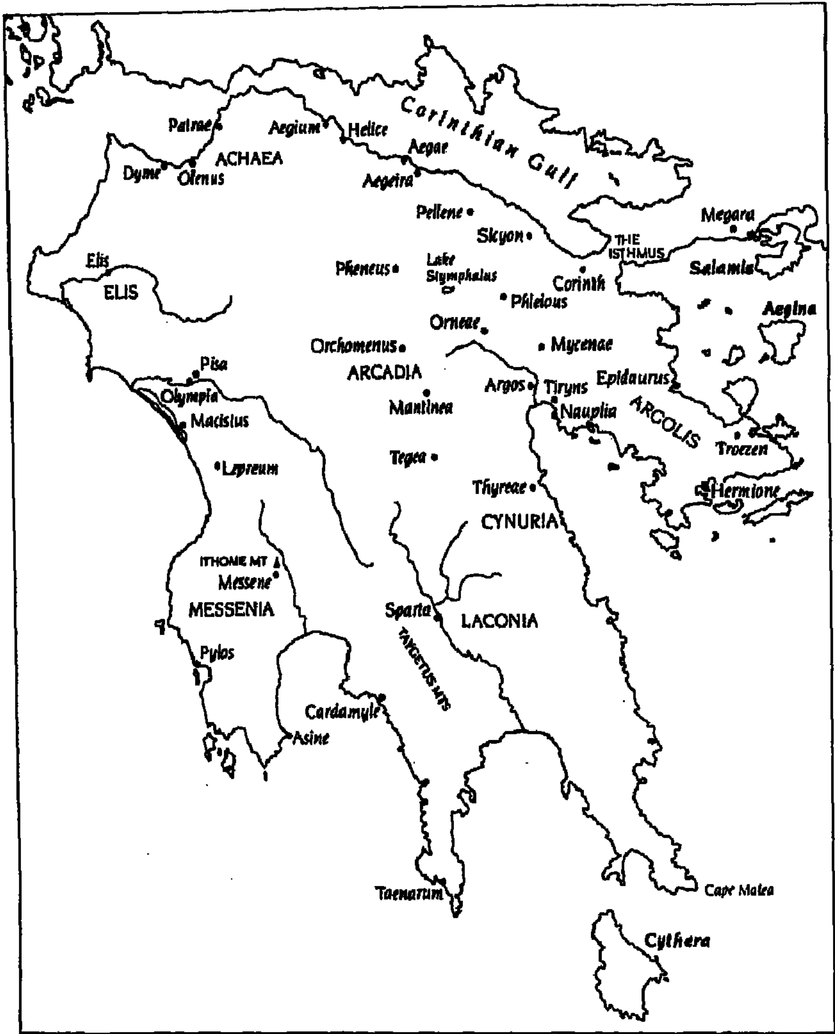
خريطة رقم (٢)
اليونان وبحر إيجه



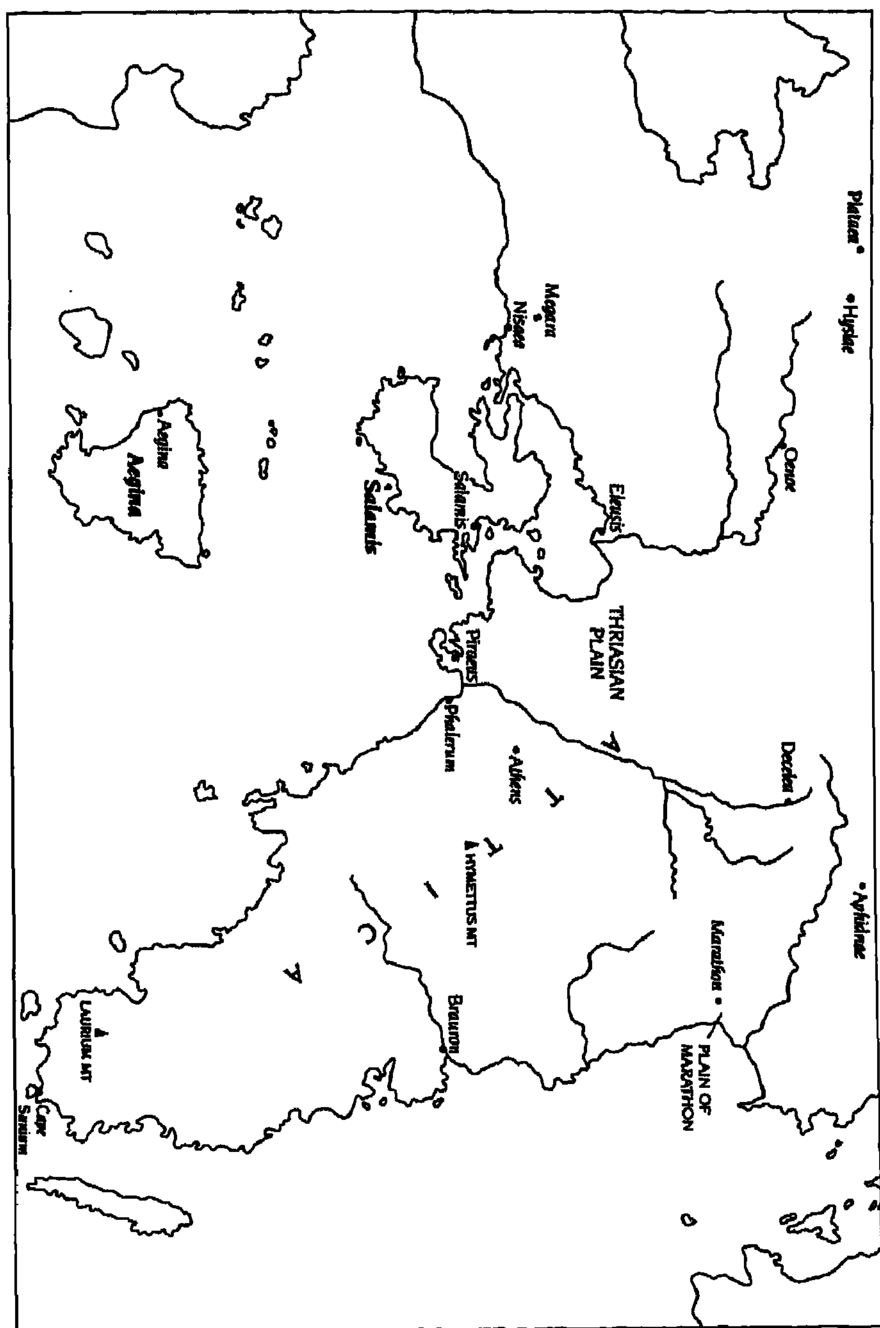
خريطة رقم (٣)
منطقة البحر الأسود



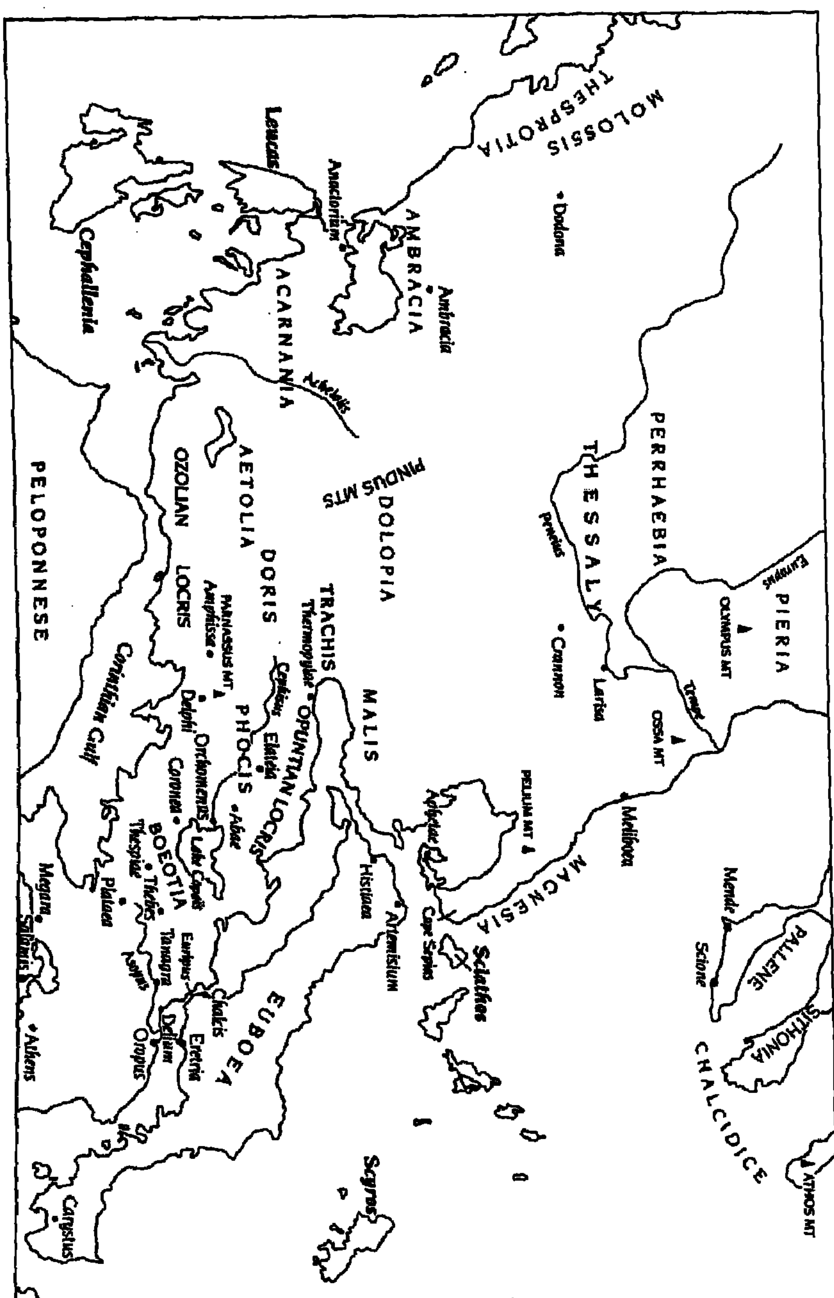
خريطة رقم (٤)
مصر وقورينه والشرق الأوسط



خريطة رقم (٥)
شبه جزيرة البيلوبونيز

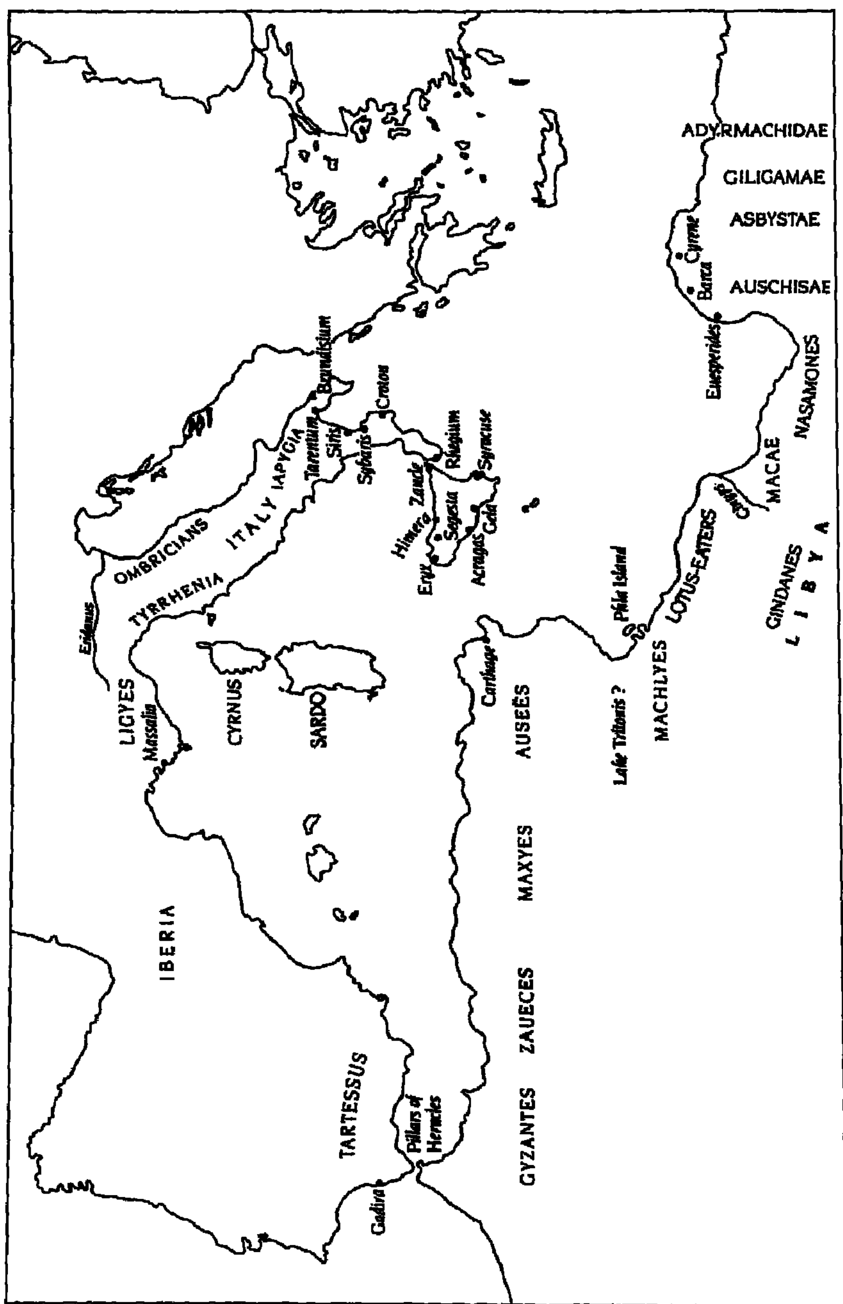


خريطة رقم (٦)
شبه جزيرة أتيكا



خريطة رقم (٧)
وسط وشمال اليونان

خريطة رقم (٨)
امبراطورية فارس



خريطة رقم (٩)
غربي البحر الأبيض المتوسط

خريطة رقم (١٠)

الحروب الفارسية

المحتويات

طبعت لدى شركة ابوظبي للطباعة والنشر

هذا الكتاب

يُعدُّ كتاب تاريخ هيرودوت البداية الأولى المعروفة في التأريخ البشري للأحداث، وقد حفل هذا السفر العظيم بالكثير من الوقائع والأحداث الممتدة على مساحة مترامية الأطراف في اليونان وفارس ومصر والشام وبلاد العرب، وكان مؤلفه شاهدا على كثير منها وراويا لأحداث أخرى من أفواه مشاهديها ومعاصريها.

لذلك يقدم المجمع الثقافي هذا الكتاب الهام كاملا - مترجما ومراجعا علميا - باكورة المؤلفات التاريخية الكلاسيكية التي يحاول تقديمها للقارئ العربي بعد أن كانت مقصورة على الباحثين المتخصصين.



منشورات المجمع الثقافي

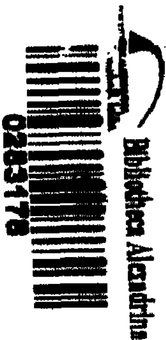
Cultural Foundation Publications

ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ ص. ب 2380 ـ هاتف : 6215300

ABU DHABI - U.A.E. - P.O. BOX : 2380 - TEL. 6215300 Cultural Foundation

http://WWW.Cultural.org.ae

[illegible] درهما



الغلاف : علي الوالي سعيد